المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

ذات يوم فى مصر

تأليف: نخبة

ترجمة: على فهمى عبد السلام

أنور محمد إبراهيم

مراجعة: أوليج إفانوفيتش فومين

1824





يمثل وجود العسكريين السوفييت في مصر للكثيرين حقيقة غير عادية حدثت منذ ثلاثين عاما مضت، حيث لم يتم إلقاء الضوء عليها كثيرا في الصحافة، و يتم أحيانا الإشارة إليها من أجل محاولة إثارة الشك حول السياسة الخارجية لبلدنا في ذلك الوقت أو حول وضع قواتنا المسلحة. وعلى الرغم من ذلك، فإن الوجود العسكري السوفييتي في مصر لعدة سنوات، فى نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، قد لعب دورا كبيرا في مساندة الشعب المصري الصديق والشعوب العربية الأخرى في نضالها من أجل الاستقلال. ولكن حقق عسكريونا أيضا أحد أهداف توفير الأمان لبلدنا في مواقع بعيدة عنها. و قد نفذ كل من الجنود؛ والصف الأول من القادة، والضباط، والجنرالات تكليفات بلدهم لهم بشرف ومقدرة عالية، في ذلك الوقت الصعب، والذي مثل ذروة اشتعال "الحرب الباردة". و حيث إن عمل العسكريين السوفييت في مصر كان يتسم بما يمكن أن يطلق عليه دون مبالغة "أهمية عالمية"، فإنه من الضروري أن يتم إلقاء الضوء باختصار على بعض سمات الوضع التاريخي، في ذلك الزمن.

تصميم الغلاف: محمد البرماوي

ذات يوم... فى مصر

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1824
- ذات يوم فى مصر
- نخبة
- على فهمى عبد السلام، وأنور محمد إبراهيم
- أوليج إفانوفيتش فومين
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة كتاب:

ТОГДА В ЕГИПТЕ

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤- ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

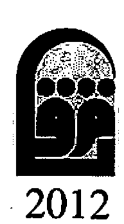
ذات يوم... فى مصر

تــأليف: نخبة

ترجمة: على فهمى عبد السلام

أنــور مــحمد إبــراهيم

مراجعة: أوليج إفانوفيتش فومين



2012

ذات يوم فى مصر/ تأليف: نخبة؛ ترجمة: على فهمى عبد السلام، أنور محمد إبراهيم؛ مراجعة: أوليج إفانوفيتش فومين. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠١١.

٥٠٤ص ؛ ٢٤ سم.

تدمك ١ ٠٠٩ ٢٠٧ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ مصر ـ الأحوال السياسية.

أ ـ عبد السلام، على فهمى. (مترجم)

ب ـ إبراهيم، أنور محمد. (مترجمة مشارك)

ج ـ فومين، أوليج إفانوفيتش. (مراجع)

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٨٠/ ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 207- 009 - 1

ديوى ٣٢٠,٩٦٢

المحتويات

تقديم

كما يقول المؤرخ العسكرى الكبير أ. جمال حماد فى كتابه "من سيناء إلى الجولان": "فإنه بانتصار المؤسسة العسكرية الإسرائيلية قمة انتصاراتها بهزيمتها لثلاثة جيوش عربية فى ستة أيام، نجحت فى تدمير الجزء الأكبر من أسلحتها ومعداتها... ولقد حقق الاحتلال الإسرائيلى لشبه جزيرة سيناء وهضبة الجولان ومنطقة الحمة السورية مكسبًا استراتيجيًا لإسرائيل لا يمكن زواله ما دامت قواتها العسكرية تحتل هذه الأراضى... وعقب هزيمة العرب عسكريا فى الجولة الثالثة بينهم وبين إسرائيل فى ١٩٦٧ أصبحت المبادرة الإسرائيلية فى منطقة الشرق الأوسط ـ لا شك ـ فى يد إسرائيل، وتحطمت تبعا لذلك الجهود الدولية كافة التى بذلت للوصول إلى حل للأزمة ترتضيه أطراف النزاع كافة بسبب إصرار إسرائيل على جنى الثمار السياسية لنصرها العسكرى... هذا ولم تقف الدول العربية الثلاث التى احتلت أجزاء من أراضيها ساكنة بل بدأت على الفور فى اتباع خطين استراتيجيين أساسيين سارا على التوازى، جنبا إلى جنب، لمدة تزيد على ست سنوات، وهما: الخط العسكرى: لاسترداد الأرض السليبة بالقوة عن طريق معركة عسكرية شاملة، والخط السياسى عن طريق الجهود الدولية وتدخل القوتين العظميين ـ الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة ـ تدخلا مؤثرا لتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الذى يدعو إسرائيل إلى الانسحاب من الأراضى العربية التى احتلتها فى النزاع الأخير... وبدأت هذه الدول العربية ـ وبخاصة مصر وسوريا ـ فى إعادة بناء جيوشها ودعم فعالية قواتها وتنمية قدراتها على الصمود، بمعاونة الاتحاد السوفييتى الذى أسهم بدور فعال فى سبيل تحقيق هذا الغرض بإمداده مصر وسوريا بالأسلحة والمعدات والأجهزة المتطورة فضلا عن الخبراء والمستشارين السوفييت...".

ويقول اللواء محمد عبد الغنى الجمسى رئيس هيئة العمليات فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى مذكراته أنه فى يوم ٢١/ ٦/ ١٩٦٧ وصل إلى مصر الرئيس السوفييتى بودجورنى يرافقه وفد عسكرى برئاسة المارشال زاخاروف رئيس أركان حرب القوات المسلحة السوفييتية لإظهار التأييد السياسى لمصر وبحث المطالب من الأسلحة والمعدات لإعادة بناء الجيش، وقد ظل المارشال زاخاروف فى مصر لمدة شهر تقريبا لتقديم المعاونة فى تنظيم القوات ورفع كفاءتها القتالية بالتعاون الوثيق مع القائد العام للقوات المسلحة تحت الاشراف المباشر للرئيس.

كما يقول محمود رياض وزير الخارجية فى تلك الفترة فى مذكراته أن المباحثات قد بدأت فى يوم ٢٧/ ٦/ ١٩٦٧ وحضرها كل من الرئيس بودجورنى والمارشال زاخاروف والسفير السوفييتى بالقاهرة عن الجانب السوفييتى، بينما كان مع عبد الناصر كل من السيد زكريا محيى الدين والسيد على صبرى والفريق أول محمد فوزى بالاضافة إلى الوزير محمود رياض. وكانت هذه الجلسة تمثل مرحلة جديدة من العلاقات المصرية السوفييتية أدت بعد ذلك إلى وجود سوفييتى فى مصر وفى أماكن أخرى بالعالم العربى... وكان الوجود السوفييتى يتزايد كلما زاد الدعم العسكرى الأمريكى لإسرائيل... وقد طلب عبد الناصر فى هذه الجلسة تزويد مصر بطائرات قاذفة مقاتلة بعيدة المدى حتى لا تبقى إسرائيل متفوقة علينا وقادرة على ضربنا بينما لا نستطيع الرد عليها... وطالب عبد الناصر بسرعة إرسال الطائرات حيث يوجد لدينا طيارون بلا طائرات..و كان الرئيس عبد الناصر يفضل أن يكون ذلك فى إطار دفاع مشترك مصرى - سوفييتى، وبذلك يشترك ضباطنا وجنودنا فى الدفاع الجوى معا وهو ما يؤدى إلى اكتسابهم الخبرة من الكوادر السوفييتية. وكان رأى بودجوردنى أن الأنسب هو أن يكون الدفاع الجوى مصريا على أن تقدم له مساعدات سوفييتية.

وفى سبتمبر عام ١٩٦٨ بدأت مصر القصف المدفعى على مواقع إسرائيل بالضفة الشرقية لقناة السويس بهدف عدم السماح لإسرائيل بتحويل خطوط المواجهة إلى خطوط دائمة. فجاء رد إسرائيل بإغارة طائراتها على الأهداف الحيوية فى عمق مصر فأصدر عبد الناصر أوامره بوقف حرب الاستنزاف، ثم استؤنفت بعد ذلك فى مارس ١٩٦٩ بعد وضع قوات شعبية خاصة لحراسة

الأهداف الحيوية، وفى تلك الفترة بنت إسرائيل خط بارليف المحصن على طول الضفة الشرقية لقناة السويس. ثم بدأت إسرائيل فى استخدام الطائرات الفرنسية والأمريكية الحديثة للإغارة فى العمق على بعض الأهداف، ولم تتمكن شبكة الدفاع الجوى المصرية من التصدى لها، حيث يشير الأستاذ جمال حماد فى كتابه "من سيناء إلى الجولان" كانت سياسة القادة السوفييت تقتصر على مجرد تدعيم القوة الدفاعية لمصر دون إعدادها بشكل حقيقى لحرب هجومية من أجل تحرير الأراضى المغتصبة.

ويقول اللواء محمد عبد الغنى الجمسى رئيس هيئة العمليات بحرب أكتوبر ١٩٧٣ فى مذكراته أن الرئيس عبد الناصر استشعر خطورة الموقف منذ بدأت إسرائيل فى قصف الأهداف المدنية فى عمق الدولة، حيث أغارت الطائرات الإسرائيلية فى يناير ١٩٧٠ على مناطق التل الكبير وإنشاص ودهشور وبعض مدن الدلتا، ثم وجهت إسرائيل هجماتها الجوية فى فبراير إلى منطقتى أبوزعبل وحلوان. وكانت الخسائر المصرية فى منطقة أبو زعبل حوالى ٧٠ شهيدا من المدنيين. وفى أبريل أغارت الطائرات الإسرائيلية على مدرسة بحر البقر حيث استشهد حوالى ٣٠ تلميذا. فسافر عبدالناصر فى يوم ٢٢ يناير ١٩٧٠ إلى موسكو وظل بها حتى يوم ٢٥ لشرح الموقف للاتحاد السوفييتى مطالبا بأسلحة ومعدات دفاع جوى من صواريخ وطائرات ورادارات أكثر تقدما مما كان متيسرا لدينا فى ذلك الوقت.

وقد روى الفريق أول محمد فوزى ١٩٧٠ الذى رافق الرئيس عبد الناصر فى هذه الزيارة ومعه لجنة عسكرية فى كتاب حرب السنوات الثلاث ١٩٦٧ حتى أن الرئيس عبد الناصر قد تعمد تصعيد المباحثات وتوتيرها لدرجة تهديده أمام القادة السوفيت بترك الحكم لزميل آخر يمكنه التفاهم مع الولايات المتحدة الأمريكية..و استرسل الرئيس عبد الناصر فى طلب وحدات كاملة من صواريخ سام ٣ بأفرادها السوفييت وأسراب كاملة من طائرات الميج ٢١ المعدلة بطيارين سوفييت وأجهزة رادار متطورة للإنذار والتتبع بأطقم سوفييتية. وبرر الرئيس عبد الناصر ذلك بأن الزمن ليس فى صالحنا لأن تدريب الأطقم المصرية والطيارين المصريين على الأسلحة الجديدة سوف يستغرق وقتًا طويلاً. كما كرر

الرئيس طلب طائرات قاذفة لردع إسرائيل؛ حيث إن مدى عمل الطائرات القاذفة المقاتلة الموجودة لدينا لا يمكنها الوصول إلى عمق إسرائيل مثل طائرات سكاى هوك والفانتوم التى تضرب عمق مصر حاليا.

وفى جلسة المباحثات الختامية فى يوم ٢٥ يناير ١٩٧٠ أعلن بريجنيف أن القيادة السوفيتية (اللجنة المركزية ومجلس السوفييت الأعلى) قد وافقت على طلب الرئيس عبد الناصر وأضاف أن هذه هى أول مرة يخرج فيها جندى سوفييتى من الاتحاد السوفييتى إلى دولة صديقة منذ الحرب العالمية الثانية.

وقد ذكر الفريق الشاذلى فى تقييمه للمساعدات العسكرية لمصرفى مؤلفه "حرب أكتوبر": "إن حجم الأسلحة التى كانت تحت يد القوات المسلحة صبيحة السادس من أكتوبر قبل حرب أكتوبر١٩٧٣ كان يفوق ما لدى الكثير من دول حلف وارسو، بل كانت قواتنا البرية تتفوق على كل من فرنسا وإنجلترا فى البرية... فبالنسبة القوات البرية فهى كانت مجهزة بعدد ١٧٠٠ دبابة، و٢٠٠٠عربة مدرعة، و٢٥٠٠ مدفع هاون، و٧٠٠ قاذف صاروخى موجه، و١٩٠٠ مدفع مضاد للدبابات، و٥٠٠٠ أر. بى. جى، وعدة آلاف من القنابل اليدوية المضاده للدبابات. أما القوات الجوية فكانت مسلحة بعدد٣٠٥ طائره مقاتلة (ترتفع إلى ٤٠٠ لو أضفنا طائرات التدريب)، و٧٠ طائرة نقل، و١٤٠ طائرة هليكوبتر. أما قوات الدفاع الجوى فكان لديها ١٥٠ كتيبة صواريخ سام، و ٢٥٠٠ مدفع مضاد للطائرات من عيار ٢٠ مللم فما فوق. والقوات البحرية كان عندها ١٢ غواصة، و٥ مدمرات، و٣ فرقاطات، و١٧ قارب صواريخ، و٣٠ قارب طوربيد، و١٤ كاسحة آلغام... فى خلال الحرب قام الاتحاد السوفييتى بإقامة أكبر جسر جوى فى تاريخه الحربى إلى مصر وسوريا خلال تنفيذ ٩٠٠ رحلة جوية بواسطة طائرات أنتنوف ٢٢ نقل خلالها ١٥٠٠ طن من المعدات الحربية إلى الدولتين. وعلى الرغم من أن هذا الكوبرى لم يكن معداً له من قبل وعلى الرغم من أنه بدئ فيه على عجالة بعد ٣ أيام من بدء العمليات وهو السبب الذى أدى إلى ظهور الكثير من الثغرات والأخطاء فى هذا الكوبرى نتيجة اختلاف معدلات الاستهلاك السابقة بين حرب أكتوبر ومعدلات الاستهلاك فى الحروب السابقة الأخرى... إلا أنه بلا شك أن هذا الكوبرى يعتبر مفخرة لكل من الاتحاد السوفييتى من حيث الحجم والسرعة

والكفاءة فى التنفيذ والتخطيط وفى نفس الوقت لكل من مصر وسوريا من حيث السرعة فى الفرز والتفريغ والدفع إلى الجبهة بالنسبة إلى هذا الحجم الكبير من الإمدادات وعلاوة على الكوبرى الجوى فقد قام السوفييت بعملية نقل بحرية واسعة النطاق بلغت حتى وقف إطلاق النار ٦٣٠٠٠ طن من المعدات الحربية... أما كيف كانت مصر تسدد ثمن الأسلحه المشتراة من الاتحاد السوفيتى، فقد اتفق عبد الناصر مع السوفيت على أن يتم دفع ثمن الأسلحة والمعدات التى تشتريها مصر من الاتحاد السوفييتى على النحو التالى: أولا: يقوم الاتحاد السوفييتى بخصم ٥٠٪ من قيمة السلاح الذى يبيعه إلى مصر. ثانيا: يقوم الاتحاد السوفييتى بإقراض مصر قرضا يغطى ثمن السلاح الذى تشتريه مصر (بعد خصم ال ٥٠٪) ويتم دفع هذا القرض على أقساط سنوية لمدة ١٠ ـ ١٥ سنة بفائده ٢٪ و يتم سداد القسط الأول بعد فتره سماح طويلة. ونظرا لأن السلاح الروسى ـ قبل أى خصم أى نسبة من ثمنه ـ يعتبر رخيصا بالنسبه للسلاح الغربى ويمكن القول بأنه فى حالة تعادل الخصائص فى السلاح السوفييتى مع السلاح الغربى فإن ثمن السلاح السوفيتى يصل إلى ٥٠٪ من ثمن السلاح الغربى فإذا خصمنا ٥٠٪ من هذا الثمن فأن هذا يعنى أن مصر تشترى السلاح بما يوازى ٢٥٪ من ثمنه فى السوق العالمية علاوة على ذلك فان مصر تسدد الثمن بالجنيه المصرى وبالتقسيط المريح. وتطبيقا لهذا الاتفاق فإن مصر كانت تشترى الطائرة الميج ٢١ بمبلغ ٢٥٠ ألف جنيه مصرى والدبابة ت ٥٥ بمبلغ ٥٥٠٠٠ جنيه. كان الوفد المكلف بعقد الصفقة يسافر إلى موسكو وليس معه دولار واحد فيوقع مثلا على صفقة من الأسلحة قيمتها ـ طبقا للأسعار العالمية ـ ١٠٠٠ مليون دولار ثم يوقع على قرض بحوالى ٢٥٠ مليون دولار يدفع بالتقسيط على ١٠ ـ ١٥ سنة بفائده ٢٪ يتم سداده بالجنيه المصرى أو بأية أصناف يمكن لمصر تصديرها".

إن الخلافات والانتقادات التى توجه لبعض سياسات الاتحاد السوفييتى السابق وخاصة فيما يتعلق بنظامه الشمولى وسياسته الخارجية لا يجب أن تغطى على الاعتراف بحق هذا البلد فى التقدير والامتنان على موقفه المبدئى لمساندة العرب فى صراعهم مع إسرائيل، ودعمه لهم فى مختلف المجالات سواء كانت سياسية أو عسكرية أو اقتصادية طوال ما يقرب من أربعة عقود، إلى أن

واجه الاتحاد السوفييتى نفسه مشاكل لم يقدر على تجاوزها فانهار فى عام ١٩٩١، و على دوره فى دعمه العسكرى الذى مثل أحد العوامل الرئيسية فى تحقيق نصر حرب أكتوبر عام ١٩٧٣.

وليس هناك أدل على حجم النصر الذى حققه الجيش المصرى والجيوش العربية فى هذه الحرب باستخدامها السلاح السوفيتى بعد أن تدربت عليه على أيدى المستشارين والخبراء العسكريين السوفييت بالإضافة إلى حسن التخطيط والتمويه وبسالة المقاتلين وشراستهم وعزيمتهم القوية وروحهم المعنوية العالية من شهادة القادة الإسرائيليين أنفسهم وما كتبته الصحافة الغربية عن هذه الحرب:

- شهادة رئيسة وزراء إسرائيل فى أثناء الحرب "جولدا مائير": "إن المصريين عبروا القناة وضربوا بشدة قواتنا فى سيناء، وتوغل السوريون فى العمق على مرتفعات الجولان، وتكبدنا خسائر جسيمة على الجبهتين... و كان السؤال المؤلم فى ذلك الوقت هو ما إذا ما كنا نطلع الأمة على حقيقة الموقف السيئ أم لا... إن الكتابة عن حرب يوم الغفران لا تمثل تقريرا عسكريا ولكنها كانت كارثة قريبة أو كابوسا مروعا قاسيت منه أنا نفسى وسوف يلازمنى مدى الحياة".

- شهادة وزير الدفاع الإسرائيلى "موشى ديان" فى يوم ٩/ ١٠/ ١٩٧٣: "إن الحرب قد أظهرت أننا لسنا أقوى من المصريين، وأن حالة التفوق والمبدأ السياسى والعسكرى القائل بأن إسرائيل أقوى من العرب وأن الهزيمة ستلحق بهم لم يثبت. لقد كانت لى نظرية هى أن إقامة الجسور ستستغرق منهم الليل بطوله، وأننا نستطيع منع هذا الأمر بمدرعاتنا ولكن تبين لنا أن منعهم ليس مسألة سهلة. ولقد كلفنا إرسال الدبابات إلى جبهة القتال ثمنًا غاليًا جدًا. فنحن لم نتوقع ذلك مطلقا". وفى تصريح له بتاريخ ٨ أكتوبر ١٩٧٣ قال:"إن خط بارليف كان مثل الجبن السويسرى فيه من الثقوب أكثر مما فيه من السدود. إننا لم نفرح عندما حطمنا مئات الدبابات، ولكن عندما سقطت خطة استحكاماتنا وفقدنا ٣٠ دبابة فى عملية واحدة أصيبت الأمة الإسرائيلية كلها بذهول". ثم أضاف فى تصريح آخر فى ديسمبر ١٩٧٣ "أن حرب أكتوبر كانت بمثابة زلزال تعرضت له إسرائيل وأن ما حدث فى هذه الحرب قد أزال الغبار عن العيون وأظهر ما لم نكن نراه قبلها. وأدى كل ذلك إلى تغييرعقلية القادة الإسرائيليين".

ـ وجاء فى مذكرات حاييم هيرتزوج رئيس دولة إسرائيل الأسبق: "إن حرب أكتوبر انتهت بصدمة كبرى عمت الإسرائيليين ولم يعد موشى ديان كما كان من قبل وانطوى على نفسه منذ ذلك الحين. لقد كان دائما على قناعة بأن العرب لن يهاجموا وليس فى وسعهم أن يهاجموا وحتى فى غمرة الاختراق المصرى لم يعترف ديان بخطأ تحليلاته. لقد أصبح ديان شخصية على طراز هاملت، عرف التردد والشك والعجز عن إنجاز القرار وفرض إرادته، وكانت تلك الحرب بداية النهاية لحكومات حزب العمل التى حكمت إسرائيل لمدة خمس وعشرين سنة حتى ذلك الحين، تماما مثلما كانت الحرب سببا فى إحداث تغييرات فكرية فى عملية القيادة الإسرائيلية التى بدأت تبحث عن طريق جديد وسياسة واقعية فى التعامل مع المشكلة عبر الحلول السياسية".

ومن أقوال الصحف العالمية والإسرائيلية عن تلك الحرب:

ـ صحيفة الديلى تلغراف البريطانية فى ٧/ ١٠/ ١٩٧٣: "لقد غيرت حرب أكتوبر ـ عندما اقتحم الجيش المصرى قناة السويس واجتاح خط بارليف ـ مجرى التاريخ بالنسبة لمصر وبالنسبة للشرق الأوسط بأسره".

ـ صحيفة الديلى ميل البريطانية فى ١٢/ ١٠/ ١٩٧٣: لقد محت هذه الحرب شعور الهوان عند العرب وجرحت كبرياء إسرائيل".

ـ صحيفة الفاينتشال تايمز البريطانية فى ١١/ ١٠/ ١٩٧٣: "إن الأسبوع الماضى كان أسبوع تأديب وتعذيب لإسرائيل، ومن الواضح أن الجيوش العربية تقاتل بقوة وشجاعة وعزم، كما أن الإسرائيليين تملكهم الحزن والاكتئاب عندما وجدوا أن الحرب كلفتهم خسائر وأن المصريين والسوريين ليسوا كما قيل إنهم غير قادرين على الهجوم".

ـ صحيفة علهشمار الإسرائيلية فى ٢٩ أكتوبر عام ١٩٧٣: لقد سادت البلاد قبل حرب أكتوبر مشاعر خاطئة، هى شعور صقورنا بالتفوق العسكرى الساحق لدرجة أن هذا الاعتقاد قادهم إلى طمأنينة عسكرية على طريقة: سنقطعهم إربا إذا تجرأوا على رفع إصبع فى وجهنا".

ـ صحيفة ها آرتس الإسرائيلية ٨/ ١١/ ١٩٧٣: إننا حتى وقف إطلاق النار على جبهة سيناء لم نكن قد استطعنا إلحاق الضرر بالجيش المصرى. ومن المؤكد

أنه حتى بدون التوصل إلى وقف القتال لم نكن سننجح فى وقف أو تدمير الجيش المصرى. وبهذا يمكن القول إننا خلال حربنا الرابعة مع العرب لم نحقق شيئا".

إن هذا الكتاب يروى عن المساعدات العسكرية السوفييتية لمصر لمواجهة القوة العسكرية الإسرائيلية. وقد كتبه أعضاء مجلس المحاربين القدامى بمصر ومستعربون من جامعة موسكو ومعهد آسيا وإفريقيا ومعهد المترجمين الحربيين وبعض الكليات الشرقية الأخرى والذين شاركوا تقديم هذه المساعدات كمستشارين أوخبراء عسكريين أو قادة لمختلف وحدات القوات السوفييتية التى عملت فى مصر فقاموا بتوريد المعدات العسكرية إليها، وتدريب قواتها بل والمشاركة فى العمليات الحربية حماية لها، وهم هنا يعرضون ذكرياتهم عن الأحداث التى شاركوا فيها ويتحدثون عن المشاكل التى واجهوها فى أثناء خدمتهم بمصر نتيجة اختلاف اللغة والمناخ والعادات والتقاليد السائدة بالجيش المصرى فى ذلك الحين وعادات الشعب المصرى. ولا يخلو هذا الكتاب من بعض النقد للأوضاع فى الجيش المصرى آنذاك ولتصرفات بعض الضباط سواء من المصريين أو السوفييت. ولكن فى النهاية فإنهم جميعا قد أجمعوا على تقديرهم للشعب المصرى وقواته المسلحة وللقادة المصريين الذين تعاملوا معهم، وكذلك على اعتبار أن الفترة التى قضوها بمصر تمثل صفحات خالدة ستبقى دائما فى ذاكرة من حارب على الأرض المصرية. ومن الجدير بالذكر أنه كانت هناك خسائر فى الأرواح بينهم فى أثناء عملهم بمصر، فطبقا لكتاب "للذكرى" الذى أصدره معهد التاريخ العسكرى التابع لهيئة الأركان العامة الروسية فإن عدد من قتل من السوفييت "الأمميين" فى أثناء العمليات الحربية فى مصر فى أثناء حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر يبلغ ٤٣ فردا من ضباط وجنود ومستشارين ومترجمين وقدمت قائمة شرف بأسمائهم، إلا أن قائد كتيبة الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات الجنرال بوبوف يرى أن هذا الرقم غير دقيق، حيث إنه يعرف أسماء بعض من قتلوا ولم ترد أسماؤهم فى هذا الكتاب، وهو يرى أن عدد القتلى الأدق يقترب من الستين (طبقا لما ذكره فى لقاء معه ببرنامج "رحلة فى الذاكرة - قناة روسيا إليوم).

لقد تكرر على لسان المؤلفين مدى الضرر الذى أصاب الاتحاد السوفييتى نتيجة استيلاء القوات الإسرائيلية على معدات حربية سوفييتية الصنع فى أثناء حرب ١٩٦٧، وكذلك عن اضطرار الاتحاد السوفييتى لتغيير نظام دفاعه بعد سرقة الإسرائيليين لمحطة الرادار برأس غارب... وإن كنا نرى أن ذلك أمر غير سار حدث بالفعل، إلا أن جميع من أدلوا بشهاداتهم فى هذا الكتاب قد أغفلوا ذكر الأسلحة الأمريكية المتقدمة والتى استولت عليها القوات المصرية وقامت بتسليمها للاتحاد السوفييتى لدراستها ومعرفة أسرارها كما ذكر الملحق العسكرى نيكولاى أيفلييف بسفارة الاتحاد السوفييتى فى الفترة من عام ١٩٧٠ إلى عام ١٩٧٨، حيث قال:"، مصر قد سلمت للاتحاد السوفييتى الكثير جدا من الأسلحة الأمريكية التى استولت عليها من القوات الإسرائيلية"، وقد أورد سيادته بعض الأمثلة فى أثناء الحوار الذى أجرى معه على قناة روسيا إليوم ببرنامج "رحلة فى الذاكرة" بعض الأمثلة منها: طائرة تجسس أمريكية حديثة بدون طيار ودبابات-M 60 المعدلة الحديثة والتى كانت تشير أجهزتها إلى أنها قد قطعت ١٠ كيلومترات فقط، فتم نقلها إلى الاتحاد السوفييتى حيث تمت دراستها.

ومن الجدير بالذكر أنه قد تمت كتابة هذا المؤلف فى نهاية تسعينيات القرن الماضى فى فترة انتقال السلطة من يلتسين إلى بوتين بعد عشر سنوات من انهيار الاتحاد السوفييتى. ومؤلفو هذا الكتاب يمثلوا السوفييت الحقيقيين المتميزين بصفات أخلاقية خاصة تميز بها الذين آمنوا بالاتحاد السوفييتى، لذلك نرى هنا تعبيرهم عن بعض النقد للأوضاع الراهنة ببلدهم وحنينهم إلى الزمن السابق. منها، على سبيل المثال:

"كنا كلنا قد جئنا إلى هذا البلد القديم الأسطورى لأول مرة. كنا نشاهد السكان والعادات والطبيعة باهتمام كبير. ما الذى جذب اهتمامنا بشكل خاص؟ مجموعات من الأطفال السمر، حفاة، يلبسون قمصانًا تصل إلى كعوبهم، شديدى الحرص والفضول وطيبين. الطرق الضيقة فى الأماكن السكنية، التجارة فى كل مكان وفى كل شىء. كان ذلك بالنسبة لنا يبدو بدائيا. والآن أصبحنا نشاهد تقريبا نفس الشىء فى المدن الروسية وفى العاصمة موسكو. كما لفت نظرنا تمام الفرق الرهيب بين طبقات المجتمع: فيللات ومنازل فخمة جدا ومنازل بها

سيارات من أحدث الموديلات، وعشش قذرة مليئة بالأطفال. ولكن كان الفقراء ومن ليس لهم منازل أقل مما هو الآن بموسكو". (أ. ى. كوستين)

"مثل هذا التحول فى الأولويات لم يكن ليحدث دون نقد ماضى شعبنا، ودون السخرية من الوطنية. لا حاجة بنا لأن نكرر لماذا حدث ذلك، ولماذا يأتى الآن من يسعى لأن يُسقط من ذاكرة التاريخ حياة شعب عظيم على مدى سبعين عاما من السلطة السوفيتية، كما لو أنها فشل ذريع ممتد فى كتاب الأقدار، مع أنها حياة وأفراح وأحزان وإنجازات عظيمة لمئات الملايين من الناس. وهؤلاء لن يتصالحوا قط مع القول بأن حياتهم ذهبت هباء. والآن فى روسيا يحتفون بالفجور وتهز الفضائح حتى أرفع أنظمة السلطة. ليس فقط المحللون وإنما أيضا ممثلو الحكومة يطلقون شارة الإنذار...

... إن ما ذكرته ليس لوما أو موعظة للقادة العاملين الآن فى الجيش فهؤلاء هم أملنا وضماننا فى القدرة العسكرية لروسيا. على أنه يجب عليهم تحقيق هذه الآمال وأن يحملوا على أكتافهم كل عبء الإصلاحات العسكرية التى بها مخاطرة وأن نجد معا الحلول الأكيدة. هذا ما ينتظره الشعب، وهل يمكن أن نخذل انتظاره؟...

... وماذا عن الجيش؟ لقد كان الجيش دائما وسوف يبقى صورة طبق الأصل من المجتمع. واليوم وصل الانهيار المعنوى وفقدان القيم الخلقية إلى الجيش، وإنه لأمر شديد الصعوبة على المحاربين القدماء على وجه الخصوص. إن قلقنا له مايبرره، فالحديث لا يدور حول توحل الطرق فى الربيع ثم ظهور الشمس وجفاف كل شىء. فمن أجل إعادة القوة العسكرية لدولة عظمى يلزم كثير من الوقت والأموال. وينبغى بناء مجمع صناعى عسكرى على مستوى أعلى ورفع مستوى قيادة القوات المسلحة، وإعداد المبادئ العسكرية على نحو علمى سليم، ولماذا نخفى الحقيقة. إن رفع مستوى الفنون العسكرية هو أمر ضرورى للغاية. إن الأمر هنا يتعلق بحرية وازدهار وطننا". (س. ب. باجينسكى)

" آنذاك كنا نحكى لجنودنا أنه فى البلدان الرأسمالية يتم تحت اسم الفن إدخال تشويه عميق لما يسمى بالثقافة الجماهيرية بما يكرس للعنف والجنس والطمع بلا حدود. هذا المضمون يميز الآن برامجنا التليفزيونية. إنه عرض

متصل لكيفية تعذيب وضرب الناس الذين يطعنون بالسكاكين والذين يسرقون ويشوهون. وقد حدث هذا فى بلادنا بعد مرور خمسة وعشرين عاما فى يوم يمثل إحدى أهم اللحظات فى العمل مع الشباب...

... كثيرا ما أجلس أمام شاشة التليفزيون واثقا، ولعلكم توافقونى على ذلك، أشعر أننى أرى بلدين مختلفين: فى أحدهما تضىء القاعات بالعروض وكما فى الحكايات حفلات وطعام - حجم وتهتك الثراء الذى لم يعش فيه القياصرة إطلاقا، وفى الأخرى - يقف أبناء الوطن وأيديهم ممدودة يشاركون فى الإضرابات ويبكون - الروس المشردون، ليس السكارى، وإنما المواطنين". (ك. ف. بيروجوف)

لقد قدمنا أنا وزميلى وصديقى الدكتور أنور إبراهيم هوامش سفلية توضح بعض المعلومات التى قد تكون غير معروفة لبعض القراء عن المدن والعادات السوفييتية والتاريخ السوفييتى اعتمادا على الرجوع إلى دائرة المعارف السوفييتية وبعض المؤلفين والمعلومات المتوفرة بالإنترنت. وقد حرصنا نحن الاثنين على نقل ما جاء فى الكتاب الأصلى بأمانة على الرغم مما ورد فى بعض أجزائه من تعليقات، قد لا نتفق معها وقد لا تعجبنا، ونحن مدركون أن هذا المؤلف لم يكتب مجاملة للعرب ولكنه كتب للقارئ الروسى.

على فهمى عبد السلام

مقدمة

كان النصف الثانى من الستينيات يمثل فترة ازدهار بالنسبة للاتحاد السوفييتى، الذى كان قد تغلب حتى ذلك الوقت على التوابع الاقتصادية للحرب مع ألمانيا، والذى عاش مرحلة جديدة للنهضة الإيديولوجية، قبل الإعلان عن الانتصار النهائى للاشتراكية وزيادة الثقة فى إمكانية بناء المجتمع الشيوعى. وقد وضعت النهضة الاقتصادية، التى أدت إلى خلق قاعدة مادية وتكنولوجية للإنتاج فى جميع المجالات الأساسية للصناعات المدنية والعسكرية وفى التوجه الإيديولوجى لسياسة الاتحاد السوفييتى الخارجية التى كانت موجهة لمحاربة خطط الاستعمار والرجعية والصهيونية فى المناطق الاستراتيجية على الكرة الأرضية، أسسًا قوية لعمل الحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى بنشاط فى مختلف الاتجاهات. ولم يكن من الممكن، لأسباب مفهومة، أن يبقى النزاع بين النظامين العالميين الاجتماعيين والسياسيين، المسلحين بأكثر أنواع الأسلحة دمارا، خارج نطاق التنافس على الساحات السياسية والدبلوماسية. ولكن هذا الوضع لم يستبعد أعمالاً غير مباشرة، ذات سمة جغرافية إقليمية، لاختبار قوة كلا النظامين، ولكنها تمتعت بصدى عالمى. كان النزاع بمنطقة الشرق الأوسط من هذا النوع بالذات، وقد جر إلى جوفه كلاً من العالم العربى وإسرائيل والمجتمع الإقليمى المنشق إلى معسكرين غير متساويين من حيث القوة، وكان أحدهما يتمثل فى العرب والثانى فى إسرائيل.

لم يكن يوجد، فى ذلك الوقت، تكافؤ عسكرى فى الشرق الأوسط. كما أنه، بالمناسبة، لم يتحقق، نتيجة لذلك حتى يومنا الحالى. ولم يتمكن حتى مجموع القوى المسلحة لكل دول الجبهة من الوقوف بنشاط أمام الضغط العسكرى من

جانب إسرائيل. وفى ذلك الوقت، كان وضع الجيوش العربية عامة يتناسب تماما مع تواضع مستوى تطور قوى الإنتاج فى البلاد العربية، والتى كان التقدم التقنى العسكرى بها قد بدء لتوه فى الحصول لنفسه بصعوبة على مواقع فى المجتمع، الذى كانت ما زالت تسود فيه بشكل كبير نظم الإقطاع، التى ما زالت موجودة، بغض النظر عن الإصلاحات. كما بقيت به آثار متأصلة للتبعية والمهانة الاستعمارية، على الرغم من أن الدول العربية لم تكن تمثل شكليا ذيول مستعمرات للقوى العظمى الرأسمالية بالعالم. ومن ناحية النوعية، فقد اختلفت تماما القوى العسكرية العربية عن "جيش الدفاع" الإسرائيلى، ولم تتمكن على المستوى الاستراتيجى من مقاومة العدو.

وبدون التعرض لكل التقلبات التى صاحبت الكارثة القومية العربية فى صيف عام ١٩٦٧، يمكن أن نقول إن هذا التطور للأحداث كان متوقعا بين المحللين والخبراء فى شئون التاريخ الحربى، على الرغم من أنه ساد فى بعض الأوساط العربية رأى عن إمكانية حدوث نهاية أخرى للحرب بين العرب وإسرائيل.

ولم تؤثر الهزيمة فى حرب قصيرة سلبيا فقط على الصورة النفسية والسياسية للجيوش العربية ولكن على صورة المجتمع العربى ككل. وبالإضافة إلى تقويض القدرة الاقتصادية للدول العربية المشاركة فى الحرب، فقد حدثت خسائر فادحة للصحة النفسية للأمة العربية. وقد تطلب هذا الوضع علاجًا عاجلاً، وإلا لكان من الممكن أن يؤثر عار الهزيمة سلبيا على علاقة الشعوب العربية بأنظمة الحكم بها والتى كانت قد تحولت فى ذلك الوقت إلى اتجاه الاشتراكية "غير البروليتارية"، والمتميزة بالاتجاه الاشتراكى وطريق التطور "غير الرأسمالى" وتكوين إيديولوجية ثورية وإنشاء عقيدة سياسية مبنية على الاعتراف بطبقية المجتمع، والتعامل على أساس طبقى مع الظواهر الاجتماعية...

وقد راقت هذه الراديكالية للحزب الشيوعى السوفييتى وللحكومة السوفييتية اللذين لم يكتسبا بذلك فقط حلفاء فى هذه المنطقة المهمة استراتيجيا من العالم، ولكنهما حصلا أيضا على تابعين إيديولوجيين ومؤيدين سياسيين، أدت أصواتهم المؤيدة لسياسة الاتحاد السوفييتى على الساحة العالمية، مع سياسة كل المعسكر الاشتراكى، إلى تقوية تأثر كل التكتل والتوحد الطبقى لمختلف الشعوب لمواجهة ما كان يسمى، فى ذلك الوقت، بالرجعية العالمية والاستعمار.

وقد تمت تلبية طلب العرب المساعدة فى الاتحاد السوفييتى فورا. ومن الواضح تماما أنه كانت توجد كل الدوافع لظهور رد الفعل بهذا الشكل السريع، لكى يكون عاجلا.

نتيجة لذلك، فقد قام الاتحاد السوفييتى، فى زمن قصير جدا، بوضع أقوى المقدمات لكى يقدم للدول العربية المساعدة فى إعادة التسليح وإعادة تكوين وتدريب الجيوش الوطنية لتحويلها إلى قوة قادرة على القتال ومستعدة للدفاع عن مصالح بلادها. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الاتحاد السوفييتى لم يمتنع، عندما طلب الجانب المصرى، عن إرسال فرق من جيشه النظامى لمواجهة الهجمات الجوية لسلاح الطيران الإسرائيلى، وبصفة خاصة فرقة الدفاع الجوى التى لعبت دور "الدرع الواقى"، دفاعا عن أهداف ومرافق حيوية فى إطار العملية "قافقاز"[1]..

بالنسبة للعرب، كان ذلك أقصر طريق لاستعادة القدرة على القتال، حيث إن الاتحاد السوفييتى قد قدم لهم السلاح والخبراء والمستشارين العسكريين بشروط مناسبة لظروفهم الاقتصادية.

وقد حققت الدول العربية بذلك هدفين على الأقل. فمن حيث الجانب العسكرى، حصلت على معونة عسكرية حقيقية، وتعاملت مع الفن والخبرة التكتيكية والاستراتيجية العسكرية السوفييتية الحديثة، التى تكونت لدى الجيش السوفييتى فى ظروف طبيعية وفى مواقع حربية جبارة على أراضى معارك الحرب العالمية الثانية. أما على المستوى السياسى فقد ربطت الاتحاد السوفييتى بها بشكل أكبر، بحيث أنه أصبح كما لو كان مسئولا عن قدرة الدول العربية عن الدفاع عن أنفسها، ولذلك كان عليه تعظيم تنشيط عمله على الساحة العالمية من أجل الدفاع عن قضايا ومصالح العرب.

أما الاتحاد السوفييتى، فقد حصل من جانبه أيضا على بعض الفوائد من التعاون التقنى العسكرى مع الدول العربية. فقد حصل على فرصة التوغل إلى عمق أكبر فى الآلة الحربية وفى النسيج السياسى للشرق الأوسط، والحصول على آليات إضافية للتأثير على العلاقات الإقليمية، ومن خلالها على العلاقات الدولية، وزاد من وزنه السياسى فى حل أكبر نزاع فى فترة ما بعد الحرب،

---

(١) القوقاز.

وبصفة عامة وسع مجال مصالحه الوطنية بالانتقاص من إمكانيات القوى العظمى الغربية السياسية فى المنطقة. وبالإضافة إلى ذلك فقد تم إرسال القوات الزائدة عن الحاجة إلى العالم العربى، فحصل بذلك الاتحاد السوفييتى على مصادر إضافية للمعلومات عن الأحوال الداخلية فى الدول التى يرتبط بها باتفاقيات صداقة وتعاون ومساعدة عسكرية. يجب أيضا مراعاة أنه قد زيد على التعاون العسكرى بعلاقات اقتصادية مكثفة تماما، بحيث أصبح مقدار هيبة وتأثير بلدنا فى الشرق الأوسط كبيرا للغاية، ومفهوما تماما. كما كانت توجد أيضا، بالطبع، لحظات أقل خيرا. ولكن يمكن اعتبارها كأنها ثمن، لا يمكن تجنبه، للمكاسب التى حققتها بلدنا على مدى بضعة عشرات من السنوات امتدت حتى انهيار الاتحاد السوفييتى والتى جعلت منها شخصية قوية فى كل قضايا الشرق الأوسط وفى المناطق المحيطة به وفى العمليات التى تجرى بها.

لقد فرضت الأمور الإيديولوجية فى تلك السنوات قوانينها على سير الحياة بشكل كبير، كما أن البيروقراطية قد حولت هذه الأمور إلى نوع من "السخافة". فعلى مدى عشرات من السنوات لم يكن هناك ترحيب بالعلنية فى الاتحاد السوفييتى فيما يتعلق بمشاركة قواته المسلحة فى النزاعات الإقليمية وغيرها من النزاعات، ما عدا فى حالة أحداث إسبانيا. كان من المحظور الكتابة عن مشاركة العسكريين السوفييت فى الحرب الكورية، على الرغم من أن كل العالم كان يعرف ذلك وكان يهزأ من أسرار "الأراجوز". وقد كان هناك صمت تام على الأحداث الجارية فى الصين، حتى ذلك الوقت. وتوجد الكثير من مثل هذه الأمثلة، ومن ضمنها مصر. وفى ذلك الوقت، وعلى الأحرى الآن، لن يظهر أى روسى يتم سؤاله فى الشارع درايته بالانجذاب العسكرى لمواطنيه الأكبر سنا إلى (مصر، سوريا، العراق،الجزائر، وأماكن أخرى فى المشرق العربى). الاستثناء الوحيد، بين قوسين، هو "أفغانستان" التى لم تنس بعد.

وعلى الرغم من أنه لم تؤخذ تعهدات كتابية عن حقيقة الوجود فى مصر، فإنه فعليا لم يكن من الممكن نشر أى شىء عن هذا الموضوع. وإذا كانت حتى قد كتبت بعض المعلومات، ولو على شكل وقائع منفصلة، بتصريح من مكتب مراقبة الدولة، فقد وقف مقص الرقابة العسكرية بانتباه لحماية أسرار الدولة، وقام بلا ملل بمحو كل ما يمكن أن يحدد اشتراك الاتحاد السوفييتى فى الأحداث

الموصوفة هنا، على الرغم أن ذلك الواقع كان معروفا خارج حدود بلدنا، بدون الحاجة إلى هذا العمل، وعن وجوده بها. كانت تلك تجربة جيدة من جميع الجوانب، أما فيما يخص وجودنا العسكرى فى مصر، فإن الحاجز بدا مهدمًا فقط منذ زمن غير بعيد، عندما خرج إلى النور كتاب "تمحى تأشيرة سرى" وقد نشرت فى هذا الكتاب ذكريات من خدم فى أوقات مختلفة فى مصر فى مراكز عسكرية مختلفة، وأراد اقتسام انطباعاته عن هذا البلد الشيق. وعلى الرغم من كون هذا الكتاب هو الأول من نوعه، فإنه لم يصبح فى ذلك الوقت "كرة من الثلج"، على الرغم من أنه لا يمثل شكلاً مثاليًا للعمل رسائلى الشكل.

نقدم هذا العمل ليحوز اهتمام القارئ الحالى، كصورة جديدة لهذا الكتاب الذى أصبح بسرعة تحفة. وقد أخذت فى الاعتبار العيوب، التى ظهرت فى الطبعة السابقة، فى هذا الإصدار الجديد. كما تمت زيادة محتوياته بإضافة ملحوظات ومقالات جديدة لها طابع الذكريات، كما زاد بها عدد المؤلفين. وقد تم فى هذه الطبعة عرض عدد من أكثر المواد تشويقا من الكتاب الأول، مما يسمح بتكوين صورة أكثر اكتمالا عما حدث فى مصر وفى القوات المسلحة المصرية فى نهاية الستينيات، وكيف كان شعور المستشارين السوفييت فى وسط غريب عليهم، وكيف كانت العلاقة مع الأسلحة، وعما كانوا يفكرون وما كانوا يشعرون به وهم يقومون بأداء واجبهم نحو وطنهم الذى رأى ضرورة إرسالهم إلى ما وراء البحار والجبال، ولكن نسى بعد ذلك الموظفون جزءًا مهمًا من هؤلاء، ولم يقوموا بتسجيل أعمالهم، مما حرمهم بشكل ما من النظر إليهم قانونا باعتبارهم من الكتيبة الخالدة التى تحمل الرتب، والتى لم تتعود على أن ترحم نفسها لا فى مواقع المعارك بوطنها، ولا فى خارج الحدود.

أ. أ. فيلونيك، ج. ف. جارياتشكين

عن تاريخ العلاقات بين الاتحاد السوفييتى ومصر

ف.م . فينوجرادوف

يمثل وجود العسكريين السوفييت فى مصر للكثيرين حقيقة غير عادية حدثت منذ ثلاثين عامًا مضت، حيث لم يتم إلقاء الضوء عليها كثيرا فى الصحافة. ويتم أحيانا الإشارة إليها من أجل محاولة إثارة الشك حول السياسة الخارجية لبلدنا فى ذلك الوقت أو حول وضع قواتنا المسلحة. وعلى الرغم من ذلك، فإن الوجود العسكرى السوفييتى فى مصر لعدة سنوات، فى نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، قد لعب دورا كبيرا فى مساندة الشعب المصرى الصديق والشعوب العربية الأخرى فى نضالها من أجل الاستقلال. ولكن حقق عسكريونا أيضا أحد أهداف توفير الأمان لبلدنا فى مواقع بعيدة عنها. وقد نفذ كل من الجنود، الصف الأول من القادة، الضباط، والجنرالات تكليفات بلدهم لهم بشرف ومقدرة عالية، فى ذلك الوقت الصعب بالنسبة لها، والذى مثل ذروة اشتعال "الحرب الباردة". وحيث إن عمل العسكريين السوفييت فى مصر كان يتسم بما يمكن أن يطلق عليه بدون مبالغة "أهمية عالمية"، من الضرورى أن يتم إلقاء الضوء باختصار على بعض نقاط الوضع التاريخى، فى ذلك الزمن.

ما يسمى "أزمة الشرق الأوسط"، أو بتعبير أدق "المواجهة العربية-الإسرائيلية" هو أحد أقدم الأزمات وأكثرها صعوبة فى الحل، حيث إن الدولة الغربية العسكرية القوية ـ الولايات المتحدة الأمريكية ـ متداخلة فيها.

لقد ظهرت هذه الأزمة بسرعة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. فقد انتهى فى عام ١٩٤٧ انتداب عصبة الأمم الذى منح الحق لبريطانيا العظمى لكى تحكم فلسطين بمنطقة الشرق الأوسط. كان يعيش فى عام ١٩١٨ على هذه الأرض ٦٤٤ ألفا من العرب، يمثلون ٩٢٪ من السكان، و٥٦ ألفا من اليهود، يمثلون ٨٪ منهم. أما فى عام ١٩٤٨ فقد وصل تعداد العرب فى هذا البلد إلى ١٣٨٠ ألف

عربي يمثلون ٦٧٪ من السكان بينما كان تعداد إليهود حوالى ٧٠٠ ألف، أى ٣٢٪. و بعد دراسة طويلة ومتأنية، اتخذت هيئة الأمم المتحدة قرارا، راعت فيه طلبات الدوائر الصهيونية الدولية، بتقسيم أرض فلسطين إلى دولتين عربية (فلسطين) ويهودية. وقد منحت الدولة الفلسطينية حوالى ٤٣٪ من الأرض وعليها ٧٢٥ ألفا من العرب و١٠ آلاف من إليهود، ومنحت الدولة الإسرائيلية ٥٦,٥٪ من الأرض وعليها ٤٩٨ ألفا من إليهود و٤٩٧ ألفا من العرب (١). وكان يجب أن تبقى أهم مدينة فلسطينية ـ "القدس"، التى تمثل مركزا للديانات العالمية الثلاث: الإسلامية، المسيحية، وإليهودية، دولية.

ولكن لم يرض قرار الأمم المتحدة لا العرب ولا المنظمات الصهيونية. فقد رأى عرب فلسطين، مثلهم مثل عرب الدول العربية الأخرى، وبتأييد من الدول الإسلامية، أن إنشاء اصطناعى لدولة يهودية فى قلب العالم العربى ليس عادلا، نظرا لقيام المنظمات الصهيونية فى العالم كله بحملة واسعة لتهجير إليهود من البلاد الأخرى إلى فلسطين. وقامت رئاسة المنظمات الصهيونية، بمساندة الدوائر المؤثرة فى الولايات المتحدة الأمريكية، بحملة لإنشاء "إسرائيل العظمى"، وهو ما اتضح تماما فى شعار "أيها الإسرائيليون، ها هو وطنكم: من النيل إلى الفرات". نتيجة لذلك تتابعت مجموعة مما تسمى الحروب الفلسطينية. وقد مالت سياسة القوى العظمى الغربية إلى مساندة إسرائيل. وتكفى الإشارة إلى العدوان الثلاثى الإنجليزى ـ الفرنسى ـ الإسرائيلى على أكبر وأقوى الدول العربية ـ مصر، التى تمثل السند الطبيعى لحركة التحرير الوطنية العربية. لأن مصر كانت قد قامت بعملية من حقها قانونيا ـ تأميم قناة السويس، التى تمر بكاملها فى الأرض المصرية.

وقد وجهت القوات المسلحة الإسرائيلية فى بداية شهر يونيه عام ١٩٦٧ ضربة قاصمة إلى مصر. وقد تكبدت الجيوش المصرية التى كانت قد بدأ تكوينها حديثا، وكانت ما زالت فقيرة التسليح، هزيمة فادحة. وقد نالت أيضا كل من سوريا والأردن ولبنان نصيبًا مماثلاً، حيث إن إسرائيل لم تقضى فقط على القوات المسلحة المصرية، ولكن أيضا على قوات حلفائها أيضا. كما أنها استولت على فلسطين بالكامل، وعلى جزء من سوريا، وكذلك على شبه جزيرة سيناء، الضخمة المساحة، والتى تؤول إلى مصر، ووصلت مباشرة إلى قناة السويس. وقد توقفت الملاحة الدولية فيها تماما، مما مثل ضربة موجعة للاقتصاد المصرى.

وقد أدى العدوان الإسرائيلى إلى غضب واسع فى العالم كله. وبمبادرة من الاتحاد السوفييتى تمت الدعوة إلى عقد جلسة عاجلة للجمعية العمومية للأمم المتحدة على مستوى رؤساء الحكومات. وفى خلالها، وبعد مناقشات حامية، تم فى يوم ٢٢ نوفمبر عام١٩٦٧ اتخاذ قرار مجلس أمن الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ الذى يدعو إسرائيل إلى إعادة الأراضى العربية التى قامت باحتلالها. وقد بدأ بذلك ما هو معروف بعملية "تسوية مشكلة الشرق الأوسط"، التى طالت حتى إليوم، والتى لا تظهر لها نهاية، نظرا لموقف التحدى من جانب إسرائيل التى لم تحترم أيًا من قرارات الأمم المتحدة بخصوص أزمة الشرق الأوسط.

يظهر إلى السطح تساؤل: "كيف تمكنت مثل هذه الدولة الصغيرة، التى لا تقدر قط على الحياة بدون المساعدة الاقتصادية والعسكرية التى تمدها بها الولايات المتحدة الأمريكية والجاليات اليهودية بمختلف الدول الأخرى، بدون مقابل، فى مواجهة غالبية دول العالم؟".

سبب ذلك، هو أن أزمة الشرق الأوسط تعكس فى الحقيقة محاربة الولايات المتحدة الأمريكية من أجل سيادتها فى الشرق الأوسط. وقد أدت مساندة الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل بصراحة فى حربها ضد الدول العربية، إلى أن قامت كل هذه الدول بقطع علاقاتها فورا مع الولايات المتحدة الأمريكية. ويمكن أن يقال، بشكل ما، إنه قد تم طرد الولايات المتحدة الأمريكية، فى ذلك الوقت، من منطقة الشرق الأوسط التى كانت تريد أن تحل فيها محل القوى الاستعمارية السابقة - بريطانيا العظمى وفرنسا. ولكن يجذب الشرق الأوسط بإصرار إليه حكام الولايات المتحدة الأمريكية من مختلف القناعات. لماذا؟

يمثل الشرق الأوسط ملتقى طرق المواصلات الدولية الرابطة بين كل من أوروبا، آسيا، وإفريقيا. كما أن منطقة الشرق الأوسط هى أكبر منطقة لاستخراج البترول، حيث تمثل "برميلاً عالميًا للبترول".

يمثل أيضا الشرق الأوسط أقرب منطقة جنوبية للوصول إلى بلدنا، حيث إن السيادة فى المنطقة الشرقية من البحر الأبيض المتوسط تسمح بقفل "من الجانب الخارجى" مضايق البحر الأسود، وتساند بشكل مباشر عضو حلف الأطلنطى - تركيا، فى خلال فترة حكم الشاه لإيران، مما يسمح بوجود رأس جسر موجه ضد الاتحاد السوفييتى مباشرة على حدود بلدنا الجنوبية. بالطبع، لم يكن يمكن أن تعول الدول العربية على مساندة الولايات المتحدة الأمريكية لها خلال مباحثاتها

مع إسرائيل لحل الأزمة، حيث إن إسرائيل هى نقطة الارتكاز الوحيدة للولايات المتحدة الأمريكية فى الشرق الأوسط من أجل اختراق المنطقة العربية فى المستقبل. اضطر العرب للبحث عن حلفاء آخرين على الساحة الدولية، فاتجهت أنظارهم إلى القوة العظمى العالمية الأخرى، فى ذلك الوقت، إلى الاتحاد السوفييتى.

يجب أن أوضح هنا فورا: أنه لم يكن يوجد أى نظام واحد فى الدول العربية تابعا للاتحاد السوفييتى. ولكن راقت سياسة بلدنا الخارجية للدول العربية، حيث إن أحد مبادئها كان مساندة حركات شعوب الدول الأخرى من أجل استقلالها الوطنى. لذلك فإن منطق السياسة الدولية قد وجه الدول العربية لضرورة التعاون مع بلدنا، وبالمناسبة بدون جهد خاص من جانب الاتحاد السوفييتى.

ومن ناحية أخرى، لماذا بدأ الاتحاد السوفييتى فورا العمل لإيجاد تسوية سلمية ودائمة لأزمة الشرق الأوسط، مؤيدا للدول العربية؟ لقد لعبت هنا نقاط أساسية دورها: فيجب ألا تنهار وحدة الدول، أما العدوان ـ فيجب أن يبقى غير قانونى وبدون عقاب. وبالإضافة إلى ذلك، وانطلاقا من مفهوم أمن بلدنا، وجب الوقوف أمام اقتراب الآلة الحربية الأمريكية ومخافرها الأمامية من حدودنا الجنوبية. وبالطبع فإن الولايات المتحدة الأمريكية قد رفضت توريد السلاح لمصر وللدول العربية الأخرى. فى ذلك الحين لم يتجاسر العرب فى التوجه إلى الاتحاد السوفييتى علنا، فقد تم توريد أول دفعة من أسلحة قوات المشاة إلى مصر عن طريق تشيكوسلوفاكيا.

كما لم تقدم الدول الأخرى الحليفة للولايات المتحدة الأمريكية مساعدة اقتصادية للعرب. كان للمصريين حلم قديم فى كبح جماح نهر النيل، الذى يكون أحيانا ضئيلا، مما يؤدى إلى الجفاف، وأحيانا يفيض متسببا فى فيضانات مدمرة. وفى الواقع، يعيش معظم سكان مصر، الذين يمثلون عشرات الملايين، فى شريط ضيق من الأرض بمحاذاة نهر النيل، حيث يمثل ٣-٤٪ من إجمالى مساحة البلد. أما الجزء المتبقى، فهى أراض صحراوية غير مثمرة. كان يجب بناء سد عند العتبات الأولى لنهر النيل فى الجنوب، ولكن رفضت كل من الولايات المتحدة الأمريكية، وإنجلترا، وفرنسا مساعدة مصر فى بناء السد. فجاءت المساعدة من الاتحاد السوفييتى. وبالمناسبة، فإن المصريين قد دفعوا منذ زمن بعيد ثمن هذا المشروع الضخم.

بعد هزيمة مصر فى "حرب يونيه" عام١٩٦٧، بدأ عمل العسكريين السوفييت، بدءا من عملهم فى مستوى الكتيبة إلى القيادة العليا، بناء على طلب القيادة المصرية، لبناء القوات المسلحة المصرية على أساس جديد. وقد تم تنفيذ هذا العمل تحت إشراف مارشال الاتحاد السوفييتى م.ف.زاخاروف، ثم جنرال الجيش ب.ن.لاشينكو. كان يجب أن تتم إعادة بناء كل أشكال القوات المسلحة على أسس حديثة، وتدريبها على استخدام أحدث الأسلحة- بدأ من رشاشات الكلاشينكوف إلى مجموعات بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات،طيارات الميج ـ ٢١، والغواصات الحديثة، والوحدات الفريدة المضادة للدبابات، و الجسور العائمة، ووسائل الاتصال، وغيرها، وذلك فى فترات زمنية قصيرة.

وقد واجه مستشارونا العسكريون مشاكل كبيرة جدا. كان من ضمنها عدم الإلمام باللغة العربية، وروح الهزيمة عند بعض العسكريين المصريين الذين كانوا يعتقدون فى أنه لا يمكن مواجهة القوات المسلحة الإسرائيلية، لأن الولايات المتحدة الأمريكية تقف وراءها، وأحيانا علاقة ارتياب من جانب الضباط نحو جهود المستشارين العسكريين السوفييت، وتقاليد التفرقة الكبيرة بين الضباط والجنود، والظروف المناخية غير العادية والصعبة بالنسبة لرجالنا، وغيرها الكثير. كان مستشارونا غالبا لا يؤمنون بالله، بينما كان شركاؤنا مسلمين حتى النخاع (وقد أسست بناء على ذلك دعاية عدائية لنا). و أنا أتذكر كيف اضطررت للتوجه إلى الرئيس ناصر نفسه حتى يتقرر عمل استثناء للطيارين المصريين، فى خلال شهر رمضان المعروف بصرامة طقوسه عندما يلتزم كل المسلمين بالصيام، حيث إن من يصوم من شروق الشمس إلى غروبها لا يستطيع قيادة طائرة أسرع من الصوت.

عمل مستشارونا العسكريون بأقصى جهد وهم يعلمون الجنود والضباط المصريين العمل طبقا لمقولة القائد الروسى سوفوروف: "صعوبة فى أثناء التعلم تعنى سهولة فى أثناء القتال". كان علينا أن نتحمل نظرات استخفاف الضباط المصريين، وهم يضعون عصى تحت إبطهم، وأيضا بعض الجنود، عندما كان يزحف ضابط سوفييتى ـ مستشار تحت دبابة مبينا بنفسه كل الحركات.

وقد تم تنفيذ التكليف بعملية إعادة بناء القوات المسلحة المصرية فى زمن قصير، وكما بينت الأحداث اللاحقة، كانت ناجحة تماما وتميزت بالكفاءة.

وفى نفس الوقت، كان الزمن يمضى، وكانت المباحثات السياسية المتعلقة بالتسوية، بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية، تتقدم بصعوبة، فقد كان يقوم الأمريكان بالعمل على إفشالها بوضوح، حيث كانوا يضعون عمدا شروطًا لا يمكن أن يقبلها العرب، ومنها بصفة خاصة التنازل عن إعادة إسرائيل لكل الأراضى العربية التى احتلتها بأسلوب غير قانونى. وكان علىّ، بصفتى نائبا لوزير خارجية الاتحاد السوفييتى تم تكليفه بإجراء المباحثات مع ممثلى دولة الولايات المتحدة الأمريكية، المشاركة فى المباحثات التى قام بها قادة البلد ووزير الخارجية أ. أ. جروميكو. لم يكن الأمريكان حتى يرغبون السماع عن إعادة كل الأراضى التى تحتلها إسرائيل إلى العرب. كانوا يرفضون اقتراحاتنا، ويعرضون علينا فورا مقترحاتهم كتابة. وعندما كنا نبين لهم أنه من الواضح عدم قبول العرب لها، كانوا يقدمون لنا فورا مقترحات جديدة مكتوبة... غير مقبولة هى أيضا بنفس الدرجة. كان ما يدعو للدهشة، هو أنه على الرغم من علمهم بأن مقترحاتهم لا يمكن أن تقبل، فقد كانوا يستمرون فى تقديمها ولكن بشكل آخر. يبدو أن ذلك كان يجرى لإعطاء انطباع بأن هناك مباحثات تدور. كما لو كانت الولايات المتحدة الأمريكية تلعب دور صانع السلام. وبالطبع، كنا نبلغ قادة الدول العربية بمباحثاتنا مع الولايات المتحدة الأمريكية. انعكس عدم حدوث تقدم فى المباحثات على الأوضاع الداخلية فى الدول العربية، خاصة فى مصر. فقد ظهر بها نفوذ طبيعى للصبر، وغضب من الوضع الاقتصادى الصعب، وظهرت شعارات متطرفة مثل "سنلقى بإسرائيل فى البحر". وقد نشطت بصفة خاصة حركة الفلسطينيين، هذا الجزء من الأمة العربية الذى حرم حتى من حق الوجود. وقوت الولايات المتحدة الأمريكية دعايتها العلنية وغير العلنية. وتم الإيحاء بفكرة أن من يجلس فى قيادة الدول العربية "ليسوا من الرجال" الذين يمكنهم أن يصلحوا الأوضاع مع الولايات المتحدة الأمريكية، وأنه مطلوب قادة آخرين. وكان القادة الحاليون فى ذلك الوقت يدعون عبثا بأنه لا توجد فائدة للتعاون مع الاتحاد السوفييتى، حيث إنه لا يستطيع دفع عملية التسوية لأن الولايات المتحدة الأمريكية تقف وراء إسرائيل. كان يتم الايحاء بأن المخرج يتلخص إما فى ضرورة البحث عن قادة "جدد" قادرين على التفاوض مع القادة الأمريكان، أو على الموافقة على شروط إسرائيل. بالطبع أدى كل ذلك إلى توتر شعوب الدول العربية، وقيادتها، والحركات السياسية بها. وقد تعب المصريون ممن نفذ صبرهم

من الخمول. وقد كرر القادة المصريون، فى خلال عدة اجتماعات على أعلى مستوى، حضرتها، بأنه لا يوجد أمامهم أى حل عدا بدء العمليات الحربية ضد إسرائيل. وعندما تم سؤالهم عن نوع العمليات التى يقصدونها، وما الأهداف العسكرية التى يقررونها، وما مدى استعداد القوات المسلحة المصرية لخوض المعارك، كانت إجاباتهم غامضة، من نوع "فلنبدأ ثم يتضح الأمر بعد ذلك ـ أو حتى على الأقل استرجاع كيلومتر مربع واحد".

وعلى الرغم من عدم إنكار القادة السوفييت لحق القادة المصريين فى اتخاذ أى قرار بأنفسهم، فإنهم كانوا يكررون بصبر طرح أسئلة لاستيضاح مدى مناسبة الحسابات الدقيقة المدروسة تماما، وعن الاستعداد لخوض مثل العمل السياسى الخارجى الأكثر تعقيدا والمتمثل فى بدء عمليات حربية. فمن المفترض أن أى قائد عسكرى أن يكون واثقا، وهو يبدأ العمليات الحربية، فى انتصاره، على الرغم من أنه فى النهاية، يخسر أحد القادة الحرب.

بدأت مصر فى شتاء عام ١٩٦٩ "حرب الاستنزاف" ـ قصف مدفعى للمواقع الإسرائيلية فى سيناء. وقد ردت عليها إسرائيل بضربات مؤثرة من الطيران الإسرائيلى موجهة من الجو إلى أهداف عسكرية ومدنية ـ مصانع، مدن، مساكن، مدارس، مستشفيات- بلا تفرقة. كان الدفاع عن سماء مصر ضد الطيران المعادى سيئا، فاتخذ الرئيس ناصر قرارا بالسفر "سرا" إلى موسكو لإجراء مفاوضات مع قادة بلدنا. وقد عرض فى خلال المفاوضات التى جرت على أعلى مستوى الصعوبات التى تواجهها مصر التى فى وضع "اللاسلم، واللاحرب"، واعترف بأنه من الواضح أن القوات المسلحة المصرية ليست مستعدة بعد لعمليات هجوم كبيرة، فما زال أمامها وقت لاستيعاب التقنيات الحربية الحديثة الصعبة، ولكن كانت غارات إسرائيل ستصبح أكثر تدميرا، وكان يتطلب شعب البلد واقتصادها وإعداد القوات المسلحة دفاع جوى قوى يعتمد عليه، كما أنه توجه بطلب سرعة إرسال وحدات صواريخ مضادة للطائرات حديثة من الاتحاد السوفييتى، وفى خلال فترة إعداد الكوادر المصرية فى الاتحاد السوفييتى (طبقا لحسابات المصريين يتطلب ذلك عامين) إرسال قوات محاربة سوفييتية إلى مصر. وبذلك، ولأول مرة، لم يكن الحديث الآن عن المدربين السوفييت، ولكن عن قوات عسكرية تقوم بأعمال حربية.

كان هذا الطلب مفاجأة، وكان من الصعب اتخاذ قرار بشأنه بسرعة. وأنا أذكر كيف تحدث القادة السوفييت مع جمال عبدالناصر عن الصدى الدولي السلبي الممكن حدوثه، وعن صعوبة التفسير للعالم كله وللشعب السوفييتي عن سبب وجود قوات مسلحة سوفييتية في زمن السلام في بلد آخر... ولكن ناصر أجاب على هذه التصريحات بعدة أفانيد، كان أحدها منطقيا تماما سياسيا: سوف تؤدى هزيمة مصر والعالم العربي مرة أخرى إلى سقوط الشرق الأوسط في براثن الاستعمار، وإن لم يكن ذلك في صوره السابقة، وسوف يتسبب ذلك في ضربة إلى مصالح أمن الاتحاد السوفييتي وهيبته على الساحة الدولية.

مر يومان عصيبان مليئان بمناقشات على مختلف المستويات لطلب ناصر. وفي النهاية جاء الرد إيجابيا بالنسبة لمصر. وقد تم إنشاء فرقة دفاع جوى ببلدنا خصيصا تحت قيادة اللواء أ. ج. سميرنوف (و هو الآن فريق متقاعد)، كان واجبها يتلخص في تحقيق الحماية الجيدة لأهم مراكز مصر - القاهرة، والإسكندرية، وأسوان.

كان يجب على الجانب المصرى توفير بناء المنشآت لإيواء مجموعات الصواريخ المضادة للطائرات، ومخابئ ومساكن للأفراد، وحماية مواقع القتال وتوفير أمن الأفراد السوفييت... كان يجب أن تصل الفرقة سرا، بقدر الإمكان، إلى مصر وأن تحتل مواقعها القتالية. ويروى من شارك مباشرة - مؤلفو الذكريات المشاركون في كتابة هذا العمل - في هذه الأحداث عن كل أعمال الاستعداد والقتال.

في بداية عام ١٩٧٠، أرسلتني القيادة السوفييتية بتكليف خاص إلى ناصر. بالطبع عاكست "حرب الاستنزاف" الضروس المباحثات الدبلوماسية الخاصة بالتسوية، كما أنه كانت قد تؤدى إلى الهجوم على فرقتنا وهي في الطريق، قبل أن تتمركز في مواقعها القتالية.

كلفت بعمل حساس يتمثل في إقناع ناصر بجدوى وقف "حرب الاستنزاف"، التي كنا نقدر أنها لا تمنح مصر أية ميزة. وبالمناسبة أشير إلى أنه كان قد اقترح في اجتماع المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي أن يسافر وزير الخارجية أ. أ. جروميكو لإجراء المفاوضات مع ناصر، ولكنه رفض ذلك بحسم، حيث إنه يعتقد أن الحديث مع ناصر في هذا الشأن لن يكون مثمرا،

ولكنه اقترح فى نفس الوقت ترشيحى، وتمت الموافقة على اقتراحه. وقد قال لى أ. أ. جروميكو، مشجعا قبل سفرى، إنه سيكون جيدا حتى لو تم النجاح فى تنفيذ ما كلفت به، حتى ولو بنسبة ١٠٪.

استقبلنى ناصر مرحبا تماما، ونجحت باستخدام مختلف المبررات والقرائن فى الحصول منه على موافقته لوقف "حرب الاستنزاف"، بالطبع إذا تقبلت إسرائيل ذلك. حكيت لناصر عن صعوبة المفاوضات مع الأمريكان. ولمنحه ثقة أكبر فى المباحثات المستقبلية، خرجت عن حدود ما كلفت به طارحا عليه سؤالاً عن الهدف النهائى لسياسة مصر بالنسبة لإسرائيل: "هل هو وقف إطلاق النار، أم الصلح، أم السلام والتعايش معا؟". لم يكن هناك وضوح فى هذا الأمر عند أى أحد. وقد حاول ناصر الرد بهزل اعتمادا على أن الأزمة بين العرب وإسرائيل هى فى واقع الأمر أزمة بين السوفييت والأمريكان. رفضت تماما هذه الفكرة وقلت إنه حتى على الرغم من إرسال فرقة الدفاع الجوى إلى مصر، فإننا فقط نساعد مصر على حماية استقلالها وحقوقها، ولكننا لا ننوى الدخول فى حرب مع الولايات المتحدة الأمريكية أو إسرائيل. ضحك ناصر مشيرا إلى أنه لم يعارضه أحد بهذا الشكل، ثم قال بنبرة جادة: "إنكم يمكن أن تنطلقوا من أن مصر تريد أن تعيش فى سلام مع إسرائيل، ولكن طبعا، إذا كانت إسرائيل سوف تحترم حقوق العرب القانونية. أنا رجل سلام، على الرغم من أننى أضطر كثيرا للانشغال بأمور الحرب". ثم عبر عن رضائه التام عن كل المستشارين العسكريين السوفييت، وشكر بلدنا مرة أخرى على الخطوة الجريئة الحاسمة بخصوص حماية سماء مصر. وبذلك فقد تم تنفيذ التكليف بما يزيد على المتوقع، وتوقفت "حرب الاستنزاف" بعد زمن وجيز.

كان لوصول فرقة الدفاع الجوى مع قاذفات القنابل المزودة بالصواريخ وطائرات ميج ـ ٢٥ (كان يطلق عليها م ـ ٥٠٠ للتمويه) مع أطقمها السوفييتية تأثير حاسم للإفاقة، ليس فقط الإسرائيليين، ولكن أيضا الأمريكان. كانت هناك محاولات، فى الفترات الأولى، من جانب الطيران الإسرائيلى، وفعليا من جانب الولايات المتحدة الأمريكية، "لاختبار" قدرة وحدات الصواريخ السوفييتية المضادة للطائرات على القتال، ولكن كانت النتائج مؤلمة للمعتدين. لم تتمكن أية طائرة إسرائيلية، أو بتعبير أدق طائرة "فانتوم" أمريكية، من النجاح فى اختراق الحائط الذى أقامه المحاربون السوفييت، على الرغم من أنه تم استخدام مختلف الطرق

التكتيكية. ولكن سيتحدث بشكل أفضل عن ذلك، فى هذا الكتاب، من شارك فى القتال.

أما بالنسبة لنا، نحن الدبلوماسيين، فقد لاحت إمكانية إجراء حوار سياسى مع الولايات المتحدة الأمريكية أكثر هدوءا عن تسوية أزمة الشرق الأوسط، وليس فقط عنها. كان وجود العسكريين السوفييت فى مصر عضدا قويا لمصر ولباقى الدول العربية. وقد أصبح واضحا بالنسبة لكل من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية وحلفائهما أنه عند الوصول إلى تسوية لأزمة الشرق الأوسط، سوف يرحل العسكريون السوفييت. كانت هناك أيضا فكرة أخرى- إنذار الولايات المتحدة الأمريكية حتى لا تحاول خلق نقاط ارتكاز ضد بلدنا فى الشرق الأوسط.

مات ناصر فجأة فى نهاية شهر سبتمبر عام ١٩٧٠. كان ذلك يمثل خسارة فادحة للعالم العربى، وخاصة لمصر. إلى أين ستتجه البلد؟ طار وفد حكومى سوفييتى رسمى لحضور جنازة ناصر، وكان يرأسه رئيس مجلس الوزراء أ. ن. كوسيجين. وكنت أنا أيضا ضمن الوفد، حيث تم اختيارى فى نفس هذا اليوم سفيرا جديدا لبلدنا فى مصر. بموت ناصر بدأت فترة صعبة فى تاريخ علاقاتنا مع مصر. وهى تتطلب شرحًا جادًا منفصلاً.

بالطبع نشأت بينى وبين العسكريين السوفييت علاقات دافئة. وقد قمت بزيارة مواقع مجموعات الصواريخ المضادة للطائرات، وألقيت محاضرات وخطبًا، وتحاورت مع الجنود والضباط. لم يكن الوضع سهلا بالنسبة لهم - مخابئ خرسانية منخفضة الأسقف، محفورة فى الصحراء العارية، وأسرة من ثلاثة طوابق، وهواء ما اصطناعى من مكيفات - وضع أسوأ مما كان عند الإسبرطيين. ولكن... لم تصدر ولا شكوى واحدة، ولم يقدم طلب واحد للإعفاء من المهمة. الواجب هو الواجب، يجب أداؤه. بالطبع كان من الصعب شرح سبب إنارة المدن المصرية فى الليل بالإعلانات الضوئية، ولماذا يجلس الناس على المقاهى، ويتسكع الآلاف من الشباب المصريين فى الشوارع فى هذا الوقت، بينما أقرانهم القادمون من روسيا البعيدة يتناوبون بالحراسة على مدى أربع وعشرين ساعة عند لوحات توجيه الصواريخ المضادة للطائرات.

يجب أن أقول إنه قد وجد فى وقت لاحق قادة عسكريون اختلفوا عن هؤلاء القادة العسكريين أمثال المارشال زاخاروف، والجنرالات (لاشنكو، كاتيشكين،

وجاريف) وغيرهم كثيرين، الذين كانوا مدركين تماما للوضع السياسى ولسمة الوجود المؤقت للعسكريين السوفييت فى مصر. فلم يكن عندهم إحساس بدقة الوضع، وإدراك أن عسكريينا موجودون خارج الحدود فى دولة أخرى ذات سيادة، ولهدف محدد هو حماية مصالحنا فى منطقة مهمة استراتيجيا من الكرة الأرضية.

وقد أصبحت العلاقات غير سهلة، بصفة خاصة بعد وصول الرئيس السادات إلى السلطة. بالطبع كانت مخابرات مكافحة التجسس تقدم له تقارير عن كل الوقائع وعما قاله بدون وعى بعض عسكريينا بخصوص انخفاض قدرة القوات المسلحة المصرية على القتال، وعن أحكامهم غير الحميدة على أسلوب حياة المصريين، وعن السادات نفسه. لقد أحسست بذلك من الأحاديث التى دارت مع السادات، والتى كانت منتظمة فى السنوات الأولى ـ ليس أقل من مرة فى الأسبوع. وقد استقر كل ما تم توصيله إلى السادات على الأرضية التى أعدها جيدا المحيطون بالسادات، خاصة أنه كان يتصف بالشك الكبير والارتياب. كان يتم الإيحاء للرئيس، فى ذلك الوقت، بانتظام، عن طريق قنوات الاتصال التى أنشأتها معه رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق وكالة المخابرات المركزية، بفكرة: التخلص من العسكريين السوفييت، وبأنه حينئذ سوف تقوم الولايات المتحدة الأمريكية بعمل "المستحيل" من أجل مصر. وبدأت الاستفزازات تجاه عسكريينا، وتوجيه اتهامات لهم "بالتجسس" لصالح إسرائيل!؟، أو أنهم يأخذون معهم الكثير من الذهب من مصر!؟. انكشفت لنا بسرعة كل هذه الاستفزازات، فأبلغت بها الرئيس السادات، ولكن يبدو أنه كان يرتب شيئًا ما فى رأسه.

كانت القوات المسلحة المصرية قد أصبحت، قبل بداية عام ١٩٧٢، جاهزة بدرجة جيدة، وعاد إليها الكثير من الضباط المصريين بعد دراستهم فى المؤسسات التعليمية العسكرية السوفييتية من أكاديميات وكليات. كان يحدث فى كثير من الأحيان أن يكون قائد وحدة مصرية ضابطًا مصريًا درس بأكاديمية عسكرية سوفييتية، بينما مستشاره ضابطًا سوفييتيًا قديمًا ذا خبرة، لم يكتف فقط بالدراسة بكلية عسكرية. لم يكن يظهر العسكريون السوفييت كثيرا فى شوارع مصر (فقد كان خبراء الصواريخ فى مواقعهم، والمستشارون مع الجيوش)، كما أنهم كانوا يرتدون الزى المصرى بدون أية علامات مميزة. فقط ملأت

زوجات المستشارين (كنا نطلق عليهم اسم "المؤخرة") الأسواق المصرية. تضافرت كل من الاتصالات السرية للسادات بالولايات المتحدة الأمريكية، وواقع كون الجيوش المصرية قد أصبحت مدربة جيدا، وأنه قد حان الوقت لكى يكون القادة المصريون أكثر اعتمادا على أنفسهم، كما أدى وجود "مؤخرات روسية" كبيرة فى الشوارع إلى دفع السفارة للتفكير فى مدى جدوى استمرار وجود هذا العدد من المستشارين مع زوجاتهم فى مصر. وقد قوى هذا الفكر لدينا عندما علمنا عن أمر من وزير الدفاع السوفييتى: بأنه فى حالة بدأ عمليات حربية، وكان السادات كثيرا ما يكرر الحديث عن ضرورتها، فيجب ألا يشارك المستشارون العسكريون السوفييت فيها! وفى رأينا أن هذه الخطوة سوف تتسبب فى نتائج سياسية غير سارة لنا للغاية.

قامت السفارة بدراسة الوضع بعناية ومن كل جوانبه فوصلت إلى نتيجة تفيد بأنه من المناسب أن يقوم الاتحاد السوفييتى نفسه بتقديم اقتراح للسادات يفيد بخفض عدد الخبراء العسكريين نظرا للقدرة الكافية التى وصلت إليها القوات المسلحة المصرية على القتال. فإذا رأى السادات أن بقى هذا العدد يجب الاتفاق معه على ذلك، فقد رأينا أنه من الأحسن إذا بدأ عسكريونا بمبادرة منا فى "الخروج من مصر" تدريجيا، عما يمكن أن يحدث لو طلب السادات بنفسه سحبهم.

قدمت السفارة تقريرا بكل هذه التصورات للرئاسة العليا لبلدنا. فتم استدعائى إلى موسكو للمشاركة فى اجتماع المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى. وقد استقبلنى ل. إ. بريجنيف قبل الاجتماع، وقال لى إنه متفق تماما مع كل اقتراحاتنا المبررة الجيدة وعلى رؤيتنا البعيدة المدى. كان وزير الدفاع هو أول المتحدثين فى اجتماع المكتب السياسى. قام برفض وبحسم لاقتراحات السفارة، ولكنه لم يبرر بأية صورة موقفه إلا بالإعلان عن أنه فى حالة اتخاذ قرار بالموافقة على اقتراحات السفارة "فإنه يخلى مسئوليته عن حالة القوات المسلحة المصرية!". ولم تكن هناك مناقشة فعلية، ولكن ساد صمت غير مريح، حيث إنه كان لرأى وزير الدفاع بهذا الخصوص وزن كبير. وبعد فترة وجه بريجنيف سؤالاً إلى جريتشكو عما إذا كانت أحكامه متصفة بالاستعجال، فأجاب الأخير بحدة نافيا ذلك. ولكى يخفف بريجنيف من صعوبة الموقف، اقترح تشكيل

لجنة صغيرة لدراسة مقترحات السفارة مرة أخرى، حيث إنها تبدو له مثيرة للاهتمام.

بذلك انتهى الموقف، فسافرت إلى القاهرة. تبين بعد ذلك أن السفارة كانت على حق، بالفعل. فقد أعلن لى السادات فجأة فى يونيه عام ١٩٧٢، و بدون إبداء أية مبررات وبعصبية شديدة أنه يستغنى تماما عن خدمات العسكريين السوفييت. هذه قصة دراماتيكية وشيقة مفاتيحها موجودة فى اتصالات السادات بالولايات المتحدة الأمريكية، ولكنها ليست مناسبة لهذه المقالة. سأقول فقط إن هذا القرار قد أدى إلى تهليل قيادات الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل.

بالطبع اعتبرت القيادة السوفييتية قرار السادات واجب التنفيذ، على الرغم من وجود الكثير جدا من المعارضين فى مصر لتصرف الرئيس الجامح، الذى سلب من البلد ميزة مهمة فى السياسة الخارجية والدفاع. وقد غادرت كل القوات العسكرية السوفييتية مصر بانتظام فى خلال أسبوع. كما كانت هناك مشاهد مؤثرة عندما لم يخجل الكثير من الجنود والضباط فبكوا وهم يفترقون عن معلميهم وأصدقائهم السوفييت.

زارنى السفير الإنجليزى للتأكد من حقيقة مغادرة العسكريين السوفييت لمصر. وعندما سمع تأكيدى لذلك قال: "قبل ذلك كنا نجتهد لحل أزمة العرب وإسرائيل بسرعة حتى يخرج العسكريون السوفييت من الشرق الأوسط، أما الآن فإننا لسنا فى حاجة للعجلة". وهنا ينتهى الجزء الأساسى من التاريخ المتعلق بوجود الخبراء العسكريين بمصر.

ولكن على أن أضيف بعض الأشياء لكى تكتمل الصورة. فقد بدأت كل من سوريا ومصر العمليات العسكرية ضد إسرائيل فى أكتوبر عام ١٩٧٣ لاستعادة أراضيها المحتلة. وتتطلب القصة الخفية لهذا الحدث المهم فى حياة العالم، والتى تمت وراء الكواليس ونتائجها غير المتوقعة، أن يتم إلقاء الضوء عليها بصفة خاصة. أريد هنا أن أشير إلى أحد الأمور. كان على فى هذه الأيام لقاء الرئيس السادات يوميا، وأحيانا أكثر من مرة. كان السادات بالفعل مندهشا بالمستوى العالى لإعداد القوات المسلحة المصرية، وكان معجبا بجودة التسليح السوفييتى المتفوق حتى على السلاح الأمريكى الموجود لدى الإسرائيليين. كان ذلك شيئًا غير متوقع لا يتفق قط مع خطط السادات نفسه، والتى أخفاها عنا. ولكنه على

الرغم من ذلك صاح فى إحدى المرات: "سوف يأتى يوم أروى للجميع فيه ما فعله الاتحاد السوفييتى وخبراؤه العسكريون والسلاح السوفييتى من أجل انتصار مصر - كلنا مدينون لهم!". ولكن لسبب ما، لم يجىء هذا اليوم.

بالفعل، كان الجنود والضباط المصريون مدينين للمستشارين العسكريين السوفييت بمستواهم العالى فى مجال التدريب العسكرى، وكانوا مدينين للخبراء السوفييت لعملهم بلا كلل لتدريبهم ولتعليمهم التعامل مع أحدث الأسلحة. كانت سماء مصر محمية بواسطة مجموعات الصواريخ المضادة للطائرات والتى كان قد أصبح يستخدمها الجنود والضباط المصريون الذين دربهم خبراؤنا. وقد أدت هذه النتائج، غير المتوقعة للسادات، لعمل العسكريين السوفييت فى مصر إلى إحباط بعض حساباته فى علاقاته مع الولايات المتحدة الأمريكية التى كانت تقف صراحة بأسلحتها ورجالها إلى جانب إسرائيل.

تحليلا للنتائج، يمكن بمنتهى الثقة الجزم بأن الخبراء العسكريين السوفييت قد ظهروا فى مصر فى وقت مناسب لبلدنا ولمصر لكى يقفوا أمام الخطط العسكرية لأعداء بلدنا السياسيين. وقد قاموا بإعادة بناء القوات المسلحة المصرية ودربوها جيدا، فى ظل ظروف صعبة. وفى أكثر الأوقات صعوبة، قامت الصواريخ المضادة للطائرات، التى شغلتها أطقم السوفييت، بحماية السماء المصرية بكفاءة، وقامت وحدات من القوات المسلحة السوفييتية، لأول مرة فى أثناء وقت السلام لبلدنا، بتنفيذ مهمة حربية. وقد كانت هذه التجربة مفيدة تماما لقواتنا المسلحة. كان وجود العسكريين السوفييت فى مصر يمثل تجربة مفيدة وناجحة لتفاعل القوات المسلحة والدبلوماسية من أجل تحقيق أهداف السياسة الخارجية. ولم يصبح هذا الوجود فقط صفحة مضيئة فى تاريخ مصر، ولكن أيضا فى تاريخ القوات المسلحة لبلدنا.

عملية "القوقاز": فى قلب الأحداث

أ.ج.سميرنوف

كان مؤتمر منظمة الشبيبة الشيوعية اللينينية منعقدا فى ديسمبر عام ١٩٦٩ بإحدى الحاميات الجوية، وكان ضمن منصة رئاسة المؤتمر قائد وحدة الدفاع الجوى الطيار الشهير الحاصل على وسام بطل الاتحاد السوفييتى مرتين الفريق أول طيار لافرينينكو فلاديمير دميتريفيتش. وفجأة تم استدعاؤه إلى الهاتف.

عند عودته إلى المنصة، أمرنى القائد بالسفر فورا إلى موسكو والذهاب إلى القائد العام لقوات الدفاع الجوى مارشال الاتحاد السوفييتى بافل فيدوروفيتش باتيتسكى.

حصلت على موافقة النواب على ترك المؤتمر وذهبت لشراء تذكرة الطائرة. لم أكن أنا ولا القائد نعرف سبب استدعائى.

فى الصباح الباكر، استقبلنى ب. ف. باتيتسكى، وبدأ الحديث كما يلى: "أنا لا أعرفك يا أيها الرفيق سميرنوف، فنحن لم نعمل معا...". ولكن اتضح فيما بعد أن كلاً من نوابه الفريق أول (شيجلوف أ. ف. سوزينوف ف. د. وبودجورنى إ. ف.) وكذلك عضو المجلس العسكرى لقوات الدفاع الجوى اللواء خاليبوف إ. ف. قد قدموا شهادة حسنة عنى وأوصوا بترشيحى. لذلك قرر باتيتسكى التعرف على شخصيا. ولكنه لم يقل لى شيئًا عن المهمة التى سيكون على تنفيذها.

عرضت عليه بالتفصيل الأماكن التى قمت فيها بخدمتى وبأى صفة، ونوع التعليم العسكرى الذى حصلت عليه، كما كان على الرد على عدد من الأسئلة الأخرى. وقد أثر على تماما أنه اهتم بتفاصيل سيرتى الذاتية وبعدد أفراد أسرتى. لم أكن قد التقيت قبل ذلك بب.ف.باتيتسكى، ولكنى كنت سمعت عن

جديته وحتى عن صرامته، وكنت قد استعددت على مضض، بصفة خاصة، لمثل هذا اللقاء. لذلك اندهشت برضاء من اقتناعى بروحه الطيبة وبإنسانيته.

استمع إليّ بانتباه، وكما تهيأ لى كان راضيا عن عرضى. نادى باتيتسكى على الفريق أول سوزينوف، وأبلغنى فى وجوده بما وصفه بمعلومات سرية عن إعداد عملية "القوقاز"، وأطلعنى باختصار على الموضوع، وأمر ف. د. سوزينوف بتعريفى تفاصيل خطة العملية. أنذرنى ف.د سوزينوف بأنه لا يجب أن يعرف أحد شيئًا عن ذلك. وقعت على مستند وأنا غير مدرك بعد فعليا، ما على تنفيذه أنا والأفراد التابعون لى.

كان يجب على التفكير فى موضوع نوابى وضباط أركان الحرب. رشح لى اللواء خابيلوف ب.ف. ضابطا بالعمل السياسى كنت فعليا لا أعرفه فى ذلك الوقت لكى يشغل منصب رئيس القسم السياسى وليكون نائبا للشئون السياسية. فى ذلك الوقت كان نائبى للشئون السياسية - رئيس القسم السياسى هو المقدم ميخايلوف ف. ج. الذى كان متخصصا فى تقنيات الطيران. ولكن كانت الفرقة التى عهد لى برئاستها لتنفيذ تكليف خاص هى فرقة صواريخ ومدفعية. وحيث إننى كنت أعرف ميخايلوف جيدا جدا لأنه كان أولا رئيسا للقسم السياسى لآلاى الطائرات المقاتلة بالفرقة التى كانت تحت قيادتى، ثم أصبح أيضا تحت قيادتى رئيسا للقسم السياسى للفرقة، فقد طلبت أن يتم تعيينه رئيسا للقسم السياسى للفرقة التى جارى تكوينها. وقد تمت الاستجابة لرغبتى، وتم استدعاء ميخايلوف إلى موسكو لعقد مقابلة معه، وتم اعتماد تعيينه فى المنصب الجديد.

وفى خلال الحديث، قال لى الفريق أول سوزينوف إننى سأتعرف على قادة الوحدات وعلى الضباط وعلى كل باقى الأفراد مباشرة فى أثناء فترة الإعداد وفى ميدان الرماية التى سوف يتم فيها التدريب على الرماية. أما فعليا، فقد تم كل شىء بشكل آخر، فقد تعرفت عليهم فى وقت متأخر بعض الشىء - فى ميناء الإسكندرية وفى مواقع الانطلاق فى مصر، التى كانت تسمى فى ذلك الوقت "الجمهورية العربية المتحدة".

ولكن فى ذلك الحين، كان على أن أطير تحت رئاسة المارشال باتيتسكى إلى مصر للقيام بعملية استكشاف واختيار عناصر التشكيلات القتالية بالوحدات والفرق.

كان ذلك عملاً شاقًا يتطلب جهدًا بدنيًا كبيرًا. كان العمل يستمر من الصباح الباكر إلى المساء، أو إلى الإظلام، الذى يتم فى هذه المناطق الإفريقية فجأة فى لحظة. أدهشتنى الطاقة الكبيرة التى يتمتع بها باتيتسكى الذى كان قد بلغ فى ذلك الوقت ٦٠ عامًا. لقد ذهب تقريبا إلى كل الأماكن التى تم اختيارها لتكون مواقع إطلاق لكل كتيبة صواريخ، موافقا أو معترضا على اختيارها.

تم تقديم نتائج هذا العمل إلى رئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبد الناصر، الذى عقد لنا لقاء معه فى يوم ٢ أو ٣ يناير (لا أستطيع الجزم بدقة) عام ١٩٧٠. و قد حضر اللقاء مع ناصر نائب رئيس الجمهورية أنور السادات. قدم باتيتسكى كلاً منا شخصيا إلى ناصر(كان عددنا ١٠ أفراد)، ذاكرا الاسم والمنصب. وعندما ذكر عمل أ. ف. خاليبوف لم يفهم ناصر معنى هذا المنصب، فشرح باتيتسكى منصبه كأب روحى، أو بمعنى آخر "قس" بالنسبة لنا، أو "مللى" بمفهومهم. لم نستطع أن نمسك بابتساماتنا، كما أن ناصر ابتسم هو أيضا راضيا عن هذا التوضيح. لم ينبس أ.السادات أية كلمة على مدى كل الاجتماع، الذى كان طويلا، ولكنه كان ينصت فقط.

وقد قدمنى باتيتسكى تقريبا على النحو التالى:"سيقوم هذا الجنرال الشاب مع قواته بتنفيذ مهمة صد هجمات طيران إسرائيل على أهداف ببلدكم ولن يسمح بضربه للأهداف فى بلدكم". فهمت بشكل صحيح بعد هذا الإعلان مدى صعوبة الأهداف التى سيكون على تحقيقها هنا.

بانتهاء الحديث، وبينما كنا نستعد للانصراف، أمسك ناصر يدى بكلتا يديه وطلب منى عن طريق المترجم سرعة العودة إلى مصر. (لاحظت أن يدى كانت أصغر من يده على الأقل مرة ونصف. وكان مظهره يدل على أنه شخص قوى بدنيا. وكان من الصعب افتراض أنه لن يكون موجودا على قيد الحياة بعد عدة شهور).

كان علينا السفر فى إليوم التالى إلى موسكو. تقريبا فى الساعة ٩ صباحا، جمعنا أ. ف. خابيلوف وطلب منا أن نكون جميعا فى الطائرة فى الساعة ٣٠: ٨، حيث إنه كان يعلم باتيتسكى سيحضر قبل الموعد بقليل وأنه لن ينتظر أحدًا. كنا جميعا فى المطار فى الثامنة تماما. وقد قدمت لنا هدايا تذكارية من ناصر.

وعندما فتحت فى موسكو العلبة، التى أعطيت لى، وجدت بها طبقًا مطعمًا بالصدف وقطعة قماش لبذلة. وما زال هذا الطبق معلقا الآن على حائط بمنزلى، أما البذلة، التى تم تفصيلها لى بمناسبة بلوغى سن الخمسين، فمازلت حتى الآن أرتديها أحيانا. هذه الأشياء تمثل ذكرى عن تلك الأحداث المهمة فى حياتى (و ليس فقط فى حياتى وحدى).

وصل باتيتسكى إلى المطار فى الساعة ٨: ٣٠، و لم يكن قد ظهر فى الصالون بعد ضابطان برتبة عقيد، من اللجنة الحكومية للتعاون الاقتصادى، وكانا قد طلبا بالأمس السفر معنا. وعندما أبلغ باتيتسكى بذلك، أمر بالإقلاع. وصلت سيارة العقيدين المتأخرين بعدما كانت أبواب الطائرة قد أغلقت وتم تشغيل المحركات. وعلى الرغم من ذلك أعطى باتيتسكى الأمر بالإقلاع: كما أمكنهما التأخر، سيتمكنا من السفر". كان يحب الدقة دائما ولا يحب التأخير. بذلك عودنا على النظام. وأنا شخصيا أعتبر ذلك صحيحا، وأجتهد فى حياتى لكى لا أتأخر قط، كما أنى أطالب مرؤوسيى أيضا بذلك.

قامت مجموعة الجنرالات، عند عودتها من الجمهورية العربية المتحدة، بعرض نتائج عملية الاستكشاف، وأعدت مخططات ومواد لعرضها على وزير دفاع الاتحاد السوفييتى المارشال أ. أ. جريتشكو.

لم أدع إلى الاجتماع الذى عقد فى ٥ - ٧ يناير مع وزير الدفاع. ولكن أمرنى باتيتسكى بالذهاب إليه ناصحا: "سوف تجلس فى الصفوف الأخيرة وتسمع، سيكون ذلك مفيدا". وقد حضر إلى الاجتماع بالإضافة إلى باتيتسكى كل من الفريق أول (سبجلوف، سوزينوف، وخاليبوف) من الدفاع الجوى. وقد رأيت هنا أيضا ممثلين للقوات البحرية والقوات الجوية برئاسة قادتها العاملين، وأصبح من الواضح أن الاجتماع لا يخص فقط سلاح الدفاع الجوى.

كان أول المتحدثين هو قائد القوات البحرية الأميرال س. ج. جورشكوف، ثم تحدث الفريق أول أ. ف. شيجلوف من قوات الدفاع الجوى. وقد انتهت الكلمتان بدون أية تعليقات من وزير الدفاع. وتحدث من قوات الطيران، النائب الأول لقائده العام مارشا ل طيار أ. ن. يفيموف سار كل شىء طبيعا، ولكن عندما طالب يفيموف بزيادة عدد الطائرات التى سيتم إرسالها إلى مصر، قاطعه

جريتشكو مبديا عدم رضائه عن الكلمة، موضحا أنه لا يجب تنفيذ الهدف بالكم ولكن بالقدرة، وأنه لا يجب التفكير فقط فى النفس ولكن فى البلد أيضا وعن الدفاع عنها. ثم أضاف تقريبا ما يلى: "أما أنت أيها الرفيق يفيموف، فأنت تفكر مثل تاجر سئ - على استعداد لبيع كل شىء". ولم يمنحه بعد ذلك فرصة الاستمرار فى الحديث، بل أمره بالجلوس.

ساد الصمت فى القاعة. كان الجميع يترقب حدوث شىء ما. وهنا سأل جريتشكو: "هل يوجد هنا قائد فرقة دفاع جوى؟". لم أكن لا أنا، ولا القائد العام للدفاع الجوى، ولا نائبه، نتوقع سير الأحداث بهذا الشكل، حيث إنه لم تكن قد وجهت دعوة لقائد فرقة (أى لى) لحضور الاجتماع، ولم أكن بالطبع قد جهزت لإلقاء كلمة.

كنت أجلس فى الصف الخلفى، فوقفت بعد سؤال جريتشكو مقدما نفسى: "قائد فرقة...الجنرال سميرنوف". "أعرض أيها الرفيق سميرنوف... كيف ستنفذ الأهداف التى كلفت بها.

ذهبت إلى الخرائط، وعرضت تقريرا عن التشكيلات القتالية، وعن إمكانيات القتال، وعن تجهيز الأفراد، وعن إمكانيات عمل طيران العدو، ثم أجبت على أسئلة الوزير. أعلن بعد ذلك وزير الدفاع استراحة.

اقترب منى ب. ف. باتيتسكى قائلا: "حسنا، يا ذا الشعر الأحمر، لقد كسبت غداءك". كان من الواضح رضاؤه عن عرضى. كان ذلك أول تقرير أقدمه لوزير الدفاع، ولكنه لم يكن الأخير.

حصلت على أمر بتشكيل مجموعة عمل من ٢٠ فردا، فسافرت إلى مكان خدمتى بمدينة دنيبروبتروفسك.

سافرت إلى الجمهورية العربية المتحدة فى منتصف شهر يناير عام ١٩٧٠ على رأس مجموعة عمل لمعاونة الجانب العربى على بناء المنشآت الهندسية وتجهيز الترتيبات العسكرية اللازمة لإيواء الجنود ووحدات الفرقة.

لم يكن من بين أفراد المجموعة أى مترجم (وهو ما لا يجوز أبدا عند تكوين مجموعات للعمل خارج الحدود). من الواضح، أنه كان من الصعب تنفيذ الأعمال

المحددة لنا بدون معرفة اللغة العربية أو أية لغة أجنبية أخرى. كان الجزء الأكبر من الضباط العرب من المستوى الأعلى ومن الرتب الأكبر يعرفون الإنجليزية جيدا، وبعضهم كان يعرف قليلا الروسية.

كنت قد أتممت دراستى فى أكاديمية أركان الحرب، والتى كان يتم فيها تعليم اللغات الأجنبية بمستوى جيد. وقد اجتزت امتحان الدراسة التحضيرية لدرجة الدكتوراه فى اللغة الإنجليزية، ولكنى كنت قد نسيت كل شىء تماما قبل عام ١٩٧٠، لذلك اضطررت إلى دراسة اللغة الإنجليزية بشكل مكثف. وكنت فى ذلك الوقت أستطيع قراءة الصحف باللغة الإنجليزية بدون الحاجة إلى قاموس.

لم يكن الهدف من سفر مجموعة العمل فى وقت مبكر هو فقط التعجيل بعملية بناء المواقع الحربية، ولكن أيضا الإشراف على جودة البناء، وعلى تنفيذ المسئوليات التى تم الاتفاق عليها لإنشاء مراكز قيادة لوحدات وفرق صواريخ الدفاع الجوى، والتى تكون قادرة على تحمل ضربات مباشرة من قنابل ٥٠٠ كيلوجرام تسقطها الطائرات عليها. كان سمك خرسانة جدار مركز قاعدة الانطلاق مع طبقة الرمال يصل إلى ٤,٥ متر.

ولكى يتم تنفيذ المهمات الحربية بحيث لا تكون هناك خسائر فى الأفراد، فقد خصصت حكومتنا وكذلك وزير الدفاع، لأول مرة فى عمل قوات الدفاع الجوى، لكل كتيبة بطاريات الصواريخ والدافع المضادة للطائرات فصيلة حماية. كانت تضم هذه الفصيلة ٤ وحدات "شيلكا"(مجموعة رادار حربى يتكون من رادار، ووحدة مكونة من أربع فوهات مدافع تطلق حتى ١٠٠٠ طلقة فى الدقيقة من كل فوهة)، ومجموعات صواريخ بأجنحة محمولة مضادة للطائرات متنقلة من طراز "ستريلا ـ٢". وقد لعبت هذه الفصائل دورها الإيجابى فى أثناء المعارك الحربية. وكان قد صدر لى، فى خلال الاجتماع مع وزير الدفاع، والذى أشرت إليه أعلاه، أمر بإبلاغ القائد الأعلى للدفاع المضاد للطائرات عن تقدم العمل فى بناء المواقع، حيث إنه سيأمر وزير الدفاع بإرسال القوات إلى الجمهورية العربية المتحدة، فقط بناء على بلاغى باكتمال البناء.

كان يعمل عشرات الآلاف من المصريين فى بناء المواقع، وكانت عملية البناء تسير بنجاح، ولكن ما زال الباقى كثيرًا على الانتهاء من بناء كل المواقع. كانت

المواقع الجارى بناؤها والتى كان يعمل بكل منها مئات من الأفراد، تتعرض للقصف بالقنابل من جانب الطيران الإسرائيلى. وكانت هناك خسائر فى الأفراد.

وعلى الرغم من عدم اكتمال كل من نقطة القيادة ومواقع الإطلاق فقد تم إبلاغنا بأن القوات خرجت وأنها ستصل إلى الإسكندرية. كان الأمر قد صدر باستقبال القوات ووضعها فى أماكن القتال والبدء فى تنفيذ المهام الحربية. كنت أذكر تعليمات وزير الدفاع عن أن القوات لن تحضر إلا بعد بلاغ منى بالاستعداد لاستقبالها، فغضبت وتوجهت إلى مقر الاتصال السرى العسكرى للاتصال بوزير الدفاع وإبلاغه بأننا لسنا بعد على استعداد لاستقبال القوات، ونتيجة لذلك طلب تأخير حضورها.

قابلت الفريق أول أ. ف. شيجلوف وعرضت عليه كل الوضع بغضب. ابتسم شيجلوف ووضع يده على كتفى قائلا: "ألكسى (كان ينادينى باسمى بود) أنت قائد كبير، ويجب أن تتصرف". على الرغم من المبررات التى قدمتها، استمر يوضح لى مدى عدم جدية اعتراضاتى. "إذا كان يتم إرسال القوات بدون انتظار بلاغك، يكون لذلك أسباب، أى أن هذا القرار قد أخذ، وأن علينا أنا وأنت أن نفعل كل ما هو ممكن لكى نقوم بمهمتنا الحربية بنجاح، فى ظل هذه الظروف". "بردت"، وتفهمت الأمر، وأحسست بالخجل من نفسى. وقد كان ذلك درسا جيدا لى، وكثيرا ما تذكرته فيما بعد، وقمت بتعليمه للضباط التابعين لى.

تمت عملية نقل القوات بحرا بسرية تامة، وقد انتهت بنجاح. ولكن كيف تمت، فهذا يحتاج لحديث آخر. لقد تطلبت هذه العملية تماسكًا نفسيًا ومعنويًا كبيرًا والكثير من الجهد بتوتر. وقد تمت عملية إنزال المعدات فى الميناء والسير فى أماكن غير معروفة لنا فى ظلام كامل بنجاح تام. كما كانت هناك بعض المنغصات. فقد أصيب قائد فصيلة الحماية الملازم أول أندرييف إصابة بالغة، وعلى الرغم من كل الإجراءات التى تم اتخاذها، توفى بعد خمسة أيام. وكانت هذه أول خسارة لنا بين الأفراد.

وقعت أيضا بعض الحوادث الأخرى. أشير فقط إلى أحدها: وهو أن إحدى وحدات "شيلكا" التى فى غاية السرية، والتى تم لأول مرة إرسالها إلى الخارج، سقطت فى قناة رى. وقد احتاج إخراجها إلى جهود ضخمة، ولكن تم ذلك بنجاح.

وعلى الرغم من استعداد الأفراد لمواجهة اختبارات صعبة، وفهمهم أن الحرب هى الحرب، وأنه ستحدث خسائر فى أثناء تنفيذ العمليات، فلم يكن الجميع مستعدين لمثل هذه الاختبارات.

كثيرا ما كان يحدث، فى أثناء السير فى الليل، أن كان ينعس ببساطة سائق السيارة وقائدها على عجلة القيادة فى أثناء الحركة. وكان علينا إيقاف القافلة بعد ساعة أو ساعتين من الحركة، لاستعادة النشاط، وذلك باستدعاء كل قادة السيارات مع السائقين ركضا إلى مقدمة أو إلى ذيل القافلة وتذكيرهم بإمكانية قيام العدو بضربنا.

وفى أثناء العمليات الحربية عند تغيير مواقع القتال، وهو ما كان يتم فى الليل فقط، لم يحدث ولو لمرة واحدة أن نام أحد السائقين على عجلة القيادة، فقد كان يعلم الجميع أنه إذا لم تكن فرق الصواريخ المضادة للطائرات جاهزة للقتال فى الموقع الجديد، قبل ظهور الشمس، فإن ذلك سيؤدى إلى نتائج وخيمة لأن العدو كان يوجه ضربات لمواقع الدفاع ولمواقع منصات إطلاق الصواريخ المضادة للطائرات عند طلوع الفجر.

أظهر أفراد الفرقة روحًا معنوية قتالية عالية عند توزيع الوحدات، وأظهروا درجة عالية من نكران الذات والفطنة والفراسة. سأقدم مثالاً عن ذلك: بعد القيام بنقل كتيبة الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات إلى موقع قتال والعودة لأخذ كتيبة أخرى، رأيت على الطريق سيارة جرارة متوسطة تجر سيارة نقل كبيرة.

رأيت أنه لا يجب أن توجد مثل هذه السيارة على طريقنا، فلا يجب أن يكون عليها إلا سياراتنا. أوقفت السيارة وزعقت:"من السائق هنا؟". حضر إلى بسرعة جنديان يمسكان بمدافع رشاشة وأفادانى بأن هذه هى وحدة اتصالاتهم، وأنهم قد تخلفوا عن قافلتهم. لذلك فقد أوقفوا سيارة نقل وأمروا سائقها العربى بجر وحدة الاتصالات وتوصيلها إلى أقرب مطار، حيث قابلتهم. وهما قد أمرا بجرها للمطار لأنهما كانا يأملان فى أن كتائب صواريخنا ومدافعنا المضادة للطائرات تقوم بحمايته، وأنهم سيجدون زملاءهم هنا.

كان أحد الجنديين أوكرانيًا، لا يمكن نسيان لقب عائلته "نيبى فادا"(٢). أما لقب الثانى فقد نسيته للأسف. كان عمرهما ١٩ سنة، وكانا لأول مرة موجودين فى قارة أخرى، لم يضطربا وأظهرا فطنة واستمرا فى تنفيذ المهمة التى كلفا بها. قدم لهما سائق سيارتى معلبات وخبزًا ومختلف "المأكولات الشهية" الأخرى، التى كان دائما يحملها، وضايف رفاقه بسرور. أما أنا فشكرت هذين الشابين وفكرت فى المهمات التى يمكن أن ننفذها مع مثل هؤلاء الجنود. يمكن ذكر الكثير من مثل هذه الأمثلة.

فى الحقيقة، أريد أن أشير إلى عيب كبير كنت أكرر ذكره كثيرا فى تقاريرى للرئاسة، وهو يتعلق بالتسليح الشخصى للجنود. فقد تم منحهم عند ترحيلهم رشاشات حديثة الطراز، بينما كان الأفراد يسلحون ببنادق قصيرة، وبالطبع لم يكونوا يعرفون السلاح الجديد. وسوف يكون شرح ما أدى إليه ذلك غير مرغوب فيه.

وعلى الرغم من الصعوبات التى واجهناها خلال توزيع الوحدات والتشكيلات فقد تمت هذه العملية بنجاح. كانت أول وحدات صواريخ مضادة للطائرات تم توزيعها ومركزتها فى وضع الاستعداد للقتال هى تلك التى كان يقودها المقدمان ن. م. كوتينسيف وكيريشنكو. تم ذلك فى ليلة يوم ١٤ ـ ١٥ مارس عام ١٩٧٠. و قد هنأت الأفراد بدخولهم إلى وضع الاستعداد للقتال من أجل تنفيذ التكليفات الحربية بروح عالية، وذهبت إلى كبير المستشارين العسكريين الفريق أول كاتيشكينا. س. لأقدم تقريرى لوزير الدفاع عن الاستعداد لتنفيذ العمليات القتالية.

عند دخولى إلى المدينة العسكرية، رأيت رئيس القسم السياسى يعدو فى اتجاهى وهو شاحب الوجه. أبلغنى أن كوتينسيف أسقط إحدى طائراتنا (أى العربية). قلت له إن ذلك غير ممكن، وأن هناك خطأ ما. كان كل شىء حسنا منذ نصف ساعة، عندما كنت عنده، وهو ما سوف يمكننى الآن إبلاغه لوزير الدفاع.

ولكن تبين أنه لم يكن هناك أى خطأ، وأنه تم إسقاط طائرة إيليوشن ـ ٢٨ يقودها طاقم عربى كانت تطير على ارتفاع ١٥٠ ـ ٢٠٠ متر بواسطة أول صاروخ أطلقته فرقة الصواريخ المضادة للطائرات التى يقودها كوتينتسيف. بالطبع كان ذلك يمثل حدثًا طارئًا. وهكذا بدأنا فى تنفيذ مهماتنا القتالية.

---

(٢) يترجم بمعنى «لا تشرب الماء».

قرر كبير المستشارين العسكريين إنهاء مهمة المقدمين كوتينتسيف ورجيأوسكى فى خلال ٢٤ ساعة، بفرض أنهما كانا غير مؤهلين لتنفيذ مهام قتالية. وعلى الرغم من تقريرى عن أن هذين الضابطين مدربان جيدا، وأنه يجب بحث ملابسات الموضوع، وفقط بعد ذلك اتخاذ قرار، فإنه قد صدر لى أمر بكتابة تقرير عنهما يفيد بأنهما غير قادرين على تنفيذ المهام التى تم تكليفهما بها. فى ذلك الوقت تم إبلاغ وزير الدفاع بما حدث بشكل مباشر. رفضت فى البداية كتابة مثل هذا التقرير، ولكنى اضطررت فى النهاية إلى إطاعة الأوامر. وفى الجزء الخاص باستخلاص النتائج، كتبت أن هذين الضابطين مدربان جيدا لتنفيذ المهمات الحربية.

تركت السيرة الذاتية للاثنين، وذهبت إلى نقطة القيادة.. إلى رجيأوسكى، حيث اقتنعت بأن الضابط قد أدى كل ما عليه لمعرفة هوية الطائرة المجهولة، وأنه قد حصل على كل المعلومات من ضباط عرب كانوا موجودين فى نقطة القيادة، وأنه فقط بعد التأكد من أنه لا توجد طائرات عربية تحلق فى الجو، تقرر تدميرها. وقد نفذ المقدم كوتينتسيف الأمر.

ذهبت بعد ذلك إلى قائد الفرقة المصرية للدفاع الجوى اللواء محمد سعيد بسيونى وأبلغته بعدم مسئولية ضباطنا عن هذا الحادث. استقبلنى بسيونى بفرح، وأعلن لى أن الضباط السوفييت فعلا غير مسئولين عن ذلك، وأنه إذا كان قد تم إسقاط طائرة فإن ذلك حتى يمثل حدثًا حسنًا جدا.

كان كل الضباط والجنود الذين شاهدوا كيف تم إسقاط الطائرة قد صاحوا: "أحسن من الهوك! أحسن من الهوك!". هكذا تم تقييم تقنياتنا العسكرية، التى وقفت للدفاع عن أهداف جمهورية مصر العربية.

عدت إلى الفريق أول كاتيشكين إ. س. - وكان يوجد عنده كبير قوات الصواريخ المضادة للطائرات اللواء ل. أ. جروموف، الذى أمرنى بتغيير النتائج المستخلصة فى التقرير وأن أضيف أنه يجب إرسال هذين الضابطين إلى الاتحاد السوفييتى متعللا بأنهما غير معدين لتنفيذ المهام القتالية. قمت بإعادة كتابة التقرير ثلاث مرات، بناء على الأوامر، ولكنى على الرغم من ذلك أبقيت النتائج المستخلصة كما كانت. عندئذ كتب جروموف بنفسه قرارًا بإرسال هذين الضابطين إلى الاتحاد السوفييتى، وقام كاتيشكين باعتماده.

فى ذلك الوقت تم استدعائى للحديث مع موسكو هاتفيا. كان القائد العام لقوات الدفاع الجوى باتيتسكى قد طلبنى. قدمت له تقريرا عما حدث، فأمرنى بزيارة القيادة الحربية بالجمهورية العربية المتحدة وتقديم اعتذار، على أن أعرض نتيجة المقابلة عليه.

قدمت عزائى لرئيس أركان حرب الجمهورية العربية المتحدة الفريق صادق ورويت له عن أداء ضباطنا. لم يتقبل صادق الاعتذار نيابة عن وزير الدفاع الفريق فوزى، ولكنه قال إن الضابطين قد فعلا الصواب، وأكد أن إسقاط الطائرة قد ترك انطباعًا جيدًا لدى الضباط، وعلى كل أفراد الجيش العربى، الذين شاهدوا كل ما حدث، وقيموا بقدر عال قدرات فرقنا التى جاءت لتقديم المساعدة. وقد شكرنى صادق أنا وكل الأفراد الذين معى على القدرة على العمل ومستوى التدريب العالى على خوض المعارك.

أبلغت باتيتسكى هاتفيا بنتائج زيارتى لرئيس هيئة أركان حرب جمهورية مصر العربية الذى قام بدوره بنقل أمر وزير دفاع الاتحاد السوفييتى المارشال جريتشكو بعقاب كل من المقدمين رجيأوسكى وكوتينتسيف طبقا للسلطات الممنوحة لى، وإبقائهما فى مكانهما، وبحث جوانب هذا الحدث مع كل ضباطى... وقد قمت بذلك. وقد أمرنى فى الوقت نفسه بإبلاغ الجنرال جروموف بالسفر فورا إلى موسكو.

وبذلك انتهت هذه القصة غير السارة و فيما يخص ذكر اسم جروموف، فإنى أريد أن أذكر رأيى أن عدم ثقة القيادة العليا فى قادة التشكيلات، وبشكل أحرى فى قادة الوحدات، كان غير مناسب. فقد كان يوضع فوقهم، بصفة عامة، كل ما أمكن من المراقبين، أو الأوصياء... كما حدث أيضا فى هذه المرة.

كانت مجموعة كبيرة من الضباط ذوى الكفاءة العالية، الذين كان يجب أن يقدموا العون لقائد الفرقة من أجل المحافظة على المستوى العالى لاستعداد الوحدات للقتال، تقوم بدور همزة الوصل بين قائد الفرقة وكبير المستشارين العسكريين. ولكن هذه المجموعة لم تتمكن من أداء عمل جاد للمحافظة على المعدات فى حالة استعداد للقتال، حيث إنه لم يكن متوفرًا لها أية إمكانيات فنية. وقد اجتهد ضباط المجموعات فى المساعدة فى إصلاح أية مشاكل فنية، ونشروا

نتائج المعارك. ولكن كثيرا ما كان يخطط هذا العمل بدون مراعاة العمليات التى تتم طبقا لخطط قائد الفرقة، مما حد من قدرة القائد على المبادرة. وقد كان من الأجدى تماما لو كان هؤلاء الضباط، الذين كانوا فى العادة ماهرين جدا، واقعين تحت القيادة المباشرة للقائد المكلف بالمهمة الحربية.

تم توزيع ونشر الوحدات فى ظل ظروف صعبة ومضطربة، فقد كان العدو يقوم بهجمات يومية على الأهداف فى الجمهورية العربية المتحدة، وكانت قد وجهت ضربات إلى مصنع أبو زعبل، حيث قتل ٨٠ عاملا، فى تلك الفترة بالذات. كما تعرض مجمع الحديد والصلب بحلوان، القريب من القاهرة مباشرة، إلى القصف. وقتل عشرات من التلاميذ فى قرية بحر البقر الصغيرة.

كان يتم إبلاغ كل هذه المعلومات إلى الجنود الذين كانوا يعملون بتفان ويفعلون كل ما هو ممكن من أجل الوقوف دفاعا عن الجمهورية العربية المتحدة. وقد وقفت كل الوحدات فى وضع استعداد للقتال، وبدأت فى تنفيذ مهماتها الحربية.

كان العدو يقوم بعمليات تجسس جوى نشطة، ولكن عادة لم تكن تدخل الطائرات الإسرائيلية فى حدود مرمى صواريخنا المضادة للطائرات. وقد تعرضت بعض مواقع الصواريخ والمدافع المضادة للطائرات العربية للضرب. لم ينجح إطلاق الصواريخ على الطائرات فى الحدود المتطرفة لمرماها، فقد كانت طائرات "الفانتوم" تنجح فى الاستدارة وتخرج من حدود مرمى الصواريخ. لذلك كان من الضرورى تغيير تكتيك العمل. صدرت تعليمات محددة. الآن أصبح على قائد الفرقة أن يصدر الأمر بإطلاق الصواريخ فى عمق منطقة مرماها، وكان يحدد بعد طائرة العدو. كان ذلك يتطلب من كل الجنود، وبصفة خاصة من قائد موقع الصواريخ المضادة للطائرات، ومن الضباط، عملاً توجيهاً دقيقًا للصواريخ وقدرة عالية على التماسك واستعدادًا نفسيًا ومعنويًا فائقًا. كان يجب على القائد أن يكون واثقا من أن الجنود والمعدات سيعملون جيدا، وإلا فإن العدو سيوجه ضربة لفرقته. وهو ما كان يعنى هلاك الأفراد وتدمير المعدات.

أثبت التكتيك الجديد للقيام بعمليات القتال صحته، فقد تم إسقاط أول طائرة "فانتوم" بأول صاروخ أطلقته الفرقة التى تحت قيادة النقيب ملياؤكا فاليرى برانو. سقطت أول طائرة "فانتوم" إسرائيلية، إحدى الطائرات الأمريكية

الصنع المتفوقة، التى كانت تروى الأساطير عن تفوقها. سقطت على أرض مصر. حدث ذلك فى يوم ٣٠ يونيه عام ١٩٧٠. و فى تلك الليلة نفسها، تم جمع كل قادة الكتائب والضباط المسئولين عن توجيه الصواريخ وقادة أقسام الرادار لدراسة تجربة أول معركة ناجحة بفرقة ملياؤكا.

هنا يمكن أن أحكى عن أنه عندما صدر لى الأمر العسكرى بخصوص عملية "القوقاز"، أخبرنى باتيتسكى بأن قائد أول فرقة صواريخ مضادة للطائرات ستقوم بإسقاط طائرة "فانتوم" سيقلد وسام "بطل الاتحاد السوفييتى". وكما قال لى، تم الاتفاق على ذلك مع وزير الدفاع. وبالطبع لم أقل ذلك لأحد، ولكن بمجرد أن تم إسقاط أول طائرة "فانتوم" تم عمل الإجراءات اللازمة لتقليد النقيب مالاؤكا وسام "لنين" ومنحه لقب "بطل الاتحاد السوفييتى". كما تم تقليد النقيب ملاؤكا بوسام "العلم الأحمر العسكرى".

ظهر عندنا بعد ذلك أبطال آخرون، ولكنى سأتحدث عن ذلك فيما بعد.و قد تبع أول طائرة "فانتوم" تم إسقاطها فى يوم ٥ يونية ١٩٧٠، سقوط طائرة أخرى على أرض مصر وهى مشتعلة بلهب تنبعث منه الأتربة. أسقطتها كتيبة الرائد س. ك. زافسنتسكى. فى ذلك اليوم نفسه، ابتسم الحظ لطائرة "فانتوم" ثالثة نجحت فى الوصول إلى الأرض الواقعة خلف قناة السويس، والتى استولت عليها إسرائيل نتيجة اعتدائها على الجمهورية العربية المتحدة فى عام ١٩٦٧، تاركة وراءها دخانًا ولهبًا. كما لقيت فى ١٨ يوليه أربع طائرات "فانتوم" أخرى حتفها بواسطة صواريخنا. وفى يوم ٣ أغسطس عام ١٩٧٠ أسقطت ثلاث أخرى، وتمت إصابة طائرة رابعة من القوات الجوية الإسرائيلية.

على مدى الفترة من ٣٠ يوليه إلى ٣ أغسطس فقط، قامت وحدات الكتيبة بإسقاط ٩ طائرات إسرائيلية وإصابة ٣. و قد هوت هذه الطائرات الثلاث على أرض العدو خلف قناة السويس، فلم نتمكن من التأكد من تدميرنا لها. ولم تتكبد إسرائيل، قبل ذلك، بدءا من عام ١٩٦٧ـ عام الاعتداء، مثل هذه الخسائر الكبيرة فى الجو.

وقد ظهرت فى مذكرات بعض رفاقى أرقام أخرى لخسائر إسرائيل. بل لقد ذكر إسقاط ٢١ طائرة، كما وجدت أرقام أخرى. من أين أتوا بها؟ لا أدرى. ولكن ليكن ذلك على حساب ضمير من كتب مثل هذه المذكرات.

أحب أن أشير إلى تصرفات ضباطنا، ونقبائنا، وجنودنا فى المعارك. لم تحدث حالة ذعر واحدة، أو جبن. لقد تصرفوا برجولة، كما اعتاد المحترفون. ويمكن تقديم أمثلة عديدة، ولكنى لم أضع لنفسى هدف أن أتحدث عن الجميع وعن كل شىء. سوف أعرض تلك الأحداث التى أتذكرها أكثر.

حاول العدو تدمير كتائب الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات التى تحمى الأهداف وتمركزات القوات. وقد شاركت ٢٤ طائرة "فانتوم" (ستة تشكيلات كل منها يضم ٤ طائرات) فى الهجوم على مجموعة من ٥ كتائب صواريخ ومدفعية مضادة للطائرات. دخل جنود الصواريخ معركة غير متكافئة. كانت الطائرات تهاجم كتيبة الصواريخ التى يقودها المقدم فاسيلى ماتفييفيتش من مختلف الاتجاهات. تمكنت الكتيبة بإطلاق صواريخ صوبت بإتقان من تدمير طائرة معادية، ثم طائرة أخرى. كان هذا المصير نفسه ينتظر الطائرة الثالثة أيضا، ولكن فى ذلك الوقت انفجرت صواريخ أطلقت من طائرات هاجمت من الجهة الأخرى على منصات الإطلاق. دفعت موجة الانفجار كل الأفراد العاملين بغرفة التحكم فى بطاريات الصواريخ مع قائدهم إلى الخارج، فأصيبوا كلهم بكدمات. وانفجرت القنابل فى الموقع فاحترقت المعدات الحربية. اندفع الجنود بتفانٍ لإخماد الحرائق، ونقل الموتى والمصابين على الرغم من علمهم أن بعض القنابل التى سقطت موقوتة وأنها ستنفجر بعد فترة. وقد قاد كل هذه الأعمال نائب قائد الفرقة الرائد تشيرفينسكى ك. ب. كما أظهر الرقيب أ.ف.جوشينكوف شجاعة فائقة وقدرة على الحسم. فلم يفقد أحد أعصابه فى وقت بمثل هذه الصعوبة.

كما أظهر جنود كتائب المقدم ن. م. كوتينتسيف (هو نفسه، الذى قامت كتيبته فى يوم استعداد وحدته للقتال بإسقاط طائرة إيليوشن ـ ٢٨ عربية) وكتيبة المقدم بوبوف ك.إ. قدرة عالية على القتال وصلابة ورجولة. كانت هاتان الكتيبتان قد خصصتا مع كتائب الصواريخ العربية لتغطية القوات فى منطقة قناة السويس. وقد قرر العدو تدمير هذه المجموعة من كتائب بطاريات الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات بالإغارة عليها بمجموعات طائرات من مختلف الاتجاهات. وكانت نتيجة الهجوم أن دمرت هاتان الكتيبتان ثلاث طائرات إسرائيلية وإصابة طائرة أخرى، بدون حدوث أية خسائر فى جانبهما. كما عملت أيضا كتائب

الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات العربية بنشاط، فأسقطت عدة طائرات معادية. وبذلك تكبد العدو خسائر فادحة، فتوقفت الغارات على أراضى الجمهورية العربية المتحدة تدريجيا. وفى يوم ٥ أغسطس تقدمت إسرائيل باقتراح لبدء المفاوضات لعقد هدنة مع جمهورية مصر العربية. وقد كان للدور الذى لعبته كتائبنا وزن كبير فى عقد الهدنة (أو على الأصح فى بداية المفاوضات) وهو ما أكده اللقاء مع بودجورنى ن. فـ(٣).

لقد أدى كل من التدريب العالى للجنود، وروحهم المعنوية العالية، والتكتيك العسكرى العالى وكذلك المعدات الحربية المتفوقة إلى القيام بتنفيذ التكليفات الحربية بنجاح.

كان أحد عوامل النجاح المهمة جدا يتمثل فى التمويه التكتيكى لمواقع القتال، والذى كان من الصعب جدا تنفيذه فى المواقع الصحراوية المفتوحة. وقد وجدنا مخرجًا لعمل مواقع لوحدات خادعة، فقد بنينا إنشاءات هندسية مماثلة للمنشآت العسكرية وأقمنا بها نماذج للمعدات الحربية مصنوعة من الأخشاب والأبلاكاش. وقد كان من الصعب التفريق بينها وبين المعدات الحربية الحقيقية، خاصة من الجو، حيث إنها كانت تغطى مثلها مثل مواقع القتال بالشباك.

أريد تقديم مثال واحد. لقد ذهبت مع الجنرال شيجلوف إلى إحدى الوحدات. فى الطريق، أشرت إلى منصات الإطلاق وسألته: أى منها (كانت على بعد ١,٥ إلى ٣ كم) هى منصة حقيقية، وأيها منصة كاذبة؟. نظر إلى شيجلوف وسألنى بجدية: "هل أنت تريد خداعى؟"، فأشار إلى إحدى منصات الإطلاق وقال إن هذه حقيقية. وعند اقترابنا من المنصة التى أشار إليها، اندهش شيجلوف حيث تبين أنها كاذبة.

يجب الاهتمام تماما بموضوع التمويه. فعندما إغارة طائرات العدو على مواقع القتال، ضرب العدو تسع وحدات إطلاق صواريخ، كان ست منها مواقع كاذبة.

بعد العمليات القتالية الناجحة فى أيام ١ ـ ٥ أغسطس، قمنا بإعداد تقارير تخص مجموعة كبيرة من الضباط والجنود من أجل منحها أوسمة وأنواط

---

(٣) رئيس مجلس السوفييت الأعلى.

الاتحاد السوفييتى. وقد قدم تقرير عن المقدمين كوتينتسيف وبوبوف لمنحهم أوسمة لينين.

حصل ١٦٦ ضابطا ورقيبًا وجنديًا على أوسمة رسمية. فقد مُنِحَ المقدمان كوتينتسوف وبوبوف لقبًا عظيمًا هو "بطل الاتحاد السوفييتى" مع تقليدهم "أوسمة لينين" و"نوط النجمة الذهبية".

وبعد عودتى إلى الوطن، قدمت تقريرا لوزير الدفاع مارشال الاتحاد السوفييتى أ. أ. جريتشكو عن تنفيذ المهمة القتالية. كان اللقاء بمكتبه بحضور مارشال الاتحاد السوفييتى م. ف. باتيتسكى. كما انضم له رئيس أركان الحرب مارشال الاتحاد السوفييتى م. ب. زاخاروف. استمر الحديث حوالى الساعتين. استمع وزير الدفاع إلى تقريرى، ثم قام من على مكتبه، واقترب منى قائلا: "مرحبا يا بنى. اهنئك على تنفيذك المهمة الحربية بنجاح". احتضننى بقوة ثم دعانى إلى المائدة الطويلة. سأل كيف كانت تصرفات الضباط والجنود فى أثناء مثل هذه المهمة الصعبة، وكيف عملت المعدات الحربية. طلب أن أحكى لهم عما قام به طيران العدو، وعن أميز سمات المعارك، وكيف استقبلنا السكان المحليون. اهتم كثيرا بمواضيع توفير كل ما يحتاجه الجنود. وعندما وصل حديثنا إلى نهايته سأل المارشال جريتشكو كيف تم تقدير الجنود. أجبته بأن ١٦٦ من الجنود والرقباء والضباط منحوا أوسمة وأنواطًا، وأن مجموعة كبيرة من الجنود مطلوب لها أوسمة.

سأل أيضا وزير الدفاع عن المكافأة التى منحت لى، فأجبته بأنها وسام "العلم الأحمر العسكرى". هنأنى على حصولى على الوسام وقال لى إن الأوسمة العسكرية هى أعظم الأوسمة.

شكرت وزير الدفاع على اهتمامه الكبير الذى أظهره لجنودنا وأبلغته فى نفس الوقت بأن اثنين من قادة الوحدات قد نالا لقب "بطل الاتحاد السوفييتى".

هنا حكى لى جريتشكو كيف حدث ذلك.

كان هناك لقاء بين ل. إ. بريجنيف وج. عبد الناصر. وقد عبر ناصر عن شكه فى الإمكانيات العالية التى تتمتع بها الحماية بالصواريخ المضادة للطائرات،

وأعلن أن الصواريخ لا تسقط طائرات "الفانتوم"، وأن الغارات على الأهداف والقوات ما زالت مستمرة. وكان وزير الدفاع قد تلقى فى ذلك الوقت تقريرًا يفيد بأنه فى يوم ٣ أغسطس تم إسقاط ٧ طائرات "فانتوم"، فقام فورا بإبلاغ بريجنيف بذلك فى أثناء حديثه مع ناصر.

أبلغ بريجنيف بدوره ناصر بهذا التقرير. لم يصدق الأخير ذلك فى أول الأمر وطلب الاتصال بالقاهرة، وقام بذلك. اندهش ناصر تماما، وأبدى امتنانه لبريجنيف.

فقال بريجنيف لوزير الدفاع بأنه سيكون شيئًا حسنًا تقدير المتميزين بمنحهم أوسمة رسمية عالية، بل وحتى يمكن منحهم لقب "بطل الاتحاد السوفييتى".

ثم حدث ما يلى: جاءنا استفسار عن إمكانية منح لقب "بطل الاتحاد السوفييتى" لكل من كوتينتسوف وبوبوف، اللذين يقترح تقليدهما وسام لينين. تلقى كل الضباط والجنود هذه النبأ بحماس بالغ.

وفى آخر حديثنا، قال وزير الدفاع لباتيتسكى إن مجموعة ضباط الفرقة قد اكتسبت خبرة قتالية ضخمة، لذلك يجب الاستفادة من هؤلاء الضباط فى وظائف على مستويات أعلى - فقد استحقوا ذلك. ثم طرح سؤال على باتيتسكى: "أين يمكن أن تعين الرفيق سميرنوف؟". فجاء الرد: "يتم تعيينه نائبا أولا للقائد العام لجيش الدفاع الجوى المنفصل". صمت وزير الدفاع وأخذ ينظر تارة إلى ثم إليه. عندئذ أعلن باتيتسكى: "أيها الرفيق الوزير، سوف يتم تعيينه فى أول منصب قيادى يخلى بقسم الدفاع الجوى. "صح" - قال الوزير.

فعلا، تم تعيينى بعد ٢,٥ عام فى هذا المنصب الرفيع المستوى.

فى أثناء قيام الفرقة بتنفيذ مهامها القتالية، زارنا كل من (رئيس وزراء الاتحاد السوفييتى أ. ن. كوسيجين، رئيس رئاسة المجلس الأعلى للاتحاد السوفييتى ن. ف. بودجورنى، سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى ب. ن. بونوماريوف، رئيس هيئة أركان الحرب مارشال الاتحاد السوفييتى م. ف. زاخاروف، وس. ل. سوكولوف).

تحمل ضباطنا و جنودنا بصلابة الصعاب، ليس فقط فى المعارك، ولكن بسبب كل ما هو متعلق بظروف المناخ الصعبة. فرياح "الخماسين" وحدها مشكلة، يمكن أن يفهمها فقط من تعرض لها. ترجمة "خماسين" هى خمسين، وهو ما يعنى أنه تهب رياح محملة بأتربة الرمال ومعها حجارة صغيرة فى خلال ٥٠ يومًا. وهى تشبه عندنا "البورجا الثلجية"(٤). ولكن عندنا الأمر يتعلق بالثلج، أما هناك فليس من الواضح هذا. فأنت لا ترى شيئًا على بعد خطوتين، ولا تستطيع أن تتنفس أى شىء. تسد أتربة الرمال الأنف والأذن والعين. ويستمر ذلك لمدة ٥٠ يومًا.

ولا يمكن ألا نذكر (البعوض، الذباب، العناكب، والعقارب). خرجت فى أوائل شهر يوليه مع مجموعة صغيرة من الضباط للاستطلاع من أجل اختيار مكان لمنصات إطلاق الصواريخ المضادة للطائرات فى منطقة الإسماعيلية. كان ضمن المجموعة المقدم بونوماريوف ف. أ.، والرائد بولوشين اللذين كنت أعرفهما جيدا لأننا خدمنا معا. كان فاسيلى أندرييفيتش قد خدم قبل ذلك معى تلبية لواجبه الدولى. وعلى الرغم من تواضعه، كان ضابطا يتمتع بالمبادرة بشكل غير عادى، وهو هادئ وكان ينفذ أى تكليف بدون أى اضطراب شخصى. لم يكن عنده مترجم فتمكن من إتقان اللغة العربية فى فترة قصيرة بمستوى سمح له بالتفاهم مع الرفاق المحليين. وبعد العودة إلى الوطن، استمر بونوماريوف فى الخدمة بمنصب نائب رئيس الأكاديمية لشئون توريد المعدات الفنية. وقد ترك الخدمة لراحة يستحقها برتبة عقيد.

والآن سأتحدث عن الحدث الذى أشرت إليه أعلاه. خرجنا إلى منطقة الإسماعيلية، واخترنا عدة مواقع للمنصات، ثم توقفنا على ضفة قناة السويس، أخفينا سيارتنا وقررنا تناول الطعام. لم نلحق أن نجلس، فقد هاجمنا بعوض أصفر- بنى اللون حجمه خمسة أضعاف حجم البعوض عندنا. اضطررنا للتوقف عن تناول الغداء، وأن نذهب لاستكمال الاستطلاع، ولكننا لم نتمكن من الوصول إلى المكان المفترض لمنصات الإطلاق فقد غرست السيارة فى الرمال، فسرنا على أرجلنا. سمعت بعد ١٠٠ ـ ١٥٠ مترا صرخة. استدرت فرأيت الرائد بولوشين يسقط ويسنده بونوماريوف. ركضت بسرعة إليهما وحملناه معا أنا وبونوماريوف إلى السيارة حيث استعاد وعيه، وأعطيته حبتى "سيدالجين".

---

(٤) تعبير يعنى سقوط الثلوج بكثافة.

وصلنا إلى المستشفى الذى يقع على بعد ٣٠ كم من مكان الحادث. لم يكن يوجد مكان فى المستشفى العربى، لذلك لم نتلق أى عون، فتوجهنا إلى مستشفانا الذى يبعد ٥٠ كيلومترا أخرى.

عند وصولنا إلى المستشفى فقد الرائد بولوشين وعيه مرة أخرى، وتركناه بين يدى أطبائنا فى هذه الحالة.

فيما بعد اتصل بى رئيس المستشفى وقال لى إنه لو كنا تأخرنا خمسة دقائق أخرى لكانت الأمور ساءت. ولكن ما الذى حدث؟ لقد لدغنا البعوض جميعا، ولكن واحد فقط أحس بالمرض. تبين أن قبل ذلك بخمس أيام، لدغ عقرب بولوشين فى أسوان، وقد قام الأطباء باللازم، فمر الأمر على خير. ولكن كفت فقط لدغة بعوضة حتى فقد جسمه المقاومة، وبدأ قلبه فى التوقف.

بعد ذلك كان الرائد بولوشين كثيرا ما يتذكر هذا الحدث. كان يقول إننا أنقذنا حياته، عندما لم نتركه فى المستشفى العربى. وقد يكون فى ذلك جزء من الحقيقة...

فعلا، يستطيع رجلنا السوفييتى تحمل الكثير من الصعاب والحرمان، ولكن الحنين إلى الوطن يبدو أقوى من أى شىء آخر. وهو يبدأ بعد مرور نصف سنة خارج حدود الوطن، بعيدا عن الأصدقاء والأقارب. يمر هذا "المرض" عند كل شخص بشكل مختلف: فيبدأ البعض فى كتابة الشعر، وآخرون يمسكون بالآلات الموسيقية، خاصة القيثارة. ويجب علاجه بالتعامل بكثرة مع المجموعة، على سبيل المثال بتنظيم حفلات للعروض الفنية التى يقدمها الهواة.

بعد توقيع الهدنة، بدأ رجالنا، الذين عزلوا لفترة طويلة عن الأماكن المتحضرة، يطلبون تصاريح للسفر فى رحلات إلى القاهرة وإلى المدن الأخرى. كانوا عادة بعد تعرفهم على المدينة يقومون بزيارة السوق. وإذا كان يتم القبض على أحدهم، كان رئيس الشرطة يبلغ إدارة كبير المستشارين العسكريين (كان يوجد اتفاق على ذلك). كان القبض على رجالنا نادرا جدا، ولكن على الرغم من ذلك، كان يتم استدعائى أنا ورئيس القسم السياسى عند حدوث كل حالة من هذه الحالات إلى "سجادة"[٥] كبير المستشارين العسكريين.

---

(٥) تعبير روسى يستخدم عند الدعوة لتلقى التأنيب.

يجب أن أشير إلى أنه قد توطدت بينى وبين رئيس الشرطة العسكرية بالجمهورية علاقة جيدة، بل يمكن أن أقول علاقة صداقة. كان قد تم تكليفه بمساعدتنا فى بناء مواقع الوحدات العسكرية بفرقتنا ومرافقة قوافل الصواريخ المضادة للطائرات عند تمركزها فى مواقع إطلاق الصواريخ. كان يتعامل مع ما كلف به بقدر كبير من المسئولية، وكان مرؤوسوه ينفذون مهامهم بنجاح.

ذهبت مع رئيس القسم السياسى إلى صديقنا رئيس الشرطة وطلبنا منه إبلاغنا مباشرة عن كل حالة مخالفة لتفادى الأحاديث غير السارة مع كبير المستشارين العسكريين. بعد هذا الحديث، زاد عدد البلاغات التى كانت تصل إلى كبير المستشارين العسكريين بشكل كبير، وأصبحنا نواجه منغصات أكثر.

عندئذ، ذهبنا مرة أخرى إلى رئيس الشرطة وأوضحنا له ما يحدث. اندهش تماما، وذكرنا بأننا قد طلبنا بأنفسنا منه إبلاغ كبير المستشارين بكل حالة مخالفة. كان قد فهم منا ذلك.

بدأ بعد حديثنا الثانى فى إخطارنا عن كل حالة مخالفة مباشرة، وكنا نتخذ الإجراءات المناسبة. لم يعد كبير المستشارين العسكريين يتلقى أية بلاغات عن القبض على أحد، وأصبحنا نعيش حياة أفضل، بل أن كبير المستشارين العسكريين كان يقدمنا كمثال يحتذى به من حيث أسلوب العمل.

حضر إلى مصر رئيس رئاسة مجلس السوفييت الأعلى ن. ف. بودجورنى فى نوفمبر، أو يجوز فى ديسمبر، عام ١٩٧٠ لسبب لا أعرفه. كانت الهدنة مع إسرائيل مستمرة.

أبدى بودجورنى رغبته فى عقد لقاء مع قيادة وجنود فرقتنا. وقد تم هذا اللقاء، وحضره ممثلون لكل وحداتنا. حضر بودجورنى مع رئيس جمهورية مصر العربية السادات ووزير الدفاع فوزى وقادة عسكريين آخرين. تحدثوا فى اللقاء عن الصداقة الدائمة بين شعبينا، وتم تبادل الآراء. كان بودجورنى والسادات وفوزى فى وسط جمع من الناس يحيط بهم.

سأل بودجورنى عن قادة الفرقة. وعندما قدمنا أنفسنا له، هنأنا بحرارة شديدة على تنفيذنا لمهامنا بنجاح معلنا أن السبب الأساسى (هكذا قال) فى

الهدنة بين إسرائيل ومصر كان يرجع إلى جهد جنود الفرقة. فحص هيئتى العامة وسألنى:"أيها الرفيق الجنرال، أين علامات تفوقك؟". أجبته: "ليس من المفروض أن أحملها هنا، وكل من يعرف ذلك يعترف بى بدونها".

أخبر وزير الدفاع فوزى كلاً من السادات وبودجورنى أن عددًا من الضباط السوفييت سوف يحصلون على أوسمة مصرية. وأن الجنرال سميرنوف نال وسامًا (لا أذكر ما اسمه).

هنأنى كل من السادات وبودجورنى على الوسام العالى. وفى الحقيقة لم يتم تسليمى الوسام. ويبدو أن سبب ذلك، على ما يبدو، هو آخر لقاء لى مع قيادة القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة.

فأثناء وجودى فى جمهورية مصر العربية، قابلت عدة مرات وزير الدفاع فوزى وكذلك رئيس هيئة أركان الحرب صادق وشخصيات رسمية وعسكرية أخرى. ولن أعرض هنا هذه اللقاءات.

فى أثناء العمليات القتالية، ذهبت عدة مرات إلى القيادة العليا بناء على دعوات من فوزى أو من صادق، كما أننا تقابلنا مباشرة فى مواقع القتال ومواقع بطاريات إطلاق الصواريخ المضادة للطائرات. (وقد صور مصورنا زيارات الرؤساء عدة مرات، وتوجد عندى مثل هذه الصور).

عادة، عندما كان يدعونى الجنرال صادق إلى القيادة العامة، كان دائما يخرج إلى مدخل المبنى مستقبلا لى بحرارة. كان يحتضننى ويقودنى إلى مكتبه. وكانت هنا، عادة، تتم مناقشة كل المواضيع. وكان يوجد تفاهم كامل بيننا.

انتهت العمليات الحربية. واستمرت الهدنة. وحضرت قوات بديلة، كما تم استبدإلى أنا أيضا.

عندما عرف الجنرال صادق ذلك، اتصل بى هاتفيا طالبا منى بإصرار ألا أسافر إلى وطنى، وأن أبقى لمدة شهرين أو ثلاثة آخرين لأن الوضع ما زال متوترا، وبما أنى على دراية بهذا الوضع يجب على تأجيل موعد سفرى.

أوضحت أنه لا يمكننى عمل ذلك، فقد وصل من يحل محلى، وأنه يجب على تسليمه الضباط والجنود والمعدات والوثائق، والسفر عائدا إلى وطنى. كما

أوضحت له، لكى أقنعه، بأنه لن يتم دفع راتبى إذا خالفت ذلك. هنا أفادنى صادق بأنهم سوف يدفعون لى، بل وأكثر كثيرا مما أحصل عليه الآن، كما أنه أفادنى بأننى قد منحت وساماً، ولكنه فى الحقيقة لم يذكر لى اسمه.

شكرته على اهتمامه وتقديره العالى لأدائى، وطلبت الإذن بحضورى شخصيا إليه لكى أقول كلمات حسنة بمناسبة سفرى إلى الوطن. طلب منى فرصة للتفكير ووضع السماعة.

فى اليوم التالى (كان ذلك فى منتصف شهر فبراير عام ١٩٧١) تم إبلاغى بدعوة للذهاب إلى الجنرال صادق. عند اقترابى من مبنى مقر القيادة العامة لم أر صادق فى استقبالى، كما كان يحدث من قبل. دخلت إلى صالون الاستقبال بمكتبه فقام ضابط بإبلاغه بوصولى ثم أخبرنى بأن الجنرال صادق طلب الانتظار.

بعد عشرين دقيقة طلبت أن يتم إخباره مرة أخرى عن وجودى، ولكنه مرة أخرى لم يستقبلنى. فدخلت بدون دعوة، بعد خمس دقائق، إلى مكتبه، معتذرا عن دخولى بدون إذن وقائلا إننى جئت لوداعه.

دعانى الجنرال صادق للجلوس إلى منضدة كان عليها جهاز تسجيل يابانى. وكان يوجد جهاز مماثل على مكتبه. اعتذر بأنه كان مشغولا تماما ولذلك لم يتمكن من استقبالى فورا، وطلب منى البقاء ولو حتى لمدة شهر واحد.

أجبته رافضا ذلك وأبلغته بسفرى إليوم مصاحبا للنسق إلى الإسكندرية.

عبر الجنرال صادق عن أسفه، ثم قام من على المنضدة وودعنى بفتور.

لقد عملنا بقدر كبير من الود، ولكن انتهت صداقتنا بهذا القدر من الفتور.

توفى جمال عبد الناصر فى يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ .و فى أثناء مراسم جنازته حدثت تصرفات متطرفة، يصعب جدا أن أحكى عنها. كان كل فرد يحاول لمسَ تابوت ناصر ونزع جزء من النسيج الذى كان يغطيه.

حضر جنازة رئيس مصر وفد رسمى سوفييتى يرأسه أ. ن. كوسيجين. وعندما كان يستدعى الأمر الحديث مباشرة مع ل. إ. بريجنيف، الذى كان فى

ذلك الوقت فى مدينة باكو، كان كوسيجين يستخدم مركز الاتصال الذى عند كبير المستشارين العسكريين. جرى حديث شكر فيه كوسيجين المسئولين عن مركز الاتصال لتوفيرهم وسيلة اتصال جيدة. وعند رؤيته لضباطنا ـ ف. ج. ميخايلوف وآخرين ـ فى الملابس العسكرية المصرية، اقترب منهم معبرا عن عدم رضائه عن هذا الزى. عندئذ وضح له بأنه منصوص على هذا الزى فى الاتفاق بين البلدين. اقترب كوسيجين من أحد الضباط ولمس النسيج ثم ابتعد عنه عدة خطوات قائلا: "و ماذا فى الأمر، إن الزى والنسيج جيدان".

... عند الانتهاء من التوديع الرسمى لنسقنا، وبعد صف القوات، اقترب منى اللواء م. أ. جاريبف (هو الآن جنرال بالجيش) واحتضننى بحرارة. تبادلنا القبلات، وطلب منى: "أليكسى بمجرد أن تطأ قدمك أرض وطننا، أمسك بإحدى ذباباتنا وقبلها كثيرا. فهى أحسن آلاف المرات... من الذباب الذى هنا". كل من سمع هذا الطلب، ابتسم بود، فقد كان معنى تلك الكلمات واضحا للجميع.

اكتسب الكثير من رفاقنا خبرة كبيرة فى تنظيم ورئاسة مجموعاتهم فى أثناء العمليات القتالية وكذلك فى كل أمور حياتهم اليومية بقيامهم بتنفيذ مهماتهم.

وقد نال الكثيرون ومنهم ن.س.زايتسيف وأ.إ.بوتشكوف رتبة فريق. وتقاعد كل من الفريق (ميخايلوف ف. ج. يلاأوسوف ف. أ. كوستين أ. ى.)، واللواءات (ستريليتسكى ن. أ. سوبوتين ف. أ. كوفاِلينكو إ. ك. رودنو ن. أ. كاراسيف أ. س.)، والعقداء (جايفورونوك، بروبيلوف، تولوكونيكوف، بوبوف، كوتينتسيف). ولايمكن ذكر أسمائهم كلهم. لقد كان مظهر كل الضباط والجنود لائقا، ولم يسىء أى منهم إلى اسم المقاتل السوفييتى العظيم.

ولكن لم يكن من المقدر للجميع العودة إلى الوطن. فقد لقى حتفه ببسالة فى المعركة كل من (الملازم/ سومين سيرجى، سكرتير منظمة الشبيبة الشيوعية، جندى أول/ زابوطا، الجنود/ أشات ماميدوف، والأخوان التوأمان إيفان ونيكولاى دوفشانوك، وغيرهم).

وبعد عودتهم إلى الوطن، توفى كل من العقيد نازاريتيان،و العقيد أتونينكو. فلنعطهما حقهما ولنتذكرهما بالخير، فهما يستحقان ذلك.

نسمع الآن فى كلمات رفاقنا غضبًا، فيشاع أنه أسىء استقبالنا. وأنا لا أستطيع قط فهم هذه الأقاويل، فقد كانت تنفذ العمليات فى ذلك الوقت فى سرية تامة، ولم يكن هناك مكان للحديث عن استقبالات باهرة. ولكن حتى فى تلك الظروف فقد تم توجيه اهتمام كاف لنا، فقد استقبلنا كل من رئيس الاتحاد وبطل الاتحاد السوفييتى مرتين ف. د. دافرينينكو، وعضو المجلس العسكرى اللواء ستولنيكوف وغيرهم.

وقد تم تنظيم حفل استقبال فى اللجنة المركزية لمنظمة الشبيبة الشيوعية اللينينية السوفييتية حضره كل من رئيس الإدارة السياسية المركزية للجيش السوفييتى والأسطول الحربى جنرال الجيش أ.أ.يبيشيف، وكل أعضاء المجلس العسكرى لقوات الدفاع الجوى وعلى رأسهم ب.ف.باتيتسكى كما تمت دعوة العديد من رفاقنا إلى هذا الحفل ممن كانوا أكثر تميزا فى تنفيذهم لمهامهم. كما تم تسليم أوسمة اللجنة المركزية لمنظمة الشبيبة الشيوعية اللينينية السوفييتية والمتمثلة فى نياشين "الشجاعة العسكرية" التى تعلق على الصدر. كما نال مساعد رئيس القسم السياسى بالفرقة الملازم أول فيتالى كيريتشوك على وسام عالٍ من منظمة الشبيبة "وسام الاحترام" مع إضافة اسمه إلى سجل الاحترام باللجنة المركزية لمنظمة الشبيبة الشيوعية اللينينية السوفييتية. وقد تم حفل الاستقبال فى جو احتفالى. وقد ألقى رفاقنا كلمات تحدثوا فيها عن المعارك التى وقعت وعن الصعوبات والحرمان والتى كان عليهم مواجهتها بعيدا عن الوطن.

و قد ألقيت أنا أيضا كلمة فى هذا الحفل. وسوف أتذكر هذه الكلمة، مدى الحياة، من بين كل الكلمات التى ألقيتها أمام ضباطى وجنودى فى خلال خدمتى.

حدث ما يلى. أخطرونى بأننى سوف ألقى كلمة فى حفل استقبال اللجنة المركزية لمنظمة الشبيبة الشيوعية اللينينية السوفييتية. لم تكن الكلمة فى حاجة إلى تجهيز مسبق خاص، حيث إنى كنت عشت بكل روحى جميع الأحداث من أول يوم إلى أن عدنا إلى الوطن. كنت أعرف كل قادة الوحدات والفرق والبطاريات، ليس فقط بألقابهم ولكن بأسمائهم وأسماء آبائهم أيضا. كما كنت أعرف الكثير من الرقباء والجنود. كنت أذكر كل الأحداث، الأهم منها، أو الأقل فى الأهمية، وبالطبع المعارك التى كان كل منها فى ذاكرتى. باختصار، كنت جاهزا لإلقاء الكلمة.

قبل الحفل بيومين أو ثلاثة، دعانى خاليبوف إ. ف. وطلب منى إطلاعه على نص الكلمة. كان لدى فقط الخطوط الرئيسية للكلمة، فلم يعجبه ذلك. وعلى الرغم من كل اعتراضاتى، أمرنى بكتابة نص الكلمة. قدمت له النص. كنت أعرف تماما أننى لن أقرأه، وأننى كنت سأتحدث فقط عما عشناه أنا وكل من الضباط والجنود. ولكن قبل موعد إلقاء الكلمة تماما، أنذرنى خاليبوف بضرورة أن ألتزم بالحديث طبقا للنص حرفيا. وعندما ذهبت إلى الميكروفون الذى كان منصوبا فى القاعة أمام منصة الرئاسة (إذ كان يمكن إطلاق هذا الاسم على الجالسين على منضدة رؤسائنا)، حيث لم يكن يوجد حتى ما يشبه منبرا أو منصة، كنت أفكر فقط فى أن الجميع ينظرون إلى، وليس بهذه الدرجة إلى، بل أنهم كانوا ينظرون أكثر إلى الورق الذى كنت ممسكا به أمامى، كما لو كنت لا أستطيع الحديث، ولو حتى خمس كلمات، بدون ورقة.

بالطبع قرأت النص، بل أن خاليبوف قال لى فى الاستراحة إن كلمتى كانت جيدة، ولكن فى داخلى كانت توجد "قطط تخربشنى"(٦). كنت مستاء لنفسى، فلماذا كنت ممسكا بتلك الورقة مثل من لا يستطيع التفكير.

كما قلت أعلاه، حصل ١٦٦ فردًا على أوسمة رسمية من الدولة، وكان قد تم طلب أوسمة لعدد أكبر بكثير من الضباط والرقباء والجنود. ولسبب لا أعرفه لم يمنحوا أوسمة. وأصبح الآن يسألنى الكثير من الرفاق عن كيفية إقامة العدل؟ ولكنى لم أعثر على الإجابة حتى الآن.

هؤلاء الذين ما زالوا فى الخدمة بالقوات المسلحة قد حصلوا على شهادات تقدير من المجلس الأعلى للاتحاد السوفييتى، كما تم منحهم نياشين "المحارب الدولى" يعلقونها على صدورهم. ومن الأصعب بكثير حصول من ترك الخدمة بالقوات المسلحة، أو من تقاعد، على هذه النياشين. اللجان العسكرية ليست فى عجلة، بل أنها تتعلل بمختلف الأسباب لرفض العمل فى هذا الشأن. كنت أريد أن يحصل كل الرفاق على التقدير الذى يستحقونه من وطنهم، وبأسرع ما يمكن. ونأمل أن يحدث ذلك.

---

(٦) تعبير روسى يعنى عدم الرضاء.

تم إنشاء شعبة قدامى المحاربين الدوليين الذين شاركوا فى تقديم المساعدة لشعب مصر. وهى تدخل ضمن الجماعة الموسكوفية لقدامى المقاتلين فى الحرب وفى القوات المسلحة. وبمبادرة من رؤساء شعبتنا (ك. إ. بوبوف وف. أ. بلوأوسوف، أ. ى. كوستين، وف. ج.مى خايلوف) وبمساعدة نشطة من رئاسة الدائرة الموسكوفة لقوات الدفاع الجوى، تم فى يناير ١٩٩٠ تنظيم لقاء للمشاركين فى الأحداث فى مصر، لأول مرة. وقد أقيم حفل أحيته فرقة المنطقة الموسكوفية لقوات الدفاع الجوى للغناء والرقص.

من الصعب وصف كيف سار هذا اللقاء، وكيف ومضت عيون الأصدقاء القدامى، الذين لم يلتقوا لمدة ٢٠ عامًا. تم فى اللقاء تقديم "دبابيس" مخصصة للاحتفال بهذا الحدث. وقد ألقى قائد الدائرة الموسكوفية لقوات الدفاع الجوى الفريق أول طيار " ف. ا. برودنيكوف" كلمة. شكر كل قدامى المحاربين، وتمنى لهم دوام الصحة والنجاح فى جميع أعمالهم، ثم سلم شهادات تقدير من مجلس السوفييت الأعلى ونياشين "محارب دولى" للمشاركين فى الأحداث الفريق "أ. ى. كوستين" والفريق " أ. ى. بوتشكوف". وقد أصبحت اللقاءات السنوية لقدامى المحاربين فى مصر تقليدية، وهى تعقد فى ثانى يوم سبت من يناير، حيث إنه تم إنشاء فرقتنا من المحاربين الدوليين فى يناير عام ١٩٧٠.

قبل جلوسى إلى المكتب وإمساكى بالقلم، كان على التفكير:"هل يهم ذلك أحد؟ وما الفائدة التى ستعود من ذلك؟". جاءت إلى رأسى هذه الأفكار لأنه بعدما انتهت العمليات القتالية والتى اكتسبت فى أثنائها خبرة عسكرية كبيرة، يجب أن يتم نشرها عن طريقى وبمشاركة عدد كبير من الجنود، فقد تم جمع مادة فريدة، فى ذلك الوقت، عن نتائج العمليات الحربية. وقد تمت كتابة هذه المادة فى ٣٠٠ صفحة من المقاس القياسى عليها تأشيرة "سرى".

وقد نصحنى الرفاق الذين تمكنوا من الاطلاع على هذه المادة بإصرار على أن أقوم بإخراجها على شكل رسالة دكتوراه. وقد حاولت عمل ذلك. ولكن انشغالى بالخدمة لم يسمح لى بالاستعداد لمناقشة هذه الرسالة. كما أننى أعتقد الآن أيضا وباقتناع كامل أن الضابط الذى يخدم ويؤدى مسئولياته فى الخدمة بضمير ليس عنده وقت لرسالة دكتوراه.

حدث، فى أثناء قيامى بإجازة، أن صدر أمر من القيادة العليا بإرسال المادة التى قمت بإعدادها إلى عنوان محدد. وقد تم تنفيذ ذلك. وقد تم نشر خبرة العمليات القتالية لمجموعة من ضباط قوات الدفاع الجوى، المشاركين فى عمليات قتالية، كما تم نشرها على القوات للدراسة وتطبيقها عمليا. وبعد ذلك قمت بكتابة ومناقشة عدة رسائل دكتوراه فى الفلسفة ودكتوراه فى العلوم عن خبرة العمليات الحربية لقوات الدفاع الجوى. ولكن لم يجعل ذلك منى عالما.

هل يجب الكتابة، بعد مرور هذا الكم من السنوات، عمن شارك فى العمليات الحربية خارج الوطن؟ بعد الكثير من التردد، ومراعاة لطلب رفاقى فى الخدمة الذين شاركوا فى تلك الأحداث، والأهم من ذلك انطلاقا من أنه يجب أن يعرف مواطنونا حقيقة ما جرى من أحداث، وأن يعرفوا من نفذ بشرف تكليف وطنه، ومعرفة من لم يكن من المقدر له العودة إلى بيته، اتخذت قرارًا بأن أحكى عن تلك الأحداث التى مر عليها زمن طويل.

وأنا أنهى كتابتى، أرغب فى أن أضيف إليها أنه عندما أقابل الضباط والرقباء والجنود أقول لهم دائما: "إنه يجب علينا أن نفخر بأن فرقتنا كانت الأولى، على مدى كل تاريخ وطننا، التى خرجت إلى القارة الإفريقية فى مهمة خيرة تتمثل فى مساعدة الشعب المصرى فى الدفاع عن استقلاله وحريته".

مستشارو سلاح الطيران الحربى فى مصر

أ. ل. جوليى

لم يكن لى من قبل علاقة بالشرق، على الرغم من أنه كان يوجد عندى دائما اهتمام بما يحدث هناك. كانت السمات الرئيسية للوضع العام فى منطقة الأزمة بين العرب وإسرائيل معروفة، ولكنى لم أظن قط أنه سيجىء وقت أضطر فيه للمشاركة فى تلك الأحداث، على الرغم مما يبدو أنه لم يكن من الممكن استبعاد إمكانية حدوث ذلك تماما. وأنا أذكر كيف أن طار ممثلو قوات الطيران الحربى فى عام ١٩٧٠، و كيف تم تجهيز عدد من تشكيلات مقاتلاتنا إلى مطارات مصر لتنفيد مهام عسكرية متعلقة بحماية أهداف على الأرض المصرية.

بعد حرب "الأيام الستة" كان جزء كبير من طيران مصر (فى وقت وجودى فى هذا البلد كان ما زال يطلق عليها الاسم القديم ـ الجمهورية العربية المتحدة ـ ج. ع. م.، وليس جمهورية مصر العربية، لذلك سوف أستخدم الحروف المختصرة التى تعودت عليه أكثر) قد تم تدميره فى المطارات. وكان من المطلوب إعادة بنائه، وتعليم أفراد القيادة والطيارين لكى يقوموا بعمليات قتالية ناجحة ضد الطيران الإسرائيلى.

وبناء على طلب الرئاسة المصرية، تم إلحاق المستشارين بكل أنواع ومجالات القوات المسلحة المصرية.

فى بداية مايو عام ١٩٧٠، استدعانى رئيس إدارتى، وكنت فى ذلك الوقت كبير ضباط ـ رئيس إدارة عمليات القتال بهيئة أركان الحرب العامة لقوات الطيران الحربى ـ وأخبرنى أنه صدرت تعليمات باختيار أحد الضباط لتكليفه برئاسة مجموعة من ثمانية ضباط من مختلف تشكيلات ووحدات قوات الطيران

الحربى، لكى يسافروا إلى مصر لتنفيذ مهمة خاصة، وأن هذه المهمة تعتمد على. وقد تم الإشارة بأنه من المقدر ألا تقل مدة المهمة عن عام، وأنه يجب أن أسافر مع زوجتى. بالنسبة لى كأحد المشاركين فى الحرب الوطنية العظمى، فإن أية مهمة تكون تطوعا، بحيث إنه يمكن طبقا لرغبتى أن أرفضها. ولكنى أجبت فورا أن هناك حربًا فى مصر، وأنا بصفتى ضابطًا محترفًا برتبة عقيد، لا أملك الحق فى الرفض، وإنه إذا لم يجد الكومسيون الطبى شيئًا يمنعنى من السفر إلى بلد حار المناخ، فإنى على استعداد لتنفيذ هذه المهمة.

هكذا، فى يوم ٢٢ مايو ١٩٧٠ وصلت مجموعة من ضباط وجنرالات القوات المسلحة السوفييتية من أسلحة المشاة والطيران، وسلاح الدفاع الجوى) وتم إسكانها فى أحد الفنادق بضواحى القاهرة. كانت تتكون مجموعة سلاح الطيران، التى كنت أرأسها، من ثمانية ضباط، منهم ستة أفراد متخصصون فى تنفيذ العمليات: العقيد "أ. م. رومانوف"، المقدم "إ. م. جلاجوليف"، المقدم "ف. ن. جريجوريف"، المقدم "أ. أ. كليمنكو"، والرائد "ف. إ. دوبيدين"، بالإضافة إلى اثنين متخصصين فى الاستطلاع هما العقيد "إ. م. كاراتشينسكى"، والعقيد "إ. ب. بلياتشكوف".

حصلنا على التكليف المبدئى ونحن ما زلنا فى موسكو، وهو يتمثل فى نقل وتعميم خبرة العمليات القتالية للطيران الحربى بج.ع.م.، وتقديم المساعدة للخبراء المصريين لتنظيم وتخطيط العمليات الحربية.

فى بداية عام ١٩٧٠ كان كبار المستشارين العسكريين من سلاح الطيران الحربى، فى مصر هم: فى قيادة سلاح الطيران ج. م. ع. اللواء طيار "ج. ت. ياتسنكو"، ولرئيس أركان حرب سلاح طيران ج. م. ع. اللواء طيار "دنيسوف"، ولدى رئيس إدارة عمليات سلاح الطيران العقيد "ل. أ. شيلوفانوف". كما كان يوجد أيضا مستشارون فى كل لواءات الطيران المصرى وفى الكثير من أسراب الطائرات.

كانت فرقة ضباط سلاح الطيران التى أرأسها تابعة للجنرال "ياتسنكو"، وهى قد بدأت فورا فى العمل. بدأنا بالتعرف على المستشارين الذين يخدمون فى تشكيلات سلاح الطيران المصرى، وتعرفنا على تنظيم وأداء المعارك، وعلى مرابط

تشكيلات الطائرات المصرية، وعلى العلاقة بينها وبين تشكيلات مقاتلاتنا، وكذلك على قوات الدفاع الجوى.. فى الواقع لم ننشغل كثيرا فى الفترة الأولى بمسائل نقل خبرة العمليات الحربية.

بعد وصولنا، تم بسرعة عقد اجتماع لكل جهاز مستشارى سلاح الطيران الحربى، قام فيه كبير المستشارين العسكريين فى مصر الفريق أول "إ. س. كاتيشكين" بنفسه باستخلاص نتائج الأداء الحربى لكل من ألوية الطيران المصرية والسوفييتية، كما قام "لتوجيه اللوم" بعض المستشارين الموجودين فى لواءات الطيران، وأعطى تعليمات سليمة محددة من أجل تنشيط الأداء الحربى لسلاح الطيران ضد الطيران الإسرائيلى. ثبتت فى ذاكرتى فورا نبرة صوت كبير المستشارين العسكريين الذى قام بوعظ ولوم مستشارينا والتى كانت،كما يبدو، يعتمد عليهم شخصيا أداء الطيران المصرى: لماذا أقلعت الطائرات متأخرة، لماذا لم تكن هناك دقة فى توجيه مجموعات الطائرات المصرية التى لم تصوب بطريقة صحيحة... كان يلاحظ مثل هذا "النظام" فى التحليل عند الكثير من القادة المستشارين. وبذلك الأسلوب كان الجنرال ياتسنكو يأمر كبير المستشارين لدى قائد سلاح الاتصالات لدى قوات الطيران المقدم "ف. ل. تولستوى" بالوقوف ووبخه بشدة بسبب عدم عمل جهاز الاتصال السلكى أو اللاسلكى، على الرغم من علم الجميع أن ذلك لم يكن يدخل مباشرة ضمن مسئولية المستشار ولكنه كان من مسئولية قيادة الاتصالات المصرية التى كانت تحدد وسائل اتصالاتهم، ومواقعها، ووقتها والكثير من الأمور الأخرى. كما أصبح كبير المستشارين العسكريين الجديد لقيادة سلاح الطيران المصرى، الذى وصل ليحل محل كبير المستشارين السابق، اللواء طيار "ب. م. دولجاريف" يطالب أحيانا من قادته بأشياء أكثر من ذلك. فلم يكن دائما يتصرف كمثال يحتذى به فى تعاملاته الشخصية وتصرفاته مع مستشارى سلاح الطيران ومع الجانب المصرى.

فى بداية عام ١٩٧١، وبعد مغادرة العقيد "شيلوفانوف"، عينت فى منصب كبير مستشارين لرئيس إدارة عمليات سلاح طيران ج. م. ع. بأمر من رئيس الإدارة الرئيسية العاشرة لهيئة أركان الحرب، وقد بقيت فى هذا المنصب حتى شهر يونيه ١٩٧٢، عندما حل محلى ضابط آخر قادم من الاتحاد السوفييتى.

بدأت فورا فى مباشرة مسئوليات كبير مستشارى رئيس إدارة عمليات سلاح طيران ج.م . ع.، وأقمت علاقة قوية مع رئيس إدارة اللواء "سعد رفعت" ومع نائبيه العقيد "شعبان" والعقيد "منياوى" ومع الضباط الآخرين بإدارة العمليات. كان القائد سعد رفعت مدربا مجيداً ويعمل بوعى، فقد كان قادرا على تنظيم عمل الإدارة، وكان يعرف حياة ألوية الطيران واستعدادها العسكرى. بلا شك، كان لهذه الحرب الإقليمية خصائصها، فلم يكن بعض قادة سلاح الطيران المصرى يتمتع بعد بخبرة كافية، بما فيهم من كنت مسئولا عن تقديم الاستشارات له. لذلك كان على كبير مستشارى قيادة سلاح طيران ج. ع. م. وكبير مستشارى رئيس هيئة أركان حرب القوات الجوية بج. ع. م. وعلى أنا، كبير مستشارى قيادة عمليات سلاح طيران ج. ع. م. اختيار أساليب وطرق العمل، مع أخذ فى الاعتبار توجيه اهتمام خاص لأهمية الاستعداد للقتال والأداء واستخدام وحدات الطيران فى المعارك ومواضيع الإدارة والتفاعل المتبادل عند القيام بأعمال حربية. كان سعد رفعت لا يعرف تقريبا اللغة الروسية، لذلك كان على أن أتعامل معه عن طريق مترجمين: كان أحدهما من رجالنا، من مواطنى مدينة ليننجراد، ملما باللغة الإنجليزية. أما الثانى فكان مترجما مصريا عينته القيادة المصرية وكان ملما باللغة الروسية.

كنا كثيرا ما ندرس خطط العمليات مع رئيس إدارة العمليات سعد رفعت وضباطه. كما كنا نجهز معا الخرائط والاقتراحات بخصوص تخطيط وتنظيم استخدام تشكيلات الطائرات فى المعارك. كنت أقوم بتجهيز كثير من الوثائق بنفسى مع ضباطى، ثم كانت تترجم إلى العربية وتعرض على رئيس هيئة أركان حرب سلاح الطيران، الذى كان هو فى ذلك الوقت رئيس مصر الحالى حسنى مبارك.

كثيرا ما كنت أذهب مع من كنت أعمل معه إلى مطارات بلبيس، والمنصورة، وأسوان، وغيرها... كنا نقوم بهذه الزيارات مستخدمين السيارات أو المروحيات. ويمكن أن أقول بصراحة إننا كنا نتفادى "السفر" بالمروحيات حيث إن الطيارين المصريين كانوا يطيرون بجرأة ومجازفة على ارتفاعات منخفضة بميل كبير على أحد الجانبين. كنا نراجع مواضيع الاستعداد للقتال وستر الأطقم والطائرات فى

المطارات وإدارة الطائرات على الأرض وفى الجو. عندئذ أدهشنى بشكل خاص وجود مخابئ جاهزة لإخفاء الطائرات. كانت هذه المخابئ تحمى الطائرات بكفاءة من ضربها على الأرض، وفى نفس الوقت كانت لها بوابات متحركة تسمح بإخراج الطائرات بسرعة لكى تنطلق لتنفيذ العملية الحربية. فيبدو، أن المصريين قد تعلموا من حرب "الأيام الستة" عندما تسببت ضربات الطيران الإسرائيلى فى خسائر كبيرة فى الطائرات المصرية على أرض المطارات.

يجب أن أضيف أن فى عامى ٧٢ ـ ١٩٧١ لم تكن توجد نقاط ضعف فى تمركز سلاح الطيران الجوى بج. ع. م، فقد كانت المطارات ممتازة النوعية، كما أن ممرات الطيران والهبوط والممرات المؤدية إليها وسترها لا تدعو إلى أى تحفظ.

فى بعض الأحيان لم يكن إعداد الأفراد جيدا، ولكن كانت بسالة وشجاعة وسرعة أداء الطيارين بدرجة كافية. كما كانت الدراية بالطيران، فى بعض الألوية، على أية حال من الأحوال أقل مما لدى طيارينا. كان سلاح طيران مصر فى تلك الفترة تحت قيادة فريق أول طيران على بغدادى ورئيس هيئة أركان حرب الطيران اللواء حسنى مبارك قد وصل إلى مستوى يجعله قادرًا على الانتصار على الطيران الإسرائيلى. كان زمن عدم نيل طيران العدو عقابًا قد ولى. فقد كان يتزايد باستمرار انتصار الطيارين المصرين على الطيران الإسرائيلى فى الجو.

كان كبير المستشارين لتجهيز سلاح طيران ج. ع. م. لأداء العمليات القتالية العقيد "ج. ج. سيمنكو" قد أعطانى فى يوم تقريرًا عن تصور استعداد وتعليم وأداء الطيران المصرى للعمليات فى تلك الفترة لقراءته. أشار هذا المستند إلى تجهيز الطيارين وطرق تحسين استعداد سلاح طيران ج. م. ع. للقيام بالعمليات ودور جهاز مستشارى الاتحاد السوفييتى فى ذلك وإلى مواضيع أخرى. وقد سبق أن قدم هذا التقرير إلى كبير المستشارين العسكريين "ف. ف. أكونيف"، ولكن لسبب ما لم يحز رضاءه ولم يتم نشره.

أما فيما يخص عمل المستشارين، وبصفة خاصة المجموعة التى تحت رئاستى، فكنا نقدم المساعدة فى تلك المواضيع التى كانت مسئولة عنها إدارة عمليات

سلاح طيران ج.م.ع. فقد قمنا بالمساعدة فى تخطيط أداء العمليات القتالية، وفى تجهيز مشاريع القرارات فى العمليات القتالية، وتجهيز مختلف مخططات وخرائط القيادة العليا... وفى معظم الحالات تلقينا ردود فعل صحيحة لنصائحنا واقتراحاتنا، وفهمًا سليمًا واحترامًا.

كانت تقدم نتائج عمل إليوم، فى الاجتماعات إليومية عند كبير المستشارين لسلاح الطيران المصرى، كما كانت تتخذ فيه القرارات وتدرس الاقتراحات والتوصيات التى تقدم إلى الجانب المصرى. عادة، كان يتفرق بعد ذلك كبار مستشارى رئيس إدارة العمليات، وكبيرالملاحين، ورئيس الإعداد للقتال وقائد قوات الاتصالات كل إلى وحداتهم، حيث كانوا يقومون بأعمال أكثر تحديدا بمساعدة المترجمين.

وأحيانا كان كبار المستشارين لقيادة سلاح طيران ج. ع. م، ورئيس إدارة العمليات، وكبيرالملاحين، وقائد قوات الاتصالات يحضرون الاجتماعات التى كان يدعو إليها على بغدادى ورئيس هيئة أركان حرب الطيران المصرى حسنى مبارك.

أذكر كيف أدار رئيس أركان حرب سلاح طيران ج. ع. م.، فى ذلك الوقت، اللواء حسنى مبارك اجتماع عمل مع رؤساء إدارات وأجهزة سلاح الطيران. كان ذلك مفيدا، حتى لبعض أعضاء رئاساتنا. حاز أسلوبه وتسلسل أفكاره، وطلباته العادلة، وإظهار الشىء الرئيسى، فى ذلك الوقت، بلا أخطاء، رضاء مستشارينا ورضائى باعتبارى كبير مستشارى نائبه اللواء سعد رفعت. وقد تحدث أيضا كبير مستشارى رئيس هيئة أركان حرب سلاح الطيران اللواء طيار " ب. أ. زاجاينى" عن جدوى أسلوب رئيس الهيئة.

فى بعض الأحيان، كنت أجهز مع سعد رفعت بعض الموضوعات والوثائق والخرائط والمخططات لعرضها على اللواء مبارك. كنا نذهب إليه ونبدأ فى العرض. كان مبارك يستمع، ويناقش المواضيع الرئيسية، وينصح بتأجيل المواضيع الأخرى، ذات الدرجة الأقل فى الأهمية، إلى المرة التالية. لم يكن ممن يميلون إلى الاستماع للمواضيع الصغيرة ذات الأهمية القليلة، وكان كثيرا ما يحول دراسة بعضها إلى سعد رفعت. وفى كل مرة كان من الضرورى أن يعطى اللواء مبارك إشارة، فيحضر أحد الجنود صينية مشروبات: شاى، قهوة، وكوكاكولا، حسب

الرغبة. كان اللواء دائما يقول لنا بإصرار إنه يجب أن نشرب، ونشرب. كنا فى مصر نشرب كثيرا من السوائل بسبب الحر.

إذا أشرنا إلى المشروبات، فأريد أن أكتب عن أحد الأحداث التى وقعت لى. تقريبا بعد ٣ ـ ٤ شهور من وصولى إلى مصر، أحسست فى صباح أحد الأيام، قبل ذهابى إلى العمل، بألم شديد فى بطنى. كان الألم شديداً جدا. وكان الضباط قد جلسوا فى السيارة، أما أنا فلم أكن أستطيع النزول من الطابق الرابع بالفندق. اعتقدت أن هذا التهاب فى المصران الأعور، فتم نقلى إلى مستشفانا الصغير الملحق بمكتب كبير المستشارين العسكريين. حدد الطبيب الجراح فورا أن ذلك ليس التهاب المصران الأعور، بل أنه بدأت تتكون عندى حبيبات رمال صغيرة تتحول إلى حصوات، وأن ذلك قد حدث بسبب قلة تناولى للسوائل. كنت عادة أتناول فى الصباح كوب شاى، وعلى الغداء "كومبوت"(٧) أو عصيراً، وفى المساء أيضا كوبًا صغيراً من السوائل، أى طبقا للعادات فى موسكو. قيل لى إنه يجب أن أشرب ما لا يقل عن ٢,٥ ـ ٣,٠ لتر سوائل فى اليوم،مع التركيز على أكل البطيخ المتوفر فى مصر طوال العام.أصبحت أنفذ ذلك، وهو ما مكننى من استكمال فترة خدمتى فى مصر.

كان من المخطط، فى أحد الأيام، القيام بتدريب مشترك لسلاح طيران جمهورية مصر العربية مع سلاح الدفاع الجوى. وقد شاركت فى المساعدة على إعداد الوثائق المتعلقة بهذا التدريب، بصفتى كبير مستشارى رئيس إدارة العمليات، وكذلك شارك كل من كبير مستشارى كبير ضباط الملاحة العقيد "بيردنيك"، وكبير مستشارى قائد سلاح الاتصالات العقيد "تولستوى"، وغيرهم. بالطبع كان لإدارة العمليات الدور الأكبر فى إعداد المستندات الخاصة بالتدريب. وقد قمنا، بمشاركة رئيس إدارة العمليات وضباطه، بإعداد خطط أداء الطيران، وخريطة الموقف، ومختلف المواد المرجعية...

عرضنا كل المستندات على اللواء مبارك الذى وافق عليها وكلف سعد رفعت بعرضها على المشرفين على التدريب.

وبدأ التدريب فى اليوم التالى وقد جاء رئيس مصر أنور السادات إلى الاجتماع السرى بمركز قيادة قوات السلاح الجوى السرى، وقد اضطر القائد

---

(٧) خشاف.

الذى كنت مسئولا عن تقديم الاستشارات له أن يعرض عليه بنفسه تقريرا عن سير التدريب. وقد امتدحه الرئيس بعد انتهاء العرض وقام بالشد على يد سعد رفعت موجها له سؤال: "من هو مستشارك؟". أشار إلى رئيس اللواء رفعت، حيث كنت أقف بجانبه، وذكر له اسمى: "السيد جولى" (وقد نقل لى المترجم ذلك). قال السادات: "وشكرا لك أنت أيضا"، وشد على يدى. ولكن جرى كل ذلك فى بداية فترة رئاسة السادات. ومن الجائز أن يكون فيما بعد، عندما اختلفت علاقته بنا، نحن الروس، قد أمكنه ألا يتذكر وألا يلاحظ المستشار الروسى.

كانت علاقات المستشارين بكل أنواع وأشكال القوات المسلحة (الطيران، الدفاع الجوى، البحرية، المشاة)، على مدى عامين من وجودى بالجمهورية العربية المتحدة، مع جهاز كبير المستشارين العسكريين، قائمة على أسس تعاملات وتبعية عسكرية صارمة. كان للمستشار العسكرى هيئة أركان حرب، وإدارة العمليات، وبعض الأجهزة التى كانت ترأس كل جهاز مستشارى مختلف الأسلحة. وبالإضافة إلى ذلك كان يوجد كبير مستشارى رئيس غرفة العمليات بهيئة أركان حرب الجمهورية العربية المتحدة، وكنا ملزمين بإبلاغه هو أيضا بالمعلومات، خاصة فيما يخص مواضيع تخطيط وتنفيذ العمليات القتالية والقيام بالتدريبات...

كان عليّ، بصفتى كبير مستشارى رئيس إدارة عمليات سلاح الطيران العسكرى بالجمهورية العربية المتحدة، وطبقا للنظام الموضوع، أن أقدم كثيرا تقارير عن أداء سلاح طيران ج.ع.م. إلى رئيس إدارة عمليات كبير المستشارين العسكريين (نسيت اسمه)، وإلى رئيس هيئة أركان حرب كبير المستشارين الجنرال " م. أ. جاربيف". كانت تمر كثير من مواضيع الحياة اليومية ونشاط المستشارين من خلال جهاز كبير المستشارين العسكريين، مثل: نتائج العمليات القتالية التى قام بها الطيران المصرى فى هذه الحرب، مواضيع التموين، الاتصالات بموسكو، وغيرها... كان كثيرا ما يكون علينا إبلاغ معلومات إلى موسكو، لقائد سلاح الطيران أو لنوابه، بوسيلة اتصال خاصة.

يمكن ذكر كلمات كثيرة حسنة عن كبير المستشارين العسكريين الفريق أول "أكونيف فاسيلى فاسيليفيتش" وعن رئيس هيئة أركان حرب كبير المستشارين العسكريين الجنرال "جاريف مخموت أخمتوفيتش". وقد أمكننى حضور عرض

كتاب الأخير "المارشال جوكوف. عظمة وفريدة فن القيادة". وقد وقع المؤلف بإمضائه الخاص على النسخة التى أرسلت إلى. وقد مثل ذلك بالنسبة لى هدية كبيرة.

فى خلال الفترة التى عملت فيها فى مصر من مايو ١٩٧٠ إلى يونيه ١٩٧٢ زارنا القائد العام لسلاح طيران الاتحاد السوفييتى كبير ماريشالات الطيران "ب. س. كوتاخوف"، وكان يصاحبه فى كل مرة مجموعة من الجنرالات والضباط. كنا بالطبع نستعد للقاء بطريقة مناسبة.

كان علينا نحن، كبير مستشارى رئيس هيئة أركان حرب سلاح طيران الجمهورية العربية المتحدة اللواء "ب. أ. زاجاينى"، وأنا، وكبير مستشارى رئيس سلاح الاتصالات العقيد "ف. ل. تولستوى" تجهيز تقارير ومذكرات وعرضها مباشرة إلى القيادة العامة لسلاح الطيران عن حالة ومسار العمليات القتالية لسلاح طيران الجمهورية العربية المتحدة كان بافل ستيبانوفيتش كوتاخوف يتعرف بالتفصيل على الكثير من مواضيع عمل المستشارين، وتخطيط الأداء القتالى، والتفاعل بين طيراننا والطيران المصرى، وغيرها من المواضيع. وفى خلال زيارة القائد العام لسلاح الطيران، كان يتم الاتفاق مع كبار المستشارين العسكريين على مواضيع استخدام الطائرات المقاتلة التى تقودها أطقمنا والأطقم المصرية لمواجهة عدوان الطيران الإسرائيلى، وكان يتم تدقيق مناطق العمليات العسكرية بينهم...

كان يحافظ مستشارو سلاح الطيران على علاقة قوية مع قيادة ووحدات سلاح طيراننا، والتى كانت تنفذ عمليات خاصة فى الجمهورية العربية المتحدة. كان قد تم، فى نهاية عام ١٩٦٩، إرسال آلاى طيران من المقاتلات ـ ٤٠ طائرة و٦٠ طيارًا، تمركزت فى مطارات بنى سويف وكموشين، وكذلك سرب طيران معزز ـ ٣٠ طائرة و٤٢ طيارًا، تمركزت فى مطار جناكليس. واعتبارا من فبراير عام ١٩٧٠ بدأت ورديات قتال مقاتلاتنا لحماية مدينة القاهرة وأهداف مهمة أخرى فى مصر. كان يتم الاتفاق على كثير من الموضوعات المتعلقة بتنفيذ العمليات التى يشارك فيها كل من طائراتنا المقاتلة والمقاتلات المصرية، وكذلك المستشارين، كما كان يتم بنجاح اتخاذ القرارات المتعلقة بها مع قيادة مجموعة

عمل سلاح الطيران فى مصر والمكونة من الجنرالات (ج. أ. دولنيكوفى، ل. إ. خارلاموفى، إ. إ. رومانئكو، وغيرهم). كان ذلك يتعلق بصفة خاصة بخطط العمليات القتالية المشتركة، وتحديد مناطق المسئولية عن حماية المجالات الجوية، الكشف عن طيران العدو فى المناطق البعيدة والقريبة، وتوجيه الطائرات المقاتلة، وغيرها من الموضوعات.

بقى فى ذاكرتى حدث حزين خاص بوحدات طيراننا عندما تمت إصابة أربع من مقاتلاتنا فى الجو، ومات ثلاثة طيارون. وقد سبق أن روى قائد أحد ألوية الطيران، العقيد "ى. ف. ناستنكو" الذى أصبح الآن فريقا طيارًا، ذلك بالتفصيل فى مذكراته، وأنا أشير إلى هذا الحدث، حيث كان على بناء على أمر من قائد سلاح الطيران الفريق أكونوف ف.ف. القيام، مع جنرال من سلاح المشاة وممثل لسلاح الطيران المصرى، بالتحقيق فى هذا الحدث. وقد ركبنا سيارة جاز ـ ٦٩ مساءً إلى قطاع متقدم بالجبهة فى منطقة تمركز نقطة المراقبة بالقطامية ونقاط المراقبة الأخرى القريبة من قناة السويس. وقد قدمنا تقريرنا للفريق أكونوف ف. ف. فى وجود الجنرال دولنيكوف. كان هذا الحدث يمثل بالنسبة لنا وللطيارين المقاتلين درسا قاسيا حزينا.

كان مستشارو سلاح الطيران، طوال فترة وجودهم فى مصر، يحافظون على علاقات قوية مع مستشارى سلاح الدفاع الجوى، وكان يرأسهم الجنرالان "بروخانوفى" و"بيدننكو"، وكذلك مع مستشارى الأسطول الحربى الموجود بالإسكندرية.

وقد ذهبت كثيرا إلى مركز قيادة الدفاع الجوى والصواريخ المضادة للطائرات، حيث كان يتناوب بها ضباط الدفاع الجوى فى دوريات عمل عسكرى دائمة. كما أننا سمعنا كثيرا عن تلك العمليات الناجحة التى كانت تقوم بها مجموعات صواريخنا ومدفعيتنا المضادة للطائرات لحماية الأهداف المصرية وتدمير الطائرات الإسرائيلية. بالطبع، كنا سعداء بنجاح إخوتنا فى السلاح. كان من المعتاد أن أعرف، مثلما كان يعرف باقى مستشارى سلاح الطيران، عن تقليد الكثير من محاربى قوات الدفاع الجوى نياشين وأوسمة الاتحاد السوفييتى تقديرا لقدراتهم على القيام بالعمليات القتالية. وكان قد تم منح قائد كتيبة

الصواريخ المضادة للطائرات العقيد ك. إ. بوبوف لقب "بطل الاتحاد السوفييتى. وقد تم انتخاب ك. إ. بوبوف بالإجماع، حيث إنه مقاتل متمرس ومنظم ممتاز وشخص ودود، عن جدارة ليكون رئيسا لمجلس المحاربين القدامى فى مصر.

سبق أن تحدث الضباط والجنرالات الآخرون فى مذكراتهم عن ظروف الحياة الصعبة فى مصر. وقد أثرت بشكل كبير الظروف المناخية، والمرتبطة بالحر والماء والطعام، وتلك المميزة بشكل خاص للحياة اليومية التى لم نعتادها، على حالة صحة وعمل مستشارينا وخبرائنا. وكان الوضع صعبا بصفة خاصة لزوجاتنا وأولادنا، الذين أقاموا فى فنادق، أو شقق منفصلة بدون أجهزة تكييف. كما أن رياح الخماسين المحملة بجسيمات رملية وأتربة كانت تمثل لنا صعوبة شديدة لعدة أسابيع فى كل عام. كان كذلك شهر رمضان، الذى يحظر فيه على المصريين تناول الطعام منذ شروق الشمس إلى غروبها، يمثل لنا وضعا غير مريح، وينعكس علينا نحن أيضا بشكل أو بآخر. وقد حدث أن كان سائق سيارتى المصرى صائما، وكان يقود السيارة وهو جائع، فأصابه الوهن فى المساء وكاد أن يتسبب فى حادث. كنت عادة، فى مثل هذه الحالات، أمسك بعجلة القيادة وأقود سيارتى من طراز فولجا- جاز-٢١ بنفسى. كما كانت تواجهنا صعاب متعلقة بالطعام، خاصة بالنسبة لخبرائنا الذين كانوا بلا زوجات، فكانوا مضطرين لتناول طعامهم من المأكولات الوطنية بالمطاعم المصرية. وقد سبق أن أشرت إلى أنى عانيت من آلام حصوة الكلى بسبب قلة ما كنت أتناوله من السوائل.

توفى جمال عبد الناصر ـ رئيس مصر فى يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠، و كنت فى ذلك الوقت بنوبة عمل فى مكتب جهاز مستشارى سلاح الطيران الحربى. اتصل بى كبير مستشارى قيادة سلاح طيران جمهورية مصر العربية الجنرال "ياشنكو" وأبلغنى بأمر لجمع كل المستشارين فى المساء. وقد تمت المحافظة على وضع الطوارئ لفترة طويلة، فتم اتخاذ إجراءات لمواجهة أية استفزازات محتملة، وتم عمل نوبات فى مركز القيادة وفى المكتب.

جاء أنور السادات إلى السلطة، وقد كان، كما وصفه الكثير من الرؤساء، شخصا متسلطا تماما طبقا لطبعه وطريقة عمله، كما أنه كان لاعبًا سياسيًا مغامرًا. وقد تم إلقاء القبض على الكثيرين من كبار المسئولين المدنيين

والعسكريين فى البلد، من الذين كانوا محافظين على اتجاهات سوفييتية. وقد قام ملازم بالجيش المصرى، عضو بجماعة إسلامية، باغتيال السادات فى يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٨١، فى عرض عسكرى.

وقد استمررت، بعد استبدالى فى نهاية عام ١٩٧٢، فى الخدمة فى نفس مكانى السابق فى قيادة عمليات أركان حرب سلاح الطيران، كرئيس لأحد الأقسام والذى كان يضم تشكيلات الطيران جنوب غرب البلد. كان على العمل مع الوحدات والتشكيلات الموجودة ببلاد الشرق الأوسط. وقد سافرت إلى سوريا وحدها ست مرات فى مهام.

لقد أفادتنى خبرة سنتين أمضيتهما فى مصر فى عملى بعد ذلك فى إدارة العمليات، بل أنها سمحت لى بمقارنة عدد من الأحداث والمواقف فى الحرب بين مصر وإسرائيل مع مثيلاتها فى حربنا الوطنية العظمى. انطلاقا من الخبرة التى اكتسبتها بالجمهورية العربية المتحدة، قمت بنشر عدد من البحوث السرية عن مواضيع استعداد سلاح الطيران الحربى للقتال. ودور هيئات أركان الحرب.

قرأت مواد المذكرات، فلاحظت بسرور أن الكثير من المحاربين قد كرموا بمنحهم الأنواط والنياشين. ولكن، لا يمكن قول نفس الشىء عن مستشارى سلاح الطيران، حيث يبدو أن رؤساءنا فى تلك الأيام لا يستحقون قولاً حسنًا، فهم لم يظهروا الحرص على مرؤوسيهم الذين أدوا واجبهم الدولى فى مصر. ولكن إن ما يهدئ الكثيرين، يتمثل فى شهادات التقدير من مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتى، والموقعة من م. س. جورباتشوف وميدالية "محارب أممى" وكذلك كتابة عبارة "كان موجودًا تحت الاستدعاء" ببطاقة الخدمة العسكرية. تبقى لدينا "ذكرى" أنا والعقيد" ج. ج. سمينكو"، والعقيد "إ. س. لوجاتشيف" وعدد من الضباط المستشارين الآخرين بسلاح الطيران، فقد أصبحنا بعد عودتنا من مصر بلا زوجاتنا اللاتى كن معنا، ولكنهن لم يتحملن ظروف المناخ الصعبة التى أثرت بشكل قاتل على صحتهن.

مضت أكثر من ثلاثين سنة على الأحداث التى سردتها، عندما كنا نحن الضباط السوفييت نؤدى واجبنا الأممى ونقوم بالدفاع عن بلد صديق ونحمى مصالح بلدنا. خرج تقريبا كل من كان شابا آنذاك من الخدمة بالقوات المسلحة،

وانتقلوا إلى فئة "الاحتياط" و"المتقاعد"، وأصبحت تصاحبهم دائما الأمراض والوحدة. بل إن الكثيرين منهم قد فارقوا الحياة.

ولكن يسرني الاعتراف بأنه قد تم إنشاء مجلس قدامى المحاربين فى مصر وأنه يعمل، حيث يضم قدامى الجنود والضباط والجنرالات الذين أدوا واجبهم ببلد صديق. أرغب فى الأمل بأن لقاءاتنا وعملنا المتواضع لتعميم ونشر خبرة السنوات الماضية العسكرية وذكريات زملاء الخدمة العسكرية تكون شيقة ومفيدة للجيل الشاب.

قدر مترجم عسكرى فى مصر

ج. ف. جاريياتشكين

تم استدعائى إلى الخدمة فى صفوف الجيش السوفييتى بعد أن أتممت دراستى بمعهد اللغات الشرقية (يطلق عليه الآن "معهد بلاد آسيا وإفريقيا") بجامعة موسكو، الحاملة لاسم م. ف. لومونوسوف، لكى أعمل به مترجما عسكريا، فسافرت إلى القاهرة فى يوم ٢٦ أغسطس عام ١٩٦٩.

دخل قيظ شهر أغسطس من باب الطائرة المفتوح. انتهت الإجراءات الرسمية بجمارك المطار الدولى بالقاهرة بسرعة، حيث كان طريق العسكريين السوفييت فى مصر، فى ذلك الوقت، مضبوطا ومبسطا تماما. وقد أخذنا موظف هيئة أركان حرب كبير المستشارين العسكريين الجنرال "كاتيشين" إلى فندق "سعود - ٢" المتواضع بحى مصر الجديدة بالقاهرة، بالقرب من مستشفى هليوبوليس (لم يعد هذا المبنى موجودا الآن ولا حتى أثرا بعد عين)، والذى كان يعتبر مأوى مؤقتا للمترجمين. فيما بعد كانوا ينزلون بصفة عامة بمجمع فنادق "نصر سيتى" بحى مدينة نصر. كان ينزل أيضا فى نفس هذا الفندق، بالإضافة لنا، الخبراء القادمون إلى مصر لفترات قصيرة. أذكر أن أربعة منهم كانوا يدربون الجنود والضباط المصريين على استخدام سلاح "ماليوتكا" الذى يمثل صاروخا موجها متفاعلا مضادا للدبابات.

كان مبنى الفندق ذى الطابقين أو الثلاثة طوابق يقع بالقرب من حمام سباحة سمعت به حديث اثنين من المصريين: "لكم عائلات؟.. لا.. عزاب". كان ذلك يعنى أننا نقيم بفندق "سعود - ٢" المخصص للعزاب وليس فى فندق "سعود - ١" الذى تنزل فيه العائلات، والذى يقيم به الرائد المثقف المشدود القامة "برديسى"، الذى

يرأس "الخدمة الروسية" بوزارة الحربية المصرية. وكان من ضمن اختصاصاته إسكان العسكريين القادمين من الاتحاد السوفييتى، وخدمتهم، وحمايتهم...

أقمت بعض الوقت بفندق "سعود ـ ٢" منتظرا لتكليفى. فى ذلك الوقت، لم تكن توجد أماكن شاغرة فى فنادق "نصر سيتى". بعد أسبوعين أو ثلاثة أبلغنى كبير مقررى هيئة أركان حرب كبير المستشارين العسكريين بأننى سأعمل بصفتى كبير مترجمى الفرقة الميكانيكية الثالثة بالقطاع العسكرى المركزى، المتمركزة على بعد حوالى ٢٠ كم من القاهرة على طريق القاهرة ـ الإسماعيلية. وبعد فترة وجيزة حضر كبير مستشارى الفرقة "فيكتور جافريلوفيتش ستوبين" إلى الإدارة التى كنت أقوم فيها بعمل ترجمات كتابيا مع كل من (فاليرى فيجنيفتسى من الأورال، يورى ديباكينى من مدينة كييف، ونيقولاى لوكاشونكى من مدينة مينسك). خلى مكان بفندق "نصر سيتى ـ ٤"، حيث قتل أحد المستشارين فى اليوم السابق نتيجة لغارة قامت بها طائرات "الفانتوم" الإسرائيلية. كنا ثمانية أفراد نقيم فى شقة مخصصة لعائلة متوسطة الحجم، تتكون من حجرتى نوم، وحجرة طعام، وصالة. كنا نقيم كل اثنين فى حجرة.

كان من الغريب، أنه فى أثناء وجودى بمهمة علمية فى العام الدراسى ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ بجامعة القاهرة، كنا أربعة طلبة نستأجر شقة مماثلة تماما بحى العجوزة، خلف سيرك العاصمة ومسرح البالون تماما.

كان المستشار الذى قتل هو الثالث من بين المستشارين السوفييت الذين ماتوا. وكان الثلاثة يقومون بواجبات مستشارى القادة المصريين لكتائب الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات الحامية لمواقع الدفاع الجوى. كانت تمر "حرب الاستنزاف"، التى أعلنها الرئيس جمال عبد الناصر على إسرائيل، بمرحلة جديدة. كانت قوات الطيران الإسرائيلية قد بدأت فى القيام بعمليات مخططة لتدمير وسائل الدفاع الجوى المصرية، فى البداية عند قناة السويس، ثم فى داخل البلد. كان رفيقى فى الحجرة رائدا مستشارا لقائد كتيبة صواريخ ومدفعية مضادة للطائرات بالدلتا، وكان دائما ما يردد، وهو يشير إلى نفسه، بأنه التالى...

كنت أعرف الحرب من خلال الكتب والأفلام وروايات والدى، الذى شارك فى القتال على الجبهة، وكانت هذه أول مرة ألتقى فيها بموت الأفراد فى ظروف

الحرب. كانت حالتى يرثى لها، بقول مخفف. لم تنجح حتى المروحة القوية، التى كانت موجهة لى مباشرة، من التخفيف من الهواء الرطب الخانق، ولا حتى من الخيالات التى كانت تجيء إلى فكرى بأنى راقد على فراش مستشار قتل لتوه، وبأنه قد تم حصر أشيائه الشخصية، باشتراكى، وتم إرسالها إلى موسكو. وما زلت أتذكر أحد أحلامى فى ذلك الوقت، والتى رسخت فى ذاكرتى، بأنى كنت مصابا فى قدمى.. كنت أجرى... بل أزحف على وجه الدقة، هاربا من معسكر اعتقال إسرائيلى، من تحت الأسلاك الشائكة، ولسبب ما، كنت أجر معى، فى أثناء ذلك، فتاة.

كانت الفرقة الميكانيكية الثالثة متمركزة بمنطقة الهايكستيب، حيث كانت توجد معسكرات قوات الاحتلال الإنجليزى المحتلة قبل قيام ثورة عام ١٩٥٢، والتى تم تحويلها إلى معسكرات سجون وزنزانات للشيوعيين المصريين. كان ينقلنا، نحن المترجمين والمستشارين، ميكروباص أزرق اللون يوميا إلى الهايكستب، وكان يوصلنا فى المساء إلى نصر سيتى... كان يقوم بالترجمة معى من اللغة الإنجليزية مترجمان من الاتحاد السوفييتى، وعدد من المصريين أتموا برنامج دراسى للغة الروسية مدته ستة شهور بالقاهرة.

طبقا لقول الجنرال شوكين ـ نائب كبير المستشارين بالقسم السياسى، والذى ذكره فى اجتماع "على مستوى كل مصر" للمترجمين العسكريين السوفييت، فإن عدد المترجمين العسكريين حوالى ٥٠٠ فرد. وكان عدد المترجمين من اللغة الإنجليزية أكبر من عدد المترجمين من اللغة العربية. وقد كان العدد الأكبر ضمن مترجمى اللغة العربية من الفتيان الذين جاءوا فى مهمات علمية تدريبية بعد إتمامهم للسنة الدراسية الثانية بالمعهد العسكرى للغات الأجنبية. وكان زملائى المترجمون من (أوزبكستان، أذربجان، أوكرانيا، أرمينيا، موسكو، لينينجراد، الفولجا، شمال القوقاز...).

وقع حمل كبير على مترجمى اللغة العربية، خاصة على من كان منهم يعرف من قبل اللهجة المصرية. أتذكر الترجمات الشفهية الطويلة فى تدريبات قيادة الجيش وكتائب الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات، وفى مختلف الاجتماعات. كانت هذه ترجمة فورية حقيقية! كان معظم المستشارين والخبراء يعتقدون أن

المترجم هو نفسه ذلك المهندس حديث التخرج، الذى يحتاج إلى فترة تعوُّد عملى وإلى فترة اختبار معينة. ولكن لم يكن هناك وقت لذلك، فقد كان الوضع يتطلب اندماجًا فوريًا فى العمل بغض النظر عن صعوبة الموقف اللغوى للمستعربين، الذين درسوا أساسا اللغة العربية الفصحى، ولكنهم واجهوا اللهجة المحلية المستخدمة فى الحديث، والتى تختلف بشكل كبير عن اللغة الفصحى. وعلى الرغم من بعض الصعوبات فى الترجمة، فإن المستشارين و"من كانوا يقدمون لهم الاستشارات" كانوا يتعاملون معنا بشكل حسن. كنا نقوم بأعمال الترجمة فى خلال النهار والليل، فى حجرات (خيم) وفى الصحراء، فى السيارات (جاز) فى أثناء التدريبات فى جو مترب للغاية. كما كان علينا أحيانا العمل فى كتيبة دبابات، أو لواء مدفعية، أو كتيبة مركبات، وفى أية ظروف ممكنة.

أذكر يوم قمت بالترجمة فى مكتب قائد الفرقة بينما كان يتم قصف لواء الدبابات المجاور المنفرد. فعندما كانت تدوى ضربات القنابل القوية، كنت أركض إلى الباب وألقى بنفسى فورا فى المخبأ الذى على شكل برميل وكان يبعد تقريبا ١٥ مترا عن المبنى. وقد سقط على ظهرى فى نفس هذا المخبأ جندى يلبس حذاء مطروقًا. وبعد عدة دقائق، هدأ كل شىء، فعدت إلى مكانى مرة أخرى. أحسست بالخجل أمام قائد الفرقة، ورئيس الأركان وستوبين الذين كانوا يجلسون بهدوء فى مقاعدهم. فقد كنت الوحيد الذى كما لو كانت الرياح قد عصفت به. فكرت فى أنه لو كنت قد جلست معهم لما تألم ظهرى من الحذاء المطروق الذى يلبسه الجندى الذى سقط على فى المخبأ.

ولكن، بالمناسبة، فقد كانت دائما هذه السرعة بالذات هى التى تنقذ المترجمين الأغرار. ويكفى ذكر حالتين للتدليل على ذلك: إحداها حدثت بكتيبة مدافع بالدلتا، فبمجرد أن بدأ القصف، اندفع المترجم خارجا من نقطة القيادة، أما المستشار ومن كان يقدم له الاستشارات، فقد أظهرا شجاعتهما ببقائهما فى مكانهما، فسقطت عليهما قنبلة فلقيا حتفهما. أما المترجم فقد بقى على قيد الحياة. أما المرة الأخرى، فقد حدثت مع كبير المستشارين بفرقة أحد الجيشين الميدانيين المصريين والمتمركزة على طول قناة السويس. كان عائدا إلى مكانه على القناة من يومى إجازة خياليين قام بهما كالعادة فى الجمعة والسبت. توقفت فجأة

سيارته، حيث إن السائق كان قد أحس بوجود شىء ما غير عادى، أو أنه كانت هناك انفجارات فى الأمام. هذا لا يهم. حدث ذلك فى منتصف الطريق إلى القناة. لم تتمكن المدفعية الإسرائيلية الموجودة على الضفة الشرقية من الوصول إليهم هنا. على أية حال، بمجرد أن توقفت السيارة، اندفع المترجم بسرعة إلى الأرض مخفيا رأسه بيديه من الخوف، بينما خرج العقيد على مهل من السيارة وهز رأسه ساخرا وهو يلوم المترجم على جبنه. وهنا دوى انفجار صاروخ. بقى المترجم سليما وبلا أية إصابة، أما العقيد، فقد أطاحت شظية بنصف رأسه.

كانت أصعب الترجمات تتم فى تدريبات القادة وهيئة الأركان وفى أثناء تحليل تدريبات الجيش والفرق، تلك التى لم يكونوا يستدعون لها إلا المستعربين ذوى الخبرة والمعرفة الجيدة باللهجة المصرية. لم تكن تلك مباحثات مباشرة، يقول فيها المستشار أو من تقدم له الاستشارة عدة جمل، ثم يتوقف، فنقوم بالترجمة بهدوء. كان ذلك يحدث بنفس الطريقة فى أى حوار.

كان يتم تحليل التدريب، عادة، فى حجرة كبيرة، وكان يحضره، على الأقل، عدة عشرات من الأشخاص. فيبدأ الحديث أى من قادة الفرقة أو قائد الجيش، وأحيانا من الرئاسات الأعلى. ثم بعد ذلك يتحدث الكل، فيتكلم أحدهم، ثم آخر... يقاطعون بعضهم البعض... كما كان يشارك رجالنا أيضا أحيانا فى الحوار. كان المستشارون يرغبون فى فهم الحوار طوال الوقت، لذلك كنت أشعر بكوع ف. ج. ستوبين أيضا دائما عند جانبى. وبمجرد أن أتوقف قليلا، كنت أحس أيضا بطلبه الاستيضاح:"عما يدور الحديث؟". كنت استمر فى ترجمة حوار الجنرالات والضباط المصريين، على الرغم من أنه قد يستمر لمدة ساعة.. ساعة ونصف.. ساعتين، وأحيانا ثلاث ساعات. كان يحدث أيضا أن تستمر هذه الحوارات لأربع ساعات، بل خمس أيضا على التوالى... وبالطبع يتخللها تقديم الشاى، والقهوة، والكوكاكولا.

كان الموقف يكون أحيانا صعبا جدا، قتاليا. وأنا لن أتحدث عن تلك الصعاب الإضافية التى أتت بها "حرب الاستنزاف"، التى اندلعت فى مارس ١٩٦٩. لذلك كنت أحاول ألا تنتظر "الكوع". كانت هذه أكثر الترجمات الفورية إزعاجا، وليست تلك التى كنت أسمعها فى موسكو. فقد كان المترجمون يقومون بالترجمة فى

موسكو فى مؤتمرات الحزب الشيوعى السوفييتى وفى النقابات ومختلف اللقاءات العامة على المستوى السوفييتى والدولى، وكثيرا ما كان فى حوزتهم جزء من نصوص الكلمات التى تلقى من على المنصة العليا. فى تلك الحالة، كان ما يهم هو عدم التأخر أو سبق كلمات النائب الذى يتحدث، وكان الأهم هو الانتهاء من الترجمة معه. وبالطبع كانت تتم الترجمة الفورية الحقيقية بقصر المؤتمرات وقاعة الأعمدة[٨]، بدون استخدام نصوص مطبوعة... وأنا أعرف بعضًا من هؤلاء المترجمين وأكن لهم احترامًا كبيرًا.

ولكن كان يستمر تحليل التدريب لمدة ثلاث أو أربع ساعات، وكان الحماس يتزايد، ويتزايد التعب، بينما كان على المترجم أن يكون متيقظا تماما، على الرغم من أن عملية الترجمة تكون قد أصبحت تجرى بصعوبة كبيرة.

أذكر أنه كانت تزيد صعوبة هذا النوع من الترجمات بسبب مختلف الظروف: فقد كان الكثيرون يجلسون على مسافات بعيدة، خلف أعمدة، بظهورهم... وكان بعضهم يعانى من عيوب فى النطق، أو كانت أصواتهم منخفضة... وقسم ثالث كان لا يرغب فى أن يسمعهم الروس فكانوا ينطقون الكلمات بطريقة غير مفهومة. وكان يحدث أنهم لا يرغبون فى أن يصل أبدا مفهوم ما يقولونه إلى الروس، فكانوا يلجأون إلى مختلف الطرق. فعلى سبيل المثال، كان لقائد الفرقة حجازى، فى هذه الحالات، أصوات حنجرية عربية تولد فى حنجرته وتموت بها، بحيث لا تخرج عنها. كان يسمع فى حنجرته "خليط من الأصوات" أو تسمع أصوات تماثل ضجيج الآلات الإلكترونية. وهنا لم يكن يستطيع "كوع" ستوبين تقديم مساعدة.

ولكن عامة كان ينتمى ستوبين إلى فئة القوم المتفهمين، فكان يدرك الموقف فورا، حيث يدرك أن المترجم لا يستطيع فعل أى شىء فى هذا الموقف. ولكن لم يكن هذا الفهم موجودا دائما، حتى لدى المستشارين المماثلين لفيكتور جافريلوفيتش. وأحيانا كان يصبح المترجم هو كبش الفداء، بذنبه أو بذنب آخرين. فقد كانت تصب عليه الذنوب فى حالات الفشل التى تنتج من المباحثات،

---

(٨) قاعة احتفالات بوسط موسكو تستعمل فى المناسبات الكبيرة.

أى بأدب شديد نتيجة" عدم الفهم الكامل" فى أثناء إجراء الحوارات بين المستشارين ومن يقدمون لهم الاستشارات. ولكن على أية حال، كانت المشاكل التى تحدث بسببنا قليلة. ولكن، على أية حال، يمكن لأى من المترجمين تذكر ولو حالة واحدة، عندما كان يضطر لإنقاذ الموقف العام أو حفظ ماء وجه متلقى الاستشارة أو الخبير.

ذات مرة، بعد حضور قواتنا النظامية، كان على الترجمة بكتيبة الاتصالات بمكان قريب من القاهرة. ذهبنا إليه من مركز اتصالات كبير المستشارين العسكريين السوفييت بسيارة مع ألواح خشبية لعمل هرم لسلاح أفراد الكتيبة. كان معى فى سيارة النقل رئيس مركز الاتصالات والسائق بالإضافة إلى ٢ ـ ٣ من الجنود بينهم رقيب. كان قد تم الاتفاق مع الكتيبة العربية، فى غير وجودى، لذلك فقد بحثنا عنها كثيرا عندما ذهبنا إليها فى ظلام الليل. غالبا مرت ساعة ونحن نبحث عنها، ثم أخيرا وصلنا إلى أفراد الاتصالات. ولكن تبين أنهم كانوا آخرين، غير الذين كنا نبحث عنهم. اندهشوا للغاية، عند رؤيتنا بالملابس العسكرية فى الظلام. ولكنهم قرروا، على أية حال، فى النهاية مساعدتنا بعد استفسارات طويلة. اتصلوا لفترة طويلة برئيسهم، وكان هو أيضا مندهشا تماما، وشرحوا له ما حدث. وفى النهاية جاءت "الموافقة" من أعلى، وبدأ جنودنا فى تقطيع وتشذيب الألواح الخشبية التى أحضرناها باستخدام آلات الورش المتوفرة. أما نحن، فقد دعانا اثنان من الضباط لشرب الشاى.

كنا جالسين، نتحاور، وفجأة سأل أحد المصريين: "وما رأى السوفييت فى العرب، المصريين؟". أجاب زميلى، بدون أن يرمش له جفن: "العرب مثل الفاشيست. فالفاشيست قتلوا اليهود، والعرب قاموا بذلك أيضا". بهت لثانية من هذا "الاكتشاف" الذى عثر عليه المقدم، وقمت بهدوء بترجمة عبارات ما عن الصداقة السوفييتية ـ العربية. واستمر الحوار بعد ذلك عن أمور عادية، على الرغم بأن زميلى كان ينتظر من العرب رد فعل مناسب لما قاله ردا على السؤال. أنهى الجنود عملهم بسرعة، فودعنا أصحاب المكان المضيافين، وعدنا إلى منشية البكرى.

لم أذكر لرئيس مركز الاتصالات بذلك الحدث. ولكن يبدو أنه أدرك مدى حماقته والنتائج التى كان يمكن أن تترتب عليها، لذلك فقد كان كثيرا ما يردد عند حدوث حماقة أخرى، مشيرا إلى:"إنه يمثل ذكاء، وشرفًا، وضمير مركز الاتصالات".

ولكنى على أية حال أرغب فى أن أكرر أن مثل هذه المواقف كانت نادرة جدا. ولم يحدث ذلك لأن النظام السابق كان يقودنا من مكتب حزبى، وحزب شيوعى، ومختلف اللجان التى كانت تحضر إلينا، وفى النهاية، الهيئة الأعلى المتمثلة فى اللجنة المركزية لحزب الشيوعى السوفييتى، والتى كان يعمل بها أشخاص من ذوى الكفاءة العالية، والمتمتعين بخبرة كبيرة فى العمل مع بلاد الشرق، بما فيها العالم العربى.

يمكن بالطبع تفسير مثل هذه "السقطات" بالسمة القومية للروس والمتمثلة فى(الخجل، البساطة، درجة ما من التواضع، والخوف من التحدث فى مواضيع مهمة).

وبالتأكيد كان تأثير عدم وجود خبرة كبيرة فى العلاقات مع الأجانب، بسبب "الستار الحديدى" الذى كان موجودا لعدة أجيال من السوفييت، من الأسباب القوية لذلك. كان ذلك يظهر فى عدم القدرة على التعامل مع الأجانب، وعدم الثقة فى النفس، ومن هنا كانت تظهر مشكلة عدم وجود جرأة لدى عدد كبير من المستشارين لعرض مواضيع أساسية والحصول على إجابات عليها، ومحاولاتهم الدائمة للبقاء فى الظل. وبالمناسبة لقد لاحظ ذلك المستشارون نفسهم، حتى أن ستوبين وبخ بعضًا من مساعديه كانوا قد تحولوا إلى رسامين يقومون برسم مختلف (الرسومات، المخططات، الجداول، واللوح) التى تمثل التجهيزات القتالية وغيرها. وكان متلقى الاستشارات سعداء تماما بهذا الأسلوب حيث إن المستشار لا يتدخل فى الأمور، ولا يعرض مواضيع صعبة، كما أنه لا يؤرقهم كثيرا.

كان رئيس تحرير جريدة "الأهرام" محمد حسنين هيكل على حق حينما شرح، تقريبا فى عام ١٩٧٢، عدم جدوى عمل المستشارين وأخطائهم كمؤشر مهم للعلاقات المتوترة بين الاتحاد السوفييتى ومصر بعد طرد المستشارين العسكريين فى عام ١٩٧٢، فقد كتب أن سبب عدم التفاهم نتج من التدليل من جانب

الروس، الذين كانوا كثيرا ما يوافقون على رأى متلقى الاستشارات بدلا من التحاور والتناقش معهم بخصوص أى من المواضيع. وكانت هذه المواضيع متعلقة بتوريد ما يطلق عليه "الأسلحة الهجومية"، وعدد كبير من المسائل الأخرى.

فلنعد إلى عمل المترجمين. لقد كان متعدد الأشكال، ولم يكن محددا بالترجمة فقط. كنا نقابل مواقف رسمية ومواقف غير رسمية. وبالمناسبة، قد لا يكون هناك فاصل بينها. أتذكر زيارة المارشال كوتاخوف، أو قد يكون المارشال يفيموف، إلى القاهرة. كانت مباحثات المارشال مع الجانب المصرى صعبة جدا. وبعد انتهائها، أقام المصريون حفل استقبال بنادى الصيد عند الأهرامات. كان المارشال جالسا مكدرا تماما، تقريبا عابسا، حزينا، بحيث لم يؤثر على حالته المعنوية حتى الرقص الشرقى لإحدى أحسن الراقصات. فجأة، وبعد أن سمعت الراقصة حديثى باللغة العربية مع الجنرالات المصريين، اقتربت منى وجعلتنى أقف، ثم بدأت بسرعة فى فك كرافتتى، ولكنها لم تنجح فى ذلك لفترة طويلة. شدت العقدة فلم تتمكن من فكها وخلع الكرافتة. أضحك ذلك العسكريين الحاضرين الجالسين إلى مائدة على شكل حرف U، فقد كانوا قد أصبحوا مرحين نتيجة للويسكى الذى شربوه.و لكن بقيت نظرات المارشال كما هى صارمة.

استمرت الموسيقى الشرقية، ودعتنى الراقصة وهى تهز أردافها لكى أقوم بنفس حركاتها. أحسست بالخجل والحرج بسبب عدم كياستها، فامتنعت عن ذلك، ولكنها استمرت فى إصرارها. لم يكن هناك مفر، فحاولت تحريك أردافى على نغمة الموسيقى، فأخذت تهز رأسها وهى تزيد من الإيقاع. حاولت أن أقوم بشىء ما بمصاحبة تصفيق العرب التقليدى فى مثل هذه الحالات. لقد خيل لى أن هذه الاهتزازات، التى استمرت لعدة دقائق، قد استمرت دهرا. قهقه الجنرالات الروس والمصريون. وهنا ابتسم المارشال. لقد قمنا أنا والراقصة بدورنا فى الترفيه عن الضيف.

كنا كثيرا ما نقوم بأعمال ترجمة مكتوبة. وكان يوجد بمكتب كبير المستشارين العسكريين مكتب للمقررين، وكان يرأسه عند وصولى إلى مصر جيورجى ريوتسكى (جورا)، القادم من مدينة أوديسا. وبعد فترة ما، أصبح كبير المقررين هو العقيد كفاسيوك من موسكو. لا أعرف لماذا حدث أن كل من كانوا يعملون فى

مكتب المقررين كانوا من مترجمى اللغة الإنجليزية. كانوا يقومون بترجمات شفهية، ولكن بشكل نادر. كانوا مسئولين بصفة أساسية عن ترجمة أهم المقالات المنشورة بجريدة "إجبشيان جازيت" كتابة، ثم بعد ذلك كان يتم عمل ملخص صغير منها لعرض موجز لأهم الأنباء. وكانت تقوم بنات (جانا، لينا ونادية) من مكتب الآلة الكاتبة بكتابتها.

وبعد ذلك، كانت توزع هذه التقارير على الرئاسات، وكانت تحفظ فى ملفات. كما كان المترجمون يستخدمون هذه التقارير لإلقاء محاضرات سياسية إعلامية فى الاجتماعات اليومية الصباحية للمكتب. وكان كثيرا ما يطلب منى ذلك.

كان يوجد بالمكتب مترجمون آخرون ـ أوليج كولموجوروف (من اللغة الإنجليزية) الذى كان يقوم بالترجمة لنائب كبير المستشارين شيشيموروف، والمستعرب شاميل ميسير باشايف لنائب رئيس القسم السياسى الجنرال شوكين، والمستعرب كولا لوكاشونوك الذى كان يترجم لرئيس هيئة الأركان الجنرال جرييف. وكان عمل هؤلاء الزملاء مع جنرالاتهم يشغل كل وقتهم، كما أنهما كانا فى حماية على مستوى عالٍ. لذلك، عندما كانت توجد حاجة لمترجمى اللغة العربية، كان كفاسيوك يطلبنى عادة.

هنا بقى حدثان مرتبطان فى ذاكرتى بوصول أنور السادات إلى السلطة (كان جمال عبد الناصر قد توفى فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠)، حيث يبينان صوراً أخرى لعمل المترجم.

فى يوم ١ أو ٢ مايو، ألقى رئيس جمهورية مصر، فى ذلك الوقت، خطبة أمام عمال مصانع حلوان، كما كان يفعل ناصر حتى وفاته. وقد لاحظ المراقبون غياب على صبرى الذى كان عادة يحضر هذا الاحتفال بين الصفوة. كان على صبرى زعيما لليساريين الناصريين، كما كان يمثل حلقة الوصل بين موسكو والقاهرة. وقد قيل لنا فيما بعد إن السفير السوفييتى ف. م. فينوجرادوف قد أرسل مترجمه الخاص إلى منزل على صبرى، حيث نما إلى علمه بأنه قد حددت إقامته ببيته. ثم قام السادات فى يوم ١٣ مايو بانقلاب وقام باقتدار بإزاحة كل صفوة رجال السياسة والدولة من طريقه وهم: شعراوى جمعة ـ وزير الداخلية، محمد فوزى ـ وزير الحربية، وزير الإعلام ـ فائق، رئيس المخابرات العامة،

رئيس إدارة الرئاسة، وتقريبا كل المكتب السياسى والاتحاد الاشتراكى العربى. وقد وضع السادات بذلك بداية "لحركة التصحيح".

فى أحد أيام هذا الشهر، مايو، دعانى رئيس هيئة أركان حرب كبير المستشارين العسكريين اللواء م. أ. جارييف إلى مكتبه، غالبا بناء على توصية من شخص ما. كان يتميز بنشاط كبير وقدرة على المبادرة، وكان قد حضر إلى مصر ليكون قائد فرقة، وقد كلفنى بارتداء الملابس المدنية والذهاب إلى الأحياء الشعبية بالقاهرة لمراقبة مظاهرات الاحتجاج التى قام بها سكان القاهرة ضد السادات، وتدوين هتافاتها، والاستماع إلى أحاديث الشعب.

وقع اختيارى على حى العتبة بالعاصمة، حيث كنا نزوره كثيرا من عامين عندما كنا طلبة هنا، راقبت الموقف، وأنصت إلى ما يدور. كنت أسير وأنا مكدر، وغالبا اكتسب وجهى اللون الأحمر من الخجل. كان يخيل لى أن الجميع قد فطنوا إلى مهمتى. كان كل ما حولى فى كل مكان هادئا وساكنا. كما كانت التجارة تسير بشكلها الطبيعى. فحصت بعض الأقمشة والبضائع. لم تكن هنا أية مظاهرات أو أية احتجاجات، ولا أية هتافات. عند عودتى إلى منشية البكرى، أبلغت اللواء جارييف بأننى لم ألاحظ وجود أى اختلاف عن الحياة الطبيعية للقاهريين. ابتسم رئيس هيئة الأركان، وأرسلنى إلى مركز الاتصالات.

كان الحدث الثانى هو أيضا مرتبطا باللواء جارييف وأنور السادات. كان الرئيس الحالى، فى ذلك الوقت، لجمهورية مصر العربية ـ السادات، بعد أن أزاح المعارضين وأرسلهم إلى السجن، واتهمهم بتكوين ما يسمى "مراكز القوى"، قد بدأ فى عقد لقاءات كثيرة مع (العمال، المثقفين، الطلبة، النقابات، والعسكريين). كانت خطبه فى بعض الأحيان هادئة، وأحيانا ذات طابع نارى، وكانت تمتد أمام الحضور فى كل مرة إلى حوالى ساعتين أو ثلاث.

يبدو أن اللواء جارييف كان يرى ضرورة تسجيل خطب السادات وترجمتها، لأن الوضع لم يكن هادئا تماما فى مصر، فى ذلك الوقت، حيث كان يتم اعتقال وملاحقة الناصريين اليساريين. وقع على الاختيار مرة أخرى للقيام بذلك. كان يجب على القيام بتسجيل الخطب وترجمتها. لذلك كنت أقوم بالاستماع إلى صوت السادات وهو يخطب عن طريق المذياع على موجة معينة بمكتب

المقررين،حيث كنت أبدأ مباشرة فى ترجمة خطب السادات، التى كان يلقيها باللهجة العامية المصرية، محاولا تسجيلها باللغة الروسية بشكل كامل وتفصيلى، على قدر الإمكان. كانت تنتقل فورا الورقة التى كنت أكتبها إلى بجنيفتس أو إلى ليباكين، اللذين كانا يصححان بسرعة ما كتبته، أو كانا أحيانا يعيدان كتابته من جديد. ثم يستلم الورقة جندى مراسلة، يقف فى وضع استعداد، للصياغة الأخيرة للجزء التالى من خطبة أنور السادات ويوصلها جريا إلى الطابق الثانى حيث كانت تتم كتابتها على آلتين كاتبتين تعملان بنشاط كبير. وبعد انتهاء خطبة السادات، بنصف ساعة، كانت تنطلق بسرعة سيارة تقف بجراج المكتب جاهزة للانطلاق حاملة الترجمة على طريق صلاح سالم، الخالى نسبيا، فى اتجاه الجيزة إلى السفارة السوفييتية. وأنا أعتقد أنه على الرغم من أنه كان لدى السفارة مقرروها ومترجموها وأنهم كانوا جاهزين لتقبل خطب السادات، فإنهم بالطبع لم يكونوا على نفس الدرجة لمنافسة اللواء جارييف المتحمس.

فيما بعد ترقى محمود أخمدوفيتش جارييف فى عمله بشكل جيد، حيث إنه أصبح أولا ضمن هيئة أركان حرب الاتحاد السوفييتى، ثم كبير المستشارين العسكريين بأفغانستان، أما الآن، فهو يشغل عددًا من المناصب العسكرية الرفيعة المستوى بجمهورية روسيا الاتحادية، ومنها منصب رئيس الأكاديمية العسكرية. يجب هنا الإشارة إلى بعد نظر م. أ. جارييف، وقدرته على توصيل رأيه إلى القارىء بأسلوب منطقى، والوقوف أمام المحكمين، والدفاع على مصالح العمل الذى يقوم به. وأنا أتذكر، بصفة خاصة مناقشاته، بخصوص ضرورة دعوة الطلبة إلى الخدمة العسكرية، والتى أجراها مع الدوائر الأكاديمية على صفحات جريدة "ليتراتورنايا جازيتا"[(٩)]، ومن بينهم راوشنباخ ـ نائب رئيس هيئة أركان الحرب فى السبعينيات من القرن الماضى. وتؤكد مقالاته، وبصفة خاصة تلك المنشورة بجريدة "نيزافيسيمايا جازيتا"[(١٠)]، مدخله العلمى، حيث تناولت بالنقد عقيدة ريزون عن استعداد الاتحاد السوفييتى ليكون البادئ فى توجيه ضربة لألمانيا فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى...

---

(٩) الجريدة الأدبية.

(١٠) الجريدة الحرة.

استمر قيامى بهذه الترجمة الفورية المكتوبة لخطب السادات فترة طويلة لدرجة الملل. فقد كان يتم استدعائى فى أى وقت من اليوم، وفى أى يوم من الأسبوع. وقد حدث ذلك فى إحدى المرات فى يوم إجازة، فى يوم جمعة. عثروا على بمدينة نصر فى الحى الرابع، حيث كنت فى ضيافة ف. ج. ستوبين. وقد قدمت لنا زوجته نيلا سيرجييفنا أطباقًا من اللحم المحمر المحشى بالثوم (وقد كان هذا الطبق بالنسبة لأعزب مثلى نادرا، لذلك فقد بقى فى ذاكرتى). كان مراسلو مركز الاتصالات (ضباط وجنود مركز الاتصالات، أو كتيبة الاتصال) يقومون، بجانب أعمالهم الرئيسية، بأعمال أخرى فى المكتب حيث كانوا يؤدون أعمال المراسلة، والحراسة فى الداخل. فكانوا يتناوبون على ذلك. أما خارج المبنى، فكان العرب يقومون بحراستنا. أخطرنى أحد أفراد المراسلة من مركز الاتصالات بأن على التوجه إلى منشية البكرى على عجل، حيث ينتظر أن يقوم السادات بإلقاء خطبة أخرى. سببت الجميع وكل شىء متذمرا، ولكن ف. ج. ستوبين، الذى سمع هذا الحديث المختصر، قال لى إنه كان على التصرف بطريقة أخرى، حيث كان على أن أطلب من جندى المراسلة الادعاء بأنه لم يعثر عليّ، حيث إن اليوم عطلة.

وقد اقتنعت فى يوم آخر بصحة رأى هذا الشخص المتميز بخبرة كبيرة فى الحياة، فبمجرد أن حضرت إلى مركز الاتصالات، تم إخطارى بتوقيع جزاء على - حبس انفرادى لمدة ١٥ يومًا. خلعوا عنى حزامى، ولكنهم لم يأخذونى إلى الحجرة المخصصة لذلك خلف الثكنات. كان من الواضح أنهم ينتظرون شيئًا ما. تبين أن نائب رئيس القسم السياسى كان يدافع عنى عند الرئيس. كانت دوافعه كما يلى: أن الملازم الأول جارياتشون يقوم بالخدمة العسكرية جيدا، وأنه لا توجد أية ملحوظات على عمله الأساسى - فى مركز الاتصالات، حيث يتمتع باحترام الجميع، وأن كفاسيوك قد أنهكه باستدعاءاته اللانهائية إلى مكتب المقررين، وقد جاء وقت الدفاع عنه وليس عقابه. وقد أثر منطق نائب رئيس القسم السياسى على الرئيس الجديد لمركز الاتصالات المقدم راسكازوف، الذى كان قد وصل لتوه، وكان طيب القلب. وبذلك لم يتم إرسالى إلى الحبس الانفرادى.

أشعر بالدفء عند تذكرى لأيام خدمتى بمجمع الاتصالات، فقد كانت مميزة. كان على التحدث مع العرب هاتفيا كثيرا. كنت كثيرا ما أضحك المصريين

وأضعهم فى موقف حرج فى نفس الوقت. على سبيل المثال، كنا نستخدم فى مخاطباتنا بالشفرة كلمة "أموليت"، التى كانت تعنى" مكتب كبير المستشارين العسكريين"، وهى تتشابه مع كلمة عربية هى كلمة "عمليات"، التى كانت تعنى"غرفة العمليات". لذلك كان كثيرا ما يعتقد العرب أن الروس من مكتب كبير المستشارين العسكريين هم مستشارون سوفييت من قيادة غرفة العمليات بهيئة أركان الحرب المصرية.

أحب أن أشيد بمن قاموا بنوبات العمل، الذين كانوا ينتظرون حضورى إلى العمل بصبر طويل. كانوا يخطروننى بوجود عطب بأحد خطوط الاتصالات، فكنت أجلس إلى الهاتف واتصل برجال الاتصالات المصريين، وبعد ذلك كانت تجرى أعمال متوترة معهم لتحديد مكان انفصال خط الاتصال وإصلاحه. كانت علاقاتى جيدة مع كل من جنود وصف ضباط، وكذلك مع ضباط ورئاسة مركز الاتصالات. كان الجميع ينادونى باسم "جنادى فاسيليفيتش"[(١١)]، وكان من بين الأسباب المهمة لذلك أننى تخرجت بجامعة موسكو.

كان مجمع الاتصالات يلمع من النظافة، وكان كثيرا ما يزوره ضباط مصريون، حيث كانوا يلقبونه "الأنيق". كان يقدم هنا طعام ممتاز يختلف تماما عن الطعام العربى. كما كانت ظروف الحياة والخدمة العسكرية هنا جيدة، وكذلك كانت وسائل الراحة هنا، بعد القضاء على سطوة طائرات الفانتوم الإسرائيلية، متوفرة، فقد كانت توجد به منضدة بلياردو وآلة "قيثارة" موسيقية... و كانت تسمع هنا الكثير من الفكاهات، وتحاك المقالب الذكية اللطيفة غير الضارة أو المؤذية.

كان يهتم شباب رجال الاتصالات، المتميزون بالقوة والصحة، بكل شىء، بمعنى الكلمة. كما كان يعمل بعض العرب بمركز الاتصالات. أذكر أننى كنت أترجم حديث أحد من زملائى الضباط مع ميكانيكى. تبين أن لأحمد (فلنطلق عليه هذا الاسم) أربع زوجات، أى مجموعة كاملة، كما يسمح القرآن. تحمست الجماعة عند معرفتها ذلك، فسألوه عن الشقة التى يقيم بها. تبين أنها تتكون من حجرتين. هنا زاد الحماس، فكيف تسكن أربع زوجات حجرتين؟ تبين أن إحداهن

---

(١١) بالنسبة للروس،تعتبر المناداة والثانى (الاسم واسم الأب) دلالة على الود ورفع الكلفة.

تسكن فى أطراف القاهرة، وأنه يقوم كثيرا بزيارتها. أما الزوجة الثانية، فتقيم فى الريف، حيث تعمل بقطعة أرض صغيرة يمتلكها. وهو لا ينساها، هى أيضا. أما الاثنتان الباقيتان، فتقيمان معه. على الأرجح، تعيش كل منهن بحجرة خاصة بها، أى يوجد سريران؟ لا، سرير واحد. قمة الدهشة، كيف ذلك؟ الأمر هكذا، فإحداهن على الجانب الأيمن، والأخرى على الجانب الأيسر... وبعد ذلك طرح سؤال واحد...

أتذكر جيدا زيارة ألكسى نيكولايفيتش كوسيجين لمجمع الاتصالات فى عام ١٩٧١. لقد حضر إلى مصر بعد أن اكتسب لونًا أسمر من فعل الشمس، وأن حظى بفترة استجمام، حيث يبدو أنه كان فى إجازة على شاطئ البحر الأسود، قبل ذلك.

وقفنا نحن الضباط بالقرب من المطعم. وصل الموكب المصاحب لكوسيجين برئاسة رتبة كبيرة. كان معه أيضا نائب قائد كتيبة الاتصالات للشئون الإدارية الملازم "ميشا كوفالنكو". دخلوا جميعا المطعم. وفجأة انفتح الباب بعنف واندفع ميشا كوفالينكو خارجا من المطبخ صارخا: "قولوا لى يا زملائى... من منهم كوسيجين؟". ضحكنا كلنا بود، ووصفنا له شكل كوسيجين بسرعة، على الرغم من أن صور وجوه أعضاء المكتب السياسى كانت معلقة فى كل مكان، كما أنها كانت غالبا تصاحب كوفالنكو طوال حياته. خرج كوسيجين ومرافقوه من المطعم بعد فترة قصيرة. وخرج ميشا أيضا مشدودا ومذعورا من ثقل المسئولية. قال له أحد الضباط ناصحا: "ميشا... كان يجب عليك تقديم بضعة أرغفة من خبزنا الأبيض لألكسى نيكولايفيتش كوسيجين لكى يتناوله فى الطريق. اندفع ميشا بسرعة إلى المطعم، وخرج منه بعد عدة ثوان عدوا حاملا بضعة أرغفة من الخبز الأبيض ملفوفة فى ورق، وهو خائف من التأخر. جرى إلى خلف ركن المبنى الذى اختفى عنده الموكب. لست أدرى ما الذى جرى هناك، ولكن عاد ميشا مهموما ومحبطا حاملا الخبز الأبيض الخاص بألكسى نيكولايفيتش كوسيجين. وهكذا سافر كوسيجين إلى موسكو على الطائرة بدون خبز ميشا الأبيض.

قد يكون الوضع فى مجمع الاتصالات "المريح" مناسبا لى أيضا لأننى كنت أجد نفسى هناك فى مجتمع رجالنا الروس بعيدا عن قذف القنابل وعن ظروف

الخدمة العسكرية الصعبة فى قنا، والتى جئت منها إلى مركز المعلومات. وسوف أحكى عنها فيما بعد.

كنت أقوم فى نفس الوقت بالترجمة فى المستشفى العسكرى السوفييتى القريب من مكتب كبير المستشارين العسكريين السوفييت بمنشية البكرى، والواقع على بعد ١٠٠ متر من منزل الرئيس جمال عبد الناصر. كان مجمع الاتصالات والمستشفى قد بدءا لتوهما العمل، لذلك فقد كان حجم الترجمة بهما كبيرًا، كما أنه أنشئت فى نفس الوقت مشاريع جديدة تشارك فى تنفيذها هيئات البناء العسكرية المصرية والسوفييتى معا، كما كان يجرى تركيب المعدات فى كل من المستشفى ومجمع الاتصالات.

ظهر أول الجرحى، فقد قتل ثلاثة من الطيارين فى معركة غير متكافئة بين أربعة طيارين سوفييت واثنتى عشرة من طائرات "الميراج"، بينما تمكن الطيار الرابع من الهبوط بمظلته، ولكنه أرسل إلى المستشفى حيث إنه كسرت رجله.

لن تمحى أبدا من ذاكرتى صورة جثث الجنود السوفييت المحترقة نتيجة سقوط صواريخ إسرائيلية على غرفة التحكم بكتيبة الصواريخ، عندما رافقتها مع قائد المستشفى إلى المشرحة المصرية. كان عمر هؤلاء الفتيان ١٩ - ٢٠ سنة، وكان بينهم أخان توأمان. كانوا كلهم كالتوائم وهم متفحمون، ما عدا الملازم قائد الطاقم الذى كان على ما يبدو واقفا بعيدا، فلم يسقط عليه النابالم بل أصابته شظايا الصواريخ. لم يتمكنوا من إدخاله فى حجرة الثلاجة الضيقة بالمشرحة حيث إن ذراعه كانت مفرودة، لذلك بقى بابها مفتوحا تخرج منه يد الملازم إلى الخارج.

طبقا لما أحصيته، فقد قتل فى أثناء العمليات الحربية فى عامى ١٩٦٩ - ١٩٧٠ بمصر من ٣٠ إلى ٤٠ من العسكريين السوفييت، وكان نصفهم تقريبا من جهاز المستشارين، أما النصف الآخر فقد كان من قواتنا النظامية التى جاءت إلى هذا البلد طبقا لعملية خاصة تم التخطيط لها تحت اسم "قفقاز" الشفرى.

فلنعد مرة أخرى إلى الترجمة التى تعددت جوانبها، وكانت كثيرا غير متوقعة، حيث إنى أرغب فى أن أروى جانبًا آخر لها.

أتذكر مرتين اضطررت فيهما للرد على العرب فجأة بدون نقل الحديث إلى المستشار وانتظار إجابته. كانت إحداها عندما رددت على تعليق أحد الضباط العرب. وقد حدث ذلك فى اجتماع بقنا (القريبة من أسوان)، والذى شارك فيه ضباط من الحامية العسكرية المحلية القناوية بجانب ضباط الفرقة. وقد طرح ف. ج. ستوبين سؤالاً عن إمكانية إقامة المستشارين فى نفس مدينة قنا. قمت بترجمة السؤال. هنا أطلق عقيد من الحامية العسكرية المحلية تعليقًا: "الخبراء الروس يعيشون على القناة، ولا يشتكون... وأنتم تطالبون بفندق؟". استفزنى ذلك، فرددت على العقيد فورا بدون نقل الترجمة لستوبين: "إن ضباط الحامية القناوية يعيشون هم أيضا فى ظروف أحسن من ضباط فرقتنا والضباط المصريين عند القناة".

ساد الصمت. سألنى ستوبين بصوت خافت: "عما يدور الحديث؟". قلت له: "فيما بعد". وهنا قطع قائد الفرقة حجازى الصمت بأن توجه بكلامه إلى محافظ قنا، الذى كان يرأس الاجتماع، موجها الحديث فى اتجاه آخر. وقد قمت بعرض هذا الموضوع على كبير المستشارين بعد انتهاء الاجتماع، فأثنى على تصرفى، مفترضا بحق بأنه كان يجب الرد على الضابط القناوى فورا، حيث لم يكن هناك داع لعمل الترجمة لستوبين وانتظار رد فعله على ما قيل. قال لى ستوبين: "تصرف دائما بهذا الشكل". وقد قمت بذلك.

أذكر أيضا اجتماعًا آخر تم على ضفة البحر الأحمر، بهيئة أركان منطقة البحر الأحمر بسفاجة (قرب الغردقة). وهناك كان رد فعلى فوريًا على كلمات معينة، بدون عمل الترجمة لستوبين، حيث إنها مرة أخرى لم تكن عادلة، صدرت من القائد العسكرى لمنطقة البحر الأحمر اللواء "سعد الدين الشاذلى" الانفعالى جدا والذى يجيد التعبير، والذى كان قد درس بالاتحاد السوفييتى. كان يجيد التحدث باللغة الروسية، وقد كتب كتابًا جيدًا عن ذكرياته عن حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، و قد هاجر من مصر ورأس جبهة ما معارضة لأنور السادات لم تدم طويلا.

كان المستشارون معجبين بسعد الدين الشاذلى أولا بسبب صراحته وحزمه (وقد راقبته مرة أخرى فى أثناء عمله بأحد الاجتماعات بقيادة هيئة الأركان).

كان فى مختلف الاجتماعات وكذلك فى التدريبات متحمسا تماما للاندفاع إلى النقاش، بغض النظر عن شخصية أو رتبة أو مركز محدثه. كان عادة الضباط المصريون المشاركون فى تحليل تدريبات القادة، أو فى هذا النوع من الاجتماعات المماثلة، لا يدخلون فى مناقشات حادة، ولم يكونوا يخالفون بشكل مباشر، على الرغم من أنه قد يكونوا غير متفقين فى الرأى من قد تحدث قبلهم، ليس من الضرورة من الرؤساء، بل كانوا يكتفون بذكر ملحوظة "فكاهة". وقد لاحظ المستشارون ذلك بشكل واضح، وقد اعتبروا الفكاهة نوعًا من الخروج من الموقف، والابتعاد عن الحديث الموضوعى، وإظهار للضعف وعدم الحزم والخوف من الرئاسة، وعدم الرغبة فى إفساد العلاقة معهم.

أما ما يتعلق بوصول الفرقة الآلية الثالثة إلى قنا، التى تبعد حوالى ١٠٠٠ كم عن القاهرة، فقد بدأت الأحاديث عن تحريكها إلى هناك بعد أن أصبحت إسرائيل فى توجيه الضربات إلى الجيوش فى أثناء "حرب الاستنزاف". ورغبة منها فى الحفاظ على حالة استعداد الجيوش للقتال، قررت الرئاسة السياسية والعسكرية المصرية إرسال اللواء العاشر من فرقتنا إلى ضفة البحر الأحمر فى منطقة سفاجا والغردقة وجيامشى.

كان الهدف العسكرى الآخر لهذا اللواء يتلخص فى حماية المنطقة المصرية الواسعة المكشوفة تماما بمحاذاة ضفة خليج السويس والبحر الأحمر حيث كان يقوم فيها الإسرائيليون، من آن لآخر، بعمليات استفزازية واستكشافية. فقد استخدموا فى إحدى المرات الدبابات السوفييتية الصنع التى استولوا عليها فى خلال حرب ١٩٦٧ ونجحوا فى تنفيذ عملية "بحث". تنكروا فى ملابس عسكرية مصرية وأسروا محافظ البحر الأحمر، الذى كان يقوم بجولة على ضفة البحر الأحمر. وبالمناسبة، فقد نجحوا أيضا فى أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى استخدام نفس هذا الأسلوب. فقد نزلوا على الضفة الغربية لقناة السويس بعد عبور المصريين لها واستيلائهم على خط بارليف. وقد اقترب الإسرائيليون من تشكيلات الدفاع الجوى المصرية مستخدمين مرة أخرى المعدات السوفييتية والملابس العسكرية المصرية، وقضوا على عدد من وحدات الدفاع الجوى المصرية، ومنعوا بذلك عن المصريين "الغطاء الجوى"، الذى قام بالكثير من النجاحات لهم فى أول ساعات وأيام حرب أكتوبر عام ١٩٧٣.

قبل نقل اللواء الآلى السادس إلى منطقة قنا، قام كل من رئاسة ومستشارى الفرقة بعملية استكشاف بالسيارات وصلت إلى أسوان. كانت تلك عملية رائعة للتعرف على البلد الذى أرسلنا إليه فى المهمة. كان ركب سياراتنا كثيرا ما يتوقف، وكان يتم عمل تأشيرات ما على الخريطة، وكانت تجرى مباحثات فى مراكز المحافظات، ويتم تبادل الآراء مع المحافظين والرئاسات العسكرية. وقد تركت بعض المدن لدينا انطباعا حسنا للغاية. وقد بدأنا من الجيزة (مدينة ـ محافظة، جزء من القاهرة)، ثم بنى سويف، المنيا، أسيوط ـ عروس صعيد مصر، وسوهاج. وقد كانت أسيوط هى المدينة التى ولد بها سائقنا الأسمر الوسيم أحمد، ذو الشعر المجعد، فسمح له ستوبين بزيارة أهله للفترة التى بقينا فيها بأسيوط. وأنا أتصور كيف ذهب إلى منزله الملىء بأهله راكبا سيارتنا، وقلبه مفعما بالفخر والسرور.

تبين أن "عروس الصعيد" مدينة متميزة بكرم الضيافة. وقد أعجبنا سكان أسيوط بدءا من اللواء ـ المحافظ الذى قام باستقبالنا، والذى روى لنا الكثير من المعلومات الشيقة عن عروس صعيد مصر، وانتهاء ببسطاء السكان الذين كان غالبيتهم يشاهدون لأول مرة "خبراء" يلبسون الزى العسكرى المصرى. وقد لازمنا باستمرار أطفال أسيوط من أولاد وفتيات وبقوا بجانبنا على شاطئ النيل الذى يسميه السكان المحليون "الكورنيش"، كما يسمون النيل "البحر". لم يكن الأطفال لحوحين، حيث إنه لم يكن قد أفسدتهم كثرة الأجانب بعد، كما فى القاهرة والإسكندرية، حيث كانوا يمسكون يدك وملابسك، ويتبعونك عشرات بل مئات من الأمتار مطالبين ببقشيش من القروش، أو أحيانا المليمات (عشر القرش)، يرون أنه من حقهم. كان أطفال أسيوط يتعاملون بعزة نفس، وكان يظهر الفضول فى عيونهم، قبل أى شىء آخر، واهتمام حقيقى، وعدم تكليف طفولى، وحيوية غير عادية.

كانت أخيرا المحطة التالية هى قنا (جنا ـ كما ينطقها الصعايدة، أو إنا ـ كما ينطقها باقى سكان مصر). توقفنا هنا لفترة أطول قليلا، حيث كنا نعرف من قبل ونحن فى القاهرة أن الفرقة سوف تنقل تمركزها إلى هنا بالذات. كان سبب ذلك هو أن النيل يقترب هنا أكثر ما يمكن من البحر الأحمر. كانت المسافة بينهما

تمثل ١٦٠ كم فقط. كانت القيادة السياسية والعسكرية المصرية ترى أنه يمكن لإسرائيل بسهولة أن تقطع هنا وادى النيل، فتفصل بذلك شمال البلد عن جنوبه. كما كان الكمندوز الإسرائيليون قد فجروا محطة محولات ثانوية فى نجع حمادى قبل ذلك بفترة قصيرة.

كان الطريق الموصل من البحر الأحمر إلى قنا رائعا. وبالإضافة إلى ذلك كانت الكثير من الوديان العميقة ـ روافد أنهار قد جفت ـ تخترق المرتفعات الحجرية من عند الشاطئ لتصل إلى وادى نهر النيل. سرنا لمسافة حوالى عشرين كم على أحدها متتبعين مساره. كان الوادى مدكوكا تماما، ويمثل طريقا مستويا تقريبا فى مكان خال من الناس. كان من الواضح أن هذه الروافد الجافة تمنح إمكانية رائعة للإسرائيليين لاستخدامها والاقتراب خفية من وادى النيل. وكان من الصعب ملاحظة مرورهم عبر الوديان حيث إنها عميقة جدا. ذهبنا أيضا إلى هناك، حيث تسلقنا الجبل العالى المجاور للمحطة الفرعية، حيث هبطت مروحيات العدو.

توقفنا فى وسط قنا "باستراحة الرى"، وهو عبارة عن فندق من طابقين مبنى بالطوب الأحمر من عهد الاحتلال الإنجليزى لموظفى وزارة الرى الذين كانوا يفتشون على أعمالهم المتسعة هنا، وقمنا بدراسة تفصيلية للمكان حتى عمق خمسة إلى ستة كيلومترات فى اتجاه شرق قنا. وقد حدد ضباطنا مقدما أماكن لكى تنتقل إليها اللواءات وبعض وحدات الفرقة. عملنا طويلا وعدنا إلى القاهرة عندما أظلمت. أعجبت الاستراحة المستشارين حيث إن حجراتها نظيفة، وأسقفها مرتفعة، ومطبخها جيد، وبدورات مياهها، كما كان الماء متوفرا بها باستمرار. وأعجبوا كذلك بحديقتها الخضراء التى كانت تحيط بها. وقد وضعها المستشارون فى الاعتبار لكى تكون مسكنا دائما ومكانا للاستراحة من العمل الشاق باللواء.

عامة تعنى كلمة "استراحة" فى اللغة العربية "مكان الراحة". وقد كان المستشارون يستحقون هذه الراحة فى مكان تتوفر به ظروف مريحة، بقدر لا يقل عن حق مفتشى الرى وإصلاح الأراضى من إدارة الاحتلال. ولكن ما الذى نتج من ذلك؟ سنرى فيما يلى.

وهكذا انتهت هذه الرحلة التى كانت شيقة بالنسبة لى، والتى زودتنى بانطباعات جديدة عن أماكن لن أراها من قبل بصعيد مصر، على الرغم من مشقة الطريق، وجلوسى الدائم فى كابينة السيارة "جاز" التى كانت تهتز بشدة... وغير ذلك من الصعوبات.

يجب هنا الإشارة إلى أن هذه لم تكن أول عملية استكشاف أقوم بها، فقد شاركت فى عملية استكشاف لرشيد ـ وهى مدينة تقع عند مصب الفرع الأيسر للنيل، تقريبا مع نفس التشكيل المكون من الضباط المصريين والمستشارين برئاسة قائد الفرقة حجازى.

قبل ذلك بسنة ونصف أو سنتين،كنت قد قمت مع مجموعة من الطلبة برحلة إلى مصب الفرع الأيمن لنهر النيل ـ دمياط، نظمها النادى الدولى للمتدربين الأجانب بحى الدقى بالقاهرة. وقد سحرتنا مدينة دمياط الساحلية ـ الميناء، عاصمة المحافظة التى تحمل نفس الاسم بصخورها وإضراب الأمواج عند الشاطئ، بالذات "الصخور الدمياطية"، طبقا لتعبير نيقولاى جوميليف(١٢)، نفس الصخور التى شاهدها حجاجنا وهم يتوجهون من روسيا عبر أوكرانيا ومولدافيا، البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط إلى مصر لزيارة الأماكن المقدسة الدينية المسيحية، والوصول عبرها إلى فلسطين التى يهدفون إلى الوصول إليها. وهم كثيرا ما كانوا يشيرون فى رحلاتهم إلى دمياط.

رشيد عبارة عن منطقة منخفضة مليئة بالمستنقعات، تغرقها أمواج البحر الأبيض المتوسط العالية، وقد سحرتنى بغابات أشجار النخيل الواسعة. وقد رجعت قافلتنا من هناك محملة بسلال وبصناديق مصنوعة من جريد النخل مليئة بالبلح الأحمر المحلى.

وأنا أنهى روايتى عن عملية الاستكشاف بجنوب مصر، سوف أشير إلى الأزمة التى حدثت بينى وبين ستوبين، والتى تعتبر فى رأيى من سمات الكثير من المترجمين. قررنا تناول الطعام فى أحد توقفاتنا، فطلب منى كبير المستشارين إحضار حقيبة الطعام من السيارة. رفضت ذلك. وقد لاحظ كثيرون ذلك، وسادت

---

(١٢) شاعر روسى شهير زار مصر عدة مرات وكتب عنها مجموعة من الأشعار.

لحظة سكون غير مريحة. وقد فهم السائق أحمد الموقف بدون أى كلام، فأحضر لستوبين لفافة الطعام وماء. صمتنا لبعض الوقت، فلم نتبادل الحديث. ولكن قرب نهاية الرحلة، انتهت الأزمة فى علاقاتنا مع بعضنا بعضاً.

كنت، مثلى مثل بقية زملائى من المترجمين، أنفعل بحدة عند صدور مثل هذه الطلبات، حيث إننى كنت أعتبرها تمس كرامتى وتخرج عن حدود العمل الذى كلفنا به. قد يكون ذلك مرتبطا بماضينا المدنى وحده، أو بتعليمنا الجامعى، أو بمبالغتنا فى سن الشباب، أو كما فى هذه الحالة بطبعى الذى لا يسمح بأية قرارات مضجرة، أو بكل ذلك فى وقت واحد. ولكن على أية حال فقد اعتبرت أن هذا الطلب يمثل مهانة.

كانت هناك أمثلة من نوع آخر تدعو للاحتذاء بها، فما زالت فى ذاكرتى رواية أحد أصدقائى من المترجمين العسكريين، الذين عملوا بمصر، عن كيف طلب كابتن سفينة حربية سوفييتية، كان يقوم صديقى بالترجمة له فى حديثه مع عرب: "لو سمحت يا صديقى، أنا بالزى العسكرى، خذ من فضلك حقيبتى". كنا نعتبر أن هذه التصرفات نمطية، وكنا بالطبع، من ناحيتنا، لا نرفض فى هذه الحالات تنفيذ طلبات القادة والمستشارين.

كان لا يسمح ماضينا الجامعى، ولا حتى ببساطة لم تكن تسمح كرامتنا الشخصية بالتفاعل بشكل آخر مع الوقاحة والتعامل بشكل مهين من جانب القادة والمستشارين. كانت هذه الحالات من جانب المستشارين قليلة، ولكنها كانت موجودة. فأحيانا، كان ينظر إلى المترجمين كأشخاص من نوعية أخرى. لذلك لم يكن هدرا أننا كنا نحب تكرار وتقليد علاقة الرئاسة بنا على شكل وثيقة - أمر: "نطلب منكم إرسال ٥ دبابات، مدفعين، ١٠٠٠ قنبلة، ٢٠ صندوق ذخيرة، ٥٠٠ قنبلة يدوية، ١٠٠ مدفع رشاش، ومترجم واحد". كان محتوى هذه الجملة يتكرر كثيرا - تقليديا، كان يتغير كثيرا ولكن كان المعنى يبقى كما هو. يبدو أن قرارى ذا الثلاثة جوانب مرتبط بذلك، بعد أن خدمت لمدة سنتين: ألا أكون أبدا فى الجيش، ألا أعمل قط مترجما، وألا أسافر قط فى مهمة طويلة.

لم يكن يسمح فيكتور جافريلوفيتش لنفسه قط بإهانة مترجم، إلا أنه قد يكون حدث منه ذلك فى حالة أو حالتين، بدون قصد، كما يقولون. وبالمناسبة هو

يستحق التحدث عنه بالتفصيل. لقد جاء إلى مصر من مدينة كورسك، حيث كان يخدم فى الجيش كنائب قائد فرقة. كان قد بلغ فى عام ١٩٦٩ اثنين وخمسين سنة. وكما تقول زوجته "بيلا سيرجييفنا" ـ فهو لم يكن يتحدث قط عن نفسه ـ كان قرب نهاية الحرب الوطنية العظمى يرأس كتيبة الاستكشاف. وقد ترقى بعد الحرب إلى رتبة عقيد. وفى ذات مرة حدثت حادثة طارئة فى أثناء إجراء عرض تدريبى فى حضور ممثل وزارة الدفاع: ففى أثناء قيام أحد الأطقم بإطلاق النيران من الهاون، قام أحد الجنود بإدخال دانتين فى ماسورة المدفع، الواحدة بعد الأخرى، فانفجرت الدانتان وقتل كل طاقم مدفع الهاون. تم خفض رتبة ستوبين إلى نقيب، واضطر إلى الخدمة مرة أخرى للوصول إلى رتبة عقيد.

عند وصوله إلى مصر، أصبح يشغل منصب كبير مستشارى الفرقة الآلية الثالثة، التى تمركزت بمنطقة الهايكستيب، حيث أرسلت عند وصولى إلى الجمهورية العربية المتحدة. انتهت بسرعة الرحلات الهادئة من "مدينة نصر" إلى "الهايكستيب" التى كنت أنجح فيها فى تعريف المستشارين بالمعلومات الجديدة التى تنشرها الجرائد المصرية"الأهرام"، "الأخبار" و"الجمهورية". ففى خريف عام ١٩٦٩ أصبح الطيران الإسرائيلى يقوم بما يمكن تسميته "غارات عميقة" بدون أن تواجهها، بالطبع، أية مقاومة جادة من جانب قوات الدفاع الجوى المصرية التى كان قد تم تدميرها قبل ذلك. كانت طائرات "الفانتوم" و"الميراج" و"السكاى هوك" تقوم بقصف الأهداف الاقتصادية الحيوية المهمة ـ المصانع، محطات القوى، وسائل الاتصالات، المدارس (أبو زعبل، على سبيل المثال) ـ محاولة القضاء على الروح المعنوية للمصريين. كما كان يتم اختيار أوقات حساسة بصفة خاصة لتنفيذ ذلك ـ لحظات تغيير الورديات، أيام تسلم الرواتب الشهرية، أى الأوقات التى يكون فيها أكبر تجمعات للناس.كان يمكن بسهولة معرفة أن مثل هذه الغارات تؤدى إلى قتل ١٠٠ ـ ١٥٠ شخصًا، من الجرائد اليومية العادية.

بالطبع، كانت توجه الضربات الجوية إلى القوات المسلحة أيضا. لذلك فقد توقف تدريب الجيش المصرى على العمليات العسكرية، وهو يمثل الهدف الأساسى لحضور المستشارين من الاتحاد السوفييتى، على الرغم من أنه اعتبارا من بداية شهر فبراير ١٩٧٠، و بأمر من القيادة، كنا موجودين بصفة دائمة مع

تشكيلات الفرقة، وكنا ننام فى المخابئ والخيم، ونتناول غداءنا بمطعم الضباط "الميس".

أتذكر هذه الأوقات جيدا. كنت قد بلغت فى ذلك الوقت ٢٥ سنة. ربع قرن، يمثل تاريخًا يبقى فى الذاكرة. لقد طلبت، فى اليوم السابق على ذلك من المستشار النائب عن ستوبين إعفائى من الذهاب إلى الهايكستيب فى خلال فترة تغيب الأخير عند سفره إلى الاتحاد السوفييتى فى إجازة. كنت أرغب فى شراء مواد غذائية، فواكه وخضروات، وأن أقوم بطبخ طعام ما، والاحتفال مع أصدقائى بهذا اليوبيل. ولكن فى الصباح، وتقريبا فى الساعة السادسة، سمعت طرقًا غريبًا على الباب، بل دمدمة. صرخ أحد مستشارينا بصوت عال: "إنذار بخطر! التجمع بعد ١٥ دقيقة مع الأشياء اللازمة عند المدخل فى الأسفل!" لم أنجح فى الحصول على إجابات على تساؤلاتى إلى أين، لماذا، ما الذى يجب أخذه إلا فقط معرفة أننا سنذهب إلى مكان تمركز الفرقة. ألقيت كل ما وقع تحت يدى فى حقيبة وأنا بين النوم واليقظة. فى الأسفل لم يكن أحد مدركا لأى شىء: "هل سنستولى على تل أبيب؟ أم ماذا؟"

ذهبنا إلى موقع تمركز الفرقة الآلية الثالثة. اقتربنا من مخبأ قائد أركان الحرب. كان موجودًا به. لقد أيقظه خادمه فظهر من أسفل وهو يفرك عينيه وينظر إلينا مندهشا، ونحن نحيط بالمخبأ ممسكين بحقائب بأيدينا! تبين أنه لا يعلم عن أى إنذار بخطر؟ موقف فائق الغباء.

أصبحنا نقيم مع الفرقة منذ هذه اللحظة. لم تتوفر أماكن فى المخبأ، فأعطونى مكانًا فى خيمة مدهونة بالقار مع السائقين العرب المسئولين عن نقل المستشارين. وقد قيل لى قبل ذلك إن الخيمة تحترق فى خلال خمس ثوان عند ضربها بالنابالم، لذلك فقد شغلت سريرًا عند المدخل بحيث أتمكن من التكيف مع هذا الوضع وأن أخرج من الخيمة بسرعة حتى لا أحترق داخلها. عاد ستوبين من إجازته بسرعة فوجد لى مكانًا فى المخبأ، على الرغم من أنه لم يكن قادرا على الحماية من السقوط المباشر للقنابل أو الصواريخ.

يتصرف الناس فى ظروف المعارك بأشكال مختلفة، ولم يكن المترجمون يمثلون استثناء من ذلك. فقد كان بعض الزملاء يمرضون فجأة فى أوقات تعرض لواء

المنطقة العسكرية الوسطى للقصف. بينما اندفع آخرون بحجة "الضرورة القصوى" إلى مكان أقل خطرا. أتذكر أحد الفتيان كان يقوم بالترجمة بالفرقة ١٨ مشاة، اجتهد والده العقيد بهيئة أركان الحرب لنقله على عجل إلى منطقة المقطم. كان هذا هو اسم الجبل الضخم الذى كان يوجد فى قلبه مركز قيادة سلاح الصواريخ. من المفهوم أنه لم يكن للآخرين مثل هذا الأب، فلم يكن من الممكن نقل الجميع ولا حمايتهم من الخطر. لذلك فقد استمر غالبية الفتيان فى العمل بأماكنهم.

لقد أدت "حرب الاستنزاف" التى بدأت من أجل إنهاك إسرائيل إلى نتائج عكسية تماما، حيث إن مصر تكبدت فيها خسائر كبيرة. كانت الخسائر المادية والمعنوية التى تسببت فيها طائرات "الفانتوم" ضخمة وحيوية ـ فقد كانت توجد خسائر فى الأرواح بين السكان المدنيين والعسكريين. أتذكر مزحة حزينة للمصريين تحمل معنيين، حيث إن المصريين يحبون الفكاهة والنكات، ينتقدون الذات بدرجة كافية: "حاضر يا فانتوم!" بدلا من "حاضر يا أفندم".

وقد تكبدنا نحن أيضا خسائر. لقد عانى بشكل خاص زملاؤنا بالفرقة ٦ الآلية بالمنطقة العسكرية الوسطى والتى كانت متمركزة فى دهشور بالقرب من أهرامات الجيزة الشهيرة. فقد قتل نتيجة لإغارة طائرتين إسرائيليتين على مركز قيادة هذا اللواء ثلاثة مستشارين وكبير مترجمى اللواء المستعرب "محمود يوسوبوف"، جارى فى نفس الطابق بالمنزل رقم ٤ بمدينة نصر. أما مترجم اللغة الإنجليزية فقد أصيب بجرح اخترق رئته.

إلى اليوم تسمع أذنى لحن شوبان الجنائزى الذى كان يصاحب مراسم وداع القتلى السوفييت بنادينا فى حى هليوبوليس بالقرب مما يسمى القصر الميت، وكذلك صوت نحيب زوجات المستشارين الذى يقطع القلب. كان يحدث أن يكون الجو صعبًا جدا، وكانت تتم الترجمة للواءات والضباط المصريين بصعوبة بالغة.

قصفتنا الطائرات الإسرائيلية بالقنابل نحن أيضا واللواء ١٨ مشاة المجاور لنا، ولكن بنجاح أقل. كان ضربهم لنا موجها لقيادة اللواء ١٤ الذى كان موجودا فى تجمع أكبر من المنازل بوسط الهايكستيب، على بعد حوالى كيلومتر من مركز قيادة الفرقة الآلية الثالثة الذى كان مجتمعا به فى ذلك الوقت ضباط ومستشارو الفرقة. وكما قال قائد الفرقة اللواء حجازى: "لقد ساعدنا الله".

بالطبع كانت الحالة المعنوية سيئة وكان المستقبل مظلمًا. استمر ذلك حتى وصول تشكيلنا الثامن عشر من فرقة الدفاع الجوى ذى المهام الخاصة، الذى تنفسنا أخيرا فى وجوده بكامل حريتنا. أذكر بأن القوات المسلحة النظامية السوفييتية قد جاءت إلى مصر فى بداية عام ١٩٧٠ بناء على طلب جمال عبدالناصر.

أعود مرة أخرى للحديث عن مستشارى. أنا شاكر للقدر لأننى وجدت نفسى أعمل مع ستوبين فى مصر. فهو قوى الإرادة، عادل، يهتم بمرؤوسيه، خاصة بالشباب منهم، شجاع، مدبر، حكيم، يتمتع بخبرة كبيرة فى الحياة وبأريستقراطية فطرية، كما أنه كان يتميز بتلك الصفات التى كانت ضرورية بصفة خاصة فى ذلك الوقت.

وقد طلب من العرب منذ البداية ألا ينادون عليه بلقب "مستر"، كما كان متبعًا، بل "الرفيق فيكتور". كما كانت إحدى مميزاته أنه كان لا يحب أن يعاقب أحد كبير فردًا من بين مرؤوسيه. فقد كان مبدأه كما يلى:"بما أن ذلك حدث عندى، فهذا يعنى أننى سوف أعاقب المذنب بنفسى".

عندما ارتكبت خطأ، علم به كبير المستشارين كاتيشكين، هاج وماج، واستدعى ستوبين وتوعدنى بإرسالى إلى موقع متقدم عند قناة السويس ("حتى إرساله إلى قناة السويس، قليل عليه!"). هنا قال ستوبين جملته المفضلة، ثم أضاف أنه لا يوجد أى مكان فى مصر أسوأ من قنا، التى سوف يتم نقل الفرقة إليها. بالفعل، كان يتم فى هذا البلد على مدى قرون إرسال غير المرغوب فيهم من القاهرة، أو عامة من المركز، إلى قنا.

بقوله هذه العبارة، أقر بذنبه وهدأ الجنرال كاتيشكين وأنقذنى. وبالمناسبة، بمجرد وصولنا فى الصباح إلى نقطة قيادة الفرقة وجلوسنا فى حجرة المستشارين، رن جرس الهاتف. كان كبير المستشارين يطلب ستوبين. تمتم ستوبين وهو ينهض من على مقعده: "لماذا يحتاجنى كبير المستشارين؟". وقفت أنا أيضا قائلا: "يبدو... أن ذلك بسببى". دخلنا إلى الحجرة المجاورة ورويت لفيكتور جافريلوف عن الأحداث غير السارة التى جرت. فهم ستوبين الموقف فقاطعنى قائلا: "سوف نتفق على أنك كنت أول من حكى لى، سوف أقول ذلك لكبير المستشارين".

هكذا دافع عنى ستوبين. وبالمناسبة، استمعت بعد بضعة أيام بدون قصد وأنا موجود بالمكتب بمنشية البكرى من خلف باب مكتب المقررين إلى حديث، بل على الأصح فقط إلى آخر كلمات كبير المقررين "ريوتسكى" عنى:"الجميع يرتكبون أخطاء فى هذه السن. المهم هو الإلمام الصحيح بالوضع والفهم فى الوقت المناسب، وإلا يمكن اتخاذ القرار الخاطئ".

الآن وبعد أن مر أكثر من ثلاثين عامًا على ذلك، عندما أتعامل بنفسى مع طلبة من نفس هذا العمر تقريبا، الذى كنت فيه فى ذلك الوقت، أقتنع بأن كلاً من ستوبين وكبير المقررين كانوا على حق تماما.

بعد عدة أسابيع، وفى أحد الاجتماعات الدورية للمترجمين، سرد نائب كبير المستشارين شوكين أسماء من تم عقابهم من الزملاء. ذكر اسمى، ونعتنى أننى كذا وكذا، ثم توجه إلى: "هيا، تذكر من شاركك فى ارتكاب هذه المخالفة؟". رأيت أمامى ظهر صديقى الجالس أمامى محنيا ويتصبب عرقا من القلق، فأجبت: "لا، أيها الرفيق الجنرال". علق على ذلك الجنرال: "أرأيتم، إنه لم يفقد ضميره بعد، فهو لا يخون رفاقه".

أما فيما يخص الجنرال كاتيشكين، فقد حل محله، فى أثناء وجودى بمصر، الجنرال أكونيف". أما كاتيشكين، فقد تم تعيينه رئيسا لمعهد العسكرى للغات الأجنبية، وكانت له عبارة شهيرة (بالطبع لم تكن نتيجة للعمل مع المترجمين): "بالنسبة لى كانت إسرائيل والمترجمون يمثلون الأعداء الأساسيين".

كان ستوبين فيكتور جافريلوفيتش مستشارا قلوقا ونشيطا جدا، فلم يكن يعطى الفرصة لا لقائد الفرقة ولا لضباطها لالتقاط نفسهم، ولا لى أنا أيضا. كان ينغمس فى كل شىء ويحاول العمل بضمير، ويطالب المصريين والمستشارين بالتصرف بنفس الأسلوب. كان دائما يتفقد الفرقة، ويزور الألوية والكتائب، يساعد وينصح مستخدما خبرته الثرية فى الحياة. كان يعرف كل قادة الكتائب وقادة بعض الفصائل المنفصلة. ولم يكن قول قائد الفرقة حجازى عنه بدون أساس:"يتعامل الرفيق فيكتور مع الفرقة كما يتعامل مع شىء خاص به". وبالمناسبة، يمكن قول نفس الشىء عن كل المستشارين تقريبا.

سوف أسرد مثالاً يوضح علاقته بالعمل بضمير. ففى أثناء أحد التدريبات، عندما كان جاريًا إطلاق النار على أهداف، لاحظ أن أحد من يطلق النيران على الهدف هو واحد فقط من الرماة من سلاح المشاة. قال: "جينا...إلى الأمام"، واقترب زحفا من خط النار، وعندما أصبح قريبا من هذا الجندى الرامى الذى يطلق نيرانه باستمرار، ناداه بصوت عال. التفت إلينا بوجهه العابس الأبيض من التراب، فعرفنا أنه النقيب قائد الفصيلة الآلية. تبين أنه جمع الذخيرة التى أعطيت لأفراد الفصيلة كلهم، وكان يضرب الأهداف وحده، حتى تكون النتيجة جيدة لكل الفصيلة. أشك فى أن أيًا من الضباط المصريين أو مستشار آخر غير ستوبين كان سيفكر فى فكرة مماثلة، بأن يزحف إلى الرماة على خط النار. ولكن ستوبين هو ستوبين.

كانت تميزه الطريقة التى أدى بها ستوبين إلى "إثارة" قائد لواء المدفعية العقيد صدقى، الذى كان قد درس فى مدينة "بينزا" أو ربما بمدينة "بيرم" بالاتحاد السوفييتى. كان قائد اللواء قد قال لستوبين إن عليه بصفته مستشارًا لقائد الفرقة أن يقدم استشاراته لقائد الفرقة، وليس له أو لأى شخص آخر. ولكن ستوبين أجابه بأنه سوف يواصل عمله بنفس الطريقة التى كان يؤدى بها من قبل، أى أنه سيوجد فى كل وحدات اللواء وأنه سوف يعطى نصائحه لكل من يعتقد أنه يحتاج لها. كما أن كبير المستشارين اتخذ قرارا فورا: "بما أن العقيد صدقى لا يرغب فى التعاون مع المستشارين السوفييت فإننى آمرك يا إيفان (مستشار صدقى) بألا تحضر بعد ذلك أبدا إلى لواء المدفعية". وأنا لا أذكر كيف تطورت هذه المشكلة بعد ذلك. ولكنى أذكر فقط الجملة التى كررها ستوبين فى عدة مناسبات مختلفة:"إذا كان العقيد صدقى لا يرغب فى العمل مع المستشارين، فليبقى بلا مستشار".

وقد تصرف فيكتور جافريلوفيتش ستوبين بالأسلوب نفسه مع المقدم كسار ـ رئيس قسم عمليات الفرقة الآلية الثالثة. حدث ذلك بمحافظة أسيوط، على الأرجح عندما عدنا من أسوان. مررنا بقرية "بنى مر" ـ وطن الرئيس جمال عبد الناصر. حكيت لستوبين ذلك، فأمر أحمد بالتوجه إلى هذه القرية. لا أذكر أين كان قائد الفرقة، ولكن كان كسار يقود قافلتنا، وقد كان يتحدث جيدا باللغة

الروسية، حيث إنه درس بالاتحاد السوفييتى. وقد أدرك بسرعة أن سيارتنا قد غيرت اتجاهها إلى قرية بنى مر. لحق بنا كسار بعد عدة دقائق وأمر أحمد بالعودة إلى الطريق والانضمام إلى القافلة. صمت ستوبين، ولكن كان من الواضح أنه لم يكن مسرورا بما حدث.

بعد انتقال الفرقة الآلية الثالثة إلى قنا، قرر مستشار قائد المنطقة العسكرية الوسطى الجنرال نيكيتان الحضور إلينا للتفتيش. كانت هذه الفرقة تمثل جيشا احتياطيا، وكانت توجد فرقتان أخرتان تشغل مراكز فى القفل الأول على طول قناة السويس من بورسعيد إلى السويس.

بالطبع احتاج ستوبين إلى خريطة التوزيع الجديد للفرقة فى قنا، قبل حضور الجنرال نيكيتن، لكى يعرضها على هذا الرئيس الكبير القادم للتفتيش. طلب ستوبين من حجازى هذه الخريطة فى وجود كسار، فتم تكليف رئيس قسم العمليات بالفرقة بتجهيز هذه الخريطة. رسمها بسرعة على قطعة صغيرة من الورق الشفاف. أمسك "الرفيق فيكتور" هذه الورقة بيده، ونظر إليها باهتمام، فلاحظ أنه قد تم رسم موقع الوحدات على هذه الورقة بسرعة وبإهمال وبدون الربط بينه وبين المكان. أصبح تنفسه أعمق، وألقى هذه الورقة بشكل مسرحى، وكان مقاسها ٣٠x٥٠ سم على المنضدة، وهو ما كان يعنى أنه فقد أعصابه. بدأ يتحدث بصوت عال عن أن ذلك تهريج، وأنه لا يستطيع أن يعرضه على الجنرال نيكيتان، الذى يحترمه، وأن هناك محاولة للإساءة له، أى ستوبين... وأنه لا يستحق ذلك، فهل قام بعمل أى شىء سيئ تجاه الفرقة..فلماذا إذا تتم معاملته بهذه الطريقة. ثم توجه إلى قائلا بشكل حاد: "هيا بنا، لا يوجد لنا هنا ما نفعله!" وخرج بسرعة من خندق قائد الفرقة.

جاءنا المقدم كسار متوترا ونحن جالسون فى مخبأنا وقال فورا لستوبين: "لماذا أحرجتنى بهذا الشكل أمام قائد الفرقة؟"... انتهت هذه القصة بأنه تم عرض خريطة جيدة على الجنرال نيكيتا، وأن التفتيش مر بنجاح.

بعد فترة قصيرة توفت زوجة المقدم كسار، فقدمنا له عزاءنا، فتأثر تماما. بعد ذلك بفترة وجيزة كان على مغادرة قنا. وقد التقيت بعد ذلك بربع قرن بالجنرال كسار، الذى قاد بعد ذلك الفرقة، بمعهد التاريخ الحربى بموسكو

بمناسبة مرور ٢٥ سنة على حرب أكتوبر من عام ١٩٧٣. فى المساء شربنا كأسًا من الشمبانيا كنخب لإخوتنا العسكرية وتذكرنا أيام خدمتنا بالفرقة الآلية الثالثة.

بصفة عامة، فإن ستوبين قد أقام علاقات جيدة جدا مع ضباط الفرقة. وقد كان يود ببساطة بعضهم، مثلما فعل مع قائد الكتيبة ١٤ الآلية "مرشدى". وكان يبدأ حديثه فى كل مناقشة بكلمات مثل: "كيف الأحوال؟"، "كيف صحتك؟" باللغة العربية بلكنة سيئة، ولكن كان يفهمه مرشدى وباقى المصريين تماما. كان دائما يزيد ستوبين مخزونه من الكلمات العربية، ولكنه لم يكن ينجح فى ذلك بشكل كامل مثلما كان ينجح مستشار لواء الدبابات "أجافونوف" الذى كان ينجح تماما بدون الحاجة إلى مترجم، فقد تمكن من فهم اللغة العربية الدارجة بسهولة. وبالحكم بناء على النقد الذاتى لستوبين لعمله، فإن ذلك كان بالنسبة له أسهل من أدائه لعمله كمستشار اللواء.

وقد أعجب مرشدى والكثير من الضباط المصريين الآخرين بستوبين لبساطته وسهولة التعامل معه وتمتعه بسمة القدرة على التواصل مع الغير. وبعد انتهاء شهر رمضان، شهر صيام المسلمين، احتفلنا بعيد الفطر عند مرشدى فى الكتيبة. كان هناك أيضا حاضر كل من قائد الفرقة حجازى ورئيس أركان الحرب نجاتى وكسار وغيرهم من رئاسات الفرقة والألوية. وقد تم تقديم لحم الخراف كالعادة فى هذا العيد. وقد قمن بتناوله بسرور فى خلال حديث مرح وفكاهات مستمرة. بالنسبة لى، كان ما وصل إلى فمى قليلا جدا بسبب قيامى بالترجمة.، ولذلك فقد بقيت على المائدة لفترة قصيرة بعد انصراف قادة الفرقة والمستشارين بينما كان يوجه لى ضباط لواء مرشدى نظرات جائعة وغير مرحبة أبدا، حيث إنهم كانوا منتظرين لدورهم.

لم تكن العلاقات الودية التى أقيمت مع مرشدى وليدة الصدفة تماما. فقد كان من الواضح تماما أن ديموقراطية وبساطة الضباط المصريين كانت تقتصر على الرتب حتى رتبة مقدم، ولكن كان ذلك بدرجة كبيرة بصفة افتراضية، فقد كانت توجد بالطبع حالات كان فيها العقداء أو حتى لواءات الألوية يمثلون البساطة نفسها وأفرادًا متواضعين، بينما كان يحدث أيضا عكس ذلك ـ أن يكون نقيب أو رائد متعجرفا تماما ومتعاليًا. ولكن بصفة غامة كان من الصعب إقامة علاقات حميمة مع من تعدت رتبته رتبة "مقدم".

لذلك لم يكن غالبا من الصدفة على الرئاسة السياسية والعسكرية المصرية تقبل اقتراح الجانب السوفييتى بمنح مستشارين لقادة السرايا التى كان يقودها ضباط برتب ملازم أو نقيب. وقد كانت أصولهم الاجتماعية من بيئات تنتمى إلى أقل طبقات المدن والقرى والتربية والتعليم، والوسطى منها.. مما كان يجعلهم الأكثر استعداد وتفتحا لإقامة علاقات مباشرة مع الخبراء والمستشارين والموجهين والمترجمين السوفييت. كما أنهم لم يسافروا إلى الاتحاد السوفييتى ولم يتعلموا به، حيث إن ذلك كان ممكنا فقط للضباط الأعلى فى الرتبة والذين كانوا بعد دراستهم لفترة ما بالاتحاد السوفييتى يكنون بشكل غريب مشاعر سلبية للاشتراكية السوفييتية، وكانوا لا يتقبلون المطاعم الرخيصة ذات الخدمة الذاتية والمزارع التعاونية والحكومية وبعض الصور الاجتماعية الأخرى للنظام السوفييتى. فقد كان تكوينهم، الذى كان قد تم، لم يعد يتأثر لا بالنظام الاجتماعى ولا بسمات الأفراد الذين يعيشون بالاتحاد السوفييتى.

لم يكن ستوبين فقط اجتماعيا وذا خبرة ومستشارًا حكيمًا ودبلوماسيًا، ولكن كان الأهم بالنسبة لى أنه كان إنسانًا يتمتع بدرجة عالية من الاهتمام بمن حوله وبالفراسة، أى قائد بمعنى الكلمة. وقد كان ذلك مهما جدا فى تلك الظروف الصعبة والخطيرة أحيانا.

عندما استمع، فى يوم ما، لأسلوب حديثى مع زملائى أصبح يطلق على "الشيخ" وأيضا "ابنى". وكان كثيرا ما يقول لى ولغيرى "اسمع يا ابنى"، مقتبسا بأسلوبه الوصايا العشر - "إن والدى قد علمنى ما يلى: "فيتكا، لا تسرق البلد، احترم أمك وأباك، ولا تخون أصدقاءك، أما الآخرين فإلى الجحيم". كان يتمتع بثقافة وذكاء كبيرين، كما كان يتميز بقدرته على الفكاهة. كان دائما يسألنى عما إذا كنت أتلقى خطابات من أهلى، وعما يكتبه والدى، وأين أذهب فى القاهرة، ومن أقابل... لم يكن ذلك يخفى مصلحة ماكرة، ولكن كان يمثل مشاركة حقيقية فى قدر من قادته الظروف ليكون تحت رئاسته.

كانت هذه العلاقة مفيدة لى ولأمثالى الذين تم استدعاؤهم للخدمة العسكرية بعد تخرجهم فى جامعة مدنية والذين تم إبعادهم عن والديهم وعن بيتهم، ولكنهم وجدوا نفسهم كأنهم فى وطنهم فى بلد يحبوه. لقد أشرت من قبل أننى كنت قد

أرسلت عن طريق وزارة تعليم الاتحاد السوفييتى للتدريب بجامعة القاهرة، وأننى قضيت بمصر سنة كاملة، وأننى قد جربت كل مغرياتها وحسناتها. وفى ذلك الوقت تم اختيارى رئيسا لمجموعة المتدربين التى كانت تضم ستة طلبة من المعهد الموسكوفى للغات الشرقية بالإضافة إلى ثمانية طلبة من جامعة طشقند.

عندما ذهبت إلى السفارة، إلى المستشار الثقافى "يميليانوف"، لكى أقدم تقريرى، كان استقبالى كما يلى: نظر إلى من فوق نظارته كأنما يقول: "لماذا حضرت... ألا ترى كم أنا مشغول؟... اذهب.. تريض. وتريضنا. حيث إنه لم يكن من الممكن أن نعيش فى مدينة الطلبة الجامعية لأنها كانت تغلق أبوابها مبكرا (فى الساعة ۰۰ : ۲۰)، و كان هناك تسجيل كتابى للتأخير (أما الباقى فقد كان محتملا لأننى أقمت قبل ذلك لمدة أربع سنوات بمدينة الطلبة بجامعة موسكو الحكومية)، فقد استأجرنا شقة بحى العجوزة تطل على النيل خلف السيرك ومسرح البالون مباشرة. كنا ندعو من نرغب وقتما نشاء من الكتاب والصحفيين والمؤرخين... كما أقمنا علاقات جيدة جدا مع الكثير من المصريين، وما زلت أحتفظ بصداقتى للكثير منهم حتى الآن.

رويت لستوبين الكثير من ذلك، وأضفت أننى الآن أيضا، وأنا أعمل مترجما بالفرقة الآلية الثالثة، ما زلت مستمرا فى لقاءاتى مع معارفى القدامى، حيث إنه طبقا لوصية والده ليس من الفطنة خيانة أو نسيان الأصدقاء. بالطبع لم أحكى له كل شىء. كنت فى الواقع أقوم بزيارة معارفى القدام كل أسبوع. كنت أذهب بالأوتوبيس فى مساء يوم الخميس بعد انتهاء العمل بمدينة نصر إلى الزمالك، حيث كان يقيم خبراء الطاقة العاملون بمشروع سد أسوان، وحيث توجد منضدة بلياردو رائعة، وحيث كانوا يلعبون الكرة الطائرة خلف جدار، وحيث يقيم الأطباء العسكريون بعد حضور قواتنا النظامية لكى يكونوا بالقرب من المستشفى العسكرى السوفييتى بمنشية البكرى.

فى أحد الأيام، سأل رجال مكافحة التجسس العسكرى الذين يسيرون بمعاطف متماثلة بيضاء ويتحركون فى سيارات "موسكوفيتش" متماثلة ستوبين: إلى أين يذهب مترجمكم كل خميس؟" . أجابهم بأنه يعرف إلى أين أذهب، وأننى أبلغهدائما بلقاءاتى. كنت بالفعل أبادل رئيسى المعلومات وأبلغه عن بعض الأخبار

وعما يقوله المصريون، وأيضا عما يقولونه عن المستشارين. وكان يستخدم ستوبين هذه المعلومات فى أحاديثه مع زملائه وفى تقاريره إلى رؤسائه، مبينا لهم سعة مداركه وحسن معرفته بالبلد وبالوضع.

أذكر أننى حكيت له فى يوم ما الفكاهة التى روتها لى إحدى معارفى ـ دارسة للغة الروسية من خريجى مدرسة اللغات ـ فى عام ١٩٦٧. كانت صديقتى فخورة بإلمامها باللغة والثقافة الروسية فروت لى الفكاهة، التى كان لها معنى، والتى كان يتبادلها المصريون فى ذلك الوقت عن أن "المستشارين السوفييت أصبحوا يقدمون الاستشارات لمفتى الديار المصرية". تسببت هذه الفكاهة فى ضيق لى. ويبدو أن ستوبين أيضا فهم المعنى الباطن فى هذه المزحة واستخدمها فى وسطه، "كما علموه".

ماذا كان يعنى أن تجد نفسك فى أيدٍ أمينة وطيبة، أيدى ستوبين؟. فهمت ذلك بشكل كامل عندما ذهبت معه ومع رئيس أركان حرب الفرقة العقيد نجاتى للتفتيش على لوائنا العاشر فى البحر الأحمر. توجهنا إلى هناك بسيارتنا "الجاز"(١٢) بصحبة السائق أحمد. كان الإسرائيليون قد نشطوا هناك منذ فترة حيث قاموا بتنفيذ العملية "بحث" وقاموا ببث الألغام على الطرق، وأخيرا استولوا على رادار من الكتيبة الآلية العاشرة بمنطقة جامشى. وقد أصيب فى أثناء ذلك المستشار "بانشنكو" والمترجم "إيجور كوليكوف" الذى كان فى ذلك الوقت متدربا بالمعهد العسكرى للغات الأجنبية، والذين كنت أعرفهم جيدا.

بدا لنا الطريق إلى البحر الأحمر سهلا، حيث قطعناه فى النهار. أمضينا الليل فى الغردقة بالفندق الوحيد الذى كان بها فى ذلك الوقت. كان يفصلنا عن الإسرائيليين فقط مانع مائى. وقد كانوا قد استولوا قبل ذلك على جزيرة شدوان الواقعة أمام الغردقة. وقد حكى لى ستوبين فيما بعد، أننى بمجرد رقادى فى السرير تنهدت قائلا: "آه، يا أمى!" واستغرقت فى النوم فورا.

أتذكر أن محافظ البحر الحمر فى ذلك الوقت قد استقبلنا جيدا جدا. فقد نظم لنا اللواء المتقاعد رحلة صيد فى البحر. أعطونا خيطًا يزيد سمكه على

---

(١٢) سيارة من إنتاج مصنع سيارات مدينة جوركى.

امم به سنار يزيد مقاسه على ١٠ سم. كان الطعم عبارة عن أسماك السبيط التى كانت تطلق الحبر عند صيدها. كان يتم بعد الإمساك بها تقطيعها إلى أجزاء ووضعها على السنار. وكان يتم فقط لف الخيط على إليد ورميه من على القارب بين الشعب المرجانية التى كانت تبدو جميلة جدا فى الماء الرائق. اصطدنا أسماكًا يصل وزنها إلى ١٠ كجم، وكان الخيط يحز فى أيدينا، ولكن سيطرت علينا روح المغامرة واستمرينا فى الصيد، فاصطدنا كمية كبيرة من الأسماك.

كان نادرا ما يقوم أحد بزيارة اللواء المتقاعد فى ذلك الزمن المتوتر. كانوا يخافون من الذهاب إلى البحر الأحمر حيث إن الإسرائيليين كانوا مسيطرين عليه تماما. كانت قوات الأسطول البحرى الحربى ظاهرة فى البحر الأبيض المتوسط، وكان رجالها من الضفادع البحرية يقومون بعمليات تخريب ناجحة من آن لآخر موجهة للسفن الإسرائيلية فى ميناء إيلات وبخليج العقبة.

تميز تماما طباخ الجنرال، الذى كان يأخذه معه أينما ذهب على مدى حوالى ٢٠ سنة، بإعداده لنا ستة أطباق مختلفة من الأسماك التى قمنا بصيدها. خيل لى أننى لم أتناول قط مثل هذا الطعام فى حياتى. وقد احتسينا معه البيرة المصرية الباردة "ستيللا". ولكن حتى بعد مرور عشرين سنة على ذلك، وفى مطعم فندق خمس نجوم بعاصمة البحرين "المنامة" حيث كان يوجد به كل شىء بدءا من الإستاكوزا والقواقع الحية إلى ألذ أنواع الأسماك البرية من كل المحيط الهندى، فلم أحصل على مثل هذه المتعة من فواكه البحر التى شعرت بها آنذاك عند المحافظ المضياف.

انتهينا من التفتيش على اللواء العاشر واستعدينا فى المساء للعودة. انتظرنا السيارة المصفحة التى وعدونا بها فى اللواء لكى تصاحبنا، ولكنها لم تحضر.

يظهر الطريق إلى قنا كما لو كان مكونا من ثلاثة أجزاء. الجزء الأول بجوار البحر ويمتد ٢٠ كم من الأرض المستوية، ثم يسير الطريق بين صخور صغيرة معلقة كالحة اللون ثم يخرج مرة أخرى إلى أرض مستوية حتى قنا. الجزء الأخطر من الطريق هو الجبلى. فقد وضع الإسرائيليون فى هذا المكان بالذات الألغام القفازة قبل حضورنا. كانت تنفجر وهى تقفز إلى ارتفاع بسيط لكى تصيب القوات الحية بصورة أفضل.

قبل أن نبدأ السير فى طريقنا، جاءت إلى رأس العقيد نجاتى فكرة فحص رشاش أحمد من طراز "بورسعيد" المصنوع فى مصر، وهو عبارة عن ماسورة قصيرة بها ثقوب صغيرة، حيث كان موضوعا على أرضية السيارة بالقرب من قدمى السائق. كانت الماسورة صدأة ولم تجتز التفتيش، حيث كان الرشاش غير صالح للاستخدام. استخدم ناجاتى سلطته وأعلن لأحمد أنه سيتم حبسه ١٥ يومًا. وهل كان من الممكن أن ينقذنا رشاش بورسعيد؟. أسرع إلى الأمام وأشير إلى أن أنه قد تم حبس أحمد هذه المدة بمجرد وصولنا إلى الهايكستيب. عندما بدأنا طريقنا نبس ستوبين فى أذنى بصوت خافت:" إذا حدث شىء، لا تصنع من نفسك بطلا، اسقط على الأرض، وعند الحاجة... ارفع يديك إلى أعلى".

تحركنا، وسرنا بإضاءة خافتة. كان يظهر الطريق بصعوبة، فقد كان الظلام كثيفا. وكان التوتر كبيرا. كنا ننظر إلى الطريق الذى لا ينتهى أبدا بحسرة. اجتزنا عدة عشرات من الكيلومترات ونحن فى هذه الحالة، ثم ظهر ضوء عن بعد، ودخلنا إلى نطاق قنا بعد قليل. ظهر على اليمين مطار جارى بناؤه.

تم نقل الفرقة بعد وقت قليل إلى قنا. نقل جزء منها باستخدام السكة الحديدية والجزء الآخر انتقل بوسيلته الخاصة. أرسلت إلى هناك أيضا الحافلة الزرقاء التى كانت تنقلنا من مدينة نصر إلى الهايكستب وفى الاتجاه المعاكس. بدأ الحر فى قنا. كنا نأمل فقط فى استراحة، وفى الاستحمام، وفى قليل من الراحة. لم نضطر إلى الإقامة بها بصفة مستمرة، على الرغم من أننا كنا نعمل على بعد ٥ ـ ٦ كم فقط من الفندق.

بدأت الفرقة تتعود تدريجيا على الصحراء وبدأت تسكن الخنادق فيها. كنا نجد هنا، كل يوم، ٢٠ ـ ٣٠ فردا يعانون من لدغات العقارب التى كانت تملأ المكان. فقد كانت توجد فعلا عقربة تحت كل حجر جلس عليه جندى. كنا نحتمى منها فى الخندق الذى تم حفره لنا بربط آنية بها كيروسين إلى أرجل الأسرة. وقد كان الجو خانقا داخل الملجأ (هكذا كان يسمى العرب الخندق) بحد ذاته، بالإضافة إلى وجود رائحة الكيروسين.

كان العمل كثيرًا. وكان الرفيق فيكتور مشغولا دائما كالعادة. كنا نمر يوميا على تقريبا كل مواقع تمركز الفرقة. بدأ التدريب. كان ذلك يعنى أن علينا أن

نتابع باستخدام السيارة الجاز طلقات الدبابات المهاجمة والعربات المدرعة والمشاة فى جو خانق معبأ بالأتربة البيضاء، كانت قد اكتسبت اللون الأبيض، حيث إن الأرض بالقرب من قنا مغطاة بأحجار بيضاء (زلط) كانت تنسحق تحت ثقل الدبابات والسيارات وتلون الهواء بلون أبيض. كنا نشعر دائما بحرقان فى حلوقنا بسبب الأتربة والرمال، وقد كان الحر لا يطاق، لأننا كنا على بعد ١٠٠٠ كيلومتر جنوب القاهرة. كنا دائما نريد أن نشرب، لذلك كانت الجراكن أو آنية الماء دائما معنا.

كان يقال آنذاك إننا كنا نتناول المأكولات العربية، أى أننا كنا معًا نتعذب مع المصريين. لم يكن يقدم لنا تقريبا أبدا الطبق الأول- الحساء. وكنا نأكل الطبق الثانى المكون من اللحم والبطاطس (أو الأرز) أو الحمام المحشى، حيث يوجد الكثير من الحمام فى مصر، فتوجد أبراج لتربية الحمام كجزء ملازم للمنظر العام للريف. ولكن كانت المأساة تتمثل فى أننى لم أكن أتناول الحمام، حيث لم أتعلم ذلك فى وطنى. هكذا كنت أقلب فى الأكل قليلا... وينتهى الأمر على ذلك، كما أنه لم تكن هناك شهية للأكل فى هذا الجو الحار والمترب. كما أنه لم يكن يدعو إلى تحفيز الشهية كون الجنود المصريين يجلسون فى صندوق السيارة على جبل من أرغفة خبز الذرة بأحذيتهم.

السجائر والشاى كانا ما نتناوله طوال الوقت. وهكذا مرت عدة شهور.

جاء التخلص من هذا الكابوس على هيئة صديقى الذى زاملنى فى نفس الفصل الدراسى "أيجور. ت.".

فى يوم ما أيقظنى "فيكتور جافريلوفيتش" قائلا: "اذهب، فإن هناك...فوق... ينتظرك صديق لك". صعدت على درجات الملجأ إلى أعلى، فرأيت إيجور واقفا هناك مرتديا معطفا طويلا، لسبب ما، مثل معطف دزيرجينسكى(١٤). تعانقنا. قال أيجور: "كان سيكون جيدا احتساء البيرة الآن. هيا نجلس ونتحدث. يوجد ما يمكن أن نحكيه.". ولكن لم تكن توجد بيرة فى قنا، ولكن على أية حال فقد دار الحديث.

---

(١٤) أحد زملاء لينين فى تنظيم ثورة أكتوبر.

لقد تم استدعاؤنا أنا وإيجور فقط من بين مجموعتين من المستعربين (١٨ فردا) للخدمة فى الجيش. أما الباقون، فقد أدوا الخدمة بوزارة الخارجية، أو قاموا باستكمال دراساتهم العليا، وذهب بعضهم إلى أماكن أخرى، ولكن ليس إلى الجيش. أما أنا فقد وضعت على اسمى فورا الإدارة العامة لإرسالى إلى الإدارة العاشرة من هيئة أركان الحرب، الوحدة العسكرية رقم ٤٤٧٠٨ "أ" أى للسفر للخارج، فى الحقيقة حاول موظفو الجنرال سيدوروف لمدة أربعة أيام إقناعى بالسفر إلى الجزائر. كنت قد درست فى مجموعة تدرس اللغتين العربية والفرنسية، وهنا اتضح أن كبير المستشارين العسكريين بالجزائر يرغب فى أن يكون له مترجم يجيد اللغتين العربية والفرنسية. كنت على مدى أربعة أيام رافضا السفر إلى الجزائر وأطالب بالسفر إلى مصر. أصبحوا ينظرون بارتياب إلى ذلك الشخص الذى يرفض السفر إلى الجزائر التى تقع على حوض البحر الأبيض المتوسط ويسود بها الهدوء، بينما ويصر على السفر إلى مصر، التى تنتشر بها العمليات الحربية فى كل مكان، حتى ولو كانت على شكل تراشق بالمدفعية عبر قناة السويس، ونشاط الطيران والأسطول الحربى؟ ربما يكون راغبا فى الهرب عبر القناة؟

فى ذلك الوقت، كان الهرب إلى الخارج يمثل موضة. ففى أثناء قضائنا فترة للتدريب بجامعة القاهرة بعد الفصل الدراسى الرابع هرب إلى الخارج اثنان من زملائنا فى الدراسة، أحدهم إلى باكستان والآخر إلى فرنسا (وقد أرسل الأخير إلى المرحوم مدير معهد اللغات الشرقية سان سانيتش كوفاليف خطابًا من باريس يطلب فيه إرسال شهادة تفيد بإنهائه الدراسة بالفصل الدراسى الرابع بنجاح). عندما وصلنا خبر هربهم فى القاهرة قلقنا جدا حيث اعتقدنا بأنه سوف يتم استدعاؤنا فى الحال للسفر من مصر إلى موسكو.

تمكنت أخيرا بطريقة أو بأخرى من إقناع موظفى الجنرال سيدوروف بأنه سبق أن عشت فى مصر وبأننى أعرف اللغة المصرية الدارجة، وأننى كتبت مشروع التخرج عن هذا البلد وأنه توجد لدى فى كتابة رسالة الدكتوراه عنها. طرت إلى القاهرة فى يوم ٢٦ أغسطس ١٩٦٩.

عندما حصل إيجور ت. على رتبة ملازم، تركوه يعمل مدرسا للغة العربية بمعهد اللغات الشرقية و لكن فى بداية عام ١٩٧٠ تم ضمه إلى مجموعة المشاركين فى عملية "القوقاز" و ألحقوه بمركز الاتصالات وبالمستشفى. سافر بالمركب فتعرف على ظهرها على الضباط وخبراء الاتصالات والأطباء.

حضر إلى مصر للمرة الثانية، فقد سبق له العمل هنا وهو طالب بوصفه مترجمًا عسكريًا. كان يعرف البلد جيدا، ويعرف عاصمتها بشكل أفضل. فى خلال عدة أيام بعد وصول مجموعة ضباط مركز الاتصالات وإيجور تعرفوا على معالم القاهرة، وذهبوا إلى الأهرام وإلى أماكن أخرى. بالغ الفتيان فى الترفيه عن أنفسهم فخالفوا نظام الإقامة، خاصة أنهم كانوا مرتبطين بعملية سرية. باختصار تمت إعادة رئيسهم إلى الاتحاد السوفييتى فى خلال ٢٤ ساعة، أما الضباط الآخرون فقد تم عقابهم هم أيضا، وتم إرسال إيجور ـ مرشد المجموعة، إلى قنا.

بالمناسبة، عدت مرة أخرى إلى منشية البكرى. وقد تغيرت سمة عملى بعض الشىء، فقد أصبحت الآن غالبية المحيطين بى من رجالنا، من الاتحاد السوفييتى. أقمت بمدينة نصر، كما فى السابق. كما لم تعد هناك مأكولات عربية، ولكن كان هناك مطعم للضباط يقدم فيه البورش[١٥] والخبز المصنوع من دقيق القمح والدجاج والحنطة والزبد ومشروبات... وقد لعب معى هذا الطعام مزحة شريرة، حيث إن كثرة الطعام والشراب أدت إلى تلبك أمعائى بحيث إنها انسدت تماما، فدخلت إلى المستشفى وأجريت لى جراحة. وقد أجرى العملية الجراح "باجاوتدينوف"، الذى التقيت به بعد ٢٥ عامًا عند حضوره إلى مصر فى زيارة ضمن وفد المحاربين ـ الأمميين فى عام ١٩٩٦. آنذاك قال لى، بعد العملية، إنه لو كنت بقيت فى قنا ولو لبضعة أيام أخرى، كان يمكن أن تكون العواقب غير مطمئنة أبدا. الذى حدث هو أن صديقى قد أنقذنى، قد يكون من الأسوأ، حيث إنه حضر إلى قنا وحل محلى هناك.

سارت الحياة بمنشية البكرى على منوالها. كنا نذهب أنا والفتيان من مكتب المقررين لتناول اللحم المشوى بمطعم "التافرنا" القريب من المكتب. كنا نتصل

(١٥) حساء روسى شهير يدخل فى مكوناته البنجر والكرنب مع اللحم وخضروات أخرى.

بصاحب المطعم، قبل أن نذهب إلى هناك، لنطلب منه تجهيز أول ربع كيلوجرام من اللحم المشوى لكل فرد قرب الساعة السادسة مساء (كنا نذهب فى مجموعة من ٣ إلى ٦ أفراد)، ثم بعد ذلك فى أثناء تناوله، تجهيز ٢٥٠ جرامًا أخرى. كما كنا نشترى فى طريقنا زجاجات "براندى" من الإنتاج المحلى، حيث إنه لم يكن سيئا من حيث الجودة.

كانت تظهر مشكلة للمترجم، مثلما تظهر لأى مسافر إلى الخارج، فى أوقات الفراغ من العمل. وقد كانت هذه المشكلة أكثر حدة لمن لا يعرف لغات أجنبية، حيث يكون أقل قدرة على الحركة، كما يكون غير قادر على تنظيم وقت فراغه. ولكنى لم أواجه هذه المشكلة، فكنت قد اتفقت قبل سفرى إلى الخارج مع قسم تاريخ بلاد الشرق الأدنى والأقصى بمعهد اللغات الشرقية (معهد البلدان الآسيوية والإفريقية)، الملحق بجامعة موسكو الحكومية، ومع المشرف العلمى على مشروع تخرجى "أتسامبا ف. م." على أننى سوف ألتحق بالدراسات العليا بعد الانتهاء من خدمتى بجيش الاتحاد السوفييتى، وأننى سوف أجتاز اختبارات المواد التحضيرية للحصول على درجة الدكتوراه، فى أثناء الإجازات، بقدر الإمكان. كان علىّ جمع المادة العلمية للرسالة القادمة فى مصر، وكان لدى الكثير من الاتصالات والمعارف لذلك الغرض. كنت أعرف أين أحصل على المراجع والمواد المنشورة التى أحتاجها ـ فقد كنت قد أخذت معى حوالى ٢٠ صندوق كتب بعد انتهاء فترة تدريبى بجامعة القاهرة وأنا طالب.

بالطبع كان من الصعب على تجديد كل اتصالاتى السابقة بشكل كامل فى ظل ظروف متطلبات زمن الحرب، حيث كان يمكن اعتبار ذلك مخالفة جسيمة لسرية الخدمة العسكرية والحربية. وقد ذكرونى بذلك عدة مرات فى كل من الإدارة العامة للكوادر والإدارة العاشرة بهيئة أركان الحرب. لذلك كان على العمل طبقا للوضع القائم.

كنت أرتدى الملابس العسكرية بمركز الاتصالات. وعندما كان على الخروج إلى خارج حدود المكتب كنت أستبدل ملابسى بملابس مدنية وأستقل سيارة أجرة إلى وسط المدينة، وهناك كنت أغادر السيارة، وأستقل سيارة أجرة أخرى عائدا فى الاتجاه العكسى. كنت أتجاوز المكتب وأطلب من السائق التوقف عند دار

عرض الأفلام السينمائية "روكسى" أو عند المبنى الثالث خلفها ـ عند مبنى "معهد الدراسات الاشتراكية" التابع للاتحاد الاشتراكى العربى، حيث كانت توجد مكتبة غنية بالمراجع، كنت أعمل بها لبعض الوقت بصالة الاطلاع الباردة، كما كنت أستعير منها بعض الكتب وأقوم بردها بعد أسبوع أو أسبوعين. وكنت أعود، هذه المرة، سيرا على الأقدام إلى المكتب الذى كان يقع على بعد حوالى ١٠ دقائق من معهد الدراسات الاشتراكية، مارا بالمنزل الذى كان يقطنه الرئيس جمال عبدالناصر بمدافعه التركية الصغيرة وحراسه ذوى الوسامة المرتدين معاطف خضراء ـ صفراء اللون وأردية رأس حمراء اللون، وكانوا عادة من النوبيين ذوى الأسنان الناصعة البياض.

كنت أعرف بعض العاملين بمعهد الدراسات الاشتراكية من أيام التدريب فى أثناء الدراسة، ومنهم على سبيل المثال مدير المعهد "عبد الحميد إسماعيل". أذكر أنه قد سألنى عند أول لقاء معه فى عام ١٩٦٧ أو ١٩٦٨، و قد كان ماركسيًا ـ لينينيًا صارمًا (كان بالفعل عضوا بالحزب الشيوعى المصرى) عن تقييمى لأحداث ٢٣ يوليه من عام ١٩٥٢ ـ هل هى انقلاب عسكرى أم ثورة؟. أجبته، كما علمونا، من حيث الشكل هى انقلاب عسكرى، أما من حيث المضمون والقوى الدافعة والوضع السابق الداعى للثورة، فهى بالطبع ثورة.

عادة كنت أهتم بالإحصائيات وبمذكرات المعهد القومى للتخطيط والتى كان وجهنى إلينا الأستاذ "ل. أ. فريدمان" بمعهد بلدان آسيا وإفريقيا الملحق بجامعة موسكو الحكومية. كانت هذه المذكرات تتضمن دراسات قيمة للغاية متضمنة إحصائيات عن البنية السكانية والاجتماعية للشعب مصر، وعن وضعها الاقتصادى، بل أيضا دراسات ميدانية. كنت أحصل على هذه المواد منذ أن كنت طالبا متدربا فى مصر من المعهد القومى للتخطيط بالقاهرة، حيث تعرفت لأول مرة على مديره "إسماعيل صبرى عبدالله".

كان إسماعيل صبرى عبدالله سكرتيرا للحزب الشيوعى المصرى، ومثله مثل كل الشيوعيين واليساريين المصريين قضى فترة من حياته فى السجون الناصرية فى نهاية الخمسينيات وبداية السبعينيات من القرن الماضى. وقد تم إطلاق سراحه مع آخرين فى منتصف الستينيات عندما تم إعلان "الحل الذاتى" للحزب

الشيوعى. أصبح النظام القائم يعمل على جذب الشيوعيين، لكونهم الجزء الأكثر تنظيما بين المثقفين، للعمل الحكومى. من المنطقى أنه تم إلحاقهم باعتبارهم مسئولين عن تلك الأجهزة المرتبطة بالتخطيط. وكانت بذلك العلاقة مباشرة: الاتحاد السوفييتى ـ الشيوعيون ـ الخطط الخمسية. فإذا انهارت الخطط الخمسية، يكون الذنب من مسئولية الشيوعيين. وبالمناسبة فإن حكام كل من سوريا، السودان، وغيرها من الدول ساروا على نفس الطريق فى الستينيات والسبعينيات.

وقد شارك اليساريون فى مصر فى وضع "ميثاق العمل الوطنى"، وهو يمثل الوثيقة الأساسية لبرنامج السياسة الناصرية ذات التوجه الاشتراكى. وقد رأس سكرتير آخر للحزب الشيوعى ـ "فؤاد مرسى" ـ وزارة الاقتصاد. وقد التقيت به.

كان إسماعيل صبرى عبدالله يرأس وزارة التخطيط فى بداية السبعينيات. كنت أذهب إليه من منشية البكرى إلى مدينة نصر حيث كانت توجد الوزارة. وقد كانت قريبة نسبيا. كان الوزير يعرفنى، وكنت أحاول ألا أستغل علاقته الطيبة بى، فكنت أغادر بعد عشر دقائق حاملا معى إصدارات الوزارة التى كان يحضرها لى سكرتير الوزير إلى مكتبه. وعندما كان يتم سؤالى عن المكان الذى كنت فيه، فى أثناء مثل هذه الزيارات، كنت أقول عادة أننى كنت أعمل فى السفارة.

كنت أيضا أذهب إلى السفارة. وكنت لم أعد أخفى هناك أننى أعمل مترجما حربيا. كنت أذهب هناك إلى السكرتير الثانى للسفارة وإلى مترجم السفير "فاليرى ياكوفليفيتش سوخين"- خريج معهدنا، وكنت قد تعرفت عليه عن قرب عندما عمل "بمنظمة تضامن الشعوب الآسيوية والإفريقية" بموسكو بشارع "كروبوتينسكايا".

كنت كثيرا ما أتقابل مع سوخين وزوجته تاتيانا بالفيلا السوفييتية بشارع "ويلكوكس" بالزمالك. كنا نذهب إليها من مدينة نصر لشرب "الستيلا" وتناول اللحم المشوى وللتسامر مع بلدياتنا فى جو هادئ. كان يبدو لنا غريبا فى ذلك الوقت أنه يمكن العيش بهذا الهدوء والسلام فى الزمالك ولعب الكرة الطائرة (كانت ساحة الرياضة السوفييتية أمام الفيلا). نعم يكون القدر غريبا أحيانا. فقد تكونا قد درستما فى معهد واحد للغات الشرقية، وفى فصل دراسى واحد،

وفى مجموعة واحدة... أنت تحارب، وتتعرض للخطر، بينما زميل تختتك يستمتع بهدوء بالحياة المدنية الهادئة على بعد عدة كيلومترات فقط منك. وهو يعرف عن الأحداث الحربية فقط مما يقرأه فى الصحف، أو يستمع إليه من الإذاعة، أو يشاهد فى التليفزيون... وأيضا من حكاياتك.

كما أشرت من قبل، كان جمع المواد اللازمة لرسالة الدكتوراة فى المستقبل يمثل تنويعا كبيرا لحياتى فى مصر. كان العرب يساعدوننى بنفس طيبة على ذلك، فقد كانت علاقتهم بالمستعربين أكثر من دافئة. وقد يكون من بينهم بصفة خاصة حرس المقدم "إدريس". لقد ساعدنى أيضا فتيان هذا الحرس. أتذكر رقيبًا أحمر الشعر كان يعيش فى الجزء الجنوبى من القاهرة، وبالمناسبة كان راويا مميزا للفكاهات، كان أ. ن. كوسيجين قد حضر جنازة ناصر. وما كاد أن غادر كوسيجين القاهرة، إلا وكان هذا الرقيب يحكى لى الفكاهة التالية:"حضر كوسيجين إلى القاهرة لحضور جنازة ناصر. سأل أنور السادات: هل قال لك ناصر شيئا قبل موته؟... أجاب السادات: لا... توجه كوسيجين إلى إحدى الشخصيات السياسية الأخرى من أهل القمة المصرية، ثم إلى ثالث بنفس السؤال، فتلقى منهم نفس الإجابة بأن ناصر لم يقل شيئًا قبل موته. وهنا صرخ كوسيجين من قلبه قائلا: إذا من هو الذى سوف يعيد لى نقودى؟". هذه الفكاهة تحمل معنى فعلى من الحياة، حيث إن الاتحاد السوفييتى قد أعطى الكثير لمصر كقروض. وأعتقد أنه لم يسترد الكثير منها ثانية، فقد تنازل عن جزء كبير منها.

كان يكتب لى رجب، هكذا كان اسم هذا الرقيب ذى الشعر الأحمر، أسعار السلع الأساسية، بما فيها المواد الغذائية، فى اليوم الأول من كل شهر على مدى عام ١٩٧٠ كله. قام بذلك أيضا عربيان آخران - بائع وشخص كان يقوم بتنظيف الغرف بفندقنا وكان يعيش فى حى آخر بالقاهرة. كنت أسجل أيضا بنفسى الأسعار فى مدينة نصر. كانت القائمة تشمل حوالى ٥٠ نوعًا من السلع. كنت أحتاج هذه الأسعار التى كان يشترى بها السكان لنفسهم كل احتياجاتهم لعقد مقارنة بينها وبين الأسعار الرسمية للسلع. كانت البيانات الرسمية تنشر بمعرفة الاتحاد الاشتراكى العربى. كان يتم نشرها فى الجرائد الرسمية وفى مطبوعات منظمة العمل الدولية بجنيف. وكان يستخدم الباحثون تلك البيانات بالذات فى

دراساتهم. وقد كانت الفروق بين الأسعار التى بالأسواق القاهرية وبيانات منظمة العمل الدولية كبيرة للغاية ـ حوالى ١٥ ـ ٢٠٪. و هذا يعنى أن سكان القاهرة كانوا يدفعون زيادة تصل إلى ١/٥ ثمنها الأصلى. وقد استخدمت بعد ذلك نتائج هذه الدراسة الميدانية برسالة الدكتوراه لحساب الرواتب الفعلية والحد الأدنى الذى يكفل معيشة المصريين.

كنت أستعد فى وقت الفراغ للاختبارات التحضيرية للحصول على درجة الدكتوراه، مباشرة فى موقع مركز الاتصالات. وفى إحدى المرات، وبينما كنت جالسا فى إحدى حجراته، أقوم بتلخيص كتاب لينين "الدولة والثورة"، وكنت مستغرقا فى قراءة الكتاب فلم ألاحظ اقتراب كهل متواضع منى، تبين فيما بعد أنه رئيس أركان الحرب الجنرال "بتروف" الذى حل محل "م. أ. جارييف". بالطبع وقفت، ولكنى لم أقدم له التحية العسكرية. شرحت له أننى أستعد لدروس التأهيل السياسى التى كانت تقام عند ستوبين بصفة منتظمة، وليس بمركز الاتصالات. وبختنى الرئاسة بشدة، كما يجب، لعدم تقديمى الاحترام اللازم للرتبة، وذلك من ناحية. ولكن من ناحية أخرى، مدحتنى لاهتمامى، ولتأهيل نفسى ذاتيا، بدون أن تفهم، بالمناسبة، ما العلاقة بين "الدولة والثورة" والتأهيل السياسى.

على أية حال، فقد اجتزت الاختبارات التحضيرية للحصول على درجة الدكتوراه بنجاح، فى أثناء قيامى بإجازتى صيف عام ١٩٧٠. وهكذا مضت سنتان.

لقد نجح من حالفه الحظ من المترجمين فى أداء الواجبات التى كلفه بها القادة العسكريون، وقام باستخدام سلاحه الخاص ـ الترجمة ـ بتقديم المساعدة إلى الشعب المصرى فى أوقات كانت صعبة جدا عليه. وقد تم تقليدى النيشان المصرى "الواجب العسكرى" من الدرجة الأولى تقديرا لمشاركتى بعملية "القوقاز".

"صدر له أمر... إلى مصر!"

(ف. ب. يلتشانينوف)

انتهت حرب إسرائيل الصاعقة مع سوريا وجمهورية مصر العربية فى عام ١٩٦٧ بانتصار عدو الأخيرتين... ولكن بفضل المساندة التى قدمها الاتحاد السوفييتى والدول الأخرى إلى الدول العربية، فإن الجيش الإسرائيلى لم يتمكن من الوصول إلى تحقيق أهدافه المحددة إلى النهاية، كما لم تنهار قدرة العرب العسكرية. وعلى الرغم من عقد اتفاقية هدنة، فقد كانت تتزايد المعارك فى سماء سوريا، وبصفة خاصة فى سماء مصر. أصبحت الحرب الجوية تمثل حقيقة فى عامى ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩. فقد كان الطيران الإسرائيلى يقوم بانتظام بتوجيه ضربات لوسائل الدفاع الجوى وللأهداف الأخرى بجمهورية مصر العربية. حصلت قوات الطيران الإسرائيلية على تسليح حديث من مقاتلات تكتيكية طراز "ميراج" و"فانتوم" وطائرات الهجوم "سكاى هوك" فتمكنت من الإغارة، فعليا، على أية نقطة على أرض الدولة المجاورة وأن تصل حتى سد أسوان، وقصفها بالقنابل. وقد تعرضت بصفة خاصة للضربات الجوية مدينتا بورسعيد والسويس والمصانع والجيوش. وتكبدت كتائب الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات، التى كانت تحمى أكثر الأهداف إغراء للعدو، خسائر جسيمة. كانت تندلع معارك شرسة فى الجو. وقد فقدت قوات طيران جمهورية مصر العربية فى عام ١٩٦٩ فى الجو أكثر من ٦٨ طائرة، بينما خسرت قوات الطيران الإسرائيلى ٣٤ طائرة. وإذا كانت المعارك الجوية للطائرات الوحيدة أو للمجموعات الصغيرة من الطائرات تنتهى بنتائج متساوية تقريبا، فإن المعارك الجوية للمجموعات الكبيرة من الطائرات كانت تتسم بتفوق واضح للطيران الإسرائيلى بسبب التفوق فى التنظيم والقيادة، وهو ما أدى إلى سيادته فى الجو.

فى ظل الوضع القائم، قام الرئيس جمال عبد الناصر بزيارة سرية إلى الاتحاد السوفييتى، وأقنع القادة السوفييت بضرورة حماية الأهداف بجمهورية مصر العربية بواسطة القوات السوفييتية. وعلى الرغم من أنه يمكن أن تؤدى هذه الأعمال إلى زيادة التوتر فى العلاقات السوفييتية ـ الأمريكية، فإن الحكومة السوفييتية قد قررت تنفيذ عملية "القوقاز"، التى تم خلالها، منذ ٣٠ عاماً، تكوين كتيبة الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات ذات المهام الخاصة، وكذلك تم تشكيل كل من آلاى الطائرات المقاتلة رقم ١٣٥ و سرب الطيران المقاتل المنفرد رقم، ٣٥ سرا.

أرسلت هذه القوات إلى مصر فى خلال شهر فبراير وبداية شهر مارس عام ١٩٧٠. و بدءا من أول أبريل انخرطت وحدات الطيران فى القيام بورديات الحراسة والعمليات القتالية لحماية مختلف الأهداف على أرض جمهورية مصر العربية من ضربات طيران العدو.، وقامت بتنفيذ مهامها حتى يونيه عام ١٩٧٢، عندما عادت إلى الاتحاد السوفييتى بناء على قرار سوفييتى ـ مصرى مشترك.

وقد بينت الحرب الجديدة التى اندلعت فى عام ١٩٧٣ بالشرق الأوسط القدرة العسكرية المتنامية للدول العربية، والتى تمثل فيها فضل واضح للاتحاد السوفييتى وخبرائه العسكريين، الذين كدحوا بلا تعب.

تم تنفيذ برامج تدريبية عسكرية ديناميكية بقواعد الطيران فى الأشهر الأخيرة من عام ١٩٦٩ .كان يوجد عند أفراد آلاى الطائرات المقاتلة ما يفخرون به، فقد حقق الطيارون وضباط قيادة العمليات الحربية والمهندسون والعمال نتائج ممتازة بمواقع التدريب. فعلى سبيل المثال تم فى خلال يوم واحد إطلاق ٥ طائرات موجهة بالأسلكى كأهداف وكذلك ٨ صواريخ مجنحة (بدون ذخيرة، للأمان).

تمكن الطيارون من تدمير كل الأهداف باستخدام الحد الأدنى من الصواريخ. فتم تدمير الأهداف المرتفعة باستخدام ستة صواريخ فقط، أما الأهداف الأكثر تعقيدا فتمثلت فى تدمير الصواريخ المجنحة التى تطير على ارتفاعات منخفضة بسرعة ٩٠٠ ـ ١٠٠٠كم/ ساعة. كانت الشمس تسطع بشدة فى الصحراء، فأصبح من الصعب إعطاء إشارة لرءوس الصواريخ ذات التوجيه الحرارى،

وأصبحت تجمعات السحب التى تعكس أسطحها الأشعة بشكل كبير تمثل مصائد حرارية حقيقية. وعلى الرغم من هذه الأوضاع فلم يتمكن أى من الأهداف الثمانية من الطيران والوصول إلى الهدف، فقد تم تدميرها بواسطة ٢٠ صاروخًا.

ولكن، ما الذى أدى إلى هذا النجاح؟ بلا شك كانت الاحترافية العالية هى الأساس فى ذلك. ولكن كانت ستذهب كل جهود الطيارين هدرا بدون تجهيز جيد لمعدات الطيران وللتسليح، فقد قام المهندسون والفنيون وميكانيكيو الطائرات بفحص الطائرات والمعدات على مدى عدة أسابيع، بدون النظر لأمورهم الشخصية. وقد عمل ضباط ورقباء وجنود موقع التجهيز التحضيرى للصواريخ برئاسة النقيب "كوزمين" بشكل متميز خاص. وقد تم ضبط خصائص التوجيه الذاتى لرءوس الصواريخ P - 3c على أحسن وضع. وقد تحقق النجاح فى الحرب فقط بفضل الالتزام الكامل بالمسئولية من جانب كل فرد تجاه التكليفات التى من واجبه.

قبل يوم رأس السنة، بدأ فى مطارى "مارى" و"وازيانى" العمل على تجهيز رجال الطيران لتنفيذ المهمات المتعلقة بمساعدة مصر على صد الغارات الإسرائيلية. لقد شاركت فى تدريب الطيارين أفضل قوى تدريب إدارة العمليات الحربية لسلاح الطيران والمعاهد البحثية العلمية، وكذلك أفضل طيارى الاختبار. كان الضباط والرقباء والجنود الذين تطوعوا بإرادتهم من أجل تنفيذ واجبهم الأممى يتعاملون مع المهمات التى كلفوا بها بإحساس كبير بالمسئولية.

بذلك كان من الواضح على الوجوه أنه يوجد أساس لاستقبال عام ١٩٧٠ بمرح. عمل كل من مجموعة الضباط ومجالس الزوجات ودور الضباط بدون كلل للإعداد لحفل رأس السنة. كان الجميع ينتظرون من العام الجديد أمورًا مفرحة جديدة وسعادة ونجاحًا، ولكن لم يكن أحد منا مدركا تماما لما أعده لنا العام الذى على الأبواب. فقد كان قد أعد للبعض منا اختبارات صعبة وقاسية.

فجأة، وبلا سابق إنذار، هبطت عدة طائرات نقل حربية فى الأيام الأولى من شهر فبراير بمطارنا بالمجر، وتبين أنه يوجد على متنها وجوه مألوفة لنا، من الزملاء المحاربين الذين سبق أن خدمت معهم. علمنا منهم أن الحكومة

السوفييتية اتخذت قرارا بإرسال قوات عسكرية سوفييتية لتقديم المساعدة للشعب المصرى. كانت الزيارة قصيرة، أمضوا الليل، زودوا الطائرات بالوقود، وتوجهوا إلى الهدف المحدد. وقد بدا كأن لا شيء تغير، وبقى كما كان من قبل.

ولكن طالتنا العملية "قوقاز" نحن أيضا بسرعة، فقد تم جمع عدد من الضباط على عجل وإرسالهم للاستعداد للخدمة بمصر، وكنت أنا، مؤلف هذه السطور، من بينهم.

رأس الفريق طيار "دولنيكوف جريجورى أوستينوفيتش" مجموعة الطيران السوفييتية فى جمهورية مصر العربية والمكونة من الآلاى ١٣٥ للطائرات المقاتلة والسرب ٣٥، و قد كان بطلا للاتحاد السوفييتى: إن لهذا الرجل قدرًا أسطوريًا، فقد قاتل هذا الطيار البالغ من العمر ١٩ سنة، فى ذلك الوقت، ببسالة فى "كوبان"[١٦]، وقد كان ضمن فرقة "أ. أ. بوكريشكين"[١٧]. وقد أسقطت طائرته فى إحدى المعارك الجوية، ولكن تمكن دولنيكوف من القفز بالمظلة من الآلة المحترقة. وقد فقد جريجورى الوعى بسبب الإصابات والحروق التى لحقت به. تم أسره وهو فاقد للوعى. مر على كل دوائر جهنم فى معسكر الأسر الألمانى. وقد كتب "م.شولوخوف" عن هذه المرحلة من حياته فى رواية "مصير إنسان" وصوره فى شخصية سوكولوف. ولكن لم يتمكن العدو من كسر إرادة هذا الوطنى، فهرب من الأسر. وخبأه بعض السوفييت وأوصلوه إلى فدائيى المقاومة الشعبية. عاد دولنيكوف إلى حالته الطبيعية عبر طريق صعب، واستمر فى النضال ضمن فرقة حراسته. لقد قام شخصيا بإسقاط عدد كبير من طائرات الفاشيست. كان يمكن أن يمنح من زمن بعيد أى طيار آخر لقب "بطل الاتحاد السوفييتى" نتيجة لهذه الإنجازات، ولكن كان يثقل موضوع الأسر على كتفيه. لهذا السبب كان مصيره صعبا، حتى بعد الحرب. ولكنه تغلب على كل الصعاب وأصبح قائدا طيارا كبيرا. على أية حال لقد تم منحه لقب بطل الاتحاد السوفييتى بعد عدة سنوات من النصر، عن أعماله فى الحرب وشجاعته التى أظهرها خلال سنوات الحرب

(١٦) منطقة بشمال القوقاز بالاتحاد السوفييتى.

(١٧) أشهر الطيارين الروس، وقد شارك بالحرب الوطنية العظمى، وحصل على لقب بطل الاتحاد السوفييتى ثلاث مرات.

الوطنية العظمى. وقد تم استبداله فى مصر فى أبريل عام ١٩٧١ بالفريق أول طيار "خارلاموف س. أ." وباللواء طيار "روماننكو أ. أ." وكلاهما يحمل لقب بطل الاتحاد السوفييتى.

تمركز سربان من الآلاى ١٢٥ طائرات مقاتلة (تحت قيادة العقيد "كوروتكوف كونستانتين أندرييفيتش" حتى يوم ٢٠/١٢/ ١٩٧٠، و العقيد "ناستنكو يورى فاسيليفيتش" اعتبارا من يوم ٢٠/ ١٢/ ١٩٧٠، و العقيد "ميروشنيتشنكو أناتولى إيفانوفيتش فى الفترة من ٤/ ١٩٧١ إلى ٢/ ١٩٧٢، والعقيد "كورنييف ف. من ٢/ ٧٢ إلى ٦/ ٧٢ (بالقاعدة الجوية "بنى سويف" وسرب بمطار "كوم أوشيم" حيث كانت مهمتهم هى حماية سماء القاهرة ـ عاصمة جمهورية مصر العربية من الاتجاه الجنوب ـ شرقى إلى الشريط الذى بين وديانى العين السخنة والزعفرانة. كان خليج السويس بالبحر الأحمر يمثل حد العمليات الحربية. وهذه المنطقة عبارة عن هضبة تقطعها تصدعات عميقة تمتد من الشمال إلى الجنوب، كما أن الضفة الغربية للخليج ترتفع ١٠٠٠ متر عن سطح البحر. كان العدو يقوم بعمليات الاستكشاف فى هذا الاتجاه ويوجه الضربات لأهداف مؤخرة الجيش وإلى مدينة السويس وإلى القوات القريبة من شريط المقدمة، حيث كان ينطلق إلى الهدف على ارتفاع أقل من ٥٠ مترًا بمحاذاة وادىي السخنة والزعفرانة. كانت طائرات الاستكشاف "الفانتوم" تطلع فى أزواج أو فرديا، كما أنه كان يتم توجيه الضربات للأهداف بمجموعات كبيرة من طائرات "سكاى هوك" التى كانت تؤدى عملها كسيل من أزواج من الطائرات القاذفة على مراحل بحيث توفر أداء مستمرًا موجهًا للهدف، يكون عادة بقذف القنابل عليه. كما كانت توجد مجموعات من الطائرات تعمل على جذب الانتباه بعيدا عن المجموعات الأخرى، التى توجه الضربات، وتقوم بالتشويش على أجهزة الاتصال الإلكترونية اللاسلكية لوحدات الدفاع الجوى وشبكات توجيه الطائرات المقاتلة.

كانت المقاتلات الإسرائيلية تعمل عادة كمجموعات كبيرة لكى تتمكن من السيادة فى الجو. كما كانت إسرائيل تقوم بالإعداد للقتال بأن تستخدم بتوسع مجموعات استعراضية لكى تجذب المقاتلات المصرية الجاهزة إلى الصعود إلى الجو قبل ١٥ ـ ٢٠ من اقتراب المجموعة الضاربة، حتى يدخل الطيارون المصريون

المعركة بقدر محدود من الوقود. كما كانت أيضا تخصص قوى ووسائل لعمل تشوش على أجهزة محطات الرادار وعلى شبكات توجيه الطائرات المقاتلة.

أدت الأهداف التى تم وضعها وكذلك وفرة القوى وتضاريس المنطقة إلى تحديد تكتيك العمليات الحربية للآلاى. كنا مضطرين للقيام بعمليات سلبية، أى فقط بصد غارات العدو، على الرغم من أن تاريخ الحروب يؤكد أن أخذ مبادرة السيادة فى الجو هو ما يمثل الواجب الأساسى للطائرات المقاتلة، وهو يتحقق فقط بالقيام بالعمليات النشطة. لذلك يكون المطلوب هو البحث عن العدو وتدميره، ليس فقط عندما ينوى توجيه ضربة، ولكن بإجباره على الدخول فى معركة فى ظروف غير مناسبة له.

لم نتمكن من القيام بمثل هذه العمليات، فأولا كنا موجودين فى وضع نصف قانونى، حيث إن الحكومة السوفييتية كانت تخفى عن المجتمع العالمى، فى أعوام ١٩٧٠ ـ ١٩٧٢ حقيقة مشاركتنا فى العمليات الحربية بجانب جمهورية مصر العربية. لم نكن نرتدى ملابس عسكرية، كما لم تكن بحوزتنا أوراق تحقيق شخصية، ولم يكن من حقنا عبور خط الجبهة. كانت طائراتنا من طراز "ميج" مملوكة لجمهورية مصر العربية، كما كانت الطائرات تحمل العلامات المصرية المميزة، كما أن طلبات قطع الغيار والمواد المستهلكة تقدم باسم ألوية طائرات المقاتلات رقمى ١٠٦ و ١٠٨ التابعة لسلاح الطيران الحربى لجمهورية مصر العربية، والتى كانت تقوم أجهزتها الفنية والهندسية المصرية بخدمة طائراتنا مع الخبراء السوفييت. وثانيا، كانت لا تكفى أبدا قوتنا للقيام بعمليات حربية نشطة. كان الآلاى الواحد الذى يتكون من ٥٠ طيارًا، حتى ولو كانوا على أعلى درجة من الكفاءة، لقيادة ٣٠ طائرة ميج، لا يستطيع الدخول فى معارك نشطة مع سلاح الطيران الإسرائيلى الذى كان يضم حوالى ٤٠٠ طائرة مقاتلة. لذلك لم يكن فى قدرتنا إلا القيام فقط بعمليات دفاعية.

لم نكن نستطيع الاعتماد على زيادة قوتنا على حساب السرب المنفصل لأنه كانت تفصل بيننا مسافة كبيرة. وبالإضافة إلى ذلك، فلم يكن يمكن للسرب، وهو ينفذ مهمته الحربية، أن يزود إمكانياتنا إلا بجناح واحد فقط، وهذا لا يمثل إلا قطرة ماء فى البحر.

كان السرب المنفصل رقم ٣٥ (تحت قيادة العقيد "ناستينكو يورى فاسيليفيتش" حتى شهر ديسمبر من عام ١٩٧٠، ثم "ميروشنيتشنكو أناتولى ايفانوفيتش" حتى شهر مايو ١٩٧١، وبعد ذلك المقدم "لاسكيرجيفسكى أ.ف." حتى شهر يونيه ١٩٧٢) متمركزا فى جانكليس بالقرب من الإسكندرية، وكان مكلفا بحماية المدينة والميناء والقاعدة الحربية البحرية من ضربات العدو الجوية. كان الوضع أكثر هدوئا فى هذا القطاع لأنه كان بعيدا عن خط الجبهة، وكانت لا تستطيع إلا طائرات الفانتوم وحدها الوصول إلى هذه الأهداف. وعلى الرغم من ذلك، فإن الطيارين لم يكتفوا بالاسترخاء فى مزارع اليوسفى التى كان يقع بها فندق الطيارين. كان عددهم عشرين مقاتلاً جويًا فقط، فقد نفذوا بشرف المهام الحربية التى تم تكليفهم بها، بما فيها حماية السفن السوفييتية والمصرية عند خروجها إلى البحر.

كانت حياتنا فى تلك الفترة زاخرة بمواقف فكاهية. ففى البداية، عندما طلب الجانب المصرى المساعدة العسكرية، قام بوضع شروطها. كان أحد هذه الشروط هو ألا يكون من بين تشكيل الوحدات السوفييتية أية هيئات حزبية أو من الشبيبة السوفييتية اللينينية الشيوعية. كان ذلك يمثل تناقضًا واضحًا للحقبة السوفييتية! ولكن لا يوجد شيء مستحيل، فقد كان التمويه بظهور هيئات نقابية ورياضة بدنية لدينا. لم نكن نقوم بالإعلان عن رجالنا الذين يعملون بالسياسة. كان الرجال العاملون بالسياسة هم أنفسهم طيارين. فقد كان رئيس القسم السياسى ونواب رؤساء الأسراب للشئون السياسية ضمن المحاربين، وكانوا يتمتعون بكفاءة عالية فى الطيران. وكانوا على درجة عالية من التدريب للقتال.

كنت أنا نفسى، فى ذلك الوقت رئيسا للمكتب السياسى، أطير مثل باقى نواب قائد الآلاى بصفتى مدربا، فى الصباح وفى المساء، وكنت أشارك فى التناوب على رئاسة أفراد مركز القيادة، كما كنت أقود عمليات الطيران ضمن الآلاى. وكذلك كنت أقوم بالنوبات العسكرية مع االسرب المتقدم الذى كان يجب أن يكون أول من يصد غارات طيران العدو. كان ذلك يمثل تمويها كاملا، وكأننى أحد نواب قائد الآلاى. ولكن على الرغم من ذلك، فقد استنتجت بنفسى بأن المسئولين عن القاعدة الجوية المصرية كانوا خبراء تماما، فقد كانت نادرا ما تقام

حفلات استقبال رسمية بالقاعدة الجوية، وكان يدعى اليها المسئولون من آلاينا، ولكن لم تكن تتم دعوتى اليها. لست غاضبا من ذلك، فأنا لا أحب هذه الرسميات، خاصة مع أجانب، وكذلك فى الشرق.

كان يوجد بمطاراتنا كل ما نحتاجه للحياة وللاستعداد للمعارك. كان يقيم الطيارون والمهندسون والفنيون فى فنادق مريحة، بينما كان يسكن الرقباء والجنود فى ثكنات. ونظرا للوضع العسكرى فقد قمنا بتوزيع الطيارين على كل الفنادق الموجودة لتجنب أية خسائر ثقيلة فى حالة توجيه طائرات العدو لضربات إلى المطار. كان قد تم تنظيم تغذية كل درجات الأفراد بمستوى جيد.

كانت الروح المعنوية لكل محاربينا عالية. لم تحدث أية جرائم فى وحداتنا، كما أن مخالفات الانضباط العسكرى كانت نادرة. وقد شغلت معركة الحفاظ على نمط الحياة بدون تناول المشروبات الكحولية اهتمامنا بشكل خاص. كان يمكن أن تؤدى أخطار الحرب والحياة بعيدا عن الأسرة مع توفر الإمكانيات المادية إلى انتشار السكْر. وكان ذلك يمثل العدو الذى كان يمكنه تقويض الفريق العسكرى وقيادته إلى الهزيمة فى المعارك والى هلاك العسكريين. ولذلك فقد جرت محاربة السكر، ولكن لم يتم فرض "القانون الجاف"[١٨]. لم يكن يتم بيع المشروبات الكحولية بالقواعد الجوية، ولكن كان يوجد استثناء للبيرة. وقد كان يتم دوريا تفتيش السيارات الحاملة للعسكريين القادمة إلى القاعدة بحثا عما يمكن أن تكون بها من كميات كبيرة من المشروبات الكحولية. وقد حدث فى عام ١٩٧١ أنه تم إجبار أحد الأفراد، ممن كان معهم مشروبات كحولية، على أن يسكب الكمية الزائدة على الأرض بنفسه.

لم ننجح بشكل كامل فى منع بعض العسكريين من تناول المشروبات الكحولية بإفراط. كنا نقوم بالتوجيه، بالدعوة إلى تحكيم الضمير، وبتوقيع العقاب. ولكننا اضطررنا إلى إنهاء مهمات بضعة أفراد، لا يزيد عددهم على سبعة، وإرسالهم إلى الوطن. وللأسف الشديد كان من بينهم ضابط برتبة كبيرة وأحد الطيارين.

---

(١٨) حظر تناول المشروبات الكحولية.

كان قد سبق أن خدم هذا الطيار فى "مارى"[١٩] وقد تم منعه من الطيران بسبب السكر. وقد عمل لعدة سنوات كرئيس نوبة بممر الهبوط والطيران. أقلع عن الشرب. استعاد الثقة به، وأعيد إلى الطيران، بل أنه تم إلحاقه بالآلاى رقم ١٣٥ للطائرات المقاتلة. ولكنه لم يتحمل الوضع فى الحرب وعاد مرة أخرى إلى السكر. ولم تساعد الإجراءات التى اتخذت. كان الرائد "ج" ضابطا كفئا، وكان من ضباط الشئون السياسية، ولكنه كان هو أيضا ضعيفا أمام المشروبات الكحولية. حاولنا تحميله بأعمال أكثر، وكان تحت ملاحظتى على الدوام، ولكن لم يساعد أى شىء. وقد اضطررنا إلى التخلص من هؤلاء.

كانت أكثر المواضيع حساسية على مدى العشرين سنة الأخيرة فى سلاح الطيران بكل من الاتحاد السوفييتى وروسيا الاتحادية هى: أولا، العلاقة المتبادلة فى المجموعات العسكرية بين الجنود والرقباء من مختلف سنوات دعوتهم إلى الخدمة. ثانيا، السماح للجندى بسلاحه الخاص، فقد كان بعض زملاء السلاح أخطر على العسكريين من العدو نفسه. ولحسن الحظ، لم نواجه مثل هذه المشاكل بمصر على الإطلاق. كان الضباط والجنود يحملون سلاحهم طوال اليوم. فقد كان الضباط يحملون مسدسات فى جرابها فى أثناء النهار، أما فى المساء فقد كانت تحت وسائدهم. أما الجنود، فكانوا يحملون بنادق قصيرة من طراز "س.ك.س" طوال الوقت، فى أثناء النهار، أما فى المساء فكانت ترص على شكل هرم مفتوح وتتم حراستها. ولم يحدث أن قام أى فرد بإطلاق النيران، أو أن تم الإمساك بأية رهائن، أو أن تم فقد أى سلاح أو أية ذخيرة، كما لم يتم بيعها.

بدأ الاستعداد للعمليات الحربية منذ اليوم الأول لوصول رجال طيراننا إلى مصر. كانت كل مطاراتنا جيدة التجهيز، فكانت تقف الطائرات فى مخابئ واسعة مبنية من الخراسانة المسلحة قادرة حتى على تحمل القنابل التى تسقط عليها مباشرة، فقد كان يبلغ سمك الخرسانة المصبوبة على شكل قطعة واحدة على مسافة "١" متر، كما كان سمك المتاريس الرملية مناسبا.

---

(١٩) مدينة سوفييتية بجنوب آسيا الوسطى، حيث كان يتدرب بها الضباط الأجانب من دول آسيا وإفريقيا.

كان يوجد فى مطار "بنى سويف" ممران لهبوط الطائرات يصل طولهما إلى أكثر من ٢٠٠ متر، وكانا مرتبين لكى يكونا معا زاوية ٤٥° على مستويات مختلفة (كان الفرق يصل إلى ٢٠م)، وهو ما كان يسمح بالطيران والهبوط على كل منهما فى وقت واحد. كان يوجد طريق تدحرج منفصل يصل من كل مخبأ إلى الممر. وكان يمكن للسرب أن يطير إلى الجو فى خلال ٣ دقائق بعد إصدار الأمر له "إلى الجو". وكانت طرق السير بكل المطارات صالحة للانطلاق.

ظهرت سمات جديدة للإعداد النفسى لرجال الطيران فى ظل ظروف القتال، وبصفة خاصة لكل من الطيارين وضباط قيادة المعارك، وكانت مرتبطة بالأخطار الحربية.

بالطبع، كان للإعداد النفسى والمعنوى الذى تم فى مراكز التدريب بكل من "مارى" و"فازيانى" أهمية كبيرة. لقد تكون نتيجة لاستخدام مجموعة مختلفة من الطرق والأساليب. كان ذلك يمثل إعدادًا وطنيًا باحتراف اعتمادا على الخبرة التى تم اكتسابها فى خلال الحرب الوطنية العظمى. وقد شارك المحاربون القدامى أبطالُ الاتحاد السوفييتى: "بستيجو ا. ا."، "سيلانتييف أ. ن."، "ليخاتشيف ف. ك."، "دولنيكوف ج. أ." وكثيرون غيرهم فى إعداد الطيارين الشبان. وقد جرى بتوسع استخدام أسلوب التدريب فى أثناء الطيران، عندما يكتسب الطيار صلابة نفسية من خلال الأداء العملى، خاصة فى حالات أشكال الطيران الصعبة، فى حالات قريبة جدا من المخاطرة.

كان الطيران الأول فى السماء الحربية المصرية يهدف إلى التعرف على منطقة العمليات الحربية. فكان يقوم زوج من "الطيارين ذوى الخبرة" بحماية الطيارين الذين جاءوا حديثا ضمن تشكيل الأجنحة. لم يكن من المهم فقط التعرف على منطقة العمليات الحربية، بدون الارتباط فى الوقت الحالى بأية مهام أخرى، ولكن أيضا الإحساس بوجود رفاق بجانبك سبق لهم أن التقوا بالعدو فى سماء مصر. كان يتم بهذا الأسلوب نقل الثقة إلى الطيارين الجدد وتقليل توترهم من انتظار أول صدام قتالى.

يحدث أن يجد الطيارون أنفسهم فى أثناء وضع القتال فى موقف ينقص فيه الوقود بشكل حاد، لذلك يجب تعليمهم التحكم فى أنفسهم فى مثل هذه

الظروف والهبوط باستخدام الحد الأدنى من الوقود المتبقى. فى وقت السلم، يكون أمرا عاديًا أن يتم الهبوط اضطراريًا بقدر احتياطى من الوقود، عندما يظهر على لوحة القيادة ضوء البيان الأحمر. بالنسبة لطائرات "الميج ٢١"، يمثل هذا الاحتياطى ٤٥٠ لترًا، حيث يسمح بالقيام بشكل عادى بالاقتراب مرة ثانية للهبوط بأى شكل. ولكن يمكن أن يتبقى قدر من الوقود أقل كثيرا من ذلك، بعد المعركة، ممثلا خطرا كبيرا ويؤدى إلى توتر الطيار نفسيا أو انهيار وهو ما قد يؤدى إلى وقوع حادث فى أثناء عملية الهبوط. فى خلال تحقيقنا الصلابة النفسية فى أثناء الطيران باحتياطى ضئيل من الوقود، قابلنا أوضاعًا تتسبب فى حوادث طيران.

لقد وجدت نفسى مرتين، فى أثناء إشرافى على عمليات طيران، مضطرا لتهدئة الطيارين وإجبارهم بحسم على تنفيذ أوامرى. فى ذات مرة، كانت قد عادت مجموعة مكونة من اثنتى عشرة طائرة مقاتلة من طراز "ميج ٢١ م. ف" إلى مطار بنى سويف بعد قيامها بطيران تدريبى، وكان قد تبقى بكل طائرة منها ٢٠٠ ـ ٣٠٠ لتر من الوقود. مضت كل الأمور بهدوء فى البداية، وبدأت أول الطائرات فى الهبوط، ولكن فجأة طلب النقيب "ز" الهبوط، وهو طيار جيد، متجاوزا دوره بسبب قلة احتياطى الوقود، وقد أيده فى ذلك قائده الذى كان موجودا هو أيضا فى الجو. كان تنفيذ ذلك مستحيلا، حيث إن ممر الهبوط الثانى كان تحت الإصلاح، ولم تكن تعمل به أجهزة الاتصال الخاصة بالتوجيه، كما لم يكن يوجد به مشرف للطيران. لكى يتم السماح له بالهبوط فى غير دوره، كان يجب منع أربع طائرات من الهبوط، فى الوقت الذى تستعد فيه للهبوط وهى تحمل نفس المقدار من الوقود مثل "ز". كان على تهدئة "ز" وإجباره على الهبوط بعد من يسبقه فى الدور. لم أنجح فى تهدئته تماما، فاقترب للهبوط بسرعة كبيرة، وقمت بمساعدته بهمة. هبطت طائرته بعد أن طارت متجاوزة بداية ممر الهبوط بمسافة ١٠٠٠ ـ ١٢٠٠ متر. ولكن انتهى الأمر على خير، فقط لأن طول الممر كان ٣١٠٠ متر. من المخيف تصور أنه كان يمكن أن يتم الهبوط فى هذه الظروف بدون الالتزام بالدور، بدون أن يكون هناك مشرف على الطيران.

و فى حالة أخرى مماثلة، فإن النقيب "ت" لم يلاحظ بسبب توتره النفسى وهو يستعد للهبوط أن العمود الأيسر للعربة السفلى لم يخرج. وفى هذه الحالة لا

مفر من وقوع حادثة. ولحسن الحظ فقد لاحظ النقيب "فاليونيس" مساعد المشرف على الطيران فى وقت مناسب هذا الوضع، الذى كان يمكن أن يؤدى إلى وقوع حادثة الصيف، وأخطرنى به. وعلى الرغم من أنه كان قد تبقى بالطائرة حوالى ٢٠٠ لتر وقود، وأنه كان لم يبق إلا كيلومتر واحد للوصول إلى ممر الهبوط، فإن "ت" نفذ تعليماتى بدقة للقيام بدورة ثانية. بلاشك كان يوجد خطر أن يتوقف المحرك بسبب نفاذ الوقود تماما. ولكن كانت المجازفة تستحق، حيث إن العمود قد خرج فى المحاولة الثانية، وانتهت رحلة الطيران هذه على خير. وقد علمت أنه بعد مرور عدة سنوات أن العقيد "ت" نجح تماما فى قيادة الطائرة سو ـ ٢٧.

للأسف لقد تكبدنا خسارة جسيمة بسبب التوتر النفسى فى الجو. ففى ربيع عام ١٩٧١ عندما تم استبدال رئيس مخابرات الآلاى بالرائد "ك" وهو طيار حربى من الدرجة الأولى ويتمتع بخبرة كبيرة فى أعمال الطيران، ومنها خبرة المعلم. وكانت سماته باعتباره إنسانًا وضابطًا إيجابية بشكل ممتاز، فاندمج بسرعة جدا مع مجموعة العسكريين. ولكننا اصطدمنا عند الحاقه بالعمل بشىء غير متوقع. ففى ذات مساء وبعد انتهاء يوم العمل، دار حديث بينى وبين ناستنكو ى.ف. تقريبا على النحو التالى:

ناستينكو: فاليرى بوريسوفيتش، لقد طرت اليوم مع الرائد "ك" وكنت أقود طائرة طبقا للبرنامج.

المؤلف: "و كيف ظهر؟"

ناستينكو: كل شىء طبيعى، ولكنى سمعته يقهقه ونحن على ارتفاع منخفض جدا". وعندما نزلنا إلى الأرض سألته: "ما الموضوع، لماذا كنت تضحك؟. أجابنى: "على الرغم من أننى طرت سنوات عديدة، إلى أننى لأول مرة شاهدت ارتفاعًا منخفضًا حقيقيًا.

تبادلنا الآراء أيضا عن عمليات الطيران واتفقنا على أن ذلك رد فعل طبيعى للإنسان، حيث إن الطيران على مستوى منخفض يثير الانفعالات.

وفى اليوم التالى، كان على القيام بطلعة طيران تدريبية مع الرائد "ك" فى المساء. كان من المطلوب بالضرورة من الطيار، الذى يطير فى المساء فى مصر، أن

يكون قادرا على الهبوط بالطائرة باستخدام الكشافات. وقد كان يتم تشكيل طواقم فنيى الكشافات من بين المصريين، وكان الله وحده يعلم هل سينيرون الكشافات فى الوقت المناسب أم لا. تمت الرحلة بطريقة طبيعية، وكان "ك" يقود الطائرة بثقة، ولكنه لم يقد قط من قبل طائرة ميج ـ ٢١ بمساعدة كشاف، لذلك كانت مهمتى هى تعليم الهبوط على الأرض باستخدامه. عندما بدأ الانخفاض بالطائرة استعدادا للهبوط، وعلى ارتفاع ٢٠ ـ ٣٠ مترًا جذب "ك" فجأة عصا القيادة بشدة إليه. قاومت أداءه واستمريت فى الهبوط، وسمعت فى أثناء ذلك صوت شخير حقيقى فى اللاسلكى. كان انطباعى كأن الطيار لم يكن منصتا لى. اضطررت إلى الصراخ عليه بحدة: "اترك عصا القيادة!" لكى أخرجه من سباته. هبطت بالطائرة بشكل طبيعى. شرحت له مرة أخرى، بدون أن أوقف المحرك، سمات الهبوط على الأرض باستخدام الكشاف، ثم سألته: "هل أنت مستعد للقيام بدورة طيران أخرى. تلقيت منه ردًا إيجابيًا، فطلبت الإذن من مشرف الطيران للقيام بطلعة إضافية.. حصلت على الموافقة، فكلفت الرائد "ك" بالمهمة:"سوف تقوم بالطيران بنفسك، وعند خفض الطائرة استعدادا للهبوط على الأرض، أمسك عصى القيادة بخفة، وسوف أقول لك ما يجب عليك عمله، وتوزيع انتباهك إلى اللاسلكى". تم الطيران فى المرة الثانية بطريقة طبيعية. ولم يتم الطيران بطائرة حربية فى هذا اليوم.

عند عودتى فى المساء إلى الفندق، قلت لناستينكو رأيى عن الرائد "ك". كنا استمعنا نحن الاثنين كيف كان يتنفس بصعوبة وتقطع مع صدور شخير. توصلنا إلى نتيجة تفيد بأن الطيار يمر بحالة توتر نفسى صعب فى ظل وضع قتالى جديد بالنسبة له، حيث إنه ما زال يتعلم أشكالاً معقدة من التدريبات، فالخطر يكبل الإرادة ويؤدى إلى الذعر ويبطئ من عمليات التفكير، وليس من المستبعد أن يعطلها تماما. ما الذى يجب عمله؟ قد يكون القرار الأول، هو إنهاء مهمته وإرساله إلى الوطن لأنه ليس مؤهلا بدرجة كافية؟ ولكن من سيفهمنا؟ طيار من الدرجة الأولى، مارس الطيران لفترة طويلة، ولا يعجبهم! قررنا أن نقوم بحرص وعناية بتجهيزه، بحيث ± نزيل توتره بالتدريج. فى البداية يجب تحميله بأعمال تدريبية كثيرة مع طيارين من ذوى الخبرة من تشكيل القيادة للقيام بالطيران باستخدام الأجهزة فى حجرة مغلقة فى أثناء النهار. لم تكن هناك حاجة لإلحاق

الرائد بالتشكيل المقاتل حيث إنه يقوم بعمل رئيس بمركز القيادة. فليركز اهتمامه بعمل القيادة وفى المرحلة الثانية كطيار يقود طائرة اتصال لطائرات ميج٢١ ـ ى، لخدمة السرب المناوب. سارت كل الأمور بطريقة طبيعية. طار كمعلم على طائرات قتال للتعامل مع تدريبات أبسط فى خلال الطيران التدريبى. كما طار عدة مرات على طائرة اتصال لتوفير خدمة النوبة الحربية.

حدث الانهيار فى موقف صعب. كانت مجموعة طائرات إسرائيلية قد اقتحمت المجال الجوى لجمهورية مصر العربية. فانطلقت إلى الجو ست طائرات من السرب المناوب وطائرة اتصال يقودها الرائد "ك" الذى وقع فى عدة أخطاء خطيرة. فأولا شغل وسائل كبح السرعة فى وضع الصعود وليس فى وضع الهبوط. ففى أثناء ذلك، لا يتم تشغيل الحد الأقصى لدورات المحرك عند الانطلاق، ولكن تفتح بوابات فوهات المحرك النفاث. ثانيا دخل "ك" فى أثناء الطيران بين طائرات المقدمة الست، بين زوج المقدمة والجناح.

فى زمن السلم يجب تلافى هذه الأخطاء بالمركز الفنى وبواسطة مساعدالمشرف على الطيران. ولكن فى زمن الحرب لم يكن يحدد مركزًا فنيًا يكون مسئولا عن ذلك، نظرا للتركيز الكبير للطائرات على أرض المطار. كما أن نقطة القيادة المشتركة كانت فى العمق تحت الأرض ومغطاة بزجاج مصفح.

ذعر الرائد "ك" فاتخذ قرارًا مجنونًا: الصعود بفوهة مفتوحة وتشغيل النظام الآلى لمنع الاصطدام وعدم تشغيل الحد الأقصى لدوران المحرك. انخفض الجر بنسبة ٢٥٪. و كانت النتيجة ـ فاجعة. انطلقت الطائرة عند طرف أرض المطار، وارتفعت ٢٥ ـ ٣٠ مترًا وانطلق بزاوية هجوم حرجة حادة، وهبط على الأرض مباشرة. تحطمت الطائرة، ومات الطيار.

كان الطيارون السوفييت يستعدون للقتال فى الجو بمثابرة، ودرسوا خبرة الطيارين المصريين. لذلك فقد تم عقد لقاءات مع من درس منهم بالمدرسة الفرنسية العليا للقتال الجوى، وقاد طائرات "ميراج" و"ميج ـ ٢١ م. ف."، ومن كان يستطيع أن يحكى، بناء على خبرته، عن المقارنة بخصائص المقاتلات الأساسية التى كان يمتلكها الجانب الآخر فى الشرق الأوسط.

بالمناسبة لكل من الطائرتين المقاتلتين التين تم ذكرهما أعلاه خصائص تكتيكية عالية، والطرازان تقريبا متماثلان من حيث الخصائص الأساسية. فعلى سبيل المثال تتمتع طائرة "ميج ـ ٢١ م. ف." ذات المحرك P-13 بخصائص تسارع أحسن، خاصة فى مجال السرعة عبرالصوتية، وتتفوق بمقدار ٢ ـ ٢,٥ مرة بإمكانياتها فى المناورات الرأسية على طائرة "الميراج"، ونفس الشىء أيضا فيما يخص القيادة بميل. أما الميراج، فيتم التحكم فيها بصورة أفضل كثيرا عند زيادة تحميلها، وهى مزودة بمعدة تنشين لإطلاق النيران بها جهاز ليزر لقياس المسافات، كان هو الأفضل فى العالم فى السبعينيات. وقد قام مصممو طائرات "الميراج" بتزويدها بمعجل للسرعة طراز JRD(٢٠) يبلغ طول زمن عمله "دقيقة واحدة" مع "٦" عمليات تشغيل فى خلال ذلك الوقت، ولكن فى هذه الحالة كان يجب إزالة المدفع من الطائرة، وهو ما كان يقلل بشكل كبير من قوة ضرب الطائرة المقاتلة للنيران.

وإذا تمت مقارنة الطائرة "ميج ـ ٢١م. ف." بالطائرة الأمريكية المقاتلة "فانتوم" من حيث المواصفات الرئيسية، فهى مماثلة لها. ولكن كانت الطائرة الفانتوم متفوقة من حيث مدى الطيران وطوله الزمنى، حيث كان يبلغا الضعف، وكذلك من حيث التسليح. لذلك كان على مجموعات مقاتلنا مهاجمة العدو بحسم، وأن تجتهد لعدم الاشتباك معها فى معركة مناورات جوية طويلة. أما العدو، فكان على العكس يحاول جرنا إلى معارك جوية طويلة، حتى يقوم بعد ذلك بإسقاط تلك الطائرات التى تترك المعركة وبها كمية قليلة من الوقود.كان يتلخص فن قائد الطيران ونقطة قيادته فى أنه يتم على حساب زيادة جهود المجموعات الأخرى من المقاتلات توفير النجاح فى المعركة والخروج من معركة الطائرات المقاتلة بدون خسائر. ولكى تتم إطالة زمن الطيران، فقد انطلقت كل طائراتنا الميج فى مصر بخزانى وقود سعة كل منها ٤٨٠ لترًا معلقين على جناحيها، بالإضافة إلى خزان سعته ٤٨٠ أو ٨٠٠ لتر تحت جسم الطائرة. وفى بعض الحالات كان يتم تركيب ٣ خزانات، منها خزان سعة ٨٠٠ لتر تحت جسم الطائرة، عند القيام بتنفيذ عمليات خاصة. و كان يتم التخلص من خزانات الوقود عند توقع معركة جوية.

---

(٢٠) وقود سائل لمحرك الصواريخ.

ولكن عندما كان يتم تركيب خزانات على أجنحة الطائرة، كان ينخفض عدد الصواريخ عليها من ٤ الى ٢. و بالمناسبة يكفى تماما تسليح الطائرة بصاروخين ومدفع طائرة عيار ٢٠٠ مم لمعركة واحدة مع طائرات مقاتلة.

كانت رئاسة تشكيلات قوات الطيران فى مصر توجه اهتمامًا كبيرًا لتنظيم المعركة الجوية قبل وقوعها بوقت كاف.

ما معنى ذلك؟ كانت تتم دراسة كل المواقف المتعلقة بالمعركة، ومنها تشكيل وتسليح المجموعات المقاتلة، ووضعها بالنسبة لبعضهم بعضًا قبل بداية القتال، الظروف الجوية، الساعة، تضاريس المنطقة التى سوف يتم فوقها القتال... إلخ.

فإذا بدأ قائد مجموعة المعلومات بنقطة قيادة الفوج اتخاذ القرارات، وحدد مهمات كل من تحت قيادته فى خلال عملية القتال، فيكون مصير مثل هذه المجموعة هو الفشل. لذلك كان يقوم كل سرب بدراسة كافة الاحتمالات المتعلقة بالقتال الجوى، قبل وقوعه بفترة كافية، انطلاقا من أوضاع معينة، على الأرض باستخدام طريقة "تخيل سير المعركة الجوية على الأرض"، حيث كان يتم التدريب على كيفية تصرف الأطقم المكونة من زوجين والأجنحة وتفاعلها مع بعضها بعضًا، ثم كان يتم صقل كل احتمال، فى أثناء التدريب فى الجو، إلى درجة الكمال.

ويماثل هذا العمل إعداد الفرق الرياضية ذات المستوى المميز.

كنا نعجب فى سنوات الستينيات والسبعينيات بلعب المنتخب السوفييتى لهوكى الانزلاق على الجليد، فعندما كان تقوم مدافع ذو خبرة بتخليص القرص من غريمه بالقرب من مرماه، كان أحد المهاجمين، خارلاموف أو فيرسوف أو ياكوشوف يندفع إلى نقطة محددة بالذات، وكان يعرف مسبقا أن المدافع سوف يوجه القرص اليها، فكان المهاجم يتلقاه بمهارة. وكم كانت سعادتنا عندما كان القرص يطير داخل مرمى غريمنا! فكم كان يبذل لاعبى هوكى الانزلاق على الجليد من جهد وعرق وحماس فى خلال تدريبهم من أجل الفوز.

وبالمثل، كان طيارونا يعدون نماذج لمسار القتال فى الجو. كان العمل ضخمًا، وكانت تسيل أنهار من العرق، فقد كان الحمل كبيرًا، كما كان يتم كل ذلك فى

سبيل الانتصار، ومن أجل تنفيذ واجبنا أمام وطننا. كان يتم اختيار من ١٠ الى ١٥ حالة من احتمالات القتال الجوى لكى تتدرب عليها أحسن الأسراب. ويجب إدراك أنك لا تهاجم دائما، حيث إنه تتم أحيانا مهاجمتك - هذه هى قاعدة المعركة، لذلك فعند وقوع هجوم عليك من عدوك، لا يجب فقط أن تعمل على أن يفشل هذا الهجوم، ولكن عليك أن تستدرج عدوك خلفك، وأن تضعه أمام مجال ضرب زميلك، على أمل أن تكون هذه الهجمة بمثل كفاءة ضربات هداف هوكى الانزلاق خارلاموف.

كان القائد يحدد نموذج المعركة ويتم إبلاغه إلى من تحت قيادته بالشفرة. هل سيتحقق النجاح؟ سيتحقق إذا كان القائد قد حدد الموقف بدقة واختار النموذج المطلوب، وإذا نفذ طيارو كل المجموعات عملهم بدقة. وبعد ذلك يمكن أيضا الابتكار.

لذلك كان كل قائد يقوم بقيادة مجموعته، حتى لو كانت تلك المجموعة صغيرة، مكونة من زوجين أو جناح ولم يكن مسموحًا بالتمسك بالنموذج الجامد. أما المتغير، فكان يمثل نموذجًا لمسار القتال.

كانت مجموعة القتال الرئيسية فى مصر تتوقف على نوع المهمة والقوة المتوفرة وغيرها من العوامل، فكانت المجموعة عبارة عن جناح، أو ستة، أو عشرة.

الجناح - عبارة عن مجموعة منسجمة، ولا يجوز فيها تغيير الطيارين فى تشكيلها.

أما الستة، فكانت عبارة عن زوج تابع لقائد السرب، ونوابه، أو زوج نظامى تابع لأحد نواب قائد الآلاى، بالإضافة إلى الجناح العادى. ولم تكن مجموعة الستة مرتجلة، ولكنها كانت هى أيضا مجموعة منسجمة.

أما السرب (عشرة) - فكان عبارة عن ستة زائد جناح. كم كان عدد المجموعات القائدة فى السرب؟ اثنتان أو ثلاثة: قائد سرب الطيران، ونائبه، قائد الآلاى أو نائبه. لم تكن تستطيع الأسراب غير المنسجمة مسبقا القيام بنوبتها فى أثناء دوران المعارك وأن تشارك فى القتال.

لقد وضعت الظروف الخاصة للمعارك الحربية فى جمهورية مصر العربية بصمتها على استخدام وسائل رصد الرادارات والاتصالات اللاسلكية وطريقة توجيه الطائرات المقاتلة على الهدف، فقد اختلفت عن الطرق الكلاسيكية.

كان كلا الجانبين يقومان بعمليات التصنت على المحادثات اللاسلكية نظرا لتجاورهما. لقد حصلنا بكفاءة، بلغتنا الأصلية، على معلومات عن أداء العدو.كان العدو يقوم بالتشويش بكثافة عالية على الاتصالات اللاسلكية قبل المعارك الجوية، مما كان يؤدى إلى اضطراب القيادة.

ولكى نمنع حدوث ذلك، قمنا بالإجراءات التالية: لم يكن يتم توصيل أية معلومات عن الموقف فى منطقة العمليات الحربية وعن الأوامر الأولية لانطلاق القوى المناوبة عن طريق اللاسلكى، بل كان يتم ذلك عن طريق اتصال سلكى بكل هنجر من هناجر حماية الطائرات، كما كان مركز القيادة يحصل على معلومات، ردا على، ذلك لكى يتأكد من أن الأوامر قد وصلت. وكانت تنطلق الطائرات بعد ذلك، فى حالة صمت تام لأجهزة اللاسلكى، باستخدام وسيلة أوامر بصرية من القائد تتم بالإشارة (كانت تتم إمالة منظم الطائرة "الى أعلى" - "الى أسفل"، أو ضبطه فى وضع محايد، فكان ذلك يعنى "تشغيل المحرك"). كان يتم الطيران فى اتجاه إحدى نقاط بداية التوجيه الأربع فى ظل صمت تام لأجهزة اللاسلكى، على ارتفاع حوالى ٥٠ مترًا. كان يسمح بالبدء فى القيادة، إذا كان الوضع يسمح، فقط عند نقطة بداية التوجيه، على موجة قيادة الطيران التدريبى، التى كان يعرفها العدو جيدا. وكانت قنوات قيادة المعارك على الأزرار ٦، ٧، ٨ بمحطات الإرسال اللاسلكى مضبوطة بدورها على ترددات "هوائى معادل" بدون الخروج على الهواء. وفى حالة ظهور تشويش عالى الكثافة، كان طيارو كل المجموعات والمحطة الأرضية الثانية للاتصالات اللاسلكية يتحولون إلى الموجة ٦ للقيادة الحربية. كانت المحطة الأرضية الأولى تستمر فى إصدار الأوامر عند حدوث تشويش على موجة التدريب، حتى لا يحدس العدو فورا بأنه قد تم تغيير الموجة.

وقد كانت تتم القيادة على الموجتين من كلا المحطتين من ميكروفون واحد.

وكان يمكن للعدو ملاحظة تغيير الموجة، بعد مدة لا تقل عن دقيقة واحدة. وفى حالة ظهور تشويش على الموجة ٦ أو ٧ كان يحدث أن يتم بالمثل الانتقال إلى

الموجتين ٧ و ٨ بالطائرات وبالمحطتين الأرضيتين. وقد أدت هذه المناورة بالموجات إلى القضاء على كفاءة التشويش على شبكات قيادة القتال.

تم استبعاد كل الترددات، التى كشفها العدو، من الاستخدام بعد ذلك، كما تم ضبط المحطات على ترددات جديدة من نفس المستوى.

كانت تحلق طائرة تدريب بمنطقة المطار عليها جهاز يعيد إرسال المعلومات لتوفير قيادة يعول عليها للمقاتلات التى تطير على ارتفاع منخفض تماما. كما كانت هذه الطائرة تقوم بالتصدى لأى هجوم مفاجئ على الطائرات المنفذة لعملية الهبوط، حيث إنها كانت مجهزة بصاروجين من طراز P-3C.

كان يتم اختيار نقاط بداية التوجيه كعلامات استرشاد مميزة من تلال العين السخنة إلى تلال الزعفرانة، على بعد من ٧٠ الى ٨٠ كم من مطار بنى سويف. كانت ٤. و كان يتم تشفيرها كل يوم وكانت تستخدم أسماء فصول السنة ككلمات الشفرة (ربيع - صيف - خريف - شتاء)، وكذلك أوقات اليوم (صباح - يوم - مساء - ليل) والجهات الأربع (شمال - جنوب - شرق - غرب)، وكان يتم استخدامها بتتابع عفوى. لذلك لم يكن من الممكن تخمين أو حساب النقطة التى تتجه إليها المجموعة. كان الإسرائيليون يستخدمون تشفيراً أكثر بدائية، فقد ميزوا اطرق توجيه القتال بواسطة طيارات الهجوم والمقاتلات التكتيكية عند توجيه الضربات إلى الأهداف فى عمق تكتيكى باستخدام المطلحات التالية: "أنا ذاهب إلى الخط الأزرق" أو "اذهبوا أنتم إلى الخط الأحمر". لم يكن ذلك يمثل صعوبة كبيرة لتخمين أن "الخط الأزرق" هو قناة السويس، وأن "الخط الأحمر" هو خليج السويس بالبحر الأحمر. لذلك فقد كان رجال نقطة التوجيه يقومون بتوجيه الطيارين مسبقا، طبقا لاتجاهات أداء ملاحى العدو.

سأتحدث الآن عن القيادة. كان دائما يرأس التشكيل القتالى بنقطة القيادة قائد الآلاى أو أحد نوابه القادرين الذين تدربوا على قيادة المقاتلات فى المعارك الجوية باستخدام إشارات محطات الرادارات.

كان يضم التشكيل القتالى بنقطة القيادة يوميا: رئيس نقطة القيادة، وثلاثة من ضباط قيادة المعارك بالإضافة إلى الفنيين. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان

ضمن نظام القيادة كل من نقطة قيادة الآلاى الاحتياطية (بمطار كوم أوشيم)، التى كان يرأسها فى أثناء قيادة المقاتلات أحد نواب قائد الآلاى أو نائب رئيس أركان الحرب، وكذلك التشكيل القتالى لنائب مركز القيادة الاحتياطى.

وقد تم نشر النقاط الأمامية للتوجيه فى نقاط "بير أريد" و"بير مرير" فى قواعد مراكز الدفاع الجوى المصرية، التى كان يوجد بها تشكيل القتال العادى بصفة دائمة.

كان يتم دوريا إدراج طيار سوفيتى ضمن تشكيل وحدات المشاة المصرية على ضفة قناة السويس، حيث كانت عادة تخترق طائرات التجسس الإسرائيلية المجال الجوى المصرى. وكان يتم اختياره بحيث يكون على درجة رئيس خدمة للقيام بالمراقبة البصرية للمجال الجوى وتوجيه المقاتلات إلى الهدف فى الجو. وبالمناسبة، تبين أن هذه الطريقة ليست مجدية على الإطلاق، كما أن القيادة المصرية كانت تضع فى الصحراء نظامًا للمراقبة البصرية. هذا أسلوب بدائى، ولكن ترك انطباعًا. لقد تم حفر الخنادق على مسافة تصل إلى عدة كيلومترات، على كل المساحة التى تشغلها الصحراء، وتم وضع جنود فيها. فكانوا إذا ما شاهدوا طائرة أو سمعوا صوتها يديرون مقبض الجهاز فكانت تضىء مصابيح مبينة اتجاه طيران الأهداف الجوية وطائراتنا على لوح رأسى بمركز قيادة كتيبة الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات، التى تقوم بحماية مطارنا ومدينة بنى سويف. وحقيقة، عندما لم تكن تصل المياه أو المواد الغذائية إلى المراقبين فى وقت مناسب، كانوا يبدأون فى إدارة المقابض فكانت تضىء المصابيح بطريقة فوضوية على اللوحة.

كان ضابط قيادة المعارك من الدرجة الأولى بسلاح الدفاع الجوى السوفيتى مدربًا على توجيه ٣ مجموعات من المقاتلات إلى ٣ أهداف. كان ذلك مطلبًا صحيحًا تماما، حيث إنه كان مطلوبًا فى أثناء الحرب. ولكن كانت الحرب فى مصر غير عادية، بل كانت من نوعية خاصة. كان الإسرائيليون مبتكرين، وخبثاء، وقادرين على المفاجأة. لم يكونوا يدخلون إلى معركة بدون إعداد جاد. وقد كانت إحدى الخدع التى استخدموها كما يلى: مجموعة من ١٦ طائرة مقاتلة تطير بشكل متضام بحيث تظهر على شاشة الرادار المصرى كما لو كانت جناحًا. فكان

عادة يرسل المصريون جناحين أو تشكيلاً من ست طائرات لمواجهة هذا الهدف. وعندما كان يتبقى على اللقاء ٦٠ كم، كان الطيارون الإسرائيليون يكونون تشكيلاً قتاليًا، مظهرين تفوقهم من حيث القوة. كان مركز القيادة المصرى يحاول تفادى الدخول فى معركة غير متكافأة، فكان يعطى أوامره للطيارين بالخروج من المعركة، ولكن أحيانا يكون صدور هذه الأوامر قد تأخر. فكان الطيارون المصريون يجدون أنفسهم، عند قيامهم بأشد المناورات، تحت نيران الهجوم من نصف الكرة الخلفى. وللأسف فقد تكررت هذه الخدعة عدة مرات. القرار الصحيح فى هذه الحالة هو: غض النظر عن عدد طائرات العدو، والدخول إلى المعركة بحسم. كان الإسرائيليون مثل الأمريكان حساسين جدا فيما يخص الخسائر. لذلك لم يكن من المستبعد أنه يمكن أن يتخلى العدو عن فكرة القتال، تحت تأثير وقوع ضغط حاسم عليه. وإذا لم يحدث ذلك، فلن يكون هناك مفر من الاشتباك فى قتال مع العدو المتفوق من حيث القوة. كان هناك احتمال لوقوع خسائر لنا. نعم، ولكن من الأفضل الموت فى معركة، بدلا من الموت فى أثناء الفرار، وهو يمثل الاحتمال الأكبر.

حدث هذا الموقف بالذات فى يوم ٣٠ يوليه من عام ١٩٧٠. كان جناح النقيب يورشنكو رابضا فى نوبة قتال بمطار بنى سويف، وكذلك جناح النقيب كامينيف بمطار كوم أوشيم فى الصباح فى حالة استعداد من الدرجة ٢. و فى ذلك الوقت اخترق جناح طائرات فانتوم المجال الجوى لجمهورية مصر العربية من جهة سيناء. فقام مركز قيادة الآلاى بإطلاق كلا الجناحين إلى الجو. وبمجرد انطلاقهما، انصرفت المجموعة الاستعراضية مع الانخفاض فى اتجاه سيناء. فقامت نقطة قيادة الآلاى، وهى على حق تماما، بوضع كلا الجناحين فى منطقة الحراسة على ارتفاع منخفض لحماية مطاراتها.

بعد ١٠ دقائق، ظهرت مجموعة من طائرات "الميراج" متجهة إلى القاهرة على ارتفاع متوسط، وقد تم تقديرها على أنها جناح. فتم توجيه مجموعتى كامينيف ويورتشينكو فى قافلة أجنحة من على بعد ٢٠ ـ ٣٠ كم لمواجهتها. وعندما تبقى ٦٠ كم على اللقاء انتشرت مجموعة الطارات "الميراج" فتبين أن عددها ١٦ .لم يهرب الطيارون السوفييت من الدخول إلى المعركة. كان طيارو كامينيف هم أول

من دخل المعركة، وبدءوا يدورون فى ساقية، وتبعهم يورتشينكو ورفاقه فى توجيه الضربات. كانت الطائرات الفانتوم تلعب فى المرحلة الأولى دور فرقة استعراضية، أما فى المرحلة الثانية فقد بدأت فى مهاجمة جناح يورتشينكو على ارتفاع منخفض وبسرعة عالية، حيث كانوا يخططون لمهاجمتها فى أثناء ملاحقتها. ولكن وقع الهجوم من زاوية صغيرة جدا، فأصبحت طائرات الفانتوم مهاجمة من زوج سيركين. وفى تلك اللحظة هجم يورتشينكو من الخلف على إحدى طائرات الميراج. أطلق زوج الطائرات الفانتوم المتقدمة صواريخ على جناح يورتشينكو، فقام النقيب ماكارا بتنبيه يوريتشينكو: "كوليا، صواريخ". فرد عليه الأخير وهو يطلق صواريخ على الميراج: "الآن". قام ماكارا بمناورة مضادة للصواريخ وأحبط الهجوم على طائرته.

أما طائرة يورتشينكو فقد أصيبت إصابة مباشرة بالصواريخ. انفجرت الطائرة وقتل الطيار.

أصيبت طائرتى سركين وياكوفليف بشظايا. تمكن الطيارون من القفز من طائراتهم. قتل ياكوفليف عند ارتطامه بالأرض بعد هبوطه بالمظلة، حيث إن المنطقة كانت صخرية وكانت سرعة الهواء ٢٥ مترًا فى الثانية. ولكن سيركين هبط بسلام، حيث إنه كان يتمتع بخبرة كبيرة فى القفز بالمظلة.

أصيب النقيب جورافلييف بطلقة من إحدى طائرات الميراج، وتمكن الطيار من القفز منها، ولكن لم يتمكن نظام المظلة من الانفتاح بسبب قلة الارتفاع. وعلى الأرجح لم تعد الطائرة التى أطلق عليها يورتشينكو النيران إلى قاعدتها، حيث إن طائرات البحث والإنقاذ الإسرائيلية بحثت لفترة طويلة عن شخص ما.

كانت نتيجة المعركة ثقيلة، ولكن طيارونا أظهروا فيها سمة الشخصية السوفييتية، فقد دخلوا المعركة بغض النظر عن عدد طائرات العدو. وبعد ذلك بفترة ظهر تقييم لتلك المعركة بمجلة "لايف" كما يلى: "الروس هم الروس".

لقد قاتل كل طيارى الجناحين ببسالة وبإنكار للذات. لذلك فقد كان من العدل تماما أن يتم تقليد كل المشاركين فى المعركة أوسمة الاتحاد السوفييتى. أما النقباء يورتشينكو وياكوفليف وجورافليف فقد منحوا أوسمة سوفييتية ومصرية بعد وفاتهم.

ولكن ما الذى سبق هذه المعركة؟ لقد استعجلت الرئاسة الموسكوفية دولنيكوف: "لماذا لا توجد نتيجة؟" وللحصول على هذه النتيجة تم التخطيط لأسلوب المعركة الجوية. وحيث إن الإسرائيليين كانوا يتجنبون الدخول فى معركة مع الطيارين السوفييت، فقد تقرر أن يتم سرا نقل تمركز سربين إلى مطار إنشاص الخاص بقوات الطيران المصرية. ستقوم مجموعة من طائرات ميج ـ ١٧ المصرية بتوجيه ضربة للقوات فى عمق تكتيكى، فتطير طائرات الميراج للاشتباك معها. وعند مطاردتها لطائرات الميج ـ ١٧ تقع فى المصيدة، التى نصبتها لها طائراتنا المقاتلة. كان الأمر سهلاً على الورق، ولكن تأخر انطلاق الطائرات السوفييتية لمدة دقيقتين بسبب المصريين. وهذه الفترة طويلة جدا بالنسبة للطيران. هاجمت الميراج طائرات الميج ـ ١٧، وتأخرت طائراتنا. اضطررنا إلى مهاجمة العدو مباشرة وحماية المصريين الذين عادوا إلى منازلهم بدون أية خسائر. وفى نفس هذا اليوم اندلعت معركة فقدنا فيها رفاقًا لنا.

أفكار حزينة! ولكن لا يجب استبعاد أى شىء، فهناك احتمال أن تكون المخابرات الإسرائيلية قد لعبت دورًا فى ذلك.

فى الثلاثة أسابيع التالية، قام أصدقاؤنا فى ميدان القتال، خبراء الصواريخ، بإسقاط حوالى ١٨ طائرة فانتوم وميراج آخذين بثأر رفاقهم، مستخدمين فى ذلك أساليب جديدة فى القتال ومكرًا فى المعارك.

كانت الطائرات الإسرائيلية من طراز سكاى هوك نشيطة فى غاراتها، بصفة خاصة. فقد كانت تقوم بعدد كبير من الطلعات فى اليوم، تصل إلى ٢٥٠ طلعة، وكانت تقذف القنابل على مدينة السويس. فبمجرد اقتراب الطائرات المقاتلة كانت تقف الطائرات المغيرة فى دائرة فى انتظار انصرافها نظرا لقلة مخزون الوقود لديها، حيث إنهم كانوا يعرفون أن المقاتلات السوفييتية لن تطير إلى سيناء. عندئذ قرر كل من العقيد ناستينكو والجنرال دولنيك استخدام الفخ فى مطار "القطامية". هبطت مقاتلات سربنا الجوى رقم٣٥، فى حالة صمت تام لأجهزة اللاسلكى، وفى جو مظلم فى هذا المطار الاحتياطى، وتم التمويه على طائراتنا فى الملاجئ.

كانت الطائرات المهاجمة تعمل بشكل نمطى، فكانت تتجه إلى الهدف من اتجاه واحد على ارتفاعات من ٦٠٠٠ الى ٨٠٠٠ متر، كانت تطلق قذائفها وهى مائلة إلى الأمام من على ارتفاع ٢٥٠٠ متر، حتى لا تدخل فى المدى المؤثر للمدفعية المضادة للطائرات. كان ينطلق طيارونا بطائراتهم على ارتفاع ٥٠ مترًا، حتى لا ترصدهم رادارات العدو، فى خط سير محدد بسرعة ١٠٠٠ ـ ١٥٠٠ كم/ ساعة. وكانت ترتفع المقاتلات عند نقطة محددة، ومنذ تلك اللحظة كان ضابط برج المراقبة يوجه المقاتلات نحو العدو. كانت عنده ٢٠ ثانية فقط للقيام بذلك. كانت تتم مثل هذه الطلعات فى الأيام المختلفة، وكان يصل عددها إلى ١٢ طلعة تقوم بها أزواج من الطائرات، ولكن طائرة واحدة من طراز ميج ـ٢١مف يقودها النقيب سالينيك دخلت المعركة بدقة. أطلق صاروخ فسقطت طائرة سكاى هوك محاطة باللهب فى خليج السويس. لم تكن تستطيع طائرتنا عدم الاندفاع خلف القناة، حتى ولو قامت بأى شكل من المناورات القوية. هاجم سالنيك ثمان طائرات ميراج، وأسقط إحداها. حدث ذلك بسرعة فائقة، بحيث إنه لم تتمكن المقاتلات الإسرائيلية بعمل أى شىء.

كانت الحركة الثانية المميزة للطيران الإسرائيلى فى المعارك الجوية كما يلى: كان يقوم طيارو المجموعة الاستعراضية بالتمثيل بأنهم يتحاشون الاشتباك، فيجرون خلفهم مقاتلات العدو، وكانت مجموعة الهجوم المكونة من جناح تقوم بالهجوم وهى ترتفع بسرعة من مستوى منخفض تماما من نصف الكرة الخلفى. وفى هذه الحالة كان من الصعب جدا اكتشاف وجود المقاتلات المهاجمة بالعين.

وقد قمنا باستخدام الأسلوب التالى من أجل اكتشاف التشكيل المقاتل للعدو وتجنب الضرب المفاجئ من أسفل، بطريقة حديثة. كان يقوم ثلاثة ضباط بتوجيه مجموعة المقاتلات نحو مجموعة العدو، وكانت الأدوار موزعة فيما بينهم كما يلى: كان يقوم بالدور الرئيسى من يوجه الطائرات من شاشة محطة الرادار ذات المدى الدسيمترى، أما الثانى فكان يقوم باستكشاف مجموعة العدو بواسطة جهاز كشف الارتفاع عن بعد، الذى كانت قدرته على التركيز أعلى من محطة الرادار ذات المدى الدسيمترى، وكان الضابط يتمكن بذلك بتحديد ارتفاع طيران العدو وعدد طائراته وتشكيله بدقة عالية.

وكان دور الضابط الثالث محدداً بدقة، وهو يتمثل فى استكشاف ما هو خلف المقاتلات، بحيث يتمكن عند وقوع هجوم مفاجئ من الخلف الإنذار بالصعود بسرعة كبيرة، قد تفوق سرعة الصوت.

لقد قامت مجموعة صغيرة من الطيارين السوفييت بتنفيذ مهمة صعبة إلى أقصى حد. كان هناك نقص خطير جدا فى قوتنا. فكيف إذا قمنا بتوزيع قوتنا؟. كان يوجد لدينا نظام الثلاثة أيام لكل سرب. اليوم الأول ـ تجهيز الطيارين ومعدات الطيران للقيام بنوبتهم الحربية والطيران التدريبى. فى ذلك اليوم، كانت الأسراب فى حالة استعداد ٣٠ دقيقة، حتى تقوم بزيادة قوة السربين الآخرين فى أثناء العمليات الحربية.

اليوم الثانى: يوم النوبة الحربية من لحظة طلوع الشمس إلى لحظة الإظلام، ٢٠ طائرة فى حالة الاستعداد من الدرجة ٢، أى أن الطيارين عند الطائرات فى الملاجئ مجهزون تماما. وهم يتلقون بصفة مستمرة المعلومات عن الموقف فى الجو. كان يتم تقديم الطعام للطيارين عند آلاتهم الحربية. وعند صدور أمر "الجو"، تنطلق المقاتلات على شكل جناح، الستة فى خلال مدة ٢ ـ ٣ دقائق، السرب فى خلال ٣ ـ ٥ دقائق من اتجاهين. ويدعم أداءهم السرب الثالث الذى يقوم بطيران تدريبى ويكون فى حالة الاستعداد درجة ٢. و فى كل يوم كان يتم توصيل الوحدات القائمة بالنوبة إلى حالة الاستعداد درجة ١، و كانت أحيانا تقوم بالانطلاق للاشتباك مع مجموعات العدو.

كان يقوم طيارو الآلاى بعدد من الطلعات الحربية يصل إلى ٤٠ ـ ٥٠ طلعة فى السنة. كانت القيادة الإسرائيلية تقوم بصفة مستمرة باختبار استعدادنا للقتال. وبمجرد دخول مقاتلاتنا إلى المعركة، كانت طائرات "الفانتوم" و"الميراج" تزيد من سرعتها وتندفع بأقصى سرعة للخروج إلى ما خلف خليج السويس إلى سيناء، متحاشية القتال.

كانت القيادة السوفييتية تتابع بدقة كيفية أدائنا للمهمات التى تم تكليفنا بها. فبمجرد أن أفلت اختراق مجموعة من طائرات الفانتوم، فى يناير ١٩٧١، إلى ٥٠ كم فى عمق أراضى جمهورية مصر العربية فى اتجاه القاهرة، قام وزير دفاع الاتحاد السوفييتى بتوجيه اللوم بالشفرة لرئيس أركان الحرب المقدم براسولوف ف. م. الذى كان يرأس تشكيل مركز قيادة الآلاى فى ذلك اليوم.

وحتى لا تتكرر مثل هذه الأحداث، أصبحنا نستخدم المكر الحربى. فإذا تأخرنا فى انطلاق المقاتلات بسبب تأخر اكتشاف الأهداف الجوية، كنا نعطى أمرًا لنقطة القيادة الأمامية (بير أريد أو بير مرير) بتوجيه المقاتلات نحو العدو بطريقة شكلية، أى أنه كانت تقدم إحداثيات الأهداف الجوية الفعلية، بينما تقدم أوامر المقاتلات كما لو كانت فى الجو فعلا. وقد أعطى هذا التكتيك نتائج إيجابية، ففى أغلب الأحوال كان يقوم الإسرائيليون بالانطلاق بأقصى سرعة إلى سيناء. ولكن على أية حال، كان من المحذور الاعتماد على اللعب باللاسلكى كوسيلة لطرد العدو، حيث إنه إذا اكتشف هذا الأسلوب، كان يمكن أن يوجه لنا ضربة. فكانت هذه مجرد وسيلة للتغطية على تأخر ارتفاع المقاتلات، التى تنطلق، بدلا من الانتظار على الأرض لرؤية كيفية تطور الأحداث.

اليوم الثالث: يوم الطيران التدريبى، الذى كان يتم خلاله دراسة مختلف احتمالات المعارك الجوية، والحركات، والاشتباك مع الأهداف الجوية والقضاء عليها على ارتفاعات ١٠ ـ ١٥ مترًا، وكذلك أسلوب قيادة الطائرة بشكل فردى أو كمجموعة على أعلى مستوى. إن التمكن من فن قيادة الطائر، خاصة على الارتفاعات المنخفضة جدا، هو ضمان النجاح فى المعركة الجوية.

بفضل الله كان طيارونا بآلاى الطائرات المقاتلة رقم ١٣٥ قادرين على إثارة دهشة الأصدقاء وحسد الأعداء. كانت تدخل عناصر تتميز بدرجة عالية من المجازفة ضمن عناصر المجموعة الإجبارية لبرنامج تدريب القيادة رفيعة المستوى للطائرات لخبراء القتال الجوى. الطيارون وحدهم يفهمون مدى خطورة القيام بانحراف على ارتفاع ٥٠ مترًا فعلا بسرعة عالية تصل إلى ١٠٠٠كم/ ساعة مع حمولة ٦ وحدات زائدة، وكذلك تنفيذ عنصر الارتفاع العمودى على ارتفاع ١٠٠ ـ ٢٠٠ متر، والقيام بحركة انقلاب بسرعة ٧٠٠ كم/ ساعة بأقصى سرعة من ارتفاع ١٨٠٠ متر مع حمولة زائدة ٥ ـ ٦ وحدات... إلخ. ولكن، هل لهذه المجازفة ما يبررها؟ كان هناك اعتقاد بأنها لا تزيد على مجازفة الفنان الذى يعمل فى السيرك بدون إجراءات تأمين. وقد أثبتت الحياة صحة هذا الاستنتاج. لقد حدث فى مرة واحدة أن بالغ المقدم "ش" فى تقدير قدرته، وهو فعلا طيار ماهر، عند قيامه بعملية انحراف عميق ٧٠ ثانية (مرة ثالثة بدون الانتقال إلى الوضع الأفقى)، فانزلق فى اتجاه الانحراف.

لاحظ خطأه، فعدل وضعه، لكنه لمس الأرض بخفة بذيل طائرته. وكان ذلك كافيا لكى تتشرخ شبكة المواسير. وبعد عدة ثوان، وبينما كانت الطائرة قد بدأت فى الارتفاع انفجرت فى الجو وهلك الطيار.

مهما كانت كفاءة الطيار عالية، فعند حضوره إلى مصر كان يتم اختبار قدرته على قيادة الطائرة على ارتفاع منخفض تماما بطائرة تدريب من طراز ميج،طبقا لبرنامج خبراء المعارك الحربية. كانت الطائرات، حتى طائرات التدريب، لا تخرج إلى الطيران التدريبى إلا بصواريخ حربية، حيث إنه كان يمكن لقاء العدو فى أية لحظة. وبالمناسبة لقد حدثت مثل هذه اللقاءات. وهكذا مضى الوقت. فكان لكل سرب نظام الثلاثة أيام الخاص به. لم تكن هناك أيام عطلات. كان يتم تنظيم يوم للشئون العامة مرة فى كل ثلاثة أسابيع.

من المعروف أهمية تقدير دقة الوقت فى الطيران. فكان يتم تقدير دقة الخروج إلى الهدف بمقدار ±٣٠ ثانية بدرجة "امتياز"، وغير مقبول فى حالة ± دقيقة و٣٠ ثانية. لم نكن نقوم بتنفيذ البرنامج اليومى فى جمهورية مصر العربية بدقة، عن قصد. كيف كان يظهر ذلك؟ كنا نحضر إلى المطعم مبكرين أو متأخرين، ولكن ليس فى الموعد المحدد أبدا. كان ذلك يحدث حتى لا يكون هناك إغراء للإسرائيليين بالقيام بضرب المطعم والقضاء على سرب أو سربين مرة واحدة. كان يحدث نفس الشىء تماما مع بداية وطول رحلة الطيران. فقد كان من السهل على العدو اصطياد أول طائرة مقلعة فى أثناء إقلاعها.

كانت مجموعة الاستطلاع الإسرائيلية منظمة جيدا، وكانت تتعامل معنا بحرص بالغ. فكانت تقوم مجموعة من طائرات "الميراج"، بصفة دائمة، بنوبة فى الجو لمدة ١٥ دقيقة قبل الزمن المعلن لبدء الطيران. وكانت تناوبها مجموعة أخرى، ثم ثالثة، ويستمر ذلك إلى أن تتوجه آخر طائرة ميج عائدة. لم يكن الإسرائيليون ينتظرون الصواريخ الحمراء، التى تفيد عن انتهاء الطلعات، فوق مطارنا، فكانوا يعودون إلى مطارهم. كان الطيارون يمزحون: "الإعلان عن الطيران إلى القاهرة يمر عبر تل أبيب".

لهذا السبب لم نكن نعلن قط عن طلبنا للطيران الحربى. كان ذلك يتعلق بصفة أساسية بتوفير طلعات طيران طائرات الميج ٢٥ب العاملة من مطار غرب

القاهرة لصالح القيادة العامة السوفييتية. كان يتم نقل الطائرات بواسطة طائرات نقل ضخمة، ثم يتم تجميعها في المكان المحدد بمعرفة فرق مصنع جوركي للطائرات. وكان يقوم باختبارها طيار الاختبار "فلاديمير جوردينكو". ونظرا لوضع الحرب الجوية والاهتمام الكبير بطائرات الميج، ليس فقط من قبل القيادة الإسرائيلية، ولكن أيضا من قبل أصدقائها الأقوياء، فكانت كل طلعة لطائرة ميج ٢٥ تتم تحت حماية مقاتلات آلاينا. تمكنا من مقارنة خصائص طيران كل من الطرازين ميج ـ ٢٥ب وميج ـ ٢١م. ف. فكان طيار الاختبار يقوم بالانطلاق بأقصى سرعة عند ارتفاع ١١٠٠٠ مترعلى أساس ١٦٠ كم. وكانت المقاتلات التي تتبعه تقوم بدورها أيضا على مسافة ٢٠٠ ـ ٣٠٠ متر بالانطلاق هي أيضا بأقصى سرعة. عندما كانت الطائرة ميج ـ ٢٥ تشغل أقصى سرعة، كانت المقاتلات تشاهدها على شاشة الرادار على بعد ٢٠ كم. شيء خياليا هذه الآلة عظيمة، وما تتمتع به من مزايا مسجل في السجلات العالمية ,وبعد عام، علمت بسرور بالغ أن فالوديا جوردينكو قد حصل على لقب "بطل الاتحاد السوفييتي، ولكن كان ذلك بالوطن، بالاتحاد السوفييتي.

تم تسليح الفصيلة المنفصلة لطيران الاستكشاف رقم ٦٣ بطائرات الميج ـ ٢٥ب، حيث كانت تقوم بعمليات الاستكشاف فوق أراضي جمهورية مصر العربية التي كانت تحتلها إسرائيل، وفوق البحر الأبيض المتوسط. لم تكن طائرات الاسكشاف تدخل المجال الجوي لإسرائيل. وقد أثارت الرئاسة العليا والقيادة العسكرية الإسرائيلية صخبًا كبيرًا وتوعدت وهددت، ولكن لم تكن لديها وسائل لمواجهة عمليات طيران الاستكشاف، حيث لم تكن تستطيع أسلحة المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات المسلحة بصواريخ الهوك والهوك المحدث، وكذلك مقاتلات الميراج والفانتوم، من القيام بعمليات حربية على ارتفاع يزيد على ٢٠كم وبسرعة حوالي ٢٤٠٠ كم/ س. كانت القيادة السوفييتية مدركة لإمكانية القيام بعمليات تجسس بمطار القاهرة غرب، وهو ما تمكننا من منعه في عام ١٩٧١. كانت يتمثل الخطر على طائرات الميج ـ ٢٥ب من قبل مقاتلات إسرائيل عند الانطلاق وقيامها بالارتفاع حتى ارتفاع ٧كم، وكذلك في أثناء تخفيضها للارتفاع بعد قيامها بمهمتها والتحول إلى سرعة أقل من سرعة الصوت. كانت مقاتلات السرب رقم ١٣٥ تقوم بحماية طائرات الاستكشاف بكفاءة، في تلك المراحل من

الطيران. وبالإضافة إلى ذلك كانت العمليات الاستعراضية لطائرات الميج-٢١م.ف.، بسرعات تفوق سرعة الصوت وعلى ارتفاع ١٨كم، تزعج وسائل الدفاع الجوى الإسرائيلية وتجبرها على العمل. كانت طائرات التجسس تؤكد خصائص وأماكن تمركز وسائل الدفاع الجوى الإسرائيلية الجديدة من أجل ضمان أمان مواجهة طائرات الميج - ٢٥ب لوسائل الدفاع الجوى الإسرائيلية.

كان التفاعل مع العسكريين المصريين يتم بشكل عام بصورة حسنة، فقد كانوا يتعاملون معنا باحترام بسبب تضامننا وصداقتنا الحميمة، وكذلك بسبب مهارتنا الحرفية. كان يقوم مهندسونا وفنيونا بتعليم زملائنا من ميكانيكى الطائرات المصريين عمليا، بالإضافة إلى عملهم المتعلق بالقتال. فكانوا يتشربون المعرفة والخبرة من خبرائنا، كما تتشرب قطع الإسفنج بالماء. كان يوجد بكل طاقم اثنان من الميكانيكيين المصريين واثنان من جنود المحركات وبعد ستة أشهر، أصبح كل ميكانيكى خبيرا تتم الثقة به فى فرق الطيران المصرية، لكى يقوم بتجهيز طائرات الميج - ٢١ و السوخوى - ٧٦ للمعارك، بصفته فنى طائرات.و مازال حتى الآن يتذكر كل محارب سوفييتى ومصرى، ممن وحدتهم الحرب فى سبيل شرف واستقلال مصر، الآخرين، وما زالوا محافظين على احترامهم لبعضهم البعض.

كانت الرئاسة العليا لجمهورية مصر العربية تتعامل مع المحاربين السوفييت بشكل مختلف فى الأزمنة المختلفة. فكان جمال عبد الناصر يمارس سياسة متواصلة للصداقة مع الاتحاد السوفييتى. كما اهتم الوزير محمود فوزى براحة واستقرار القوات السوفييتية. وعند مطلع عام ١٩٧١ أظهر اهتمامًا ساذجًا، ولكن مؤثرًا، لكل العسكريين السوفييت فأهدى كيسًا من الحلويات لكل منهم. وقد قامت علاقات عمل وود رائعة بين الفريق طيار دولنيكوف ج. أ. ومن بعده الفريق أول طيار خارلاموف س. إ. مع قائد سلاح طيران جمهورية مصر العربية اللواء حسنى مبارك، رئيس جمهورية مصر العربية الحالى.

بعد وفاة رئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبد الناصر تولى الحكم أنور السادات، الذى قام تدريجيا بتغيير الاتجاه السياسى للبلد نحو أمريكا بدلا من الاتحاد السوفييتى.

وقد توقع بعض الضباط المصريين، فى الأحاديث المغلقة، انتهاء صداقتنا. بالطبع فقد أخطأوا من حيث إنه يمكن للسادات القضاء على صداقة شعبينا، ولكن ظهرت بعض الصعوبات المحددة. فقد أصبحت الأجهزة السرية تظهر اهتمامًا أكبر نحو عسكريينا، خاصة نحو القادة.

فى عام ١٩٧١، و فى أثناء غيابى، جرت محاولة لتفتيش حجرتى بالفندق. ولم يتمكنوا من ذلك، بسبب أوضاع معينة. وقد حدثت بعض التوجهات المعادية للسوفييت.

بدأ أحد طيارى المقاتلات من ذوى الخبرة فى المعارك الحربية، حيث إنه أسقط طائرة أو طائرتين إسرائيليتين، يسىء الحديث عن الطيارين والخبراء السوفييت: "إنهم لم يحاربوا منذ ربع قرن، فما الذى يمكن أن يعلمونا إياه؟ كان ضمن قادة هذا اللواء العقيد ف. بتروف. كان مقاتلا بالفطرة. وبالمناسبة، فى عام ١٩٥٥ كان معلما بالمعهد العالى للطيران بمدينة تشيرنيجوف[٢١] وعلمنى قيادة الطائرة ميج - ١٥، و جعل منى طيارا مقاتلا. ثم تقابلنا أنا وهو بجمهورية مصر العربية بعد ١٥ عامًا. سمع ف. بتروف هذا اللغو، فنصح قائد اللواء بالتخطيط لمعركة جوية تدريبية فوق مطار نفس هذا الطيار المصرى ومعه. كان يوجد الكثير من الإثارة فى مشاهدة هذه المعركة. التقت المقاتلتان فى مسارين متقابلين فوق منتصف المطار على ارتفاع ٣٠٠ متر. بدأت الساقية فى الدوران. كان الاثنان عنيدين ويتمتعان بالإصرار. تمكن بتروف من اصطياد غريمه، حيث إن خبرته كانت أكبر، عندما سمح الأخير بانخفاض سرعته. ارتفع إلى الأعلى كالصقر وكان مستعدا لتوجيه ضربة حاسمة، ولكن أراد الطيار المغرور القيام بالمستحيل، وكانت النتيجة أن انفصل........ و مات الطيار.

أدت روح الاستفزاز إلى تقديم قيادة قوات الدفاع الجوى المصرية اقتراح حماية طيارات التجسس المصرية سوخوى - ٧ب التى كانت تقوم بتصوير حالة بناء الإنشاءات الدفاعية بسيناء باستخدام إمكانيات آلاى المقاتلات رقم ١٣٥. كانت الموافقة تعنى مخالفة أمر القيادة السوفييتية بعدم الطيران خلف خليج

---

(٢١) مدينة بجمهورية أوكرانيا السوفييتية.

السويس، بينما كان الرفض يعنى إعطاء مبرر لتأكيد أن الروس برفضهم تقديم المساعدة يعتبرون حلفاء لا يعول عليهم. اضطررنا للتصرف بمكر والاتفاق على الوضع التالى: تقوم زوج من المقاتلات المصرية بحماية طائرات التجسس المصرية، وفى حالة الخطر تعود طائرات التجسس والمقاتلات المصرية إلى أرضها وتسحب وراءها الإسرائيليين إلى فخ، حيث يقابلها السرب السوفييتى، فيوفر حماية طائرات التجسس. وتم الاتفاق على ذلك. ولكن لم يتم الاستمرار فى ذلك، فطارت طائرات التجسس بدون أن تصاحبها أية مقاتلات.

باقتراب خريف عام ١٩٧١ كانت الأمور كلها قد اتضحت أكثر، حيث إن تطور الأحداث قد سار فى اتجاه الحل السلمى للأزمة. وفى عام ١٩٧٢ أصبحت لا توجد حاجة لقواتنا، فعادت إلى الاتحاد السوفييتى.

لقد مرت ثلاثون سنة، ولكنى حتى الآن عندما ألتقى صدفة بمصريين، ما زلت أسمع تقييمًا عاليًا لعمل العسكريين السوفييت من مختلف التخصصات، وكذلك الأسف بسبب الاختبارات الصعبة التى مر بها المواطنون الروس والاتحاد السوفييتى العظيم ككل.

لقد كنا نشعر تماما بحب واحترام البسطاء، الذين كانوا سذجًا قليلا، ويظهرون الثقة بشكل كامل، ولكن أحيانا كنا لا نفهمهم تماما. كان قليلا ما يذهب عسكريونا إلى المدن وإلى التجمعات السكنية. كان ذلك يحدث فقط عندما تكون هناك حاجة، فكنا نذهب فى مجموعة لا تقل عن ثلاثة أفراد بملابس مدنية. لم يكن ذلك خوفا من الشعب المصرى، ولكن من نوايا المخابرات الإسرائيلية، حيث إنها كانت قد حددت لنفسها هدفا يتمثل فى اختطاف أى من العسكريين السوفييت. وحسب معلوماتى لم يتم خطف أى ضابط أو رقيب أو جندى سوفييتى، كما أنه لم يبق أى أحد منهم فى الخارج.

حدث فى ذات مرة، أن قامت القوات الخاصة الإسرائيلية بالاستيلاء على محطة رادار ب ـ ١٢ وفكها ونقلها إلى سيناء أمام أحد الآلوية المصرية. كما سمعنا أن الإسرائيليين قاموا أيضا بعملية تفتيش وهم متنكرون فى هيئة نقطة تفتيش من الشرطة العسكرية المصرية، فأوقفوا الشخصيات اللازمة لهم، ونقلوهم إلى الأسر بمروحيات.

كانت هناك محاولة لتدمير مراكز القيادة وأهداف المطار الاحتياطى "بير أريد". ففى عام ١٩٧١ عبرت ثلاث مروحيات إسرائيلية، تحمل مجموعة من القوات الخاصة، خليج السويس، فى ظلام المساء، ودخلت إلى أعماق وادى الزعفرانة، داخل أراضى جمهورية مصر العربية، وهبطت على بعد ١٠ ـ ١٢كم من مركز القيادة ببير أريدا. وعلى الرغم من أنهم طاروا على ارتفاع منخفض جدا، وكانت التضاريس صعبة جدا، فإن جنودنا بمركز القيادة قد اكتشفوا الطائرات فى الجو وتابعوا مسارها، وأخطروا نقطة قيادة اللواء عن مكان وموعد هبوطها فى وقت مناسب. لقد أخبرنا القيادة المصرية بما حدث. قرر قائد الآلاى توجيه ضربة إلى المروحيات وإلى مجموعة القوات الخاصة وهى على الأرض بالمدافع الرشاشة بواسطة سرب آلاينا. كان يلزم من أجل تنفيذ هذه المهمة أن تقوم قاذفات سلاح الطيران المصرى بإسقاط قنابل مضيئة فوق الهدف. ولكن للأسف لم يعثر فى المطار على قنابل جاهزة للاستخدام، فبدأنا فى الطيران فوق مكان هبوط المروحيات بطائرات فردية على ارتفاع ٢٠٠ متر، محاولين اكتشاف الهدف. وقد شارك مؤلف هذا العمل بنفسه. الليل فى مصر مظلم جدا، فذهبت جهودنا سدا.

ولكننا على الرغم من ذلك منعنا الهجوم على نقاط القيادة، فقد فهم العدو أنه قد تم كشفه، فهرب على عجل. وقد اكتشفت مجموعة البحث المصرية التى تم إرسالها فى الصباح أن العدو قد زرع الألغام على طريق هروبه.

كان يبدو كما لو أن السير فى طرق مصر فى وقت الحرب صعب، فقد كان يوجد على الطريق من بنى سويف إلى القاهرة خمس نقاط تفتيش، وكان يتم فى كل منها التفتيش على بطاقات الهوية بجدية تامة، ولكن كان يكفى أن نشير بأيدينا بود من النافذة صائحين: "أنا خبير روسى"، حتى كانت ترفع الحواجز من أمامنا. وكان يمكن للعدو أن يقوم بنفس الشيء!

وبالمناسبة، كان الطيارون الإسرائيليون، الذين يتم إسقاطهم، يتظاهرون بأنهم روس، حتى لا يقوم السكان المحليون بتقطيعهم، حيث إن السلطات المصرية كانت قد رصدت مكافأة مالية كبيرة لمن يقوم بتسليم طيار إسرائيلى، حيا أو ميتا. وكان تفكير السكان كما يلى: "لماذا التعامل مع شاب قوى والمخاطرة بالحياة، إذا كان من الممكن قتله، أوتشويهه، حيث إن حجم المكافأة المالية لم تكن تنقص بسبب ذلك.

وكان يحدث فى حالات نادرة، عندما كان ينتقل طيارو التشكيلات القيادية من مطار إلى آخر بزيهم الأزرق، وبينما كانت تخفض سرعة سير السيارات فى المناطق السكنية لتماثل سرعة سير الحمير، كانت تجرى زمرة من الأطفال يصيحون: "طيار روسى!". كان الأطفال الإسبان يجرون بنفس الطريقة خلف طيارينا بإسبانيا فى الثلاثينيات(٢٢)، فقد كنا بحق أمميين!

كنا على اتصال وطيد بوطننا، فقد كنا نتلقى الأخبار من أصدقائنا وعائلاتنا وأقاربنا مرتين أسبوعيا. وكانت ترسل لنا تقريبا كل الجرائد المركزية، وتقريبا بدون أى تأخير. وقد تم إنشاء مكتبات ضخمة فى الفنادق التى نقيم بها. كنا نقرأ الكتب فى أوقات الفراغ. وكان يتم توفير وسائل الدعاية لنا بشكل رائع: مراكز الإذاعة فى كل مطار، كمية كافية من آلات عرض الأفلام السينمائية... فقد كنا نشاهد الأفلام السينمائية على شاشة عريضة بمطار بنى سويف، كما كانت توجد آلتا عرض فى المطارات الأخرى، وآلة واحدة فى كل مراكز القيادة. كان توفير الأفلام منظما بشكل رائع. فكنا نحصل عليها من مصدرين: من السفارة السوفييتية بالقاهرة ومن وحدات أسطول البحر الأسود الموجودة بالبحر الأبيض المتوسط.

كنا نشاهد الأفلام السينمائية يوميا، إذا كان الوضع يسمح بذلك، وكانت فى الغالب جديدة وشيقة. كانت توجد أجهزة ترانزيستور وأجهزة تسجيل تقريبا عند الجميع، فقد كانت متوفرة فى الأسواق بجميع أنواعها اليابانية والأوروبية.

لم تكن تنسانا الأجهزة المركزية لوزارة الدفاع وسلاح الطيران الحربى. كانت القيادة العامة السياسية للجيش السوفييتى ترسل لنا مجموعة كاملة من الآلات الموسيقية، بناء على طلبنا. وكانت توجد دائما مواهب بين صفوفنا. وبذلك لم تكن الأتربة تغطى الآلات الموسيقية فى مصر.

كان يجب على الطيارين ممارسة التمارين الرياضية لكى يكونوا دائما فى حالة بدنية جيدة. لم تكن تنظم دروس التربية البدنية فى ظل درجة الحرارة التى تصل إلى +٤٩ درجة مئوية فى الظل، فى شمال إفريقيا، ولكن كان تقريبا الجميع

---

(٢٢) كان الاتحاد السوفييتى قد ساعد عسكريا المقاتلين الإسبان ضد نظام فرانكو.

بقومون بالتمرين بشكل فردى. فكان يتم عمل تمرين البطن على التخت، وعمل التمرينات باستخدام الأثقال للمحافظة على الحالة البدنية، كما كان يتم القفز بالحبال كالأطفال. كنت من بين القليلين الذين يمارسون الجرى، حيث إنى أرى أنه أفضل وسيلة للتدريب على التحمل ولتحميل جهاز القلب والأوعية الدموية. كم كان ذلك رتيبا، بل عذابًا! عثرت على حل غير عادى، فقد عثرت صدفة فى القاهرة على "أطلس طرق السيارات بالاتحاد السوفييتى"، وقد كان ذلك مناسبا لى، حيث إنى كنت أخطط لشراء سيارة بعد عودتى من هذه المهمة. وأدى الاطلاع عليه إلى أن خطرت على بالى فكرة شيقة. قمت بتحديد خط السير من موسكو إلى لنينجراد على ورق مربعات بمقياس ١مم: ١كم. موسكو، لأننا طرنا منها، وسوف نعود إليها. أما لنينجراد، فهى بلدى الأم، وقد بقيت بها أسرتى. وقد بينت على خط السير المدن والقرى والأنهار والعلامات الأخرى التى تثير الاهتمام. تتبعت خط السير، وكنت كلما أقابل مدينة ألجأ فورا إلى دائرة المعارف السوفييتية الكبيرة، حيث كان من الشيق معرفة كل شىء عنها. وقد أعجبنى ذلك، فعبرت فى ٣٦٥ يومًا حوالى ١٢٣٩كم. أمددت المسار على طرق "كاريليا"(٢٣) ولكنى كنت أنتهى دائما بميدان "دفارتسوفايا". لم أكن أتمكن من الجرى يوميا، حيث كانت توجد طلعات طيران، ونوبات خدمة، كما أن حالة الجو كانت أحيانا تعاكس انتظام ممارسته. لم تكن تسقط الأمطار ولا الثلوج فى مصر، كما كان لا يوجد بها جليد، ولكن توجد بها رياح الخماسين ـ عواصف ترابية مع فترات توقف، وتستمر لمدة خمسين يوما. كان الحد الأقصى للمسافة التى أجريها ١٦كم فى اليوم. والحد الأدنى ١كم. وبفضل الجرى حافظت على حالتى البدنية الجيدة، وتمكنت بشكل أسهل من تحمل الأحمال الزائدة.

كانت القيادة المصرية تقوم فى شهور الصيف باستئجار قصر بالمصيف الرائع "المعمورة"، قرب مدينة الإسكندرية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وتحوله إلى مستوصف وقائى لكى يستجم به ضباطنا ولاسترجاع قواهم. كان المستخدمون الذين يقومون بالخدمة به أربعة أفراد، وكان يرأسهم رئيس عرفاء متطوع للخدمة، تخصصه "تمرجى". كان يرأس ثلاثة جنود يقومون بطهى الطعام

(٢٣) منطقة فى شمال غرب الاتحاد السوفييتى، على الحدود مع فنلندا.

وتقديمه، كما كانوا يقومون بالأعمال الأخرى. كان يستريح بالمستوصف عشرة ضباط فى وقت واحد، منهم أربعة طيارين. وكانت مدة الراحة ٧ أيام. كان يستريح الطيارون مرتين فى السنة. كانت بالفعل أيام جميلة، عندما كان يمكننا الاسترخاء، والاستحمام، والرقود تحت أشعة الشمس لاكتساب اللون البرونزى. كان يمكن هنا نسيان الحرب، لو لم تكن توجد بطاريات مدافع مضادة للطائرات منصوبة هنا، والتى كانت تقوم بالتدريب على الإطلاق من مكان التمركز على أهداف توجه لاسلكيا تطير فوق البحر، وكانت تهبط بواسطة مظلة مباشرة فى موقع المدفعية المضادة للطائرات.

لم يحالفنى الحظ بعض الشىء، حيث إنى لم أتمكن من الاستراحة إلا مرة واحدة فى شهر يولية عام ١٩٧١ .كان يستجم، فى نفس الوقت معى، كل من قائد السرب النقيب أوليج باراخين والنقيب رشيتكو، وللأسف نسيت اسمه الأول. كنا سعداء بالراحة، كما اكتسبنا اللون البرونى وتمتعنا بالسباحة. لم تكن توجد حواجز حدية على بلاج المعمورة، فقد كان كل فرد يقدر قدرته، كما لم نر غرقى، ولكن احتاج بعض المستحمين إلى مساعدة من الآخرين. بالمناسبة، من النادر أن يسبح المصريون بعيدا. عامة، فإن الأجانب هم من يخاطر، حيث يشجعون أنفسهم بالمشروبات المحفزة.

ولكن خسارتنا التى لحقت بنا بعد أسبوعين من الاستجمام على شاطئ البحر الأبيض المتوسط كانت جسيمة.

ففى يوم مشمس طار كل من باراخين ورشيتكو على طائرة تدريب لاستكشاف الجو من مطار كوم أوشيم قبل بدء طلعات طيران تدريبية. لم يكن أحد يتوقع المأساة. انتهت رحلة الطيران، وعاد الطاقم على ارتفاع ١٠٠٠ متر بمحاذاة بحيرة قارون إلى مطارهم. أفاد أوليج عبر اللاسلكى بأن" الجو مشرق بدون غيوم، والرؤية تزيد على ١٠كم، سوف نطير بالأسلوب البسيط". وبعد خمس ثوان تماما سأل قائد الطيران الطاقم عن ارتفاع الاقتراب، ولكنه لم يتلق إجابة من أى أحد. حتى العاملين فى محطة الرادار لم يلاحظوا اختفاء علامة الطائرة من على الشاشة. سقطت الطائرة فى بحيرة قارون، واستقرت أجزاء هيكلها على عمق ٨ أمتار. لم يكن عندنا أفراد من الضفادع البشرية أو أية وسائل خاصة، لذلك لم

نتمكن من تحديد السبب الحقيقى للحادثة. كان ما تمكن منه رجال الضفادع البشرية المصريون، رفعهما إلى السطح، وهما بملابسهما الخفيفة، قليل. وشكرا لهم لأنهم رفعوا بقايا الطيارين. كنا نعرف أن الفقيدين من الطيارين الملتزمين، لذلك لم نفكر فى حدوث عملية مخالفة النظام فى الجو. على الأحرى، أخذ حياتهما حادث مأسوى صدفة.

طارت طائرة نقل عليها الحمولة الحزينة واتجهت إلى الوطن، حيث كانت تنتظرها أسرتا وأقارب زميلينا. لا يستطيع أحد مواساة أهالى، أو أرملتى أو أبناء الفقيدين. كان حزنهم بلا حدود.

على الرغم عنى، وأنا أتذكر هذه الأحداث بعد ٣٠ عامًا، يجىء إلى ذهنى تساؤل: "هل عشنا كل هذه الصعوبات وهذا الحرمان هدرا؟ هل ذهبت هذه الضحايا هدرا؟ فقد أدى الفراق الطويل إلى هدم بعض الأسر، كما أن الكثيرين دمروا صحتهم.

لا، لم يكن ذلك هدرا! فمساعدتنا واشتراكنا أعادا التوازن العسكرى فى المنطقة. وقد أدينا واجبنا العسكرى بأمانة وبشرف.

لقد أصبح الكثير من الضباط، الذين عاشوا الاختبار بالشرق الأوسط، قادة طيران كبار. فقد رأس الفريق أول دولنيكوف ج. أ.، عندما كان نائبا للقائد الأعلى لسلاح الطيران، لأعوام طويلة تدريب كوادر طيران سلاح الطيران السوفييتى. أما الجنرالان كوروتيوك ك. أ. وناستنكو ى. ف. فقد عملا بمراكز مسئولة بإدارة التفتيش العامة بوزارة الدفاع. أما مؤلف هذه المذكرات، فقد أحيل إلى الاحتياط فى نوفمبر ١٩٩١، عندما كان نائبا لرئيس طيران قوات الدفاع الجوى للبلد لشئون التربية السياسية. وقد أصبح بعض الطيارين طيارين اختبار، يعملون بإصرار، ويشاركون فى صناعة معدات الطيران، وغالبا، لا ينسون مصر فى أى يوم.

فى أثناء حماية السماء فوق مصر

أ. ف. بينا

مصر... دائما عندما أنطق هذه الكلمة أتصور بلد الأهرامات المصرية العظيمة وأيضا رمال الصحراء الليبية التى ليس لها حدود، وكذلك نهر النيل العظيم.

عندما كنا ندرس فى المدرسة فى كتاب التاريخ "مصر"، لم أكن أتصور قط، أننى سوف أذهب فى يوم من الأيام إلى هذا البلد المثير، وأننى سوف أرى بنفسى معالمه. كما أنى لم أكن سأصدق قط إذا قال لى أحدهم آنذاك إنك يا أندريه فاسيليفيتش سوف تعلم الطيارين المصريين الطيران على نوع جديد من الطائرات المقاتلة ـ القاذفة السوفييتية. ولكن كان ذلك هو المقدر لى، بصفة خاصة.

كنت قد عدت لتوى مع أسرتى من خليج "شامور" (بالقرب من مدينة فلاديفستوك) فى يوم مشمس من شهر يونيه ١٩٧٢ بسيارتى "الفولجا"، بعد أن أمضينا به أيام الإجازة بشكل رائع. وفى تلك السنوات كانت مثل هذه الرحلات إلى حضن الطبيعة شيئًا معتادًا.

لم أكن قد وضعت السيارة بعد فى الجراج، إلا وكان قد حضر إلى نائب رئيس القسم السياسى بالآلاى لاهثا، وقال لى فورا: أندريه فاسيليفيتش، لقد وصلتنا برقية مشفرة. عليك أن تجمع أغراضك وأن تسافر غدا فى العاشرة بالطائرة إلى خاباروفسك. فقد تم تكليفك بالسفر فى مهمة طويلة إلى إحدى البلاد الحارة. وسوف تحصل على معلومات أكثر تفصيلا فى مركز قيادة القوات الجوية".

كنت قد تعودت فى خلال فترة خدمتى الطويلة بالقوات المسلحة الجوية على مختلف الأشياء المفاجئة، ولكنى رأيت لأول مرة هذه العجلة لقيامى بالسفر فى مهمة، بالإضافة إلى كونها طويلة. لم يكن يوجد عمليا وقت للتفكير. تحدثنا أنا وزوجتى "عما يمكن أن نفعله بعد ذلك"، وفى اليوم التالى ذهبت إلى المطار ومعى حقيبة سفر صغيرة مرتديا زيًا مدنيًا غير معتاد بالنسبة لرجل عسكرى. كان قد وصل إلى هناك أيضا اثنان من العاملين معى ـ خبيران من المهندسين الفنيين، وقد طارا معى، هما أيضا.

وصلت الطائرة القادمة من مدينة خاباروفسك بدون تأخير. وقد استغرق الصعود إليها دقائق معدودة. انطلقنا من ممر الطيران والهبوط بالمطار فى تمام الساعة العاشرة. كنت قد انطلقت من هذا الممر وهبطت عليه مئات المرات فى خلال خدمتى بالشرق الأقصى لمدة عشر سنوات. لم يكن يدرى أى منا المدة التى سنبتعد فيها عن أسرنا ورفاقنا وعن حاميتنا التى أصبحت تمثل أسرتنا.

بدأت طائرتنا الأنتينوف ـ ٢٦ فى الارتفاع ببطء ولكن بثقة متجهة إلى خاباروفسك. كان يخيم الصمت على الصالون. فكان كل منا ينظر بشكل منفصل من النافذة وهو جالس بشكل مريح فى مقعده. حتى الشطرنج، الذى يمثل أحد لوازم طائرات النقل العسكرية، لم يستعمل فى هذه المرة. كان الجميع مستغرقين فى تفكير صعب عما ينتظرنا، والى أى بلد حار سوف يتم إرسالنا، وما الذى سوف نعمله هناك بالتحديد؟

بالنسبة لى شخصيا، كان أكثر ما يؤرقنى هو التفكير فى نوع المهمة "فى الخارج" التى سأكلف بها، ومدى نجاحى فى القيام بها؟..

اقتربت الطائرة فى ذلك الوقت من خاباروفسك، وسمح لنا بالانخفاض والهبوط. توقفت الطائرة بسرعة، وبعد ١٥ ـ ٢٠ دقيقة كنا فى صالون الاستقبال بقيادة الفرقة المنفصلة الأولى للقوات الجوية.

استقبلنا بطل الاتحاد السوفييتى الفريق طيار بازانوف بيتر فاسيليفيتش بحرارة، وبدون تضييع أية دقيقة بدأ يتحدث عن المهمة التى كلفنا بها.

اتضح أن مجموعتنا من خبراء الطيران والمكونة من ١١ فردا سوف تسافر قريبا إلى جمهورية مصر العربية لتدريب كوادر الطيارين والفنيين على النوع الجديد من طائرات س-٣٢ .و كان يوجد طيار واحد بين كل هذه المجموعة، هو مؤلف هذه السطور. كانت مدة المهمة هى ٦ شهور. وقد تم تعييني أنا، نائب قائد آلاى فى ذلك الوقت، رئيسا للمجموعة.

وجه القائد انتباهنا بشكل موجز إلى سمات أدائنا للمهمة الرسمية، وعبر لنا عن ثقته فى نجاحنا فى أداء الأهداف التى كلفنا بها وفى أننا سوف نعود إلى بيوتنا بعد نصف سنة تماما. وقد برر الفريق بازانوف ب.ف. السبب فى عجلة المهمة بأن الطائرات التى سوف يطير عليها الطيارون العرب قد وصلت إلى نصف طريقها إلى مصر فى حالة نصف مجمعة، وعندما يجمعونها هناك، يجب أن نكون نحن أيضا هناك.

فى نفس هذا اليوم، أخذتنا طائرة إل - ٣٢ من خاباروفسك إلى موسكو. وهكذا بدأت المهمة المصرية التى تركت لدى ذكريات حسنة جدا، على الرغم من أنها لم تكن سهلة على الإطلاق.

كانت كل من المهمة والهدف منها، كما يقولون، واضحين بشكل عام لكل منا، على الرغم من وجود عدد كبير من الأمور غير المفهومة. كان أهم سؤال من بينها هو كيف سوف نقرأ المحاضرات وكيف سنقدم الدروس الأخرى، بينما لا نعرف اللغة العربية، كما أن رجال الطيران العرب لا يعرفون بدورهم الروسية؟ قيل لنا إنه سيكون هناك مترجمون روس. ولكن تبين لنا فيما بعد أن هؤلاء المترجمين عبارة عن فتيان من الشباب الذين سافروا إلى مصر للتدريب كطلبة، وكان من الصعب عليهم فهم المصطلحات الفنية الخاصة بالطيران، حتى ولو باللغة الروسية، حيث إنه كان من المطلوب فيما بعد الترجمة للطيارين باللغة العربية أو بالإنجليزية.

عامة، كان يدور فى رأسى سيل من الأفكار المقلقة، على مدى الستة أيام من الإعداد الخاص التى أمضيناها فى موسكو. كان ما يطمئننى بعض الشىء هو أنه منذ عام بالتمام مضى، كان على تنفيذ مهمة رسمية بأفغانستان ضمن مجموعة من ثلاث طائرات طراز سوخوى Cy - 7 bMk ، حيث شاركت فى عرض جوى

احتفالا بيوم استقلال هذا البلد. كانت تلك المهمة مهمة جدا كالمهمة الحالية. فقد كان علينا العبور فوق الميدان الرئيسى لمدينة كابول على ارتفاع ١٥٠ مترًا وسرعة ١٠٠كم/ ساعة ضمن التشكيل الاستعراضى (٣٤ طائرة متنوعة). توجد هنا تفصيلة مميزة تتمثل فى أنه تم تحديد ارتفاع ١٥٠م حتى لا يرفع الملك محمد ظاهر شاه رأسه ويخفضها فى أثناء مشاهدة طيراننا، أى أن ارتفاع طيراننا كان متعلقًا تماما باتجاه نظر الملك. ولكنى لست واثقا حتى الآن أن الملك أصدر هذا الأمر. ولكن يبدو أن ذلك كان بمبادرة من عدد من أفراد حاشية الملك.

لم تكن مسألة المحافظة على السرعة هى ما تقلقنا، فذلك شىء بسيط جدا، ولكن الانخفاض من ارتفاع ٥ آلاف متر إلى ١٥٠ مترًا على بعد ٥ ـ ٦ كم من الميدان الرئيسى بكابول، فى ظل طبيعة المكان الجبلية، لم يكن سهلا... و لم يكن بلا خطر.

كنا نخرج بعد كل من طلعات الطيران التدريبية (كانت خمسًا) من القمرة ونحن نتصبب عرقا. ولكننا نجحنا بامتياز فى أثناء العرض. لذلك تمت مكافأتنا بهدايا ثمينة قدمها لنا الأفغان وقيادتنا.

ولكن فى ذلك الوقت لم يكن علينا تعليم أى أحد، فكنا مسئولين عن أنفسنا فقط، حيث كنا نعرض إمكانيات معداتنا وقدراتنا الشخصية. أما الآن، فى مصر، فيجب علينا نقل معرفتنا وخبرتنا إلى كوادر الطيارين والفنيين بجمهورية مصر العربية، لذلك كان يوجد ما يمكن التفكير فيه.

فى آخر يوم، قبل سفرى إلى القاهرة، عرجت على القيادة العامة لقوات الطيران الحربى لكى أستوضح نهائيا بعض الأمور المتعلقة بالمهمة. بعد عدة لقاءات ومناقشات مثمرة مع الكثير من المتخصصين، تم نصحى بضرورة لقاء العقيد لافرانتيف يفجينى ألكسييفيتش. استمر نقاشنا لمدة ساعة ونصف. وقد أفادنى كل ما قاله لى هذا الشخص العظيم، ليس فقط فى مصر، ولكن أيضا خلال كل فترة خدمتى بعد عودتى من المهمة. كنت أحصل منه على إجابات واعية على كل أسئلتى. وقد أوضح يفجينى ألكسييفتش قائلا: "عندما تصل إلى مصر، تصرف هناك طبقا للموقف".

وبذلك فقد أحس كل خبير من أعضاء مجموعتنا، بعد هذا الإعداد القوى بموسكو، بأنه قد "تعود" على الظروف بمصر، على الرغم من أنه بقيت الكثير من النقاط غير واضحة حتى ذلك الوقت.

هكذا جاء يوم السفر. ذهبنا إلى مطار شريميتيفا، واجتزنا إجراءات الجمارك بسرعة. قفل خلفنا آخر باب فى الحدود، وعلى الرغم من أننا كنا مازلنا بموسكو، فإننا أحسسنا بأننا خارج الحدود. بعد ذلك صعدنا بطريقة عادية إلى طائرة إل - ٦٢، واستمعنا إلى الإرشادات القصيرة من مضيفة الطائرة، ثم جاء الانطلاق الذى انتظرناه طويلا.

بالطبع لم يدهش أيًا منا الطيران فى أثناء خط سيرنا فوق أراضينا، ولكن عندما أخبرتنا المضيفة بأننا نطير فوق عاصمة تركيا أنقرة، نظر الجميع باهتمام كبير من خلال النوافذ. وبعد فترة وجيزة لمعت عن بعد فى الأسفل رقعة مياه زرقاء داكنة - واستمر طيراننا فوق البحر الأبيض المتوسط.

لقد أدركنا أن طائرتنا تقترب من مصر عندما رأينا عن بعد السمات المميزة لشكل ضفة البحر الأبيض المتوسط.

بدأت الطائرة بعد فترة قصيرة فى الانخفاض، فرأينا الصحراء الرملية الليبية ممتدة من تحتنا بدون أى علامات مميزة لوجود حياة بها. كنا مشغولين بمشاهدة المكان فلم نلاحظ كيف اقتربنا من الهبوط على الأرض. بعد ذلك لامست العجلات الأرض بشكل لم نكد نشعر به وسارت طائرتنا على ممر الطيران والهبوط... بالقاهرة.

بعد أن سارت الطائرة إلى مكان وقوفها، كانت مجموعتنا هى أول من خرج منها. لاحظ الجميع فورا وقوف سيارة مصفحة مموهة على يسار الطائرة، يجلس عليها حوالى عشرة جنود ممسكين برشاشات، كانت فوهاتها موجهة لنا تماما. أعترف بأنى لم أشعر بالراحة لذلك. جاء إلى فكرى: "يا له من استقبال!". ولكن فى الحقيقة، أوضحوا لنا فيما بعد أن فريق الجنود بالمصفحة يؤدى واجبه فى حماية الركاب من أى عمل تخريبى ممكن.

استقبلنا ممثل الجانب السوفييتى بمبنى مطار القاهرة، وأوصلنا بسيارة أوتوبيس إلى الفندق الذى كان عبارة عن مبنى ضخم رمادى على أطراف القاهرة.

اقترب اليوم من المساء، فتناولنا "ما أرسله لنا الله" على العشاء، وغاب جميع أفراد المجموعة فى سبات عميق.

فى صباح اليوم الثانى تمت دعوتنا للذهاب إلى مركز قيادة سلاح الطيران الحربى المصرى، حيث أمرنى كبير المستشارين بطل الاتحاد السوفييتى اللواء طيار دولجاريف بافل ميخايلوفيتش، واللواء طيار زاجاينى بافل ألكسييفيتش بوضع برنامج إعادة تأهيل كوادر طيارى وفنيى جمهورية مصر العربية لقيادة الطائرة "س - ٣٢" فى خلال أسبوع، وتقديمه إلى قيادتنا والقيادة المصرية لاعتماده.

عندما تم الانتهاء من وضع البرنامج ومناقشته مع الرفيقين دولجاريف ب.م. وزاجاينى ب. أ.، ذهبنا معا إلى رئيس أركان حرب قوات سلاح الطيران الحربى فى ذلك الوقت حسنى مبارك لأخذ موافقه عليه. وكانت هذه هى أول مرة ألتقى فيها بالرئيس الحالى لمصر.

عند دخولنا إلى المكتب الفسيح المؤثث جيدا، جذب انتباهنا كلنا الرجل الوسيم القوى البنية الجالس إلى المكتب بزيه الحربى ذى لون القهوة بعلاماته المميزة. قام بسرعة من على المكتب وحيا كلاً منا بحرارة. وبعد أن اقترح علينا كلنا الجلوس سألنا عما نرغب شربه - شاى أم قهوة. عبر اللواء دولجاريف ل. م. عن رغبة الجميع بدون حتى أن يسألنا وطلب لنا شايًا.

انتهينا من هذه العادة المصرية وانتقلنا إلى العمل.

عامة أعجب حسنى مبارك ببرنامج إعادة التأهيل. كان موضحا بها واجب كل من خبرائنا المسئولين عنه. بعد اطلاعه على الوثيقة، طلب حسنى مبارك فى كل يوم من أيام الشهر. بكلمات أخرى، لم تكن هذه الوثيقة تعكس فقط ما يجب عمله، ولكن أيضا متى يجب تنفيذ كل نقطة، ومن المسئول عنها. بعد اطلاعه على البرنامج، اقترح حسنى مبارك تقصير فترة إعادة التأهيل بعض الشىء؛ حيث إننا

لن نتعامل مع ملازمين من الشباب ولكن مع طيارين من ذوى الخبرة، فبعضهم قادة وحدات بل وتشكيلات.

وافقنا على ملاحظات رئيس هيئة أركان حرب قوات سلاح الطيران الحربى المصرى، ثم تم بعد ذلك الاعتماد النهائى لبرنامج إعادة التأهيل. وهنا أثير بشكل جاد موضوع اختيار المطار الذى سوف يتم فيه إعادة تأهيل كوادر الطيارين والفنيين. وقد طرح علينا اختيار أحد مطارين: "جناكليس" أو "بلبيس"، كان كلاهما متساويين من حيث مناسبتهما للطيران. كانت ظروف الحياة بمطار بلبيس أفضل كثيرا، فهنا كان قد مُنح كلية لخبرائنا فندق صغير ولكنه مريح يتكون من طابقين، حيث كانت به ثلاجتان كبيرتان وموقد غاز وعدد كاف من الحجرات المنفصلة التى يمكن فيها الاستراحة جيدا. وبالإضافة إلى كل ذلك كان يوجد حمام سباحة رائع بمطار بلبيس، وكان يمثل سببًا أساسيًا أثر على الاختيار النهائى لمكان إعادة التأهيل.

بذلك كنا قد انتهينا من كل الإجراءات التنظيمية، وبدأنا فى إعادة التأهيل عمليا.

جرت عملية إعادة التأهيل نفسها طبقا لقوانيننا، أى أننا قمنا بتجهيز متدربينا بمعلومات نظرية كاملة، ثم عقدنا لهم اختبارات، وبعد ذلك فقط سمحنا للطيارين بالطيران وللفنيين والمهندسين بخدمة طائرات س ـ ٣٢.

فى الوقت الذى كان المهندسون مشغولين فيه بالدراسة النظرية، كان على القيام بنقل الطائرات من مطار جناكليس، الذى تم تجميعها به، إلى مطار بلبيس. وقد تلقيت فى أحد أيام شهر يوليو الأمر بنقل أول طائرة تم تجميعها. وحيث إننى لم أكن مقيما بمطار جناكليس فقد كان يتم نقلى من القاهرة إلى مطار جناكليس بطائرة صغيرة تسع فردين تحمل اسما مدويا "جمهورية"، كلما كنت أقوم بنقل طائرة.

كان فريق تجميع الطائرات ينتظر وصولى بلهفة، حيث إنه كان يتم، بشكل ما، تقييم عمله بعدد الطائرات المجمعة التى كانت تنطلق إلى الجو. بعد اللقاء السار مع فنيى المصنع على أرض مصر أعلن فنى الطائرة بأنها جاهزة للطيران. لم أضيع أى وقت، فقمت بفحص الطائرة كما هو مفروض، ثم وقعت بسجل الاستلام.

بعد جلوسى فى القمرة، بدأ قلبى يدق بسرعة، حيث إنه خيل لى أننى جالس فى الطائرة بمطار فى وطنى، الذى سافرنا منه منذ فترة غير بعيدة لبدء مهمتنا. ولكن هذه الذكرى كانت لمدة ثانية، وتبخرت بسرعة. كان يجب بدء تشغيل المحرك والتحرك على ممر الطيران، وليس فقط الانطلاق، ولكن أيضا لعرض كيفية طيران الطائرة المقاتلة ـ القاذفة السوفييتية مع شكل الجناح المتغير.

كنت مدركا تماما أنه لم تكن عيون خبرائنا وخبراء المصريين وحدها، هى التى تراقب هذا الانطلاق الأول للطراز الجديد من الطائرات، ولكن غالبا كانت هناك أيضا عيون "خفية" تراقب.

انتهى سيرى على ممر الانطلاق، فطلبت منحى الإذن بالطيران وفى نفس الوقت شغلت المحرك بأقصى سرعة له. سمعت بسماعة الخوذة "مسموح بالطيران". حررت الفرامل فبدأت طائرتى الجميلة فى الجرى بسرعة. مرت ثوان معدودة قمت بعدها برفع أنف الطائرة فانطلقت فورا مرتفعة عن ممر الطيران والهبوط. كنت أزيد زاوية الانطلاق إلى حدها الأقصى مع زيادة السرعة. وتقريبا عند نهاية الممر، كانت الطائرة قد وصلت إلى ارتفاع يزيد على ألف متر و (لو شاهدناها من على الأرض) كما لو كانت ذابت فى ضباب الصباح الكثيف.

"حافظ على ذلك!" ـ كان ذلك أمرًا قصيرًا جاءنى من مركز قيادة الانطلاق، وهو كان يعنى أن "الانطلاق كان ممتازا".

وصلت إلى ارتفاع ٤٠٠٠ متر، واتجهت إلى مطار بلبيس. ها أنا لأول مرة وحدى أحلق فى سماء مصر. خيل إلى أنه لا يوجد هناك فرق فى أى سماء أطير. ولكن على الرغم من ذلك يوجد فرق، فعندما تطير فوق حقول وغابات وجبال وبحار وطنك، تشعر بدفء أنفاس الوطن وبفخره بأبنائه، الذين يشقون المحيط الخامس.

بالطبع تؤثر التضاريس الرتيبة لأراضى مصر على الحالة المعنوية بشكل ليس هو الأمثل. طرت بدقة من الغرب إلى الشرق. كانت تظهر على الجانب الأيسر من مسارى، من خلال ضباب كثيف، تجمعات سكانية صغيرة مفرقة، أما على اليمين فكانت صحراء رملية ليس لها حدود. حضرت إلى ذهنى بطريقة عفوية كلمات الأغنية التى تقول: "لا أرغب فى الشاطىء التركى، كما أننى لا أرغب فى إفريقيا".

أعطانا الوضع الرتيب انطباعًا بأن الطائرة لا تطير بل إنها معلقة فى الهواء. ولكن فقط صوت عمل المحرك المميز وومضات مصابيح الإشارة المتعددة كانت تبين وحدها أن الطائرة فعلا تطير. كانت ساعة لوحة القيادة تبين بدقة الوقت طبقا للتوقيت المحلى وزمن الطيران من مطار جناكليس. بعد عشر دقائق من الطيران، اتصلت بمطار بلبيس. حصلت على تصريح بالانخفاض إلى ارتفاع ٥٠٠ متر، وبأن أقوم باستهلاك الوقود الزائد فوق المطار، ثم أقوم بالهبوط. ولكن قبل الهبوط على الأرض كان عليّ عرض "البضاعة نفسها"، أى أنه كان من الضرورى استعراض قدرات الطائرة س ـ ٣٢ أمام الطيارين الذين كانوا (وكنت واثقا من ذلك) ينتظرون بلهفة وصول الطائرة الجديدة. كنت قد فكرت فى ترتيب هذا الاستعراض مسبقا.

بعد التعرف على المطار الذى توجد صورة دقيقة له بقمرتى، مررت على يمين الممر لمشاهدة تفاصيل المكان بوضوح من مداخل إلى الممر وترتيب مختلف الإنشاءات بالمطار ومكان تجمع الأفراد. ثم بعد ذلك وعلى بعد تقريبا ٢٠ كم من المطار بدأت فى الانخفاض إلى ارتفاع صغير وضبطت درجة انحناء الجناح على ٦٠ درجة وانطلقت بأقصى سرعة بين ممر الطيران والهناجر. ثم أعدت الاقتراب باتباع نفس المسار ولكن هذه المرة باستخدام أقل زاوية للأجنحة (٣٠ درجة) وأقل سرعة.

الاقتراب الثالث تم باستخدام زاوية ٤٥ درجة، استجمعت أقصى سرعة وقمت بعمل نصف دورة حول نفسى.

بعد الهبوط على الأرض والسير بالطائرة حتى موقفها تبين أننى أصبحت قريبا جدا من قلب الطيارين وفنيى الطائرات المصريين. لم يكن من الصعب أن أتبين من وجوههم أن هذا العرض الصغير بالطائرة قد ترك عندهم انطباعًا حسنًا. فورا طرحت على هنا الكثير من الأسئلة عن الطائرة ومعداتها، وعن نظمها المختلفة وتسليحها. كان موعد الغداء وحده هو ما قطع هذا اللقاء العفوى.

انتهى بذلك أول يوم طيران لى فى مصر. وبعد ثلاثة أيام، تمكنت من نقل طائرتين أخرتين. فكما يقال سار العمل على أكمل وجه. كان على طائرة الربط "الجمهورية" العمل بكامل طاقتها. كان ينقلنى إلى مطار التجميع الطيار نفسه.

ولكن عندما حان وقت نقل سابع طائرة س ـ ٣٢ أعطونى طيارا آخر لقيادة طائرة الربط "الجمهورية".

حضرت إلى الموقف فى الموعد المحدد تماما، حيث كان "الجديد" فى انتظارى، وهو يتمشى ببطء أمام "الجمهورية". قمت بتحيته وفهمت فورا أنه لا يعرف أية كلمة روسية. لم يكن فى ذلك أى شىء غريب. ما لم يعجبنى فيه كان شيئًا آخر، شيئًا من الثقة الزائدة بالنفس ومن التصنع. كان يرفع إصبعه الكبير تقريبا بعد كل كلمة قائلا: "أوكى". فى العادة لا يفضل مثل هؤلاء الطيارين فى مجال الطيران.

جلسنا فى القمرة، وقام الطيار فورا بتشغيل المحرك. ثم استدار نصف دورة ونظر لبعض الوقت فى اتجاه مركز قيادة المطار، وكما لو كان موافقا هز رأسه. كان ذلك "مثل السينما الصامتة"، حيث كان يعنى: "يؤذن لكم بالطيران!". سألت الطيار بالإشارة: "هل لا يوجد جهاز اتصال لاسلكى بالطائرة؟". هز رأسه مبتسما، أى فعلا لا يوجد.

انحرفنا إلى ممر السير، أدار الطيار المحرك بأقصى سرعة وانطلق. طبقا لمفاهيمنا كان يعتبر هذا الانطلاق متهورا إلى أقصى درجة، ولكن يبدو أن ذلك كان شيئا عاديا طبقا لقوانين البلد الذى نحن فيه.

طرنا تقريبا أول ١٥ دقيقة إلى الشمال تماما بمحاذاة الضفة اليسرى لنهر النيل. بقى النهر الجبار بضفتيه الأخضرين وراءنا. أصبحت الطائرة الجمهورية تخرج تدريجيا مع كل دقيقة إلى الصحراء الليبية الخالية من الحياة. أينما نظرت، ترى فقط ضبابًا أرضيًا كثيفًا ورمالاً رمادية.

كنت أعرف مسار وزمن الرحلة إلى مطار جناكليس، وبالطبع كنت فى أثناء هذه الرحلة أنظر إلى بوصلة الطائرة وإلى ساعة يدى. كان من المدهش أن قائد "الجمهورية"، بعد خروجنا من "منطقة الحياة"، أى من منطقة النيل، كان ينظر كثيرا إلى الأرض وهو يميل بحدة، طائرتنا الصغيرة "بطيئة الحركة" مرة إلى اليسار، ومرة إلى اليمين. وفى أثناء ذلك لم يكن فعليا يوجه انتباهه إلى مؤشر الاتجاه. أصبحت الطائرة تنحرف إلى اليسار بعيدا عن المسار المحدد. جاءت إلى

رأسي فكرة: "هل يدرك الطيار مكاننا؟" ولكن يوجد قانون غير مكتوب عند الطيارين: إعطاء قائد الطاقم توصيات ونصائح، وبالأحرى أوامر من أى شخص - يعنى إظهار عدم اللياقة، ومسًا لكبرياء الطيار. وهذا يماثل أن يقوم الراكب بتعليم سائق السيارة الأجرة كيف يجب أن يسير. ولكن عندما آن الأوان لكى نكون زمنيا نقترب من مطار جناكليس، ولم يكن قريبا بعد، هنا اضطررت لمخالفة اللياقة. حاولت بمشقة تذكر الكلمات اللازمة من مخزونى الفقير من اللغة الإنجليزية، وسألت الطيار وأنا أشير إلى الخريطة:"أين نحن الآن؟" . هز كتفيه. اختفت تماما كل ثقته بنفسه وتفاؤله. ندمت فى تلك اللحظة على أننى لم أعط قط دراسة اللغة الإنجليزية اهتمامًا جادًا.

تبين لى أن قائد الطائرة قد فقد الاتجاه تماما، فقررت تولى القيادة بنفسى. سألته: "هل يكفى الوقود للوصول إلى القاهرة؟" . أشار برأسه إيجابيا. أشرت له بيدى لكى يستدير إلى اليمين ويطير عائدا. لم يعارض الطيار. وهنا، وفى أثناء الدوران تمكنت من أن ألمح بطرف عينى أولا جزءًا من ممر السير، ثم بعد ذلك ممر الطيران والهبوط بمطار جناكليس. هنا أشرت بذلك إلى الطيار. فرح لدرجة أنه كاد أن يندفع خارج القمرة. هنا اندفع بحدة إلى اليسار وأخذ يقترب من الممر وهو ينخفض للهبوط. فى تلك اللحظة مرت طائرة مقاتلة من طراز ميج - ٢٥ من خلفنا بسرعة كبيرة. الله وحده يعرف كيف لم نصطدم بها. أخيرا اقترينا من ممر الهبوط. يبدو أن قائد الطاقم قد نسى، فى ظل الأحاسيس التى شعر بها، أن يقلل من سرعة المحرك وحاول الهبوط على الأرض. ولكن الطائرة "الجمهورية" الذكية حلقت مرتفعة بسرعة على ارتفاع ٥ أمتار من الممر. فقط بعد ذلك أدرك "السائق" الأمر، وخفض سرعة المحرك، وهبطنا على الأرض، كما يقولون فى مجتمع الطيارين"على ثلاث نقاط، كل منها على انفراد" . بعد السير إلى الموقف وإيقاف المحرك، جلس الطيار صامتا لبعض الوقت، ثم كأنما عاد إلى رشده، شد على يدى بقوة.

مرت على ذلك حوالى ثلاثين سنة، ولكنى حتى الآن ما زلت مستغربا، كيف كان من الممكن أن يستعد هذا "الطيار المرح" للطيران وأن يقوم به بهذه الصورة السيئة؟. أكد هذا الحادث مرة أخرى القاعدة الحتمية التى تقول بأنه يجب

الاستعداد لأى طلعة طيران بجدية تامة، حتى عندما تنوى الطيران على طائرة بمثل بساطة "الجمهورية".

جرى نقل باقى الطائرات من مطار جاناكليس إلى مطار بلبيس بدون أية مشاكل.

وبينما كنت أقوم بنقل الطائرات، كان الخبراء المهندسون ـ الفنيون بالمجموعة قد حققوا تقدما كبيرا فى مجال الإعداد النظرى. وهنا يجب الاعتراف بحق كل زملائى من حيث حبهم للعمل، فقد كان كل منهم، وهو يقوم بعمله مع كوادر الطيارين أو الفنيين، ولا يبخل بجهد أو بوقت وهو يحقق الأهم ـ جودة تعليم "الدارسين". وفى هذه المرحلة ظهر كما توقعنا حاجز اللغة.

حضرت إلى أول محاضرة ألقيها على كوادر الطيارين ومعى مترجم ـ "إنجليزى". وكنا قد استعددنا جيدا جدا للعمل، ولكن على الرغم من ذلك فقد أحسست، منذ بداية المحاضرة تماما، بأن الطيارين يتقبلون الترجمة بصعوبة. كان مترجمنا يبذل كل جهده لاختيار الكلمات الإنجليزية اللازمة، ولكنها لم تكن تصل دائما إلى الهدف. فهم أحد الطيارين المصريين أنه من الصعب علينا الاستمرار فى المحاضرات فقام قائلا بلغة روسية غير سيئة بالمرة:"سيدى ينا، اقرأ حضرتك المحاضرة وليس هناك داع للترجمة، فنحن نفهم الروسية أحسن مما نتكلمها". ابتسم كل المستمعين، أما أنا والمترجم فتنفسنا الصعداء. بعد ذلك، كنا نعمل فى المحاضرات فى وجود مترجم بالضرورة، ولكنه عادة كان موجودًا فى "نظام نوبة".

هنا أحب الإشارة إلى أن الطيارين المصريين محبون جدا للمعرفة، فقد كانوا يدرسون أى نظام طائرة، وأى جهاز بعمق، وبدقة، بل يمكن أن أقول بدقة عالية. لذلك فعندما كنا نختبرهم فى مجال الإعداد النظرى، كان من الصعب جدا منح أى منهم تقدير مقبول. كان كل منهم يستحق تقدير "امتياز" أو "جيد".

كانت اختبارات البرنامج النظرى تتم وثائقيا، وكان يتم عرضها على الرئاسة المصرية وعلى كبير مستشارينا. وكان يسمح للطيارين بالطيران على الطائرات الجديدة من طراز س ـ ٣٢ عن طريق تلك الوثيقة.

انتقلنا إلى الطيران بدون عمل استراحة بين البرنامج النظرى والبرنامج العملى. كنت متشوقا لمعرفة كيف سيقوم المصريون باستخدام المعلومات النظرية التى حصلوا عليها منا عمليا.

يجب أن أقول إن تقريبا كل زملائى المصريين كانوا من الطيارين ذوى الخبرة. فقد كان ضمن الثمانية عشر فردًا الذين تم اختيارهم لإعادة تأهيلهم للطيران على الطائرة "س - ٣٢" قائد فرقة، ونائب قائد آلاى، واثنان من قادة الأسراب مع نائبيهما، ورئيس تدريب ضرب نار جوى وتكتيكى. أما الباقون فكانوا قواد أجنحة.

قبل الطيران الفردى على الطائرة الحربية كنت بالضرورة أصاحب كل طيار مصرى فى الطيران على طائرة تدريب حربية (يقودها اثنان معا)، وأقيم طيرانه الفردى بأنه صالح.

تمكنا فى أول يوم من الطيران من إطلاق ثلاثة طيارين منفردين. وقد بينوا مدى ارتفاع مستوى تدريبهم على الطيران فى أثناء عملية قيادة طائرات التدريب الحربية. لم يقم كل منهم فقط باستخدام معدات الطيران بوعى. بل أنهم كانوا "يحسون" بالآلة، وكأنهم سائق خبير يشعر بالطريق. بالطبع كان لكل طيار من الذين تم اختبارهم حيود ضئيل فى بعض مراحل الطيران، ولكن كل هذه الأخطاء لم تكن، كما يقولون، تعد مخالفة للإرشادات، ولكن على الرغم من ذلك فقد كنت أحاول تحليل الأخطاء حتى الصغيرة بدقة بعد كل طلعة طيران.

وهنا أريد توجيه انتباه القارئ إلى إحدى السمات المميزة للطيارين المصريين: كانت ردود فعلهم شديدة على الملحوظات التى كان يقدمها المعلم بعد طلعة الطيران. وكان الخبراء السوفييت الذين عادوا إلى بلدهم بعد انتهاء مهمتهم قد حدثونى عن ذلك. وقد أخذت هذه المعلومة فى الاعتبار، ولكنى تمسكت، كما فى السابق، ومازلت متمسكا الآن بنفس الموقف، وهو أنه فى أثناء تعليم (إعادة تأهيل) أى طيار (وليس فقط مصريًا) يجب أن يكون هناك مبدأ واحد للتعامل من حيث تحليل الأخطاء التى وقعت، ومن ناحية أخرى يكون هناك احترام كبير لمتلقى التعليم. ولا يجب فى أى حالة من الحالات، عند تحليل أخطاء المتدربين، السماح بأى فظاظة أو زعيق، وبصفة خاصة، بأى إهانة للطيار. ليس فقط لأن

هذا رجل سماء، ولكن الأهم هو أن مثل هذا التحليل "الجرىء" لن يجلب أى شىء غير الضرر. إن الرأى المنتشر بين بعض رجال الطيران بأنه كلما وبخت المتدرب أكثر، وبشكل أقوى، كلما تعلم بشكل أسرع، هو رأى خاطئ تماما ويدل على عدم كياسة هذا "المعلم" بدرجة كبيرة.

وأنا أعتقد أنه يجب، فى أثناء تحليل الطيران الاختبارى، أن ينطلق ذلك من النوايا الحسنة من جانب المعلم، وأن يجتهد لمساعدة المتدرب لكى يفهم بعمق كل خطأ. وإذا لزم الأمر يجب أن يظهر تعاطفه، وأن يضع نفسه مكان المتدرب.

هذا الأسلوب بالذات، الذى اتبعته فى التعامل مع رجال سلاح الطيران المصرى، هو الذى ساعدنى على أن أقوم بتحليل أخطاء المتدربين بنبرة هادئة، بدون المساس بكبريائهم الحرفية. فقد كنت كثيرا ما أضطر أن أقول، على سبيل المثال: "السيد أشرف! عامة لقد قمت بالطيران جيدا، ولكن سوف يكون من الأحسن من ذلك لو قمت برفع الطرف الأمامى للطائرة بشكل أكثر سلاسة عند انطلاقك، وإذا قمت بلم العجلات قبل ذلك بقليل. وفى حالة تنفيذ الحركات الرأسية من الضرورى زيادة الحمل المطلوب بشكل أقوى، وإلا فإنه سيحدث فقد كبير للسرعة فى الجزء الأعلى من الحركة...".

مضى الوقت، وغرقنا حتى رءوسنا فى العمل وأصبحنا بشكل ما لا نلاحظ لا الحر ولا قلة الراحة، كما لم يبق مكان لانقباض النفس. طار بسرعة شهر ونصف من مدة المهمة، وكأنها ساعة ونصف. كان كل الطيارين المصريين قد قاموا بالطيران بمفردهم وكانوا يقتربون بنجاح من الجزء الأهم من البرنامج ـ استخدام الطائرة "س ـ ٣٢ "فى القتال.

اقتنعت من مناقشاتى المتعددة مع رجال الطيران أن الطائرة المقاتلة ـ القاذفة الجديدة س ـ ٣٢ قد حازت إعجابهم، فقد كانوا يطيرون عليها باستمتاع كبير. وقد أعجب الطيارون المصريون بأن أجنحة الطائرة كانت متحركة، أى أنه كان يمكن تحريك زاويتها فى الهواء بين ٣٠ و ٦٠ درجة. بفضل ذلك أصبح الطراز الجديد من طائرات س ـ ٣٢ ذات حمولة ١٨ طنًا والتى تطير بسرعة تفوق سرعة الصوت تتحول عند الانطلاق والهبوط على الأرض إلى "آلة تسير ببطء". ولكن كان أكثر شىء أعجب الطيارين هو نظام تكييف الهواء فى القمرة، فقد كانت

درجة الحرارة فى الشارع ٢٥ ـ ٣٠ درجة مئوية، أما داخل القمرة فقد كان الهواء باردا لطيفا، حيث إنه كان يمكن للطيار ضبط أية درجة حرارة يريدها بالضغط على مفتاح "بارد ـ ساخن".

ولكن عندما بدأنا عملية تدريب الطيارين المصريين لم نشك قط فى أن نظام التكييف المحترم سوف يتسبب لنا كلنا فى مشاكل كثيرة. كان يتمثل ذلك فى أنه لكى يعمل هذا النظام بشكل طبيعى، كان يجب ملأ خزانه بخمسة لترات من مخلوط الكحول مع الماء بنسبة ٦٠٪ كحول و٤٠٪ ماء.

وفى أحد أيام الطيران المعتاد، كان أول من سار على الممر وانطلق إلى الجو هو المقدم حازم. وبعد لم العجلات أخبرنا عن طريق اللاسلكى بصوت مرعوب: "رائحة قوية للكحول بالقمرة! اسمحوا لى بالهبوط فورا!!". كان مشرف الطيران السوفييتى المقدم كونوبليف ج.ف. موجودا بمركز قيادة الإطلاق بجانب المشرف العربى، فقال للطيار: "ارتدِ قناع الأكسجين، تحول إلى الأكسجين النقى، استهلك الوقود واتجه للهبوط". هدأ السيد حازم بعض الشىء، ولكنه هبط بسرعة. لم يكن قد انتهى الطيار بعد من السير، وقام بفتح نافذة القمرة لكى يتنفس بسرعة هواء نقى. عندما وصل إلى الموقف، انطلق المقدم حازم كالرصاصة مندفعا خارجا من القمرة. كنا قد اقتربنا أنا والمشرف على الطيران فى تلك اللحظة من الطائرة. كان وجه قائد السرب شاحبا تماما. تبين مما عرضه أن بعد انطلاقه ولمّ العجلات، وفى أثناء خفض سرعة دوران المحرك أحس فجأة برائحة الكحول المنفرة. وهنا شعر فورا بالغثيان، ولكنه تمكن من ارتداء قناع الأكسجين.

تم فورا إبلاغ قائد الآلاى عن هذا الحادث فاستدعانى إلى مكتبه وقال لى إنه طالما لن يتم تحديد سبب هذا الخلل لن يتم السماح بإطلاق أية طائرة إلى الجو.

كان هذا النوع من قرارات القيادة المصرية بالنسبة لخبراء مجموعتنا وممثلى المصنع، كما يقال، ضربة تحت الحزام. عندنا فى الاتحاد السوفييتى لا يتم حتى الانتباه إلى مثل هذه الملحوظة عن رائحة الكحول، ولكن هنا فى مصر، حيث يتم اتباع قانون منع شرب الخمور بجدية، فإن مثل هذا الحدث قد هز كل أفراد الطيران.

كان الموقف يتطلب تصرفا فوريا. وبعد تحليل عميق للأسباب الممكنة لهذا الخلل فى اجتماع لممثلى المصنع وخبراء مجموعتنا، والذى اضطررنا للدعوة إليه فورا بموقف الطائرات، توصلنا إلى نتيجة تفيد بأن الصمام الرئيسى لنظام التكييف الذى يقوم بالتحكم الآلى فى توصيل "الكحول المخفف" إلى المبخر أصيب، على ما يبدو، بعطل. تم حل هذا الصمام من الطائرة، وتبين أنه كان تقريبا مسدودا تماما بالرمال وبمختلف الأوساخ. تم "التحفظ" على هذا الصمام بحرص، وكما يقال، تم عرضه على الرئاسة بحالته الأولية وعلى أفراد الطيارين والفنيين بالآلاى.

تم حل كل نظم الصمامات من كل الطائرات تحت إشراف خبرائنا وتم تنظيفها وغسلها بعناية، ثم أعيد تركيبها مرة أخرى بالطائرات. وبالإضافة إلى ذلك تم تركيب مرشحات تنظيف فائق بالقمع الذى يتم من خلاله صب مخلوط الكحول والماء إلى القربة. استهلكنا يومين ثمينين، بالنسبة لنا، من أجل تنفيذ كل هذه الإجراءات. خرجت المجموعة جزئيا عن البرنامج الزمنى المخطط، واضطررنا للبحث عن وسائل إضافية من أجل الدخول مرة أخرى إلى النظام الموضوع.

بعد اكتشاف وإصلاح سبب عمل أجهزة تكييف الهواء فى القمرة بصورة غير طبيعية، اقترحت قيادة سلاح الطيران الحربى المصرى اختيار أى طائرتين واختبار عمل أجهزة التكييف بها فى الجو. كان على أن أطير بالطائرة التى ظهرت بقمرتها رائحة الكحول، أما الطائرة الأخرى فيطير بها طيار آخر اسمه حازم. وفى رحلة الطيران التالية كان علينا تبديل الطائرتين.

ها أنا على ممر الانطلاق. لم أرتد قناع الأكسجين، عن قصد. أدرت المحرك بكامل سرعته، وحررت الكابح، ثم انطلقت. كان كل انتباهى موجهًا لظهور رائحة الكحول، ولكنها لم تظهر. كان نظام التكييف يعمل بدقة كالساعة، وقد عرضت تقريرى عن ذلك على المسئولين على الأرض.

طار حازم بعدى. لم تكن لديه هو أيضًا أية ملحوظات على عمل النظام. وبعد تبديل الطائرتين والقيام بالطلعة الثانية تم رفع الشك "فى الرائحة" من برنامج اليوم. وفى نفس هذا اليوم تم طيران الطيارين المصريين من جديد. تنفسنا الصعداء، ولكن تبين أن ذلك ليس لفترة طويلة.

تقريبا بعد حوالى أسبوع ونصف أصبحت ترد إليَّ تقارير وجلة عن ما يبدو أنه ما زالت أحيانا توجد رائحة كحول خفيفة.

قال لى أحد الخبراء من المصنع عندما عرف عن ذلك: "أندريه فاسيليفيتش، أليس من الأحسن تعليم الطيارين المصريين شرب مخلوط الكحول مع الماء بدلا من البحث مرة أخرى عن سبب الرائحة فى القمرة؟". ولكن المزحة هى مجرد مزحة، أما شك الطيارين فى وجود رائحة كحول فقد زاد.

وفى أحد الأيام السابقة للإجازات استدعانى قائد الآلاى فاروق إلى مكتبه وقال لى فى مناقشة ودية إنه مازال ينتاب الطيارين بعض القلق فى أثناء طيرانهم، فهل من الممكن إزالة الكحول تماما من الطائرات؟ كان هذا السؤال جادا، فاتخذنا قرارًا عن طريق سفارتنا بالاتصال بموسكو. وصلتنا وثيقة من هناك بسرعة تفيد بأنه يمكن فى البلاد التى تكون فيها درجة حرارة الهواء الخارجى مرتفعة أن يتم استخدام الماء المقطر العادى فى نظام التكييف.

نقلنا هذه الوثيقة بسرعة إلى القيادة المصرية، فشكرتنا. ولكن على الرغم من ذلك طلبت منا كضمان أن نصعد بطائرة إلى ارتفاع كبير (حيث من المعروف أن درجة الحرارة تكون هناك منخفضة جدا) فإذا لم تتجمد المياه فى القربة، لن تكون لدى الجانب المصرى أية اعتراضات على معداتنا.

تشاورنا مع خبراء المصنع، فتوصلنا إلى أنه فى خلال "رحلة الطيران الخاصة" المقترحة، يجب أن يكون كل شىء على ما يرام، وأنه فى حالة تجمد المياه فى القربة فإنها ستترشح، وسوف تسيل المياه التى بها بسهولة بنزول الطائرة إلى ارتفاع منخفض.

وفى أثناء الإعداد إلى هذه الطلعة الحساسة تجمع عند الطائرة تقريبا كل أفراد وفنيو الآلاى. كان انتباه الجميع موجهًا إلى نظام قربة ماء جهاز التكييف. يبدو أنهم كانوا خائفين من أن الخبراء الروس سوف يخدعونهم ويملأون القربة بخليط من الماء والكحول بدلا من الماء المقطر العادى.

وقعت فى الصحيفة اليومية لاستلام الطائرة، وقمت بتشغيل المحرك كما هو معتاد، وراجعت عمل كل الأنظمة ثم سرت على ممر الطيران. كان نظام التكييف

يعمل بامتياز، ولكن كان هناك إحساس بزيادة الرطوبة فى هواء القمرة. بعد انطلاقى بالطائرة، بدأت فى الارتفاع بالدوران فوق المطار. كان كل شىء طبيعيا. كانت المعدات تعمل بدون أية مشاكل. قمت بوضع الطائرة فى وضع الطيران أفقيا على ارتفاع ١١٥٠٠ متر وقمت بتغيير نظام تشغيل المحرك عدة مرات. كان نظام التكييف يعمل بصورة طبيعية. أخطرت الأرض بذلك، ثم قمت بخفض الطائرة مع أقصى معدل فقد للارتفاع. طرت فوق المطار على ارتفاع ٥٠ مترًا، ثم قمت بنصف دورة كالمعتاد، ثم بدأت فى الهبوط على الأرض.

خيل إلى بعد أن سرت إلى الموقف أن رجالنا ورفاقنا المصريين لم يتحركوا من مكانهم طوال هذه الدقائق الثلاثين "من الاختبار" بعد أن قاموا بتوصيلى للطيران.

بعد إيقاف المحرك، وقبل أن أغادر القمرة، تعلق "القوم" بالمكان الذى توجد به قربة سائل التبريد بمقدمة الطائرة، وفتح فنى الطائرة، بدون استعجال، غطاء مدخل زور القربة، كما لو كان يختبر قوة أعصاب الموجودين، وبعد ذلك غطاء الزور نفسه. اقتنع الجميع بأن القربة سليمة وأنه لم يصبها أى ضرر وأن استهلاك الماء فى الرحلة كلها كان تقريبا مثله مثل استهلاك مخلوط الماء والكحول.

وبذلك تم حل "مشكلة الكحول" نهائيا وبلا رجعة.

دخل العمل فى الطيران إلى مرحلة طبيعية. كان الطيارون المصريون يتقدمون بثقة طبقا برنامج إعادة التأهيل، أما نحن الخبراء السوفييت، فكما لو كنا تحولنا عمليا إلى فئة المستشارين. أصبحت ملحوظات أى طيار عن عمل معدات طيراننا تقريبا فى حوز كل الخبراء. وكانت تتم معالجة أى خلل فى وجود ضرورى للفنيين والمهندسين المصريين. كان ذلك نوعًا من تثبيت النظرية عمليا. ولكن لم تمر عملية معالجة ملحوظات المصريين بدون حالات طريفة.

ففى ذات مرة وفى خلال ذروة عمليات الطيران أفادنى الرائد نبيل بعد عودته من منطقة القيادة بأنه فى خلال قيامه بإحدى المناورات الصعبة وفى أثناء عملية زيادة طفيفة للحمل على الطائرة يدخل هواء كثير إلى بذلة الطيار المقاومة

للحمل الزائد، ونتيجة لذلك يشعر الطيار بآلام شديدة بعضلات رجليه ومنطقة بطنه. ولم تؤد محاولة الطيار لإعادة ضبط رأس منظم دخول الهواء على وضع الحد الأدنى إلى أى تغيير ـ فلم يكن من الممكن تحريكها من مكانها.

استدعيت الخبير بهذه المعدة النقيب ن. يامشيك وأمرته بفحص المعدة وبإصلاح الخلل بها، وإخطارى بالوضع.

مرت خمس دقائق ثم حضر إلى النقيب يامشيك بمظهر المذنب قائلا: "أندريه فاسيليفيتش، لا أستطيع إصلاح هذا الخلل، حيث إن المعدة التى بها خلل قد تم تسليمها لآخرين منذ وقت وجيز". صعقت. سألته بغضب "و لكن هل تم تسليم معرفتك مع المعدة لآخرين؟!". ولكن أصر النقيب يامشيك على موقفه.

مر الوقت، وتم تزويد الطائرة بالوقود وبالمكونات الأخرى، وكنا مازلنا مستمرين فى حديث صريح. اضطررت لتذكير النقيب المحترم أين نحن وما المهمة التى نقوم بها. ولكن ذلك أيضا لم يساعد. فى تلك اللحظة مر بجانبنا خبير معدات لاسلكى الطائرة النقيب ن.نيكيتين. بالفعل لم تكن له أية علاقة بالمعدة التى بها خلل، ولكنه عرف بسرعة موضوع "حديثنا" فطلب السماح له بفحص المعدة الشؤوم. فى عدة ثوان تمكن نيكيتين من تحديد أنه يوجد على رأس منظم دخول الهواء مسمار قلاووظ تم ربطه بشكل زائد. كان من الكافي أن يتم حل هذا المسمار الصغير بعمل دورتين حتى تعمل رأس المنظم كالساعة.

جلس الرائد نبيل فى قمرة حاملة الصواريخ وطار إلى الموقع من أجل التعود على أسلوب القيادة.

كنت أتوقع، فى نهاية نوبة الطيران، أن يعترف ن.يامشيك بخطأه وأن يقوم بالاعتذار، ولكنه لم يفعل. فقد كان واثقا من أن تصرفه كان سليما. وكان من الواضح أنه يحاول تغطية سلبيته فى الوقت الحرج بالالتزام بالنظام، وبالقيام بمسئولياته بدقة، تلك المسئوليات التى تنص عليها الدوريات الخاصة.

بالطبع فإنه تتم كتابة أية تعليمات من أجل أن يتم تنفيذها. ولكن فى رأيى أن أية تعليمات تراعى، كما هو متوقع، أن يتم تنفيذ أحكامها بوعى. نعم، هذا صحيح، ولكن ليس من الممكن كتابة تعليمات لكل أحوال الحياة.

كانت الظروف التى كنا موجودين بها تضطرنا كثيرا إلى التصرف طبقا لرؤيتنا، طبقا للوضع. ولكن النقيب يامشين لم يفهم هذه النقطة.

نسينا بسرعة هذا الحادث المؤسف. كان كل اهتمامنا موجها إلى تنفيذ برنامج التأهيل. اسعدنا الطيارون المصريون بنجاحهم فى التمكن من الطائرة "س ـ ٣٢". كانوا يطيرون على هذه الآلة برضاء كبير. لم يكن من الممكن أن أجد لنفسى حتى الوقت للطيران حتى ولو فى طلعة واحدة، فقد كانت كلها مخصصة للطيارين المصريين. كنت أطير عامة فقط عندما كان يتم لسبب ما مهم تجنيب طائرة لعيب فيها، وكان بعد ذلك من المطلوب اختبارها. قد يبدو ذلك غريبا، ولكنى كنت أسعد لذلك.

كان كل أفراد المجموعة يعودون بسرور فى أيام العطلات الأسبوعية من بلبيس إلى "قاعدتنا" بالشقق فى القاهرة. يمكن أن أقول بصراحة بأننا كنا نستريح جيدا بعاصمة مصر، فقد كان يوجد فى الحجرات الفسيحة بالفندق المتعدد الطوابق الذى كنا نعيش فيه كل ما هو ضرورى: ماء ساخن وبارد، غاز، ثلاجة، أوانٍ منزلية، أثاث جيد إلى حد ما. كما كانت توجد مكتبة ممتازة بالطابق الأول بنفس الفندق، حيث كنا نقرأ بها بانتظام، الكتب الجيدة، وكذلك الجرائد والمجلات، التى لم تكن طازجة تماما، ولكن أوراقها لم تكن قد اصفرت بعد. كانت تصلنا هنا أيضا الخطابات التى كنا ننتظرها بشغف من روسيا، من زوجاتنا. وفى المساء كانت تعرض لنا بانتظام بدار السينما الصيفية أفلام سينمائية سوفييتية شيقة. وبالإضافة إلى ذلك كان يمكننا الذهاب فى رحلات إلى الأهرام المصرية الشهيرة، وإلى البحر الأحمر، وإلى أماكن أخرى. باختصار، كانت ظروف الحياة فى القاهرة بالنسبة لنا، نحن الطيارين، جيدة. وعندما تتم مقارنتها بظروف الجو الحار التى كان يعيش فيها أصدقاؤنا بسلاح الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات مع قائد كتيبتهم الذى أصبح الآن الفريق أول متقاعد سميرنوف ألكسى جريجوروفيتش، فيمكن أن تقولوا بلا جدال إننا كنا نعيش فى الجنة.

كانت تتمثل إحدى صور استجمام مجموعتنا فى التجول فى المدينة. فكنا نتجول فى مدينة القاهرة ببطء، كما لوكنا ننظر إلى أعماق التاريخ. شاهدنا آثار

الحضارة القديمة، وفى نفس الوقت ما هو حديث. كان من الواضح جدا تصنيف طبقات الناس إلى غنى وفقير. فالبعض يمتلك عدة سيارات مرسيدس ومحلات تجارية وفيلات، بينما يمضى آخرون الليل على الرمال تحت عربة كارو، ولم تكن وسيلة مواصلات الآخرين عبارة عن سيارات "مرسيدس" أو "تويوتا"، ولكن حضرة الحمار ذى الأذنين الطويلتين.

سافرت فى خلال خدمتى الطويلة بسلاح الطيران الحربى إلى كل من بولندا وتشيكوسلوفاكيا ومنغوليا وكوريا وأفغانستان، ولكنى لم أر بأى منها مثل هذه الفيلات الخاصة الجميلة، كما فى مصر. فهنا ليست الفيلا مجرد منزل خاص، ولكنها نوع من القصور، تم فيها تطبيق أحسن أفكار المعمار وأعمال البناء الدقيقة. تندهش مما يمكن أن يظهره الإنسان من ابتكار عند تصميم أى من مشاريع الفيلات، فكل منها يمثل نموذجا لفن المعمار. شاهدت عدة عشرات من الفيلات الخاصة وحاولت أن أجد اثنتين متشابهتين، ولكن عبثا... فلم أجد. بالطبع لا ترى حمارا بالقرب من مثل هذه الفيلات.

أما أكثر شىء لم يعجبنا فى عاصمة مصر فهى تلك الإعلانات اللحوحة بشكل يفوق العادة. لن أحكم على مدى إعجاب المصريين بها، ولكن كانت، ببساطة، تفسد مزاجنا. بالطبع من المطلوب الإعلان عن البضاعة، ولكن يجب أن يكون هنا أيضا، كما فى أى شىء آخر، إحساس بالحدود. وعلى العكس، إذا كان هناك إلحاح فى الإعلان، فقد تكون النتيجة عكسية، أى سلبية. وبالمناسبة فيبدو أن تليفزيوننا أصبح اليوم يحتل المركز الأول فى كوكبنا من حيث تكرار الإعلان. وكانت النتيجة هى أن الكثيرين ممن ناقشتهم فى هذا الموضوع يقفلون التليفزيون بمجرد رؤيتهم على الشاشة لكلمة "إعلان".

أريد أن أقول بضعة كلمات عن نظام العمل بالجيش المصرى، كان يبدو لنا فى أول أيام لنا بمصر، نحن الخبراء السوفييت أنه شىء وحشى أن يكون بالجيش اعتداء (من جانب الضباط على الجنود) وعقاب الجنود بطريقة "رقود - قيام" والعدو لفترات طويلة بكل العتاد العسكرى وحلق الشعر تماما... كانت كل هذه الظواهر الكريهة تصدمنا، ولكن لم يكن يحق لنا التحدث عنها مع أفراد جيش البلد الذى نقيم به، حيث إنها كانت أمورهم الداخلية. ولكن كانت مشاهدة كل

ذلك غير سارة على الإطلاق. فقط من المؤسف أننا عرفنا عن هذه الأمور متأخرين بعض الشيء، وأننا أصبحنا فى بعض الحالات كأننا مسئولون عن حدوث المشكلة.

أذكر أنه كان على الطيران فى إحدى المرات لفحص أسلوب قيادة أحد الطيارين المصريين لطائرة. أخبرنى بأن الطائرة جاهزة للطيران. كان علينا ضرورة فحص الآلة قبل الجلوس فى القمرة. فى أثناء فحص بدن الطائرة، لاحظت أن كل نصفها السفلى مغطى بنقط كبيرة وصغيرة من القطران. لم يكن يمكن أن يؤثر هذا "العيب" بشكل ملحوظ على عملية الطيران، ولكن أى طيار يحب الطيران بطائرة نظيفة. لذلك فقد قلت تلميحا: "إن بدن الطائرة متسخ"، كان رد فعل الطيار المصرى على ملحوظتى فظيعًا. اندفع خارجا من تحت الطائرة، واقترب عدوا من أفراد طاقم فنيى الطائرة الذى كان يقف فى صف واحد على يسار الطائرة وبدأ فى الصياح بهم بحيث إنهم بهتوا وكادوا أن يفقدوا وعيهم. وبعد ٥ ـ ٦ دقائق من التوبيخ، كان كل البدن يلمع كالمرآة. طرنا لتنفيذ المهمة بمنطقة الطيران، ولكن بقى لدى فى داخلى أثر غير مريح. كنت أقول لنفسى: "لم يكن يصح لى أن أتحدث عن هذا القطران البائس، فلم يكن سيحدث أى شىء غريب للطائرة إذا كانت قد طارت وهى متسخة".

فيما بعد عرفنا فى أثناء عملنا "أسلوب تقديم الملحوظات" واتبعناه حتى نهاية مهمتنا.

مضى الوقت بسرعة كبيرة.

انضرمت أواصر الود بيننا وبين الطيارين والفنيين المصريين، وساد بيننا جو من التفاهم التام المتبادل. كان هناك شعور بأن المصريين يتعاملون معنا باحترام، وكان ذلك أحد الصور المميزة المعبرة عن الشكر للخبراء، السوفييت على عملهم بتفانٍ.

كان رجال الطيران المصريين يدركون أنه يمكن التوجه إلى أى من خبرائنا للسؤال عن أى موضوع، وأن هذا السؤال لن يبقى أبدا بدون إجابة.

لقد تكونت علاقات ودية قوية بينى شخصيا وبين بعض الطيارين، لذلك لم أندهش عندما دعانى أحدهم (للأسف نسيت اسمه) إلى بيته فى القاهرة. بالطبع كنت أرغب فى رؤية كيف يعيش طيار مصرى، وكيف هى شقته...

بعد أن أخطرت رئيسى المباشر وناقشنا ذلك الموضوع معا، سمح لى بالذهاب إلى ضيافة الطيار المصرى، ولكن بشرط ألا أذهب وحدى، ولكن يجب أن يكون معى اثنان أو ثلاثة من خبرائنا.

جاء يوم الأحد. حضرنا إلى المكان المحدد بالقاهرة فى الساعة الثانية عشر. شاهدنا بعد دقيقة أو دقيقتين سيارة فاخرة سوداء تقترب منا، وقائدها (أى صديقنا الطيار) يدعونا للجلوس بها. يجب أن أشير إلى أن هذا الطيار كان أحسن الجميع فى التحدث باللغة الروسية، لأنه درس عندنا بالاتحاد السوفييتى الطيران على مختلف طرازات الطائرات.

تحركت السيارة، فاقترحت بناء على معرفتنا أخذ زجاجتين من أى شىء "للروح"، ولكنه رفض بشدة قائلا إننا لو فعلنا ذلك فإن والده سوف يتبرأ منه.

بعد ٧ ـ ٨ دقائق وصلنا إلى مدخل البيت الذى كان يعيش فيه هذا الطيار، وكنا قد فهمنا من الحديث أنه كان بيت والده. صعدنا درجًا حلزونيًا جميلاً، فوجدنا نفسنا فى ممر صغير به عدة أبواب على اليمين وعلى اليسار، ظهرت منها بعض رءوس سوداء صغيرة لأطفال، كما لو كان صدر لهم أمر. غالبا كانوا لأول مرة يرون رجالاً سوفييتًا. فتح دليلنا أول باب فى الممر، فدخلنا إلى حجرة صغيرة. كانت توجد منضدة فى وسطها حولها مقاعد وثيرة جميلة. وضع الطيار حزمة من الصور الفوتوغرافية على المنضدة وخرج من باب جانبى. عاد بسرعة حاملا صينية كبيرة جدا عليها كل شىء: لحم محمر ومسلوق، عيش طويل، وفطائر رائعة، تفاح، مشمش، وشمام. عامة، كل شىء إلا المشروبات الكحولية. بالطبع تبادلنا النظرات فيما بيننا.

تبادلنا الحديث ونحن حول هذه المائدة الثرية. قدمت لنا الصور، التى عرضت علينا، الكثير من المواضيع للمناقشة. كان صديقنا الطيار يروى بحماس "أين، ومتى" تم تصويرها. أثارت إحدى الصور اهتمامنا بشكل كبير. كان يظهر بها

رجل يبدو فى متوسط العمر ذو جسم رياضى وعلى كتفه غطاء عريض. كان ذلك والده فى شبابه. حيث كان قد ذهب إلى مكة للحج، وكانت الملابس التى عليه تدل على ذلك. كانت لهذه الصورة أهمية خاصة لكل العائلة.

لاحظ مضيفنا اهتمامنا الخاص بهذه الصورة، فقرر دعوة والده، لكى نراه فى الواقع، وليس فقط فى الصورة.

وهنا ظهر فى الباب رجل لم يكن من الممكن إعطاؤه أكثر من ٦٠ سنة مرتديا بذلة رمادية غامقة مضبوطة تماما عليه. خيل لنا أنه خرج لتوه من الصورة التى استمرينا فى مشاهدتها. سلم على كل منا بأدب جم، ثم سألنا كيف كانت رحلتنا إلى مصر بالطائرة، وعن مدى تأقلمنا مع المناخ هنا، وعما إذا كانت تعجبنا الحياة فى مصر، وهل سوف نبقى بها طويلا. لم يكن الأب يعرف أية كلمة من اللغة الروسية، لذلك كان ابنه يترجم حديثنا. استمر الحديث حوالى ٥ دقائق، وبعد ذلك انصرف متعللا بانشغاله (كان يملك محلاً تجاريًا). واصلنا الاحتفال، لم نكن فى حالتنا الطبيعية بدون مشروبات كحولية، ولكننا أمضينا الوقت بصورة جيدة. غادرنا هذه الحجرة المريحة فى حوالى الساعة الرابعة. لقد عرفنا الكثير عن حياة وواقع المصريين. فعلى سبيل المثال، لا يتزوج الشباب فى مصر "فورا" بعد أن تربطهم أواصر الصداقة. فيوجد عندهم نوع من "فترة اختبار المرشح للزواج وهو يتعلق فقط بزوجة المستقبل.فبعد أن يتفق تماما العريس مع الفتاة التى يرغب فى الزواج منها، يخطر والديه. فإذا كان الوالدان غير معارضين، فإن العروسة تنتقل إلى بيت العريس "و تمر بامتحان مدى نضجها". وتظهر الفتاة فى خلال فترة الاختبار مدى قدرتها على الانسجام مع أهل العريس، وتقوم بأعمال النظافة المنزلية وبطهى الطعام... باختصار، تقوم بكل ما يلزم حتى تنضم للحياة "فى بيت عائلة العريس". تعيش فى حجرة منفصلة، وتتعامل فقط مع أفراد الأسرة، التى ينتمى إليها زوج المستقبل. وتستمر فترة الاختبار لمدة نصف عام. وإذا أعلن الطرفان موافقتهما المشتركة، تبدأ إجراءات الزواج.

وأنا أرى أن هذه عادة جيدة، يمكن أن نتبعها نحن أيضا. فالزواج من أول نظرة؟ كما يحدث كثيرا، بصفة خاصة فى الفترة الأخيرة، يؤدى كثيرا إلى طلاق سريع. فكثيرا بعد هذا الزواج السريع يظهر "رأى آخر"، ثم ثالث...

أريد أيضا أن أتحدث بعض الشيء عن أسلوب احتفال المصريين بعيد "رمضان" الدينى، وهو يشابه عيد الفصح عندنا. ولكن إذا كان عندنا يتبع "الصيام الكبير" بعض الشيء، فإن المصريين يتبعونه باعتباره واجبًا مقدسًا. ففى أثناء صيامهم، لا يأكلون أى شىء حتى الساعة ١٨:٠٠. وقرب المساء يصبحون متوترين. وكل يهرول مسرعا إلى منزله، مقتربا من المطبخ. وفى هذه الساعات الأخيرة من النهار يكون من الخطر جدا عبور الطريق الذى يكون عادة مزدحما بالسيارات. وفى تلك اللحظات يكون آخر ما يفكر فيه السائقون هو اتباع قوانين المرور، حيث يكون فى رأسهم شىء واحد ـ الفطار.

كنا نعتقد فى البداية أن "الصيام الكبير" يخص فقط المدنيين، ولكن تبين لنا غير ذلك، حيث إن على الجميع الالتزام به، وكذلك الطيارين. طبقا لقوانيننا، الطيار الجائع هو مقدمة لحادث، ويكون اللوم لمن لم يطعم الطيارين فى الموعد المحدد. ففى أيام الطيران نتناول الطعام أربع مرات: الإفطار، إفطار ثان، ثم غداء وعشاء. ولكن كان يطير الطيارون المصريون فى أيام "الصيام" هذه وهم ناسون تماما أنهم لم يتناولوا أى طعام طوال اليوم. كنا نأسف عليهم ونحن نشاهدهم، فدرجة الحرارة تكون ٢٥ ـ ٣٠ درجة مئوية، ويكون من الصعب لمس جسم الطائرة بدون قفاز، ولكن الطيار يدخل إلى القمرة ويطير... وهو جائع.

وها هو أخيرا شهر رمضان قد انتهى، فعادت الحياة إلى حالتها الطبيعية مرة أخرى. كان تقدم الأفراد فى تنفيذ برنامج التأهيل يسير بشكل يسبق البرنامج الموضوع بعض الشىء. ثم جاءتنا، فى هذا الوضع، مثل الرعد فى السماء الصافية، برقية بمطار بلبيس تقول: أوقفوا الطيران واحضروا جميعا إلى القاهرة. تبين أن رئيس مصر أنور السادات قد أعلن لسفيرنا فينوجرادوف ف.م. أن الجانب المصرى لم يعد يرغب فى خدمات العسكريين السوفييت.

حافظت السفارة السوفييتية بالقاهرة على الإتيكيت الدولى وأقامت لنا حفل عشاء لتوديعنا، تمت دعوتى إليه أنا أيضا بصفتى رئيس مجموعة خبراء. كان العشاء جيدا جدا، ولكن تبين أنه لم يكن "عشاء وداع" بالنسبة لنا، فقد تبين أنهم يخرجون كل خبرائنا الثمانية والعشرين ما عدا من يعيدون تأهيل المصريين لاستخدام المعدات الجديدة، وكانت مجموعتنا من بينهم.

على ما أذكر كانت عملية إخراج الخبراء نفسها منظمة جدا، طبقا للخطة الزمنية الموضوعة تماما. غادر ٩٠٪ من الخبراء السوفييت مصر فى خلال أيام معدودة. كان شيئًا غير معتاد وغريب؛ حيث إننا كنا بدون زملائنا. فرغ فندقنا متعدد الطوابق بمدينة نصر. ثم انتقل مركز القيادة السوفييتية إلى فيلا خاصة. وغيرت أيضا مجموعتنا مكان إقامتها، فأصبحنا نسكن الآن بفيلا من ثلاث طوابق بالقرب من القيادة.

بقى نظام العمل كما كان، ولكننا كنا نشعر أن علاقة قيادة سلاح الطيران الحربى المصرى بنا قد أصبحت، بما يمكن القول بشكل مخفف، فاترة. ولكننا لم نعر اعتبارًا لذلك، فكنا نقوم بعملنا. كان الطيارون المصريون متفهمين لحالتنا، فكانوا يتجنبون فى أحاديثهم معنا موضوع إخراج الخبراء من جمهورية مصر العربية.

كانوا كل يوم يتناولون موضوع خروج الخبراء السوفييت من مصر بالتليفزيون. كما كان أنور السادات كثيرا ما يقوم بإلقاء خطب طويلة. ابتهج بعض من العرب، ولكن لم تستمر هذه الحالة من الإحساس بالسرور إلى فترة طويلة، فبعد حوالى أسبوعين أصبحت تصل إشارات من القوات بأن الخبراء العرب ليسوا قادرين أن يقوموا بنفسهم على إعداد وصيانة مختلف المعدات الحربية، ومنها الطائرات. انخفضت قدرة القوات المسلحة على القتال بشكل حاد. فاضطرت القيادة المصرية، فى ظل هذه الظروف، إلى التوجه إلينا مرة أخرى طلبا للمساعدة.

ولكن كان برنامجنا لإعادة التأهيل قد اقترب من نهايته، كما كانت مدة مهمتنا قد قاربت على الانتهاء. بعد زمن وجيز تم إخطارنا بأن علينا الاستعداد للمغادرة عائدين إلى الوطن، كانت سعادة رجالنا بلا حدود. لبسنا فى أحد أيام العمل زيًا "دبلوماسيًا" وذهبنا بكامل ملابسنا الفاخرة إلى مطار بلبيس لوداع قيادة الآلاى وتلاميذنا السابقين. هنأنا العقيد فاروق من قلبه بمناسبة انتهاء برنامج إعادة التأهيل، وشكرنا على عملنا المتفانى، وتمنى لنا عودة سالمة إلى الوطن، ثم ذهبنا إلى مركز قيادة الآلاى، حيث التقينا بالطيارين والمهندسين والفنيين. كانوا مندهشين جداعندما رأونا بملابس فاخرة، حيث إنهم لم يشاهدونا من قبل بهذه الملابس. يجب أن أقول بصراحة إن الوداع كان دافيئًا جدا، وأنه جرى فى جو من

الصداقة الخالصة... والحزن. نعم، إن هذا مفهوم، فقد كان الرفاق العرب يشعرون بمساعدتنا فى كل يوم. وكنا نحن من جانبنا قد تعودنا عليهم.

فى اليوم التالى، كانت كل المجموعة جاهزة للذهاب إلى المطار للسفر إلى موسكو. انتظرنا الحافلة.

فى حوالى الساعة العاشرة صباحا حضر إلى فيلتنا ضابط مراسلة من القيادة وأخطرنا بأن كل الخبراء سوف يغادرون فى الساعة الحادية عشرة بالحافلة إلى المطار، أما أنا شخصيا، فعلى البقاء فى مكانى مؤقتا. كانت السفارة هى مصدر هذه المعلومة. مثل هذا الأمر بالنسبة لى ضربة أخرى، فقد كان قد تم توقيع وتسليم كل شىء، وقمت بإعداد حقيبتى تماما، وفجأة ـ على أن أبقى!

ودعت رجالى، وتوجهت فورا إلى مركز القيادة ثم إلى السفارة للاستفسار عن سبب بقائى. تبين أنه تم إبقائى من أجل الطيران بطائرات طراز سو ـ ١٧م. ب. ك، بعد تجميعها بمطار بلبيس حيث إنه لم يكن يوجد فى ذلك الوقت بمصر أى طيار سبق له الطيران بهذا الطراز من الطائرات، ونظرا لذلك فقد تم مد فترة مهمتى بمصر لمدة شهرين آخرين.

كم كان ذلك حزينا، ولكننى اضطررت إلى إعادة تفريغ حقيبتى. بقينا ثلاثة أفراد فى هذه الفيلا: أنا واثنان من المترجمين. مرت أيام العمل عادية، ببطء. كنت أتابع بدقة عملية تجميع الطائرات. وكنت تقريبا كل يوم "أطالب بإلحاح" رجال المصنع الإسراع فى عملية تركيب أنصاف الأجنحة على جسم الطائرة، ولكن هؤلاء الأفراد لم يكونوا فى عجلة بشكل خاص، حيث كانت لديهم مصالحهم. قدموا لى أول طائرة لكى أطير بها عند حلول بداية شهر نوفمبر. ثم سارت عملية التجميع بشكل أسرع. كان قد تم الطيران بكل الطائرات الستة قبل حلول ليلة رأس السنة، وقام باستلامها ممثلو الجانب المصرى. ولكن على الرغم من ذلك اضطررت لاستقبال العام الجديد بالقاهرة. وفقط فى السادس من شهر يناير عام ١٩٧٣ عدت أخيرا إلى أرض وطنى. وبذلك انتهت أطول مهمة فى حياتى ـ المهمة المصرية، لقد تركت فى ذاكرتى أثرًا لا يمكن أن يمحى، وليس فقط لأنه قد تم مكافأة كل خبراء المجموعة، ولكن لأننا كنا نعرف: "أننا قدمنا مساعدة كبيرة لأصدقائنا المصريين".

العودة إلى الماضى

ب. إ. جايفورونوك

كان علىّ فى خلال خدمتى المشاركة فى أحداث متعلقة بتقديم المساعدة الأممية بعدد من بلاد"الدول الأجنبية" . فكنت دائما مؤمنا تماما بضرورة قيامى بواجبى العسكرى، ولم أشك فى أى يوم فى مدى صحة أعمالى، وفى واقعية تلك المهام التى كلفت بها الوحدات التى كنت أقودها فى ذلك الوقت. كان الأمر يتلخص فى أن الدفاع الجوى ليس سلاحا للإبادة. ولكن سلاح الدفاع الجوى هو سلاح للدفاع. وبما أنه سلاح للدفاع فإنه يقوم بتدمير وسائل حاملة للتدمير.

كنا نعتبر أنفسنا ورثة هؤلاء الذين حاربوا بإسبانيا، كما كنا فخورين بلقب "الأمميين" . لم يأخذوا أحدًا إلى مصر "بالقوة"، بل قبل إرسالنا كان يجرى حديث مع كل واحد منا، وكنا نستطيع الرفض، ولكن لم يقم أى عسكرى بذلك. من الصعب تصور أن الجبان الوحيد، الذى رأيته بنفسى، كان عقيدا . كان قد أخذنى جانبا، تماما قبل انعقاد اجتماع المجلس العسكرى الذى كان يتم فيه الاعتماد النهائى لأسماء الضباط المرشحين، وطلب منى التصويت ضد ترشيحه. كان يبرر ذلك متعللا بأن "أقدامه تؤلمه، وأنه لا يستطيع العدو سريعا..." . أنا لا ألومه، لأن الناس مختلفون. شىء حسن، أننى لم أضطر إلى الذهاب إلى معركة. كان شىء واحد فقط هوالغريب، وهوأننى التقيت به بعد حوالى ثلاث سنوات، وكان قد أصبح جنرالا . خدم فى الاتحاد السوفييتى، أما رجالى، فقد ضاعت أوراق مكافآتهم ـ وحتى اليوم لا يمكن العثور عليها .

لذلك فأنا أقول بفخر إننى فعلا "رجل عسكرى أممى" . فإن الانسان لن يموت فى سبيل شىء لا يؤمن به. الجندى ليس آلة، وسوف يسأل دائما (ولو نفسه)، وهو ينفذ الأوامر، سؤالاً طبيعيًا: لأجل ماذا؟

فى ذلك الوقت، كلفنا بمهمة، بكلمات مختصرة. وكان على الإحساس بها وتوصيلها إلى وعى الجندى، وأن أصدر له الأوامر. لقد كنت صريحا، فقد كنت مؤمنا بما أقوله بأكثر من ١٠٠٪ .فى تلك السنوات كانت العلاقة بمصر جيدة بالتأكيد، حيث إنها كانت أول بلد بالشرق الأوسط لها توجه اشتراكى (كانوا يكتبون ذلك تقريبا كل يوم فى الجرائد)، وكان صديقنا وحليفنا فى حاجة إلى مساندة. لقد ساعد خروشوف ناصر منذ منتصف الخمسينيات بالسلاح، وأرسل إليه الخبراء، وسانده فى أثناء "أزمة السويس" فى عام ١٩٥٦... كما قام عسكريونا بالتدريس بالأكاديمية الحربية المصرية، وقاموا بتعليم العرب فى بلدنا، وساعدوا الطيارين فى صد هجمات الطيران الإسرائيلى... وقد جاء ناصر إلى الاتحاد السوفييتى، وكان هناك الكثير من التأكيدات على الصداقة المصرية ـ السوفييتية. وقد وصلت الصداقة لدرجة منح ناصر لقب "بطل الاتحاد السوفييتى". لقد تقبلنا ذلك أيضا بطريقة طبيعية، ولكن شىء ما بداخلنا كان "يضايقنا". على الرغم من أى شىء كان يحدث هناك، كنا دائما فى ذلك الوقت نعتقد أن مساعدتنا لمصر ضرورية تماما. كانت حالة قواتها المسلحة تقنعنا أيضا بذلك، حيث إن مصر لقيت هزيمة مروعة فى "حرب الأيام الستة"، وتواجه صعوبات اقتصادية، لاحظناها فورا. ثم بعد ذلك، عندما استبدلت فى الجرائد كلمات المديح بتنابذ بارد اللهجة، بالطبع تذكرنا الكثير بشكل آخر.

فى يوم ١٨ يوليه طلبت من قائد الفرقة الذهاب للتفتيش على إحدى كتائب الصواريخ التى كان يقودها الرائد منصوروف. فرد على: "اذهب إلى أى واحدة أخرى...". قلت له: "لماذا يجب أن أذهب إلى واحدة أخرى، يجب على الذهاب إلى هذه، فقد ودعتهم من الموقع القديم، ويجب أن أشاهد كيف تمركزوا". سمح لى بالذهاب. عندما ودعتهم، قلت مازحا: "لا تسقطوا "فانتوم" إلى أن أحضر اليكم، فهناك مكافأة عن كل واحدة يتم إسقاطها، وأنا أيضا أريد الحصول على مكافأة، لذلك فإنى سأقوم بعمل الثقب معكم فقط لتعليق النوط". وهم أيضا ضحكوا: "أيها القائد، سوف ننتظر". وصلت فى حوالى منتصف اليوم. قلت لهم: "كفى، الآن سوف نعمل ونتقاسم كل شىء بالتساوى". وفعلا، وقعت بعد عشرين دقيقة غارة جوية. فى ذلك الوقت لم أكن أعلم أن منصوروف قد أخطأ التمركز، حيث تمركز فى ذلك المكان الذى كان يجب أن تكون به الكتيبة الزائفة، فقد أخطأ فى الليل...

... كانت أفظع ضربة قد وجهت لكتيبة طولوكونيكوف، أما كتيبتنا فقد هزتها الانفجارات. كان لدينا راصدون من العرب (هم من يحددون حركة الهدف على الخريطة الطبوغرافية المستوية). تخيلوا اللوحة وفى مركزها موقع كتيبة الصواريخ. يتسلم الراصد البيانات، وهويعلم: أنه كلما كان البعد عن الهدف أقل كلما كان أقرب إلى مركز اللوحة، أى كلما كانت الطائرة الحاملة للموت أقرب. وها هوالبعد أصبح يقل... "الفانتوم" تتوجه الينا و... وهنا لم يتحمل الراصدون فنزعوا السماعات وألقوا بالخوزات (الجو حار داخل الكبائن، والجميع يجلسون مرتدين الخوزات والشورتات والأقنعة الواقية من الغازات) وأسرعوا خارجين من الكابينة عدوا. أمسك أحد رجالنا بواحد منهم من شورته وضربه بالخوزة على رأسه مصاحبا كل ذلك بعبارات لا تصح ترجمتها، وأعاده إلى مكانه. حدث ذلك فى وجودى. لم يحدث أن جبن أحد رجالنا، أبدا. أنا متفهم أن التوتر كبير. أحكم منصوروف النيشان، وأعطى الأمر، واستلم جندى التشغيل على الجهاز التتبع الآلى، وجندى المتابعة اليدوية يتابع، كانت قدم ضابط التوجيه تضرب على أرضية الكابينة المعدنية. لا تسمع بالمحطة إلا الأوامر فقط وكذلك ضجيج المراوح، وإخطارات بوصول الأوامر، ولا تسمع أية أحاديث جانبية. الكل مدرك أنه "إما أن نضربها نحن الآن أوتضربنا هى". لم يكن من المجدى التدخل فى عمل أى فرد، يمكن أن أقول إنه كانت هناك "آلية واعية". فكل فرد ينفذ عمله، وإذا، لا قدر الله، رفعت صوتى على أحد يمكن أن يحدث خطأ غير قابل للإصلاح.

... أسقطنا طائرة المقدمة. فاستدارت باقى الطائرات فورا هاربة. كانت نقط الأهداف مبعثرة على كل شاشة البيان. وكل نقطة منها تحمل الموت. ويخيل كما لوكانت كلها تتجه اليك. ولكن كل فرد قام بواجبه فى هذا الجحيم.

... هل أحسست بالخوف؟ كنت مدركا لما يعنيه هجوم طائرات إسرائيلية، وأن الطائرة "الفانتوم" آلة ممتازة، وأن الأمريكان كانوا على حق فى الدعاية لها. قالوا للإسرائيليين: "سوف نعوضكم مجانا بعدد مماثل لذلك العدد الذى سوف يسقطه الروس". وبعد المعارك الأولى أرسلت ١٢ طائرة فانتوم جديدة إلى إسرائيل، فقد كان على أمريكا الالتزام بكلمتها!

... بالطبع كان الأمر مرعبا! كان كل ما كنت أفكر فيه فى تلك اللحظات: زوجتى، وطفلى الذين يعيشان بمدينة عسكرية فى الوطن، فإذا حدث لى شىء، أين سيذهبون؟ فلا يوجد لدينا مخزون من المال من أجل الحياة الكريمة... كل ذلك جاء إلى فكرى فى لحظة سريعة...

عندما انتهى إطلاق النيران، خرجت من الكابينة، فشاهدت كتيبة طولوكونيكوف تحترق على بعد حوالى ثلاثة كيلومترات منا، فيما بعد تم رفعها من هذا الموقع، فقد كان يجب إزالة العواقب. نعم... بعد مثل هذه المعارك، عندما يموت أشخاص بالقرب منك، وعندما لا يمكن التعرف على الجثث المحترقة، حيث لا يمكن التعرف عليها لأنه لا توجد أية أوراق، حتى ولا تلك الكبسولات التى كانت لدى جنود الحرب الوطنية العظمى، وهو ما أعتبره بالمناسبة شيئًا وحشيًا، حاول أن تتعرف على جثة الميت...

لقد تعود الناس على أن المعارك تكون كما يشاهدونها فى الأفلام السينمائية: تبادل إطلاق النيران، دخان، صرخات النصر... ولكن الأمر ليس كذلك لدى القوات الدفاع الجوى. المعركة بالنسبة لنا هى السكون. فقط تدور المروحة فى الكابينة وتنير الشاشة، وعليها بعض الومضات البيضاء لطائرات العدو. تكون كلمات الأوامر مختصرة تماما، ويكون كل تركيزك.. أنت أيضا.. كله على هذه الشاشة، وتشعر بكل أعصابك كيف يقتربون، وتشعر بالثانية التى يجب أن تنطلق فيها الصواريخ إلى الهدف. توتر رهيب. العواطف مستبعدة. أصوات المعركة تقريبا غير مسموعة، لأنها تكون على بعد كبير للغاية. وفقط إذا أخطأت أنت أوجارك، تدوى الانفجارات.. وترتعش الصحراء.. و"الفاننتوم" تلتف عائدة بعد تدمير مكان ما غير بعيد.

وفى مرة أخرى، فى وقت أقرب إلى نهاية العمليات القتالية النشطة (كنت فى ذلك الوقت موجودا بنقطة قيادة المعركة لإحدى المجموعات القريبة من السويس، حيث تم إرسال كتيبة صواريخ بوبوف، بعد معركة الثالث من أغسطس) حدث ما يلى:

سيناء قريبة منا. أرى على الشاشة أن مجموعة كبيرة من الطائرات قد ارتفعت فى السماء. كنا نعمل بهدوء كما علمونا. لم تطر الطائرات فى اتجاهنا.

وفجأة يخطرنا أحد قادة كتيبة الصواريخ بأنه يرى هدفًا. يتابعه. جاءت بوضوح لحظة إطلاق النيران. يخطرونا بالإحداثيات. لم أعط بعد الأمر بإطلاق النيران. البعد يقل. أسأل عن السرعة: شيء قريب من الصفر. واعتقد الجميع فورا أن هذه، على الأرجح، طائرة مروحية... فعلا... مروحية... على الأرجح تم إسقاط إحدى طائراتهم، وقد جاءت لإنقاذ رجالهم. (يجب أن أقول إن نظام إنقاذ الطيارين عند الإسرائيليين كان مضبوطًا تماما. فبمجرد أن يقفز الطيار من قمرة قيادة الطائرة المصابة، يعمل على حزامه جهاز إرسال يرسل باستمرار إشارة إلى قاعدته تفيد بوقوع حادث. فتلتقط مجموعة الإنقاذ الإشارة وترتفع فورا المروحيات والطائرات المصاحبة لها لعملية إنقاذ الطيار. ولا يهم إذا كان حيا أو ميتا، فالمهم هو إرجاعه إلى القاعدة).

... بدا كأن بالفعل تطير مروحية إسرائيلية، تثير ضجيجًا... ولكن لماذا لا نراها؟ أعطى الأمر: "النظر بالنظارات المعظمة، فهي قريبة...". سمعت قهقهة ساخرة فقد كانت هذه إحدى سيارتنا تحمل إلى موقعنا الغداء...

علمت بالقرب من نهاية هذا اليوم أنه جارى إدخال قوات الأمم المتحدة، وأنه قد بدأت هدنة. بدأنا فى الانتقال وذهبنا إلى موقع ثابت، كنا نوفر منه حماية لمنطقة عاصمة مصر ـ القاهرة من الطائرات. كان أمرًا غريبًا أن الهدنة قد أعلنت. كنت لم أصل بعد إلى منقطة قيادتى، وقد أدى هذا الانحسار ـ بأنه لم تحدث غارات لطائرات بعد ذلك، وأنه لن يموت رجالنا بعد ذلك ـ إلى أنى أحسست بألم حاد فى قلبى- ذبحة صدرية...

ولكن هل سار كل شيء بهذه السهولة التى تكتب عنها وسائل الإعلام، خاصة وهى تركز اهتمام القارئ إلى "صيحات النصر الوطنية" الخاصة بتنفيذ المهام المحددة عند القيام بالواجب الأممى بالخارج.

... وبغض النظر عن علاقتى السلبية بشكل ما بالحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفييتى، فأنا باعتبارى ضابطًا أمضى بالخدمة أكثر من ٣٦ عامًا بالقوات المسلحة.. فأنا فخور بأنى كنت عضوا بالحزب الشيوعى. فلا توجد مثل وأهداف أكثر إنسانية من تلك التى وضعها وحققها حزبنا. وأنا لم أكن لأستطيع تنفيذ ما تم تكليفى به كقائد، لولم أجد

مساندة وفهمًا ومساعدة من الحزب والهيئات الشيوعية ومنظمات الشبيبة بالتشكيل الذى كان تحت قيادتى. وفعلا كانت هذه المنظمات تعمل على تربية الجنود والرقباء والضباط. كانت عندنا إيديولوجيا، من ضمنها القيام بواجبنا الأممى. وقد كنت دائما أستشير منظمات الشبيبة الشيوعية والحزب الشيوعى بخصوص المواضيع الأكثر تعقيدا، وكنا معا ندرس طرق تنفيذ المهام. وبذلك فإن خبرتى الطويلة كقائد (أكثر من ٢٨ عامًا) فى وظائف القيادة، بدءا من قائد زورق مصفح إلى قائد لواء) تؤكد ضرورة وجود مثل هذه المنظمات بوحدات القوات المسلحة. وغيابها يزيل الكفاءة فى التربية وفى الالتزام العسكرى، وكذلك فى تنفيذ مهام الاستعداد العسكرى.

ولكنى أريد الآن التوقف عند بعض الأخطاء والعيوب التى أدت فى ظروف المعارك، ليس فقط إلى سوء فهم، ولكن إلى خسائر جسيمة.

دائما تبدأ كل عملية بالتخطيط. ويجب الاعتراف بفضل القيادات العليا حيث إن تخطيطها كان دائما دقيقا، به فكر، ووعى. ولكنى كنت دائما أواجه نفس المشكلة التى تتمثل فى عدم وجود خرائط لدى قادة وقيادة اللواء (والوحدات). لم تكن تعطى لنا الخرائط الطبوغرافية بسبب النسيان، وإذا أعطوها لنا، فيكون ذلك فى آخر لحظة، وقد يكون ذلك بسبب المحافظة على الأسرار العسكرية. لقد حدث ذلك أيضا فى أثناء أحداث المجر[٢٤]، وكذلك فى تشيكوسلوفاكيا، حيث تم نزع أسماء الأماكن السكانية والشوارع وأرقام المنازل والعلامات الإرشادية على الطرق بما فيها العلامات المبينة للكيلومترات.

وقد تكررت هذه القصة فى مصر. ومرة أخرى بدأنا فى ميناء الوصول بالإسكندرية فى رسم مسار حركتنا إلى النقطة المحددة طبقا لكلمات الرئاسة، وكانوا دائما يضيفون: "لا تقلقوا سوف يكونون فى انتظاركم". نعم كانوا فى انتظارنا، ولكننا فقط لم نتمكن من فهم بعضنا، لأنهم كانوا يتحدثون فقط باللغة العربية، أما نحن، فكنا نتحدث بصفة عامة الروسية فقط. وعندما حاولنا الاسترشاد بعلامات الكيلومترات، تبين أننا لم نكن نعرف الأرقام العربية.

---

(٢٤) أحداث مسلحة دارت فى المجر موجهة ضد الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٥٦.

بينت الغارات الإسرائيلية الأولى أننا كنا نتعامل مع معدات ممتازة وأفراد مدربين جيدا ومع قيادة تتمتع بالكفاءة وتعرف عملها جيدا. عامة، لم تكن هناك عمليات متماثلة من ناحية التخطيط، فلم تكن هناك نمطية فى تكتيك المعارك. كانت تلاحظ بوضوح فى تكتيك الطيران الإسرائيلى إحدى صور الحركات التكتيكية: المجموعة الأساسية التى توجه الضربة بالصواريخ والقنابل ـ مجموعة الحماية ـ مجموعة التمويه ـ مجموعة التشويش ـ مجموعة الإنقاذ... وتبعا للمهمة المحددة، يتم التخطيط لتكتيك عمل القوات المشاركة فى الغارة، كما يتم وضع تكتيك عمل كل مجموعة.

للأسف عند الاستعداد للقتال، لا نهتم كثيرا فى التدريب بمختلف جوانب المناورات التكتيتية فى أداء الطائرات. فعادة، كانت كل الطائرات، لسبب ما،تدخل منطقة القتال، وكنا "ننجح" فى تدميرها كلها. كان نقص التفاعل العميق فى أثناء القيام بالعمليات القتالية والتدريب مع قادة الوحدات الجوية يؤدى إلى نمطية فى أداء أطقم مراكز قيادة كتائب وألوية الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات. لذلك كان يجب التصرف طبقا للموقف فى أثناء العمليات العسكرية.

وبالإضافة إلى ذلك، ففى وقت السلم فنحن كنا نتعامل بتهاون مع استخدام معدات"طائرتنا ـ طائرة غريبة". لا أعرف من قرر ذلك، ولكن لم يعطونا هذه المعدات عندما أرسلونا إلى مصر، غالبا لأنها سرية. وقد أعطونا تعليمات شفهية محددة: يجب اعتبار أية طائرات تقترب من منطقة القتال من طائرات العدو، ويجب تدميرها. وقد نفذنا ذلك فى أول أيام حضورنا. كانت أول طائرة أسقطناها طائرة عربية، وقد أسقطتها كتيبة صواريخ كوتينسيف (كانت طائرة إل ـ ٢٨ تستعد للهبوط). وقد أدى عدم وجود معدات التعرف بكل من الطائرة وبمركز قيادة اللواء إلى تدمير الطائرة. وقد نال رئيس قيادة اللواء المقدم رجيوسكى أ. م.، الذى كان يرأس فى ذلك الوقت مركز القيادة، لومًا من وزير دفاع الاتحاد السوفييتى (وبالمناسبة، لم يتم رفعه حتى اليوم ـ فقد تم على الغالب نسيانه. كما أن عدم وجود مترجمين كان السبب الثانى لهذا الحادث الصعب.

كان يوجد بمركز قيادة لوائنا قائد لواء المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات العربى وقائد الآلاى العربى للمدفعية والصواريخ المضادة للطائرات وقائد

القاعدة الجوية وقائد الآلاى السوفييتى للمدفعية والصواريخ المضادة للطائرات. لم يكن أحد منا متمكنا من اللغة العربية، بل ولم يكن يوجد لدينا كتب محادثات. بالطبع، وببساطة لم يكن من الممكن تحديد انتماء الهدف فى ظل هذا الخليط بمركز القيادة بدون مترجمين وبدون نظم التعرف "طائرتنا ـ طائرة غريبة". لذلك فقد اتخذ رئيس مركز القيادة قرار تدمير الهدف. وقد وقع حادث مماثل بكتيبة صواريخ بوبوف ك. إ.، الذى كان متمركزا فى أوائل أيام وصوله بالقرب من الإسكندرية. فَم إطلاق صاروخنا "ستريلا" على طائرة ركاب، وقد تمكن طاقمها بالهبوط بها بمعجزة.

بعد عودتى إلى الوطن، كان كثيرا ما يطرح على سؤال: "ما الذى كان الأصعب فى خلال خوض المعارك؟". وكنت دائما أجيب: "تحديد أين طائراتنا، وأين طائرات العدو"، خاصة أنه كثيرا ما كان يوجد فى المجال الجوى المصرى طائرات محلية ودولية، وأن الانضباط فى الطيران لدى العرب كان يجعلنا نتمنى أن يكون أفضل مما هوعليه. لم تكن توجد لدينا مراكز استكشاف ومعلومات، كما لم تكن توجد وسيلة اتصال مباشر بنقطة العمليات. وقد بدأنا العمليات طبقا للمثل الروسى الشهير:"اضرب أهلك، حتى يخاف الغرباء". وفقط بعد "التجربة الدموية" ظهر بسرعة فى مركز القيادة معدات "طائرتنا ـ طائرة غريبة" ومترجمون وكتب المحادثة.

لا يمكننى عدم التوقف عند موضوع الإعداد المعنوى والنفسى للأفراد. بالطبع أنا مدرك أن كل إعداد لتنفيذ مهام قتالية فى الخارج عليه ختم سرية، لذلك، بصفة عامة، لم يكن يعلم لا الضباط ولا الجنود المكان الذى سوف ترسلهم اليه الخدمة فى هذه المرة. بالطبع أثر ذلك على إعداد الأفراد معنويا ونفسيا، خاصة أنه لم يكن يوجد خبير نفسى بالمكتب السياسى للواء. لذلك فعند التجهيز للسفر إلى مصر، لم تجر مناقشات للتعريف بالسمات الخاصة بهذا البلد وبوضعها الجغرافى ومناخها واقتصادها وثقافتها وتوجهها السياسى... من الخصائص المميزة لقوات الدفاع الجوى فى ظروف وجود البلد فى حالة حرب، وجود وضع دائم للقيام بنوبة عسكرية فى مواقع القتال. فى الواقع، كان قد تم تقسيم الأفراد على نوبتين، وكان يجب أن تكون كل نوبة جاهزة للدخول فى معركة مع العدوالجوى. لذلك فقد كان أداء النوبة منهكا، خاصة أن درجة الحرارة كانت

تصل إلى +٥٠ درجة مئوية بمحطات توجيه الصواريخ ومحطات الرادارات، بل أن درجة الحرارة قد وصلت إلى +٦٠ درجة مئوية فى بعض الأيام. طبعا ضايقتنا العواصف الرملية التى كانت تدخل الرمال الناعمة جدا إلى كل مكان: فى المعدات والأجهزة والآلات والمواد الغذائية... وكانت هناك أيضا العناكب والعقارب التى كانت تدخل إلى الأسرة والأحذية وكانت تؤدى إلى توترنا نفسيا. وقد أدى كل ذلك بشكله المجمع(رتابة النوبات فى ظروف صعبة) إلى إضعاف الإحساس بالمسئولية لدى بعض الأفراد، والى مخالفة الانضباط العسكرى وقواعد القيام بالحراسة والنوبات العسكرية. حدث مرة أن جنديًا قد أصاب ثلاثة من رفاقه بسبب سوء تعامله مع سلاحه الشخصى. وفى مرة أخرى، فى نوبة حراسة أخرى بكتيبة الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات، نسى الحارس أن طلقة قد دخلت إلى ماسورة المدفع الرشاش، فقرر إخافة النوبتجى بمحطة الرادار، فكانت النتيجة أنه قتله. وقعت أيضا حوادث مخالفات بين الضباط الذين تركوا تشكيلاتهم بدون إذن عند علمهم بمكافآتهم الرسمية، وكان علينا البحث عنهم بالنوادى الليلية. ولكن الحياة هى الحياة. لقد رأيت كيف حدث أن مستشار قائد كتيبة المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات العربية، بعد أن نجا بمعجزة عند قذف موقفه بالقنابل بشكل مكثف، قد سكر لمدة ثلاثة أيام بعد المعركة، كما يقولون بروسيا، بدون أن يجف[٢٥]. وكان يجب على المرء فى ظل هذا الوضع أن يكون عنده قوة وإرادة حديدية لكى لا يضعف، وأن يظل ثابتا، وألا يفقد تحكمه فى أفراد اللواء. وقد ظهرت القوة. وكنا ثابتين على قدمينا ننفذ المهمة. ثم بعد ذلك احتجنا إلى ١٥ عامًا لكى نثبت أننا شاركنا فى حرب بمصر، وأنها كما فى أفغانستان، كانت حربًا. الحرب هى الحرب أينما اشتعلت، فلا يوجد بالنسبة للأمهات والآباء والزوجات والأبناء فرق فى أى حرب قتل فيها ابنهم أوزوجهم أو والدهم، هل كان ذلك عند قندهار[٢٦] أوالقاهرة أوهانوى، أم فى عام ١٩٤٥ بالقرب من كنينسبرج[٢٧]. ولأقدم بضعة كلمات عن "الميداليات العسكرية"

(٢٥) بدون توقف.

(٢٦) مدينة فى أفغانستان، دارت بها معارك شرسة بين الجيش السوفييتى والأفغان.

(٢٧) مدينة فى بروسيا الشرقية دارت بها معارك شرسة بين الجيش السوفييتى والجيش هتلر، أصبحت تسمى الآن "كالييننجراد".

أوعلامات الضباط ـ أرقامهم. كانت توجد عندنا خبرة الحرب الوطنية العظمى ـ فبعد انتهائها بخمسين عامًا، كان يتم التعرف على اسم الشخص ويتم حذفه من قائمة المفقودين "فقد ولا يعلم عنه شيء". وقد كنا كلنا نرتدى فى مصر زيًا متماثلاً، بدون أية علامات تفرقة، وبدون أية ميداليات أوأرقام شخصية. وعندما ظهرت أول خسائر (كان يهلك الأفراد عامة فقط نتيجة ضربات بالصواريخ)، لم يكن من الممكن التعرف على من هو إيفانوف أوسيدوروف أوبيتروف.

وأيضا كيف تم استقبالنا بالاتحاد السوفييتى بعد تنفيذنا لواجبنا الأممى، وكيف تم استخدام خبرتنا القتالية، وكيف كان المصير التالى لكل منا- فهذا حديث آخر شيق. كما لو أنه لم يتم الانتباه إلى ضباط الدائرة العسكرية الموسكوفية، فى نفس الوقت الذى تمت فيه ترقية غالبية ضباط الألوية الأخرى من قوات الدفاع الجوى التابعة للدائرة العسكرية الوسطى إلى مراكز أعلى. لقد تم منح لقب بطل الاتحاد السوفييتى إلى بوبوف كونستنتين اليتش (من فرقتنا) وإلى كوتينتسوف (من قوات الدفاع الجوى المتاخمة للبحر البلطيقى) تقديرا لخدمتهم بمصر. وقد كادوا أن يحيلوا بوبوف ك. إ. إلى التقاعد، ولكن فقط تدخل رئيس المكتب السياسى اللواء بروبيلوف إ. ف. وحده، بعد أن توجه إلى الإدارة السياسية لقوات الدفاع الجوى، وهو الذى سمح لبوبوف بالاستمرار فى الخدمة برتبة عقيد، وأدى إفادة وطنه الاتحاد السوفييتى لفترة طويلة. قد يكون السبب فى ذلك هو سرية العملية التى تمت فى مصر، ولكن الجريدة الأمريكية "نيوز ويك" قد قامت فى ١ يوليه ١٩٧٠ بنشر وصف تفصيلى لانتقالنا وتمركزنا ومواقعنا ومراكز قيادتنا بشكل دقيق لدرجة أن هذا النشر كان مفيدًا لى أنا، قائد اللواء، كمساعدة على الفهم.

وأنا أعتقد أنه على الرغم من قدم هذه الأحداث، فإنها يجب أنت تكون معروفة للجميع، لأنها تمثل إحدى الصفحات المهمة فى تاريخ قواتنا المسلحة.

غداة وصول القوات الرئيسية

أ. ف. جدانوف

فى نهاية شهر ديسمبر عام ١٩٦٩، توجهت الحكومة المصرية وكذلك توجه رئيس مصر جمال عبد الناصر شخصيا إلى الحكومة السوفييتية طلبا للمساعدة نظرا للغارات النشطة التى كان يقوم بها الطيران الإسرائيلى على الأهداف العسكرية والمدنية والصناعية فى عمق مصر وفى منطقة قناة السويس.

وقد اتخذت حكومة الاتحاد السوفييتى قرارا بتقديم مساعدات عاجلة ومؤثرة إلى مصر.

فى صباح يوم ٩ يناير ١٩٧٠ البارد جدا والملبد بالغيوم، ارتفعت من مطار "تشاكللوفسكايا"، القريب من موسكو، طائرتا إيل - ١٨ حاملة مجموعة من الجنرالات وضباط وزارة دفاع الاتحاد السوفييتى إلى مصر. وكان يرأس المجموعة نائب القائد العام لقوات الدفاع الجوى السوفييتى الفريق أول أ. ف. شيجلوف ونائب رئيس القائد العام لقوات الطيران جنرال الجيش أ. ن. يفيموف. وكان ضمن المجموعة الجنرالات أ. إ. بلياكوف وأ.ك.فانيكوف ول. أ. جروموف وم. ن. نايومنكو بالإضافة إلى عدد من ضباط أركان حرب القوات المسلحة وقوات الدفاع الجوى وسلاح الطيران والرادار.

وبناء على قرار نائب وزير الدفاع لشئون البناء والإسكان الفريق أول أ. ن. كوماروفسكى، فقد تم ضمى إلى تشكيل المجموعة باعتبارى كبير خبراء المعدات الهندسية والمعدات الفنية لمجموعات المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات "دفينا" و"بيتشيرا"، وكذلك إنشاءات حماية الطائرات. وبالإضافة إلى ذلك فقد كنت قد عملت فى مصر فى عام ١٩٦٤ وعام ١٩٦٩.

اتجهت الطائرات إلى بودابست، حيث كان من المقرر التوقف فيها للراحة وإكمال تموين الطائرات بالوقود. وبعد توقف قصير بمدينة بودابست التى كان يغطيها الثلج. طارت مرة أخرى الطائرتان إلى الجو فى الساعة ١٧ مواصلة طريقها إلى مصر. كانت خلفنا كل من المجر ويوغوسلافيا واليونان، وأمامنا مياه البحر الأبيض المتوسط التى ليس لها حدود.

اختفت آخر أشعة لغروب الشمس، ونزل الليل. حولنا ظلام دامس. ومضت بعض الأضواء المتفرقة هنا وهناك. ثم ظهرت أمامنا على خط سيرنا رواسب أضواء باهتة وهى تقترب منا ببطء. ثم ظهرت سلسلة من الأضواء تقوم بشىء من الإنارة. أمامنا القاهرة.

حدث ارتطام حفيف، وجرت الطائرة على طبقة الخرسانة التى تغطى الممر. على اليمين يقف مبنى مطار القاهرة الضخم المعتم بدون أية إضاءة على طرف أرض الطيران. وصلت الطائرة إلى آخر ممر الهبوط والانطلاق ثم استدارت فجأة إلى اليسار على ممر الحركة وتوقفت بالقرب من مبنى مكون من طابق واحد يقف وحيدا. كانت تسقط منه أضواء كهربائية ساطعة على أرض المطار. وبمجرد أن استدارت الطائرة على ممر السير، غرق المطار مرة أخرى فى ظلام تام.

ركبنا السيارات وتحركنا إلى القاهرة. سارت السيارات حوالى ١٥ دقيقة فى الظلام فى الضاحية الصحراوية. كان يبين ضوء الكشافات الساطع فى بعض الأحيان إنشاءات متفرقة. وها هوحى هليوبوليس، أغنى حى فى القاهرة والمضىء دائما، أما الآن فهو غارق فى نصف إظلام. عبرنا شوارع القاهرة المظلمة إلى وسط المدينة، ثم توقفت السيارات عند مدخل فندق "شيبرد" الفاخر الذى كان مضيئًا تماما، حيث كان قد تم حجز حجرات للوفد القادم من موسكو.

فى الصباح وصل الينا صوت المؤذن، ،مع ضوضاء الشوارع، يدعوالمؤمنين للصلاة. ومن الجدير بالذكر، ينطلق هذا الأذان فوق أحياء وطرق وميادين المدينة خمس مرات فى اليوم: قبل الفجر، وفى منتصف اليوم، وفى العصر، وبعد غروب الشمس، وفى المساء المتأخر.

ويظهر من النافذة منظر نهر النيل العظيم فى ضباب الصباح، وكذلك جزيرة الزمالك الدائمة الخضرة، وحى الجيزة والأهرامات الرمادية ـ الصفراء اللون الضخمة التى تنيرها أشعة الشمس المشرقة.

لقد أسعدنى الحظ بأننى سافرت إلى القاهرة عدة مرات. وقد سحرتنى هذه المدينة بتاريخها الطويل الذى يعود إلى ألف سنة، وبمجموعة آثارها الثمينة المنتمية إلى الحضارات المصرية القديمة والقبطية والإسلامية. وكنت على استعداد فى أوقات الفراغ للتجول لساعات طويلة بين المتاحف والشوارع والحدائق والأسواق بالقاهرة، مستكشفا لكل ما هوجديد فى حياة هذه المدينة.

لا يوجد فى القاهرة انتقال من الأحياء الأوروبية الحديثة إلى الأحياء العربية. فأحياء شبرا وبولاق وعابدين والموسكى وغمرة والأزبكية والجمالية وغيرها تحتل مساحة ضخمة بالقاهرة بمساجدها وأسواقها وأبنيتها العتيقة وروائحها المخدرة وضوضائها وغوغائها ـ هذه هى المدينة التى تعيش حتى الآن حياتها الشرقية القديمة.

بمجرد أن تنحرف من الشوارع الرئيسية ومن ميدان محطة القطار، الذى يقف فيه تمثال رمسيس الثانى، أو من ميدان الأوبرا، حتى تجد نفسك بعد عدة خطوات تدخل إلى مدينة مختلفة تماما بشوارعها وحواريها الضيقة المتعرجة وبيوتها المبنية من الطين بنوافذها المغطاة بالشبكات الخشبية والقمصان والملايات المعلقة فى عدة صفوف عبر الشارع.

تزداد الشوارع ضيقا. وتتقارب البيوت بعضها إلى بعض، كما لو كانت تستند على بعضًا البعض. هنا تسود العتمة والظلال فتقوم بحماية سكان تلك الشوارع من أشعة الشمس الحارقة.

بعد أن تتجاوز ميدان الأوبرا الفسيح الأخضر، تدخل إلى الشوارع الضيقة للقاهرة القديمة. توجد فى هذا الجزء من القاهرة أسواق القاهرة الشهيرة: الموسكى، خان الخليلى، سوق النحاسين، خان حمزة وغيرها. الزحام فى كل مكان. يوجد هنا عشرات الآلاف من الأشخاص لا يسيرون فقط على الرصيف، ولكن أيضا فى الطريق. آلاف من البائعين واصحاب الأكشاك والمحلات التجارية.

ضوضاء وغوغاء ولعلعة، تغطى عليها صرخات البائعين الجائلين الذين ينادون على بضائعهم.

كل ذلك يصيبك بالصمم ويجذبك إلى دورته. تدخل إلى عمق شارع الموسكى الضيق، يحاصرك الزحام من كل جانب فيحملك إلى الشوارع الجانبية الضيقة والحارات، إلى أسواق العطارة وخان الخليلى. يمكن هنا شراء أية أنواع من البضائع، بدءا من السجاد الإيرانى الفاخر ومختلف أنواع الأقمشة بألوان الفضة والذهب إلى اللوح الفنية المطروقة من المعادن الثمينة.

وعندما تعود من مركز القاهرة القديمة ـ عالم الغموض والمتضادات ـ تتوقف تحت ظل الأشجار المورقة بحديقة الأزبكية وينتابك الإحساس بأنه قد تم انتشالك من غياهب القرون التى مضت قديما إلى العصر الحديث.

وبعد عدة أيام من وصولنا إلى القاهرة، تقدم الجانب المصرى إلى قيادتنا الحربية بطلب انتقال خبراء مجموعتنا المقيمين بفندق "شيبرد" للسكن بحى مدينة نصر الجديد على أطراف القاهرة فى مبنى من الطراز الفندقى، كان يقيم فيه الخبراء السوفييت.

وقد برر الجانب المصرى طلبه بأن هذا يعطى إمكانية أكبر لتوفير الحماية الجيدة من جانب جهاز الأمن، ويقلل من مسافة الانتقالات بين مكان الإقامة ومكان العمل الأساسى، ويحد من لفت نظر السكان المحليين والسائحين الأجانب إلى الخبراء الوافدين.

منذ اليوم الأول لوصولنا إلى القاهرة، بدأ العمل بجد وبمسئولية بالتفاعل التام مع أفراد القوات المسلحة المصرية، وقادة مختلف أنواع القوات ووزارة الدفاع وأفراد المستشارين العسكريين بمصر.

كان على أنا واللواء ألكسى إيفانوفيتش بليكوف العمل مباشرة مع مستشار قائد سلاح المهندسين بالقوات المسلحة المصرية ميخائيل أفاناسييفيتش زايكا والجنرال جمال ـ قائد سلاح المهندسين بالقوات المسلحة المصرية والمقدم بدوى والعقيد فتحى إسماعيل وغيرهم من ضباط سلاح المهندسين وقائد الدفاع الجوى بالقوات البرية العميد حلمى وضباط أركان حربه، وكذلك إلى جانب ضباط آخرين وشخصيات مدنية.

وبعد حوالى أربعة أيام من وصولنا، أخبرنى الجنرال بلياكوف أن علىّ أنا والعقيد جريتساى والجنرال زايكا وكذلك الجنرال جمال والعقيد فتحى إسماعيل الذهاب إلى منطقة قناة السويس للتعرف على منطقة الأعمال الحربية.

رحلنا أنا والعقيد جريتساى فى الصباح الباكر من مدينة نصر إلى العباسية، حيث كان يقيم الجنرال بلياكوف. وكان يرافقنا فى سيارة أخرى النقيب محمد عوض من جهاز الأمن ومعه ثلاثة من حاملى المدافع الرشاشة. كان الهواء شفافا وساكنا، وكان الأفق فوق القاهرة مغطى بغيوم كثيفة. كان الجنرال بلياكوف وزايكا وجمال وكذلك العقيد فتحى إسماعيل فى انتظارنا. عند وصولنا إلى الفيلا خرجنا من السيارة وتوجهنا إلى منتظرينا. قاموا بتحيتنا ثم تحدث الجنرال جمال مع الحاضرين موضحا الهدف من زيارتنا ومسار رحلتنا. بعد أن استمعنا إلى جمال، ركبنا السيارات التى كانت تنتظرنا وانطلقنا.

يوجد طريقان من القاهرة إلى الإسماعيلية: الطريق القديم بمحاذاة قناة الإسماعيلية، عبر طريق بلبيس، والطريق الجديد، وهوالأقصر، عبر الصحراء. سرنا فى الطريق القديم بمحاذاة القناة. تركنا هليوبوليس وقطعنا خط السكك الحديدية عند المرج. وبعد أن قطعنا حوالى ١٢كم فى الصحراء المحلية، عبرنا قناة الإسماعيلية عند قرية أبوزعبل. دخلت السيارة إلى طريق القاهرة الإسماعيلية وسارت على الضفة الشمالية للقناة. كان شريط الأسفلت الناعم ينطلق موازيا لمجرى القناة المليئة بالغاب الكثيف. كانت الأشجار العالية تنمو على جانبى الطريق. وكانت تمتد مجموعة من القرى الصغيرة على جانبى القناة وهى غارقة فى حدائق خضراء وحقول ليس لها نهاية تقطعها الترع.

كان توجد سواقى فى بعض الأماكن- وهى عبارة عن عجلات رأسية ضخمة تقوم بضخ الماء من القناة إلى الترع، وكانت تدير هذه العجلات جواميس منهكة تغطيها القذارة.

كانت تصاحبنا على اليمين فى القناة من أبو زعبل إلى القصاصين "فلوكات" منتفخة لها أشرعة مثلثة متعددة الألوان. سمعنا ضرب مدافع مدوى بعيد. وفجأة مرت طائرتان مقاتلتان من طراز ميج ـ٢١ بسرعة كبيرة بصوت مدوى فى اتجاه أبو صوير.

اقتربنا من نيفيش. كانت قناة السويس وبحيرة التمساح أمامنا، حيث كانت تسبح أشباح جبال سيناء فى ضباب منتصف اليوم، بينما كانت مدينة الإسماعيلية على يسارنا، وقد بقيت بذاكرتى كمدينة ناصعة البياض خضراء فى منتصف قناة السويس على ضفة بحيرة التمساح الزرقاء. كانت المدينة مدمرة تقريبا كلها، نتيجة قصفها بالمدافع وإلقاء الطائرات الإسرائيلية القنابل عليها فى أثناء حرب الستة أيام، وبدت كأنها ميتة.

انقسم الطريق إلى اثنين. واحد يدور إلى الجنوب فى اتجاه السويس، أما الآخر فيتعدى الإسماعيلية ويتجه شمالا بمحاذاة قناة السويس إلى بورسعيد.

تحركنا فى اتجاه السويس. كان طريق الإسماعيلية ـ السويس مستقيما وكأنما تم رسمه بمسطرة، ممتدا إلى بعيد. انطلقت السيارات الأربع من طراز جاز ـ ٦٩ منطلقة بسرعة على الأسفلت الناعم.

كانت صحراء حجرية مستوية تماما خالية من أى نوع من النباتات ممتدة على يميننا. أما على يسارنا، خلف خط السكة الحديدية الإسماعيلية ـ السويس، فكانت تلمع مياه البحيرة المرة الكبرى المرمرية التى تضوى بلون فضى تحت أشعة الشمس، كما كانت تقف فى وسطها عدة سفن احتجزت هنا منذ بدء العمليات الحربية بين مصر وإسرائيل فى عام ١٩٦٧.

ارتفع الطريق على منحدر تدريجى لجبل. ظهرت طائرتا "فانتوم" فى السماء من جانب سيناء تطيران على ارتفاع متوسط، كما ظهرت فى البعد فوق سيناء طائرتان أخرتان تطيران على ارتفاع كبير.. كان المكان كله مكشوفا جيدا، ولا يوجد به أى مكان يمكن الاختفاء فيه. لمحنا الطياران، فاستدارت إحدى طائرتى الفانتوم وطارت بمحاذاة الطريق، ثم تبعتها الطائرة الأخرى. فى تلك اللحظة استدارت السيارة التى فى الأمام بحدة وانطلقت بسرعة هائلة وهى تقفز فوق الأحجار وطارت داخلة إلى نفق تحت طريق السكة الحديدية، وتبعتها بقية السيارات. كانت قد سبقتنا إلى هناك سيارة وأربعة ضباط من قيادة آلاى المدفعية المتمركز بالقرب من قرية فايد.

اندفعنا خارجين من السيارة وتابعنا باهتمام الطائرات. كان من الواضح أن الحيرة انتابت الطيارين لأنهما قد فقدونا. مرت الطائرتان بمحاذاة الطريق

وشريط السكة الحديدية فى اتجاه السويس. ثم بعد بضعة دقائق، ظهرت الطائرتان مرة أخرى. اهتزت الأرض من ثلاثة انفجارات. كما اهتز النفق. تساقط شىء ما من السقف. اصطدمت موجة الانفجار على بوابة النفق. ارتفعت فى الهواء الرمال والحجارة، فامتلأ الهواء بالأتربة وبدخان لاذع الرائحة. انقشعت الأتربة بعد ١٠-١٥ دقيقة، ولكن بقيت فى الهواء رائحة البارود. نظرنا خارج مخبأنا بحرص فرأينا ثلاث حفر. كانت إحدى القنابل قد سقطت بجانب خط السكة الحديدية قريبا من النفق، أما الأخرتان فقط سقطتا على بعد ١٥٠ ـ ٢٠٠ متر من طريق السكة الحديدية. سمعنا انفجارات مكتومة على جانب الإسماعيلية، وارتفعت أعمدة الدخان.

انتظرنا بعض الوقت ثم فحصنا السماء من جهة سيناء بدقة، وبعد ذلك تركنا مخبأنا وركبنا السيارات وانطلقنا على الطريق. بعد أن قطعنا عدة كيلومترات، انعطفنا إلى اليمين على مدق يمر بين التلال، فوصلنا بعد ٢٠ ـ ٢٥ دقيقة إلى مواقع مجموعة المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات "دفينا" التى كانت قد أصابها الضرر. وضعنا السيارات فى محبأ وتجولنا فى الموقع، حيث شاهدنا كل الإنشاءات الموجودة هنا بدقة. رأينا الحفر التى كونتها القنابل فى كل مكان. كانت الخنادق الخاصة بمنصات الإطلاق مدمرة أو أصابها ضرر، كما كانت مخابئ الهوائيات مدمرة. لم تكن تضررت إنشاءات كبائن توجيه صواريخ. ومحطات الكهرباء التى تعمل بالكيروسين وسيارات نقل الوقود والصواريخ وغيرها من المعدات. وكذلك لم يصيب الضرر مخابئ الأفراد المبنية من خرسانة مسلحة من قطعة واحدة. كانت البوابات المعدنية الواقية وحدها مصابة بأضرار. كان كل ذلك يدل على أن الكبائن والآلات الموجودة داخل مخابئ الحماية (الإنشاءات)، كانت سليمة. لم يصب الأفراد هم أيضا. رأينا تدميرًا مماثلاً فى موقعين آخرين قمنا بزيارتهما فى ذلك اليوم.

كان تكتيك العمليات التى يقوم بها الطيران الإسرائيلى ضد كتائب المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات كما يلى ـ إتلاف هوائى محطة التوجيه ومنصات الإطلاق، وبذلك يتم الحد من أداء الكتيبة.

نظرا إلى أن مجموعة "دفينا"(٢٨) لم تكن تتعامل مع الأهداف التى تطير على ارتفاع منخفض، وأنه كانت توجد لها منطقة ميتة (مخروطية الشكل)، حيث إنه كان لمنصات الإطلاق حد للزاوية الرأسية لإطلاق الصاروخ، فإن الطيران الإسرائيلى استخدم المناورة التالية: كانت الطائرة تتجه إلى المحطة على ارتفاع منخفض وبسرعة محدودة، ثم كانت ترتفع. وبعد أن كانت تتعدى منطقة تأثير الكتيبة، كانت الطائرة تدخل إلى المخروط. وبعد ذلك عند وصول الطائرة إلى أعلى نقطة، كانت تحاول إصابة الهدف بإطلاق قنابلها مباشرة عليه. وبعد أن تخرج الطائرة من أعلى نقطة كانت تنحرف خارجة من الموقع. لقد شاهدت هذا النوع من المناورات الإسرائيلية بنفسى فى نوفمبر عام ١٩٦٩ عند إغارة الطيران على إحدى كتائب مجموعة مدفعية وصواريخ مضادة للطائرات "دفينا" بالقرب من القاهرة. كما كانت توجد معلومات مماثلة بمركز قيادة قائد الدفاع الجوى للقوات البرية العميد حلمى.

بدأت الدنيا تظلم، فحان موعد العودة. اتجهت السيارات إلى طريق السويس ـ القاهرة وسارت إلى المدينة. وصلنا عائدين إلى القاهرة متأخرين فى المساء وكنا منهكين ومتسخين. كان علينا فى اليوم التالى دراسة المعلومات التى قدمها الجانب المصرى وكذلك إعداد اقتراحات لتقديم تقريرنا عن نتائج زيارتنا لمنطقة قناة السويس.

استيقظت القاهرة فى حوالى الساعة السادسة صباحا على صوت الطائرات والضربات المدوية لموجات الانفجارات ـ كانت هذه طائرات "فانتوم" اخترقت حاجز الدفاع الجوى إلى المدينة. عندما كانت سرعة الطائرات تتعدى سرعة الصوت، كانت تبتعد بارتفاع منخفض فى اتجاه قناة السويس.

لم أعد أرغب فى النوم. خرجنا أنا وبوريس جريتساى إلى الشارع. كان الصباح هادئا. وكان يظهر فى الشرق، بعيدا عن المبانى السكنية، مبنى القيادة العامة الداكن على خلفية سماء الصباح الشفافة. وكانت توجد صافرة أعلاه تنذر أحياء القاهرة القريبة بوقوع غارة جوية. كانت الصافرة اليوم صامتة. وعندما

(٢٨) اسم أحد الأنهار بالجزء الأوروبى من روسيا أطلق على أحد أنواع الصواريخ.

كان يجرى الإنذار بوقوع غارة جوية بعد حلول الظلام، كان يتم إطفاء النور فى كل أحياء المدينة. وكانت القاهرة تغرق فى الظلام.

سرنا بعض الوقت فى الشارع وتطلعنا إلى المحلات التجارية التى كانت قد بدأت بها التجارة بنشاط، ثم عدنا إلى فندقنا. كان يقف الرجال بجلابياتهم البيضاء والزرقاء الزاهية فى مجموعات يناقشون موضوعًا ما، بينما كانت النساء تتجه مسرعات إلى السوق بملاءاتهن السوداء. فرد بائع الجرائد بضاعته على الرصيف. انتظرنا السيارات بعد تناولنا إفطارنا بالفندق، وانطلقنا إلى المكتب.

تم فى المساء عرض المواد التى تلقيناها من قيادة الدفاع الجوى وقيادة سلاح المهندسين وكذلك نتائج رحلتنا إلى منطقة قناة السويس.

اعتبارا من منتصف عام ١٩٦٩، بدأ الطيران الإسرائيلى فى تكثيف عملياته ضد أهداف الدفاع الجوى وسلاح طيران الجيش المصرى. وقد وجه الطيران الإسرائيلى فى شهرى نوفمبر وديسمبر وحدهما ٥٥ ضربة بالصواريخ والقنابل لأربعة مواقع للمدفعية والصواريخ المضادة للطائرات "دفينا" بعجرود وجنيفا وأبو صوير وأبو سلطان الموجودة بمنطقة قناة السويس، وأغار كذلك ١٢ مرة على مطارى أبو صوير وبنى سويف.

كانت الأهداف التى يجب على أنا والجنرال بلياكوف تحقيقها تتمثل فى التعرف على تجهيزات بطاريات المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات، وفحص موقع المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات "دفينات" الذى فقد صلاحيته فى المنطقة المتاخمة للقناة، وكذلك تحليل الوضع القائم وتكتيك الطيران الإسرائيلى عند إغارته على مواقع كتائب المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات، وإعداد عدة اختيارات تكون الأكثر كفاءة للتجهيزات الأرضية لمجموعات المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات، مع مراعاة أداء مختلف أنواع الذخائر، والمشاركة فى أعمال الاستكشاف من أجل اختيار مواقع تمركز مجموعات المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات "يتشيرا" المركزية (القاهرية) والشمالية (السكندرية). وكان يجب إنجاز كل هذه الأهداف بالتعاون اللصيق مع خبراء مختلف الجهات المعنية والمستشارين العسكريين.

وبالإضافة إلى ذلك، نظرا للظروف الخاصة المحلية، كان من المطلوب تصحيح بعض القرارات المتضمنة فى مشاريع إنشاء الأهداف "تولبان"[٢٩] و"قافقاز" التى وضعها الجانب السوفييتى وسلمها لمصر.

فى يوم ٢٥ يناير سافرنا إلى الإسكندرية أنا وبلياكوف وزايكا وجريتساى والجنرال جمال والمترجم يورى والرائد هاشم عمر من جهاز أمن مصر.

عبرت السيارة "الشيفروليه" السوداء الكبيرة شارع رمسيس ودخلت فى عمق حى شبرا. كانت توجد على الجانبين منازل رمادية - صفراء اللون متعددة الطوابق تحيط بها ساحات مترية وقذرة، ولم تكن توجد هناك ولا شجرة واحدة أوأى نجيل. مر الطريق بأطراف القاهرة. انتهت المنازل السكنية، وامتدت بمحاذاة الطريق مناطق صناعية ومخازن وجبال من القمامة المتعفنة التى تنبعث للروائح الكريهة.

خرجنا من المدينة. كانت هناك حقول لا نهائية ممتدة على جانبى الطريق تقطعها القنوات المائية. وكانت توجد فى بعض الأماكن غابات من النخيل وحدائق خضراء.

كان يمر خط السكة الحديدية القاهرة - الإسكندرية على الجانب الأيمن موازيا للطريق، وكانت تسير عليه قطارات ركاب بيضاء انسيابية الشكل بسرعة هائلة. وكان يسير فى الاتجاه المضاد دفق مستمر من سيارات النقل الملونة. كان ذلك يومًا صيفيًا حارًا.

كانت تظهر إشارات مرور ثنائية الألوان ومزلقان وكشك خشبى مشابه لحواجز تفتيش على الجانب الأيمن. سرنا بضعة عشرات من الأمتار ولاحظنا أن عرض الطريق قد اتسع إلى ٤٠ - ٥٠ مترا، وأنه قد تفرعت منه جانبا ثلاثة طرق صغيرة أسفلتية طولها حوالى ١٠٠ متر. كانت توجد عدة مبانٍ صغيرة واقفة وسط أشجار مخضرة على اليمين، وكانت مموهة بلون المكان، كما كانت تظهر على البعد بعض التلال تذكرنا بمخابئ الطائرات المقوسة. أجاب الجنرال جمال

(٢٩) زهرة التيوليب بالروسية.

على سؤالنا الصامت قائلا إنه قد تم تحويل بعض أجزاء طريق السيارات السريع إلى ممرات انطلاق وهبوط للطائرات، وبجانبها، تم تجهيز مواقع لتمركز الطائرات، مما يسمح بزيادة قدرة الطائرات على المناورة عند الحاجة.

اقترينا من مدينة بنها واجتزناها، ثم عبرنا فرع النيل الأيمن فوق الجسر المعدنى القديم متجهين إلى مدينة طنطا.

كما فى السابق، كان خط السكة الحديدية يمتد على الجانب الأيمن، وأينما نظرت حولك تجد المكان مغطى بشبكة من قنوات رى الحقول وغابات الأشجار ونخيل البلح والمنازل المصنوعة من الطين بأسطحها المستوية والأسوار الكبيرة المصنوعة هى أيضا من الطين، والتى تحيطها. كانت تظهر أبراج الحمام التى ترتفع فوق كل المنشآت التى حولها كجزء لا يتجزأ من القرى، فكانت تبدوعلى هيئة قباب أو أبراج متوازية المستطيلات مدهونة باللون الأبيض. وهنا توضع أوانٍ بلا قاع فى برج الحمام كعشوش جاهزة. ويلاحظ أنهم يأكلون الحمام فى مصر، حيث إن لحمها يعتبر لذيذا. كما تعلو مآذن المساجد جميلة الشكل فوق القرى الكبيرة.

يمكن فى أى وقت رؤية الفلاحين يعملون فى الحقول بجلابيبهم البيضاء أو الزرقاء أوالمقلمة والمعقودة حول وسطهم وسراويل بيضاء تصل حتى تحت الركبتين، وكذلك جواميس كبيرة ذات بقع كبيرة رمادية ولها قرون ضخمة.

تجاوزنا طنطا التى تمثل مركزا كبيرا للمواصلات ومدينة صناعية. عبرنا الفرع الأيسر لنهر النيل واستمررنا فى الحركة فى اتجاه مدينة دمنهور. بعد حوالى ٣٠ كم أوقف الجنرال جمال السيارة بالقرب من مطعم صغير على جانب الطريق واقترح علينا الدخول لتناول الغداء. دخلنا إلى قاعة صغيرة ونظيفة، حيث كان يجلس عدد من العرب يدخنون الشيشة. أجلسنا صاحب المحل، وهوعربى طويل القامة يرتدى جلابية بيضاء نظيفة، إلى مائدة وخرج من القاعة بسرعة. بعد بعض الوقت، ظهرت على المائدة أطباق ضخمة من السلطة الرائعة، حيث كانت مصنوعة من حبات الطماطم والخيار والخس والبصل والبنجر الطازجه. كانت الخضراوات قد صب عليها خل العنب وزيت الزيتون. كما وضعت أرغفة من الخبز البلدى المنتفش الساخن وعدة زجاجات صودا وكوكاكولا على

المائدة. ثم جاء دور تقديم الطبق الثانى ـ الأرز وقطع من اللحم المحمر مع صلصة حارة. أما الطبق الثالث فكان عبارة عن فواكه وتمر طازج. وليس من المعتاد هنا القيام فورا من على المائدة. هذه هى العادة هنا.

دخن كل منا سيجارتين وتبادلنا الخطط التالية، دفعنا الحساب وشكرنا صاحب المكان، ثم انطلقنا مواصلين طريقنا إلى الإسكندرية. وصل الطريق الذى كنا نسير عليه إلى ضفة قناة المحمودية التى تصل الفرع الأيسر لنهر النيل بالإسكندرية (الميناء والمرسى الغربى) انعطفت سيارتنا إلى اليسار بمحاذاة القناة متجهة إلى الإسكندرية.

استقبلتنا الإسكندرية بالجمال الخلاب للمدينة الساحلية الشرقية، وبقبب المساجد اللامعة تحت أشعة الشمس، والمآذن ذات الأشكال الحادة والعدد الضخم من الإعلانات. يمتد بها طريق الكورنيش الأسفلتى لأكثر من ٢٥ كم بمحاذاة شاطئ البحر، حيث كانت تظهر الرغاوى على سطح مياه البحر الأبيض المتوسط على أحد جانبيه، بينما ارتفعت الفنادق الناصعة البياض متعددة الطوابق والمنازل السكنية التى كنت تمتد بحذاها أشجار نخيل عالية.

انطلقت السيارة على شارع الكورنيش وتخطت عربات الحنطور، التى تحظى هنا بشعبية كبيرة. كان الباعة الجائلون مصطفين عند الحاجز الحجرى، حيث يمكن أن تجد على عرباتهم المكسرات المالحة المحمصة، واللوز الحلو، والبلح، وعصير البرتقال البارد.

توقفت السيارة الشيفروليه عند مدخل فندق "الإسكندرية" الفخم المتعدد الطوابق، حيث كنا سنقيم لعدة أيام.

حل المساء. ومع آخر أشعة الشمس المغربة، بدأت تظهر أضواء إعلانات النيون الملونة باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية.

كانت بضعة الأيام التى أمضيناها بالإسكندرية مشحونة تماما، فقد كان علينا قطع المسافة بين قرية إدكوإلى قرية اليمام ومحطة السكة الحديدية بها على طريق ساحل البحر الأبيض المتوسط للتأكد من المناطق والتعرف على الأماكن المحددة لتمركز وحدات إطلاق النيران، وإجراء المفاوضات مع شركات البناء،

وتقرير عدة مواضيع متعلقة بتواريخ الانتهاء من أعمال البناء والإنتاج. وقد كان علىَّ شخصيا، فى خلال هذه الأيام، دراسة ووضع مختلف المخططات العامة لمواقع تمركز وحدات إطلاق النيران المناسبة للظروف المحلية فى هذه الأماكن، ومنها الوحدة التى كان من المقترح تمركزها على لسان السلسلة. كان هذا المكان هو الأنسب بين كل الأماكن المختارة لتمركز الكتائب، حيث إنه كان يحقق تقريبا كل ما هو مطلوب.

لسان السلسلة عبارة عن امتداد حجرى طبيعى يدخل إلى مسافة بعيدة فى البحر، ويفصل المرفأ الشرقى عن البحر الأبيض المتوسط. كانت توجد منصة مستديرة صغيرة عند طرف اللسان، يقف عليها نادٍ ليلى ومطعم. وكان قد تم إنشاء تمثال "التحرير" عند الساحل بمدخل اللسان فى الستينيات، معبرا عن حرية مصر. كان يظهر من على اللسان منظر بانورامى للمدينة بدءا من لسان فاروس، وعليه قلعة قايتباى، فى الغرب، إلى منطقة المنتزة حيث يوجد قصر آخر ملوك مصر ـ الملك فاروق ـ ولسان أبوقير شرقا. قررنا استخدام هذا اللسان لتمركز كتيبة المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات "بيتشيرا".

تم الانتهاء من بناء مركز إطلاق النيران بالسلسلة فى الموعد المحدد. وقد تم نشر كتيبة المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات "بيتشيرا"(٣٠) التى وصلت إلى مصر بهذا الموقع تحت إشراف المقدم خيوستوف ليف ديميتريفيتش.

عندما توفرت لدىَّ ساعتان دون عمل، ذهبت مع يورا إلى الجزء العربى من المدينة. وهنا يوجد بين شارع رأس التين والمرفأ الشرقى أقدم وأجمل مساجد الإسكندرية ـ جامع المرسى أبوالعباس.

عندما تنظر إلى القبب المخرمة الناصعة البياض والأفاريز المشغولة والمئذنة الجميلة الشكل لجامع المرسى أبوالعباس على خلفية السماء الزرقاء الخالية من السحب، سوف تدهشك مهارة وفن الذين قاموا ببنائه.

كانت الساحة التى أمام الجامع مليئة بالناس. كانت النساء جالسات بملابسهن السوداء على الدرج والبلاط الحجريين عند مدخل الجامع ينتظرن انتهاء الصلاة.

---

(٣٠) اسم نهر فى شمال الجزء الأوروبى من روسيا.

كان يوجد لغط لايتوقف فوق كل هذا الزحام. بينما كان يخترق صياح الباعة الجائلين هذه الضوضاء. كان يظهر فى الزحام فى كل مكان رجال شرطة برتبة "شاويش" بملابس بيضاء وحمالات سوداء يحافظون على النظام. تعبنا من كل هذا الضجيج فجلسنا فى السيارة وتوجهنا إلى الفندق.

فى يوم ٣١ يناير، اتصل كل من بيلياكوف والجنرال جمال بالقاهرة مقدمين تقريرا عن العمل الذى أنجزناه، وعندما حصلوا على الرضاء، سارت كل مجموعتنا فى طريق العودة.

كان على القيام بعدد من الحسابات الخاصة بتأثير مختلف الذخائر على المنشآت ومختلف عناصرها الإنشائية، وتحديد أنسب وأكفأ الحلول الإنشائية، ووضع الحلول النمطية لتخطيط مواقع إطلاق النيران الدائمة والمؤقتة لمركزة كتائب مجموعات المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات "بيتشيرا"، ووضع بعض المخططات العامة المحددة للمنصات الأكثر تعقيدا للمجموعة المركزية (القاهرية) والشمالية (السكندرية)، والمشاركة فى تنظيم بناء بعض المنصات.

عرض الخبراء السوفييت الأماكن التى تم اختيارها لنشر مجموعات المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات "بيتشيرا" و"دفينا" والتواريخ التقديرية لبناء المواقع بمراعاة مواعيد وصول القوات السوفييتية المعنية. بقى أمامنا تكوين ثلاث كتائب هندسية بمنطقة القاهرة (الحلمية، مطار غرب القاهرة، وإنشاص)، وكتيبة هندسية بمنطقة الإسكندرية، وواحدة بمنطقة أسوان واستخدام الكتيبة الهندسية الموجودة بمنطقة الإسكندرية والبطاريات الهندسية بمنطقة مدينة أسوان، واستخدام نقط قيادة الألوية الموجودة وتلك التى جارى إنشاؤها (ثلاثة) ـ القاهرة، السويس، والإسكندرية. كما تم اقتراح عدة خيارات لدرجة حماية الإنشاءات (المخابئ) لكى توضع بها المعدات فى المراكز الثابتة، وعرض أيضا اقتراح إنشاء عدد من المواقع الاحتياطية الميدانية ومن المواقع الزائفة وتوفير الحماية لكل من المواقع الثابتة والاحتياطية بواسطة وحدات المدفعية المضادة للطائرات "شيلكا" المتحركة ونظم "ستريلا".

وفى نهاية شهر يناير، حضر إلى مصر مارشال الاتحاد السوفييتى ب.ف.باتيتسكى الذى رأس عمل مجموعة العمليات. وقد قدم الفريق أول

أ.ف.شيجلوف تقريرا للمارشال با تيتسكى بالمقترحات التى تم إعدادها، وقد وافق عليها المارشال.

وفى الأيام الأولى من شهر فبراير عرض المارشال باتيتسكى على رئيس جمهورية مصر جمال عبدالناصر نتائج العمل المشترك الذى أنجزه الخبراء العسكريون السوفييت والمصريون وكذلك الاقتراحات التى تم وضعها.

وقد حضر العشاء الذى أقامه رئيس مصر جمال عبدالناصر على شرف الوفد العسكرى للاتحاد السوفييتى كل من: نائب رئيس جمهورية مصر أنور السادات، سفير الاتحاد السوفييتى بمصر ف. م. فينوجرادوف، المارشال باتيتسكى، الجنرال شيجلوف، الجنرال يفيموف وجنرالات آخرون وضباط الوفد العسكرى السوفييتى، وكذلك ضباط آخرون.

رفع ناصر كأس شمبانيا قائلا: "إن الحكومة المصرية وأنا شخصيا راضيان تماما عن العمل الذى تم إنجازه، وعن المشاركة التى أظهرها الاتحاد السوفييتى فى موضوع حماية مصر من اعتداءات الإمبرياليين على استقلالنا. لقد أيدنا الاتحاد السوفييتى تأييدا كاملا فى وقت العدوان الإسرائيلى فى عام ١٩٦٧، واليوم الاتحاد السوفييتى معنا فى معركتنا. وهذا أحد أهم العناصر التى تدل على أننا نزيل آثار العدوان. إن الاتحاد السوفييتى يقدم لنا مساندة سياسية ومساعدة اقتصادية، ويقدم لنا السلاح ويساعدنا بالخبراء فى موضوع إعادة بناء وإعادة تسليح جيشنا".

وعند نهاية مارس كان قد تم الانتهاء من أعمال الإنشاءات الهندسية الأساسية الخاصة بتجهيز منصات نصب مجموعات المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات "بيتشيرا".

ذكريات قائد بطارية

ف. ف. زاخاروف

بقيت فى ذاكرتى عن فترة عملى بمصر المعركة التى دارت بمنطقة قناة السويس. ففى يوم ٣٠ يوليه عام ١٩٧٠ وبينما كنت فى منطقة كوم ـ أوشيم جنوب شرق القاهرة أقوم بنوبة عسكرية لحماية سرب طائرات (طائرات ميج ـ ٢١ سوفييتية عليها طيارونا)، جاءنا أمر بأن نقوم بفك مجموعة الصواريخ المضادة للطائرات "س ـ ١٢٥" وأن نتحرك مساء إلى منطقة أبو زعبل. قمنا بسرعة بفك وحدة الهوائى والكابينة وإنشاءات الإطلاق. وقد تم ذلك فى ساعة واحدة وعشرين دقيقة، بينما كان الزمن القياسى المعتاد هو ساعتان وخمس عشرة دقيقة، وسرنا فى قافلة. انضمت إلينا وحدات "شيلكا" (وحدات مدفعية مضادة للطائرات عيار ٢٣ مم)، ورماة الصواريخ المضادة للطائرات مع مجموعات "ستريلا ٢") قائد فصيلة "شيلكا" و"ستريلا ٢" ـ كريفوشى نيقولاى). ثم تحركنا عبر القاهرة فى فترة المساء.

كانت الوجوه التى شابها الاستغراب كثيرة فى عاصمة مصر، ولكن لم تقع أية حوادث، إلا حادثًا واحدًا. فعند دخولنا إلى القاهرة احترق غطاء الأدوات والمعدات الاحتياطية الموضوعة بين الصواريخ على إحدى سيارات نقل وشحن الصواريخ. كان يمكن أن تكون العواقب سيئة للغاية، قد تصل إلى التشغيل الذاتى لمحرك بداية الحركة، ولكن تمكن باراباش ميشا والسائق بسرعة من إطفاء اللهب باستخدام الوسائل المتوفرة. لم يكن هناك وقت للبحث عن أسباب الاشتعال، ولكننا توصلنا إلى استنتاج أنه تم إلقاء شىء ما مشتعل من وسط الزحام على سيارة نقل وشحن الصواريخ.

كانت سرعة حركتنا بطيئة بسبب تحرك "الشيلكا" على جنزير، وثقل وحدات إطلاق الصواريخ، ولكننا وصلنا فى الوقت المحدد إلى النقطة المحددة "أبو زعبل" بدون وقوع أية حوادث مؤلمة أوخسائر. فى الحقيقة كان أحد سائقى سيارات نقل وشحن الصواريخ قد اقترب جدا من إحدى الأشجار المزروعة على جانب الطريق فاشتبك بإحدى عقدها التى طبقت مفجر أحد الصواريخ الذى يفجره عن بعد.

توقفنا طويلا فى أبو زعبل، أمضينا الليل بها. نمنا فى السيارات وفى الهواء الطلق. وتم توزيع نموسيات للوقاية من البعوض، فلم يكن من الممكن النوم بدونها. وإذا لمست يدك النموسية فى أثناء النوم كان البعوض يلدغها بحيث ينزع الجلد من بعض الأماكن. وفى الصباح، ذهب قائد الكتيبة بوبوف كونسطنتين اليتش ورئيس الاستخبارات بترينكو ميخائيل بيتروفيتش إلى منطقة الإسماعيلية على قناة السويس من أجل الاستكشاف واختيار مكان نشر مجموعة "س ـ ١٢٥" و"الشيلكات" و"الستريللا ـ ٢" وكذلك من أجل اختيار اتجاه التفاعل مع باقى وحدات الدفاع الجوى التى كان يجب أن تنتشر معنا.

عند وصولنا إلى منطقة قناة السويس، حيث كانت طائرات إسرائيل عامة توجه ضربات بالصواريخ والقنابل إلى المواقع الأمامية للجيش المصرى بدون أن تنال أى عقاب، شرح قائد الكتيبة الوضع للأفراد وأصدر أمرًا بالتحرك إلى منطقة الإسماعيلية والانتشار والاستعداد لإطلاق النيران.

طبقا للتقاليد الروسية قبل المعارك، اجتمعنا (قائد الكتيبة، ورئيس الأركان، ونائب رئيس الشئون السياسية، وقادة البطاريات) وشربنا قليلا متمنين النجاح فى المعركة القادمة واتفقنا برجولة على ألا نسمح بظهور التوتر العصبى أوالفظاظة فى أثناء المعركة، وعلى الأحرى ذعر، مهما كان الوضع صعبا. لم يكن يرغب أحد فى الهلاك.

فى المساء، ونحن نتحرك، فهمنا كلنا أنه لا يوجد وقت للاستعداد للقتال، وأن المكان غير مألوف لنا، وأنه يجب أن تنفيذ كل شىء بسرعة وبذكاء. انتهينا من الانتقال بنجاح وبدون خسائر، على الرغم من أننا كنا نتحرك بمنطقة القناة بدون إضاءة أى فانوس. كنا نستخدم فى بعض الأحيان جهاز التمويه الضوئى. انتشرنا بموقعنا فور وصولنا. كان يجب على قادة فصائل الإطلاق فورونين نيكولاى

ايفانوفيتش وموفتشان نيكولاى فيدوروفيتس، وكذلك على قائد فصيلة رماة الصواريخ ومعدات "الشيلكا" نيقولاى كريفوشى أن يقوموا بنشر المعدات والاستعداد للقتال. تم نشر منصات الإطلاق بسرعة أكبر مرتين من الزمن القياسى المقدر لذلك. تم ضبط معدات التوجيه طبقا للنجم القطبى، وكنا مستعدين للقتال. وبعد أن تم نشر نقطة الهوائى وسمح لنا الوضع الجوى، قمنا بمراجعة التوجيه وفحصنا عمل كل شىء.

فى حوالى الساعة ١٢ قامت مجموعة "س ـ ٧٥" المجاورة، المكونة من أفراد مصريين وخبرائنا بإسقاط طائرة "سكاى هوك" فوق شبه جزيرة سيناء (فوق أراضى العدو)، مما أعطى فرصة للعدو لإدراك وجود مجموعات صواريخنا. أحضروا لنا الغداء. أكلنا فى الخنادق على نوبات، لخفض الخسائر فى حالة حدوث هجوم مفاجئ. فى ذلك الوقت بالذات، هاجم العدو فجأة التشكيلات القتالية لكتائبنا بواسطة أربعين طائرة من مختلف الاتجاهات. استمرت المعركة ست دقائق. وقد أطلقت كتيبتنا، بقيادة بوبوف، ستة من الثمانية صواريخ فأصابت طائرتين ـ "ميراج" و"فانتوم". كان ما يحدث فى السماء شيئًا غير ممكن، فكنت ترى ذيول دخان الطائرتين المصابتين مع القنابل. وقد أفادتنى لاسلكيا إحدى وحدات "الشيلكا" أنها قد أطلقت النار، وأنه قد تم استهلاك ألف طلقة. ثم تبين فيما بعد أن الرقيب ـ قائد الوحدة ـ أخطأ فى تحديد ارتفاع طائرة العدو وهو يستخدم جهاز التنشين الآلى. كانت الطائرة على ارتفاع ٥.٤كم، ولكن تهيأ للرقيب أنها على ارتفاع أقل بكثير، فوقه تماما. طبقا لبياناتها الفنية التكتيكية، فإن وحدة "الشيلكا" تدمر الهدف على ارتفاع لا يزيد على ٣كم. كان من الصعب على الرقيب تبرير موقفه بعد ذلك أمام رئيسه الذى كان لديه حجة واحدة: "بما أنك فتحت النار، لماذا لم تسقط الطائرات؟".

بعد إطلاق صواريخنا، احترقت الإنشاءات والخيم والشبكات المعدة للتمويه. بدأت تسقط كميات كبيرة من القنابل التى ألقتها الطائرات بدون توجيهها على الهدف. دمر انفجار قنبلة إحدى وحدات "الشيلكا" حيث أصابتها شظايا وحولتها إلى ما يشابه شبكة، وألقاها إلى مكان جديد. كان الطاقم داخل الكابينة فى مكان عمله،لذلك لم تتم إصابة أى منهم. وقد تم إخماد حريق الإنشاءات

والخيمات والشبكات المموهة باستخدام الوسائل المتوفرة للإطفاء تحت إشراف القائد فورونين.

عادة يسود الهدوء بعد المعركة. كان هذا الهدوء عندنا مكريا. كان قد بقى لدينا صاروخان بالمجموعة الرئيسية، وكان جهاز التفجير اللاسلكى بأحدهما مطبقا، وهوما لم يكن يضمن إصابة الهدف بنسبة ١٠٠٪ .أما المجموعة الثانية (ثمانية صواريخ) من صواريخ القتال فقد كانت موجودة بالقاهرة. وإذا كان العدو قد قام بغارة ثانية على ارتفاعات متوسطة أو عالية، فلم يكن موقفنا حسنا. بعد حوالى ساعة ونصف أحضروا لنا مجموعة صواريخ القتال الثانية، نصبناها بسرعة على منصات الإطلاق، فتحسن الموقف. صدر إلينا أمر فى المساء: "جمع المعدات والتحرك واحتلال موقع جديد على بعد ٣٠ كم من الموقع الذى نشغله". سبق أفراد الكتيبة الأزمنة القياسية المعتادة وقاموا بتنفيذ المهمات التى كلفوا بها باحتراف ووعى، على الرغم من أنه تم تنفيذ كل الأعمال فى ظلام مطلق (لم يتم إشعال أية فوانيس أونيران من أجل التمويه). كنا دائما نجد حفرًا ناتجة من القنابل على طريق سيرنا، وكان يمكن أن نقع فيها فى أية لحظة فى أثناء انتقالنا. وقد تحمل أفراد الكتيبة هذه التجربة بشرف على الرغم من عدم نومهم لمدة يومين. وأنا أنحنى تماما أمام قادة فصائل الإطلاق فورونين ن. إ.، موفتشان ن. ف.، وكريفوشيون.، وأمام قادة وحدات الإطلاق باراباش إ.، جنيزدوف ج. وأمام كل الجنود.

فلأقل بضعة كلمات عن الأممية. كان قد تم منح كتيبة الصواريخ عددًا من حاملى اللوح الطبوغرافية المستوية وحراس "الشيلكا" والمجموعات المحمولة "ستريلا ـ ٢" من العرب. كنت أرأسهم، وهو ما كان يمثل صعوبات كثيرة، حيث لم يكن يوجد معنا مترجم، فكنا نتفاهم على قدر الإمكان. كان من النادر جدا أن يحضر الضباط المصريون لزيارة مرءوسيهم، كما لم يكونوا يهتمون بحياتهم ومعيشتهم. يجب هنا أن أشير إلى أنه فى أثناء تعامل العرب مع جنودنا ورقبائنا وضباطنا بخصوص أمور الخدمة، اكتسبوا بسرعة خبرة التحدث بالروسية ولو بلكنة، ولكنهم تمكنوا من لغة الحديث. فى ذلك الوقت، كان مخزون الكلمات العربية عند جنودنا وضباطنا يمثل حوالى عشرين كلمة.. حضر وزير دفاع

جمهورية مصر العربية فوزى احتفال وداع قواتنا العائدة إلى الاتحاد السوفييتى. رأيت أن فؤاد ـ حامل اللوح الطبوغرافية المستوية الذى كان يعمل معنا موجود دائما بالقرب من وزير دفاع الجمهورية العربية المتحدة. تبين أنه قد تم تعيين فؤاد ضمن مجموعة المترجمين العاملين مع وزير الدفاع. وهكذا درس فؤاد اللغة الروسية بعد أن بدأ من الصفر تماما.

أتذكر أيضا ذلك الموقف. عندما كان العرب يحتفلون بشهر رمضان، لم يكونوا يأكلون منذ شروق إلى غروب الشمس، طبقا لقوانين المسلمين السائدة. أخبرنى طباخنا بأن العرب لم يتناولوا إفطارهم. ذهبت إليهم لاستطلاع الأمر وديا. اشترطوا أن يتم فى خلال شهر رمضان إعداد طعامهم وتقديمه لهم فى المساء. كان طباخنا روستام شاكيروف لا يستطيع إعداد الطعام مرة أخرى فى المساء، حيث إن قواه لا تكفى. اقترحت عليهم أن يترك لهم الأطعمة التى يتم تقديمها على العشاء حتى يمكنهم تسخينها فى الليل وتناولها. وافق العرب على ذلك فى البداية. قاموا بالصيام لمدة نهارين، وفى اليوم الثالث جاءوا إلى خيمة المطعم وأصبحوا يتناولون الطعام طبقا للنظام المعتاد مع جنودنا. كان عددهم ١٠ أفراد.

حتى اليوم لا أستطيع أن أسامح نفسى على هفوتى التى تمت بسبب جهلى بالنظام المتبع فى الجيش المصرى. كان يحرس ضباط شرطة وجنود عرب مواقع مجموعاتنا من "ستريلا ـ ٢" فى الصحراء، حيث كانت على بعد ٣-٤ كم من المجموعة الأساسى من "س ـ ١٢٥"، لحمايتها من الهجمات المفاجئة، وذات مرة اشتكى أحد رماة المدفعية المضادة للطائرات الجندى لينيك من أنه عندهم بالموقع، قام أحد الحراس العرب بقطع جزء من مشمع المظلة الواقية من أشعة الشمس الحارقة. كانت درجة الحرارة تصل إلى الى ٥٣ درجة مئوية فى الظل. وفى أحد اللقاءات الدورية مع ضابط مصرى أشرت بشكل جانبى إلى ذلك، اعتقادا منى أن الضابط سوف يلوم ويعاتب وينذر الحارس، كما يحدث عندنا. ولكن بعد يومين وأنا أمر على النقطة بهدف التفتيش على استعداد رماة المدفعية المضادة للطائرات للقتال، رأيت عند النقطة التى تم فيها قطع قطعة من مشمع المظلة جندى حراسة آخر. سألت عن الجندى السابق. أجابونى: كلابوش"، وهوما يعنى أنه "تم وضعه فى السجن". بالطبع كان ذلك قاسيا جدا. ولكن كانت هذه هى قوانينهم.

عامة، يجب أن أقول إن كل الجنود العرب كانوا يؤدون الخدمة العسكرية بمستوى طبيعى: كل من حاملى اللوحات الطبوغرافية المستوية وجنود الحراسة. بالطبع كانت تحدث أخطاء فى عملهم: قد ينعس حامل اللوحات فى نوبته وهو يضع السماعات. هذا قد يحدث مع أى شخص. ولكننا لم نعد نشكولضباطهم، فكنا نعلمهم على قدر استطاعتنا.

فى منصب مستشار لواء مدمرات مصرى

ف. إ. زوب

حتى وقت قريب من التاريخ كان يعتبر مؤرخو روسيا الاتحادية (وهذا لا يختلف عن مسار تاريخ الاتحاد السوفييتى)، أنه طوال فترة وجود الاتحاد السوفييتى دارت فقط حربان: حرب أهلية (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) والحرب الوطنية العظمى (١٩٤١ ـ ١٩٤٥). أما كل العمليات الحربية الأخرى فتعتبر "أزمة على الحدود" (مع فنلندا[٣١] ـ ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠، "معركة عند بحيرة خاسان" فى يونيه ـ أغسطس[٣٢] ١٩٣٨) أو كأنها "حملات تحرير" (١٩٣٩ ـ ١٩٤٠) للجيوش السوفييتية من أجل تقديم المساعدة لشعوب أوكرانيا الغربية وروسيا البيضاء الغربية وبيسارابيا وبوكوفينا الشمالية، والتى تم اغتصابها بالقوة من روسيا السوفييتية فى أعوام الحرب الأهلية، أو مثل "مشاركة فى معارك" (خالخين ـ جول[٣٣]، إسبانيا، الصين)، أو"كالقيام بالواجب الأممى"، أو"تقديم المساعدة" (المجر[٣٤] ـ ١٩٥٦، تشيكوسلوفاكيا[٣٥]، كوريا[٣٦]، كوبا[٣٧]، فيتنام[٣٨]، أنجولا، موزمبيق، الحبشة، مصر، نيكاراجوا، أفغانستان، وغيرها). طبقا لبيانات هيئة

(٣١) بدأ الاتحاد السوفييتى هذه الحرب حتى يحرك الحدود بعيدا عن مدينة لنيجراد حيث توقعوا نشوب حرب مع الألمان، وكانت فنلندا متحالفة معهم، وقد نشبت بالفعل فيما بعد الحرب العالمية الثانية.

(٣٢) معركة مع القوات المسلحة للمعتدين اليابانيين.

(٣٣) معركة مع المعتدين اليابانيين.

(٣٤) معركة مع القوات المضادة للنظام الحاكم بالمجر.

(٣٥) معركة مع القوات المضادة للنظام الحاكم بتشيكوسلوفكيا فى عام ١٩٥٧.

(٣٦) تقديم المساعدة العسكرية لكوريا فى حربها مع الولايات المتحدة الأمريكية.

(٣٧) تقديم المساعدة لحكومة كوبا ضد الحركة المضادة للثورة التى ساندها الأمريكان.

(٣٨) تقديم المساعدة للشعب الفيتنامى لمواجهة العدوان الأمريكى.

أركان حرب القوات المسلحة لروسيا الاتحادية، فإن خبراءنا ومستشارينا العسكريين وجدوا فى حوالى ٥٠ بلدًا فى العالم (جريدة "كراسنايا زفزدا"[٣٩] رقم ١٠٠(٢١٠٨٧) فى ٥ مايو١٩٩٣) بناء على أمر الوطن لتنفيذ مهام فى ظل ظروف تتطلب إيثار الذات ورجولة.

كما أشارت جريدة "كراسنايا زفيزدا" بتاريخ ٥ مايو١٩٩٣: "إن الجنرالات والضباط والملازمين الثانيين الذين حصلوا على خبرة عسكرية فى ظل نيران المعارك، والذين تحملوا الحرمان وموت أصدقاء الميدان يمثلون ذخيرة ذهبية لجيشنا"، ثم بعد ذلك "لا يجب أن تحيل أى تغييرات فى الحياة السياسية للمجتمع إلى الظل الذكرى الناصعة عن الأفراد الذين قاموا بأداء واجبهم العسكرى بشرف". وهذا صحيح، بلا شك، وعادل وتم تقنينه اليوم.

فى الفترة الأخيرة، كثيرا ما يكتب على مختلف المستويات وفى مختلف الإصدارات (تحت مسمى "رفع شعار السرية") عن حروب الأمميين، وبصفة خاصة عن أفغانستان، بل إنه تمت صياغة مسمى خاص ـ "أفغانى" ـ كتعبير عن تلاحق الشجاعة والبطولة والإخلاص... ويتم تشكيل لجان وجمعيات وتقام دور الاستجمام والنصب التذكارية. وهذا ليس عفويا، وبلا شك صحيح. فكل من شارك فى الأحداث الموضحة أعلاه أدرك، ويدرك، ولن ينسى أبدا أنه خاض حربًا، حيث بالمناسبة، يتم فيها القتل والتشويه البدنى والنفسى. لذلك فإن تعبير"أداء الواجب الأممى" هومجرد تعبير آخر، له استخدام شرطى، للمسمى الشرعى اليوم "مشارك فى حرب".

اليوم يدعو لقب "محارب ـ أممى" إلى الفخر بسبب الثقة التى منحت لحامله. كما أن الذكريات عن "إسبان" ما قبل الحرب من فرق الأمميين[٤٠]، هى كما لوكانت عن أبناء مخلصين بلا حدود لوطنهم. إن الفرق الأممية بإسبانيا مثلت اتحادًا بين المتطوعين من جانب والمعادين للفاشيست من ٥٤ بلدًا، حاربوا إلى جانب الجمهورية الإسبانية فى وقت حرب الثورة الوطنية للشعب الإسبانى فى

---

(٣٩) جريدة النجمة الحمراء لسان حال القوات المسلحة السوفييتية.

(٤٠) فرق المتطوعين الأمميين السوفيت بإسبانيا.

أعوام ١٩٣٦ـ ١٩٣٩ ضد الفاشية. وقد قدمت هذه المجموعات عونًا كبيرًا فى حرب الشعب الإسبانى مع الفاشية. كما قدم الاتحاد السوفييتى مساعدة كبيرة لتكوين وتسليح وتدريب الفرق الأممية (كانت ٧ فرق مكونة من ٤٢ ألف متطوع ـ أممى). ولم تتمثل أهمية تكوين فرق الأمميين ومشاركتهم فى العمليات الحربية فى أنها حربية فقط، ولكن كان لها أيضا أهمية سياسية عظيمة.

قاتل ببسالة فى جيش الجمهورية حوالى ٣ آلاف متطوع سوفييتى ـ مستشارون عسكريون،طيارون، جنود دبابات، بحارة وخبراء آخرون. لقد قدم الخبراء السوفييت مساعدة كبيرة للجمهوريين فى إنشاء جيش نظامى وطنى، وكذلك فى تجهيز وتنفيذ أهم العمليات ضد المتدخلين والمتمردين. وقد تكونت صورة عن الجيش الأحمر وعن الاتحاد السوفييتى عامة بفضل السمات الخاصة ومستوى تدريب وشجاعة وإخلاص أمميينا. وبالمناسبة فإن الأمميين الذين حاربوا فى إسبانيا فى أعوام ١٩٣٦ ـ ٣٩ هم الوحيدون من كل الأمميين الذين لم يتم تقنينهم رسميا من جانب حكومة الاتحاد السوفييتى أو حكومة روسيا الاتحادية.

لا يعرف الجميع أنه كان يوجد بين المحاربين الأمميين بحارة عسكريون سوفييت أيضا فى كثير من البلدان، وهم لم يكونوا فقط يعملون باعتبارهن خبراء ـ معلمين للتدريب على استخدام المعدات السوفييتية الحربية فى الدول الصديقة، ولكنهم أدوا أيضا دور المستشارين العسكريين السوفييت الذين يقومون بتعليم استخدام الأسلحة والمعدات وقيادة السفن والغواصات وزوارق الصواريخ وزوارق الطوربيدات والمعدات الحربية الأخرى. كان يتلخص تعليم قادة التشكيلات والفرق فى إعداد المستوى الأعلى من الضباط ليتمكنوا من تنظيم وتنفيذ المعارك الحربية، ولكى يقودوا العمليات الحربية بوعى. ومن ضمن هذه العمليات توجيه الضربات إلى الأهداف التى تكون فى البحر أو على البر، والبحث عن غواصات العدو وتدميرها، وإنزال جنود البحرية، ومقاومة جنود الإنزال، والدفاع الجوى عن قواعد البحرية الحربية والأهداف المهمة والسفن... وعدد آخر من المهام الحربية التى تكلف بها التشكيلات أو السفن.

الاستشارى ـ هو خبير فى أحد المجالات، يقدم الاستشارات (النصائح، الاستنتاجات) الخاصة بتخصصه.

المستشار (متخصص حربى) - هويؤدى الخدمة العسكرية (عادة يكون من بين الضباط)... يتم إرساله طبقا لاتفاق ثنائى إلى دولة أخرى لتقديم المساعدة فى إنشاء قوات مسلحة وفى إعداد الكوادر العسكرية وتعليم القوات والتمكين من استخدام الأسلحة والمعدات الحربية التى تشتريها الدولة من بلد آخر، وأحيانا للمساعدة فى تنظيم وتنفيذ العمليات الحربية (قاموس المصطلحات العسكرية، موسكو، دار النشر العسكرية، ١٩٨٨).

لقد تم التفريق بين مفهوم "استشارى" و"مستشار" بوضوح فى أمر وزير دفاع الاتحاد السوفييتى فى نهاية عام ١٩٦٧ .يتمثل الفرق الرئيسى بين هذين المفهومين، اللذين يظهران فى البداية متماثلين من حيث المعنى، فى أن الاستشارى يكون مسئولا، مع من يتلقى النصائح، وعن مدى استعداد السفينة والغواصة والتشكيل للقتال، طبقا لقوانين وقت الحرب (بالطبع فى المكان الذى تكون فيه الدولة المعنية فى حالة حرب مع دولة أخرى). كانت تلك مهمة صعبة للغاية بالنسبة لمستشارينا إذا ما أخذنا فى الاعتبار أنه لم يكن لا الطاقم ولا هيئة الأركان ولا القيادة تابعة للسوفييت. حقيقة، كان يوجد فى نهاية الأمر الخاص بالمستشارين بند ينص على أنه فى حالة عدم تقبل متلقى الاستشارة (النصيحة) لها فيجب على المستشار عدم التدخل للتشويش على أداء متلقى النصيحة، ويكون عليه فى هذه الحالة إخطار رئيسه فورا (حيث إن المستشار كان مسئولا عن الاستعداد للقتال). فى حالة الوجود على الشاطئ، فى أثناء التدريب على القتال، عندما لا يكون الأداء غير سليم بشكل خطير - يكون ذلك مفهوما. ولكن فى أثناء عملية القتال؟ فى خلال المناورات الصعبة؟ فى أثناء المناورات المشتركة مع الأسلحة الأخرى؟ هنا تطرح نفسها تساؤلات! كانت توجد هناك أزمات! فقد كان الكثير يتوقف على العلاقة المشتركة بين المستشار ومن يتلقى الاستشارة ومدى التفاهم والاحترام المتبادلين بينهما. كما أن الدور الذى لعبته لغة بلد الإقامة أو غيرها (الإنجليزية، الفرنسية، الإسبانية، وغيرها) كان له أيضا أهمية كبيرة، حيث إنه يمكن أن يكون هناك اتصال مباشر عن طريقها، وليس من خلال مترجمين. أى أن يكون هناك اتصال شخصى. يمكن أن نقول باختصار إنه كان من المطلوب من المستشار معرفة دقيقة لواجباته العملية، بالإضافة إلى معرفة عميقة للأسلحة والمعدات الفنية، وباستخداماتها فى المعارك. كما أن على قائد

التشكيل، والرتب الأعلى، أن تكون لديه معرفة نظرية وعملية عميقة عن تنفيذ العمليات العسكرية وأساليب التدريب القتالى والتكتيكى، وتنظيم التدريبات الخاصة، والقدرة على إدارة التدريب على القتال بوعى، وتنظيم القتال بشكل منتج فى سبيل حيوية السفينة والأسلحة والمعدات الفنية والكثير... الكثير...

كان المطلوب من المستشار قدرًا كبيرًا من الثقافة الحرفية، وصفات نفسية وأخلاقية عالية، وكذلك صلابة فى القيادة، وثقة فى صحة القرار الذى يتخذه (ولكن لا يجب خلطها مع العناد)، وأخيرا أفقًا سياسيًا عريضًا، ومعرفة بالأوضاع الحالية فى البلد وفى العالم. كانت كل عيوب المستشار، ومنها ما يخص تربيته الشخصية وثقافته وتماسكه، تنعكس بشكل مباشر على نتائج عمله، فى أثناء نشاطه العملى. حتى من كان مدربا جيدا ولديه إحساس بقدر كاف من الثقة فى البداية، فكان من الضرورى أن يحسن وأن يعمق معرفته بصفة دائمة، حيث إن أى خطأ أو إهمال، ولو صغير، ينعكس على الاقتناع بالتعليم، ولنقل بصراحة، على ثقة متلقى الاستشارة ومرءوسيه.

كان هناك عامل آخر فى العلاقات المتبادلة، كان يضع مستشارنا سرا، وفى المواقف الصعبة علنا، فى أوضاع معقدة، إن لم نقل صعبة. عندما كان الأمر يصل إلى الأداء الواعى فى أثناء المعارك، كان كثيرا ما يقوم متلقى الاستشارات بطرح أسئلة: "هل أنت حاربت من قبل؟ هل قمت من قبل بالأداء بهذا الشكل فى معركة فعلية، وليس فى أثناء التدريب؟. كان يجب إعطاء إجابة سلبية للكثيرين، ولكن كان متلقى الاستشارة يقول بفخر: "أما أنا، فقد حاربت!... وما تقترحه ليس فعالا...". كانت الثقة بالنفس فى الخبرة ومعارف المستشار وحزمه وشجاعته وحدها هى التى تصنع هيبته، ليس فقط عند متلقى الاستشارة، ولكن أيضا لدى كل الضباط وصف الضباط والجنود. وقد كانت هناك حالات واضحة من عدم الاستعداد والقدرة على القيام بهذا العمل الحساس، فتم ترحيل بعض المستشارين فورا إلى الاتحاد السوفييتى قبل انتهاء مدة خدمتهم لأنهم لم يتمكنوا فى النجاح فى مهمتهم، لسبب أو لآخر، بما فيها الأسباب الشخصية (السمات الطباع، التربية...).

والآن أقدم بعض الكلمات عن نفسى. عندما تم إرسالى إلى مصر قبل نهاية عام ١٩٦٧ بصفتى كبير مستشارين عسكريين لقائد لواء حاملات ألغام، كنت

أحمل قبل ذلك رتبة ربان من الدرجة الثانية، واعتبارا من ديسمبر ١٩٦٣، أى حوالى أربع سنوات فى منصب رئيس أركان اللواء ١٧٠ لأحدث المدمرات فى ذلك الوقت (٥٦ مشروعًا) بالأسطول البحرى الحربى بالشمال.

عندما تخرجت فى عام ١٩٥٠ بمدرسة البحرية العسكرية العليا فى عمر ٢١ سنة، قضيت وقتًا قصيرًا فى الخدمة على سفن أسطول بحر قزوين والأسطول البحرى الحربى بالشمال فى منصب قائد سفينة صيد كبيرة للغواصات "١٩٠ - 6" (المشروع "١٢٢ - 6")، وتم إرسالى فى عام ١٩٥٣ لحضور دورات دراسية خاصة للضباط بمدينة لنينجراد - برامج قادة السفن. أنهيت دراستى لهذه البرامج بنجاح فى عام ١٩٥٤، فتم إرسالى إلى الطراد الخفيف "تشاباييف"(٤١) بالأسطول الشمالى (المشروع ٦٨ - K) لشغل منصب مساعد قائد السفينة. وبعد سنة، أى فى عام ١٩٥٥، تم تعيينى فى منصب كبير مساعدى سفينة مدمرة "أجيفلونى" (المشروع "٣٠ - B") .كانت السفينة جديدة (تم بناؤها فى عام ١٩٥٣)، سبحت كثيرا ونفذت المهام بنجاح، لذلك حصلت لأول مرة فى تاريخ أسطول المدمرات على تقدير"ممتاز" فى سبتمبر عام ١٩٥٧. ثم جرى تقليد قائد السفينة منصبًا مع حصوله على ترقية، أما أنا فتم تعيينى قائدا لسفينة ممتازة. استمرت السفينة، على مدى السنوات الثلاث التالية، فى تنفيذ خطط الإعداد السياسى والحربى بنفس النشاط والنجاح محافظة على لقب "سفينة ممتازة"، كما حصلت على جوائز قادة الأسطول البحرى الحربى بالشمال والقيادة العامة للأسطول البحرى الحربى. وبعد ذلك تم إرسالى فى عام ١٩٦٠ إلى الأكاديمية البحرية العسكرية بمدينة لنينجراد، وتخرجت بها فى عام ١٩٦٣. وفى شهر ديسمبر من نفس العام تم تعيينى رئيسا لهيئة أركان لواء تشكيلات المدمرات. كان هذا اللواء نشيطًا جدا، وحصل على نتائج جيدة جدا عند تنفيذه للرحلات البعيدة ولمهمات الخدمة الحربية.

أكتب عن ذلك لكى يكون مفهوما أنه قبل تعيينى كبيرا لمستشارى قائد لواء تشكيلات المدمرات، كنت قد مررت بمدرسة جيدة لقيادة مختلف أنواع السفن

(٤١) من أبطال الحرب الأهلية بعد ثورة أكتوبر بروسيا.

والتشكيلات، وأننى قد حصلت على تدريبين نظرى وعملى عاليين، وأننى كنت جاهزا لتعليم الآخرين ما يخص استخدام سفن الأسطول الحربى فى المعارك. كنت فى السادسة والثلاثين، وكنت متعطشا للخدمة النشطة العملية.

بالطبع استقبلت اختيارى للمهمة فى مصر بسرور. بصراحة، كنت راغبا، بدون أى نوع من التبختر، فى اختبار نفسى فى مواقف المعركة، أى كما يقولون "كنت مندفعا إلى المعركة". هل كان ذلك شيئا طفوليا أم نقدا جادا للذات. لقد قمت بتقييم ذلك فيما بعد(يمكن أن أقول فورا الآن - تقييما إيجابيا). يمكننى فقط أن أقول إن سفرى إلى مصر وعملى المشترك مع العرب لكى يتمكنوا من تشكيلات المدمرات والاستعداد لاستخدامها فى الحرب، تلك التى قامت بصناعتها عقول وأيدى الشعب السوفييتى، كل ذلك حدد فيما بعد تعاملاتى مع عمليات التخطيط وتنفيذ المهام التى أكلف بها وتعليم وتربية الأفراد، وبصفة خاصة، قادة السفن والألوية ومجالس قيادتها. وفى النهاية ساعدنى ذلك على تنفيذ المهام التى تم تكليفى بها بصورة أفضل سواء عندما قمت بمسئوليتى فى كل الفترة الباقية فى خدمتى وفى مركز قائد لواء تشكيلات حاملات الألغام، وفى أثناء الدراسة بالأكاديمية الحربية للقيادة العليا، وكذلك لوقت طويل فى منصب قائد تشكيلات سفن ما فوق سطح الماء بأسطول الشمال بعمليات الأطلنطى، وفى النهاية بمنصب النائب الأول لرئيس التدريب على القتال للأسطول البحرى الحربى، وهى مسئوليات كبيرة خاصة بالإعداد الشخصى وبالتدريب العالى للمرءوسين على القتال وبقدرتهم على الدخول إلى المعارك والانتصار.

سأقول بصراحة تامة إن البعض كانوا يقولون باستخفاف:"وما ذلك الجيد الذى كان يمكن لنا تعلمه هناك؟ إن ذلك يمثل وقتا ضائعا فى مدة خدمتنا.ولكن لا ...! فالحرب هى الحرب! ولكى تخرج منها منتصرا، يجب أن تكون لديك معرفة جيدة، وخبرة، وكذلك تمرين، وحدس، وتحليل عميق حتى للتفاصيل الدقيقة، وتوقعات القائد وأشياء كثيرة أخرى، بالإضافة إلى صفات كثيرة أخرى منها التغلب على أية مواقف خطيرة تظهر، وعلى الخوف والذعر، وعلى الأوضاع التى ليس لها مخرج، وغيرها. لقد تمت كتابة الكثير جدا عن ذلك الموضوع بين ما هومنشور عن الحرب وفى مذكرات، وببساطة، على صورة روايات أدبية ومؤلفات

حربية. ولكن لكى تفهم كل ذلك ولكى تفهم مسئوليتك الكاملة عن مرءوسيك وعن تنفيذ المهمات القتالية المقررة بنجاح، يجب أن تمر عبر ذلك.

ولكن حدث ذلك فيما بعد. أما فى الوقت الحالى، فعند عودتى من البحر فى ظلام ليل يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٦٧، بعد رحلة بحرية قصيرة، وصلنى إخطاران من نوبتجى العمليات: الإخطار الأول يفيد بأنه قد تمت ترقيتى إلى رتبة ربان من الصف الأول، أما الثانى، فيقول إنه على السفر إلى موسكو فى يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٦٧ والذهاب إلى الإدارة رقم ١٠ (كانت مسئولة عن الكوادر فى الخارج). قضيت ثلاثة أيام فى موسكو فى حالة استعداد متوتر إلى أقصى حد: تعليمات بلا نهاية بخصوص كل المواضيع، فحص طبى، تطعيم، إصدار شهادات طبية وجواز سفر ومستندات أخرى. كانت غالبيتنا تسافر إلى الخارج لأول مرة. كما كانت التعليمات محددة ودقيقة وواضحة.

قال لنا الرفيق فينوجرادوف ـ السفير السابق للاتحاد السوفييتى بالجمهورية العربية المتحدة فى ذلك الوقت ـ وهو يودعنا قبل السفر: "كونكم سوف تكونون تحت نظر ورقابة مخابرات الدول المعنية، فذلك معروف تماما. ولكن يجب أن تفهموا أننا سوف نعلم كل خطوة تخطونها، أو عمل تفعلوه، أو كلمة تقولونها". فهمنا جيدا أن نشاطنا بالجمهورية العربية المتحدة، خاصة بعد هزيمتها فى "حرب الأيام الستة" فى صيف عام ١٩٦٧، سرى للغاية، كما أن إنذار السفير قد رسخ من هذا الشعور، كما أنه زاد من مسئوليتنا إلى أقصى حد وأعطى لعملنا غموضًا أكبر. بعد أن حصلنا على المعلومات اللازمة عن الوضع السياسى والاقتصادى بالجمهورية العربية المتحدة، وعن موضعها فى العالم وفى الشرق الأوسط، وعن سياسة ونشاط رئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبد الناصر، وكذلك بعد أن تم تجهيزنا بملابس مدنية حديثة، طرنا لأداء واجبنا الأممى، ونحن مملوءون بالإصرار والطموح والرغبة فى تقديم المساعدة اللازمة لأصدقائنا.

كانت كلمة "محارب ـ أممى" تدعوإلى شعور كل منا بالفخر للثقة بنا: لقد وثقوا بك أنت بالذات، فى هذه الساعة الصعبة على الشعب المصرى، لكى تقدم المساعدة له، بقدر الإمكان. أما بالنسبة لى أنا بالذات، فقد ظهرت أمام عينى

صورة جندى الدبابة سيرجى لوكينين فى فيلم عام ١٩٤٢ "فتى من مدينتنا" (وقد لعب دوره الممثل الرائع نيكولاى كريوتشكوف) فقد كنت أنا أيضا آنذاك أرغب فى القيام بالضرورة بعمل ما يتسم بالبطولة، وأن أختبر نفسى فى جو معركة فعلية.

فى الثانى من نوفمبر عام ١٩٦٧، هبطت فى مطار القاهرة الطائرة التى حضر عليها أول ١٣) وبعد ذلك سيرتفع عددهم إلى أكثر من ٧٠ (مستشارًا ـ من ضباط الأسطول البحرى الحربى للاتحاد السوفييتى، بصفتهم متطوعين من أجل أداء واجبهم الأممى فى تقديم المساعدة لقوات البحرية الحربية بالجمهورية العربية المتحدة.

كان يرأس "أول دفعة" نائب الأدميرال سوتياجين بوريس فاسيليفيتش الذى كان قد تم تنصيبه كبيرا لمستشارى قيادة الأسطول البحرى الحربى للجمهورية العربية المتحدة. وقد حضر معه مستشار وقادة التشكيلات والقواعد البحرية العسكرية (الإسكندرية، وبورسعيد، والسويس) ومستشار وقادة السفن والوحدات وبعض خبراء سفن القيادة من ضباط أركان الحرب: تيونيك ف. أ.، شكوتوف ى. ج.، زينين ف. أ.، ريبين ن. ب.، فاكولينكوم. ف. ن. ميتشورين ف. إ.، كوستريتسكى س. ب.، سانيكوف أ. ب.، ميدفيدوف ف. إ.، ديلتشينكوف.ن. وغيرهم.

كانت الجمهورية العربية المتحدة فى حالة حرب مع إسرائيل. كما لم يكن قد مر بعد نصف عام على "حرب الأيام الستة" التى لقيت بها مصر الهزيمة. كانت الحالة المعنوية لأطقم السفن والقادة والضباط والجنود منخفضة تماما. لم تكن أى من حالة الاستعداد للقتال والحالة الفنية للسلاح والمعدات الفنية والسفن، بصفة عامة، على أحسن حال، على الرغم من أنه كان قد تم شراء السفن بكل أنواعها والزوارق من الاتحاد السوفييتى، كما أنها كانت حديثة وجديدة. وكان التنظيم العام للحياة اليومية والتجهيز للقتال والتكتيكى للضباط فى مستوى منخفض.

كان الخروج إلى البحر، فى ذلك الوقت، نادرا جدا، وكان يحدث فقط منذ بزوغ الفجر حتى غروبها. كما لم يكن يقيم الأفراد فى السفن ولم يكونوا يتناولون الطعام عليها، كما كان قد تم تحويل المطابخ على المدمرات إلى مخازن لمختلف الأشياء، وكانت الملابس العسكرية تحفظ فى مواقد تجهيز الطعام. وكان كل فرد

من أعضاء الطاقم يأخذ معه طعامه (شطائر، سندويتشات...) عند خروجهم إلى رحلة بحرية.

كان يبقى على السفن الواقفة على المكلأ ثلاثة من البحارة وضابط. كما أنه لم يكن يوجد فعليا أى نوع من الرقابة أوالتفتيش على سلامة المدمرات التى كان طاقم كل منها يمثل أكثر من ٢٥٠ فردًا، منهم ٢٥ ضابطا. كانت كل الآليات تتوقف عن العمل بعد عودة السفن من البحر إلى قواعدها، وكان يتم تشغيل أضواء مراكم الخطافات (المحددة لمقاس السفينة)، وفقط لبعض الوقت كان يتم قذف طلقات نسف للوقاية من السباحين المقاتلين. لو لم تكن هناك رحلة بحرية، فقد كان يوم العمل ينتهى فى الساعة ١٢ ـ ١٤، أى أن الجميع كانوا يتفرقون، فيذهب كل إلى منزله بعد الغداء، وكان يمكن ألا يعودوا إلى السفينة لأسابيع. وكل هذا... فى حالة الحرب! كان الخوف من الخروج إلى البحر لتنفيذ مهمة حربية يصل أحيانا إلى القيام بعملية تخريب مباشر يكون من نتيجته ألا يتم الخروج لسبب ما إلى البحر. كانت أمامنا مهمة محددة بشكل واضح: فهم تام للوضع الراهن، سلامة وجهازية التشكيلات والسفن والقواعد التى أصبحت من مسئوليتنا، التزويد الكامل بالأفراد، مستوى الاستعداد للقتال، الاستعداد المعنوى والنفسى وتحديد الإجراءات التى يجب اتخاذها فورا لإعادة ضبط الاستعداد للقتال والقيام بأعمال حربية نشيطة.

قبل حضورنا إلى مصر، كان الأسطول الحربى المصرى للجمهورية العربية المتحدة هو الأكبر فى الجزء الشرقى من البحر الأبيض المتوسط، وكان يتفوق على الأسطول الإسرائيلى بعدة أضعاف، كما كان يضم تشكيلات وسفنًا حديثة مصنوعة فى الاتحاد السوفييتى غالبا مزودة بالأفراد بالكامل.

طوال الوقت، كان كبير المستشارين السوفييت لقيادة الأسطول البحرى الحربى للجمهورية العربية المتحدة أمير البحر سودياجين بوريس فاسيليفيتش. كان "مسنا" كما كنا نرى فى ذلك الوقت (ولكن كان سنه ٥٧)، وكانت لديه خبرة كبيرة، كما كان حكيما بحكم طول خدمته بالأسطول البحرى الحربى للاتحاد السوفييتى، التى تخللتها سنوات الحرب. كما أنه كان هادئا وبحارًا رابط الجأش

يتميز بوعى عال. نجح فورا فى إقامة علاقات جيدة (نسبيا، بالطبع) مع قيادة الأسطول البحرى الحربى للجمهورية العربية المتحدة ومع قادة الأسطول الآخرين، على رغم أنه لم يكن ينجح فى ذلك الجميع، وليس دائما. لقد تعلمنا كل شىء على يد ب. ف. (كنا نطلق هذين الحرفين على بوريس فاسيليفيتش بحب واحترام فى محيطنا): الحكمة العسكرية والحياتية. كان معلمنا ورئيسنا ومربينا، وببساطة، إنسانا يمكن مشاركته مختلف أفكارنا ومصاعبنا. لقد قام بالكثير لكى يكون عمل المستشارين البحريين ناجحا ومنتجا وفعالا. ولقد وصل عمر بوريس فاسيلسفيتش اليوم إلى ٨٥ عامًا ولكن ما زالت صحته جيدة (بالنسبة لسنه)، كما أنه ما زال محتفظا بذاكرته ونشاطه، فى حياة اليوم الصعبة.

كان لواء الغواصات يضم فى تشكيله ١٢ غواصة قتال حديثة جاهزة للقتال (منها ستة من طراز ∏ ـ ٦١٢ وستة أحدث من طراز ٦٣٣). وكان كبير مستشاى اللواء ربانًا من الصف الأول هوتكونيك فاسيلى أندرييفيتش (للأسف لم يعد بين الأحياء). كان ضابطا وبحار غواصات متمتعا بخبرة كبيرة ووعى، وقد تعلم على غواصات السباحة الذاتية، كانت لديه خبرة كبيرة فى قيادة مختلف الغواصات. وقد كان ضابطا صارما صاحب إرادة قوية. بعد ذلك، تم استكمال جهاز مستشاريه لكى يضم ١٥ فردا، من بينهم مستشاروقادة الغواصات المصريين، من ذوى الخبرة فى قيادة الغواصات. كان الهدف الأول الذى كلف به لواء الغواصات هو القيام بعمليات الاستطلاع عند سواحل العدو، وأن يكون جاهزا لتنفيذ أعمال قتالية لها أهداف عسكرية، سواء منفردا أو ضمن مجموعة تكتيكية.

كان يضم لواء زوارق الصواريخ ١٢ زورقا حاملة للصواريخ، منها ستة زوارق جديدة وحديثة طراز "٢٠٥" (مجهزة بأربع حاويات صواريخ من طراز "١٥ ـ P"، أما الستة الباقية فكانت من طرازات أقدم (١٨٣ ـ P). مضت على ذلك فترة ٣٠ سنة، ولكن هذا المجمع من الصواريخ لا يزال فقط ضمن تسليح الأسطول البحرى الحربى لروسيا، ولكن أيضا لدول أجنبية أخرى عديدة. ولقد تمت مهاجمة وإغراق المدمرة الإسرائيلية "إيلات" فى ٢١ أكتوبر من عام ١٩٦٧ شمال مدينة بورسعيد بزورقين"١٨٣ ـ P" يحملان هذا النوع من الصواريخ بالذات ـ "١٥ ـ P". أصابت ثلاثة صواريخ، من الأربعة التى تم إطلاقها، الهدف إصابة مباشرة،

أما الرابع فقد أصاب حطام المدمرة التى غرقت بعد ٥ دقائق. كان ذلك يمثل نجاحا كبيرا للبحارة العسكريين المصريين، كما أنه كان انتصارا للمعدات الحربية السوفييتية.

كان كبير مستشارى قائد اللواء هو الريان صف أول شكوتوف يفجينى جرمانوفيتش الذى شارك فى الحرب الوطنية العظمى، وهو ضابط زوارق صواريخ عظيم بأسطول الشمال، وقائد لواء زوارق صواريخ أسطول البحر الأسود، وقد شارك فى "الملحمة الكوبية" ("أزمة الكاريبى فى عام "١٩٦٢)، وهو بحار ذو خبرة ووعى، قوى الإرادة ذوهيبة ويدعو إلى الاحترام. وللأسف هو أيضا ليس بين الأحياء اليوم. وكان يتكون جهاز المستشارين بلواء زوارق الصواريخ من خمسة أفراد. وهو ما كان بالطبع يتطلب جهدا كبيرا فى عملهم، خاصة أن اللواء كان يعمل بشكل لصيق مع التشكيلات الأخرى، فى خلال التدريبات على القتال وفى أثناء سير المهام القتالية. وفقط بناء على مبادرة من جانب كبير المستشارين شكوتوف ى. ج. تم تنفيذ بحوث دراسية من أجل توسيع الإمكانيات القتالية لصواريخ "١٥ ـ P"، بما فى ذلك فى أثناء إطلاقها على الأهداف الساحلية، وهوما سمح بزيادة فعالية هذه الصواريخ القتالية بشكل كبير. وقد تمت الاستفادة من الخبرة المكتسبة فى استخدام صواريخ "١٥ ـ P" فى أزمات عسكرية أخرى، وبصفة خاصة "الهندية ـ الباكستانية".

كان يضم لواء زوارق الطوربيدات أحدث زوارق الصواريخ فى ذلك الوقت من طراز "٢٠٦" وكان كبير مستشارى اللواء هو الريان صف ثان زينيتس فياتشيسلاف أندرييفيتش، وهو بحار ذو خبرة ووعى وقائد صارم. وكان جهاز مستشاريه مكونا من خمسة أفراد، من بينهم الريان صف ثان بيلوكريلوف س. إ. والريان صف ثالث سيليانجين ف. ن.، وكان ذلك يتطلب منهم جهودًا كبيرة وتعليمًا وتربية. كان اللواء يؤدى مهمته بالمشاركة اللصيقة مع التشكيلات الأخرى، وقد قام اللواء بتأدية خدمة الطواف للمراقبة ونفذ مهام استعداده للقتال بنشاط.

كان لواء المدمرات هو أكبر التشكيلات العائمة على سطح البحر، وكان يمثل "صفوة" الأسطول البحرى الحربى للجمهورية العربية المتحدة. كان ترقى الضابط البحرى فى الخدمة يتحدد بهل خدم فى لواء الممرات وقادها أم لا؟ كان يضم

اللواء ٩ سفن قتالية (فى ذلك الوقت كانت كلها صالحة): أربع مدمرات سوفييتية الصنع من طراز "٣٠ ـ b" (حديثة بدرجة كافية فى ذلك الوقت، منها اثنتان تم إصلاحها فى عام ١٩٦٧ بالاتحاد السوفييتى)، مدمرتان إنجليزيتان الصنع من عام ١٩٤٤ (تم تحديثها ببومبيى ـ الهند) و٣ فرقاطات إنجليزية الصنع، هى أيضا من أيام الحرب العالمية الثانية.

وبالإضافة إلى شخصى (كبير مستشارى قائد اللواء) كان يوجد ثلاثة مستشارين لقادة السفن: ربان صف ثالث (حصل فى مصر على رتبة صف ثان) تشيروف فالنتين كوزميتش (أصبح بعد ذلك نائب أدميرال)، والربان صف ثانى إيفانوف يورى نيقولايفيتش (أصبح بعد ذلك نقيب صف أول) والربان صف ثانى كوروتنكوف فلاديمير بافلوفيتش (أصبح بعد ذلك نقيب صف أول). وكان يقع على عاتق كل منهم مسئولية التعليم والتجهيز للقتال والمحافظة على حالة ٣ سفن (مدمرتين وفرقاطة واحدة). كان يتم كل ذلك بدون وجود مترجم، فقد كان يوجد مترجم واحد لكبير المستشارين ـ من ضباط الدبابات، هو الملازم نيقولاى نيكيتايف الذى لم يكن قد رأى أسطولاً أو سفينة، قبل حضوره إلى مصر، إلا عن بعد، فى الصور. كان لا يعرف ولا يفهم خصائص الأسطول البحرى ولا مصطلحاته الخاصة، لذلك فى البداية كان من الصعب عليه العمل. ولكن لحسن حظنا تعود نيقولاى بسرعة على الموقف، وكنا نحن أيضا إلى ذلك الوقت قد تعلمنا فى فترة وجيزة لغة الحديث العربية ونحن ننفذ أوامر رئاستنا العليا، حتى ولوكان ذلك بشكل بدائى ولكنه كان يسمح لنا بتقديم الاستشارات بدون الحاجة إلى مترجمين.

شارك اللواء بنشاط فى كل الإجراءات التى تمت فى الأسطول: فقام بالنوبتجيات العسكرية، وبخدمة الطواف للرقابة، ووضع العلاقة بين كل القوات المسلحة التى فوق الماء عند القيام بمعركة بحرية، والبحث عن الغواصات والقضاء عليها، وصد طيران العدوفى البحر والقاعدة ومجموعة أخرى كبيرة من المهمات.

كانت أنجح العمليات، التى لعبت فيها مدمرتان "٣٠ ـ b" (تم تحديثهما) دورا رئيسيا بالتعاون مع زوارق طوربيد وصواريخ وقوات المدفعية الساحلية على البر،

تتمثل فى توجيه ضربة مشتركة بالمدفعية إلى الأهداف العسكرية الساحلية بشمال شبه جزيرة سيناء، على بعد ٤٠كم غرب ميناء بورسعيد، فى ليلة من ٩ إلى ١٠ نوفمبر ١٩٦٩. وقد كتبت كل الجرائد المصرية من يوم ١٠ نوفمبر معلومات مفصلة عن هذه العملية التى قامت بها القوات المسلحة البحرية للجمهورية العربية المتحدة. وفى يوم ١١ نوفمبر كتبت جريدتانا "البرافدا" و"كراسنايا زفيزدا" باختصار تحت عنوان "العمليات الناجحة للقوات المسلحة البحرية للجمهورية العربية المتحدة": "قامت تشكيلات من القوات المسلحة البحرية الحربية المصرية بتوجيه ضربات إلى المواقع الإسرائيلية فى الجزء الشمالى من شبه جزيرة سيناء. وقد أعلن ذلك ممثل قيادة القوات المسلحة بالجمهورية العربية المتحدة. وقد وصف هذه العملية بأنها" الأكثر نجاحا بعد إغراق المدمرة "إيلات". وقد تم ضرب المواقع الإسرائيلية بكل من رمانة والبلوظة، حيث كانت تتركز المعدات العسكرية ومخازن الوقود والذخيرة. وقد أشار ممثل قيادة القوات المسلحة بالجمهورية العربية المتحدة إلى أنه بعد توجيه الضربة إلى الأهداف العسكرية بالمدفعية فإن السفن المصرية عادت بسلام إلى قواعدها. كما أن قوات الطيران الحربى للجمهورية العربية المتحدة قد شارك فى هذه العملية". كان يمثل توجيه هذه الضربة للعدو مفاجأة كاملة.

لم يُقَل أى شىء فى هذا البيان المختصر (كان ما تمت كتابته يفوق كل التوقعات فى ذلك الوقت) عن أنه عندما ابتعدت المدمرتان عن العدو، هاجمتهما أكثر من ٤٠ طائرة إسرائيلية لمدة ساعتين، وأن المدمرتين قد أسقطتا ٢ منها. وكما اتضح فيما بعد، تم أيضا تدمير لواء ميكانيكى للعدو كان موجودا هناك للراحة. أما كيف تم التجهيز النظرى والعملى لهذه العملية، وكيف تم خداع العدو، فهذا حديث خاص شيق ويمكن التعلم منه، خاصة من حيث إجراءات التمويه التى جرت، والعمليات الاستعراضية. وكان أهم شىء هو سريتها. كان يقف وراء أسطر هذا الإعلان المختصر فى الجرائد عمل دءوب ومستمر بإصرار، من جانب المستشارين، من أجل تجهيز لواء المدمرات للهجوم بالمدفعية، وتوفير الصلابة القتالية لفصيلة السفن والقوات المشاركة فى الهجوم، وتلك التى قامت بحمايتها من ضربات العدو.

تم تقدير نتائج هذه العملية الناجحة بشكل كبير من قبل رئيس الجمهورية العربية المتحدة والقيادة العسكرية. فقد حصل كل من قائد لواء المدرعات الربان من الدرجة الأولى (يعادل عقيد بحرى فى القوات العربية) جلال فهمى عبد الوهاب وقادة المدمرتين "نصر" و"دمياط" على أعلى الأوسمة العسكرية بالدولة. وقد تم عمل نوط خاص بالضباط والبحارة على شرف هذا النصر، وقد حصلت مجموعة كبيرة من الضباط والبحارة المصريين الذين شاركوا فى هذه العملية على الأنواط والنياشين الرسمية، بينما بقى المستشارون السوفييت وحدهم بلا مسمى. كان الأمر واضحا تماما: "المستشارون العسكريون السوفييت لا يشاركون بشكل مباشر فى العمليات العسكرية". وكنا نخرج إلى البحر بدون أية مسميات أو علامات الرتب على كتفينا أو أية أوراق هوية، وكذلك فى ملابس بحارة بسطاء. وقد تحدد موقف وزير دفاع الاتحاد السوفييتى فى خلال تحليل تعليمى جاد بالقاهرة فى عام ١٩٦٦عندما قال: "لا تقعوا فى الأسر". وفقط بعد عودتنا إلى الاتحاد السوفييتى، بعام ونصف، تم تقليد ثلاثة من المستشارين بالأوسمة "للشجاعة والبسالة، فى أثناء تنفيذهم لتكليف حكومة الاتحاد السوفييتى"، فقد حصل اثنان منهم على وسام "النجمة الحمراء" وواحد حصل على ميدالية"من أجل خدماتهم فى الحرب". كان هؤلاء هم المستشارون البحريون الوحيدون الذين نالوا مكافآت فى خلال الفترة ١٩٦٧ ـ ١٩٦٩ عن خدمتهم العسكرية بمصر.

كانت هناك أربعة تشكيلات أساسية مع تشكيلات الدفاع عن المنطقة المائية للقواعد البحرية العسكرية (بما فيها السفن المضادة للغواصات والسفن الكاسحة للألغام) تكون أسطولاً بحريًا قويًا بشكل ما قادرًا على القيام بأية مهام قتالية فى البحر. ولكن الوضع كان صعبا، حيث إن جزءًا من السفن (ومنها ثلاث مدمرات وفرقاطة واحدة، وغواصتان وزورقا طوربيدات وزورقا صواريخ، وسفينتان كاسحتان للألغام) قد بقى فى البحر الأحمر بعد إغلاق قناة السويس. وقد تم تكوين مجموعة سفن البحر الأحمر من هذه القوات، وكانت تابعة لقائد لواء المدمرات (وبعد ذلك تم جعلها كتيبة منفصلة). كان على المستشارين بلواء المدمرات العمل على جبهتين، حيث إنه كانت تجرى عمليات عسكرية أيضا فى البحر الأحمر بمنطقة الجزء الجنوبى لشبه جزيرة سيناء، وكان يتم فيها توفير نظام الدفاع الجوى للساحل الإفريقى للجمهورية العربية المتحدة، وذلك للقيام بمهام أخرى.

لقد قام بحارتنا من المحاربين ـ الأمميين بواجبهم بحماس شديد وإصرار وإحساس كبير بالمسئولية بغض النظر عن أية صعوبات. وقد نجح البحارة السوفييت فى تنفيذ مهامهم، ويجب أن يعرف الشعب عملهم وأسماءهم.

المتضادات المصرية

ف. ب. إيفانوف

عند وصولى إلى مصر التقيت بالمتضادات فى كل مكان. فقد كان من الغريب بالنسبة لنا نحن السوفييت من طراز عام ١٩٧١ رؤية كل تلك الوقائع التى تصاحب حياة الناس فى بلد شبه رأسمالى، ينتمى إلى الدول النامية بالعالم الثالث، على الرغم من أنه قد حاول، فى ذلك الوقت،بمساعدتنا السير فى طريقه الخاص، طريق بناء اشتراكيته العربية الخاصة.

هذه المتضادات بين حياة أهل القمة الغنية وحياة الشعب البسيط. بلد الأهرام والقصور والأكواخ. متضادات حادة فى مستوى تعليم الصفوة بالمدينة وسكان القرى ـ الفلاحين. اختلاف التعامل مع وصايا الإسلام من قبل البسطاء ومن تلقوا العلم فى المدارس والجامعات والأكاديميات الأوروبية. مسافة شاسعة بين الضباط والجنود. الاستهزاء بالجنود من جانب الرقباء، بل وضربهم.

الفرق الكبير بين الكلمات والوعود والتنفيذ الفعلى للوعود. وفى النهاية وصلت هذه المتضادات إلى أنه فى البداية ألهونا، نحن الروس الذين جاءوا لتقديم العون للمصريين فى حربهم العادلة مع الإسرائيليين، على الأقل بالكلمات، ثم طلبوا منا بعد ذلك الخروج من البلد، وبذلك مثلما خانوا الثورة الناصرية، خانوا كل ما سعى إليه الشعب العظيم على مدى ١٥ سنة.

كان نهج السياسة الجديدة للرئيس الجديد أنور السادات مضادة بشكل حاد لأسس سياسة ونظرية وتطبيقات جمال عبد الناصر.

كم جرى استقبال بداية حضورنا بحفاوة، كيف كانت الكلمات التى قيلت جميلة، وكيف كان القسم بالصداقة الأبدية وبتذكر الأحفاد لكل ما هوحسن، مما فعله الشعب الروسى لمصر.

وانتهى الأمر بأنه عند وصول أنور السادات إلى السلطة أن وجه الاتهام بالخيانة لهؤلاء الوزراء من مجلس وزرائه الذين كانوا يميلون أكثر لروسيا. كما جرت أيضا فى الجيش عملية تطهير. وقد تم اتهام المقدم م. برديسى، الذى كان يعمل بإدارة العلاقات الخارجية فى الجيش، والذى كنت أتعاون معه كثيرا جدا بحكم واجب خدمتى، بأنه قد أصبح "روسيا" بشكل زائد وتم إعدامه. من أجل أى شىء قدم العشرات من القتلى والمصابين رءوسهم على أيديهم، فكانوا هم يمثلون ضحايا الحرب الذين لا مفر من وجودهم. أتذكر بمرارة كيف كان على وداع وسائل النقل التى كانت تحمل جثث رفاقنا المحاربين الذين قتلوا فى المعارك، وقد كان من بينهم أيضا صديقاتنا فى المعركة، مثل زوجة المستشار العسكرى العقيد ن.خاركوف، حيث لم يتحمل قلبها الظروف القائمة. كان المسئول عن ذلك كلاً من المناخ والنشاط الشمسى والتوتر العصبى الدائم- القلق على الزوج الذى كان يقوم كل يوم بتنفيذ مهامه تحت القذف بالقنابل.

أتذكر حوارًا لكبير المستشارين العسكريين الفريق أول أكونوف ف.ف. مع العقيد مكسيموف ف. ن. بالمستشفى العسكرى فى ٢٣ فبراير ١٩٧١ فى يوم الجيش السوفييتى(٤٢).

كانت مقدمة هذه القصة كما يلى: فى يناير عام ١٩٧١ حضرت رئاسة جهاز كبير المستشارين برئاسة الفريق أول أكونيف ورئيس أركان الحرب الفريق أول م. صادق إلى موقع تمركز الجيش الثالث الميدانى بالإسماعيلية. شاهدوا الخنادق والتحصينات على طول خط الجبهة التى كانت مقواة على جانب العدو الإسرائيلى بشكل أفضل كثيرا عنه على الجانب المصرى. أدار الفريقان أكونف وصادق حوارًا مع الضباط والجنرالات والجنود الذين كانوا يقومون بالدفاع عن الحدود الأمامية. فى تلك اللحظة انصرف العقيد مكسيموف جانبا لكى يعطى أوامر لمرءوسيه، وفجأة سمعنا انفجارًا. لقد داس مكسيموف على أحد الألغام المضادة للمشاة ففقد قدميه الاثنتين، وتم إرساله بسرعة إلى المستشفى العسكرى بالمعادى، وهوأحد أفضل المستشفيات العسكرية بالجمهورية العربية المتحدة. تم إخطار وزير الدفاع الجنرال فوزى عن هذا الحادث فأمر بأن يتم إعداد أفضل

---

(٤٢) فى هذا اليوم فى عام ١٩١٨ أعيد تكوين الجيش الأحمر من العمال والفلاحين، واشترك مرة أخرى فى الحرب، حيث تغلب على الجيش الألمانى.

الأعضاء التعويضية للمستشار، وألا يسمح بخروجه من المستشفى إلا بعدما يستطيع السير بمفرده. فى يوم ٢٣ فبراير ١٩٧١، كان مكسيموف بالمستشفى العسكرى، وكان يجرى الاحتفال بيوم القوات المسلحة بالاتحاد السوفييتى، فقرر كبير المستشارين أكونوف تهنئته بهذا العيد، وأمرنى بأن أختار له هدية تذكارية، فقمت بذلك. حضرنا إلى المستشفى. استمع مكسيموف إلى كل ما قاله كبير المستشارين العسكريين ثم قال:"كل ذلك جيد، أيها الرفيق الفريق الأول، ولكن هذا لا يسعدنى تماما. لقد حاربت طوال الحرب الوطنية العظمى من أول إلى آخر يوم، على ما يبدو بشكل حسن. وتدل على ذلك النياشين العسكرية التى نلتها: نيشان العلم الأحمر العسكرى، ونيشانى الحرب الوطنية من الدرجة الأولى والثانية، ونيشانى النجمة الحمراء والكثير من الميداليات. وقد حفظنى الله، فلم أصب ولا مرة واحدة، كما أنى كنت أعرف أنى أحارب فى سبيل وطننا الحبيب! ولكن لأى سبب أصبحت الآن بلا قدمين؟ من يحتاجنى الآن؟" ولم يتمكن من الإمساك بدموعه، التى انهمرت غزيرة على وجنتيه. كان من الصعب رؤية وسماع حديثه المؤثر. بكت أيضا زوجته أولجا فاسيلفنا.

فعلا: "فى سبيل أى شىء؟". ولكن كانت الفكرة صحيحة، فمصر بلد رائدة فى العالم العربى، كما أنها تمثل بوابة إفريقيا. كنا نريد الأحسن، ولكن حدث.. كالعادة.

لقد خرجت عن الموضوع. كان يتلخص الهدف الأساسى من زيارة قناة السويس فى هذه المرة، والتى أصبحت سيئة بالنسبة للعقيد مكسيموف، هو الارتقاء بكل ما يخص المعدات الهندسية بالموقع إلى الحالة الأمثل.

كان القادة العسكريون العرب يعطون مواضيع التمويه وإنشاء المواقع الخادعة أهمية كبرى. ولكنهم كانوا ينفذوا الكثير بأسلوب "التجربة، والخطأ"، فإذا كان أحد القادة على يقين بأن ذلك من الصواب، كان ينفذه. وكانت الثقة فى ذلك تظهر فقط عندما كان يقتنع بأن العدو يقصف المواقع الخادعة، وأنه لم يكن يتمكن من كشف المواقع الحقيقية. وإذا لم يكن هذا القائد واثقا تماما من ضرورة الاهتمام بالتجهيز الهندسى للقوات بشكل جاد، فقد كان من الصعب جدا على المستشار ـ الضابط السوفييتى ـ إقناع الضابط المصرى بذلك. وقد عانى بعض المستشارين من الكثير من المنغصات بسبب ذلك.

فى بداية عام ١٩٧١ حضر وفد رسمى كبير من الاتحاد السوفييتى برأسه بودجورنى، كما كان يرأس مجموعة العسكريين النائب الأول لوزير الدفاع جنرال الجيش سوكولوف س. كانت إحدى نقاط برنامجه هى زيارة المواقع الأمامية للدفاع عند قناة السويس حيث كانت تنتشر قوات الجيشين الثانى والثالث الميدانيين. المسافة بين القاهرة وقناة السويس هى ١٢٤كم. الطريق ضيقة، والرمال والتلال على جانبيها، ولا توجد ولا شجرة واحدة. كنا كثيرا ما نقابل فى طريقنا أسلاكًا كهربائية تمر عبر الطريق من فوق وتمتد فوق الرمال. فجأة وجه جنرال الجيش سوكولوف سؤالاً إلى المستشار العسكرى أكونوف: ما هذه الأسلاك التى تمتد فوق الطريق والرمال؟ أجابه الأخير: "هذه وسيلة الاتصال مع قوات الجيوش الميدانية". عبر الضيف عن دهشته: "ألم يكن من الممكن دفن السلك ولوعلى عمق صغير؟ إلى أين تنظر أيها الرفيق أكونيف؟ استدعى إذا مستشار الاتصالات الجنرال فتيسوف إلىّ للحديث معه. وعند الوصول إلى خط الجبهة توالت الملاحظات العديدة الموجهة إلى أكونوف مرة أخرى، خاصة فيما يتعلق بالمعدات الهندسية على خط الجبهة. صدر الأمر أيضا بدعوة المستشار اللواء شيتوف للحضور إلى سوكولوف فى اليوم التالى. بصفة عامة، كان خط الجبهة كله بمحاذاة قناة السويس على مستوى الأرض، حتى الملاجئ لم تكن بها أى أجزاء معلقة فوق الأرض. كان الوضع مختلفًا تماما فيما يخص المعدات والتمويه على الجانب الإسرائيلى. عبر سوكولوف عن نفسه بأسلوب خشن: "كان يمكن على الأقل أن تتعلموا من العدو، كيف يجب عمل التجهيزات الهندسية على الحدود الأمامية".

يجب الإشارة إلى أنه كان يوجد ما يمكن تعلمه من الجيش الإسرائيلى. كانت المعدات الهندسية بالمواقع التى على الضفة الإسرائيلية رائعة: تم عمل كومة من الرمال بارتفاع يصل إلى ٢٠ ـ ٢٥ مترًا، وبثت آلاف من الألغام على جانب القناة وتم مد سلك شائك، تم دفن صهاريج فى كومة الرمال تحتوى على عشرات الألوف من مخاليط مواد ملتهبة متصلة بشبكة أنابيب تفتح على قناة السويس. وفى حالة اقتحام المصريين للقناة يتم فتح المحابس ثم تلقى شعلة، فتندلع النيران على سطح القناة. كانت توجد موانع أخرى أيضا ـ شاطئ رأسى يصل ارتفاعه إلى ١٥ م، وكومة رمال بزاوية انحدار ٦٠ ـ ٧٠ درجة. ويمكن أن تتحرك أية معدة

خلف الكومة التى يصل ارتفاعها إلى ٢٠ ـ ٢٥م، بدون أن تظهرللمصريين. قيم سوكولوف الوضع، واستخلص استنتاجات معينة، واتخذ قرارات.

حقيقة بدأت القوات المصرية المنتشرة على طول قناة السويس فى تنظيم التمويه الهندسى فى نفس هذا اليوم طبقا لتوصيات كبير المستشارين العسكريين أكونوف. بدأوا يحضرون إلى القناة براميل معدنية فارغة كانت تحتوى على القار أو القطران السائل، اللذين كانا يستخدمان لإنشاء الطرق، ويرتبونها بمحاذاة قناة السويس فى أكوام يصل ارتفاعها إلى ٢ ـ ٢,٥ متر. كان ذلك يمثل حاجزا واقيا، حيث كان الإسرائليون يرون على شاشات بيانهم حائطا ممتدا مصمتا، بينما كان العرب يقومون بإنشاء الطرق لكى تتحرك عليها وسائل النقل والمعدات العسكرية خلف هذا الحائط.

جاء يوم الغفران بالنسبة لمستشارى الاتصالات اللواء فتيسوف ورئيس سلاح المهندسين اللواء شيتوف. وقد تمت دعوة كبير المستشارين العسكريين أكونوف أيضا إلى اللقاء، وكنت فى غرفة الاستقبال. كان حديث سوكولوف مع هؤلاء الرؤساء عنيفا جدا وبأعلى النبرات، فقد كان مسموعا جيدا من خلف الباب. هدد سوكولوف كليهما بعزلهما من مناصبهما، وكما عبر: "أشك أيها الرفيقان الجنرالان أنه يمكن أن توجد لكم مناصب، حتى فى الاتحاد السوفييتى".

حصلت أنا أيضا على نصيبى، بالتبعية. كان ذلك لأن مساعد فريق الجيش سوكولوف ذهب إلى المطار لشحن التذكارات والهدايا فى طائرة وقام بتكليفى لإخطار الرؤساء عن حضور الرئيس أنور السادات إلى قصر القبة لتوديع وفدنا. وها هو الهاتف قد دق، وعلى إبلاغ الرؤساء بذلك، ولكن كان الحديث يدور بنبرات عالية. وفكرت قليلا، فليحدث ما سيحدث. دخلت وأخبرت الفريق أول أكونوف بالموقف بصوت خافت. وفجأة سمعت: "ما الذى توشوش به هنا؟ يبدو أنك قد أصبحت عقيدا، ولم تعد تدرك كيف تتصرف". فكرت فى أنه بما أنه قد وصفنى بالعقيد فإنه لن يتم خفض رتبتى إلى أقل من رائد عندما يقدم شكواه، وأنا فى الحقيقة كنت مازلت نقيبا. ابتسمت داخليا من هذه الفكرة، ولكنى لم أظهر أى شىء. وقف الجنرال أكونوف مدافعا عنى، وبذلك انقشع الخطر.

الحمد لله، قمنا بتوديع الوفد. وأخيرا نفذنا عملية ضبط عملية التمويه ومواقع المعدات الهندسية. وكان الأمر كله يتلخص فى أن العرب كانوا ينوون اختراق قناة السويس، لا أن يحتمون من الجيش الإسرائيلى، لذلك فهم لم يعتقدوا أنه من المهم تمويه مواقعهم فى هذه الفترة.

كان الرئيس أنور السادات وهويستعد لعبور قناة السويس منذ عام ١٩٧١ قد أصبح يطلب معدات عسكرية جديدة (دبابات، طائرات، مروحيات)، حيث إنه يبدو وكأن فى الوقت الحالى جيشه مسلح بأسلحة ومعدات عسكرية قديمة، وأنه لا يستطيع الدخول فى عمليات حربية مع العدو حيث إن الأخير يمتلك تسليحًا أحدث. لم يكن ذلك متناسبا مع الواقع. قام كبير المستشارين العسكريين أكونوف، بعد أن استشار السفير ف. م. فينوجرادوف، بإخطار وزير دفاع الاتحاد السوفييتى جريتشكوا. أ. بذلك، ويبدوأنه بناء على توصيته قام بعقد اجتماع كبير لكل المستشارين مع تكليفهم بتنظيم تدريب استعراضى فى فترة الصباح وفى وقت الليل. وكان الهدف من ذلك هوعرض الإمكانيات الفعلية لمعداتنا الحربية. تم وضع الخبراء السوفييت على عجلات قيادة الدبابات وعربات النقل المدرعة وعربات المشاة الحربية ووقف مدفعيونا خلف المدافع والأسلحة، لكى يبينوا قدرات معداتنا العسكرية. كنت موجودًا فى بعض التدريبات، وكان كل شىء منظما بدقة وتم تنفيذه بشكل أدى إلى خجل الجنرالات والضباط العرب من كلماتهم، ولكنهم كانوا، ببساطة، مرغمين على الصمت. تمت إصابة كل الأهداف بدون أى خطأ واحد. وقد بين خبراؤنا أنهم محترفون حقيقيون فى شئون الحرب.

وفى نفس الفترة وبمبادرة من اللواء كالينين ب. ج. تم إجراء تدريبات للقوات الخاصة "ريدجيرز". وقد حضر التدريبات رؤساء جهازكبير المستشارين العسكريين و"هيئة أركان حرب" الجمهورية العربية المتحدة، وقد أعجبهم تماما ذلك الجزء من التدريب المتعلق بموضوع" البقاء على قيد الحياة فى الصحراء". تشابه قوات "ريدجيرز" قوات مظلاتنا"، ولكن يمكن لجنودنا أن يتعلموا منهم بعض الأشياء.

وقد بينت هذه القوات كيف يمكن البقاء على قيد الحياة فى الظروف الصعبة. كان مع كل جندى كيسان بهما ضفادع ودواجن وثعابين وأرانب. كان

يشارك الجنود فى العرض كثنائيات. كانوا كلهم من البالغين، وأطوالهم تزيد على متر وسبعين، يتميزون بالصلابة وأصحاء، وبنيتهم قوية. جاءت أكثر اللحظات تشويقا فى التدريب، حيث يجب على الجنود بيان شجاعتهم وقدرتهم واحترافهم. كان يجب القفز من مروحية على ارتفاع ٥٠ ـ ٦٠ مترا بدون مظلة فى الماء، وقد نفذوا ذلك بنجاح. كما كان على آخرين الهبوط بسرعة كبيرة جدا على سلم من الحبال. ينزلون من صخرة لأخرى على حبل، ثم يأخذون معهم أيضا "جريحًا". بعد ذلك يكون الجنود فى حاجة إلى تناول الطعام فى فترة استراحة، ولكن لا يوجد أى شىء يأكلوه. ولكن توجد كائنات حية ما فى الرمال، والجبال، والأنهار والبحيرات (يكون معهم فى مخاليهم كائنات حية معدة من قبل لهذا الغرض). كما يجب إشعال نار، ولكن لا توجد عيدان ثقاب، فيقومون بجمع الحطب ويكسرون الطلقات ويرشون البارود الموجود بها على كومة الحطب ثم يطلقون الرصاص من رشاش على هذه الكومة، فيشتعل الحطب وتكون النار جاهزة. يخرجون الضفادع ويقومون بشيها على النار ويأكلون بشهية، بل يقدمونها أيضا للضيوف الحاضرين. كان أول من قدموها له من رجالنا هو اللواء م. جارييف ـ رئيس هيئة أركان حرب كبير المستشارين العسكريين، فأكل هو أيضا ضفدعًا بشهية. أما الباقون، فقد رفضوا ذلك.

بعد ذلك يفتحون كيسين بهما ثعابين، ويمسك بها الجنود من رءوسها. يبلغ طول كل منها مترًا ونصف. ومن أجل السلامة يعطون الثعابين فرصة عض طرف المعطف العسكرى لكى تطلق سمها. وبعد ذلك يقوم الجنود بقطع رءوس الثعابين بأسنانهم، ثم يعضون على سلسلة ظهرها بأسنانهم ويقومون بسلخ جلودها بأيديهم فتلتف الأخيرة، أثناء ذلك، حول أيدى الجنود "كالثعابين". وبعد سلخ الجلد تماما، يضعون تحت الثعابين عيدان فتلتف حولها بنفسها لتكون مثل الشاشليك(٤٢)، ثم يتم شيها على النار وأكلها بشهية كبيرة. وبعد ذلك يتم التعامل بنفس الطريقة مع الدجاج، فيتم فصل رءوسها بالأسنان ثم تغطى أجسامها بالطين ويتم إلقاؤها فى النار. وبعد ١٥ دقيقة تخرج من النار، ثم يتم ضرب القشرة الطينية على الركب، فينفصل الطين ومعه الريش ويبقى لحم الدجاج الشهى. ولم يرفض أى أحد تذوق هذا الطعام. تعاملوا بالمثل مع الأرانب، ولكن

---

(٤٢) أكلة شهية من لحم يتم شيه على أسياخ على الفحم.

استخدموا جلدها لصناعة القفازات والقبعات. كان كل الجنرالات والضباط الحاضرين معجبين بقدرة الجنود على الأداء فى خلال التدريبات، فشكروا قائد اللواء والمستشار الجنرال كالينين ب. ج.

ولكن على الرغم من كل ذلك، ففى بداية عام ١٩٧٢ عاد عدم الرضى عن معداتنا الحربية مرة أخرى إلى جدول عمل اليوم. كانوا يطلبون بل يطالبون بإصرار بمعدات جديدة، وبصفة خاصة بدبابات وطائرات جديدة. لم توافق حكومتنا على ذلك، فلم يعجب ذلك رئاسة مصر. وقد ظهر عدم الرضاء من جانب المصريين فى الاستفزازات المتفرقة وفى عدم الثقة فى مستشارينا. ويمكن تقديم هذه الحالة كمثال. كانت البلد فى حالة حرب، وكان قد صدر الأمر رقم٢٠٠ فى القيادة العليا، والذى كان يرتأى اختراق قناة السويس، وكان ذلك يعنى بدء الأعمال الحربية. بالطبع كان يجب أن يكون استعداد القوات للقتال على أعلى درجة. كان يجب على كل مقاتل أن يكون موجودا بمكانه المحدد للقتال، وكذلك يجب أن تكون أطقم الطيران موجودة بصفة دائمة بالمطارات وهى فى حالة استعداد للطيران فى أية لحظة لتنفيذ مهمة حربية. وقد تحدث كبير المستشارين العسكريين الفريق أول أكونوف بنفسه بخصوص هذه الضرورة مع قائد سلاح الطيران الحربى المصرى الجنرال فتحى، فى وجودى أنا ورئيس هيئة أركان حرب قوات الطيران الحربى المصرى الجنرال حسنى مبارك الرئيس الحالى لمصر. جرى كل ذلك فى مركز قيادة سلاح الطيران الحربى، بجانب الخريطة العسكرية المرفقة بالأمر رقم٢٠٠. لقد استمعوا بانتباه إلى كل نصائح واقتراحات كبير المستشارين العسكريين وهم يهزون رءوسهم كما لو كانوا موافقين على كل ما يقال لهم، بل قدموا الشكر على ذلك. وفى نهاية المباحثات أعلن قائد سلاح الطيران الحربى المصرى: "كل ما قلته يا سيدى الجنرال صحيح، ولكن للأسف الكبير، فأنا لا أستطيع الاحتفاظ بالطيارين فى المطارات لأكثر من ٧٢ ساعة، فيجب على تركهم لكى يذهبوا إلى منازلهم وأسرهم والى أهاليهم". لم أستطع عدم الاكتراث لرؤية مظهر كبير المستشارين العسكريين الحزين، بعد ما أعلنه القائد العسكرى لأحد أهم أنواع القوات المسلحة المصرية. ما الذى كان يمكن التحدث فيه بعد ذلك مع مثل هؤلاء القادة؟ بالمناسبة، لقد لوحظ تكرارنفس هذه الصورة أيضا فى مختلف الأنواع الأخرى من أسلحة القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة: حيث كانوا فى كل مكان يستمعون بانتباه إلى

اقتراحاتنا، ولكن كثيرا ما كانوا يفعلون حسب رؤيتهم. وقد كان ذلك يؤدى إلى غضب مستشارينا وخبرائنا.

جرى المشهد الثانى فى يوم ١٨ فبراير من عام ١٩٧٢، وقد اعتبرته شخصيا كاستفزاز. لقد طار وزير دفاع الاتحاد السوفييتى المارشال جريتشكو من الصومال إلى موسكو مع توقفه فى الطريق بالقاهرة. وبالطبع تم الإعداد لعقد لقاء له مع جهاز المستشارين ورئاسة القوات المسلحة بالجمهورية العربية المتحدة، والتى تم أخطارها بذلك. كان الجميع فى هيئة أركان الحرب وفى كل مراكز القيادة على علم بموعد وصول الوزير، ولكن يبدو أن هيئة أركان الحرب نفسها قد خططت، قبل ذلك بوقت كاف، لإسقاط جنود مظلات فى مكان ما بالصحراء للتدريب، وبعد ذلك لهبوط ١٠ مروحيات بمطار القاهرة، حيث كانت تتمركز الطائرات والمروحيات الحربية على الطرف الآخر من ممرات الهبوط والانطلاق، كما كانت تقف أيضا هناك دائما طائراتنا التى كانت تنقل الجنود والمستشارين والخبراء السوفييت إلى موسكو. كانت طائرة وزير دفاع الاتحاد السوفييتى قد اقتربت من القاهرة، بينما كانت تهبط المروحيات كل ٥ ـ ٧ دقائق بالمطار. فقامت طائرة الوزير بعمل دورات فى اتجاه قناة السويس ونفذت حوالى ٣ ـ ٤ دورات. كان ضمن المستقبلين بالمطار كل أعضاء رئاسة جهاز المستشار العسكرى بقيادة الفريق أول آكونوف ورئاسة وزارة دفاع الجمهورية العربية المتحدة، وهيئة أركان الحرب برئاسة الفريق أول م. صادق. كما كان من بين الموجودين ممثلو سفارة الاتحاد السوفييتى يتقدمهم السفير ف. م. فينوجرادوف. كنا كلنا نشعر بالخجل وبعدم الراحة. دارت طائرة الوزير حوالى ٤٠ دقيقة. وبالطابع كان وزير الدفاع هو أيضا غاضبا تماما.

توقفت محركات الطائرة. انتظم كل المستقبلين فى صف عند سلم الطائرة، وقد كانوا حوالى ٤٠ شخصا. انفتح باب الطائرة، وخرج أحد مساعدى الوزير ودعا السفير ف. م. فينوجرادوف وكبير المستشارين العسكريين الجنرال أكونوف إلى صالون الطائرة. صعدا بسرعة السلم، وأغلق باب الطائرة.

لقد قرر المارشال جريتشكوا الاستماع إلى تقرير فينوجرادوف وأكونوف فى الطائرة. استغرق تقريرهما أيضا ٤٠ دقيقة بالتمام، مثل تلك الفترة التى

استغرقتها الطائرة فى الدوران حول القاهرة. كان كل المستقبلين يقفون تحت حرارة الشمس، حيث وصلت درجة الحرارة إلى +٣٨ درجة. وكان قد سرى بين رجالنا من المستقبلين أن الوزير سوف يستمع إلى رئيسينا وأنه سيواصل رحلة طيرانه إلى موسكو. ولكنه لم يقم بذلك. خرج كل الوفد من الطائرة، ومر الوزير على صف المستقبلين بأكمله، وصافح كلاً منهم. كان مظهره صارما، بدون أية ابتسامة على وجهه. ثم توجهت قافلة السيارات إلى القاهرة، حيث كان قد أعد لقاء للوزير مع المستشارين والخبراء بنادى جهاز كبير المستشارين العسكريين.

كانت القاعة ممتلئة عن آخرها. ألقى المارشال جريتشكو كلمة استغرقت حوالى الساعة والنصف. وقد وجه إليه بعض الجنرالات والضباط أسئلة. وبعد انتهاء اللقاء خرج من النادى متوجها فورا إلى سيارته. كان مزاجه هو والسفير فينوجرادوف وأكونوف عكرا تماما. وقد نسى الفريق أول أكونوف من فرط توتره دعوة الوزير لتناول الشاى. كان قد تم فتح باب السيارة للوزير، وهنا عرض أكونوف على الوزير تناول طعام. لم يبق الوزير كثيرا على المائدة، فقد أكل قليلا ورفض تناول الكونياك الأرمينى، وشرب الشاى ثم انطلق إلى المطار.

واستمرت الاستفزازات بعد ذلك. فقد تم تكثيف تفتيش كل مواطن سوفيينى فى أثناء سفره إلى وطنه. كنت فى ذلك الوقت قد انتقلت للعمل بقسم شئون الأفراد، وكان من بين مسئولياتى العمل مع المترجمين واستقبال وتوصيل كل المواطنين السوفييت، كما أنى كنت مسئولا عن جوازات السفر، لذلك كنت أقوم بعمل تأشيرات وصول وسفر مواطنينا ومستشارينا وخبرائنا وأسرهم من خلال القنصلية العامة للاتحاد السوفييتى وإدارة العلاقات الخارجية بالجمهورية العربية المتحدة.

فى المطار، أصبح موظفوالجمارك متعنتين تماما. تذكروا القانون الذى كان قد أصدره الملك فاروق، الذى تم خلعه منذ ٢٠ عامًا من على العرش، والذى يمنع إخراج الذهب من مصر. أصبحوا يفتحون الحقائب والصناديق ويصادرون كل ما زاد عن المسموح. عندما كانت العلاقات بين الجانبين حسنة، لم يكن أحد يتبع تعليمات الجمارك.

فى يوم ٩ مايو١٩٧٢، يوم ذكرى النصر، قام العرب بعملية الاستفزاز التالية، على ما يبدوا بصفة خاصة من أجل العيد. كان ٦٢ من الجنود السوفييت و٥ من

الضباط مسافرين من الساحة الحربية بمطار القاهرة الدولى، وكان من المقرر الطيران على طائرة "إل - ١٨" فى الساعة العاشرة طبقا للتوقيت المحلى. ولكن حدث هنا شىء ما. فقد قام العسكريون بدور المستفزين. تم اقتياد كل جنودنا وضباطنا إلى أحد المبانى، حيث أحاطه جنود مصريون مسلحون، بل تم أيضا استدعاء عدد من المدرعات، وأخذت كل ممتلكات الفتيان، على الرغم من أنه لم يكن يوجد لديهم أى شىء زائد، فكان مع كل منهم: خاتمان، سلسلة، جهاز تسجيل، وتم حبسهم يوما كاملا، بدون شراب أو طعام، بل وتم الحد من ذهابهم إلى دورات المياه. أخطرت بسرعة رؤسائى بهذا الحدث: كبير المستشارين العسكريين وسفير الاتحاد السوفييتى، وقد قاما بدورهما بإبلاغ موسكو - وزير الدفاع ورئيس هيئة أركان الحرب. تم أيضا إبلاغ الرئاسة العربية فورا، ولكنها لم تتخذ أية إجراءات من جانبها. كان الموقف متوترا للغاية، وكانت أعصاب الجميع مشدودة إلى أقصى حد.

وفى حوالى الساعة التاسعة مساء جاء أمر إلى الضباط والجنود العرب بإعادة كل ما تمت مصادرته إلى رجالنا وإخراجهم من المبنى الذى كان الهواء به خانقا لدرجة أن البعض شعر بالتعب. نتيجة لما حدث، طارت الطائرة إلى موسكو فقط فى الساعة ٠٠ : ٢٢. وقد اعتذر الجانب العربى واصفا هذا الحدث بأنه سوء فهم تسبب فيه بعض الأفراد.

وقد وقعت أحداث مماثلة بميناء الإسكندرية التى كان يسافر منها مستشارونا وخبراؤنا إلى الوطن بالسفن. وقد وصل الأمر إلى مشاكل كبيرة، فقد وصل الأمر إلى أنه تم احتجاز بعض الرفاق وإعادتهم إلى القاهرة، وبعد استيضاح المواضيع المختلف عليها، سافروا إلى الاتحاد السوفييتى بالطائرات.

كنا لم نعرف بعد أن رئيس مصر أنور السادات قد وقف على الطريق الأمريكى وأنه كان يبحث عن أى سبب، أى أمر يمسك به، لكى يبين أن السوفييت سيئون. ومن هنا ظهرت هذه الشكاوى من المعدات الحربية ومن تصرفات الروس بمصر. وفى النهاية جاء ذلك اليوم، عندما دعا السادات سفير الاتحاد السوفييتى بمصر وكبير المستشارين العسكريين الفريق أول إليه فى يونيه ١٩٧٢ وأعلمهما بأن المستشارين والخبراء السوفييت قد قدموا لمصر مساعدة كبيرة

وقاموا بتدريب وتعليم جيوشها، وأن لهم الشكر على ذلك والاعتراف بالجميل، ولكن مصر لم تعد تحتاج فى المستقبل للمساعدة من طرف آخر، وأنه لذلك جاء وقت الافتراق. وأن مصر تقدم ٤ ـ ٥ طائرات (بوينج وطائرات كارافيل فرنسية الصنع) لكى يغادر البلد كل المستشارين والخبراء فى خلال ٤ ـ ٥ أيام. كان هذا الإعلان مهينا ومسيئًا للغاية، وليس فقط للسفير فينوجرادوف وكبير المستشارين العسكريين أكونوف، ولكن لنا كلنا، كل من كان موجودا فى مصر. كان ذلك يمثل صفعة لبلدنا.

عرفنا فيما بعد عن الزيارة السرية التى قام بها سكرتير الدولة بالولايات المتحدة الأمريكية هنرى كيسينجر إلى مصر فى أبريل عام ١٩٧٢، والتى قام فيها بوضع شرط للسادات: "أخرجوا الروس من مصر، وسوف تدفع لكم الولايات المتحدة الأمريكية كل عام ٣ مليار دولار أمريكى لتحسين الاقتصاد وتقوية الدفاع". القصة القديمة عن "إنجاز" يهوذا و٣٠ عملة فضية.

تم فورا إبلاغ قرار السادات إلى ليونيد بريجنيف ووزير الدفاع جريتشكو، الذى قال ردا على ذلك: "بخصوص الطائرات التى يقدموها لنا، قولوا لهم شكرا. فلدينا قوات طيران قوية بدرجة كافية لكى نقوم بنفسنا بنقل مواطنينا إلى الوطن. أما ما يخص المواعيد، فأخبروا الجانب العربى بأننا سوف ننقل رجالنا فى القدر اللازم لنا من الأيام والذى سنحتاجه للقيام بذلك". وقد كان ذلك، وتم تنفيذه. وقد تم إرسال كل رجالنا إلى موسكو فى حالة هدوء تام. وقد سافر آخرهم فى يوم ١٦ يوليه من عام ١٩٧٢. تم نقلهم بطائرات نقل عملاقة "أنتايا" وإل ـ ١٨ وإل ـ ٦٢ وكذلك بالسفن إلى أوديسا. كنت أفكر بينما كنت أغادر مصر والألم يملأ قلبى فى عام ١٩٧٢: "كم هو عظيم هذا البلد وكم هو عظيم هذا الشعب الذى يعيش به، وكم يتوقف الكثير على رؤساء البلد وعلى التأثير الإيديولوجى على الشعب".

وها أنا، بعد ٢٥ عامًا من ذلك، وبصفتى رئيسا لقسم شئون العاملين بالجهاز العام للبناء بموسكو، أرافق مجموعة من الرياضيين، من بين البناة بمدينة موسكو إلى مصر. وقد فهمت عندما التقيت ببسطاء العاملين بمصر أن الشعب يذكر كل ما هوحسن مما فعله الإخوة الروس لمصر فى الأيام الصعبة عليه، خلافا عن أى سياسيين. وقد حفظت فى قلبى أجمل الأحاسيس لبلد الأهرام وشعبها.

سنة مع جنود الدبابات بالجيش الميدانى الثانى

ف. ب. كليمنتوف

بعد تخرجى بقسم تاريخ الشرق الأدنى والشرق الأوسط بكلية الشرق بجامعة لينتجراد فى شتاء عام ١٩٦٧/ ١٩٦٨، تم استدعائى لحديث مع جنرال جاء من موسكو عرض على السفر كمترجم للغة العربية بجهاز كبير المستشارين العسكريين السوفييت بالقوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة. وقد اصطدمت مبرراتى بأنى لم أقم بحلف القسم العسكرى وبأن لدى عامة تصورًا مختلفًا بعض الشىء عن الحروب العربية ـ الإسرائيلية بالمنطق "الصلب" لمحدثى فيما يخص الأممية ومساعدة ضحايا عدوان الاستعمار والصهيونية، والذى أدى إلى استنفارى لكتابة طلب "برغبتى الخاصة".

عند وصولى إلى موسكو(كان ما يزال جار يًا إعداد أوراق "القائم بالخدمة بالجيش السوفييتى وبالأسطول البحرى الحربى" بالإدارة العاشرة للقيادة العامة، المسئولة عن الكوادر بالخارج) نزلت ببيت الطلبة بمعهد المترجمين العسكريين حيث قابلت معلمى للترجمة العربية العسكرية ل. ل. تخورجفسكى. وقد وصلت إلى القاهرة فى أحد أيام يونيه عام ١٩٦٨ مع "متطوع" آخر من طلبة السنة الرابعة بقسم اللغة الإنجليزية بمعهد موريس توريز[٤٤] للغات الأجنبية هو ف. جوزيف.

استغرقت الإجراءات بمطار "القاهرة الغربى" وقتًا قليلاً حيث إن الموظفين السوفييت المعنيين (المخابرات العسكرية) وممثل الجهاز المصرى للأمن "الأسطورى" العقيد برديسى الذى كان مسئولا عن "المستشارين" و"الخبراء"

---

(٤٤) السكرتير العام الأسبق للحزب الشيوعى الفرنسى.

السوفييت قد استقبلوا الرحلة. كان يؤكد أنه أحد أحفاد أسرة مماليك الأبراج، لذلك فهو كان يقدر تماما القوقازيين الذين كانت تتكون منهم فى الأساس هذه الزمرة الفريدة من الحكام ـ العبيد السابقين الحاكمين لمصر حتى تصفيتهم الجسدية فى عام ١٨١١ بواسطة الألبانى محمد على ـ مؤسس آخر أسرة ملكية مصرية. يجب أن أقول إننا تعودنا بسرعة على "الوصاية" من جانب مرءوسيه فى أثناء صرفنا بالقاهرة والإسكندرية أو الأقصر، عندما نرى من حولنا نفس تلك الوجوه المرتدية للجلابية والتى قابلناها فيما بعد بملابس العسكرية بمكتب برديسى بفندق "سعود ـ ١".

أنزلونا بالفندق المؤقت "سعود ـ ٢" بحى هليوبوليس، والذى كانت تحرسه الشرطة العسكرية. كان ينزل هنا بالإضافة إلى المترجمين خبراء قيادة الطيران من الاتحاد السوفيتى القادمون إلى مصر لفترات قصيرة. وقد عرفت منهم تفاصيل الحياة القاهرية، وخاصة الليلية، وحصلت منهم على كم من النصائح المفيدة (أعتقد أنهم كانوا من تفيرا)[٤٥]. لم يكن أول لقاء مع اقتصاد السوق، الذى يعمل طوال الأربع وعشرين ساعة، بوفرة البضائع به، يصعق فقط المستشارين العسكريين القادمين عامة من حاميات عسكرية بعيدة جدا، ولكنه صعقنا نحن أيضا ـ القادمين من موسكو ولنينجراد وكييف وباكو وباقى المدن الكبيرة. بحصولنا على مرتبات جيدة (كان مرتبى كمترجم يعادل تقريبا مرتب رائد بالجيش المصرى، على الرغم من أن الأخير كان يعيش بشكل أفضل، حيث إن الضباط المصريين كانوا على أية حال متمتعين بكم كبير من المزايا والتخفيضات، كما أنهم كانوا ينتمون إلى الطبقات الميسورة بالمجتمع المحلى) تمكنا بسرعة من التعامل مع "دور العهارة" بشارع الأهرام الموصل لأهرامات الجيزة، على سبيل المثال الأندية الليلية "أوبرج الأهرام"، والأريزونا، وغيرها... كنا نقابل هنا، وأيضا بسوق العاصمة الشهيرة "خان الخليلى" الكثير من المصريين فى سن التجنيد، سبق أن التقيت من بينهم بعض ممن كانوا "تحت وصايتى" بمصنع "زاباروجستال"[٤٦] بمدينة زاباروجيا، حيث أمضوا فترة تدريب فى عامى

---

(٤٥) مدينة على بعد ١٥٠ كم شمال موسكو.

(٤٦) مجمع كامل ضخم لإنتاج الحديد والصلب بمدينة زاباروجيا بأكرانيا كان يرسل إليه الكثير من المهندسين والعمال المصريين للتدريب.

١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ كخبراء فى الصناعات المعدنية بمجمع الحديد والصلب بحلوان، أما نحن ـ فكنا نتدرب عمليا على اللغات كطلبة بالصف الرابع. وكما فهمت من الحديث معهم، فإن حكومة عبد الناصر قد اضطرت إلى تقديم تنازلات كبيرة لصالح القطاع الخاص فى مجال الاقتصاد، فى ظل ظروف الحرب، على الرغم من أنه تمت المحافظة على ما يسمى "التوجه الاشتراكى" بالبلد. وقد أدى هذا الوضع إلى زيادة وفرة البضائع التى تنتجها مصانع الصناعات الخفيفة والتى كانت تباع بمحلات القطاع الخاص التى تغمرها الإضاءة بكل الشوارع الرئيسية، والمكونة لصف ممتد من المحلات التجارية، حيث كانت تتميز فترينات العرض بكل منها بتنسيقها الخاص وبيافطات فاخرة ووفرة أنواع الأقمشة وأشكال الأحذية ونماذج الملابس النسائية من التريكو، أى بكل ما كان يمثل عندنا ندرة كبيرة.

بعد أسبوعين أو ثلاثة من التدريب عند إ. د. ليوتكين بمكتب الترجمة بمقر قيادة كبير المستشارين العسكريين جنرال الجيش لاشنكو، تم تعيينى مترجما بمركز تدريب قوات الدبابات بمعسكر الهايكستيب، على بعد حوالى ٢٠كم من القاهرة على طريق القاهرة ـ الإسماعيلية. هنا كانت توجد معسكرات جيش الاحتلال الإنجليزى قبل ثورة عام ١٩٥٢، وبعدها معسكرات اعتقال "الضباط الأحرار"، ومنها معسكرات اعتقال الشيوعيين. كان المعسكر فى حالة إهمال حتى عام ١٩٦٨، ولكنه استمر فى إعداد الأفراد لمختلف وحدات الجيش المصرى المدافع على الضفة الغربية لقناة السويس. كانت تتلخص كل طريقة إعداد المقاتلين الجدد للقتال فى بيان (افعل كما أفعل) مختلف أدوار الطاقم بدون شرح أسس ونقاط النظام الداخلى. كان الآباء القادة يفضلون استخدام الطرق البدنية للتأثير فى خلال عملية تعليم المقاتل الشاب، وببساطة كانوا يستخدمون أيديهم إذا لم يظهر المتدرب التقدم المطلوب لتعلم علم القتال. كان فلاحو الأمس يتقبلون الطرقعة بلا تذمر، وقد كانوا يخافون من كل شىء ـ القائد، المستشار الغريب، الدبابة (العربة ـ الشيطان)، عدو المستقبل (يجوج ومجوج)، الحواجز المائية ومختلف "بهجات" الخدمة. وكانت حالة الازدراء من جانب الضباط لمسئولياتهم المباشرة فى الخدمة فى كل مكان ملفتة للنظر. فعلى سبيل المثال، فى كل صباح كانت سيارة طراز "اوازك" خفيفة تحضرنا أنا واثنان من مستشارينا إلى المعسكر،

ثم كنا نتناول الغداء فى القاهرة ونعود مرة أخرى إلى الوحدة. كان، ببساطة، من المستحيل العثور على أى ضابط مصرى، خلاف النوبتجى، فى وحدته بعد الغداء، حيث إنهم كلهم كانوا يبقون بمنازلهم فى القاهرة. وقد قادنى القدر للقاء "الشباب الذهبى" للجيش المصرى بالهايكستيب، حيث شارك أقاربهم، الأكبر سنا، فى ثورة عام ١٩٥٢، وكانوا يتمتعون بالسلطة فى مصر الناصرية. وعلى الرغم من تنظيف الجيش من عدة آلاف من الجنرالات وكبار الضباط بعد هزيمة عام ١٩٦٧، فإن هذه الطبقة ظلت ذات سلطة كبيرة. منحنى أحد الملازمين من "الأبناء" توصية للالتحاق بنادى الضباط المميز "هليوبوليس الرياضى"، وقد دفعت لذلك الغرض مبلغا كبيرا من المال.

هذا الوضع بالذات هو الذى لعب دورا حاسما فى مستقبل خدمتى. فقد قيل لى فيما بعد، إن بعض الجنرالات من جهاز كبير المستشارين العسكريين الذين كانوا هم أيضا يذهبون إلى هذا النادى قد عبروا عن عدم رضائهم عن الحياة "الحلوة" لبعض المترجمين فى القاهرة، على الرغم من الحاجة إليهم على الجبهة. لذلك، فى صباح أحد الأيام الجميلة من شهر يوليه ١٩٦٩ صدر لى أمر بأن أكون تحت أمر قيادة فرقة الدبابات بالجيش الثانى الميدانى الموجود على قناة السويس. كان مستشار قائد الجيش الثانى هو لواء قوات الدبابات بوكاتوف الذى دار معه حديث غير سار لى على الإطلاق عند تعرفنا على بعضنا. كنت قد قدمت نفسى عند وصولى معلنا: "قائم بالخدمة بالجيش السوفييتى وبالأسطول البحرى الحربى... إلخ..."، وقد جاءنى الرد على ذلك بأنه لا يوجد هنا قائمون بالخدمة ولكن يوجد مجندون عسكريون يحملون رتبًا مناسبة.. فأضفت عندئذ: "ملازم احتياط، تخصص عسكرى رقم ٢٠٠٣، لم ألق قسم الخدمة العسكرية". تمتم الجنرال شيئًا ما بدون محاباة بخصوص الكوادر وسألنى عن العضوية بالحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى. بعد ردى النشيط الخاص بالشبيبة الشيوعية، وبأننى حتى الآن لست جديرا بذلك، كما أن الحصة لا تسمح، انفجر الجنرال: أى حصة؟ كان الجنرال معتادًا على القبول السهل بالحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى فى الجيش، لذلك فلم يتمكن لمدة طويلة من فهم أن رئاسة الحزب الشيوعى للاتحاد الشيوعى بإقليم فاسيلأوستوفسكى خصصت لجامعة لينينجراد بضعة عشرات فقط من الأماكن لحوالى ١٥ ألف من الطلبة والأساتذة.

ومن العدل أن أشير إلى أن الجنرال قد غير علاقته بى فيما بعد إلى الأحسن، وكان فقط أحيانا يطلق على "حدى" (أى من خارج حدود المدينة). أما فى الفرقة فقد منحنى العرب بسرعة لقب "برم"، وهو يعنى باللغة العامية المصرية شيئًا مثل "خفيف الحركة، لحوح"، غالبا نظرا لزيادة "حب العلم" عندى، فى رأيهم.

بعد انتهاء هذا الحديث، استدعى الجنرال المترجم إلى العربية يورى شيفتسوف (ويقيم الآن العقيد المحترم يورى إيفانوفيتش شيفتسوف فى موسكو) وأمره بتخصيص مكان لى بأحد بيوت الضباط بالمعسكر الحربى الإنجليزى السابق بالتل الكبير، حيث ينزل المستشارون والمترجمون. التل الكبير يمثل موقعًا تاريخيًا، حيث جرت هنا معركة حاسمة بين الجيش المصرى والمتدخلين الإنجليز، خسرها المصريون ففتحوا الطريق إلى القاهرة للإنجليز من جانب قناة السويس. وتوجد هنا بجانب المقابر العسكرية الإنجليزية، التى ترجع لعام ١٨٨٢، مقابر دفن بها مواطنونا من المهاجرين البيض الذين توفوا فى أثناء هجرتهم أو فى أثناء ثورة ١٩١٩ ضد الإنجليز.

التقيت فى السكن بمجموعة ودودة متعددة القوميات من مترجمى الفرقة، عقدت معهم فورا علاقات جيدة، وتناولت معهم الكثير من العيش والملح فى الوحدة.

كانت فرقة الدبابات رقم ٢١ (قائد الفرقة هوالجنرال سعد الدين مأمون، والمستشار هوالعقيد كروخين) متمركزة خلف فرقتى المشاة رقمى ٢ و٣، وكانت تحمى طريق الإسماعيلية ـ القاهرة وبورسعيد ـ القاهرة الاستراتيجى وكذلك قناة الإسماعيلية ـ القاهرة ذات المياه العذبة. كانت الفرقة تضم لواء الدبابات رقم١) قائد اللواء ـ العقيد فؤاد السمعة، والمستشار هو أوسيبوف) ولواء الدبابات رقم ١٤ (قائد اللواء العقيد محمد عبد المنعم واصل) واللواء الآلى رقم ١٨ (المستشار هو العقيد ستيباشين).

كانت الفرقة ٢١ تعتبر إحدى أكثر وحدات الجيش المصرى كفاءة فى القتال. فبعد الاشتباكات فى حرب يونيه ١٩٦٧ مع اللواء رقم ١٤، أحال إلى التقاعد وزير دفاع إسرائيل موشيه ديان الجنرال طال ـ قائد الهجوم الإسرائيلى فى شمال سيناء. فقد طرد اللواء رقم ١٤ الإسرائيليين ثلاث مرات من رفح، بل

وحاصر الكتيبة الإسرائيلية. وقد تم إحباط هجوم مجموعة "طال"، إلى أن أسرعت إليها قوات مساندة إسرائيلية. أما اللواء رقم١، الذى كنت أعرفه بدرجة أحسن، فلم يشارك فى حرب يونيه، حيث إنه عاد فى سبتمبر عام ١٩٦٧ من اليمن الشمالية حيث شارك فى الحرب الأهلية بين الجمهوريين والملكيين وحصل على خبرة معينة فى القتال. كما كان يوجد أيضا ضمن الجيش الميدانى الثانى لواء الدبابات رقم ١٥ المنفصل (قائد اللواء ـ العقيد دسوقى) ولكنه كان يتجنب المستشارين السوفييت بالسبل كافة.

كان تسليح اللواء رقم ٢١ عبارة عن دبابات T - 55A, T - 55, T - 54 A, T 54 وكذلك دبابات عائمة ΠT ـ ٧٦. وعلى الرغم من من أن أفراد اللواء كانوا من القدامى، فإنه كثيرا ما كانت تحدث حوادث مؤسفة. كانوا أحيانا ينسون فحص المدفع الرشاش، وعند فحص معدة النشان كانت الطلقات تصفر فوق الرءوس، أو أحيانا كان قائد الدبابة الميكانيكى ينسى ربط خوذته وفى أثناء تخطى متراس أصاب رأسه. وفى إحدى المرات أفادنا الرائد طيب القلب سكليارينكو ببعض القلق أن تلاميذه من كتيبة المدفعية أعطوا إحداثيات مركز قيادته كهدف لضربه بالمدفعية. وحيث إن عدد المستشارين لم يكن كافيا، فإنه أحيانا كانت تكفى تماما خبرة مترجم الانجليزية ليونارد بيلا أوسوف الذى كان قد خدم فى الجيش كمعلم قيادة بالمدرسة العليا للمدرعات بكييف قبل التحاقه بجامعة كييف، وهو ما قد أدى إلى تفادى مواقف أخرى غير سارة. عندما كانت تقع مثل هذه الحوادث فقد كان العقاب سريعًا ـ (الضرب على الوجه). كانت تقابل محاولات المستشارين التأثير على تلطيف الأخلاق برفض حاسم:"طبقا للاتفاق بين الحكومتين، لا تتدخلوا يا سادة فى النظام الداخلى بالجيش، فهذا شأننا الداخلى".

حقيقة، كان لتجنيد، أو بدقة أكبر، كان لاختيار عشرات الآلاف من خريجى المؤسسات التعليمية المتوسطة أو العليا للخدمة العسكرية بعض التأثير على تلطيف الأخلاق بالجيش، ولكنه لم يتمكن من تغيير قسوة تعامل الضباط بداخل الجيش من جذورها. فعلى سبيل المثال كان لدينا بلواء الدبابات رقم١ سائقان لسيارة "أويازيك" وكان يطلق عليهما "على الكبير" و"على الصغير". وقد كان على الكبير قبل دخوله إلى الجيش عاملا بمصنع المحلة الكبرى للنسيج القطنى، لذلك

كان لديه شعور معين بعزة النفس، ولم أر أية محاولة من أى من الضباط للطمه. ولكن فلاح الأمس على الصغير كان يتلقى الكثير منها. ولكنه كان يتعامل مع كل الأمور بصلابة متذكرا كيف أنه شرب بوله فى يونيه عام ١٩٦٧ فى أثناء انسحابه لعدة أيام عبر سيناء سيرا على الأقدام وبملابسه الداخلية، وبدون السلاح الذى تركه بناء على أمر القائد العام فى ذلك الوقت المشير عامر (بالمناسبة هو بطل للاتحاد السوفييتى، وهواللقب الذى منحه له ن. س. خروشوف فى أثناء زيارته الأخيرة لمصر).

كانت العلاقة بالدين تمثل مشكلة خاصة فى العلاقة بين الجانبين السوفييتى والمصرى. فكما هوم عروف، الإسلام هو الديانة الرسمية لمصر، لذلك فقد كان رد الفعل لأية ملحوظات من جانب المستشارين السوفييت، الذين تمت تربيتهم فى جو من عدم الإيمان، يكون بشكل سيئ للغاية. كل المؤلفات الأدبية والأشعار والأمثلة والحكم والكلمات اليومية فى البلاد المسلمة مشربة بتعبيرات من القرآن، وأى تنديد بالإسلام يعتبر كتجديف، فعلى سبيل المثال، كان يمكن أن ترى فى أى حجرة عبارة:"لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا"، وهو ما كان يعتبره المستشارون السوفييت فلسفة جبرية غير مقبولة، فى رأيهم، فى المعركة. وكانت بعض العبارات مثل "إن شاء الله" تغيظ بعض المستشارين. فأى "الله"؟ الأمر هو أمر! اضطررت إلى توضيح أصول الكثير من التعبيرات التى اعتاد عليها المسلمون للتخفيف من أسلوب استقبال رجالنا للكثير من الخرافات المحلية، والتى كان يمكن أن تؤثر على الشك فى مدى مناسبة الأوامر أو تنفيذها. عامة كان يجب أن يقوم بذلك المسئولون المتعددون بالمكتب السياسى، ولكن اضطر المترجمون إلى عمل ذلك. وقد ألقيت بنفسى عدة محاضرات فى المواضيع التالية: "الإسلام"، "تاريخ مصر"،"من هو جمال عبدالناصر" بدلا من دروس السياسة المملة.

وبالمناسبة حتى مؤسس الاشتراكية العربية، البطل الآخر للاتحاد السوفييتى - رئيس مصر جمال عبدالناصر أعلن: "أريد أن يكون كل جندى مخالصا لمثل الدين ولمبادئنا وقيمنا الروحية. ويجب أن يؤدى التوجيه المعنوى إلى تعميق هذه المفاهيم وأن يجعل من عامل الإيمان بالله أساسًا لتربية الجندى سياسيًا". وقد جاء فى كتاب التوجيه المعنوى للقوات المسلحة الصادر فى عام ١٩٦٨" أن "الوعظ"جزء أو

وحدة تمثل العنصر الأساسى فى نظام أجهزة التوجيه المعنوى. ويجب أن يشمل نشاطه كل أجنحة القوات المسلح، وأن يتبع مباشرة فى ذلك فقط أوامر الضابط الأعلى فى التوجيه المعنوى".

اعتبارا من شهر أغسطس عام ١٩٦٨ بدأت التراشقات والمبارزات بالمدفعية التى كان يقودها المستشارون العسكريون السوفييت. وفى يوم ١٤ أغسطس من عام ١٩٦٨ (أذكر هذا اليوم جيدا، حيث أنى بلغت سن ٢٤ فى يوم ١٣ أغسطس، وبعد هذا الحدث المتنى رأسى بشدة) صدر لى أمر بالذهاب مع نائب قائد لواء المدفعية إلى نقطة مراقبة موجودة على سطح مبنى إدارة قناة السويس المتعدد الطوابق بالإسماعيلية، حيث كان يظهر من هناك بشكل جيد ما يسمى بخط بارليف الذى بناه الإسرائيليون على الضفة الشرقية للقناة. صدمنى تماما المنظر الذى رأيته من أعلى، حيث كنت مغطى بسور السطح فقط إلى ركبتى. كانت تقف فى الأمام على مدى البصر حواجز رملية، وأكياس رمال تستر مخابئ وخنادق، كانت تقف دبابات ومدافع وترفرف أعلام عليها نجمة داوود.

الأهم هو أنه أمام هذه الجبال من الرمال والمعادن القاتلة كان يمشى جنود إسرائيليون من الشبان يلبسون زيًا غير عادى زيتونى اللون، وكان بعضهم، على الأرجح، من مواطنى إلى زمن قريب. عرفت عن ذلك من زميلى فى الدراسة بالكلية، مترجم اللغة العبرية يانيس سيكستوليس (وهو الآن عميد كلية اللاهوت بجامعة ريجا)، الذى شارك فى استجواب الأسرى بقسم المخابرات بقيادة الجيش. وبالإضافة إلى ذلك كانت متاريس الخنادق الإسرائيلية مغطاة تماما بلافتات عليها كتابات باللغة الروسية من نوعية:"أيها السوفييتى، ألم يحن الوقت للعودة إلى بيتك؟" أو"هل نسيتم حروب أعوام ١٩٤٨، ١٩٥٦و١٩٦٧؟" أو"مرحبا بكم فى جهنم". وكانت شابات إسرئيليات مرتديات البيكينى من أجهزة الجيش المساعدة تتشمسن فى بعض الأماكن. كان من المحزن التفكير فى أنهم سوف يكونوا كلهم، بعد بضعة أيام، ببساطة أهدافا للمدفعية المصرية القوية التى كانت قد احتلت مواقعها القتالية.

"لا يهم هذا الأمر، سوف نريهم قريبا" ـ هكذا قال مدفعجينا الأرمينى الجنسية وهو يبين طرابيش أسنانه الذهبية. كنت مدركا لخطورة القناصة

الإسرائيليين الذين كانوا يعرفون تماما ولع الضباط المصريين بطرابيش الأسنان الذهبية لسبب، أو بدون داع، لذلك نصحت المستشار المنتفخ بأن يقلل من الكلام، فلم يكن من الصدفة أن حافظ الضباط المصريون المصاحبون لنا على صمتهم، وأنهم قاموا احتياطيا بنزع علامات الرتب الحاملة للنجوم (فهى لم تكن مخاطة كما يحدث عندنا) ونظاراتهم الشمسية التى لم يكن يضعها الجنود البسطاء. كان يكفى أن شعرى أنا والأرمينى كان أسود وأنه كان من الممكن تماما أن نظهر باعتبارنا مصريين، على الرغم من أن الروس أيضا لم يكونوا محميين من الطلقات، وكان يوجد ما يؤكد ذلك.

بعد عدة أيام من هذا الاستكشاف ضربت المدفعية المصرية بقوة ودقة، فتوالت الانفجارات فى سيناء وارتفعت ألسنة اللهب. وفيما بعد قد روى المراقبون المصريون "للمقدمة" بفرق المشاة أن الضباط الإسرائيليين قد اضطروا إلى إطلاق الرصاص على الجنود الذين لم يتحملوا النيران المصرية ففروا فى اتجاه المؤخرة. كما كانت هناك أيضا خسائر فى الجانب المصرى، فقد قتل فى إحدى هذه المبارزات رئيس أركان الحرب الفريق عبدالمنعم رياض. وقد ذهبت فى هذه الأيام إلى الجزء الصغير من شبه جزيرة سيناء الذى بقى فى أيدى المصريين، بمنطقة بورفؤاد. لقد دارت هنا معركة من أجل الطريق الوحيد الموصل من بورفؤاد إلى القنطرة. والآن كثيرا ما نتذكر أنا والمترجم السابق فى هذا القطاع ليف جولوبنكوف، القادم من موسكو، كلمات شاعرنا على الجبهة يفجينى جراتشيف: "سوف أعود إلى الوطن، وأمسك بالقيثارة وتحت دقات الأوتار الخافتة بالتتابع أتذكر شوارع القنطرة وكتيبتى للمشاة".

فى نفس هذا الشهر - أغسطس، وقع حدث آخر انعكس بشكل أكبر على الحياة الداخلية للجالية السوفييتية بمصر من انعكاسه على الوضع فى الجبهة. ففى إحدى المرات ونحن عائدون من تدريب امتد لثلاثة أيام، وكنا نشعر بالجوع والبرد، أركبونا حافلة وأرسلونا إلى القاهرة.

وفى الطريق كانت تلاحقنا سيارات ملاكى وكان يصرخ فينا بعض الناس عبر نوافذها باللغة الروسية "أيها الجيش الأحمر - عد إلى بلدك". وبمجرد وصولنا إلى النادى الثقافى للجيش بهليوبوليس، علمنا أن قوات حلف وارسو قد دخلت

تشيكوسلوفاكيا. حقيقة، فقد كان المستشارون مهتمين أكثر بما سيحدث لمصانع البيرة التى بناها هؤلاء التشيك بالقاهرة، والتى كانت تنتج العلامة التجارية المفضلة لهم "ستيللا" و"مارزن بير"(وبالمناسبة هى الوحيدة فى مصر كلها). وبينما فتح المترجمون الجائعون ثلاجة ما وتناولوا فى الخفاء بطيخًا، تبين فيما بعد أنه ملكية خاصة لزوجة أحد العاملين بالمكتب السياسى، خرجت فى روب منزلى على صوت الضجيج وبدأت "مشكلة" نسينا بعدها كل شىء عن تشيكوسلوفاكيا وتذكرنا المطبخ المشترك فى إحدى الحاميات السوفييتية البعيدة.

عامة كان يوجد مركز ثقافى سوفييتى آخر بجزيرة الزمالك بوسط القاهرة، تقدم به الأطعمة الروسية، ولكنه لم يعد يسمح لنا بدخوله بعد الخلاف مع القنصل السوفييتى، الذى شاهد تصرفنا "العادى"، فى أثناء طردنا.

ولم تكن مشاكلنا الخاصة خافية على المصريين. فأذكر أن السائق على الكبير سألنى بصوت به نبرة تهكم: لماذا يوجد فى ثلاجة "مستر" فيتالى (كان المصريون يطلقون على ف. إ. بوليانتشكو الأصلع الرأس ـ المترجم بمركز قيادة القوات الجوية الحربية بالقاهرة ـ هذا الاسم) الكثير مما لذ وطاب من المأكولات التى تم إرسالها قبل عيد الجيش السوفييتى يوم ٢٣ فبراير، أما فى الفرقة فيتقاسمون فقط الفودكا والبسكويت بالشيكولاتة. أجبته مازحا: كما هو معروف، فإن كل التموين يضيع فى مراكز القيادة.

كانت أكثر البضائع المربحة، من أجل التجارة فى الخفاء، هى الذهب المصرى رخيص الثمن و"الشمبانيا السوفييتية"، التى كانت تساوى الزجاجة منها عدة "روبلات خشبية" فى الاتحاد السوفييتى، بينما كانت تباع فى الملاهى الليلية بالقاهرة بثلاثة جنيهات مصرية أو أكثر، وكان مخزونها يصل إلى هناك بطرق خفية. لم تكن تباع فى المحلات التجارية، وكان من الصعب تصور أنه كان يوجد تصدير انتقائى لتوريدها مباشرة إلى الكازينوهات. ليس من الهباء وجود المثل الروسى الذى يقول: "لبعضهم الحرب ـ وللبعض الآخر الأم التى ولدتهم". كان يوجد موردون أغبياء فى الجيش، وهم موجودون الآن، وسوف يكونوا موجودين فى أى جيش، وفى أى زمن، بغض النظر عن البنية السياسية والاقتصادية والإيديولوجية وإلى آخره. ومثال كل من أفغانستان والشيشان يمثل تأكيدا إضافيا لذلك. فمن الواضح أن الإنسان ضعيف.

حاول الطيران الإسرائيلى فى يوم ٢٠ يوليه ١٩٦٩ انتزاع السيادة فى الجو، حيث قام بهجوم غير مسبوق بعد يونيه ١٩٦٧. أغارت طائرات "الميراج" و"السكاى هوك" خمس مرات على الجيوش المصرية التى كانت تملك نظم دفاع جوى متقادمة. وفى خلال إحدى هذه الغارات على التل الكبير قتل العقيد كولتشنكو من كازاخستان وأصيب عدد من المستشارين والمترجمين. كما كان هناك الكثير من القتلى والجرحى بكتائب المدفعية المضادة للطائرات، وهنا فقط ارتفع الطيران المصرى إلى الجو. فى ذلك الوقت كنا موجودين فى تدريب ثنائى الأطراف مع الجيش الميدانى الثالث بالصحراء، وقد شاهدنا هذه المعركة فى السماء الإفريقية الزرقاء، فضبطنا أجهزة الاستقبال اللاسلكية على موجة الطيارين. لدهشتنا، كان هناك الكثير جدا من الشتائم الخارجة الروسية ومن الجانب الآخر بلغة إنجليزية دارجة. كثيرا ما كان "الأبطال" المصريون نفسهم المتأنقون لدرجة كبيرة على الأرض، يفضلون فى مثل هذه الحالات إطلاق أقصى سرعة للمحركات فورا ثم القفز من الطائرة نظرا لاستهلاك الوقود بالكامل.

كالعادة، عندما كانت تقع خسائر كبيرة، كانت تدور علينا العمة (رداء الرأس المصرى). فكان المستشار يضع بها جنيهًا مصريًا، والمترجم نصف جنيه."نحن نقدم حياتنا فى سبيل جنيهات مصرية"(كلمات الشاعر المشار إليه أعلاه إ.جراتشيف). وكان يتبع ذلك وليمة الدفن. وعلى الرغم من أن اليونانيين والأقباط كانوا يبيعون المشروبات الكحولية ـ البراندى، النبيذ... ـ فى أى وقت من اليوم، فإن السوفييت كانوا يفضلون عليها الكحول النقى المخفف بالكوكاكولا أو البيبسى كولا. كان يطلق على هذا المشروب غير العادى"خمستاشر"، أى خمسة عشرة باللغة العربية الفصحى، حيث إن ثمن المشروب الغازى كان ثمنه ١٥ قرشا. لقد لعب هذا المشروب دور الدواء العام فى كل حالات الوبال. لم نكن نحصل على أقراص الكينا الخاصة بالملاريا، وكان المستشارون هواة صيد الأسماك يصطادون الأسماك المصابة بمختلف الطفيليات، كما كان الكثيرون يسبحون فى مياه القنوات التى لم تكن ضفتاها نظيفة على الإطلاق. وقد أصبت أنا نفسى بمضاعفات الدوزنتاريا الأميبية وبحصاوى فى الكليتين، لكل ما تبقى من حياتى، بالإضافة كذلك إلى كسر مضاعف فى يدى اليمنى، وحقيقة لم تكن الميكروبات أو الفيروسات مسئولة عن الحالة الأخيرة.

وفى نفس الوقت تطورت الحرب الأرضية طبقا لمنطقها الخاص. ففى ٨ مارس عام ١٩٦٩ بدأت الجيوش الإسرائيلية فى قصف كل منطقة قناة السويس يوميا. أصبح القصف بالمدفعية والمعارك كثيرا ما تستمر لمدة عشرين ساعة فى اليوم، ولم يتنازل المصريون هم أيضا.

وفى يوليه عام ١٩٦٩، تمكنت سرية من جنود المظلات المصريين من عبور القناة لأول مرة. وإذا كان قبل ذلك أنها كانت تقوم بذلك فقط فرق الاستطلاع الحربى المكونة من الفلسطينيين، فإن المصريين قد فهموا الآن أنه يمكن ضرب العدو. قامت السرية باختراق خط بارليف ودمرت نقط ارتكاز فصيلة إسرائيلية، ودمروا بضعة دبابات. كما قامت سرية أخرى عبرت القناة بتدمير موقع تمركز صواريخ كان يستخدم لضرب الإسماعيلية. وبعد تبادل القصف المسائى بالمدفعية، حاول الإسرائيليون إنزال فدائيين على قاربين، ولكن تم تدمير أحدهما. تم أيضا تدمير مروحية تم استدعاؤها من أجل إنقاذ القارب الذى جرى إغراقه. وقد تمت استعادة الروح المعنوية للجيش المصرى بالفعل بعد الإعلان عن هذه الأحداث.

وفى ربيع عام ١٩٦٩، تم نقل اللواء الآلى رقم ١٨ من فرقة الدبابات رقم ٢١ الى إحدى قنوات النيل الغربية للتدريب على عبور الموانع المائية الكبيرة. وقد تحرك اللواء إلى ليبيا بدون ذخيرة أوالتزود بالوقود عن طريق خط سكة حديد دائرى بدون المرور عبر القاهرة. كان من الواضح أن الرئيس عبدالناصر ورجاله قد تعلموا تماما دروس تاريخهم الخاص فى عام ١٩٥٢ فلم يرغبوا فى المجازفة مرة أخرى. ولكن كان علينا الآن التنقل عبر كل مصر محافظين على الاتصال بين لوائى الفرقة الباقين. وقد منحتنى هذه الرحلات الكثير، كمستعرب، حيث إنها كانت تمر عبر ريف مصر الذى لم أكن أعرفه جيدا حتى ذلك الوقت. وفى إحدى سفرياتى إلى التل الكبير حضرت اجتماعًا دعا إليه كبير المستشارين العسكريين جنرال الجيش لاشينكو (مونتجومرى الخاص بنا)، كما كان يطلق عليه المترجمون ساخرين. وبدلا من تحليل الموقف بشكل واقعى، أى الاعتراف بأن الطيران الإسرائيلى قد استحوذ على السيادة فى الجو، حيث إنه قد حصل قبل ذلك على طائرات "فانتوم" وصواريخ "شرايك" للتصدى لمحطات رادار الدفاع الجوى، سمعنا

التوبيخ العنيف المعتاد. لماذا ينظف المترجم الجالس فى أول صف أظافره؟ فلنرسله إلى القناة!!! وكان المسكين قد انتقل لتوه من أسبوع واحد من خط المقدمة. يسأل رئيس مهندسى الجيش الثانى: كم من الألغام المضادة للمشاة والمضادة للدبابات يجب على جنود الهندسة وضعها؟ فيجيئه الرد يتحدث عن كثافة التلغيم فى "قوس كورسك"[٤٧] وهلم جرا. عامة استمعنا إلى أشياء من نفس النوعية. كانت الطائرات الإسرائيلية تعبر حاجز سرعة الصوت فوق القاهرة وتحطم زجاج نوافذ القصر الرئاسى، ونحن هنا نناقش كثافة الجيوش وعدد أماكن السفر. نجرى من الطائرات كالأرنب، وفى التدريبات نسمع فقط أشياء مثل "غابة من أشجار الزان على اليمين"، أية أشجار زان فى مصر؟

لا أتذكر متى وضعت القيادة الإسرائيلية معدات الإرسال التليفزيونية لتوجيه إذاعة "صوت إسرائيل" إلى جيوشها فى منطقة القناة، وفى نفس الوقت لنا. كنا قبل ذلك نعرف عن أخبار عملياتنا من مذيع الإذاعة، أما الآن فقد أضيف التليفزيون أيضا.. أذكر تمامًا إرسال العرض العسكرى فى عاصمة إسرائيل الجديدة- القدس، والذى افتتحته ثلاث طائرات ميج من التى تم الاستيلاء عليها ضمن غنائم الحرب بقيادة طيار اختبار الاتحاد السوفييتى الحاصل على لقب "طيار جدير" بطل الاتحاد السوفييتى (لا أذكر اسمه). ثم جاءت بعد ذلك كتيبة الدبابات من غنائم الحرب T-54,T-55 التى تم الاستيلاء عليها بكامل معداتها ووقودها فى سيناء. كان يتزاحم محاربو جيش الدفاع الإسرائيلى على المنصة، وعلى صدورهم الأوسمة السوفييتية والأمريكية والإنجليزية، والله يعلم أية أوسمة رسمية أخرى.

أتذكر كلمات معلمى بالجامعة، جندى الدبابات السابق فى سنوات الحرب الوطنية العظمى أ. م. جولدوبين عن كيف كانوا يلحون فى عام ١٩٤٨ على العسكريين اليهود، بل أمروهم بالذهاب إلى إسرائيل للحرب مع الاستعمار الإنجليزى والنظم الرجعية العربية. كما توجد ذكريات عن ناصر الذى كان فى

(٤٧) من أكبر المعارك فى التاريخ وهى دارت فى أثناء الحرب العالمية الثانية بين الجيشين السوفييتى والألمانى (عام ١٩٤٣) وانتصر فيها الأول وكانت مؤثرة على نتيجة الحرب، أى هزيمة الألمان فى عام ١٩٤٥.

ذلك الوقت ما زال برتبة رائد وكان محاصرا قرب الفالوجا بدبابات T-34 تحمل علامات نجمة داوود بدلا من النجمة الحمراء على أبراجها.

يجىء الكثير إلى الذاكرة، لأنه لم يتم نسيان كل شىء، حيث إن الانطباعات كانت كثيرة وواضحة، على الرغم من أنه خيل إلى فى ذلك الوقت أن الروتين سوف يخنقها. جاء وقت العودة بدون أن ألاحظه بعد الأحداث المتتابعة التى جرت. ذهبت للوداع. طرحوا على سؤالين بقسم شئون العاملين بالقاهرة: كيف حال كليتيك؟، حتى لا يكونوا مسئولين عن المرض المهنى، ثم، كم من الكوبونات[٤٨] جمعت؟ أجبت بأنى لا أتذكر. نصحونى بالذهاب إلى بنك "أمريكان إكسبريس" وتحويل العملة التى معى إلى دولارات أوجنيهات إسترلينية لشراء سيارة فى الاتحاد السوفييتى. كان وداع المصريين أكثر عاطفية. دس لى قائد اللواء الأول مسدسه الخاص "البريتا" كهدية، كما أهدتنى القيادة طبقًا من البرونز المطروق ودبوس شعار الفرقة (للأسف فقدته). حصلت على مجموعة زى عسكرى كاملة، محفوظة ببيتى الصيفى. وقد أهديت سائقى، الذى عمل معى طوال الوقت، على الكبير ساعة ماركة "سلافا"، وأعطيت على الصغير جنيها واحدا (حيث إن بقرته قد نفقت فى القرية)، وعامة لكل أخت حلق. تبادلنا عناويننا. شربنا "الخمستاشر" مع مستشارى ومترجمى فرقة الدبابات رقم ٢١ وغنينا أغنية:"استولت المشاة الروسية على حقول جاليتسى[٤٩]، وكافأونى على ذلك بعكازين من الخشب"... طبقا لآخر مستند ما زال محفوظا لدى وهو بطاقة الشبيبة الشيوعية اللينينية، فى خانة "رسوم العضوية المدفوعة" فقد تمت إحالتى إلى التقاعد من الجيش السوفييتى ومن الأسطول الحربى البحرى فى سبتمبر عام ١٩٦٩. أما فى باقى المستندات، بما فيها بطاقة الخدمة العسكرية، فيوجد بها خط مرسوم، كما أن الإدارة العاشرة بهيئة أركان الحرب قد أجابت باختصار على الاستفسار الذى جرى منذ وقت قريب عن سفرى إلى مصر ومشاركتى فى العمليات العسكرية "لا توجد أى إشارة إلى ذلك فى سجلات الأرشيف".

---

(٤٨) كوبونات تعادل قيمًا مالية، كانت تمنح للعاملين السوفييت بالخارج، تسمح لهم بشراء البضائع من محلات خاصة بالاتحاد السوفييتى.

(٤٩) منطقة فى غرب أوكرانيا، كانت مسرحا لمعارك شرسة بين الجيش الروسى القيصرى والقوات المسلحة الألمانية والنمسوية فى الحرب العالمية الأولى.

سافرت عائدا إلى موسكوعلى طائرة شركة مصر للطيران، وقد سنحت لى الفرصة للتوقف فى كل من الإسكندرية وبيروت، التى لم تكن قد دمرتها بعد الحرب الأهلية التى دارت فى عام ١٩٧٥، والتى تركت لدى انطباعًا لطيفًا عن الحياة الهادئة المعتنى بها التى كنت قد نسيتها فى خلال وجودى داخل الحدود المصرية.

أريد بذلك إنهاء مذكراتى بالمعنى المحدد لعبارة "فقد بلا أثر فى تلك الحرب المجهولة"، وأنا الآن حصلت على درجة الدكتوراه فى التاريخ وأعمل بصفتى كبير باحثين بمعهد الاستشراق بأكاديمية البحث العلمى الروسية الحاملة لاسم ف.ب.كليمانتوف.

ملحوظة: على أية حال بقيت لدى ذكريات جميلة عن مصر وعن الخدمة بالجيش. كنت شابا، وكان يحيط بى فتيان جيدون، وكان هناك إحساس بالصداقة والوحدة والثقة بأنه لو كان ذلك جيدا أو كان سيئا فقد قمنا بعمل ضرورى قدمتُ له جزءًا صغيرًا من حياتى. وأنا الآن وأنا أكتب ذلك، أراه وأعايشه كما لو كان حدث فقط بالأمس.

يجب الحفاظ على الذكرى

أ. ى. كوستين

تم استدعاؤنا فجأة أنا ـ رئيس المكتب السياسى وقائد لواء المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات المقدم رودنكون. أ. إلى هيئة أركان حرب جيش الدفاع الجوى. سألونا عن أحوالنا وعن أمور عائلاتنا وعرضوا علينا السفر إلى أحد البلاد ذات المناخ الحار لتنفيذ مهام عسكرية.

لم يكن لدينا وقت للتفكير، فوافقنا. كان نيقولاى أندرييفيتش، الذى ذهب قبل ذلك إلى فيتنام، حيث نال وسام "العلم الأحمر العسكرى"، عنده تصور تقريبى لما ينتظره. أما بالنسبة لى فقد كان كل ذلك جديدا. لا أخفى أننى كنت فخورا بالثقة بى، وكنت أرى أن القيام بالواجب الأممى يمثل شرفا كبيرا. جاءت إلى ذاكرتى إسبانيا، ومن حارب هناك.

بعد أن مر ثلاثون سنة على هذه الأحداث، لا يوجد عندى أى شك فى صحة القرار الذى اتخذته قيادة البلد بإرسال فرقة دفاع مضاد للطائرات كاملة إلى مصر. وأنا أعتقد أنه تم تخطيط عملية "قافقاز" لنشر الفرقة ووحدات طيران منفصلة على مستوى عالٍ وبنجاح. وأنا أعلم أن كلاً من قائد قوات الدفاع الجوى المارشال باتيتسكى ب. ف.، والجنرالات شيجلوف أ. ف.، وسوزينوف ف. د.، وبوندارنكوف. م.، وقادة وحدات الدفاع المضاد للطائرات كولدونوف أ. م.، ويوراسوف أ. س.، وكثيرين غيرهم قد لعبوا دورا كبيرا فى إعدادها وتنفيذها.

أذكر كيف جاء إلى يانجادجو[٥٠] مارشال الاتحاد السوفييتى باتيتسكى بصحبة عضوالمجلس العسكرى ـ رئيس الإدارة السياسية لقوات الدفاع الجوى

(٥٠) مدينة صغيرة بجمهورية أذربدجان به هيئة أركان الدفاع الجوى.

الفريق أول بوندارينكوف. م. ورئاسة الدفاع الجوى بدائرة باكينسكى[٥١] حيث كنا نجمع وحدات الفرقة ونقوم بتجهيز المعدات التى استلمناها.

استمع القائد العسكرى الحكيم الخبير بانتباه إلى التقارير التى قدمت له عن استعداد الأفراد والمعدات وخصائص استخدامها فى ظل ظروف الأماكن الصحراوية ودرجات الحرارة العالية. كان دائما صارما وعابسا، ولكن يبدى هنا ودا أبويًا. ألقى علينا كلمات نصح قبل الرحيل: "اعتنوا بالجنود، فهم سندكم. حافظوا على الأفراد ـ لا تفقدوهم".

لا يمكننى عدم الإشارة إلى شىء آخر يتعلق بعملية الاستعداد. فعلى خلفية الحرب فى الشيشان، يمكن تقدير الصعوبات التى يواجهها القواد الذين يكون عليهم تشكيل الوحدات من أفراد جاءوا من أماكن مختلفة فى خلال وقت ضيق. فأساس النجاح أو الفشل يتمثل فى ذلك. كان على رئاسات الألوية والفرقة تشكيل المجموعات العسكرية من جنود وضباط جاءوا من وحدات وتشكيلات مختلفة. وبالإضافة إلى ذلك تم ضم فصيلة دفاع ("شيلكا" و"ستريللا") من القوات البرية إلى كل كتيبة. وقد بقيت لدى بيانات تحليلية عن أفراد اللواء. كان الأفراد من مختلف الأعمار مختلفين من حيث التعليم والقومية، بينما كانت توحدهم رغبة واحدة تتمثل فى الاستعداد الجيد وتنفيذ الأهداف المحددة لهم بشرف. كما كانت توجد حالات وضعت رئاسة اللواء فى موقف صعب، فعلى سبيل المثال، قبل الرحيل، تلقى الجندى بانتلييف سيرجى برقية من مدينة ريجا: "احضر، فإن والدتك تحتضر". بدأ إعداد المستندات، وهو يترجى: "اسمحوا لى بالذهاب معكم، فأنا لن أستطيع تقديم أية مساعدة لوالدتى، وسأكون فقط قد تخلفت عنكم". وبعد تردد طويل، أخذناه معنا، وقد نفذ مهمته بامتياز، وتمت مكافأته. أو حالة أخرى: كسرت رجل الرقيب ثانى ديجتياريف إ.أ. فى أثناء تحميل المعدات على المنصة، فتم وضعها فى الجبس. أصر القومسيون الطبى على بقائه فى المستشفى، أما هو فقد أصر على الرحيل مع الكتيبة. سمح له بذلك، فتميز هناك. وتم تقليده وسام "من أجل الخدمات العسكرية".

---

(٥١) مدينة صغيرة بجمهورية أذربيدجان.

لا يمكن القول بأنه لم تكن هناك مشاكل خاصة بتصرفات الأفراد ـ فكما فى كل أسرة، أو بالأحرى فى جماعة عسكرية كبيرة، فهى كانت موجودة. ولكنى أريد أن أوضح مرة أخرى أن حالة الأفراد كانت تتميز بالنشاط. لقد تمكن القادة والعاملون بالإدارة السياسية من دراسة مرءوسيهم ومن تكوين مجموعات عسكرية متوائمة. يرجع الفضل فى ذلك، بشكل مباشر، إلى قادة الوحدات ونوابهم للشئون السياسية: طولوكونيكوف وشيرفينسكى، ماليأوكى وأوفودكوف، زافسنيتسكى وبادوشكين، سوخلياك وجروموف، سولودوفنيكوف ويريمينكو، يليسييف وكليمنكو، وكل الضباط.

كان الوضع أصعب كثيرا بالنسبة لقيادة الفرقة. كانت قيادة الفرقة، والتى تمثل نواتها الأساسية، من مدينة دنيبروبتروفسك، أما الألوية فكانت تشكل فى مدن موسكو ومينسك ولنينجراد وأرخانجلسك. وفى خلال فترة الإعداد، كانت موزعة فى جنوب البلد. كان على قيادة الفرقة حل المسائل التنظيمية والسفر إلى مصر للاستطلاع. باختصار، كانت توجد لديهم مواضيع أخرى مهمة جدا، وكان يجب حلها فى وضع القتال. ذهب كثيرا كل من قائد الفرقة الجنرال سميرنوف أ. ج. ونوابه إلى مراكز الألوية وكتائب الصواريخ، حيث قاما بالدراسة وبتعليم الأفراد فى الموقع. وفى رأيى، لقد تمكنوا من تكوين كائن حربى يعمل بكفاءة ودقة.

بقيت فى ذاكرتى عمليات الإعداد والخروج إلى البحر. كان كل شىء سريًا تماما. لم يكن يعرف أى من الأهل والأقرباء مكان الشحن. كنا نعمل وكأننا ننقل معدات زراعية. كان كل شىء موضوعًا فى عنابر السفن. وكان عدد قليل من الضباط يظهر على سطحها. وعند عبور المضايق رفضنا مساعدة المرشدين البحريين الأتراك. كان الجميع فى حالة انتظار مرهقة ـ فيا ترى، ما الذى ينتظرنا هناك، فى مصر؟

وصلنا إلى الإسكندرية فى ليلة مظلمة تماما. كان الجنرال شيجلوف فى استقبالنا. شرح لنا مهمتنا باختصار ووضوح: "يتم فى أثناء الليل إنزال كل المعدات وإعادة دهانها، وعلى كل الأفراد ارتداء الزى المصرى، وفى الليلة التالية السير فى الصحراء بدون إنارة المصابيح والانتقال إلى قرب القاهرة واحتلال المواقع القتالية المعدة لذلك".

تم إنزال المعدات فى حماية الكتيبة التى وصلت قبلنا واحتلت موقعها القتالى بمنتزه الملك فاروق.

تم تحديد موقع تمركز أركان الحرب ومركز قيادة اللواء بمنطقة مطار إنشاص على بعد ٥٠كم من القاهرة فى اتجاه قناة السويس. نزل كل الأفراد فى حديقة برتقال. عشنا فى مساكن محفورة فى الأرض، كما فى الحرب. أما القائد ونوابه فقد نزلوا فى مخزن، تم استخدامه فى الوقت نفسه كمركز قيادة.

تم إنزال الكتيبة الهندسية بجانبنا، فى حظيرة طائرات، أما الباقين فقد تم نشرهم على بعد١٥ ـ ٢٠كم من بعضهم بعضًا فى الصحراء. كانت الرمال حولنا فى كل الاتجاهات. وقد تمت حماية المعدات والأفراد بالاختفاء وراء الكثبان. أما ما يتعلق بالهوائيات، فعلى الرغم من شبكات التمويه، لم يكن من الممكن إخفاؤها. وبالطبع كان الطيران الإسرائيلى يعرف هذه النقاط جيدا.

كنا كلنا قد جئنا إلى هذا البلد القديم الأسطورى لأول مرة. كنا نشاهد السكان والعادات والطبيعة باهتمام كبير. ما الذى جذب اهتمامنا بشكل خاص؟ مجموعات من الأطفال السمر، حفاة، يلبسون قمصانًا تصل إلى كعوبهم، شديدى الحرص والفضول وطيبين. الطرق الضيقة فى الأماكن السكنية، التجارة فى كل مكان وفى كل شىء. كان ذلك بالنسبة لنا يبدو بدائيا. والآن أصبحنا نشاهد تقريبا نفس الشىء فى المدن الروسية وفى العاصمة موسكو. كما لفت نظرنا تماما الفرق الرهيب بين طبقات المجتمع: فيلات ومنازل فخمة جدا ومنازل بها سيارات من أحدث الموديلات، وعشش قذرة مليئة بالأطفال. ولكن كان الفقراء ومن ليس لهم منازل أقل مما هوالآن بموسكو.

ما زال لدى ألبوم به صور تلك السنوات، تظهر بها آثار الأماكن التاريخية. سمح لنا بعد الهدنة بالقيام برحلات نادرة. صور الأهرامات الشهيرة القديمة. تظهر راكبا جملاً على خلفيتها. لم نكن نبدو كبدو، ولكن بذلك حصلنا على تقرير عن زيارة هذا البلد. صور قبر العظيم ناصر، المنتزهات التاريخية، الميادين، الآثار، التماثيل.

كنا نشعر فى كل مكان بالوفاء والاحترام لنا، نحن ممثلو القوة العظمى. كانوا ينظرون إلينا بفضول وأمل. وقد تعامل معنا أفراد الجيش المصرى بنفس

الطريقة. وقد راقبنا نحن أيضا، بدورنا، أسلوب حياة أفراد الجيش فى البلد الذى حضرنا إليه، ومستوى استعدادهم للقتال. كنا مصدومين عندما كان "يتعامل" الضباط والجنود مع الله والنبى محمد. قد يكون ذلك لأنه كان يوجد بيننا مؤمنون بالله، ومنهم مسلمون، ولكن لم يبن قط أى منهم ذلك فى أى وقت.

لم يكن بالنسبة لنا شيئًا عاديًا وجود جندى مراسلة، تقريبا لكل ضابط. لم نكن نفهم نظام تغذية الأفراد. كانت تمنح نقود للجنود، وحيث إنه كان للكثير منهم أسر، وكبيرة العدد، فكانوا يعطونها جزءًا كبيرًا من النقود ويكتفون هم بأكل أرغفة الخبز البلدى فقط. ثم أصبحوا بعد ذلك يتحولون إلى نظام غذائنا. وقد صدمنا أسلوب عقاب الجندى عندما كانوا يضعونه على الرمال ويجبرونه على إدارة رأسه حتى تدمى خدوده. ولكننا لم نكن نتدخل فى أى من هذه الأمور حيث إن ذلك الأمر لا يخصنا.

لن ننسى أبدا إحساسنا بالشوق لوطننا وأهلنا وأقربائنا. كنا نسعد بكل لقاء مع مواطنيننا وبأى خبر يأتى من أرض وطننا. كنا نستمع بانتباه تام لكل من يتم إرساله من الاتحاد السوفييتى. وكانوا كثيرين كثيرًا. كنا ننتظر الأخبار الحية والخبز الأسود والسمك المملح من الشخصيات الحزبية والرسمية: أ. إ كوسيجين.، ن. ف. بودجورنى، ف. ف. بونوماريوف، سكرتير اللجنة المركزية لاتحاد الشبيبة اللينينية الشيوعية بكل الاتحاد السوفييتى تياجيلنيكوف، رواد الفضاء نيقولاييف وتريشكوفا، قادة القوات المسلحة زاخاروف وسوكولوف وشيجلوف، وضباط الجنرالات هيئة أركان الحرب العامة ومختلف أنواع الأسلحة وخبراء المعاهد البحثية. كنا نستمع مئات المرات لإسطوانات بيرنيس وليميشيف وتروشين. وقد احتفظت حتى الآن بمجموعة الأشعار والأغانى التى كتبها من خدموا بالوحدات العسكرية، ومن ضمنها أشعار الجندى ج. أ. بوبوف والنقيبان ف. ف. جرين وج. أ. أوداليتسوف وكلها تتحدث عن الوطن وعن حبهم له، وعن الرفاق والواجب العسكرى.

والآن بعد أن أصبحت هناك موضة السفر إلى البلاد الأخرى، من الصعب فهم من يذهبون إلى الخارج إلى الأبد. فهم لا يحبون بلدنا ـ وطنهم.

ما زالت تحفظ ذاكرتى التوتر الفظيع الذى كان ينتابنى، وهو فى الأساس معنوى ونفسى، عندما تكون كل يوم وكل ساعة فى انتظار غارة أواستفزاز، بل كانت تحدث أيضا نزوات من قبل المرءوسين. كما كان يقع علينا أيضا ضغط جسمانى، عندما كانت هناك منذ طلوع الشمس إلى غروبها نوبات عسكرية مرهقة تكون فيها مستعدا لإطلاق الصواريخ فورا فى ظل درجة حرارة تصل إلى ٦٠ درجة داخل الكابينة. أما فى خلال الليل، التدريبات لا تنتهى على نشر وجمع المعدات وعلى الانتقال، والتى تصل بك إلى درجة الإعياء. كنا نقضى ساعات الراحة القصيرة فى حظائر الطائرات الخرسانية تحت الأرض نحتمى من البعوض تحت الناموسيات. كنا أيضا دائمى الحرص لكى لا نجلس على ثعبان، أو لكى لا نزعج العقارب المنتشرة بكثرة فى الصحراء.

لقد تعلم الأفراد فى ظل هذه الظروف: دراسة أسلوب عمل الطيران الإسرائيلى، ونقاط ضعف وقوة الطائرات وشكلها، وتعلموا إطلاق النيران من الأسلحة الشخصية، كما قاموا بالحراسة، وقاموا بصيانة المعدات فى الليل. وتكرر ذلك فى كل يوم. كان الأفراد يسقطون من التعب، بمعنى الكلمة، ومن الضغط العصبى. ولكن لم يشك أى منهم ولم يتذمر، حيث كانوا مدركين أن ذلك "ضرورى". وعندما جاءت ساعة الاختبارات الكبيرة، لم يهتز الأفراد، فخرجوا منتصرين من المعركة مع الطائرات الأمريكية، التى كثر مدحها هى والأبطال الإسرائيليون، بفضل رباطة جأشهم وقدراتهم وشجاعتهم.

باختصار، أريد أن أحكى عن هؤلاء الناس. فى المعركة، يكون القائد هواللاعب الرئيسى. ويتوقف النجاح فى المعركة على قدرته على اتخاذ القرار السليم وعلى تحقيق تنفيذه وكذلك على رباطة جأشه. كان معظم الأفراد فى اللواء يتمتعون بهذه الصفات. فقد كان قائدها المقدم ن. أ. رودنكو مثالا للتماسك والتحكم فى النفس، فقد كان يقود بصلابة وهدوء من مركز القيادة. كما أن نائبه إ.ك. كوفالينكو كان القائد الأول لقوات العمليات، لم يضطرب عند أول هجوم، عندما كانت تطير طائرتا "فانتوم" فوق مركز القيادة على ارتفاع ٥٠ - ١٠٠ متر، بل باشر القيادة بدقة ووعى كبير. وكلا هذين الجنرالين النشيطين يستريحان الآن، عن استحقاق، حيث يعيشان بمدينة تفيرا. وقد عمل باقى نواب قائد اللواء بنفس

الأسلوب. كان كونستنتين فورونتسوف يعرف المعدات تماما ويحافظ عليها دائما فى حالة استعداد للقتال، وهو الآن يعيش بمدينة مينسك. كما كان هناك أيضا رئيس هيئة الأركان أ. ب. سلوجينيتسين الذى كان دقيقا تماما فى كل شىء. وأيضا نائب رئيس الشئون الإدارية ى. ل. كوسينكو الهادئ دائما والملم تماما بعمله.

أريد تمييز قادة كتائب الصواريخ بصفة خاصة، فقد كان يقع على أكتافهم كل الحمل فيما يخص تدريب وتربية الأفراد، والعناية بمعيشتهم وتنظيمهم وقيامهم بنوباتهم الحربية. لقد كانوا يواجهون طيارى إسرائيل وجها لوجه، وكانوا يخرجون من المعارك منتصرين.

كان النقيب ف.ب.ماليأوكا أصغرهم سنا. وكانت كتيبته هى الأولى التى دخلت المعركة وجها لوجه مع طائرات "الفانتوم". كانت الكتيبة تنصب كمينا مع مجموعات مناورة فاكتشفت اقتراب هدفين. تحقق منهما القائد بسرعة، وأعطى أمرًا واضحًا للطاقم، وعندما رأى كيف ارتعشت أيدى من يكتب الأوامر، قال بثقة: اهدءوا يا فتيان، سوف نسقطها". وسقطت أول طائرة "فانتوم" على رمال مصر. أما الطيار الثانى فلم يجازف، وغادر الطائرة قافزا بالمظلة.

أما المعركة الثانية فقد خاضها أفراد كتيبة النقيب س. زافيسنيتسكى. وهم أيضا خرجوا من المعركة منتصرين. وقد كانت معركة كتيبة المقدم ف. م. تولوكونيكوف اختبارا حقيقيا لصلابة الروح المعنوية والشدة والجرأة العسكرية. كان قد شارك فى الحرب، كما كان أكثر القادة خبرة، وكان مرءوسوه ينادونه بلقب "باتيا". كانت الكتيبة تنصب كمينا مع الكتائب الأخرى. ويبدو أن الطيارين الإسرائيليين رغبوا فى ذلك اليوم فى تلقين رجالنا درسا. تمت الإغارة على المجموعة طبقا لكل قواعد علم الحرب. طارت القنابل على المواقع الزائفة. كان أول من أطلق النيران هو ف. تولوكونيكوف. هاجمت الكتيبة ٢٤ طائرة كالصقور، هاجمت كلها بأسلوب الطيران المسف. إذا نظرت عن بعد، كان سينتابك الذعر، أما الكتيبة فقد وقفت صامدة كقلعة بريست(٥٢) فى سنوات الحرب الوطنية العظمى.

---

(٥٢) قلعة صغيرة على الحدود الأوكرانية البولندية، كان المقاتلون بها أول من تلقى ضربات الجيش الهتلرى فى عام ١٩٤١.

تم إسقاط طائرتى "فانتوم" وإصابة واحدة بصواريخ الكتيبة وطلقات "الشيلكات". طارت المقذوفات النفاثة غير الموجهة على الموقع، وسقطت عليه القنابل الموقوتة. تلف مركز الهوائيات الذى يمثل عين الكتيبة. اندفع الملازم س. سومين إلى الساحة وبدأ يبلغ إحداثيات الأهداف التى تقترب بصوته. وهنا أصابه أحد المقذوفات، فقتل سريوجا بطلاً. وقد بقى فى المنطقة المتاخمة لبحر البلطيق كل من زوجته وابنه سيرجى، الذى لم ير قط والده. وأنا أعلم أن الأخير تخرج بمدرسة كاليننجراد البحرية العسكرية. يا ترى إلى أين قاده القدر اليوم؟ يتم تكريم ذكرى سيرجى فى المدرسة العليا للمدفعية والصواريخ المضادة للطائرات بمدينة يروسلاف والتى تخرج بها، حيث يوجد معرض خاص به بمتحف المدرسة. وتجرى كل عام مسابقة التزلج على الزحافات على جائزة الملازم س. م. سومين. كما يوجد مقال عن سيرجى سومين بكتاب "حماية حدود السماء بحماس" والتى أصدرتها دار نشر "فيرخنوفولجسكوى".

فى أثناء المعركة، وفى أثناء إعادة شحن منصة الإطلاق، انفجر صاروخ نتيجة إصابته مباشرة بقنبلة. قتل كل طاقم إطلاق الصواريخ: الأخوان دوفجانيوك، ديبيج، ناكو، ماميدوف، زابوج وديدنكو. كان الأخوان فى طاقمين مختلفين، ولكن لم يتمكن إيفان من منع نفسه من الانطلاق خارجا من الملجأ لمساعدة أخيه نيقولاى فى أثناء عملية الشحن. وهكذا مات فى وقت واحد الأخان الشجاعان القادمان من قرية سولوف بإقليم إيفانو ـ فرانكوفسكى. وقد طارت معهم توابيت من الزنك تحمل داخلها أبطالاً محروقين إلى كل من جمهوريات مولدافيا، وأذربيجان، وأوكرانيا، وروسيا البيضاء. فلنخفض رءوسنا أمام رفات هؤلاء الفتيان الشبان.

انتصرت الكتيبة فى المعركة. وقد أخرج مؤلف هذه السطور كتيبة الصواريخ من ذلك الموقع، وأمضى مع أفرادها عدة أيام. لقد كان هؤلاء الناس يواجهون الموت وجها لوجه، وكانوا يفقدون رفاقهم، ولكن لم يحدث لهم أى انكسار أو انخفاض فى الروح المعنوية. لقد آمنت هناك، بعيدا عن الوطن وفى ظل ظروف المعارك، ويمكن أن أؤكد اليوم أيضا بعد مرور عدة سنوات "أن جندينا عظيم فى

أداء واجبه، وفى تصرفاته، والأهم يجب أن يفهم لماذا يحارب، والأهداف والمهمات، وأن ينغمس فيها بكل جوارحه، عندئذ لا يمكن الانتصار عليه". لا يجب الافتراء على الجيش، بل يجب النظر إلى الجذور والبحث عن الأسباب الحقيقية للصعوبات التى نواجهها اليوم.

بقيت أيضا فى الذاكرة عودتى إلى مدينة نيقولاييف. قابلت النائب الأول لقائد الجيش الجنرال بوتشكوف ب. ف.. لم يكن يلتفت إلى أوامر الأطباء التى تطلب البقاء فى فترة الحجر الصحى، فأخذنا إلى الفندق الذى كانت قد نصبت فيه مائدة غنية، على الطريقة الروسية، عليها فودكا وسمك مملح وخبز أسود.

ثم جرت استقبالات فى اللجنة المركزية لاتحاد الشبيبة اللينينية الشيوعية لعموم الاتحاد السوفييتى، وبمكتب الإدارة السياسية العامة للجيش السوفييتى والأسطول البحرى الحربى وبالمجلس العسكرى للجيش. حصلت على تكليفات جديدة. ثم التحقت بالخدمة فى نوريلسك الشمالية البعيدة. فهذا هوقدرنا العسكرى.

يبدو أن علىّ وضع نقطة النهاية هنا، ولكن لا يسعنى ألا التحدث أيضا عن شىء آخر. ففى فبراير عام ١٩٩٥ استقبلنا المجلس العسكرى لجيوش الدفاع الجوى نحن "المصريين"(٥٣). دار الحديث عن الاستفادة بخبرة الحرب المكتسبة، وعن البطولة، والتقاليد، وعن العناية بقدامى المحاربين، وعن أن التاريخ لا يكتفى بالتعليم، بل إنه أيضا يثأر ممن لا يستخلص النتائج من دروسه.

عندما وضعت توقيعى تحت هذه الرواية وأعطيتها للطباعة، لم يغادرنى الإحساس بالذنب، وبعدم الانتهاء من الحكاية، فقد كان يوجد لدى صوت داخلى يؤكد باستمرار: "أنت لم تكتب أى شىء عمن ودعكم وانتظركم. عن الزوجات والصديقات". فالمكتوب عنهم فى الكتب كثير. ولكن إذا ما أخذنا فى الاعتبار شجاعتهن الزاهدة، وإخلاصهن لأزواجهن وأعمالهم، وعما كان عليهن المعاناة منه، يصبح من الواضح أن أقاربنا وصديقاتنا يستحقون الأكثر بكثير".

---

(٥٣) العسكريين الذين حاربوا فى مصر.

يبدوأنه يجب أن تجرب بنفسك كل ما تشعر به تلك الزوجة التى تودع زوجها إلى الخدمة العسكرية، والتى تجهزه دائما للسفر بالطائرة، وإلى القيام بالنوبتجيات العسكرية، وإلى التدريبات وإلى ميادين تجارب الأسلحة، وهى لا تعرف متى سيعود إلى بيته وماذا سيحضر معه. يجب تجربة هذا الشعور الدائم بالخوف على مصير الشخص العزيز عليك، وأن تتقاسم معه كل مصائب الخدمة العسكرية حتى تكتب الحقيقة عن ذلك، وأن يكون لك الحق فى القيام بذلك.

يمكن فقط تصور ما تشعر به الزوجات وهن يودعن أزواجهن للقيام بواجبهم الأممى فى أفغانستان، فى فيتنام، كوريا، سوريا، مصر، كوبا وفى البلاد الأخرى، حيث كانوا شركاء فى حروب غير معلنة. هذا الانتظار المتعب للأخبار، والشعور بالقلق عند سحب الرسائل من صندوق البريد، والارتعاش بسبب كل دقة هاتف أو طرقة على الباب. وهذه الرسائل كردود على خطابات، والتى عليهن كتابتها بعد تعب يوم عمل ومساء لا يقل عنه إزعاجا، فقط بعد ذهاب الأبناء للنوم.

أقول عن نفسى ـ أنى كنت أنتظر الخطابات. وأنها كانت كلها تأتى وهى مشبعة بالحب والدفء والحيوية، بغض النظر عن الحزن والأذى الذى يحدث فى بعض الأوقات ببيتى. لقد "مزح" أحدهم بسخافة متفاخرا بسعة اطلاعه. للأسف، يوجد أيضا الكثير من هؤلاء. فقد تم إبلاغ زوجتى سرا بأن زوجها قد أصيب فى خلال القصف... وسرت الإشاعات. صدمت زوجتى، وأصيبت بالشلل. ولست أدرى ما الذى كان يمكن أن يحدث فى النهاية إذا لم يكن قد تدخل قائد الجيش، وإذا لم تكن حماتى "ليديا ألكسندروفنا" موجودة بجانب زوجتى وابنتى. وقد علمت ذلك فقط بعد عودتى إلى منزلى. ولم تتم كتابة أية كلمة عن ذلك فى الخطابات.

وبالمناسبة، لقد تم "دفنى" مرتين ـ فذات مرة فى نوريلسك، اتصل قائد الفرقة بزوجتى ليسألها: "ماذا يمكن أن نفعل؟ اجلسى واهدئى، فنحن لا نستطيع منذ يومين العثور على زوجك. فقد طار على متن مروحية من جزيرة جوليميانى، وفقد". وهذا يسمى "اهدئى". انتظرت زوجتى الأنباء لمدة يومين بأحاسيس ثقيلة وأفكار مكدرة، إلى أن تم إبلاغها بأننى على قيد الحياة وأنى سليم معافى. وكان الأمر بسيطًا، كنا نمر على سريات الرادار، وبسبب سوء الأحوال الجوية اضطررنا إلى الهبوط بالقرب من منزل صيد صغير، لم يكن يوجد اتصال به بالطبع.

ولكن فلنعد إلى أمور المصريين. أعرف قياسا على نفسى كيف كانت الخطابات الواردة من زوجتى ومن الأهل والأقارب ترفع من روحنا المعنوية وتخرجنا من حالة الذهول التى كنا بها. وقد عرفت حديثا كيف أن خطابات الزوجة قد جعلت جنرالاً (لن أذكر اسمه مراعاة للذوق) يقف على قدميه، بمعنى الكلمة، عندما أصيب بمرض خطير أدخله إلى المستشفى. وأيضا عندما تلقى أحد قادة الوحدات خطابًا يفيد بأن زوجته قد وضعت مولودا ذكرا، ظهرت لديه رغبة طبيعية لرؤيته، وعطش للحياة، لدرجة أننا قد أقنعناه بصعوبة بعدم القيام بحماقة وبالذهاب، كما يقولون، إلى الخدمة ـ إلى القناة.

كانت هناك أيضا زوجات قمن بخيانة أزواجهن، بل ربطن حياتهن برجال آخرين. ولكن كانت هذه حالات فردية. ولم تتجرأ أى منهن على الكتابة عن ذلك صراحة. كما أن الرجال، وأنا لا أحكم هنا على الجميع، لم يقوموا بأى عمل يمكن أن يثير شك زوجاتهن فى إخلاصهم. كانت توجد أسباب كثيرة لذلك. فقد كانت أخلاقهم العالية وخوفهم من الرئاسة وخجلهم من الرفاق وعدم وجود وسائل اتصالات والأحمال المرهقة بدنيا ونفسيا هى السبب فى ذلك. وبالإضافة إلى ذلك، بصفة عامة، فإن الرجال كانوا يشحون فى الحديث عن مشاعرهم، ولكنهم لم يكونوا يخجلون عند التعبير عنها فى خطاباتهم. عامة، يمكن أن أؤكد أن طول غياب الزوج فى مهمة لا يقوم فقط بتخريب الأسرة، بل إنه أيضا يقويها، على الرغم من أنه يمكن ألا يوافقنى البعض على ذلك.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

فى وقت مضى فى رأس غارب

إ. د. كوليكوف

بالنسبة لى، أنا الدارس بالمعهد العسكرى للغات الأجنبية، الذى تم إرساله فى مهمة إلى الجمهورية العربية المتحدة باعتبارى مترجمًا عسكريًا، فإن تلك الحرب العربية ـ الإسرائيلية التى يطلق عليها "حرب الاستنزاف" بدأت فى يوم ٣٠ نوفمبر عام ١٩٦٩. ففى ذلك اليوم سافرت مبكرا فى الصباح من القاهرة إلى الجبهة مع الرائد تاراس بانتشنكو المستشار العسكرى من الفرقة الآلية الثالثة. كان طريقنا يقود إلى البحر الأحمر.. إلى الدائرة العسكرية بالبحر الأحمر البعيدة، والتى بدت رومانسية. كانت مثلها مثل قناة السويس، فكانت تعتبر منطقة عمليات حربية، ولكنها أقل نشاطا.

فى الطريق إلى الزعفرانة ـ النقطة النهائية التى تم تعييننا بها ـ قررنا السير فى الطريق الجنوبى الأطول ولكنه كان الأكثر أمنا، أى فى الطريق إلى بنى سويف بمحاذاة نهر النيل. انحرفنا إلى اليسار عند الكريمات فى طريق صحراوى. كان يجب على هذا الطريق الضيق الذى يعبر كل الجزء الشمالى من الصحراء الغربية أن يؤدى بنا مباشرة إلى الزعفرانة، على ساحل خليج السويس.

كان يوجد طريق أقصر إلى البحر الأحمر عبر السويس، ولكنه كان خطرا جدا بسبب عمليات طيران العدو. كما كنا قد سمعنا أن الطيارين الإسرائيليين كثيرا ما كانوا يطاردون حتى السيارات الوحيدة بمنطقة خليج السويس وجنوبه وفى مدينة السويس نفسها. كذلك فقد كان من الممكن ببساطة الوقوع فى منطقة السويس تحت الضربات العفوية للمدفعية أو هجمات الطائرات. كانت عملية الضرب اليومى لمواقع الجيوش المصرية هنا قد أصبحت منذ زمن طويل ظاهرة

عادية. فكان الطيران الإسرائيلى قد كثف بشدة منح نشاطه فى ذلك الخريف: فقد كانت"حرب الاستنزاف" فى أوجها، لذلك، بناء على نصيحة مستشارين "البحر الأحمر" قررنا عدم المجازفة.

وصلنا إلى ساحل خليج السويس بسلام فى المساء، بعد اجتيازنا حوالى ٣٠٠ كم. تظهر الزعفرانة على الخرائط الطبوغرافية كأنها "تجمع سكانى ريفى"، ولكنها فى الحقيقة عبارة عن منارة بحرية نصف مدمرة، بالإضافة إلى بضعة منازل طينية، لا يعيش فيها أحد منذ زمن بعيد. ولا توجد أية دلائل أخرى لوجود أية حضارة، لو لم يؤخذ فى الاعتبار دير قبطى صغير على بعد حوالى ٣٠كم من المنارة.

كان لواء المشاة المنفصل رقم ١٩ المنتشر هنا يحمى بمواقعه الدفاعية وادى الزعفرانة المهم للعمليات التكتيكية والتنفيذية. كان يمتد الوادى الرملى الحجرى الواسع، الذى لا يوجد به أى نوع من النباتات والواقع بين الجبال العالية بدرجة كافية على كلا جانبيه، على شكل لسان عريض من ساحل الخليج إلى عمق الصحراء العربية، تقريبا إلى نهر النيل نفسه. كان الإسرائيليون وهم يسعون لتوسيع منطقة العمليات العسكرية قد نفذوا هنا محاولة ناجحة لإنزال جنود مظلات البحرية، فى الصيف. وقد انتاب الرئاسة المصرية القلق بسبب عمليات العدو، فقررت حماية الاتجاه الخطر وضع أحد لوائى المشاة المنفصلين اللذين لديها فى الزعفرانة.

وقد تم قصف اللواء رقم ١٩ بالقنابل بقسوة فى شهرى أغسطس وسبتمبر. وقد قتل أحد مستشارينا خلال إحدى الغارات. أما الآن فالوضع هنا هادئ نسبيا. كانت تذكرنا بتلك الأحداث المأساوية هياكل المعدات المحروقة وحدها والحفر الضخمة الناتجة من انفجار القنابل الإسرائيلية ذات الألف رطل. لم تكن هذه المنطقة البعيدة محمية بقوات الدفاع الجوى المصرية، مثلها مثل باقى ساحل البحر الأحمر، لذلك كان الطيارون الإسرائيليون يشعرون بالراحة هنا، كما لو كانوا فى ميدان التدريب. وفيما بعد سمعت من المصريين أن طلبة مدرسة الطيران الإسرائيلية كانوا يجتازون هنا بالذات امتحانات تخرجهم فى ذلك الصيف.

عندما فحصت شظية قنبلة حادة مثل السيف يبلغ طولها مترًا ونصف وعرضها مثل الإصبع، فهمت أنه يبدو أننى لن أتمكن من السباحة والتشمس وكسر قطع من الشعب المرجانية كتذكار، كما قال لى بعض زملائنا بالفرقة الثالثة. بعد كل ما رأيناه، أصبحت فورا الحياة القاهرية الهادئة بكل ما يوجد بها من إثارة مدينة شرقية كبيرة في الماضى، ولم يظهر أن المستقبل القريب لحياتنا الجديدة سوف يكون سارا.

اتضح لنا فى قيادة اللواء أن كتيبة المشاة رقم ٥٠٤، والتى علينا العمل معها موجودة على بعد ١٤٥ كم جنوب الزعفرانة، بمنطقة رأس غارب ـ مدينة صغيرة يقطنها رجال البترول المصريون. استمعنا إلى تعليمات كبير مستشارى اللواء وأمضينا الليل فى بيت الخبراء المحفور فى الأرض (كان المصريون يطلقون اسم خبير على كل المستشارين والخبراء العسكريين السوفييت).

أعطيت لنا سيارة نقل كوسيلة نقل خاصة بنا لإنجاز عملنا. كانت سيارة طراز "جاز ـ ٦٣"، اخترقتها الشظايا فى كل مكان بها، وكانت مدهونة باللون الأصفر ككل المعدات الحربية المصرية. وقد وضع سريران بسيطان عسكريان من الطراز المصرى بمراتب وأغطية فى صندوق السيارة المسقف. وبذلك كان لدينا فى الفترة الزمنية الأولى وسيلة نقل، كانت تمثل أيضا سقفا فوق رأسنا. تذوقنا الكفاس(٥٤) المصنوع من الخبز البلدى المصرى الجاف، وودعنا بحرارة مستشارى اللواء، ثم انطلقنا فى طريقنا.

بصراحة، كانت المناظر فى الطريق موحشة تماما، ولكن كان ساحل البحر الأحمر يتميز بجماله الطبيعى الخاص، ولم نشعر بأية أحاسيس كئيبة، ولكننا لم نشعر أيضا بأية سعادة خاصة من وجودنا فى هذا "المنتجع"، الذى أصبح السائحون الروس ينجذبون له الآن. كان على الكتيبة أن تعمل وحدها بعيدا عن القوات الرئيسية، لذلك فلم يكن يمكننا الاعتماد على أية مساعدة، فى حالة التدهور الحاد للموقف التكتيكى العملى.

كما لم تمنحنا هياكل المعدات المحترقة السوداء التى كنا نقابلها على جانبى الطريق أى نوع من التفاؤل. لسبب ما بقيت فى ذاكرتى العربة المدرعة المصرية

(٥٤) مشروب شعبى روسى يصنع من الخبز الأسود.

طراز ١٥٢ المدفونة فى الصخور على جانب الطريق. كان يظهر ثقب كبير فى سطحها الخلفى نتج من قذيفة نفاثة غير موجهة أطلقتها طائرة "سكاى هوك" أو"ميراج" إسرائيلية. كان من الواضح أن طيارًا محترفًا قد "قام بعمله" هنا. تذكرت نصيحة مرحة لأحد زملائنا بالزعفرانة:"فى حالة حدوث شىء، اتركوا السيارة واجروا فى اتجاهات مختلفة فى الصحراء، فإنهم لن يطلقوا صاروخًا على شخص بمفرده". وبذلك كنا نعرف تماما مدى صعوبة الموقف الذى يمكن أن نجد نفسنا به، ولكن لم نستطع لا أنا، ولا رئيسى تخيل ما كان علينا أن نعيشه فى القريب العاجل، ولا حتى فى حلم سيئ.

وصلنا إلى مكان هدفنا فى الساعة الثانية أو الثالثة بعد الظهر. كانت الكتيبة متمركزة على بعد عدة كيلومترات جنوب غرب راس غارب على تلال صحراوية منخفضة الارتفاع، تقسمها العديد من المنخفضات والوديان. ترك هذا المكان المغطى فى بعض أجزائه بالحصب والحصى، وفى أجزائه الأخرى بالرمال، والذى لا توجد به أية علامات لحياة نباتية، عندنا انطباعا كئيبا للغاية. كان جمال مياه خليج السويس الفيروزية اللون وحده وأعلى جبال سيناء - جبل كاترين الممتد على شمال شرق رأس غارب - يحييان وحدهما صورة هذا المنظر العام الكئيب..

استقبلنا قائد الكتيبة المقدم مصطفى زبيب وباقى الضباط المصريين بسرور تام وحاولوا بشتى الطرق مساعدتنا على تنظيم إقامتنا. كان كل شىء يدل على أنهم سعداء بحضور المستشار العسكرى السوفييتى. كانت الكتيبة قد حضرت فقط منذ وقت قصير إلى رأس غارب، وهى الآن مشغولة بتجهيز الموقع بالمعدات الهندسية. لم يكونوا هنا أيضا، كما فى الزعفرانة، قد تمكنوا بعد من حفر المساكن تحت الأرض، لذلك فقد اضطررنا، لبعض الوقت، إلى النوم فى المساء تحت ظلة خلعناها من سيارتنا. وقد ثبتنا شبكة تمويه صفراء - بنية فوقها. اتضح لنا فورا عدم توفر الكثير من الأشياء المهمة للغاية للحياة فى ظروف الميدان القاسية. وقد ساعدنا المصريون جدا بخصوص ذلك فى الفترة الأولى. الشىء الثانى الذى لم نكن ننتظره كان بداية صيام المسلمين فى شهر رمضان والذى يفرض الامتناع التام عن تناول الطعام والماء من شروق إلى غروب الشمس.

كانوا يحضرون لنا "الإفطار"، مثلما يقدمونه للضباط المصريين، فقط فى المساء المتأخر. فكنا نتناول الطعام العربى الذى كان غريبا علينا تماما ونحن جالسون فى

الظلام على أسرتنا تحت خيمتنا، وكان كثيرا ما تكون به حبات رمال البحر الأحمر الدقيقة. أما ما يخص "الغداء" و"العشاء" فقد اضطررنا للاستغناء عنهما حتى ننام. وبذلك فقد اضطررنا للصيام، رغما عنا، مثل كل المسلمين الصالحين.

بدأنا فى اليوم التالى التعرف بالتفصيل على الموقف والقوات والمعدات المتوفرة لنا. كان علينا أيضا دراسة المنطقة التى كان يجب أن تعمل بها الكتيبة ٥٠٤، كان جزء من الساحل طوله ١٢٠كم وعرضه ٨٠ كم مخصصا لكى تحميه الكتيبة، ولم يكن ذلك يتفق مع أية مقاييس تكتيكية. كان من ضمن واجباتنا: عدم السماح بإنزال أية قوات بحرية للعدو على الساحل فى منطقة رأس غارب، وكذلك توفير حماية ما يسمى "الأهداف الحيوية" فى المنطقة وأيضا محطات الرادار من العمليات الممكنة للإنزال بالمروحيات الإسرائيلية. ولتقوية الكتيبة تم منحها فصيلة دبابات T- ٣٤ وبطارية هاونات عيار ١٢٠مم ومجموعة مختلطة مضادة للدبابات مكونة من مدافع عيار ٥٧مم ومدافع لا ترتد إلى الوراء طراز ١١ ـ b من ضمن تشكيلات اللواء. وكان علينا الدفاع عن أنفسنا من العمليات الممكنة لطيران العدو باستخدام الإمكانيات المتوفرة لدينا ـ ثلاثة رشاشات ثقيلة مضادة للطائرات طراز.

كان يوجد بالإضافة إلى كتيبتنا للمشاة بمنطقة رأس غارب كتيبة "دفاع شعبى" مكونة أساسا من جنود قاربوا بلوغ سن التقاعد. كانت تقوم بحماية حقول البترول المتعددة وبعض الأهداف البترولية الأخرى الخاصة بشركة نفط محلية. وبصراحة لم تكن هناك فائدة كبيرة من هؤلاء "الحراس المسلحين" المزودين ببنادق خفيفة.

لم يكن البترول وكل ما هو مرتبط به يثير لدينا قلقًا خاصًا، فطبقا لمعلوماتنا كان يوجد بين مصر وإسرائيل اتفاق سرى بعدم مس تلك الأهداف لدى الطرفين. علاوة على ذلك، كانت نفس الشركة المصرية تستخرج البترول فى الجوار بمشاركة الأمريكان فى منطقة الشقير. ولكن على الرغم من ذلك قمنا بدراسة دقيقة تماما لكل حقول البترول الخاصة بشركة رأس غارب للبترول. بل إننا حتى راجعنا مدى استعداد الوحدات الحامية لها للقتال. وفيما بعد كنا نقوم بمثل هذه الزيارات لكتيبة "الدفاع الشعبى" دوريا.

كانت فصيلة الرادار الفنية تمثل لنا "صداعا" حقيقيا. ولكن على وجه الدقة ليست الفصيلة نفسها ولكن محطة رادارها التى كان يطلق عليها العرب "رادار" ببساطة. كانت المحطة على تلال منخفضة الارتفاع على بعد حوالى ٨ كم من الساحل و٥ ـ ٦ كم من كتيبتنا، وكانت تقوم بأعمال استكشاف الأهداف الجوية فى المنطقة الوسطى من خليج السويس. كان يحمى محطة الرادار عشرة أفراد فقط، ولم تكن حتى حفرت لهم خنادق. كان قائد الفصيلة موجودا فى موقع ما يطلق عليه "رادار زائف"، أقرب إلى الساحل ـ على بعد حوالى ١,٥ ـ ٢كم من المحطة الحقيقية.

كانت محطة الرادار الزائفة عبارة عن كومة من الزلط تم غرس قطعة معدنية تمثل، على ما يبدو، شكلاً هوائيًا. وكان يحمى الهدف صفوف من الأسلاك الشائكة مع ألغام إشارة وخمس بطاريات من أزواج الرشاشات المضادة للطائرات صناعة سوفييتية وأمريكية. كان مجموع الأفراد الموجودين بالموقع يزيد على ٤٠٠. وكان يعتقد أنه سيتم بذلك خداع العدو فيما يخص الموقع الحقيقى لمحطة الرادار.

كانت هذه الفكرة "الحكيمة" تماما لقائد السرية قد تم وضعها على فرخ ورق رسم كبير بطريقة مناسبة، وتم توقيعها بالإمضاءات المنمقة لقائد كتيبة قوات الرادار الفنية وقائد قوات معدات الرادار المصرى. بالطبع أعلنا فورا عدم موافقتنا أبدا على هذا "الحل" لكبير مستشارى الكتيبة، الذى وعد بالنظر فى هذا الموضوع.

ولكن على أية حال كان يجب إيجاد حل بخصوص المحطة، حيث إننا لم نكن نستطيع السماح بتدميرها. كان الأمر يتعلق بأن تقريبا كل منطقة دائرة البحر الأحمر العسكرية كانت منطقة عمليات نشطة، وليس فقط للطيران المقاتل وقاذفات القنابل الإسرائيلية ولكن أيضا للمروحيات، وكنا حذرين بخصوصها هى بالذات. كانت توجد محطة رادار ثانية فى الزعفرانة بمنطقة انتشار الكتيبة، وقد قصفها الإسرائيليون بالقنابل عدة مرات، ولكنهم لم يتمكنوا من تدميرها، حيث إن المدفعية المضادة للطائرات المصرية قد منعتهم من ذلك. وقد أجبرت الطيارين الإسرائيليين على الصعود إلى ارتفاع يصل إلى ٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠م. مما أدى إلى

انخفاض دقة قذف القنابل. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان المصريون كثيرا ما يغيرون أماكن محطة الرادار.ولكن حتى ذلك الوقت لم يكن يثير طيران العدو قلقنا، ولكن مع بدء الظلام، وخاصة فى الليالى القمرية، كانت تظهر المروحيات فى المنطقة المسئولة عنها الكتيبة. طبقا لمعلومات الاستخبارات، كانت تتمركز فى مطارات سيناء بأبورديس والطور، والتى كانت لا تبعد أى منها عن الكتيبة بأكثر من ٦٠كم. كانت المروحيات تحضر من جانب البحر بين الزعفرانة ورأس غارب، وتدخل إلى عمق الصحراء، ولم تكن تعود مرة أخرى إلى سيناء إلا فى حوالى الساعة ٢ ـ ٣ ليلا، وفى بعض الأحيان بعد ذلك. كان يمكن فقط تخمين الهدف من ظهورها عندنا ونوع العمليات التى يمكن أن تقوم بها. لذلك كانت عملية إنزال جنود العدو من المروحيات بمنطقة محطة الرادار بهدف تدميرها محتملة تماما. ولكى نمنع تنفيذ هذه العملية، فكرنا مسبقا فى إمكانية تحريك إحدى فصائل الكتيبة إلى موقع "الرادار" للقضاء على جنود الإنزال. وبعد ذلك بفترة وجيزة، قمنا فى أحد الأيام، فى وجود كل من رئيس هيئة أركان الكتيبة وكبير المستشارين بأداء تدريب ناجح تماما مع جنود الفصيلة.

كنا مشغولين طوال الأيام، من الصباح وحتى المساء المتأخر، بما يسمى تنظيم المعركة: قمنا بعمليات الاستطلاع، نظمنا التعاون مع كتيبة "الدفاع الشعبى"، حددنا بدقة واجبات الوحدات فى مواقعها، وأماكن مواقع إطلاق النار للمدافع ومدافع الهاون... إلخ. وفى الليالى التى كانت تظهر فيها مروحيات العدو، كنا نجلس ببيت قائد الكتيبة، تحت الأرض، منتظرين البلاغات الممكنة عن العمليات التى تقوم بها. وقرب الصباح، بعد تأكدنا من أن المروحيات قد غادرت منطقتنا، كنا نذهب متعبين للنوم تحت خيمتنا.

كان لدى شخصيا، بصفتى مترجمًا عسكريًا تحت التدريب، مشاغلى الخاصة المتعلقة بالتعود على مجال اللغة الجديد. كان على التمكن من اللهجة المصرية التى تختلف كثيرا عن اللغة العربية الفصحى التى درسناها بالمعهد، وأن أزيد من مخزون الكلمات لدى، خاصة العسكرية منها، وأن أتمكن من القدرة على الترجمة الشفهية. كان المصريون فاهمين تماما للصعوبات اللغوية التى أواجهها، ولم يتقاعصوا قط عن تقديم المساعدة.

ولكن كانت المشكلة الأساسية تتلخص فى أنه كان يجب على حل مشكلة التعود بسرعة على اللغة، فى ظل ظروف الوضع الحربى الخطرة، وفى كثير من الأحوال فى ظل عمليات إطلاق العدو للنار. فيما يتعلق بذلك، لا يمكننى إلا أن أشير إلى وضع معين، أمكن لى تقدير أهميته تماما فقط فى مصر. وهذا الوضع المهم يتمثل فى أنه كانت لدى خبرة اكتسبتها من الخدمة فى أثناء تجنيدى فى الجيش. فهنا بالذات، وفى أثناء "حرب الاستنزاف" استفدت من معرفتى وقدراتى العملية التى حصلت عليها فى أثناء خدمتى بسلاح المدفعية.

وبذلك طارت أول ثلاثة أسابيع من حياتنا الجديدة المليئة بالتوتر على الجبهة بدون أن نشعر.

سمح لنا كبير مستشارى اللواء فى يوم ٢٠ أو٢١ ديسمبر بالسفر إلى القاهرة لبضعة أيام. كان علينا الاغتسال والراحة واستلام نقود وشراء بعض المستلزمات المهمة للحياة (مصباح كيروسين، موقد كيروسين، طقم أوانيل الطعام، أوانى منزلية، وغيرها). بالطبع، لقد استقبلنا البلاغ عن إجازتنا الذى تليقيناه لاسلكيا من الزعفرانة بسعادة بالغة. توجهنا إلى العاصمة بسيارتنا العسكرية على نفس الطريق الذى سلكناه من قبل.

تبين لنا فجأة فى الطريق أن سائقنا الحبيب سليمان يستطيع قيادة السيارة... فى الصحراء فقط، حيث إن درايته بقواعد المرور كانت ضعيفة جدا. لذلك فقد كان عبور أول تقاطعين بضواحى القاهرة بالنسبة لنا عبارة عن لحظات قلق شديد، فقد كان يمكن لكل منها التسبب "لمريض القلب" فى أزمة قلبية. كان الشىء الثانى الذى ضايقنا على غير توقع منا هو أن سليمان، مثله مثل الكثير من السائقين العسكريين بالجيش المصرى، كان قد تعلم فقط "إدارة عجلة القيادة"، أما إصلاح أى عطب بالمحرك، ولو بسيط، فقد كان من مسئولية الميكانيكيين. لذلك فقد كان تعطل وسيلة نقلنا فى الجزء الصحراوى من الطريق يمثل خطرًا، يتمثل فى انتظار المساعدة الفنية لعدة ساعات، نظرا لقلة كثافة الحركة على الطريق.

ولكن يبدو أن هذا الوضع لم يزعج سليمان على الإطلاق، فقد أعلن لنا، بدون حتى أن يرمش له جفن، أنه يقوم فى مثل هذه الحالات "بتسلق عمود ويقطع

سلك الاتصال الهاتفى، عندئذ يقوم عمال الاتصالات الذين يحضرون لإصلاح الخط بجره بسيارتهم". شيء مضحك بالفعل، ولكننا تمكنا من الوصول إلى حى مدينة نصر الذى كان يسكنه المستشارون العسكريون السوفييت بسلام على الرغم من مواجهتهم بعض المشاكل.

كان استقبالنا للحياة الآمنة بالقاهرة الضخمة المليئة بالضجيج وكأنها صورة غير حقيقية وخيالية، بعد المناظر العامة الصفراء ـ البنية بالصحراء المماثلة لسطح كوكب المريخ، والخالية من الحياة. أذكر كيف أنه عند ذهابنا فى المساء إلى المدينة كنا ننظر بانجذاب إلى الفترينات التى تلمع من الأضواء بالمحلات التجارية العالية، وإلى النساء، وببساطة إلى الناس بملابسهم المدنية. كان ذلك بالنسبة لنا فعلا عالما آخر يعيش حياة أخرى بعيدة تماما عنا.

مرت أيام الإجازة الثلاثة بسرعة وبدون أن نلاحظها. عدنا إلى رأس غارب مستريحين والأهم من ذلك، أننا نلنا قسطًا كافيًا من النوم. وفيما يخص ذلك، أشير إلى أن نقص النوم المزمن بسبب العمليات الليلية للمروحيات قد أرهقنا تماما. لذلك ففى أثناء كل إجازة كنا نقوم بها فى بالقاهرة، كان الهدف الأول بالنسبة لى شخصيا هو النوم جيدا بشكل كاف.

كان قد تم تجهيز بيت أرضى لنا بالكتيبة قبل عودتنا، لذلك نزلنا به فورا. لم يكن يمكن بالطبع لهذا الاختراع الطريف للفكر الهندسى المسمى "الملجأ" الحماية من السقوط المباشر للقنابل. ولكن طبقا لحساباتى، كان يمكنه تحمل تأثير التشظى الناتج من ضربات المقذوفات النفاثة غير الموجهة من الطائرات. وفى ذلك الوقت لم أكن حتى أتصور أن ذلك البيت الأرضى برأس غارب سوف يكون منزلى الرئيسى لمدة حوالى سنة.

لم يكن الموقف قد تغيير حتى ذلك الوقت بمنطقتنا، فكما كان يحدث فى الماضى كانت مراكز المراقبة الجوية الموجودة على ساحل خليج السويس تقوم بالإبلاغ عن ظهور مروحيات العدو فى أثناء الليل. لذلك فقد كان من الممكن توقع إنزال جنود مع أى من هذه البلاغات. وبعد ذلك بحوالى شهر أو شهرين أصبحت أية حركة على الساحل ممنوعة تماما فى المساء نظرا لتزايد نشاط العدو. ولكن كان على أيضا التفكير فى سلامتى الشخصية ـ وهى مشكلة واقعية تماما فى

هذه الظروف. لم يكن يتم قفل باب بيتنا الأرضى بالقفل، كما لم تكن توجد أية حراسة، على الرغم من أنها كانت مخصصة ومفترضة لنا. كنت فى كل مساء آخذ مدفع رشاش سائقنا سليمان، على سبيل الاحتياط، وأضعه على منضدة بجانب الفراش. كنت مطمئنا أكثر لوجود السلاح معى. ومن السخرية تذكر كيف أن أحد موظفى المكتب السياسى قد أخافنا بنصيحته لنا: "حاولوا فقط الوقوع فى الأسر لدى اليهود ـ فى هذه الحالة سوف تعاقبون بفصلكم من الحزب..."

ولكن كانت الظاهرة الجديدة بالنسبة لنا، هو طيران طائرات التجسس على ارتفاع كبير فوقنا، تقريبا كل يوم. كان من الواضح أن إسرائيل تقوم بدراسة المنطقة بدقة. ولكننا لم نر فى ذلك أى شىء غير عادى وغير طبيعى، حيث إن الموقف كان عامة لم يخرج عن إطار ما كان يحدث فى ذلك الوقت على كل ساحل البحر الأحمر.

فى مساء يوم ٢٦ ديسمبر، بعد العشاء، ذهبنا كالعادة إلى البيت الأرضى لقائد الكتيبة لمناقشة خطة العمل لليوم التالى. وفى حوالى الساعة ٢٢ أو أكثر قليلا جاءتنا إشارة هاتفية تفيد بأن مروحيتين للعدو قد دخلتا إلى عمق منطقتنا على بعد حوالى ٥٠كم شمال موقع الكتيبة. كان يحدث ذلك أيضا من قبل، لذلك، للأسف، لم نعر لتلك الإشارة أى اهتمام خاص.

فى خلال الحديث عن الأحوال الجارية اقترح فجأة الرائد بانتشنكو على قائد الكتيبة استنفار السرية الثانية بإنذار وأداء تدريب ليلى معها بالتحرك إلى مكان مفترض أنه حدث به إنزال لجنود العدو. وقد تم اختيار هذا المكان ليكون موقع محطة الرادار.

بأمانة، حتى اليوم، وبعد مرور ٣٠ سنة، من الصعب على الحكم بثقة كاملة على ما كان أحسن لنا، فى ذلك الوقت: القيام بهذا التدريب أم عدم أدائه. فإذا كان قد تم بالفعل هذا التدريب، كان يمكن لنا إحباط العملية التى كان يخطط العدو لتنفيذها فى هذه الليلة. سؤال آخر يطرح نفسه: "ما النتائج التى كان يمكن أن تنتظرنا؟". ليس هناك شك فى أن الإسرائيليين كانوا سيخلطون بطياراتهم فى اليوم التالى الكتيبة بالرمال، ولم أكن سأتمكن، على الأرجح، من كتابة هذه السطور.

لا توجد مبالغة فى هذا الافتراض. وقد قام أحد مستشارى الكتيبة من معارفى بعقد مقارنة بين تبادل الجيش المصرى والإسرائيلى للضربات، وكان قد شارك فى الحرب الوطنية العظمى، كما أنه كان على دراية فعلية بقوة القصف الإسرائيلى على قناة السويس، كما يلى: "لوأن عربيًا كسر زجاج نافذة أحد اليهود بنبلة، فإن اليهودى سيمسك بشومة ويدمر كل إطار نافذة البيت العربى".

فيما بعد اقتنعت بأن رد الإسرائيليين كان بالفعل دائما أقوى وأكبر من حيث نتائجه. كنا بالطبع مستعدين للقيام بواجبنا العسكرى وتنفيذ كل المهام التى تكلفنا بها القيادة، ولكن أيضا لم يكن يريد أحد الموت فى هذه الرمال الموحشة للبحر الأحمر.

قام القدر بدوره، بطريقة أو بأخرى، بأسلوبه. رفض المقدم زبيب اقتراحنا رفضا قاطعا، مقدما مختلف المبررات. كان أحد المبررات هو أنه كان على فصيلتنا للمشاة أن تنصب "كمينًا" بالقرب من محطة الرادار مباشرة. وقد كانت مثل هذه "الكمائن" شيئًا معتادًا بقطاعنا لحماية "الأهداف الحيوية" فى أثناء الليل. ولكن تهيأ لى فى ذلك الوقت أن قائد الكتيبة، ببساطة، لم يكن يرغب فى القيام بهذا التدريب فى الليل. كان التدريب سيستغرق غالبا أكثر من ساعة واحدة، وكان سينتهى فقط قرب الصباح. انتهت المناقشة بأنه تم إطلاعنا على تعليمات رسمية تحظر القيام بأى نوع من الأعمال أو التدريبات فى حالة إعلان أى من درجات استعداد للقتال. كانت فعلا الكتيبة فى ذلك الوقت فى وضع الدرجة الثانية من ذلك الاستعداد. لم تصلنا بعد ذلك أية إخطارات أخرى عن المروحيتين. وفى حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف مساء اقترح علينا قائد الكتيبة الذهاب للنوم، وهو ما فعلناه. ولكن زبيب نفسه بقى مع رئيس الأركان فى نوبتجية بالبيت الأرضى. اتفقنا على أنه سوف يقوم باستدعائنا فى حالة الضرورة.

كنت قد تعبت من الترجمة طوال اليوم ومن المرور بين مواقع الكتيبة فاستغرقت فى النوم فورا. تبين فيما بعد أن تاراس لم ينم. فكما روى لى فيما بعد، شعر بهاجس ما سيئ. أيقظنى فجأة بعد منتصف الليل قائلا: "إيجور، هل تسمع؟.. هدير طائرة. اخرج إلى الخارج.. انظر ماذا يوجد هناك؟".

قمت من فراشى على مضض وأنا نصف نائم، وأدخلت قدمى فى حذائى وخرجت بملابسى الداخلية من البيت الأرضى. كان الجو باردا كالعادة فى الصحراء فى الليل. كان هواء بارد يهب من اتجاه البحر، كما كان القمر ساطعا ومكتملا. بالفعل كان يسمع صوت هدير عال لمحركات نفاثة لعدة طائرات.

زعقت: "غالبا هذه طائرة تجسس"، ولم أكن حتى أفكر "أى تجسس جوى يمكن أن يتم ليلا؟".

أصبح الهدير أقوى. كانت إحدى الطائرات فى مكان ما قريبا جدا، على الرغم من أنها لم تكن ظاهرة لنا. بعد بضعة ثوان، وفى نفس اللحظة التى كنت أنوى النزول فيها على الدرجات إلى الأسفل، دوى انفجار شديد على بعد حوالى مائتى متر، ثم تبعه انفجار ثان بعد ثانية. رأيت ومضات لامعة. كانت تلك انفجارات أول قنابل.

بدأت غارة جوية. كانت الساعة تشير إلى ٣٥ دقيقة بعد منتصف الليل.

صرخت: "إنذار، جارى قصفنا!"، وتدحرجت منقلبا رأسًا على عقب إلى أسفل إلى البيت الأرضى.

ارتدينا ملابسنا كما يفعل الجنود الجدد فى السنة الأولى، عند تدريبهم على تنفيذ أمر "قيام". اندفعنا إلى الخارج وجرينا فى اتجاه البيت الأرضى لقائد الكتيبة، الذى كان يبعد بمسافة حوالى ٢٠٠ متر. كان الهواء قد تقطع بسبب شهيق المحركات النفاثة، كما كانت تظهر ومضات انفجارات القنابل فى مختلف الأماكن على اليمين وعلى اليسار، يصحبها صوت رعد رهيب. وفجأة انفجرت مجموعة من الصواريخ فى وقت واحد قريبا جدا منا. فى تلك اللحظة لم نفكر حتى فى إمكانية إصابتنا بالشظايا، لذلك لم نرقد على الأرض، حتى ولو مرة. كنا نسعى لشىء واحد يتمثل فى الوصول بأسرع ما يمكن إلى مقصدنا. بالنسبة لى شخصيا، كان يمكن أن يكون هذا الجرى هو الأخير فى حياتى، حيث إن تاراس وجد فى سترتى، فى الصباح التالى، من الخلف ثقبًا صغيرًا مقطوعًا: حيث إن شظية كانت قد مرت بجانبى لدرجة أنها مستنى. قابلنى فى الطريق بضعة جنود مرعوبين بدون سلاح، ولسبب ما حفاة. كان يوجد فى البيت الأرضى مع قائد

الكتيبة رئيس أركان الحرب وضابط المخابرات وضابط الاتصالات، كان أول ما طلبناه هو إخبارنا بالموقف.

أجاب المقدم زبيب بعصبية: كيف يمكن أن يكون الموقف؟.. ألا ترون أنه جارٍ قصفنا بالقنابل؟

سأل تاراس: وما الذى يخطرونكم به من الرادار؟

أجاب قائد الكتيبة: من الرادار.. يخطرون بأنه جارى قصفهم هم أيضا بالقنابل.

كنا نحن أنفسنا مدركين أنه جارٍ فعلا قصف فصيلة الرادار الفنية، حيث كنا رأينا قبل ذلك السلاسل الحمراء لمسار طلقات المدافعية المضادة للطائرات - كانت بطاريات الرادار الزائف تطلق النار. أما فصيلة رشاشاتنا الثقيلة المضادة للطائرات طراز LLik فكانت صامتة. أوضح قائد الكتيبة بأن إطلاق النار فى الظلام ليس مناسبا حيث إننا على أية حال لا نرى الطائرات.

أضاف زبيب: إذا فتحنا النار، فإن العدو سوف يقصفنا بشدة أكبر.

دار كل هذا الحديث فى ظلام دامس. كان المصريون قد أطفأوا المصابيح خوفا من إمكانية رؤية الضوء من الجو، وفى هذه الحالة لن يمكن تفادى الصواريخ. وللتأكد من الموقف قمنا بالاتصال هاتفيا بالفصائل وبقادة كتيبة "الدفاع الشعبى" وفصيلة المعدات اللاسلكية. أفادونا بإشارة هاتفية عن الإغارة على قيادة الكتيبة. حاولنا الاتصال لاسلكيا بفصيلة "الكمين"، التى كان يجب عليها منذ الساعة ٢٢ احتلال الموقع المحدد لها بالقرب من محطة الرادار.

تبين أن خلال كل هذا الوقت، خالفت الفصيلة الأمر ولم تكن فى الكمين، ولكن فى موقع محطة الرادار الزائف. فكما اتضح فيما بعد، كان قائد الفصيلة نفسه يشرب الشاى مع قائد السرية. كما أن الفصيلة قد بدأت فى التحرك نحو محطة الرادار الحقيقية فقط عندما بدأت الغارة الجوية. كان آخر اتصال من قائد الفصيلة يقول: "لا أستطيع التحرك أبعد من ذلك. فإنه جارى قصفى". وبعد ذلك لم ترد الفصيلة على اتصالاتنا.

وبعد يومين، وخلال فحصنا الدقيق للمنطقة لم نجد أية حفرة واحدة ناتجة من قنبلة أو من صاروخ على خط سير الفصيلة.

فى وقت ما، فى منتصف الليلة التالية، اتصل بنا قائد السرية الفنية للمعدات اللاسلكية، وأخطرنا بأنه يرى حريقًا فى موقع محطة الرادار، و "يبدو أنه تم تدمير المحطة نفسها نتيجة لسقوط القنابل عليها ولا يوجد أى اتصال بها" . كان ذلك آخر اتصال تم مع الرادار الزائف فى تلك الليلة، فقد انقطع الاتصال. ثم انقطع بعد ذلك الاتصال السلكى بكل الفصائل. وقد رفض تماما قائد الكتيبة إرسال جنود الاتصالات من أجل إعادة الاتصال مبررا ذلك "بأنه يمكن أن يقتل الجنود" . بقينا بدون أى اتصال وفى حالة جهل تام بتطورات الوضع.

كانت كثافة القصف مستمرة فى التزايد فى ذلك الوقت. وقد خيل لنا فى بعض اللحظات بأننا لن نتمكن من الصمود حتى الصباح. سقطت إحدى القنابل بالقرب منا مباشرة. انفجرت بين بيت القائد الأرضى ومركز اتصالات الكتيبة. اهتز "ملجأنا" نتيجة الانفجار، وتساقطت الرمال من السقف، وامتلأ الهواء بالأترية وبدخان حاد الرائحة. فى اليوم التالى نظرت إلى العلامة المميزة على بقايا منظم القنبلة المشوه فجاء إلى فكرى أنه لو سقطت القنبلة أقرب إلى ملجأنا بثلاثة أو أربعة أمتار لكانت قد بقيت من بيتنا الأرضى مجرد ذكرى.

فى الرابعة والنصف صباحا أخبرنا الجندى، الذى وضعه قائد الكتيبة للمراقبة، من فوق درج البيت الأرضى بوجود صوت غريب. خرجنا إلى أعلى، وبالفعل سمعنا صوت هدير قوى جدا مميز - كان ذلك هو صوت دوران محركات مروحيات. جاء إلى فكرنا فورا أن العدو سوف يحاول القيام بعملية إنزال جنود، فى حماية الطيران. صعدنا بسرعة إلى قمة أقرب تل فتمكنا لبضعة ثوان من رؤية خيالات داكنة، خلف مواقع السرية الثالثة، وهى تبتعد فى اتجاه الصحراء. فى ذلك الوقت لم نكن نعرف لماذا لم تطلق السرية النيران على هذه المروحيات.

هدأ كل شىء بسرعة. انصرفت المروحيات. كنا نسمع فقط هدير طائرة تقترب. لم نلحق حتى مناقشة ما شاهدناه ونحن واقفون فوق قمة التل. حدث كل شىء بشكل ما مفاجئ. ولكننا فهمنا بسرعة من الصوت الذى كان يتزايد فى اتجاهنا بأنه سوف يتم الهجوم علينا. فى تلك اللحظات التى انطلقنا فيها جريا

على جانب التل فى اتجاه الملجأ ونحن خافضون رءوسنا، طارت من فوقنا عدة صواريخ مرة واحدة وهى تصدر أزيزًا ما أوصفيرًا. انفجرت على بعد حوالى ٥٠ مترًا خلف الملجأ.

عندئذ جاء إلى فكرى: الحمد لله، طارت أكثر من اللازم.

انصرفت الطائرة بأقصى سرعة فى اتجاه شبه جزيرة سيناء. ومرة أخرى خيم الصمت. انتهت الغارة. كانت الساعة حوالى الرابعة والنصف صباحا.

ذهبنا فى صمت إلى بيتنا ونحن منهكون تماما، وكانت أرجلنا تتحرك بصعوبة من التعب. كان سائقنا يجلس على فراشى.

سألته بنبرة مرحة، على قدر الإمكان: كيف الحال يا سليمان، كان ذلك مرعبا؟

كان رد الجندى أن ابتسم ابتسامة معوجة قائلا: مرعب.

رقدنا على الفراش بدون خلع ملابسنا. بعد حوالى ٣٠-٤٠ دقيقة دق جرس الهاتف.

تحدث إلى قائد الكتيبة قائلا: مستر إيجور، لقد سرق اليهود الرادار.

من المفاجأة، لم أفهم فورا ما قاله.

سألته: كيف سرقوه؟ ما الذى سرقوه بالتحديد؟

كانت الإجابة غير معقولة: لقد سرقوا جزءًا مهمًا، أو مجموعة الرادار، أوشيئًا ما آخر...

بعد عدة دقائق كنا مرة أخرى فى ملجأ المقدم زبيب. فى الحقيقة كان الأمر أسوأ من ذلك بكثير. فهمنا ذلك فورا عند رؤيتنا لوجه قائد الكتيبة المكتئب.

فهمنا من الكلمات المتقطعة لزبيب بأنه "لم يعد يوجد رادار بموقع المحطة". ببساطة لقد اختفى. لم يكن يعرف المقدم أية تفاصيل أخرى. اتضح أن قائد الفصيلة، الذى وصل أخيرا، قرب الصباح فقط، إلى مكان كمينه، قد أبلغه لاسلكيا بما حدث.

قررنا الذهاب إلى الرادار عند طلوع الفجر لرؤية الوضع بنفسنا. علمنا أن جنديين من الكتيبة قد قتلا نتيجة للغارة، وأن أكثر من عشرة أصيبوا. تم دفن القتيلين فى الصباح هنا فى الصحراء.

اتفقنا على أن يخبرنا قائد الكتيبة عن وقت التحرك، وعدنا إلى بيتنا الأرضى. نعسنا لبعض الوقت. ولكن فى الساعة الثامنة أوالتاسعة أيقظنا رائد جاء لتوه من هيئة أركان حرب الكتيبة لمعرفة ما حدث. سألنا بالتفصيل عن أحداث الليلة الماضية.

انشغلنا طوال الفترة المتبقية حتى حلول العام الجديد فى التحرى عما حدث. أصبحت تتضح بعض تفاصيل العملية التى قام بها الإسرائيليون، على الرغم من أننا بالطبع لم نحصل على صورتها بشكل دقيق تماما.

أصبح الآن من الواضح لنا أن ظهور المروحيات وطائرات التجسس الإسرائيلية فى قطاعنا لم يكن صدفة. فقد كان العدو يعد بدقة للعملية. وكان من المثير أنه قبل عشرة أيام مما حدث جاءت إخبارية عن طريق قنوات المخابرات العسكرية تفيد عن تدريبات لجنود الإنزال الإسرائيليين فى سيناء، وبأنهم يستعدون للاستيلاء على هدف ما. لم يخبرنا قائد الكتيبة فى ذلك الوقت عن أى شىء من مضمون هذه البرقية المشفرة. لم نكن نعلم نحن أيضا عن أنه غداة العملية زاد عدد الطائرات الإسرائلية بشكل كبير فى مطارى أبورديس والطور الذين كانا يلعبان دور مطارى "وثب".

تبين أن فى حوالى الساعة ٢٣:٠٠ أو بعد ذلك بقليل طارت إلى منطقة موقع محطة الرادار مروحتان ثقيلتان، صناعة فرنسية، من طراز "سوبر فريلون" (مروحية ذات أكبر حمولة بقوات الطيران الإسرائيلى فى ذلك الوقت) بمجموعة الاستيلاء. وكان مركز المراقبة الجوية قد أخطرنا بظهور هذه الطائرات بالذات. وقد عثرنا على آثار عجلات إحداها فى مكان الإنزال، فى منخفض عميق على بعد ٣٠٠ متر من المحطة. وقد تم تحديد نوع المروحية من تلك الآثار المميزة على الرمال. وفى ذلك الوقت لم نتمكن من تحديد مكان هبوط المروحية الثانية. بصراحة، لم تكن تعد هناك حاجة لذلك بصفة خاصة، فقد كانت الصورة العامة واضحة.

لم تكن محطة الرادار تعمل فى ذلك الوقت، وكان طاقمها يقوم بأعمال الخدمة الفنية بغرفة الأجهزة، لذلك لم تتم ملاحظة اقتراب مروحيتى العدو. فيما بعد علمت صدفة من رقيب من فصيلة الشئون الإدارية بأنه قد شاهد بنفسه طيران مروحتين فى اتجاه محطة الرادار قبل بداية القصف، وأنه حتى قد أبلغ قائد الكتيبة عن ذلك. وقد أجابه الأخير: "لقد خيل لك ذلك، أنت فقط جبان". وحتى الآن، لا أدرى لماذا لم يخبرنا زبيب عن حديثه مع الرقيب.

على أية حال، كان العدوقد استولى على موقع محطة الرادار غداة منتصف الليل. قمنا بتحديد مسار حركة جنود الإنزال الإسرائيليين فى اتجاه المحطة من آثار أحذيتهم. وقد عثرنا أيضا على أماكن جنود المدافع الرشاشة التى قامت بحماية عملية الإنزال. تم قتل جنديى حراسة محطة الرادار. وقد فقع الجنود الإسرائيليون عينيهما. وكما تبين فيما بعد، فقد هرب إلى الصحراء المحاربون الذين بقوا على قيد الحياة. على أية حال كان كل موقع محطة الرادار مغطى بأظرف طلقات رشاشات من طراز "كلاشنيكوف". هل كانت أظرف طلقات مصريين أم إسرائيليين، لم نتمكن من تحديد ذلك. كان ذلك بسبب استخدام الإسرائيليين للكلاشنيكوف السوفييتى الصنع بدلا من "الأوزى" فى أثناء قيامهم بعمليات خاصة فى الأراضى المصرية.

لقد تم تنفيذ الجزء الرئيسى من العملية تحت ستار ضربات الصواريخ وقنابل الطيران. يبدو أن العدو افترض إمكانية اكتشافنا لعملية إنزال الجنود، لذلك قرر تثبيت الكتيبة على الأرض فى مكانها، حتى لا يمنحها فرصة للتحرك فى اتجاه الرادار. وبصفة احتياطية، قام الإسرائيليون بقصف الطريق الموصل من وادى الزعفرانة للطريق إلى رأس غارب. أعتقد أنهم كانوا بذلك يخشون أن يرسل لنا اللواء عضدا، عند علمه بالعملية الإسرائيلية. كان الطيران الإسرائيلى قد قام فى تلك الليلة بست وثلاثين طلعة طيران! وقد علمت ذلك من رفيقى الذى يعمل بمركز قيادة الدفاع الجوى.

طبقا لبعض المعلومات، بعد الاستيلاء على موقع محطة الرادار، حضرت إلى هناك ثلاث مروحيات ثقيلة أخرى. قطع الإسرائيليون رزات التثبيت بواسطة لهب الأكسجين، وقاموا باحترافية شديدة، طبقا لرأى خبرائنا بالقوات الفنية للرادار،

بفك كابينتى محطة الرادار ـ كابينة الأجهزة وتركيبة سارية هوائى محطة الرادار، ثم قاموا بتعليقها خارج مروحتى "سوبر فرولونوف" ونقلها إلى شبه جزيرة سيناء. وقد بقى بالموقع فقط "شاسيهان" يتيمان لسيارتى زيل ـ ١٥٧.

وقد قام الجنود الإسرائيليون بتفجير مولد الديزل الذى كان يقوم بتغذية المحطة. وهذا المولد المحترق هو ما شاهده قائد الفصيلة من موقع الرادار الزائف، معتقدا أنه حريق فى محطة الرادار ذاتها.

وقد تم أسر وخطف طاقم المحطة أيضا. وقبل مغادرة الإسرائيلين الموقع إلى سيناء، قاموا بتلغيمه بكثافة: وقد وضعوا هنا أيضا حشوات متفجرة موقوتة بالإضافة إلى ألغام المشاة العادية. وقد وجد مهندسو الكتيبة العسكريون أيضا فى كبينتى السيارتين الزيل "ألغامًا ـ مفاجأة". ولم يصب أى فرد نتيجة هذه الهدايا الإسرائيلية.

بالطبع لم يسمح لنا بالذهاب إلى القاهرة للاحتفال بليلة رأس السنة. كان كبير مستشارى اللواء متخوفا من حدوث عمليات جديدة مفاجئة من جانب العدو. ولكن ذلك لم يمنعه من الذهاب شخصيا إلى العاصمة المصرية للاحتفال بليلة رأس السنة. وبذلك تمت قراءة تهنئة الحكومة السوفييتية بليلة رأس السنة كالمعتاد. لقد اضطررنا إلى الاستماع لليفيتان(٥٥) بواسطة جهاز استقبال "ترانزيستور" صغير بملجأ هيئة أركان الحرب. أذكر كيف قطعنا حديثنا مع قائد الكتيبة لعدة دقائق واستمعنا باشتياق بالغ لكلمات ذلك المذيع الروسى البعيد التى تقول: "نهنئكم بقدوم العام الجديد! بالسعادة الجديدة، أيها الرفاق!".

فى ذلك الوقت كانت تحضر إلى الكتيبة لجان من مختلف المستويات، الواحدة بعد الأخرى، من جانبنا، وكذلك من الجانب المصرى. جاءوا من هيئة أركان حرب اللواء ومن هيئة أركان حرب الدائرة، بل ومن الهيئة العامة لأركان الحرب المصرية. كما قام أيضا خبراؤنا من القوات الفنية للرادارات بزيارة الكتيبة. كنا ننتظر حضور حتى وزير حربية الجمهورية العربية المتحدة محمد فوزى. ولكن بدلا منه، أنعم علينا اثنان من جنرالات أركان الحرب بزيارتهم، فقد طاروا إلينا

---

(٥٥) مذيع روسى.

على عجل من موسكو. وقد رافقهم فى أثناء زيارتهم لنا كبير مستشارى اللواء وعقيد من هيئة أركان حرب كبير المستشارين العسكريين بالجمهورية العربية المتحدة. لم يجلب لنا ظهور مثل هؤلاء الرؤساء الكبار من الاتحاد السوفييتى إلى رأس غارب أى شىء حسن. كان ذلك ما وضح لنا. فبعد زيارتهم لمحطة الرادار تم توجيه تأنيب عنيف للغاية لتاراس. وبعد أن حصل الضيوف الموسكوفيون من باتشينكو على مذكرة توضيحية، تناولوا طعام الغداء بفندق حرس الحدود برأس غارب، ثم انصرفوا فورا إلى القاهرة بسيارات "فولجا". لم تتم دعوتنا فى ذلك الوقت للوليمة، وبذلك لم نر الحمام المحشى بالأرز، للأسف. وفى المساء كان عشاؤنا كالعادة مكونا من طعام الجبهة"الفاخر" من صناعة طباخ الكتيبة المحلى – جبن أبيض مع خبز بلدى جاف و"الفول المدمس"، الذى كنا قد مللنا منه تماما المضاف إليه زيت الزيتون وقطع صغيرة من الثوم.

بصراحة، لقد بقى أثر الزيارة المفاجئة لمواطنيننا غير سار. ولم يكن الأمر يتعلق بالتوبيخ الذى ناله رئيسى، وليس فى أنه لم تتم دعوتنا على الغداء، الذى كنا نتطلع إليه بصفة خاصة. فقد كنا نرغب فى تناول طعام لذيذ بعد مأكولات الجبهة، ولكن ما ضايقنا، قبل أى شىء آخر، كان ما حدث فى أثناء مشاهدة موقع الرادار السابق. فقد كان قد ظهر قلق لدى أحد الجنرالات من احتمال أن تكون ما زالت هناك ألغام لم يكتشفها المهندسون العسكريون المنقبون عن الألغام.

لن أخفى أن مثل هذا القلق فى ظل الوضع على الجبهة بالبحر الأحمر كان دائما له أساس، فالحرب هى الحرب، ولم يعط هنا أى أحد أية ضمانات. عندما كنت أخطو على الرمال، التى كان من الممكن تماما أن يكون بها ألغام إسرائيلية، وأنا أعتقد أنه يوجد بها، كنت شخصيا أعتمد على إرادة الله. يمكن أن أقول إن المشاعر فى تلك اللحظات، بصراحة، لم تكن هى الأحسن. مجرد فكرة أن المكان ملغم، وأنه يمكن فى أى لحظة أن تطير فى الهواء، كانت دائما تضغط على الحالة النفسية، وتكون نوعًا من التوتر الداخلى المرهق الذى كان من الصعب التخلص منه. بأمانة، سأقول إننى لم أشعر بهذا الخوف حتى فى وقت الغارات الجوية. فبعد ثلاثة شهور، على سبيل المثال، فى أثناء فحص مكان إنزال الجنود الإسرائيليين شمال رأس غارب، والذى سبق أن مسحه المهندسون العسكريون

المنقبون عن الألغام، داس أحد ضباط الكتيبة على لغم مضاد للمشاة. وقد حدث ذلك فى وجودى، على بعد من ٥ إلى ٧ أمتار. وقد بقى الملازم على قيد الحياة، ولكن للأسف فقد قدميه. ومن سخرية القدر، أنه كان قائدا للمهندسين العسكريين المنقبين عن الألغام بفصيلة الكتيبة.

فى حالتنا، عندما تمت زيارة موقع الرادار صدر لنا فجأة الأمر من زملائنا "سيروا فى الأمام وبينوا الطريق". وقد لاحظت أن الضيوف القادمين من موسكو يسيرون خلفنا على مسافة بعيدة منا، وبدقة على آثار أقدامنا...كان فى ذلك ما يدهش.. وما يغضب.

فى ذلك الوقت، ذكرنا ذلك بالأحداث غير السارة التى وقعت فى الأيام السابقة. غداة ذلك، كان قد حضر إلينا فى الكتيبة مجموعة من كبار الضباط المصريين من هيئة أركان حرب الدائرة. بالطبع كانت القيادة العليا تريد مشاهدة مكان الرادار السابق. كان علينا أن نقود، تاراس وأنا مع القائد الجديد لفصيلة معدات الرادار (كان قد تم القبض على القائد القديم)، الضيوف إلى هناك. قال أحد ضباط هيئة أركان الحرب عندئذ: "أنتم هنا قدامى وتعرفون كل شىء، لذلك أرونا الطريق إلى الرادار". وفى خلال تحركنا بالسيارات إلى موقع محطة الرادار لاحظنا أن سيارات الضيوف القادمين من الدائرة يتبعوننا بدقة تامة على خط سيرنا. وقد تضايق عندئذ تاراس وقال: "أترى يا إيجور؟ إنهم يسيرون بدقة على آثارنا. ولا يهمهم إذا كان يمكن أن ينفجر خبراء روس، ولكنهم بذلك يبقون هم على قيد الحياة.

لم أكن فى ذلك الوقت أستطيع معارضته بأى شىء. وللأسف الشديد، فإن هذه القصة قد تكررت، ولكن نفذها آخرون: وفى هذه المرة كانوا من زملائنا من القوات المسلحة السوفييتية.

بالطبع، بعد كل ما حدث، لم تسعدنا حتى هدايا رأس السنة من الرئيس المصرى ناصر، التى لم نكن نتوقعها، والتى أحضروها من القاهرة، حيث إن نتائج ما حدث كانت خطيرة للغاية. كان قد تم إهداء كل مستشار وخبير ومترجم سوفييتى زجاجة ويسكى وزجاجتى نبيذ لكل منهم. وبالمناسبة فإن تاراس قد اضطر إلى تقديم زجاجته من الويسكى "بلاك أند وايت" للضيوف الموسكوفيين ليتناولونها مع الحمام، بناء على تلميح صريح من كبير مستشارى الكتيبة.

تسببت هذه الملحمة المتعلقة "بسرقة الرادار" فى جلبة كبيرة وأدت إلى الكثير من الشائعات فى ذلك الوقت. لم يكن هناك حديث بين مستشارينا وخبرائنا العسكريين فى القاهرة إلا عن "كيف قام الإسرائيليون بسرقة رادار فى البحر الأحمر".

فيما بعد، عرفنا بدهشة كبيرة، معلومات متتالية جديدة عن "تفاصيل" العملية الإسرائيلية. فقد قال لنا واحد من هؤلاء "العالمين" الكبار بالأمور: "بما أنكم عرفتم بأنه تم إنزال جنود العدو، كان يجب أن تركبوا دبابة وأن تقوموا بقيادة الفصيلة بأنفسكم إلى الرادار. وأن تقوموا بالقضاء على جنود الإنزال، كان يمكن لكم أن تتلقوا وسام النجمة الحمراء".

فيما بعد، قال تاراس، وهو يرد على هذا المونولوج، بصوت مرتعش: "من الأفضل عدم امتلاك هذه النجوم على الإطلاق، بدلا من الحصول عليها على وسائد قرمزية اللون، بعد الموت".

فضل الإسرائيليون عدم الإعلان عن العملية التى قاموا بها. وعلى أية حال فإن إذاعة "صوت إسرائيل" باللغة الروسية من القدس، والمولعة بنشر المعلومات اليومية عن عمليات الجيش الإسرائيلى الناجحة، قد صمتت تماما بهذا الخصوص. وفقط بعد شهرين، أذاع راديو "بى. بى. سى." بأنه طبقا للمعلومات التى حصل عليها: "توجد الآن فى إسرائيل مجموعة من الخبراء الأمريكان تقوم بدراسة محطة الرادار السوفييتية الصنع والتى استولت عليها قوات الإنزال الإسرائيلية فى مصر على ساحل البحر الأحمر". وبذلك فقد تم تأكيد الافتراض الذى طرحه خبراؤنا من القوات الفنية للرادارات: "بأن الإسرائيليين لم يكونوا يحتاجون للمحطة بالقدر الذى كان يحتاجه الأمريكان لها".

كان ذلك، لأن العدو تمكن من الاستيلاء على محطة رادار حديثة تماما من طراز ∏M∏ -12∏ التى لم تكن فى ذلك الوقت تستخدم فقط لتسليح قوات الدفاع الجوى المصرية، ولكن أيضا والسوفييتية. كانت المحطة تعمل فى المجال المترى ويصل مدى قدرتها على رصد الأهداف إلى ٢٠٠كم. وهى لم تكن تستخدم فى جيوشنا فقط لرصد الأهداف الجوية وتقديم معلومات عن الأهداف لمختلف وسائل الدفاع الجوى، ولكنها كانت تستخدم أيضا مع مجموعات التحكم الآلى فى

المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات طراز "فوزدوخ" بقوات الدفاع الجوى عن الاتحاد السوفييتى.

بذلك تمكن الأمريكان، بالاستيلاء على المحطة، من التعرف على أساس عمل نظامنا الخاص بالتعرف على انتماء الطائرات للدول "كريمنى ـ ١" التى زودت بها محطة الرادار، وكذلك على أساس تكوين الإشارة فى وحدة تحقق الرادار.

فى ذلك الوقت كانت السحب مستمرة فى التجمع فوق رءوسنا. وكنا نحن وضباط الكتيبة ننتظر بقلق نتائج تقارير اللجان العليا. كان يقال إن الأمر يتم تحت إشراف رئيس الجمهورية العربية المتحدة شخصيا. وبالفعل فقد تتابعت بعد ذلك النتائج. فقد تم تقديم كل المشاركين الرئيسيين فى هذه الأحداث إلى المحكمة ـ قائد كتيبتنا رقم ١٥٤ المقدم زبيب، وقائد فصيلة الرادار الفنية، وقائد فصيلة "الكمين"، وقائد كتيبة الرادار الفنية التى كانت تتبعها السرية بالإضافة إلى السبعة جنود الذين هربوا. وقد نالت رئاسة قوات الرادارات الفنية هى أيضا نصيبها، فقد تم طرد قائد الدائرة العسكرية من منصبه بسرعة.

بناء على أمر شخصى من الرئيس ناصر تم تعيين أحد أحسن الجنرالات المصريين فى ذلك الوقت ـ اللواء سعد الدين الشاذلى قائدا جديدا للدائرة. كان قد شارك فى العمليات العسكرية باليمن ضمن تشكيل فيلق الحملة، وقاد القوات الخاصة للجمهورية العربية المتحدة فى "حرب الأيام الستة" عام ١٩٦٧، وكان يعتبر عالمًا كبيرًا بتكتيك أداء جنود الإنزال الإسرائيليين. وفيما بعد تم تعيين الجنرال الشاذلى رئيسا لهيئة أركان الحرب العامة للقوات المسلحة. كان جنرالا متعلما ومثقفا وعمليا ونشيطا جدا، لايشبه أبدا القائد السابق، وقد ترك لدى انطباعًا جيدًا جدا.

عقدت جلسة المحكمة العسكرية فى يناير بإحدى حجرات هيئة أركان حرب الدائرة بمدينة الغردقة. وقد كنا هناك أنا وتاراس أيضا، فقد أخذنا قائد الكتيبة معه على أمل مساعدته كشاهدين، ولكن لم تتم دعوتنا إلى جلسة المحاكمة. دارت فقط مناقشة مع أحد المسئولين بدائرة البحر الأحمر العسكرية. اعتقدنا فى البداية أن الأمر سوف يمر على خير وأن الأحكام لن تكون قاسية جدا، ولكن تبين أن الأمر كان أسوأ كثيرا، وبصفة خاصة لزبيب. وأنا أذكر حتى الآن كيف بكى

بكاء مرا، هذا المقدم الذى لم يكن شابا، فى آخر لقاء لنا معه قبل انتهاء المحاكمة وإعلان الحكم، وهو يكرر كلمة واحدة: "إعدام". يبدو أنه كان يعرف مصيره. وقد قمنا بتهدئته، على قدر ما أمكننا.

بالفعل، فى اليوم التالى قضت المحكمة بإعدام المقدم زبيب واثنين آخرين من ضباط رأس غارب رميا بالرصاص. وقد نال كل من قائد قوات الرادار الفنية وقائد الكتيبة الفنية للرادار على ٢٥ سنة سجنًا. وقد كان لهذه الأحكام القضائية القاسية صدى كبير فى ذلك الوقت بين الضباط المصريين الذين كانوا عامة متعاطفين مع المتهمين. بل إن وزير حربية الجمهورية العربية المتحدة قد أصدر أمرًا بخصوص ما حدث، وقد تم توصيله إلى كل ضباط القوات المسلحة.

كانت هناك أيضا نية لمعاقبة الرائد بانتشنكو بشدة. على أية حال، كان هو شخصيا ينتظر أسوأ الأوضاع. وبالفعل، وبسرعة بعد انتهاء المحاكمة، فى يوم ما من النصف الثانى من يناير جاءنا أمر بالسفر إلى القاهرة على عجل، حيث كان ينتظر تاراسوف حديث غير سار مع كبير المستشارين العسكريين بالجمهورية العربية المتحدة، طبقا لكلمات كبير مستشارى الكتيبة. لذلك ففى هذه المرة انطلقنا فى الطريق بهواجس سيئة تماما. وقد قدمت لنا الزعفرانة فى النهاية هديتها التالية: فقد "ودعتنا" بغارة قوية للطيران الإسرائيلى اضطرتنا إلى قضاء تقريبا كل الليل فى المخابئ عند أطراف مكان انتشار اللواء.

عند وصولنا إلى القاهرة، أصبح من الواضح أن تاراس فاسيليفيتش لن يعود مرة أخرى إلى رأس غارب. وقد علمنا من الحديث مع الزملاء بمدينة نصر بأن موقفه قد أصبح خطيرا تماما. كانوا يقولون بجدية كأن موسكو قد ناقشت موضوع إعادة باتشنكو فورا إلى الاتحاد السوفييتى. ولكن على الرغم من كل التوقعات الكئيبة للزملاء فإن الأمر قد انتهى على خير نسبيا. فبعد التأنيب العنيف "بالمكتب" (هكذا كنا نسمى أركان حرب كبير المستشارين العسكريين بالقاهرة) تم إرسال تاراس إلى قناة السويس. وقد علمت بعد ذلك بكثير بأنه قد استمر فى الخدمة حتى نهاية فترة مهمته وعودته إلى الوطن كمستشار قائد كتيبة ريند جرز بالمستنقعات المتاخمة لقناة السويس.

أما فيما يخصنى، فقد بقيت "أتشمس وأكسر الشعب المرجانية" بالبحر الأحمر، ولكن مع قائد جديد ومستشار جديد للكتيبة. وبالمناسبة لقد تمكنت من السباحة فى البحر الأحمر فقط فى يوم من أيام الربيع. وقبل ذلك كنت قد تمكنت تماما من الموقف الجديد على، ولم تكن لدى أية رغبة ولو صغيرة فى تغييره، حيث إنى قد أصبحت من "رجال البحر الأحمر" تماما.

بعد شهر، أحضروا إلى رأس غارب محطة رادار جديدة. وفى هذه المرة أحاطوها بسلك شائك وبطاريات مدفعية مضادة للطائرات، بل إنهم أعدوا لتفجيرها، على الرغم من أنه على ما أظن لم يكن من المحتمل أن يكون الإسرائيليون يخططون لتكرار "السرقة". ثم بعد فترة وجيزة ذهب لواء المشاة مع الكتيبة ٥٠٤، التى كانت قد أصبحت مثل عائلتى، إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ـ إلى الإسكندرية، وهو ما أسعد تماما الضباط المصريين. وقد حل محلها بالزعفرانة اللواء الآلى الذى عملت معه حتى توقيع الهدنة مع إسرائيل فى أغسطس عام ١٩٧٠ .وبذلك انتهت "حرب الاستنزاف" وانتهت معها أيام عملى على الجبهة بالبحر الأحمر.

أصبحت "سرقة الرادار" التى قام بها الإسرائيليون مجرد مقدمة للعديد من الأحداث المأساوية المتتالية بدائرة البحر الأحمر العسكرية. فقد تلتها عملية هجوم جنود الإنزال الإسرائيليين على مركز حرس الحدود شمال رأس غارب، وتكرار تلغيم طريق الزعفرانة ـ رأس غارب عدة مرات، وتدمير محطة المحولات الفرعية بنجع حمادى، والهجوم على مركز الاتصالات بالزعفرانة، ثم إنزال جنود بجزيرة شدوان بهدف تدمير الرادار البحرى بها، وتكرار قصف وحدات اللواء. اضطرت القيادة المصرية إلى تقوية جيش الدائرة بأن نشرت بالغردقة لواء آخر.

وبدأ الوضع يسوء بشدة على قناة السويس اعتبارا من فبراير عام ١٩٧٠، وكذلك فى مختلف مناطق مصر. وقد وصل الأمر إلى أن الطيران الإسرائيلى بدأ فى قصف وحدات وتشكيلات الدائرة العسكرية الوسطى: الفرق ٣ و ٦ و ٢٣ و ١٨ التى كانت منتشرة بضواحى القاهرة.

كانت الفرقة ٦ هى الأكثر تعرضا للقصف، وقتل بها ثلاثة من مستشارينا ومترجم واحد نتيجة لغارة واحدة قامت بها طائرتا "فانتوم" إسرائيلية.

وللمحافظة على الفرقة الآلية ٣، التى كانت أصبحت إحدى أحسن الفرق بالجيش المصرى، تم اتخاذ قرار بنقلها إلى منطقة قنا، بالقرب من أسوان.

بدأ الموقف فى مصر يتحسن فقط قرب الصيف، فغداة ذلك الوقت كانت قد تمت حماية غالبية الأهداف بكتائب المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات وبطائرات فرقتنا للدفاع الجوى التى حضرت فى أول الصيف من الاتحاد السوفييتى بناء على طلب الرئيس ناصر.

بعد سنتين، فى أثناء ثانى مهمة لى بمصر، قابلت صدفة صديقى الحميم القائد السابق لسرية الرشاشات بكتيبتنا الملازم محمود ناصر بوسط القاهرة.عرفت منه أن الرئيس الجديد أنور السادات قد رأف بالمذنبين فى عملية رأس غارب، وأن صحة المقدم زبيب جيدة. كان قد تم تحديث هذا النوع من الرادارات بالاتحاد السوفييتى غداة ذلك، وقد خدمت عشر سنوات أخرى فى تسليح الدوائر الداخلية للدفاع الجوى. وبذلك انتهت هذه القصة غير العادية فى رأس غارب والتى تركت فى ذاكرتى أثرًا لا يزول.

مضت أكثر من ثلاثين سنة على ذلك. وقد ردمت منذ زمن بعيد جنادقنا وبيوتنا التى تحت الأرض على الجبهة، كما فارق الحياة الكثيرون ممن شاركوا فى أحداث سنوات تلك الحرب، ولكن ما زالت تفاصيل ما عشته، مثل باقى الخبراء العسكريين السوفييت بمصر، الآن أيضا تهيج خواطرى، كما أنها تجيئنى فى أحلامى ليلا. وهى تثير لدى الرغبة فى رؤية أماكن المعارك السابقة على الجبهة، والكثير المرتبط بها، مرة أخرى. كما أن لدى رغبة فى مقابلة رفاق القتال بالكتيبة ٥٠٤، محمود محسن ومحمود ناصر ومحمد هانى، والعودة ولو للحظة إلى هناك حيث مر جزء من شبابى، بمصر فى أيامنا هناك.

لا يمكن نسيان ذلك أبدا

ف. س. لوجاتشوف

قادنى القدر إلى مصر بالصدفة تماما. وبصفة عامة فإن كل حياتى، وأنا قد احتفلت ببلوغى ٥٥ سنة، تكونت من الصدف. وطبقا لرواية والدتى، فذلك مكتوب لى منذ ولادتى حتى الآن. لن أتذكر الصدف التى حدثت معى فى طفولتى، ولكنى أذكرها تماما اعتبارا من عمر ١٥ سنة. بعد اجتيازى الفصل الدراسى السابع التحقت بمدرسة "ججيل للسليكات والسيراميك الصناعى". كان يوجد بقسم السيراميك ٢٥ دارسًا، منهم ٢٤ بنتًا وفتى واحدًا، هو أنا. وبعد انتهاء السنة الدراسية الأولى، وبعد أن أصبحت الفتيات يعتبرننى واحدا منهن، هربت إلى مدرسة الحرف للحصول على دراسة فى تخصص حرفة براد ـ سمكرى فى صناعة التهوية. وبعد سنتين من الدراسة حصلت على شهادة براد درجة ٥. وبعد عام اجتزت اختبار براد درجة ٦، لذلك كنت أرغب فى السفر إلى الهند من أجل بناء "مجمع بخيلاى للحديد والصلب"، ولكن قيل لى إننى مازلت صغيرا وأن على أولا أداء الخدمة العسكرية. وبذلك أصبحت رئيسا لفرقة، وأصبحت تلك الفرقة، صدفة بعد عام، فرقة العمل الشيوعى. وتم منح رئيس الفرقة رحلة إلى دار استجمام بالقرب من موسكو حيث هرب منه بعد ٥ أيام، ولم يقم بعد ذلك أبدا، ولا مرة واحدة، بزيارة إلى أية مصحة أو دار استجمام.

وبعد إكمالى الدراسة بالمدرسة المسائية، أردت الالتحاق بمدرسة "باومان"، ولكنى التحقت صدفة بالكلية الحربية وانضممت إلى الجيش الحبيب فى عام٣٢. كنت أقود فصيلة إطلاق صواريخ مضادة للطائرات لمدة حوالى ثلاث سنوات، وبعد ذلك تم اختيارى سكرتيرا لمنظمة الشباب الشيوعى اللينينى لعموم الاتحاد السوفييتى بالآلاى. كان جاريًا التخطيط لتعيين رفيق آخر، ولكن لم يختره أعضاء

الشبيبة، وكنت أنا احتياطيا، على الرغم من أننى اجتزت اختبارات رئيس فنيى بطاريات المدفعية المضادة للطائرات. وقد أسندوا إلى، بجانب لجنة الشبيبة الشيوعية اللينينية، منصب رئيس النادى لمدة عام، لأنه كان شاغرا، ورئيس الإعداد البدنى للآلاى، حيث إنه تم فصل الرئيس السابق من الجيش لكثرة تناوله المشروبات الكحولية. وقد قمت بواجبات تلك المناصب الثلاثة لأكثر من عام من تلك الأعوام التى كنت بها سكرتيرا للجنة منظمة الشباب الشيوعى اللينينى لعموم الاتحاد السوفييتى. بعد ذلك، تم فورا تعيينى نائبا لرئيس الشئون السياسية بكتيبة المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات، وبعد عام من ذلك، تم اختيارى سكرتيرا للحزب بالآلاى، وكان سنى فى ذلك الوقت ما زال ٢٧ سنة، حيث كنت الأصغر بين من شغل منصب سكرتير الحزب الشيوعى بمنطقة الدفاع الجوى الموسكوفية.

خدمت فى هذا المنصب حوالى عامين. وفى أحد الأيام عدت من أحد الاجتماعات الدورية الأسبوعية بالمنطقة فى مساء يوم سبت، فعرفت من زوجتى أنه جاءنى أمر بالذهاب غدا إلى رئيس المكتب السياسى للفيلق فى تمام الساعة ٩:٠٠. قلت لها "ولكن غدا يوم الأحد"، ظنا منى أنها قد أرادت مداعبة زوجها العائد متأخرا فى المساء. بددت شكوكى قائلة: "اذهب إلى بيتر أفاناسييفيتش للتأكد من ذلك". كان نائب رئيس الشئون السياسية بالآلاى بيتر أفاناسييفيتش يسكن فى نفس الطابق معنا. استقبلنى متعاطفا، وبدا عليه شىء من الإحساس بالذنب. بدأنا فى تناول وعاء سعة ٣ لتر من "فراجى" (نبيذ مصنوع بجمهورية مولدافيا، حيث كانت تستخدم فى ذلك الوقت هذه الأوعية للنبيذ)، وأخبرنى بأنه بينما كنت فى مهمة، اقترح أسماء كل الثلاثة من العاملين بالقسم السياسى للآلاى للسفر إلى بلد حار وجاف المناخ للقيام بواجبهم الأممى. لم يقبلوا واحداً من المرشحين، لأنه كان أعزب والتحق بالدراسة فى الأكاديمية. أما الآخران فقد كانا مستوفيين كل المتطلبات، وذهبوا إلى مصر. أما بيتر أفاناسييفيتش فقد أصبح رئيسا لقسم الكوادر السياسية بجيش الدفاع الجوى.

عقد لقائى فى يوم الأحد مع رئيس القسم السياسى بالفيلق، اجتزت بعده اللجنة الطبية بالمستشفى العسكرى للفيلق فى نفس اليوم. لم يكن لدى الأطباء

أى اعتراض بخصوص حالتى الصحية. وفى يوم الاثنين اجتزنا المجلس العسكرى للجيش والمنطقة (كان ذلك مجلسا عسكريا مشتركا). وفى يوم الثلاثاء أخذتنى طائرة رحلة موسكو ـ أتراخان بعيداعن موسكو، إلى سهول كازاخستان، إلى ميدان التدريب على الرماية الذى كان موجودًا به اللواء المكون من وحدات دائرة الدفاع الجوى الموسكوفية منذ حوالى شهر. ببساطة لقد شغلنا مكان بعض الرفاق الذين تم استبعادهم لسبب أو لآخر. كان الاختيار جادا جدا: الصحة، السمات المعنوية ـ القتالية والسياسية، كما أن البند الخامس بالنموذج لعب أيضا دوره، حيث إنه كان من الواضح "أية قومية" ليست مناسبة للحرب مع إسرائيل.

كيف جرى الاستعداد للمعارك وكيف دارت المعارك، كل ذلك مكتوب فى تقارير ومذكرات رفاقنا، والتى بدأت تنشر اعتبارا من عام ١٩٨٧ .وأنا أريد تذكر تلك الأحداث التى كنت أنا شخصيا شاهدا عليها، والتى أتذكرها بدقة.

كان قد أدهشنى أن هدف الجنرالات الذين ودعونا، فى رأيى، كان يتمثل فى سرعة إخطار الرئاسة بأى وكل شىء طبيعى، وبأنه أصبح من الممكن إرسال اللواء إلى الحرب. كان اهتمام رئاسة الجيش والبلد أيضا واضحا فى هذه العجلة. وقد كتب عن ذلك قائد الفرقة الفريق أول أ.ج متقاعد سميرنوف.

كان يرغب ضباط اللواء فى شىء واحد: الذهاب إلى الحرب بسلاح كامل، امتلاك أطقم قتال ووفرة فى المعدات الفنية عالية المستوى. كان الأفراد يستعدون من الصباح إلى المساء للحرب. وعندما علم قادة الكتائب ممن سبق أن سافروا إلى مصر وكذلك من العسكريين العرب الذين كانوا هم أيضا بميدان التدريب على الرماية للتدريب على استخدام معداتنا أن طائرات العدو تطير على ارتفاعات تصل إلى ٢٥ مترًا، وضعوا شرطًا لطيارينا لكى يقوموا هم أيضا بالطيران على هذا الارتفاع. ولكن للأسف كانت قواعد الطيران تحظر ذلك، وفى النهاية كان يهبط أبطالنا إلى ارتفاع ٥٠ مترًا. كان ذلك مهمًا جدا لاختبار مجموعات المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات عند العمل على ارتفاعات منخفضة لأنها كانت الارتفاعات الرئيسية عند تنفيذ العمليات القتالية فى ظروف مصر، ولم يكن يجدى أى شىء آخر. لم تتوقف المعركة ولو ليوم واحد فى خلال فترة الاستعداد بين المودعين ومقدمى التقارير إلى الرئاسة بأن الاستعداد

للسفر يسير بصورة طبيعية وبين المسافرين نفسهم الذين كانوا يقدمون كل يوم طلبات جديدة لتجهيز كتائب المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات. كنت طبعا شخصيا أقف تماما إلى جانب المسافرين، حيث كانت تسير معركة من أجل الحفاظ على أرواح أفراد يستعدون للقيام بعمليات حربية فعلية ضد عدو ذى خبرة (كان تقريبا كل الطيارين الإسرائيليين ذوى خبرة اكتسبوها خلال العمليات القتالية فى فيتنام) كما أنه مدرب جيدا حرفيا ويمتلك معدات على مستوى عالٍ.

فى خلال هذه المعركة اليومية تم استبعاد كل قادة الكتائب من السفر وفصلهم من وظائفهم من ٣ الى ٧ مرات بمعرفة نائب قائد الجيش الأول للدفاع الجوى الجنرال ن. د. ديريفياجين وكان يتم بالطبع إعادتهم إلى وظائفهم ـ وهذا فقط يبين مدى شدة المعركة. وفى النهاية، بينما كنا فى مصر، تبين أنه لا يوجد فى اللواء أفراد نوبتجية عمليات فى الخدمة يبدأون القتال. وقد قام بذلك الدور مهندسو خدمة سلاح الصواريخ. ف. إ. لاتيشيف، ى. إ. بوتياكوف، ن.د شومسكى، ورئيس المخابرات أ. ك. شيفتشينكو، ونائب رئيس القسم السياسى ف. س. لوجاتشيف، وغيرهم من الرفاق.

كما أنهم لم يوفروا لنا محولات التيار الكهربى طراز ٧. يتمثل جوهر ذلك فى أن تغذية نظام الصواريخ بالكهرباء تتم عن طريق معدات ديزل كان يتم استهلاكها طوال اليوم، أما تغذية محطات الاستطلاع وبيان الهدف ١٥ فكانت تتم من مجموعتنا للتغذية طراز ٨. والأخيرة عبارة عن جهاز يعمل بالبنزين ومحول تردد. وكان العمل يجرى فى ظل ظروف الصحراء ورياح "الخماسين، عندما تدخل الرمال فى كل الفتحات الظاهرة وتلك غير الظاهرة، فتؤدى إلى تعطل محرك محطة الاستطلاع وبيان الهدف. وكانت نتيجة ذلك، أن الكتائب المضادة للطائرات تبقى بدون "عين" طوال وقت الإصلاح.

وبالإضافة إلى ذلك لتقوية الكتائب وزيادة كفاءتها فى إطلاق النار، تم تزويدها بوسائل الدفاع الجوى الخاصة بالقوات البرية ـ مجموعات المدفعية الصواريخ المضادة للطائرات "ستريلا" و"شيلكا". الستريلا عبارة عن صواريخ محمولة تستخدم خاصية الإشعاع الحرارى. وقد تم تزويد الكتيبة بستة من هذه الأطقم، يتكون كل منها من ثلاثة أفراد. كان يتم نقلهم منذ بزوغ الفجر إلى ٣ ـ ٧

كم بعيدا عن منصات إطلاق كتيبة الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات، وكانت تتم إعادتهم مع نزول الظلام.

أما أطقم "الشيلكا" فكانت عبارة عن مجموعة مدافع مضادة للطائرات ذات أربع فوهات عيار ٢٣مم تطلق ١٠٠٠ قذيفة فى الدقيقة. وهى أيضا كانت تقوم بنوباتها فى الجزء المضىء من اليوم، وكانت ترتب على أطراف زوايا مثلث حول منصات الإطلاق بالكتيبة. وكان يتم الاتصال بها عن طريق كابل اتصال أرضى. وكانت تحتاج كل كتيبة حوالى ٥٠كم من هذه الكابلات. ولحل هذه المشكلة تم عرضها على مستوى وزارة الدفاع، ولكن فى النهاية تم حلها. ولكن تكلف ذلك الكثير من الأعصاب والدم.

وبعد ذلك كانت هناك حاجة لشباك تمويه، من أجل تغطية المعدات. وكان لواؤنا قد تم تشكيله من دائرة الدفاع الجوى الموسكوفية، حيث كانت توجد لديها شباك خضراء اللون فقط، وهى صالحة للاستخدام فى ظروف المناطق المركزية بالبلد وضواحى موسكو، ولكنها لا تصلح لظروف مصر، حيث المطلوب شباك بلون الرمال. وقد تبين أن هذه أيضا مشكلة، ولكن تم حلها فى مصر.

وهذا فقط البعض القليل من المشاكل التى كان على قادة الوحدات المسافرة حلها فى فترة الإعداد للسفر للقيام بعمليات حربية. وقد تسبب نقص الخبرة فى الانتشار ببلد حار المناخ ومحاولة حفظ كل ذلك فى السر فى مواقف فكاهية.

على سبيل المثال، أعطونا عنوانًا بريديًا "موسكو٤٠٠ ـ بريد ميدانى رقم ٠٦٥٥٢ ". وها هو خطاب يرد إلى القسم السياسى من والدة أحد العسكريين من المجندين العسكريين. وكانت بدايته كما يلى" أيها المواطن الرئيس، أكتب لى ما السبب الذى سجن ابنى، ولأى مدة..."، وقد تبين أن عددًا من مؤسسات العمل التقويمى كان لها نفس هذا العنوان، وهو ما كان يجعل بعض المقاتلين المدركين لذلك يبتسمون. وعامة كانت ترد الكثير من الخطابات بطلبات لمساعدة أسر العسكريين (لعمل ترميمات بالمنازل، إعداد الحطب...). كما كانت ترد خطابات من إفريقيا البعيدة إلى الإدارات العسكرية بالإقاليم وإلى مجالس القرى والمصانع والمزارع الجماعية بطلب تقديم المساعدة لأسرة أحد العسكريين، ولكن لم تكن ترد بها أية كلمة عن أنه مقاتل ـ أممى.

كما كانت تقول لنا رئاستنا، وكنا نحن أيضا نعتقد فى ذلك، كنا نقدم المساعدة لشعب مصر لمواجهة العدوان من جانب المحتلين الإسرائيليين.

ولكن كان يستخلص من بيانات الصحف والإذاعة والتليفزيون أننا لم نكن هناك. وفى إحدى المرات، وفى أوج سعير المعارك مع الطيران الإسرائيلى، جاءنا أحد أعداد جريدة "برافدا"، وكانت توجد مقالة بأسفل صفحتها الأولى تحت عنوان "المزيفون". كانت المقالة تتحدث عن المزيفين البورجوازيين الذين يؤكدون وجود عسكريين سوفييت بمصر. وكانت قد تمت صياغة المقالة بحيث إنها لم تبقى حجرا على آخر من حجج الجانب الغربى، أى أنها كانت موجهة لمن يجهلون الحقيقة. ولكن كيف يمكن أن نفسر بتعبير لطيف للمقاتلين أن جريدة "برافدا - الجريدة الرسمية للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى" - لا تكتب الحقيقة. قمت، بمجازفة منى وعلى مسئوليتى وبدون تفكير طويل، بجمع كل الأعداد الخمسين من هذه الجريدة وحرقتها. لدهشتى بعض الشىء، مر هذا الأمر بهدوء، ولكن بذلك اختفى موضوع الدفاع عن جريدة "برافدا" نفسها، أمام تساؤلات القراء المدققين. وقد ذهبت المعركة فى سبيل السرية وعدم الإعلان عن السر بعيدا إلى درجة أن ذلك كان يدعو البعض إلى الابتسام، أما الآخرون فلم يكن هناك مجال للضحك بالنسبة لهم. فعلى سبيل المثال، قبل السفر من ميناء نيقولاييف تم إلغاء سفر بعض العسكريين فى المهمة بسبب ذكرهم لاسم البلد التى يسافرون إليها فى خطاباتهم لذويهم. لذلك كان تبادل كتابة الخطابات له سمة خاصة: "لا تتم كتابة أى شىء يفضح اسم البلد التى سافرت إليها". ولكن كان يحتوى كل خطاب على صور تذكارية لمناظر أهرام الجيزة وأبو الهول الكبير.

لم يكن يوجد روس فى مصر. ولكن كانت ترقد علب فارغة لسجائر بابيروس "بلومور"(٥٦) وسجائر "زفيزدا"، من إنتاج مصنعى أوريتسكى ومورشانسكى للدخان بمدينة لينينجراد، على طريق سير قافلة المعدات الحربية وفى البالوعات (كانت بعض الكتائب تنتظر لعدة أيام حتى يتم تجهيز مواقع الإطلاق). كما كان عسكريونا يقومون بإهداء هذه العلب، ولكن المليئة بالسجائر، للفتيان العرب

---

(٥٦) سجائر سوفييتية الصنع، مميزة الشكل والدخان، ولا يوجد مثيل لها بالدول الأخرى ينتجها مصنع بلومور.

الذين كانوا يحيطون بالعسكريين الروس عند كل توقف. ولكننا لم نكن موجودين هناك. ولذلك السبب بالذات تم تغيير ملابسنا كلنا إلى ملابس مدنية بميناء السفر من الاتحاد السوفييتى. كان يضع الضباط والعسكريون الباقون فى الخدمة بعد فترة التجنيد على رءوسهم قبعات، بينما كان يرتدى العسكريون المجندون بيريهات. أما باقى الملابس فكانت عبارة عن: حذاء، بدلة، أما المعطف الخفيف فلم تكن به علامات مميزة. وعند وصولنا إلى مدينة الإسكندرية ألبسونا كلنا الزى العربى بدون أية علامات مميزة، كما لم يكن معنا أية بطاقات هوية. فى ذلك الوقت كان كل ما يميزنا عن العرب.. وجوهنا الريازانية والطمبوفية(٥٧) والوجوه الأخرى التى كان يمكن جمعها كلها تحت مسمى: إخوة ـ سلاف. كان العرب ينادوننا "روسى" أو"روسى كويس" ولكن فقط بعد أن تمنحهم سيجارة يدخنونها أوشيئًا يأكلونه.

وللتفرقة بين الضباط والجنود المجندين، اتخذت قيادة الكتيبة قرارًا بأن يلبس الضباط الجاكتات خارج البنطلونات، بينما الجنود يدخلون الجاكتات بها. بالطبع كانوا يعرفون وجوه رؤسائهم المباشرين، ولكن كان أحيانا يعتقد أن الجنود الذين بقوا فى الخدمة بعد فترة التجنيد كبيرو السن من ذوى الكروش والشكل العام المميز لهم، وكأنهم جنرالات، أو على الأكثر مقدمون. وفى النهاية كان يتم التحقق من كل حالة محددة. حقيقة كانت طباع الجنرالات مختلفة. فعندما أوقف الجندى ف. ن. خيتروف جنرال الجيش أ. ف. شيجلوف ـ النائب السابق للقائد العام لقوات الدفاع الجوى للاتحاد السوفييتى، كان رد فعل الأخير جيدا وشكر الحارس على حرصه. ولكن كانت توجد ردود أفعال أخرى مهووسة تبين أن الجنرال جنرال، حتى فى إفريقيا.

كنا نعرف أخبار موسكو من الجرائد ومن الإذاعة، ولكن لم تكن تذكر بها أية أخبار عنا. وكانت غالبية الضباط تضبط يوميا أجهزة استقبالها فى الساعة ٠٠: ٢٠ على موجة إذاعة تل أبيب، وتستمع إلى نشرة الأخبار باللغة الروسية. وقد علمنا من تلك الأنباء الوقائع الحقيقية الخاصة بحياتنا، وعن وصول وسائل النقل إلى ميناء الإسكندرية، وعن المعارك، وعن طلعات الطائرات، والحوادث التى

---

(٥٧) من مدن ريازان أو طمبوف.

وقعت لقواتنا، وكذلك عن أشياء كثيرة أخرى. ويجب هنا أن أقول بأن فعلا تلك المعلومات كانت تتطابق تقريبا دائما مع الحقيقة، ولكننا كنا نترك التفسير الإيديولوجي للأحداث للنقاد بعد غربلة ما هو غير ضروري من الذاكرة.

كان على، بميناء الشحن، المشاركة فى استقبال القوافل القادمة بالمعدات وبالأفراد، عند السفر من روسيا، وكذلك فى استبدال ملابس العسكريين وشحن وسائل النقل البحرية، التى كان عددها ١٦ قطعة، إذا لم تخنِّى الذاكرة. كانت أول قطعة انصرفت هى "روزا لوكسمبورج" وآخر واحدة هى "دميترى بولويان". فى خلال هذين الأسبوعين وفى خلال كل المدة التى استغرقتها المهمة بمصر، كان لدى حلم واحد، مثل تقريبا الغالبية ـ النوم. قامت بعمل اللازم لسفرنا فرقة عمل بهيئة أركان الحرب العامة لقوات الدفاع الجوى، حيث تم تكوين الوحدات والفصائل. وكانت توجد لدينا الكثير من التساؤلات، حيث كان عدد الأفراد كبيرا.. والرؤساء أيضا، خاصة أن الكثيرين كانوا يلتقون ببعضهم بعضًا لأول مرة. تم وضع البرنامج الزمنى للسفر، ولكن تمت مخالفته. أذكر مراحل وأحداث الشحن. لم يكن المساعدون الذين يقوموا بهذا العمل يريدون فهمنا نحن العسكريين، ولكننا كنا نقوم بكل ما هو ممكن وغير ممكن، وفى النهاية شحنا كل شىء، مخالفين متطلبات القوانين البحرية. فقد نقلنا شحنات يحظر نقلها مع بعضها: صواريخ، بنزين، كحول، ومواد أخرى سهلة الاشتعال، وكل ذلك فى عنبر واحد. كانت توجد سيارات فقط على سطح السفن. كنا رسميا ننقل معدات زراعية. وبالإضافة إلى ذلك، فبعد الرحلة الأولى، اصطدمنا بمشكلة أخرى. وفيما بعد اندهشنا كلنا من أننا لم نفكر فى ذلك من قبل، حيث إن ذلك كان مجرد فيزياء تلاميذ الصف السادس. لقد أثر الفرق فى درجة الحرارة على الفرق فى حجم السوائل. ففى ميناء الشحن كانت تصل درجة الحرارة إلى ـ ١٠ مئوية، أما فى ميناء الوصول فكانت تصل إلى +٢٨ درجة مئوية. وكانت النتيجة هى أن السوائل خرت بغزارة من جراكن البنزين والبراميل ومن الأوعية الأخرى: البنزين، الكحول، ووقود الديزل. لذلك فعند شحن سفن النقل التالية، قمنا بتفريغ ١٠ـ ١٥٪ من السائل من حجم كل وعاء. وكان أصعب ما واجهنى فى ذلك الموقف هو أنه كان يجب تفريغ ٥٠ لتر كحول من برميلين، حيث كنت سأصبح مسئولا عنها شخصيا. كانت الصعوبة تتمثل فى ضرورة أن يتم ذلك بدون أن

يلاحظه أحد، وإلا فإننا لن نجد البراميل بعد ذلك. وكان يصعب على التخلص منها، ولكن أين يمكن إخفاء هذه الخمسين لتر كحول التعيسة؟ كان شربها محظورا تماما، كما أن الفكر السليم يقول إنه يمكن لهذه الكمية أن تؤدى إلى فقد أكثر من ١٠٠ فرد وعيهم. لم تكن موجودة لدى جراكن احتياطية. عثرت على المخرج فى محل الأدوات المنزلية المجاور: ١٦ جركن من البلاستيك سعة كل منها ٣ لترات و٥ حقائب أنقذتنى فى هذا الموقف. قمت بسحب الكحول الزائد إلى الجراكن باستخدام خرطوم وتفريغ الهواء. وقد تركت ٣٠ لترا منها للرفاق المحليين للذكرى، وأخذت ٣ منها معى على السفينة. كان كحولاً جيدا جدا، فقد كان أحسن دواء ومنوم فى فترة العواصف والهياج، سواء كانت بحرية أو نفسية.

وفى النهاية أكملنا شحن كل شىء. وقد تجمع البحارة مع بعض، فأخلوا عدة قمرات لبعض من الضباط، أما باقى الضباط فقد نزلوا فى عنابر السفن. واجهت أول سفينة نقل عاصفة قوتها ٩ درجات. وهنا تم تفريغ المعدات بسرعة، ولكن الحالة العامة لم تتحسن لفترة طويلة. كما لم تنجح فى تسليتنا لا الأفلام السينمائية، التى كان يتم عرضها هنا فى العنابر، ولا روايات البحارة القدامى عن كيفية التصرف فى وقت العاصفة. كانت من سمات الرحلة أن قباطنة سفن الشحن لم يكونوا يعلموا كل المسار. فقد كانوا يفتحون الحافظة رقم١ عند خروجهم إلى البحر الأسود، والحافظة رقم ٢ عند عبورهم البوسفور والدردنيل، حيث كان مكتوبًا فيه أن ميناء الهدف هو ـ مدينة الإسكندرية. وكان يوجد لكل قبطان ربان ـ مرشد. ضمت قمرتنا أربعة أفراد، منهم ٢ من ممثلى الفرقة، من القسم الخاص وهيئة أركان الحرب والقسم السياسى وأنا. طار الوقت بسرعة بسبب الحديث وجركن كحول. فى المساء، عبرنا مضيق البوسفور. دعانى ممثل القسم الخاص كارفتسوف فاسيلى ألكسندروفيتش إلى سطح السفينة، حيث ارتبطت معه بصداقة أكثر مما مع الباقين. روى لى أنه منذ عام مضى حدث أن أحد بحارة سفينة حربية قد قفز فى الماء عند عبورها مضيق البوسفور، فوصل إلى تركيا ومنها إلى الغرب. كان واجبنا يتمثل فى منع تكرار ذلك، فإذا حدث.. يمكن أن يكون الحل هو مسدس طراز مكاروف. وهكذا تجولنا على سطح السفينة ولم نسمح لأحد بالخروج من العنبر فى ذلك الوقت. جاء قارب بمرشد بحرى. ضيفناه على سطح السفينة مباشرة. كان يوجد على الصينية كأس

كونياك وشطائر السمك والكافيار. تحدث مع القبطان، وتأكد أن معه المستند المطلوب (يخيل لى أنه كان يسمى الترخيص الأزرق) للسماح له بالمرور بمضيقى البوسفور والدردنيل بنفسه، بدون مساعدة، فانصرف.

كان منظر قوارب النزهة وأضواء إسطنبول فى المساء والساحل جميلاً جدا. عبرنا فى الصباح مضيق الدردنيل ودخلنا إلى بحر إيجه. كانت الجزر اليونانية "ليسبوس" و"خيوى" و"تينوس" وغيرها ظاهرة على اليمين وعلى اليسار، وهى قد جعلتنا نتذكر أساطير وقصص اليونان القديمة والأبطال اليونانيين القدامى- كان كل فرد يفكر فى قرارة نفسه ـ ما هو الإنجاز الذى سوف نحققه، ومن أجل أى شىء؟". دخلنا إلى البحر الأبيض المتوسط. لم نقابل فقط سفنًا مدنية، ولكن حربية أيضا. أصبح الوضع مقلقا، وأصبح الموقف متوترا. فقد كان يمكن للأمريكان أن يفكروا كما يلى:"لماذا نسمح بوصول المعدات الحربية إلى المواقع.. لكى تقوم الصواريخ بإسقاط طائراتنا؟.. من الأفضل إغراقها هنا". كأنما كنا نقرأ أفكارهم. فها هو"بيريسكوب" غواصة يظهر. دار جدل بيننا، هل هى إحدى غواصاتنا؟ وقد اتضح فيما بعد من حديثنا مع جنود غواصاتنا، أنهم كانوا يرافقونا، كما كانت ترافقنا غواصات الأمريكان أيضا. عامة كان البحر الأبيض المتوسط مليئًا بالسفن والطائرات الحربية السوفييتية والأمريكية. بل كان بعض طيارى القوات الجوية الأمريكية وطيارينا يعرفون وجوه بعضهم بعضاً.

وصلنا إلى مدينة الإسكندرية. قاموا باستبدال ملابسنا فى الميناء. جاء عمال الميناء بضجيجهم ولغوهم (يعرف الكثيرون مزاج العرب)، ومن الأفضل رؤية ذلك مرة. لقد جمعهم رؤساء الفرق خلف بوابة الميناء من بين العاطلين. كنت قلقا فى أثناء مراقبتى لطريقة إنزال الشحنة بضجيج وفوضى. وها هو رئيس الفرقة يصرخ فى أحدهم ثم يضرب الآخر، فأصبح الضجيج أقل، والنظام أفضل. كان ذلك غير معتاد لى، حيث يوجد فى موانينا توافق بين فرق عمال الميناء، وهم يفهمون بعضهم بعضًا بالإشارات، وحركات الأيدى، ومن كلمة واحدة تقال، ولم يكن عملهم مشابها، بأى حال من الأحوال، لهذه الفوضى. ولكن تم إنزال المعدات، بصفة عامة، بنجاح. وأخيرا، ظهرت هنا شبكات التمويه التى بلون الرمال. تحركنا فى قوافل فى اتجاه القاهرة. كانت تسير "شيلكات" ضمن كل قافلة وهى

فى حالة استعداد للقتال (فى مقدمة القافلة، وفى وسطها، وكانت وحدة صواريخ تنهى القافلة). تم إعطاؤنا معلومات: "إذا كانوا لم يقوموا بإغراقنا، فسوف يقصفوننا فى أثناء سيرنا". ولم يكن من قبيل الصدفة، أن أمر أحد القادة طاقم "شيلكا" بإطلاق النيران على هدف يطير على ارتفاع منخفض على طريق القاهرة ـ الإسكندرية. كان الرادار يبين أن ارتفاعه ٥٠ مترًا. الليل المصرى ـ ظلام دامس. كان يسمع صوت دوران محرك على بعد. ظهرت علامة على شاشة الرادار تبين اقتراب الهدف بسرعة منخفضة. كان هناك تردد كبير، ماذا نفعل؟، ثم تم اتخاذ القرار ـ "تدمير الهدف" أطلقت إحدى وحدات "الشيلكا" النيران. تبين أن سيارة نقل من طراز"كراز" كانت تسير فى هدوء على التل المجاور. ولحسن الحظ لم نصيب الهدف.

بدأنا فى احتلال مواقع القتال الخاصة بنا. كان قد تم بناؤها لنا مسبقا، بمشاركة ممثلينا. ولكن لم يكن كل شىء جاهزا عند وصولنا. بدأت النوبات الحربية. طيران العدو يقوم برحلات تجسس للتعرف على نظام الدفاع الجوى للقاهرة، وكنا نراقبه فى صمت. وفجأة تقرير بمركز قيادة اللواء. البعد... السرعة... الارتفاع... لا يجيب على السؤال" إنه أحدنا". كان المقدم رجياوسكى إ. م. يناوب رئيس مركز القيادة. تأكد مرة أخرى من نوبتجى قاعدة" القاهرة ـ غرب" (مركز قيادة مشترك) هل توجد طائرات لهم فى الجو. جاء الرد بأنه لا توجد لهم أية طائرات فى الجو. صدر عندئذ الأمر: "تدمير الهدف". مرت ثوان من القلق فى انتظار نتيجة إطلاق النيران. وها هو أخيرا تقرير قائد كتيبة المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات ـ "تم تدمير الهدف" ـ الاستهلاك ـ اثنان (أى أنه تم استخدام صاروخين من أجل إسقاط الهدف). فور تقديم التقرير، يحضر نوبتجى قاعدة الطيران "القاهرة ـ غرب" جريا والدموع فى عينيه ويقول إن هذه كانت طائرتهم. ولكن كان ذلك متأخرا. وبلا شك كان ذلك الدرس له نفع. فقبل ذلك كان كثيرا ما يخالف طيارو القوات الجوية المصرية مبدأ ضرورة الإعلان عن وقت ومسار رحلة الطيران، بينما كان يتبع عندنا نظام دقيق لذلك البيان، حيث كان يتم إخطار مراكز قيادة وحدات جنود الصواريخ والطيارين والرادارات به مسبقا، وكان يجرى الالتزام به بدقة. وبالإضافة إلى ذلك، كان يوجد جهاز استقبال وإرسال بكل طائرة، وجهاز استفسار مركب فى كل محطات

بيان الأهداف والاستكشاف. وكان يتم تغيير هذا النظام للتردد المشفر مرتين فى اليوم، كل ١٢ ساعة. بينما كانت توجد بطائرات قوات الطيران المصرية أجهزة إرسال واستقبال من طراز "كريمنى ـ ١" التى تم استبعاد استخدامها من الأسلحة، وتم استبدالها بطراز "كريمنى ـ ٢". لذلك فإن الطائرة إل ـ ٢٨ التى كانت تستعد للهبوط بمطار "القاهرة ـ غرب" وعلى متنها طاقمها لم ترد على سؤال جنود راداراتنا. فتم إسقاط الطائرة وقتل طاقمها. وبعد ذلك، كالعادة، يجرى البحث عن المذنبين ومعاقبة غير المذنبين. نال كل المذنبين "ما يستحقونه". فنال المقدم إ. م. رجياوسكى اللوم من وزير دفاع الاتحاد السوفييتى لعدم مناسبته الكاملة للخدمة. ثم بعد ذلك حصل على وسام رسمى وعلى رتبة عقيد، ولكن تمت إحالته إلى الاحتياط، وهو ما زال يحمل لوم الوزير، حيث لم يتم رفعه من ملفه. كانت هناك أيضا محاولات لإسقاط طائرات بواسطة مقاتلين مسلحين بمجموعة مدفعية وصواريخ مضادة للطائرات "ستريلا ـ ٢". فبالقرب من الإسكندرية، تم إطلاق صاروخ "ستريلا" على طائرة ركاب. أصيبت تربينتها، ولكن نجحت الطائرة فى الهبوط على الأرض. ثم تم إطلاق النيران على طائرة سو ـ ٧ ب يقودها طياارون مصريون وقد تمكنوا من الهبوط ولو ببعض التلفيات. وبعد ذلك تم طباعة ألبومات مصورة صغيرة بها المعطيات الفنية التكتيكية وهيئات طائراتنا وطائرات العدو. وتوقفت حالات إطلاق النيران على طائراتنا.

أصبحت الآن النوبات الحربية تسير إلى حد ما بشكل طبيعى. ونظرا لأنه لم يكن هناك أفراد نوبتجية عمليات نظاميون، وقد سبق أن تحدثت عن ذلك، فقد اضطررت أنا ـ ممثل القسم السياسى ـ إلى القيام بالنوبات بمركز القيادة، فى البداية كنت أقوم بذلك كضابط أمن رحلات طيراننا، ثم بعد أن اكتسبت الخبرة أصبحت أقوم بأعمال نوبتجى العمليات. كان مركز القيادة بقاعدة الطيران "القاهرة غرب" عبارة عن بناء كبير عميق من الخرسانة. وكانت اللوحات الطبوغرافية فى كل مكان. وكان يوجد خلفها جنود اللوحات يضعون سماعات ويمسكون بأجهزة تسجيل اتجاهات الطائرات بأيديهم. كانوا يتلقون المعلومات عن الوضع فى الجو من محطات الرادار ومحطات استكشاف وتحديد الأهداف، ويرسمون مسارات الطائرات التى فى الجو على اللوحة. كان كل ذلك يتم أمام عينى، وكنت أنظر كذلك إلى الجهاز المبين للشكل العام فى الجو، وأتأكد من

الوضع. كنت أراجع كل الملاحظات التى ترد من الطائرات مع بيانات طيران الطائرات ومساراتها وأوقاتها. كان الغرض الرئيسى من ذلك، هو التفرقة بين طائرتنا وطائرات العدو التى كانت تمثل الهدف. وفى حالة الضرورة كنت أعطى كتائب المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات الأمر "استعداد ـ ١"، أما الأمر بالتدمير فكان يعطيه قائد الكتيبة أو مساعده الذان يكونان موجودين بمركز القيادة بجانبى أو فى الحجرة المجاورة، طوال ٢٤ ساعة. وكان يوجد لدى اتصال هاتفى مباشر مع هذه الحجرة.

يتسبب عمل نوبتجى العمليات فى توتر كبير، فهو يتطلب تركيزًا تامًا، وتماسكًا والقدرة على تحمل المسئولية. ولذلك كان المرء يشعر بعد انتهاء النوبة بإرهاق شديد، كما تكون أعصابه مشدودة تماما. كانت الطائرات الإسرائيلية تقوم بصفة مستمرة بطلعات طيران تدريبية فوق سيناء بالقرب من قناة السويس التى تبعد ١٤٠كم فقط. وكانت تكفى لطائرات "الفانتوم" التى تطير بسرعة ٢٤٠٠كم/ ساعة، أى ٤٠ كيلومتر فى الدقيقة، ٤ دقائق فقط من الطيران للوصول إلى القاهرة. وكانت دائما ما تنفصل طائرات تجسس عن تلك الطائرات التى تتدرب فوق سيناء. وفى إحدى المرات، مرت طائرتا "فانتوم" على ارتفاع ٢٠ ـ ٢٥ مترا من الأرض فوق مطار "القاهرة غرب". كان المقدم ل. د. تاراسوف قد انتهى مع ضباط خدمته بسلاح الصواريخ من درس "خصائص استخدام المعدات فى ظروف مصر". كنت حاضرا لهذا الدرس. وكنا نستعد للذهاب إلى المطعم، فسمعنا أحدهم يصرخ: "طائرات فانتوم". نظرنا إلى أعلى فرأيناها تطير فى اتجاهنا مباشرة. بقى البعض منا واقفين فاتحين فاههم، أما البعض الآخر، فقد انبطحوا بأنوفهم على الرمال. دوت طلقات إطلاق النار. كان ذلك طاقم "الشيلكا" الواقفة بجانب مركز القيادة، أطلق مجموعتين قصيرتين من الطلقات على الطائرات بينها فترة توقف من ٣ إلى ٥ ثوان. تم تنفيذ ذلك طبقا للتعليمات. ولكن المجموعة الأولى مرت أمام أنف الطائرات، والثانية خلفهم. خرج الرقيب قائد الطاقم من المدرعة وبدأ فى البكاء من الاستياء. ثم تحدثت معه فى ظروف هادئة، لم يكن سبب بكائه الوسام الذى سوف يناله عن إسقاط طائرة، كما لم تكن المائتا جنيه ـ كان يتم منح مكافأة مالية (كان ذلك يحدث فى الحرب الوطنية العظمى، ولكن لسبب ما يفضل المحاربون القدامى عدم تذكر ذلك)، ولكنه

ببساطة كان مستاء من أنه كان يمكنه إسقاط طائرة، ولكنه لم يفعل ذلك. كانت ستكون هذه هى أول طائرة يتم إسقاطها فى سماء مصر. انطلقت الطائرات بأقصى سرعة، وقد غطى دخان محركاتها السماء، بالفعل، كما لوكان قد تم تزويد خزاناتها بقش رطب. ثم بعد أن اختفت، دوت طلقات مدافع. كان جنود مدفعجية الدفاع الجوى يطلقون نيرانًا، حتى لا يتم بعد ذلك توبيخهم لعدم تدخلهم.

كان ينزل بمركز القيادة، فى نفس الوقت، كل من طيارى القاعدة الجوية، ونحن ـ جنود الصواريخ ـ، وكتيبة اتصالات الجيش العربى، وآلاى الرادار. كان يوجد عند أحد الحوائط مكاتب ومبينات نوبتجيات عمليات هذه الوحدات، وعند الحائط الآخر ـ على الحائط بأكمله ـ حوالى ٤٠ مترًا ـ لوحات طبوغرافية للموقف العام فى الجوولوحة حربية ذات مقاس كبير. كنا نتعامل مع الضباط المصريين، فى الأوقات الأقل توترا، عن طريق مترجم، ثم بعد ذلك بدون مساعدته. وكان جنود اللوحات يتناقشون مع زملائهم العرب خلف اللوحات. لم نكن نسمع ما كانوا يناقشون فقد كانت اللوحة الشفافة المصنوعة من الزجاج السميك تسمح فقط بالرؤية وليس بسماع الحديث. كان الحديث يدور خلف اللوحات تتخلله الابتسامات. ولكننا كنا نرى أن عليهم أن يتدربوا مع التعاون. وعندما بدأ العرب، بعد عدة أيام، يستخدمون بعض الكلمات المختارة، التى لا توجد إلا فى اللغة الروسية، من الكلمات الخارجة، والعديد من التعبيرات الخاصة بها، فهمنا أن التعاون قد قام. الحرب عمل الرجال، فلم تكن توجد سيدات بيننا، وكانت هذه الرتوشات من جانب الجنود العرب تلطف من الوضع العصبى المتوتر. كانوا يتعاملون معنا، نحن ضباط مركز القيادة، باستخدام كلمة "ميستر" وبعد ذلك الاسم الأول. وفى بعض الأحيان كان يمكن أن تجىء صفة بعد كلمة ميستر "تجعل أذنيك تحمر"، ثم يتبين أن أحد الزملاء بمركز القيادة قد علمه إياها. لذلك، فعندما قابلنى فى إحدى المرات نقيب مصرى قائلا: "أهلا ميستر..."، بادلته التحية حيث أدركت من علمه هذه الكلمة، ثم شرحت له المعنى الحقيقى لهذه الكلمة باللغة العربية، وبينت له أنها تعادل كلمة "كاسورة" (مكسور، مريض...).، وقمت بوضع يدى على جبهتى وأدرت كفى ٩٠ درجة. فهم جيدا ما أعنيه.. وبدأ يضحك. هكذا تعلمنا لغتهم، وتعلموا هم لغتنا، فى مركز القيادة. أما

فى المدينة، التى زرناها فقط بعد ٦ شهور من حضورنا إلى مصر، بعد انتهاء المعارك، فقد كانت اللغة مختلفة. وسوف أحكى عن ذلك فيما بعد.

بانتهاء نوبتجيتى، بعد ليلة لم أنم فيها، ذهبت للراحة من الساعة ٩:٠٠ إلى ١٣:٣٠، أى لمدة أربع ساعات ونصف. كان المخبأ الذى ننام به قريبا من مركز القيادة، وأكثر قربا من ممرات الطيران والهبوط بأرض المطار. كان عبارة عن مخبأ نصفه مدفون فى الأرض ومبنى من الخرسانة يقسمه حائط وله مدخلان. كان يسكن أحد نصفيه القائد ونوابه، بالإضافة إلى رئيس الشئون الإدارية. وكان يسكن معهم أيضا رئيس القسم الخاص باللواء الرائد يوشوتن ف. ك.، وهو رجل مخابرات قديم حكيم، وذو خبرة، وقد شارك فى الحرب الوطنية العظمى. وكان يقطن النواب الجانب الذى خلف الحائط ـ نائب رئيس أركان الحرب، ونائب رئيس القسم السياسى، ومهندس (كنا نطلق عليه "كيركا ـ موتيجا") ومهندسان خدمة التسليح، وكذلك نائب رئيس القسم الخاص الملازم الأول، وأنا لن أذكر اسمه. كان كل المهندسين قد اجتازوا مرحلة الشباب، فكان يزيد عمرهم على الأربعين، وكنت قد بلغت الثلاثين فى ذلك الوقت.

وهكذا رقدت أستريح. ولكن قبل ذلك بللت كلتا الملاءتين بالماء، وعصرتهما قليلا، ثم فرشتهما على الفراش، ثم قتلت الذباب الموجود، على قدر الإمكان، ورقدت للنوم. بدأت طلعات الطيران على ممر الطيران الموجود على بعد ٢٠ مترًا من النافذة، وكانت أحيانا أزواج من الطائرات تطير معا. كان كل ما حولى يهدر ويزمجر. ولكن جسمى الشاب نال ما يريده، واستيقظت من هزات أحد المقيمين بسكننا، فقد حان وقت تناول الغداء، الذى كان يعده طباخنا. أعد الطبق الأول ثم الطبق الثانى والحلو. الطبق الأول ـ حساء دجاج، الثانى ـ قطعة من الدجاج الهولندى برائحة السمك، والحلو شاى ومهلبية أو فاكهة، بصفة عامة، برتقال. كان المحاربون المجندون يسألون: "أيها الرفيق النقيب، قل لنا، هل للدجاج فى هولندا عبارة عن أجنحة فقط، ألا يسير على الأرض؟". فقد كان الطباخ يقسم الأنصبة، وكان يعطى أوراك الدجاج للضباط، والأجزاء الأخرى للجنود. ولم نتمكن من تغيير هذا "التقليد". لم تكن توجد لدينا رغبة فى الأكل، فى الجو الحار، ولكننا كنا نجبر نفسنا على ذلك. كنا نضطر للأكل بسرعة جدا. فإذا كنا

نتأخر دقيقة أو دقيقتين، كان الذباب يغطى الحساء مكونا عدة طبقات، حيث إن أعداده هناك ضخمة جدا. والفرق بين الذبابة العربية وذبابتنا يتمثل فى أن ذبابتهم أكثر وقاحة، فهى لا تتفاعل مع حركات طردها، أى أنه يمكن التخلص بها فقط بطريقة واحدة - ضربها. وهى تقرص الإنسان فى أى وقت من اليوم ومن العام. أما ذبابتنا فهى تقرص فقط فى الخريف، لذلك ولد قول فكاهى فى مصر: "عندما سأعود إلى الاتحاد السوفييتى، سوف أمسك بذبابة وأقبلها". كنا نحارب يوميا حشرات البق، وكان ذلك يتم باستخدام كاوية اللحام. كنا نحرق الفراش بحماس خاص، وإلا فإنه لن يمكننا النوم. كانت مختلف الحشرات تخرب استعدادنا للقتال، حيث إن المقاتل المقروص الذى يعانى من نقص النوم - مقاتل سيئ. كنا نقوم بعملية الغسيل مرة فى الأسبوع، فكنا نسخن الماء بواسطة سخانات كهربية، ونجمع كل ملابسنا، ونتناول الشرابات "الرابضة" بالركن، أو تلك المعلقة فى المخزن تحت السقف، ونقوم بغسلها بود لكى يكون منظر المقاتل - الأممى الأوروبى ملائما.

كنا نشاهد معيشة ضباط وجنود الجيش المصرى والعلاقة بينهم، ليس فقط بمركز القيادة، ولكن أيضا فى أماكن أخرى. كانت الطائفية تفرق بينهم. فكان لكل ضابط جندى مراسلة. فإذا ذهب الضابط إلى دورة المياه، يكون وراءه جندى المراسلة ممسكا بالصابونة والمنشفة وبمفتاح دورة المياه. ينتظره، ثم يناوله الصابونة والمنشفة ويوصد قفل دورة المياه المخصصة فقط للضباط. أما الجنود فكانوا يذهبون إلى الصحراء لقضاء حاجتهم. لذلك كان المشى قرب مكان انتشار القوات خطرا. كان ٧٠٪ من سكان مصر، فى ذلك الوقت، مصابين بأمراض الأمعاء المزمنة. كان يحمينا من ذلك "كلوريد الجص"، ولكنه لم يكن موجودا لديهم. كانت تحضر طعام العرب نفس السيارة التى تحضر الرمال أوالأثاث. وكانت أرغفة الخبز تلقى فى صندوق السيارة بدون فرش أى شىء تحتها. كان يلقى أحد الجنود الخبز من صندوق السيارة بيديه وأحيانا برجليه إلى باقى الجنود، الذين كانوا يلتقطونه فى الهواء، بينما كان جندى آخر يسكب حساء الفول فى آنية الجنود. كان ذلك يتكرر فى الإفطار والغداء والعشاء. وإذا لم يعجب شىء ما الرقيب الذى يراقب ذلك، كان يأمر الجندى بارتداء المعطف العسكرى، وأحيانا كانت تلقى فوقه بطانية، وكان يتم إجبار المذنب على السير بخطوة الأوزة فى

الشمس، تحت درجة حرارة تزيد على ٥٠ درجة. وكان يستمر ذلك العقاب أحيانا لمدة طويلة. وعند ظهور ضابط روسى كانت هذه السخرية تتوقف.

كنا قد أحضرنا معنا عدة أفلام سينمائية، ونقوم بعرضها، كلما أمكن ذلك. وقد عرضنا فيلم "شمس الصحراء البيضاء" أكثر من عشر مرات، وكان الجنود يطلبون عرضه مرات أخرى. فيبدو أن كلاً منا كان يشعر بأنه جندى الجيش الأحمر "سوخوف"(٥٨) الذى كان يقاتل فى سبيل قضية عادلة فى هذا العالم الظالم. كنا نحفظ عن ظهر قلب جمل حوار الأفلام، وكنا نسمعها فى الأحاديث بيننا، بل إن الكثير من الخطابات بدأت بكلمات سوخوف. كنا نشتاق إلى وطننا، وإلى الطبيعة الروسية، ونشتاق إلى الطعام الروسى والخبز الأسود والسمك المملح، وكذلك إلى الفودكا الروسية. لم تكن هذه الأطعمة موجودة هناك، لذلك انتشرت فكاهة قبل العودة من مصر: "كيف يجب أن تستقبل الزوجة الضابط الروسى؟" تكون فى إحدى يديها كأس فودكا، وفى الثانية قطعة من الخبز الأسود وذيل سمكة مملحة، وذيل ثوبها بين أسنانها.

كما كان الشباب يشتاقون للنساء، كانت الطبيعة تطالب بحاجتها. فعلى سبيل المثال، ذهب المقدم ريجيأوسكى عبر المدينة إلى هيئة أركان الحرب الكتيبة ومعه صور مراجعة نتائج المعركة الجوية. وفجأة أمر السائق بالتوقف وهم يسيرون بأقصى سرعة. داس السائق على الكابح بعنف، اعتقادا منه بأن شيئًا ما قد حدث. كان يقوم ريجيأوسكى بمتابعة سيدة جميلة بنظره تسير على الرصيف، ثم مسح على جبهته وأمر السائق بمواصلة السير. هكذا كنا نتعامل مع النساء. ومن كان يحاول الذهاب أبعد من التأمل كان يدفع ثمن ذلك غاليا. فقد كانت كل من المحكمة العسكرية واللجان الحزبية تقوم بحماية أخلاق المحاربين السوفييت، وكان القسم الخاص أكثر قلقا عما يمكن أن يكون قاله أكثر من اللازم فى أثناء التعامل. وقد كان لذلك ما يبرره، فى ذلك الوقت. وقد تلقى أربعة من الضباط اللوم من الحزب، وفى العمل، لمحاولتهم الذهاب إلى المدينة لزيارة النوادى الليلية. وعلى الرغم من ذلك كان حب الاستطلاع ينتصر، حتى على أبلغ المحظورات. فقد قررنا نحن - ثلاثة - زيارة نادٍ ليلى، بعد انتهاء المعارك، لمشاهدة "رقص البطن".

---

(٥٨) بطل فيلم شمس الصحراء البيضاء.

يقع النادى الليلى بالجيزة، بالقرب من الأهرامات. إضاءة خافتة. نجلس إلى مائدة. أمامنا خشبة المسرح مرتفعة حوالى متر عن الأرض، ترقص عليها فتيات. كانت "المينى جيب" موضة فى ذلك الوقت. جلسنا نحتسى الكونياك العربى "أوبرا"، وأكلنا طعامًا ما. كانت كل أنظارنا موجهة إلى الراقصات. فجأة تقفز واحدة منهن من فوق المسرح وتجلس على ركبتى، صعقت. فأولا لم أكن أتوقع ذلك. وثانيا، انتعشت طبيعتى، وجلست ما بين الحياة والموت. وفى ذلك الوقت تطلب هى من النادل، الذى اقترب بسرعة، زجاجة شمبانيا فرنسية وكافيار وبعض الأطعمة الأخرى الفاخرة. تقول لى شيئًا ما وهى تتحرك على ركبتى إلى أن حصلت منى على ما تريد. وعندما شعرت بذلك، انتقلت لتجلس على مائدة خالية. أحضر النادل أخيرا كل ما تم طلبه، فطارت إلى الهواء ثلاثون جنيهًا ـ أى ثلث مرتبى الشهرى. علمتنى تلك المصاريف غير المخططة، وأيضا غسيل الملابس الداخلية، ألا أقوم مرة أخرى بزيارة هذه الأماكن. ولكن تم إرضاء حب استطلاعى.

عامة، كما تبين، فإن الأغنياء، خاصة فى خلال صيام شهر رمضان، عندما يكون ممنوعًا تناول الطعام منذ طلوع الفجر إلى غروب الشمس، يستخدمون النوادى الليلية لمتعتهم. ففى المساء يأكلون ويشربون، ويستريحون فى النهار. والله راض، وهم سعداء. من الصعب جدا على البسطاء وعلى الجنود تحمل ذلك الصيام، لذلك فقد سمحت السلطات الدينية للعسكريين، الواقفين فى الخطوط الأولى للجبهة، بعدم اتباع هذه الشروط فى وقت الصيام. وقد سمحوا بذلك أيضا للطيارين، حيث إنه كانت قد وقعت حوادث وفقد الطيارون وعيهم فى أثناء الطيران.

أفكار بصوت عالٍ لرقيب أول شاب بالحرس

أ. إ. ميتروخين

تنتشرالآن موضة إعادة تقييم كل شىء بما فيه "ديوننا المستحقة" وواجباتنا الأممية. لن أقوم بالحكم على الآخرين، ولكنى أرغب فى الحديث عن الواجب الأممى، الذى كان على تنفيذه، أنا الرقيب الثانى بالحراسة ميتروخين ألكسندر إيفانوفيتش.

بالطبع، لم نكن نعرف، نحن الجنود والبحارة المجندون، عن الإجراءات السياسية والعسكرية التى اتخذتها رئاسة البلد لتقديم المساعدة للشعب المصرى، ولكننا كنا مؤمنين تماما بأن ذلك ضرورى.

فأولا، لقد ساعدنا الشعب العربى الصديق على صد العدوان الخارجى.

وثانيا، لقد قوينا الحدود الجنوبية لوطننا، حيث إن الأسطول السادس الأمريكى حصل على "إقامة دائمة" فى البحر الأبيض المتوسط. وقد حاول كل منا أداء واجبه بأمانة، ليس فى سبيل المكافآت، حيث إنه كان فاهما تماما "أنه لا يمكنك الدخول إلى دير غريب بنظامك الخاص". كيف حاربنا وقمنا بطلعات الطيران وقمنا بالاستعداد لدخول الطائرات فى معارك حربية، من الأفضل أن يتحدث عن ذلك آخرون أعلى منى من حيث المراكز والرتب. فأنا أرغب فقط فى رواية بعض ما شاهدته عيناى، وما شاركت فيه، ولا أدعى الحقيقة فى أوج حالاتها.

بعد تخرجى فى "مدرسة الخبراء فنيى الطيران" انضممت لآلاى حراسة الطيران البحرى بأسطول البحر البلطيقى الحاصل على العلم الأحمر مرتين. كنت أعرف منذ شهر مايو عام ١٩٧٠ أن فتياننا موجودون فى "مهمة خاصة"،

ولكنى لم أكن أعطى ذلك أهمية خاصة. ولكن فى أحد أيام شهر سبتمبر، تم استدعائى وإبلاغى بترشحى للسفر إلى مصر، وطلبوا منى ملء حزمة من الاستمارات، وبحزم من حروف طباعة لسبب ما. وقد اضطررت إلى أخذ بدلة رئيس السرب من أجل الصور المرفقة ببياناتى الشخصية، حيث إن مقاسه كان مناسبا. بعد ذلك بدأت سلسلة استدعاءاتى إلى القسم الخاص. عامة، تكررت الأسئلة وكانت كثيرة ومتنوعة. كان على استكمال الإجابات وتدقيقها. وفى إحدى المرات وجه إلى سؤال: "ألا تخاف من الذهاب، فإنهم يطلقون النيران هناك؟" بماذا يمكن أن أجيب؟! بأنه من المثير الذهاب إلى بلد غريب مثير، وأننى قد أقسمت يمين الخدمة بالجيش، أو أن أهلى ينتظرون بالمنزل. سمحوا لى بالتفكير، ولكنهم قالوا لى عندما كنت منصرفا عند الباب:"أنت مناسب لنا. لذلك فخذ فى الاعتبار أنه لا يوجد من يمكنه أن يسافر بدلا منك". بذلك كان قد تقرر موضوع المهمة الخاصة.

سافرنا فى نهاية يناير عام ١٩٧١ إلى القاهرة ـ غرب حيث رأينا آثار قصف الطائرات الإسرائيلية، وأحسسنا بألم مر بسبب فقد رفاقنا فى القتال.

كانت محطتنا التالية فى أسوان. بدأ هناك عمل نشيط فعلاً. عشنا فى ظروف مريحة نسبيا، مختلفة تماما عن حياة محاربى الدفاع الجوى، فقد كان يوجد سقف جامد فوق رءوسنا وليس أكياسًا من الرمال، والكثير من الماء، ذلك الماء الذى تنساه تماما عندما يكون كثيرا، بكميات غير محدودة. حقيقة كان الماء يخرج من الصنبور تقريبا مع بخار الماء، حيث إن المواسير كانت موضوعة فوق رمال الصحراء. كانت تسود درجة حرارة ٥٠ مئوية، وينتشر البعوض وكذلك وضع وبائى ثقيل. كنا ننام بعد سكب محتوى جوزين أو ثلاثة من الماء على الفراش وبل أعلى الملاءات أيضا. كان الفتيان يفقدون ٦ ـ ٨ كجم من وزنهم خلال فترة التأقلم. وكانت تتورم أيدينا وأرجلنا من لدغات البعوض وتغطيها الالتهابات. كان من العادى شرب ٨ ـ ١٠ لترات من الماء فى اليوم. كانت تكربنا رتابة المنظر، فكان كل شىء رماديا فى المطار، وأصفر ـ بنى اللون حولنا. كان يصلنا البريد مرة أو مرتين فى الشهر، وكان ينقذنا من الرتابة فقط الاستماع إلى آخر الأنباء من روسيا والأفلام التى كانت تعرض وكذلك المرات النادرة التى كنا نذهب فيها إلى المدينة.

بعد توقيع اتفاقية الهدنة المؤقتة فى شهر أغسطس عام ١٩٧١، تحول الجانبان إلى تبادل الضربات المتفرقة والقيام بطلعات طيران تجسس وإلى تبادل الاتهام بخرق الهدنة. كان الناس تحت ضغط بسبب كثرة إعلان الإنذارات والرفع الدائم لحالة الاستعداد لدرجة التسلح بالرشاشات اليدوية. تعلمنا توقع تأزمات الموقف وتوابعها. وقد ساعدتنا على ذلك المناطيد المحيطة بسدى أسوان ـ السد الإنجليزى القديم والسد العالى الجديد.

كنا نعمل بجد تام، لا نبخل ببذل الجهد. فالخدمة فى القوات المسلحة عبارة عن عمل ضخم وصعب له هدف، وهو يكون فى حالة القتال أو بالقرب منها أصعب بضعفين أوبثلاثة أضعاف.

كانت طائرات تو ـ ١٦ب الخاصة بفصيلتنا المنفصلة ـ السرب ١ للحرب الراديو إلكترونية متمركزة بمطار "أسوان"، وكانت تنفذ مهامها القتالية فى منطقة قناة السويس، كما كان يتم الاستعانة بها لتدريب دفاعنا المضاد للطائرات الذى كانت لنا علاقات حميمة مع مقاتليه. ذلك الحد الأدنى من الأفراد الذين كانوا يقومون بتجهيز معدات الطيران حافظوا على المعدات فى حالة مثالية. وقد بذلوا جهدا كبيرا من أجل ذلك. كانت درجة الحرارة تصل فى القمرة إلى ٨٧ درجة مئوية، وكان يتم العمل بالتبادل. فكان كل منا يقوم بعمله طبقا لتخصصه، بالإضافة إلى من كان يتقن أيضا عمله، فقد كان إتقان التخصصات القريبة منتشرا تماما. لذلك فقد كان مقياس إزالة آثار الضربات، القوية منها، عاليا يصل إلى ٢٠ : ٢٥٪، ولكن قوى الإنسان ليست بلا حدود، خاصة أن ساعات طيران طائراتنا كانت ضعف عدد ساعات طيران طائرات "الفانتوم"، إلى ذلك الوقت. كانت توجد صعوبات، ولأسباب أخرى. ففى إحدى فترات رياح الخماسين التى هبت لعدة أيام، بدأت تنفصل الطبقة الأردوازية لبلاطات ملاجئ الطائرات، وكانت أجزاء منها تخترق حاشية الطائرات على طول بارتفاع ١٥ ـوقد أخلى الأفراد الطائرات، وأصلحوها فى أقصر فترة ممكنة، مجازفين بحياتهم. وللأسف لم يخل الأمر من إصابات، ولكن كان العمل يستمر بقوة على قدر الاحتياج، من أجل إصلاح الطائرات.

أذكر الحادث الذى وقع لطاقم فصيلتنا (للأسف لا أتذكر اسم قائد الطائرة)، وهم ينفذون مهمة حربية، فى النصف الأول من عام ١٩٧١ .طبقا للمهمة، كان يجب حماية طيران طائرة تجسس مصرية بواسطة تشويش شديد. سارت بمحاذاة قناة السويس ثم تمكنت من الدخول إلى شبه جزيرة سيناء. كنا ننتظر عودة طائرة التجسس، ولكنها لم تعد فى الموعد المحدد. وقد عرفنا فيما بعد أنه تم إسقاطها فوق سيناء بواسطة المدفعية المضادة للطائرات.

كان الطاقم يقوم بتنفيذ الأمر الصادر له من على الأرض، فكرر مساره. وفى أثناء دورانه لحقت به طائرة "فانتوم" من الأسطول الأمريكى السادس قادمة من اتجاه البحر الأبيض المتوسط. اقتربت طائرات "ف ـ ٤" وبدأت فى تصوير طائرتنا، وبالمناسبة، كان ذلك يحدث بصفة منتظمة. كان الطاقم يقوم بالميل إلى اليسار لذلك لم يلاحظ اقتراب مقاتلات الولايات المتحدة الأمريكية، فبدأ فى تنفيذ الميل إلى اليمين، وأحس بالضربة. سقطت "الفانتوم" عدة مئات من الأمتار ثم استوت وانصرفت فى اتجاه البحر. وبعد انتهاء الوقت المحدد للمراقبة، عادت الطائرة إلى أسوان، حيث تم فحص سطحها الأيمن، فلوحظ تشويه مستوى به وخدوش وآثار لون دهان. تم إصلاح تلك التلفيات البسيطة تماما، ولم تتم إعارة هذا الحدث اهتمامًا كبيرًا، ولكنه تكرر. ففى خلال القيام بالطلعة التالية بطاقم آخر على متن الطائرة، تكرر هذا الموقف، ولكن طيارو"ف ـ ٤" لسبب ما أعاروا اهتمامهم الكبير بالجانب الأيمن لطائرتنا. وقد اضطر الطاقم لمعايشة دقائق غير سارة.

كما كانت تحدث بعض الحوادث الطارئة والمخالفات للنظام، ولكن ليس بكثرة. كان كل من الخطر الدائم من قيام الطيران الإسرائيلى بتوجيه ضربات بالقنابل، ومن قيامه بعمليات إنزال "كومندوز"، بينما كان ارتفاع سواحل بحيرة ناصر يمثل حاجزا طبيعيا للرادارات، يمثل ضغطا نفسيا على الأفراد.. كانت تحدث أزمات، لكننا كنا ننجح فى تصفيتها بالأحاديث القلبية وباستيضاح أسباب الشكاوى المتبادلة. كما كنا نضطر أحيانا إلى عقاب الأفراد، بل والافتراق عنهم قبل الأوان. ولكن فى الحقيقة، كانت تلك حالات فردية. وأنا ما زلت أذكر حتى الآن القادة والجنود الذين حملوا صفة مقاتل سوفييتى بشرف، معترفا بفضلهم. هم كل من

العقيد جيدتسكى ـ قائد السرب، والرائد ماريسوف ـ قائد الفصيلة، والنقباء تسيمبروفسكى، تكاتشيف، روكافيتشنيكوف، والبحارة شيروفاتوف، وأرناأوتوف، وسفيريدوف، وكورجانوف، وتيموفييف، وزايتسيف وغيرهم كثيرين.

أريد التحدث قليلا أيضا عن علاقتنا بالعسكريين وبالسكان المحليين المصريين. كانت علاقتهم بنا ودودة تماما، وكانوا مهتمين جدا بمعرفة بلدنا، وصرحاء فى تقديرهم لدورنا فى تقديم المساعدة العسكرية والاقتصادية لمصر من جانب الاتحاد السوفييتى. كان العرب يضعون آمالاً كبيرة على إعادة تسليح القوات المسلحة وتدريبها، وأعتقد أننا لم نخيب آمالهم. كان التعامل يواجه صعوبة بسبب عدم معرفة اللغة، ولكن دائما يفهم الأصدقاء بعضهم بعضًا. كانت تلتحم الروايات عن البيت والعائلة والأبناء مع الأحاديث التى كانت تدور فى كل المواضيع الممكنة. بصفة عامة كان يصاحب أحاديث العسكريين المصريين عرضهم للصور، ولكننا لم نكن نفعل ذلك. وكنا نسعى إلى عدم مس المواضيع الدينية، بلا داع. كان السكان المدنيون هم أيضا يتعاملون بإيجابية مع وجودنا فى مصر، وكانوا يرحبون دائما بنا، وكانوا يتجاوبون بسرور مع طلبنا أخذ صور معهم للذكرى. كان الكثير منهم قد عمل فى بناء السد العالى بأسوان، لذلك كان التعامل معهم أسهل. وكان البعض منهم يتحدث الروسية بطلاقة.

فى ذلك الوقت، انتشرت الكثير من الفكاهات عن استعداد الجيش المصرى للحرب. وكان يوجد فيها جزء من الحقيقة. أذكر الحدث الذى جرى فى أسوان فى منتصف عام ١٩٧١ . كان العسكريون العرب يحمون طائراتنا. وكانت المعدات السوفييتية السرية الحديثة التى تم تقديمها لهم كانت لا تهم إسرائيل وحدها. وفى إحدى المرات، وعند حضورنا إلى أرض المطار، رأينا كيف يقوم حارس بتنظيف سلاحه الشخصى بحماس ـ رشاش يدوى طراز "ديجتاريف" من صناعتنا، تحت طائرة. لم يكن ذلك شيئًا غير عادى ـ مجرد رمال وأتربة. ولكن نفس الشىء تكرر أيضا فى اليوم التالى، ثم الذى تبعه، وتكرر ذلك. وقد اندهشنا من حماس الجندى. ولكن كان الأمر أبسط من ذلك، فقد فكك الجندى الرشاش مرة ولم يتمكن من تجميعه مرة أخرى. اضطررنا إلى تقاسم خبرتنا معه بخصوص ذلك، ولم نتوقف عن الاندهاش من هذا النوع من الحراسة. وفى

ديسمبر عام ١٩٧١ عدت إلى الاتحاد السوفييتى، وتمت إحالتى إلى التقاعد، وبدأت سنوات النسيان.

أيام العمل القتالية للطيارين

ى. ف. ناستينكو

فى ساعة متأخرة من الليل وفى اليوم الأول من أيام حرب الأيام الستة التى نشبت فى الشرق الأوسط بين إسرائيل وجيرانها العرب دوت صافرة الإنذار فى الفوج .

كان آلاى الاستطلاع التكتيكى على طائرات ميج ـ ٢١ الذى أعمل به وكذلك آلاى المقاتلات المجاور فى قمة استعدادهما القتالى. وقد حلقت فى السماء أطقم المناوبة بهدف إنجاز المهام التدريبية المعتادة. كان الهدوء يسود الجميع وهو ما يعنى أن المناورات كانت تسير وفق الخطة الموضوعة على أنه لما كنت أعمل فى خدمة رئيس أركان القوات الجوية، فقد كنت أزداد يقينا وأن أحلل هذا العمل غير العادى الذى تبذله الأركان، أن ما يحدث يتجاوز مجرد المناورات وأن هناك على ألأرجح اختبارًا لمدى استعداد الآليين للقيام بعمليات عسكرية حقيقية وأن الأمر ليس مجرد اختبار للأركان. وفى صباح اليوم التالى انتقل آلاى القاذفات بكامل معداته إلى أحد المطارات الواقعة على الحدود. وعلى مدى ثلاثة أيام احتلت الأطقم عدة مرات مواقعها داخل الكبائن استعدادًا للانطلاق. كان من المفترض أن تكون مطارات الهبوط فى سوريا ومن ثم كان من المحتم أن تحلق الطائرات عبر أراضى دولة محايدة مثل تركيا . كانت الحكومة تدرس كيفية التصرف فى حالة ما إذا رفضت هذه الدولة السماح للفوج بالعبور، فاختراق هذه الطائرات للمجال الجوى دون تصريح كان يعنى إمكانية وقوع حرب.

تغلب صوت الحكمة وعاد الآلاى إلى قاعدته وصدر أمر "العودة إلى الثكنات" للوحدات الجوية فى المنطقة العسكرية وفى القوات المسلحة. وعلى مدى ثلاثة أيام تم تدمير الطيران المصرى بأكمله تقريبًا وفى المطارات مباشرة بواسطة

الضربات الجوية الإسرائيلية . وعندئذ بدأت على الفور عملية بناء محمومة لملاجئ الطائرات فى المناطق العسكرية على حدود جمهورية مصر العربية وأيضا فى الاتحاد السوفييتى على السواء. وفى نفس الوقت لم تحدث أية تغييرات ملموسة فى الاستعدادات العسكرية. وقد تلقى عدد من الطيارين ـ وليس كلهم ـ ما عرف باسم "المواد الإعلامية" وهى مواد كان مضمونها وما تحويه من استنتاجات ضعيفًا للغاية. وقد قام الطيارون بقراءتها. لكن الجميع كانوا ينتظرون ما ستسفر عنه الأيام القادمة. كانت الحرب قد هدأت تقريبا، واستقرت الأمور على ما هى عليه على الجبهة فى الشرق الأوسط. لكن أكثر القادة العسكريين بعيدى النظر كانوا مدركين أن الحرب لم تنته بعد. وبالنسبة لى على أى حال فقد ظلت مستمرة .

وفى يوم الجمعة الأول من أغسطس عام ١٩٦٩ بعد قيامى بالطلعات الليلية. عدت إلى البيت . كانت الأسرة كعادتها ملتئمة حول المائدة. دق جرس التليفون، وكان رنينه يدل على أنها مكالمة من بعيد كما كان يعنى حدوثه فى هذا الوقت غير المناسب وقوع أمر لا يمكن التنبؤ به. تم استدعائى إلى قيادة أركان القوات الجوية وقد أخبرنى المناوب أنه قد تم إرسال سيارة لإحضارى. كنت أفكر بشدة وأنا فى الطريق لماذا يتم استدعائى إلى القيادة. إننى لم أسمع من قبل أن القيادة قد قامت باستدعاء أى شخص فى مثل هذا الوقت. ومثلى مثل أى قائد كانت لدى بعض العيوب فى وحدتى والتى لم أقم بإبلاغ القيادة عنها. ولكنها كانت عيوب لا ترتقى إلى مستوى اهتمام المجلس العسكرى للقوات الجوية. وهكذا لم أستطع الوصول إلى أى استنتاج، وتخطيت عتبة مكتب قائد القوات الجوية الفريق فاسيلى سمسونوفيتش لوجينوف وكان المجلس العسكرى مجتمعًا عن بكرة أبيه . اتجهت عيون كل الحاضرين نحوى. وبعد أن أعلنت عن حضورى، تلقيت الأذن بالجلوس . اطمأن قلبى أن مكروها لم يقع. إذا لماذا كان استدعائى. كان السؤال الأول الذى وُجه إلىّ يحمل فى طياته الإجابة عليه. هل أنا على علم بما يدور فى الشرق الأوسط؟ بالطبع كان ما أعلمه لا يتجاوز حجم هذه المعلومات التى وصلت إلى قادة وحدات الطيران ولا شئ أكثر. كنت آنذاك أدرك شيئًا واحدًا هو أننى سأذهب إلى الشرق الأوسط. أما السؤال الثانى الذى طرحه علىّ فاسيلى سامسونوفيتش فكان واضحًا تمام الوضوح. إذ سألنى عن موقفى بشأن

اقتراح قيامى بقيادة مجموعة من الطيارين المتطوعين لتقديم المساعدة الأممية إلى الشعب المصرى لصد العدوان الإسرائيلى عليه. لقد قام الجيش بإعدادى عشرين عاما من أجل أن أجيب على هذا السؤال وبكل حزم. لم يكن باستطاعتى تصور إجابة مختلفة، إذ تمت تربيتنا وعلى نحو صحيح. ولم تأت الموافقة عفو الخاطر كما لو كانت صادرة عن جندى يؤدى بصورة آلية، وإنما كانت موافقة صادرة عن فهم واع لواجبى أمام شعبى.

وفى اليوم الثانى سافرت على طائرة خاصة بصحبة القائد الآخر للآلاى العقيد قنسطنطين أندرييفيتش كورتيوك، وهو الآن لواء بالاحتياط، لمقابلة وزير الدفاع. ويحضرنى الآن من هذه المقابلة موقف جدير بالاهتمام، فعندما ارتفع صوت أحد الطيارين التابعين لآلابى (حضر اللقاء قائد من كل جناح) وهو يجيب على أحد اسئلة وزير الدفاع أ. أ. جريتشكو مرددا الشعارات المحفوظة عن ظهر قلب من قبيل إننا الأقوى والأبرع وأن النصر سيكون حليفنا، رفع رئيس الأركان مارشال الاتحاد السوفيتى زخاروف، والذى بدأ أن سنة من النوم قد أخذته، عينيه ناحيتى وناحية العقيد كوروثيوك ثم قال: .. لا أعلم يقينا إن كنتم ستهزمون عدوكم، لكن ينبغى عليكم أن تعودوا إلى وطنكم وعائلاتكم سالمين لا فى توابيت من الصاج، ثم أضاف قائلاً: "ينبغى ألا تأخذوا معكم الفشارين، فهؤلاء هم أول من يفر من المعركة". وهكذا بدأت العملية العسكرية التى حملت اسم "القوقاز".

تشكلت المجموعة الجوية من فرقتين من المتطوعين (لواءين وفقا للمصطلحات المستخدمة فى الجمهورية العربية المتحدة): سرب منفرد (٣٠ طائرة و٤٢ طيارا) ثم آلاى واحد (٦٠ طياراً و٤٠ طائرة). وقبل شهر يونيو ١٩٧٠ قمت بقيادة السرب الخامس والثلاثين، وكان السرب قد تم تشكيله بشكل كامل من الجنود السوفيت وصف الضباط والضباط. وقد قام العقيد كووثيوك بقيادة الفوج ١٣٥ الذى شارك فيه من السوفيت ضباط طيران وفنيون فقط. أما الباقون فكانوا من العسكريين العرب، الذين تلقوا دورة تدريبية فى مختلف التخصصات. وقد قاد الفرقة الجوية الطيار القدير للاتحاد السوفيتى، بطل الاتحاد السوفيتى والشخصية صاحبة المصير الاستثنائى الجنرال ج. أ. دولنيكوف. وقد حصلت على مهلة قدرها شهر واحد فقط لإعداد التشكيل الجوى. كنت أعرف جميع

الطيارين بأسمائهم فردا فردا، إذ أننى خدمت فى إحدى فرقة المقاتلات فى الفوج ٢٨٣، الذى يشكله هذا السرب. غير أن ثلاثين يوما ليست بالفترة الكافية. كنا نطير كل يوم محلقين من مطار إلى آخر. من شواطئ البحرين الأسود وقزوين وأحيانا نحلق مرتين فى اليوم. وعن مستوى إعداد فريق الطيران يمكن أن نحكم أن الرماية الجوية للأهداف الطائرة للسرب. كان السرب يطير ويهبط فى أشد الظروف الجوية سوءا. وفى أثناء وجودى فى هذا المطار قال لى رئيس الفيلق "حقا يمكن دخول المعركة بهؤلاء الطيارين" وبالفعل كان بإمكاننا أن نطير وأن نطلق النار، ولكن لم يكن بمقدورنا خوض المعركة بعد. وقد أصبنا فى أثناء النهار والليل ١٢ هدفًا بالصواريخ والمدافع، فضلاً عن أننا كنا نصيبها من الضربة الأولى. وهكذا انتهى التدريب.

تم تفكيك طائرات ميج ـ ٢١ المقاتلة للسلاح البحرى وجرى نقلها بواسطة طائرات النقل من طراز أنتونوف ـ ١٢. وسرعان ما راح طيارو الأطقم يودعون أحباءهم وذويهم ويتخذون أماكنهم فى كبائن القيادة ليسافروا إلى إفريقيا لملاقاة المجهول. وبحلول نهاية يناير ١٩٧٠ تم تشكيل المجموعة التابعة لسلاح الجو السوفييتى. أما الواءان فبعد أن احتفظا بأرقام السرب والآلاى تم تقسيمهما على ثلاثة مطارات رئيسية ومطارين احتياطيين. كان أمام اللواء ٣٥ مهمة تغطية الأسطول البحرى بامتداد سواحل البحر المتوسط والمراكز الصناعية فى شمال مصر من بورسعيد إلى مرسى مطروح بالقرب من الحدود الليبية وفى مدينة القاهرة. أما اللواء ١٣٥ فقد قام بتغطية مدينة القاهرة من الشرق والمنشآت الصناعية فى الجزء الأوسط من الجمهورية العربية المتحدة وسد أسوان من الشمال الشرقى الذى توفر له تمركز اللواء ٣٥ فى ميناء چناكليس الجوى (على بعد ٤٠ كيلومترًا من الإسكندرية) وفى مطار القطامية الاحتياطى (على بعد ٤٠ كيلومترًا من قناة السويس). وقد تم استخدام الأخير باعتباره كمينا وكجزء من طريق القاهرة الإسماعيلية الذى جرت توسعته إلى ٢١ مترا. كان اللواء ١٣٥ يمتلك مطارين أساسيين مطار بنى سويف، الذى يقع على بعد ١٨٠ كيلو مترا جنوب القاهرة، ومطار القماشين والذى يقع على بعد ١٢٠ كيلو مترًا جنوب شرق مدينة القاهرة، وكذلك المطار الاحتياطى الواقع فى الزعفرانة (على بعد ١٠٠ كيلو من خليج السويس). كان يتم توجيه أسراب المقاتلات عن طريق قيادة اللواء

ونقاط توجيه وحدات الصواريخ المضادة للطائرات على امتداد ساحل البحر المتوسط وقناة السويس وخليج السويس تتولى قيادة المقاتلات.

كان هذا التنظيم الكلاسيكى صالحا لزمن السلم ولكنه لم يكن قادرًا على إدارة المعارك والمناورات فى ظروف العمليات العسكرية بشكل مباشر بالقرب من خط الجبهة الممتد بطول قناة السويس وخليج السويس، وهو ما كنا على اقتناع كامل به.

كانت فرقتنا الجوية مسلحة بطائرات ميج ـ ٢١. وخلافا لطائرات ميج ـ ٢١ السابقة المعدلة كانت هذه الطائرة مزودة بأربعة ـ لا اثنين فقط ـ من صواريخ جو ـ جو طراز "ر. زس"، مركب بها مدفع ذو ماسورتين عيار ٣٠ ملليمتر. وقد روعى فى التصميم تعليق ثلاثة تنكات تصل السعة الإجمالية لها إلى ١٨٠٠ لتر. كانت هذه الطائرة طائرة حديثة بكل معنى الكلمة بمعايير هذا الوقت. على أنه كان بها عدد من العيوب الجوهرية التى ظهرت فى أثناء العمليات العسكرية على رأسها أنه كان من الممكن اكتشافها على مسافة قصيرة من أجهزة الرادار والتى لا تزيد على ١٠ إلى ١٢ كيلو مترا، والمدة الزمنية لدورة مجال قطاع الهوائى الجوى للمسافة تبلغ ٢,٥ ثانية. وكذلك سوء استقبال تحديد الهدف على شاشة الرادار، ثم ضرورة رفع أحد اليدين من قيادة الطائرة عند تحويل نوع السلاح المستخدم من المدفع إلى الصاروخ، كما كانت التكلفة الباهظة للوقود فى كل المناورات تقلل بحدة من العمليات العسكرية. كان هناك عيب آخر لا يقل أهمية عن العيوب المذكورة وإن بدا غير ذى قيمة وهو زيادة نسبة العادم الخارج من المحرك نتيجة الاحتراق غير الكامل للوقود وخاصة فى المناورات المشابهة للعمليات الحقيقية فى ظروف الجو الصحراوى فى مناطق العمليات العسكرية. كان من الممكن اكتشاف تشكيلاتنا القتالية بالعين المجردة من بعد ٣٠ كيلو مترا وأكثر، وهكذا كانت خواص طائرات ميج ـ ٢١ مماثلة لخواص المقاتلة الرئيسية لدى الإسرائيليين من طراز " ميراج ".

فى العشرين من ديسمبر ١٩٦٩ هبط الطاقم الأول الذى أقوده فى مطار غرب القاهرة ـ كان كل شىء يبدو غير مألوف. الرمال الصفراء اللامعة، اختفاء النباتات العادية، المبانى الرمادية المتناثرة، ما إن غادرنا الطائرة حتى أخذنا نلقى

النظر حولنا ثم شرعنا فى الاستعداد لتفريغ الطائرات المقاتلة من مخزن الشحن فى الأنتونوف ـ ١٢ ولكننا سمعنا فجأة صوت طلقات عشوائية من أسلحة مختلفة. وبعد بضع ثوان شاهدنا طائرتين غير مألوفتين لنا تحلقان فوق المطار على ارتفاع ١٥ ـ ٢٠ مترًا. كانا طائرتى فانتوم ف ٤، ثم شاهدنا بعد ذلك انطلاق صاروخين " أرض ـ جو" من إحدى بطاريات صواريخنا المجاورة. وبعد برهة توقف القذف. لم يكن باستطاعتنا الشعور بالخوف . ولم يكن يبدو أن هناك تغطية قريبة. وصلت بعد ذلك مجموعة الفنيين وأخبرونا أن طائرات العدو تم إسقاطها بواسطة صاروخ، ولكن تبين لنا فيما بعد أنه قد تم إسقاط طائرة جو من طراز إيل ـ ٢٨ تابعة للقوات الجوية المصرية .

بحلول الأول من فبراير ١٩٧٠ وصل اللواء بأكمله إلى مطار چناكليس. كان قد تم تجريب الطائرات وجرى توزيعها فى ملاجئ من الخرسانة المسلحة يبلغ سمكها أكثر من متر ومغطاة بالرمال بسمك يصل إلى مترين. كانت الملاجئ تسمح بانزلاق الطائرة داخلها وخروجها منها . كما كانت مزودة بتغذية كهربية مركزية، وتموين بالغاز والوقود . وبعد وصول المارشال أ . إ. يفيموف القائد الأعلى للقوات الجوية إلى لوائنا قام بفحص طويل ودقيق للتجهيزات كافة وأشاد بالإمكانات الدفاعية للمطار وللمعدات وأشار إلى إمكانية قيام اللواء بالإقلاع بسرعة فى وقت واحد. كان الوقت المطلوب لإقلاع التشكيل المناوب لا يتجاوز دقيقتين وبالنسبة للواء بأكمله عشر دقائق، آنذاك كان هذا هو الحد الأدنى الذى يستغرقه الإقلاع.

ومنذ الأول من فبراير بدأ اللواء فى القيام بالورديات القتالية. وقد تبين أن القيادة السياسية والعسكرية الإسرائيلية كانت على علم بالاتفاق الذى تم بين حكومتى الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفيتى بشأن إرسال قوات سوفييتية إلى مصر وأنها كانت تتابع كل عملية لهذه الفرقة الجوية، وقد أذيع ذلك آنذاك فى محطات الإذاعة وخاصة "صوت أمريكا"، وفى نهاية فبراير عام ١٩٧٠ أعلنت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل أن الطيران الإسرائيلى أوقف طيرانه على المناطق الداخلية لمصر وأنه سوف يواصل عملياته ضد الأهداف الموجودة على امتداد الجبهة . وقد تم إعلان ذلك باللغة الروسية أيضا، وقد تم

تنفيذ ذلك بالفعل على امتداد الفترة التى تلت هذا الإعلان وحتى عقد الهدنة فى أكتوبر ١٩٧١.

وعلى الرغم من ذلك فقد كنا ندرك أنه لا مفر من الحرب فى السماء. كانت المنطقة المتاخمة للجبهة والتى يبلغ عمقها ١٠٠ كيلومتر تبدأ من قناة السويس تشتعل من جراء انفجار القنابل والصواريخ التى يتم ضربها بشكل منتظم حتى على نقاط توجيه الطيران. كان من الضرورى الاستعداد لمعارك جوية مع أكثر الطيارين الإسرائيليين خبرة من ذوى الأصول الأمريكية، الذين خاضوا تجربة الحرب فى فيتنام والذين تراكمت لديهم خبرة من المعارك التى خاضوها ضد الطيارين المصريين والسوريين. كان من المهم بالدرجة الأولى دراسة هذه الخبرة، وفى هذا الشأن فقد ساعدتنى الصدفة. فذات مرة ذهبت لزيارة قائد القاعدة واسمه صالح لنقوم بحل بعض القضايا اليومية. وفى أثناء انتظارى إعداد القهوة (بدون القهوة لم يكن من الممكن حل أى مشكلة) تناقشنا فى موضوعات شتى. كانت المناقشة تدور ببطء باللغة الإنجليزية (كنت قد أنهيت فى الستينيات المعهد العسكرى للغات الأجنبية انتسابا)، انتبهت إلى مخطوطة مكتوبة بالآلة الكاتبة من حوالى من ١٠٠ إلى ١٥٠ صفحة. قمت بتصفح الأوراق فشاهدت تخطيطات ورسومًا من الواضح أنها كانت تعنى طائرات تقوم بالمناورة بشكل انفرادى وأخرى فى مجموعات ذات ألوان خضراء وحمراء. من الواضح أن الموضوع كان يدور حول " طائراتنا " وطائرات العدو.

سألت عن معنى هذه التخطيطات وبعد فترة من الارتباك شرح لى صالح أن الأوراق تحوى كل المعارك الجوية التى خاضها المصريون والإسرائيليون. وبعد إلحاح وإقناع طويلين وافق القائد على إطلاعى على المواد ولكن بالشروط الآتية:

"يقرأ صالح ويشرح لى كل موقف دون أن أسجل أية ملاحظات"

وعلى مدى أسبوعين كنت أستمع يوميا ما لا يزيد على ساعة إلى هذه المعلومات الشحيحة والتى تحمل مع ذلك أهمية فائقة. وبعد كل جلسة مشابهة أو"درس" كنت أعود إلى الملجأ وأسجل من الذاكرة وأرسم كل ما استطعت أن أفهمه وأستظهره. وبعد انتهائى من هذا العمل المضنى طلبت من قائد المجموعة الجنرال جريجورى أوستينوفيتش دولنيكوف الحوار معى بحجة وجيهة، هى أن

يشاهد ويقيم الحمّام الذى شيده لى المساعدون المهرة مستخدمين معدات مزيلة للأشعة وأدوات متخصصة. امتد نقاشنا طويلاً وشاركنى جريجورى أوستينوفيتش خبرته فى الحرب الوطنية الكبرى. وفى نهاية الحديث سمح لى بوضع برنامج تدريب الطيارين آخذين فى الاعتبار المواد التى حصلنا عليها.

قمت أنا ونائبى ساشا كاليتيتشينكو بإعداد مهام الطيران وتنويعات المعارك الجوية وذلك فى خضم عملية المهام الجوية المكثفة لا فى الغرف التى يلفها الهدوء. وتولدت لدينا فكرة التكتيك للمناورات العسكرية الحديثة على متن المقاتلات الأسرع من الصوت. كانت أسس هذا التكتيك قد وضعت فيما بعد ضمن دورات الإعداد القتالية للطائرات المقاتلة فى القوات الجوية وهى ما تزال سارية حتى الآن. وقد تم إعداد مناورات قبل القتال وأثنائه تبعا للظروف لمجموعات الطائرات المقاتلة وتحديد كل عنصر فى التشكيل القتالى.. إلخ. وقد كنت أقوم أسبوعيا بإعطاء تقرير مكتوب عن كل عملياتنا ونتائجها إلى قائد المجموعة الجوية، الذى كان يقوم بدوره بإبلاغها إلى القائد الأعلى للقوات الجوية العسكرية فى موسكو.

ونتيجة للتدريب الشاق لكل فرد فى الطاقم توصلنا إلى استنتاج فحواه أن ممارسة التدريب القتالى على مدى سنوات طويلة للطيران المقاتل لا يمكن أن تضمن إدارة قيادة المعركة الجوية وأنها تفقد قائد المجموعة القتالية إمكانية قيادة مجموعته وأن يضع ويغير فى الجوخطة المعركة وأن يحتل الموقع المناسب وأن يبدأ المعركة وأن يخرج المقاتلات منها، لقد أدركنا أن على القائد أن يعرف موقع العدو وتشكيله القتالى ومناوراته، ولذلك فقد تخلينا عن التوجيه الأرضى واستبداله بتحديد الأهداف (مكان العدو، ارتفاعه، موقع العمليات وتشكيل المجموعة).

اختلفت وجهة نظرى مع تصورات قائد اللواء ١٣٥ العقيد كوريوتيوك . كان القائد يسمح لنا بحكمة أن نتحايل دون أن يأخذ جانب أحد منا. لقد قرر أخيرا إنهاء الجدل وأن تكون مناورات اللواءين وفق تصور كل منهما. وبعد أن حدد خط الجبهة والإجراءات العامة للأمن تمت المناورات.لكنّ أحدًا لم يجب على سؤال من منا كان على صواب. وقد جاءت الإجابة بعد شهرين فى خضم المعارك الحقيقية.

وكما أشرت من قبل فقد كان الآلاى ٣٥ يتمركز فى مطارين "بنى سويف" و"القماشين" على بعد ٢٠٠ كيلومتر من قناة السويس. كانت الوسائل الأساسية لتوجيه العمليات العسكرية تتمثل فى مطاردة طائرات العدو من موقع المناوبة على الأرض وفى الجو . وقد اعتاد الجميع على هذا الأمر. كانت المناطق موجودة فى مكان ثابت على ارتفاع من ٨ - ١٠ الآف متر وكانت السرعة تصل من ٧٠٠ إلى ٨٠٠ كيلومتر فى الساعة . كان العدو يقوم بغارات قصيرة على الأراضى المصرية، ويظل دائما بعيدًا عن متناول مقاتلاتنا. كان الانتقال بالقرب من المنطقة مستحيلاً بسبب خطورة وقوعنا تحت طائلة نيران مدفعيتنا المضادة للطائرات، والتى كنا نخشاها أكثر من طائراته المعادية نفسها، فلم تكن مقاتلاتنا تتمكن من مطاردة العدو قبل أن يلقى بقنابله أو يطلق صواريخه على الأهداف الأرضية. وحتى يونيو ١٩٧٠ قام طيارو فرقة المقاتلات الجوية بما يزيد على ١٠٠ طلعة قتالية، لكنها لم تدخل معارك جدية.

كان لواؤنا آنذاك يغطى الأهداف فى مؤخرة البلاد، وكذلك القاعدة البحرية العسكرية الموجودة بمدينة الإسكندرية ومدينة مرسى مطروح. وكان لدينا فى المطار تشكيل مناوب وفى الجو طائرتان مقاتلتان. كانت المهمة الجديدة أمامنا هى مرافقة سفن الأسطول فى أثناء انتقالها من القاعدة البحرية العسكرية فى الإسكندرية إلى بورسعيد . وكان يتم تغيير المناوبة القتالية لجزء من السفن الحربية كل أسبوعين لتتخذ الأوضاع القتالية. واستمر نقل السفن يتم ليلاً على مدى من ٨ الى ٩ ساعات يوميًا. وكان اللواء بحرى بروسهكونوف يتولى قيادة السفن. وقد أكملنا معه العمل فى موضوعات التعاون كافة بيننا. كانت السفن تسير فى المياه الإقليمية للجمهورية العربية المتحدة، بينما كنا نحلق فى الجو بمحاذاة الشاطئ. وكلما اقتربت السفن من الشرق كلما ازداد تبادلنا لأماكننا على الطائرات المقاتلة داخل المنطقة. وفى إحدى الطلعات وبعدما أصبحت السفن على بعد ٢٠ ميلاً من بورسعيد، إذا بطائرتى يتم مهاجمتها للمرة الأولى طوال هذه الحملة العسكرية. وللأسف لم تستطع وسائلنا على الشاطئ أو على السفن اكتشاف العدو. سمعت صوت ضربة خافتة فى منطقة المحرك . لكن الطائرة لم تفقد توجهها وإن كانت قد أخذت فى فقدان الوقود بشكل سريع. كانت المسافة بينى وبين القاعدة تصل إلى حوالى ١٥٠ كم وكنت على ارتفاع ٩ كم. طلبت من

زملائى بنقطة القيادة إفادتى عن الموقف حول طائرتى بعد أن استدرت متوجها إلى المطار. كان كل شىء يتم فى هدوء. لم يحدث حريق وأنا أنسحب عائدا. استطعت أن أعود بما تبقى من الوقود حوالى ١٠٠ كجم لمسافة ٢٠ كم من المطار وأوقفت المحرك. وقد أثبت الفحص أن نظام التغذية بالوقود قد أصابه تلف جزئى. تم تجاوز الموقف والآن فقط أدرك كل رفاقى أننا نخوض الحرب فعلاً.

أخيرًا ومع نهاية شهر إبريل وافق قائدنا على القيام بعمليات حاسمة، وقد شارك فى المناورات لوائى بالإضافة إلى لواء مصرى من مطار طنطا. كانت معارك حقيقية حتى أننا خسرنا فيها طيارًا مصريًا فى "معركة جوية"، اشترك فيها اثنان من طيارينا، وقد أفلت الطيار من سقوط حلزونى بأن نجح فى الهبوط بالكرسى المقذوف. وقد أثبتت هذه المناورات أن تكتيكنا يسير فى الاتجاه الصحيح.

ذات يوم فى أوائل شهر مايو هبط إلى فرقتنا جريجورى أوستينوفيتش بطائرة مروحية ثم استدعانى أنا وقائد السرب دون أن ينبس ببنت شفة مصطحبا إيانا على ارتفاع منخفض نسبيا فى البداية جنوبا ثم ليخترق بعد ذلك القاهرة مباشرة إلى الشرق. وبعد ثلاث ساعات هبطنا إلى طريق أسفلتى. غادرنا المروحية التى حلقت مبتعدة. نظرنا حولنا فشاهدنا على مسافة من كيلو ونصف إلى اثنين كيلومتر هوائيات رادارية تبرز من تحت الأرض. وعلى امتداد الطريق وعلى واد ضيق منحدر حفرت ملاجئ للطائرات، غطيت مداخلها بشبكات مموهة. وعندئذ قال لى جريجورى أوستينوفيتش "من هنا سوف تعمل... سيتم انتقال التشكيل السداسى المقاتلات إلى هنا بعد يومين".

لقد اقتنعنا فى هذا الوقت أن قدرًا كبيرًا من المعلومات يتسرب من خلال خطوطنا للاتصالات الأرضية وخطوط المصريين. كانت القيادة الإسرائيلية تعلم جيدًا مطالبتنا بالطيران بما فى ذلك الطيران القتالى. وقد قمنا عدة مرات بتغطية الطلعات القتالية للمقاتلات والقاذفات المصرية فى أثناء طلعاتهم على الجبهة تنفيذًا لطلب القيادة. وما إن كانت مقاتلاتنا تظهر فى منطقة المناوبة حتى كانت المقاتلات الإسرائيلية تظهر هى الأخرى على وجه السرعة على الشاطئ المقابل لقناة السويس كما كانت تظهر فى الجو نقطة القيادة الطائرة.

للأسف فقد كانت مقاتلاتنا تقع تحت نيران مدفعيتنا المضادة للطائرات التى كنا نناورها كالثعابين، بينما لم تكن الطائرات التى علينا أن نوفر لها التغطية تظهر فى السماء. لقد تم إلغاء الطلعات دون أن يتم إبلاغنا بذلك، كانت هذه تكليفات عادية، ولكنها لم تترك أى أثر على علاقات الجنود والضباط الروس والمصريين بعضهم ببعض.

فى السابع عشر من مايو ١٩٧٠ انطلقت من مطار جناكليس اثنتا عشر طائرة من طراز ميج - ٢١ للقيام بطلعات المناورة العادية وبعد ٣٠ دقيقة هبط منها إلى الأرض ست طائرات فقط، وهنا أثارت نقاط التوجيه المصرية ضجة كبيرة حول مصير الست طائرات الأخرى . حاول مساعدى فاسيلينكو إقناع مراقبى الحركة الجوية أن ست طائرات فقط هى التى أقلعت ولكنهم لم يصدقوه وسأل صالح: "وأين القائد؟ فأجابوه: "فى القاهرة". لقد حلقت الطائرات فى تشكيلين مزدوجين أحدهما فوق الآخر باتجاه القطامية وعند الهبوط كان السرب الأسفل يلقى بهيكل معدنى ويهبط بينما يذهب السرب الأعلى ليقوم بدورة ثانية . وفى البداية لم يدرك أحد بما فى ذلك العدو أن ست طائرات مقاتلة لنا قد نصبت "الفخ"، على الرغم من أنه وبعد بضعة ساعات ظهرت فى هذه المنطقة طائرات الاستطلاع الإسرائيلية من طراز "فانتوم ف - ٤". وهكذا بدأنا ننفذ العمليات العسكرية من مطار "القفز". وكان جوهر هذه العمليات يتلخص فى أنه عند اكتشاف العدو، وتبعا للموقف، كان القائد يتخذ قرارًا باتخاذ الوضع الملائم للهجوم، أى من أى نقطة انطلاق وبأى تشكيل قتالى وعلى أى شكل من أشكال المناورة يبدأ الهجوم . كانت الطلعة والطيران قبل بدء الهجوم مباشرة يتمان فى صمت تام . ففى لحظة بدء المناورة كان القائد يقوم بإعطاء الطيارين إحداثيات الهدف بشكل مستمر: زاوية السمت، الارتفاع والبعد. وبناء على هذه المعلومات كان القائد يضع خطة المناورة ويهاجم العدو. وفى حالة عدم اكتشاف العدو كان يوقف الهجوم، وكانت المقاتلات تناور عائدة إلى القاعدة الجوية فى جناكليس أو إلى أقرب قاعدة جوية احتياطية لمجموعتنا وفى الثانى والعشرين من يونيو تم إسقاط أول طائرة من طراز "سكاى هوك" على يد كل من كرابيفين وسالنيك. وقد طبقنا هذه الطريقة فى الهجوم حتى نهاية الحرب ومن المطارات الأخرى .

عندما بدأت القيادة الإسرائيلية فى تكبد الخسائر اتخذت إجراءات للرد ووضعت خطة محكمة لعملية جوية ضد المجموعة الجوية السوفييتية .

بعد أسبوعين وعند الطرف الجنوبى لقناة السويس ظهر تشكيل من المقاتلات القاذفة من طراز "سكاى هوك" هاجم بطارية للصواريخ. وعلى الفور قام التشكيل المناوب بالتحليق من مطار بنى سويف لاعتراضها، وبعد خمس دقائق حلقت أربع طائرات أخرى من مطار كوم أوشيم، وعندما دخلت المجموعة الأولى من مقاتلاتنا إلى منطقة بطارية المدفعية، عادت طائرات سكاى هوك فورا إلى مناطقها لتظهر مجموعة أخرى على ارتفاع من ٦ إلى ٧ كم شمال مقاتلاتنا ثم أخذت فى التعمق داخل أراضى جمهورية مصر العربية . قام ملاح نقطة القيادة "بير أريدا" بتنظيم تتابع المجموعتين الأولى والثانية فى مواجهة العدو، ثم فى إعادة طائراتنا أخذ تدريجيا ليصبح ذيلها موجها نحوخط الجبهة. وعندما تحولت شاشات رادارات طائراتنا عن قناة السويس إذا باثنتى عشرة طائرة من طراز "ميراج" تظهر فى سماء المعركة. كانت معركة حامية وقصيرة . فقدنا فيها أربع طائرات وهلك ثلاثة طيارين.

لقد لقننا العدو درسا قاسيا. ومنذ هذه اللحظة تغير طيارونا تماما. كانوا بارعين وشجعانا ولكنهم أصبحوا أكثر حذرا. وأصبحت الحرب متكافئة.

ذكريات عن أركان حرب الأسطول

ف. م. باك

فى صيف عام ١٩٦٨ وبعد أن أنهيت معهد اللغات الشرقية (حاليا معهد بلدان آسيا وإفريقيا التابع لجامعة موسكوالحكومية) تم استدعائى مباشرة للخدمة بالجيش، وبعد أن حصلت على رتبة الملازم تم إرسالى إلى الجمهورية العربية المتحدة (مصر) لقضاء سنوات الخدمة بها. لم يكن توزيعى باعتبارى خريجا من أحد المعاهد العليا للاستشراق أمرًا مفاجئا. وكما هو معروف فقد جرى فى سياق "حرب الأيام الستة" فى يونيو ١٩٦٧ أن تم تدمير القوات المسلحة المصرية وعدد من جيوش البلاد العربية الأخرى، وبعد الهزيمة (أو"النكسة" كما أسماها المصريون) شرع الاتحاد السوفييتى فى تقديم مساعدات لم يسبق لها مثيل من ناحية حجمها من أجل إعادة بناء القوات المسلحة المصرية. وبالطبع كانت هناك حاجة كبيرة للمترجمين وللمستعربين بالدرجة الأولى. يكفى القول استنادا إلى بعض البيانات أن مصر كان بها ما لا يقل عن عشرة الآف من العسكريين السوفييت، فى الوقت الذى كان عدد خريجى معهدنا من المستعربين سنويًا (بما فيهم الفتيات) يصل إلى حوالى من ١٥ إلى ٢٠ خريجا. وأستطيع أن أضيف أيضا أنه كان لدى تصور إجمالى للوضع فى البلاد بل وعن طبيعة عملى القادم إذ أننى كنت عائدا لتوى من مصر منذ عام مضى بعد أن أنهيت دورة تدريبية فى جامعة القاهرة ونجحت فى أن أرى بعينى كيف بدأت وكيف انتهت حرب "الأيام الستة".

كانت أول مرة ذهبت فيها إلى مصر فى خريف ١٩٦٦ لكى أقوم ـ كما ورد فى خطة التدريب ـ بجمع مادة البحث للدبلوم، ولكى أستمع إلى المحاضرات التى تلقى فى جامعة القاهرة ولصقل معارفى فى اللغة العربية بما فى ذلك اللهجة العامية المصرية. وبالإضافة إلى ذلك فقد كنا ملزمين ـ طبقا للتعليمات التى كان يتلقاها المسافرون فى مهمات للخارج آنذاك ـ أن ننفذ أوامر سفارات الاتحاد

السوفييتى كافة وأن أمكن أن نقدم لها المساعدة الضرورية. وفى اليوم التالى لوصولنا إلى القاهرة تلقت مجموعة المتدربين القادمين من موسكووغيرها من المدن (كان عددنا من معهد اللغات الشرقية أربعة - ڤيتالى ناؤمكين، ساشا بورميستروف، جينيا شيكوڤا وأنا) إلى السفارة لتلقى التعليمات. وأثناء جلوسنا فى البهو البارد فى انتظار الاستقبال لاحظنا أن الحياة تجرى فى سكينة وطمأنينة. لم يكن ما سمعناه فى التعليمات يتعارض بأى شكل من الأشكال مع الانطباعات الظاهرية. كنا نعلم أن الوضع فى البلاد هادئ إجمالاً. كإن المصريون يتعاملون مع السوفييت بأقصى صور المودة وكانت الحكومة بتأييد كامل من الشعب تبنى مجتمعا جديداً اشتراكيا تقريبا، أو بتعبير آخر، لم يكن هناك أى مبرر حقيقى للقلق. "تعلّموا وخالطوا السكان وبالدرجة الأولى بطبيعة الحال، الطلاب والمدرسين، ادرسوا البلد ولغتها ويمكنكم أن تقوموا برحلات كلما أتيحت لكم الفرصة، على أن تبلغونا إذا سافرتم إلى مدينة أخرى". ولعل من الأمور الدالة على استقرار الوضع أن سمح لنا بالتسجيل فى دورات العامية المصرية فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة الأمر الذى لم نكن نطمح للقيام به (كانت التعليمات الخاصة بالمواطنين السوڤييت تحذر من تلك المخاطر وأن فى القاهرة مثلاً ذكيًا يقول " اللى يخاف من عفريت يطلع له"). وكان المبنى الجديد للسفارة الروسية والذى لم يمر على بنائه عام منذ أن وصلنا يمثل رمزا متميزا من نوعه لعلاقات الصداقة الوثيقة المصرية السوڤييتية. كان مبنى السفارة يشبه صندوقا زجاجيا يمكن للمارة فى الشارع أن يروا من خلال حوائطه الشفافة كيف يجتمع العاملون فى السفارة بداخله فى الردهات ليدخنوا أويتبادلوا النكات (يقال إن الذى وضع تصميم مبنى السفارة هوالمعمارى نفسه الذى صمم معسكر الطلائع فى أرتيك[٥٩]).

ولكن كما هو معروف فإن "الشرق موضوع بالغ الحساسية"، ففى عام ١٩٦٧ وخلال بضعة أيام تغير الوضع فى البلاد على نحو جاد. أغلق المصريون خليج العقبة وبذلك حاصروا الطريق الذى يسلكه الإسرائيليون فى طريقهم إلى ميناء إيلات على البحر الأحمر، الأمر الذى كان لا بد وأن يؤدى إلى بدء العمليات العسكرية، أثارت المخاوف الجادة، وكذلك كون الخبراء العسكريين السوڤييت

(٥٩) معسكر شهير عالميًا بجنوب القرم بالاتحاد السوفييتى، ٢٤٠ كان يقضى به الشبيبة أوقات استجمامهم.

أصبحوا معزولين بالفعل عن أعمالهم (شاهد الخبراء عند ذهابهم إلى أعمالهم الأقفال على أبواب مكاتبهم، كما أنه لم يعد بمقدورهم التأثير فى الأحداث المتسارعة. وقد أخبرنا المشرف على شئوننا فى السفارة قائلاً: "إن الوضع قد خرج عن السيطرة، وقد تعقدت ظروف عمل الدبلوماسيين بشكل كبير ولذلك فإن السفير يطلب منكم الإبلاغ عن كل شىء يحدث فى المدينة".

أعتقد أنه بنهاية شهر مايو لم يعد هناك من تساوره الشكوك فى أن الأزمة يجب أن تتصاعد لتصل لذروة الحرب التى يستعد لها الجانبان المتنازعان بشكل مكثف. كانت شوارع القاهرة الكبرى مليئة باللافتات الداعية إلى سحق إسرائيل أو كما كانت الصحافة العربية تسميها آنذاك "بالكيان الصهيونى". وبالإضافة إلى الأعداد الكبيرة من رجال الشرطة أضيفت الورديات العسكرية. توقفت الدراسة فى المؤسسات التعليمية، غادر الطلاب المدن الجامعية متوجهين إلى مراكز التدريب العسكرى. والآن يصعب أن تصدق أن فى هذا الموقف العصيب قبل يوم واحد تماما من بدء العمليات العسكرية أعطى يفجينى مكسيموفيتش بريماكوف[٦٠] سيارته الرسمية لأربعة طلاب من معهد اللغات الشرقية لكى يتمكنوا من القيام برحلة ممتعة من القاهرة إلى العلمين (حيث دمرت القوات الإنجليزية إبان الحرب العالمية الفيلق الإفريقى الذى كان يقوده اللواء الألمانى روميل).

فى صباح الخامس من يونيو أعلن المذيع فى الإذاعة بشكل احتفالى أنه بدأت أخيرا المعركة الحاسمة (المصيرية تبعا للترجمة الحرفية). أعلنت البيانات فى البداية عن عشرات ثم عن مئات الطائرات الإسرائيلية التى تم إسقاطها. ولكن لم يمض يوم واحد حتى توقفت الأخبار القادمة من الجبهة ولم تعد محطات الإذاعة تذيع أى شىء سوى المارشات العسكرية. أصبح واضحًا أن كارثة قد وقعت. سألَنا معارفنا من المصريين لماذا لم يتدخل الاتحاد السوفييتى فى الحرب ولم يقدم المساعدة. لم نكن نعرف الإجابة إذ أنه منذ اليوم الأول للحرب لم يستطع أحد حتى فى السفارة أن يقول ما علاقة القيادة السوفييتية بهذا الصراع. وفى اليوم التالى نشر تصريح للحكومة السوفييتية أشارت فيه إلى ما يعنيه العدوان من جانب إسرائيل ضد الدول العربية، وهكذا أصبح كل شىء فى مكانه.

---

(٦٠) مراسل جريدة البرافدا بمصر فى ذلك الوقت، وهى الجريدة الرسمية الناطقة بلسان الحال للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى.

ينبغى القول إن الحرب كانت تعبر عن نفسها بشكل حقيقى فقط ليلا عندما كانت المدينة تسبح فى الظلام وقد كان هناك وقت كانت طائرات سلاح الجو الإسرائيلى تقوم بغارات على المطارات الموجودة فى أطراف القاهرة. وقد اقترح البعض الاحتماء من القنابل فى مبان تحت مدرجات استاد الجامعة، لكننا كنا نعتلى سطح المدينة الجامعية من حيث كنا نرى جيدا انفجارات القنابل التى كانت تأتى مصحوبة بهزة أرضية خفيفة. ولعل أقوى غارة جوية كانت الأخيرة وكان المقصود منها هو استعراض القوة والتحذير هى التى وقعت فى تلك الليلة التى وصلت فيها القوات الإسرائيلية إلى قناة السويس بعد أن توقفت العمليات العسكرية بالفعل على الجبهة. فى أثناء النهار، خلافا لما تكون لدينا من التصورات النمطية عن الحرب، كانت الحياة تمضى فى المدينة بإيقاعها الطبيعى، كانت المحال والمقاهى والمطاعم ودور الملاهى تعمل كما لو كانت فى أيام " السلم " وفى آخر أيام "الحرب" ذهبنا إلى دور العرض فى حفلة المساء. لا أعرف لماذا مازلت أتذكر اسم الفيلم "After the Fox" كانت الساعة حوالى السادسة مساء. كان الجمهور كبيرا على غير المعتاد فى ردهة السينما وكان مرحا. بتعبير آخر كان هناك جزء من المواطنين ينتظرون بسرور التغيرات القادمة. وبعد ثلاث ساعات غادرنا السينما لنكتشف أن المدينة قد تغيرت: لم تكن هناك لافتة واحدة من تلك اللافتات التى كانت تغطى شوارع القاهرة، كلها فى الأسابيع القليلة الماضية. وفى نفس الليلة ألغيت إجراءات تعتيم الإضاءة وعاد وسط المدينة كله كسابق عهده أيام السلم غارقا فى الأنوار، على أنه فى الجيزة، على الضفة الأخرى من نهر النيل كان رجال الشرطة ما يزالون يصيحون "اطفى النور". وفى وقت متأخر مساء توجه ناصر إلى البرلمان ليخطب فى الشعب معترفا بمسئوليته عن الهزيمة ثم يعلن تنحيه عن سلطاته وينقل مقاليد الحكم لأحد أنصاره وهو زكريا محيى الدين السياسى صاحب الميول الأمريكية. لم يتمكن الرئيس من إنهاء خطابه، وإذا بهدير يتعالى من ناحية الحى "الشعبى" المتاخم للمدينة الجامعية. أصبح الأمر مخيفا إلى حد ما، فلأول مرة فى حياتنا نصبح شهود عيان على فترة لا سلطة فيها، وذلك عندما بدى الأمر كما لو أن السلطة القديمة قد رحلت، ولم تأت السلطة الجديدة بعد. ولكن ولحسن الحظ سار كل شىء على ما يرام: مرت الجماهير بالقرب من المدينة الجامعية متخذة طريقها نحو قصر الرئاسة.

إن نتائج "حرب الأيام الستة" معروفة جيداً هى وما تبعها من الأحداث، التى تعد نوعا من "إعادة البناء" من جانب القيادة للبلاد وللجيش. لم يتوقع أى شخص مخرجا آخر إذ كان من المستحيل تصور أن يدخل الحرب هؤلاء الضباط السمان الذين يجلسون بصعوبة فى المقاعد الخلفية للسيارات الأمريكية الرحبة. عدد كبير من هؤلاء الضباط أحيلوا إلى الاستيداع بعد الحرب أوإلى الراحة "التى يستحقونها"(٦١) كما نقول عندنا، فى أماكن بعيدة. مهما كان الأمر كان من المحتم بعد "حرب الأيام الستة" البدء بشكل عملى فى بناء القوات المسلحة من جديد.

كان المستشارون والمترجمون يتوافدون على القاهرة بشكل يومى تقريبا. وكانت المشروعات مفروضاً العمل بها كثيرة، فى حين كان المترجمون قلة، لحد أن القيادة كانت تحاول أن تضع فى اعتبارها الرغبات الشخصية. تم عرض العمل فى وحدات المدفعية والوحدات الجوية ووحدات الدفاع الجوى والتى يقع معظمها فى منطقة قناة السويس. وفجأة دخل إلى القاعة التى كان يجرى فيها توزيع المترجمين شخص قدم نفسه على أنه العقيد بحرى ديانشينكو وأعلن أن أركان الأسطول فى حاجة ماسة إلى مترجمين من الذين يجيدون اللغة العربية. ومن بين الذين كانوا قد وصلوا مجددا كنت المستعرب الوحيد ولهذا فقد سافرت بعد بضع دقائق إلى مدينة الإسكندرية مع مجموعة من مستشارى القوات البحرية المصرية العائدين من إجازة. قال دياتشينكو" أنت محظوظ جداً لأنك ستعمل فى الإسكندرية. كان علينا أن نكون فى موقع العمل منذ أمس ولكننا تأخرنا ليلة بأكملها لأن قائد الطائرة اكتشف وهو فى الجو أن الطائرة لم يتم تموينها بالوقود ومن ثم فقد اضطر للعودة. الإسكندرية مدينة رائعة الجمال وبدوننا كنت على الأرجح لن تذهب إليها" . مازالت حتى الآن أتذكر بكل الامتنان هذا الطيار الذى لا أعرفه، كما أذكر فى الوقت نفسه الخدمة فى المطارات.

فور وصولى إلى الإسكندرية تم اختيارى للعمل فى أركان القوات البحرية المصرية، فى البداية فى قيادة التدريبات العسكرية ثم "نقلت" لأصبح تحت تصرف مستشارى قسم الاستخبارات بإدارة العمليات ومستشار قائد الأركان. فى السنة الأولى من العمل كان هناك نقص حاد فى المستعربين. وقبل وصولى كان

(٦١) التقاعد.

يورا عزيزوف (خريج جامعة باكو) يحمل على كاهله عبء القسم "العربى" بأكمله تقريبا. بعد ذلك بقليل ظهر إليكس يرشوف من معهد موسكو الحكومى للعلاقات الدولية والطالب الدارس فى معهدنا والذى جاء فى دورة تدريبية واسمه إسرافيل وكيلوف (وهو شغل بعد ذلك منصب سفير أذربيجان لدى مصر).

كان هناك عدد كبير من المترجمين المدنيين أى من الذين لم يستدعوا للخدمة فى الجيش. وفى أحيان كثيرة كان المترجمون العسكريون والمدنيون يؤدون فى الواقع نفس العمل، على أن العسكريين كانوا يتقاضون راتبا أعلى لأنهم كانوا يتقاضون بدل الرتبة العسكرية. وفى هذا الصدد أتذكر موقفا مضحكا. كانت القيادة القادمة من القاهرة تقوم بعمل زيارات منتظمة لنا، وفى أحد لقاءاتها سأل المترجمون المدنيون عن السبب فى أن المترجمين العسكريين يتقاضون راتبا أكبر على الرغم من أنهم يقومون بنفس العمل. عندئذ أعلن القائد القادم ردا على هذا السؤال قائلا إنه مستعد الآن فى هذا المكان أن يقبل طلبات جميع الراغبين فى الالتحاق بالخدمة العسكرية. وعلى ما أتذكر لم يتقدم أحد بمثل هذه الطلبات وبهذا أغلق الموضوع.

كان جميع المستشارين تقريبا الذين تسنى لى العمل معهم فى أركان الأسطول من الذين خاضوا الحرب الوطنية العظمى[٦٢] كما كانت لديهم خبرة غنية، فالفريق البحرى بوريس فاسيليفيتش سوتياجين مستشار قائد الأركان قاد قافلات السفن بمنطقة المحيط المتجمد الشمالى، أما اللواء بحرى يفجينى فاسيليفيتش ليفاشوف مستشار رئيس الإركان فقد "سبح" فى البحر عندما قذفت به من المركب موجة انفجار، ومن الذين خاضوا الحرب أيضا القبطان الأول ألكسندر إيفانوفيتش فيچيليتسوف (مستشار رئيس وحدة الاستخبارات) وقنسطنطين جلياروفيتش سوسنوفسكى (مستشار رئيس إدارة العمليات) ونيكولاى بتروفيتش ريبين (مستشار إدارة التدريب العسكرى) واللواء بحرى س. ب. كوستريتسكى والقبطان أول أ. إ. كانادزى، وجميعهم حاصلون على نجمة بطل الاتحاد السوفييتى. ينبغى أن نذكر هنا، أنهم كانوا لا يحبون الحديث عن الحرب. وقد استطعت أن أعرف الأسباب التى نالوا من أجلها الأوسمة فقط بعد ما زرت

(٦٢) الحرب التى خاضها الاتحاد السوفييتى ألمانيا النازية فى الفترة من عام ١٩٤١ إلى ١٩٤٥.

مركز التجنيد العسكرى بعد انتهاء الخدمة ورأيت سيرة موجزة لهم على لوحة الأبطال، عندها أحسست بالفخر لأننى تعرفت على هؤلاء الناس وعلى أننى عملت معهم.

عندما بدأت خدمتى فى مصر كان الموقف هادئا ولم تكن "حرب الاستنزاف" قد بدأت بعد. ولم تكن الأعمال العسكرية الفعلية قد دارت رحاها. وكان العمل فى هيئة الأركان كثيرا، وكان العمل فى إعداد الوثائق يتم بتركيز بالغ. وقد أدركت وأنا اشترك فى مباحثات المستشارين مع الضباط المصريين إلى أى حد يلعب إعداد الوثائق على نحو صحيح دورًا مهمًا، إذ أن غياب التنظيم فى الأفكار يعنى غياب التنظيم فى الجانب العملى. لا حاجة لأن نكرر مدى الأهمية الفائقة التى كانت تقع على عاتق مستشارى الأركان فى تقديم المساعدة فى التخطيط للعمليات العسكرية الكبيرة. ومن المناسب هنا أن نذكر أنه بفضل التعاون المتبادل بين ضباط الأركان السوڤييت والمصريين فى إعداد الأشكال المتنوعة للوثائق العسكرية الروسية والعربية فقد اتضحت بعض الأخطاء هنا أو هناك، تلك الأخطاء التى كان لها أهمية جوهرية للتوصل إلى الوضع الصحيح للمهمة. ولعل الكثيرين يعرفون أن الأجانب كثيرا لا يقدرون على فهم الاستخدام الصحيح للأفعال الناقصة والكاملة فى اللغة الروسية. ويرجع السبب فى ذلك لعدم وجود هذا الاختلاف فى لغاتهم. أتذكر كم تعين إنفاق كثير من الوقت لأشرح للمصريين الفرق بين الفعلين الروسيين "دمر" بالمعنى الناقص و"يدمر" بالمعنى الكامل. خلاصة الأمر أن المصريين عند إصدارهم الأوامر العسكرية باللغة العربية يستخدمون كلمة "يدمر" بحيث يستطيع القائد، بعد أن يتلقى الأمر أن يقوم "بالتدمير" دون نتائج محددة، وإنما يعتبر أنه بعدها قد نفذ مهمته. مثال آخر: فى أثناء إحدى مناقشات مستشار قائد أركان الأسطول اللواء بحرى ى. ف. ليڤاشوف اهتم أن يعرف بنفسه الإجراءات التى يتم اتخاذها لمواجهة التخريب المحتمل للعدو. وصل إلى إجابة مفادها أنه يتم تشديد الحراسة على المواقع المهمة. عندئذ سأل ليڤاشوف: فى هذه الحالة هل سيكون عليكم مواجهة اللصوص أم اتخاذ التشكيلات العسكرية الدورية؟ " كان الجواب بدهيًا ولهذا قام اللواء بحرى بالتصويب بدقة ذاكرًا أن الإجراء الذى يتخذ ضد قوات العدو

المسلحة لا يتم بتنظيم الحراسة وإنما تنظيم الدفاع، الأمر الذى يتطلب اتخاذ إجراءات مختلفة تماما.

أتذكر أيضا على وجه الخصوص المباحثات التى أجراها مستشار قائد استخبارات الأسطول العقيد بحرى إ. زاسبيبكين الذى خلف منصب العقيد بحرى أ. إ. فيچليتسوف الذى انتهت مدة خدمته. كان هذا الرجل يتميز بمظهر أنيق بين باقى المستشارين (كانت تناسبه تماما البدل الفنلندية الشائعة فى هذا الوقت). وفى نفس الوقت كان يقوم بعمله بنفس "الأناقة" مع "مرءوسيه". وقد بدأ تعارفه مع قائد الاستخبارات بهذه الكلمات "أنا عقيد بحرى، ربما لم أحصل بعد على رتبة "فريق"، ولكننى سوف أسعى جاهدا لأساعدك لتحصل على هذه الرتبة". وذات مرة اضطررت أن أترجم حوارًا على النحو التالى: سأل العقيد بحرى الضابط المصرى "ما هى فى رأيك مهمة قائد الاستخبارات؟ "فأجاب الضابط أن مهمته تتلخص فى جمع المعلومات الاستخبارية. عندئذ طرح إ. زاسيلكين سؤالاً مباغتا: "قل لى يا سيد يسرى (على ما أتذكر كان هذا هواسم قائد الاستخبارات)، هل لديك أبناء، فأجاب الضابط أن لديه ولدًا فى الحادية عشرة. عندئذ قال له زاسيبكين" إنه يصلح تماما لأن يشغل منصبك، لأنه أيضا يستطيع جمع المعلومات عن العدو. إن مهمتك هى تخطيط الإجراءات الاستخباراتية".

إجمالاً فقد كانت علاقات المودة الدافئة تربط بين المستشارين والضباط المصريين. كان العديد من الضباط الكبار قد تلقوا تعليمهم فى الاتحاد السوفييتى وكانوا يتذكرون هذه الفترة بكل سعادة. وبالإضافة إلى ذلك كلما كان المستوى أعلى كلما تطلب الأمر ليس فقط سعة اطلاع فى الشئون البحرية وإنما صفات دبلوماسية غير عادية. بطبيعة الحال إن العبء الأكبر فى هذا الأمر كان يقع على كاهل مستشار قائد الأسطول إذ أن فعالية عمل مجموعة المستشارين بأكملها تتوقف على علاقاته الشخصية والعملية مع القائد فى نهاية الأمر. وقد تولد لدى انطباع أن أكبر المتاعب وأصعبها كانت من نصيب ب. ف. سوتياجين وذلك عندما كان الأسطول، تحت قيادة الفريق فؤاد زكرى. كان هذا الرجل أرستوقراطيا بكل معنى الكلمة واستنادا إلى كل تصرفاته، كان واحدًا من أغنى

أغنياء مصر. فإذا كانت القهوة التركية أو الشاى أو مشروب آخر لذيذ هى الضيافة المعتادة التى يقدمها الضباط المصريون إبان المباحثات، فقد كان فؤاد زكرى كثيرا ما يقدم السيجار لضيوفه وهو ما لم يكن مستشارونا قد تعودوا عليه. وبالنسبة لى شخصيا باعتبارى دارسا للغة العربية فقد ترك استخدامه للغة العربية السليمة بشكل رفيع انطباعا هائلاً علىّ وهو ما يدل على تلقيه تعليما وتربية حسنة.

كان يبدو لى أنه كان يتلقى الملاحظات المتعلقة بالقصور فى الإعداد العسكرى فى الأسطول بإحساس طاغ بالألم ودائما ما كان يسعى ليعطى للآخرين انطباعا بأن الكلمة الأخيرة له هو. لم تكن كثير من اقتراحات مستشارينا تلقى أهمية كبيرة. أذكر أن اللواء لم يوافق على تطبيق نظام خاص بالعمليات فى منطقة الإسكندرية. كان البحر فى الليل يمتلأ عن آخره وحتى نقطة الأفق بأعداد هائلة من مصابيح سفن الصيد. وبطبيعة الحال كان من الممكن أن "تندس" بينها أى سفينة معادية. وعلى الرغم من وجود "اتفاق ما غير معلن" التزم الإسرائيليون بموجبه بعدم ضرب الإسكندرية والتزم به المصريون فلم يضربوا الموانئ الإسرائيلية، فقد كان توفير الأمن فى منطقة الإسكندرية أمرا ذا أهمية خاصة بالنسبة لتوقع وصول وحدات الدفاع الجوى السوفييتية واحتمال زيارة الغواصات السوفييتية النووية للميناء وقد اقترح مستشارونا على الفريق زكرى القيام بإجراءات رقابة مشددة على خروج السفن إلى عرض البحر ولكنه لم يوافق مبررًا رفضه بضرورة خروج سفن الصيد إلى عرض البحر دون التزام بجدول محدد وإنما عند وجود الأسماك فيه. وقد فسر المستشارون رفضه بأن قائد الأسطول البحرى من أصحاب مراكب الصيد. يجب القول هنا إحقاقا للحق إن "الإسكندرية كانت مليئة بالأسماك" وأن سوق السمك كان ممتدًا بطول الطريق المؤدى إلى مبنى أركان الأسطول وكان أقرب ما يكون إلى متحف يعرض مخلوقات بحرية غريبة. وقد أرجع مستشارونا رفض الفريق زكرى ضرب آبار البترول التى يستغلها الإسرائيليون فى سيناء لأسباب اقتصادية. وقد راجت الأقاويل أنه يمتلك أسهما فى شركات البترول. التى تدر عوائد بغض النظر عمن يملكها إذ أن الملكية الخاصة أمر مقدس. وقال الخبراء: "لا يدمر أحد أمواله".

(فيما بعد وفى سياق "حرب الاستنزاف" أحيل زكرى إلى التقاعد وجاء مكانه الفريق محمود فهمى، على أنه وإبان حكم الرئيس السادات فيما بعد علمت من الصحف أنه عاد ليقود الأسطول).

آنذاك، كانت مثل هذه الأفعال (أوقل "اللاأفعال") تثير لدى المستشارين ردود فعل سلبية، بل إنهم كانوا يعتبرونها نوعا من التخريب، أما الآن وبعد مرور سنوات طويلة فيخيل لى أن هذه الأحداث أظهرت حكمة المصريين وعدم رغبتهم فى تعريض الشعب لصعوبات إضافية لا طاقة له بها.

أما بالنسبة للمصريين البسطاء وأفراد البحارة فقد كانوا يشعرون بالدهشة من جراء غياب الشعور بالغطرسة لدى السوفييت، هذه الغطرسة التى كان الأوربيون فى الفترة الاستعمارية القريبة يعاملون بها المواطنين. على أنه حدث أمر آخر، فالبساطة وعدم الكلفة والاعتياد على معاملة الناس من منطلق الند للند كان لهم تفسير آخر. كثيرون ما زالوا يتذكرون نقص السلع الذى كان سائدا عندنا فى الاتحاد السوفييتى فى هذا الوقت ولهذا فقد كان السوفييت العاملون فى الخارج يشترون السلع الاستهلاكية بكميات ملفتة للنظر، الأمر الذى ترك انطباعا لدى المواطنين بفقر السوفييت ولذلك راح كثير من المصريين يسألون: "إذا كنتم أنفسكم فقراء، فلماذا تساعدوننا؟".

وقد لعبت البيروقراطية دورا كريها تمثل فى زيادة الحيطة والحذر. فذات مرة جاءتنا من القاهرة تعليمات تفيد أن العلاقات بين المسشارين السوفييت و"مرءوسيهم" قد حدث فيها تقارب كبير على نحو شخصى. وقد أصبح من الأمور المعتادة أن يتزاور السوفييت والمصريون فيما بينهم وهو ما قد يؤدى إلى تسرب المعلومات السرية التى لدى الضباط الكبار بلا شك". ولهذا فقد تم اقتراح أن تكون هذه العلاقات علاقات عمل رسمية محضة. لقد تصورت آنذاك أنه بفضل هذه العلاقات الطيبة تهيأت إمكانية إقامة علاقات المودة العميقة وخاصة بين الضباط أصحاب الرتب المتوسطة، إذ أن كبار الضباط حتى دون مثل هذه التعليمات لم يكن لديهم ميل كبير لإقامة علاقات تقوم على الثقة بينهم وبين نظرائهم. لقد كان من الممكن تماما لو أن هذه العلاقات "غير الرسمية" تطورت إلى درجة أبعد لما حدث هذا الفتور فى العلاقات السوفييتية المصرية فى الفترة



التى تلت ذلك. وهناك تعليمات أخرى لم تكن معقولة بالقدر الكافى وصلت إلينا فى مجال النشاط الاقتصادى أيضًا، وخاصة فى مجال النقل وهو ما قرأناه بالمناسبة فى إحدى المجلات الأمريكية ("نيوزويك" أو"تايم"). فقد رأت القيادة (فى جهاز كبير المستشارين العسكريين فى القاهرة) أن سيارات المستشارين يتم استخدامها بشكل مكثف للغاية وأنها قطعت مسافات طويلة. لم يؤخذ فى الاعتبار حجة أن مدينة الإسكندرية تمتد "بمحاذاة البحر حوالى ٤٠ كيلو مترا وأن سيارات "الجاز" الروسية التى يستعملها بعض المستشارين كانت "مرفوعة"، حتى أن كبار الضباط كانوا مضطرين "للتعاون" أى استخدام سيارة أحدهم حتى "تستريح" السيارات الأخرى. لقد تولد هناك انطباع أن ثمة علاقات فاترة بين القيادة "فى القاهرة" والقيادة "فى الإسكندرية". وقد برر المستشارون فى الإسكندرية ذلك بأن كبير المستشارين فى القاهرة ومستشار قائد الأسطول كانا على نفس الرتبة العسكرية (فريق وفريق بحرى) ما دام كبير المستشارين العسكريين لم يحصل على رتبة مشير بحرى.

كانت هناك أيضا أخطاء فى أعمال مستشارينا، وقد أدى أحدها إلى نتائج مأسوية. ظلت الحلقة الضعيفة لمدة طويلة فى القوات البحرية المصرية تتمثل فى خدمة المؤخرة. لقد أثار التأخير الطويل والإصلاح دون المستوى للسفن قلقا كبيرا، علما بأن السبب فى ذلك لم يكن على الإطلاق التخلف التقنى فى قاعدة الإصلاح. ينبغى القول إنه بسبب خصوصية الأسطول - المشبع بالمعدات المعقدة - نجد أن الجزء الأكبر من المصريين الذين تم استدعاؤهم للخدمة فى الجيش فيه من أفضل المتعلمين (الذين يتمتعون بالاستقرار المادى). كما نجد أن الكثير من الأفراد البحارة أنهوا معاهد علمية عليا ولهم أعمال خاصة. وهناك حالات معروفة كان المستشارون يشعرون فيها بالفخر فى التطوير الذى حدث، وخاصة فى الأجهزة الكهربية، الذى أحدثه المهندسون المصريون. بالإضافة إلى ذلك كان مستشارونا يسألون فى حيرة ولماذا يستحيل إصلاح السفن المصرية بسرعة وكفاءة، مثلما يتم إصلاح السفن السوفييتية فى نفس أحواض إصلاح السفن فى الإسكندرية والتى تعمل ضمن أسطول البحر الأبيض المتوسط، وتأتى الإجابة أن القطاع الخاص هو الذى يقوم بإصلاح السفن، أما السفن المصرية فيتم إصلاحها بواسطة القوات البحرية أى الحكومة.

ولكن إذا أردنا أن نحكم استنادا إلى كل الحقائق فإن الأمر يبدو أكثر تعقيدا. كانت الأمور تسير بطريقة غريبة وكثيرا ما كان الإصلاح يتأجل لمدة طويلة وخاصة إصلاح تلك السفن التى كان من الضرورى أن تخرج للاشتراك فى الحملة العسكرية. ذات مرة تم اكتشاف بيريسكوب مكسورًا فى إحدى الغواصات المكلفة بالقيام بالاستطلاع على السواحل الإسرائيلية قبيل الانتهاء من أعمال الإصلاح فيها. وقد برر بعض الضباط المصريين هذا الحادث بأنه جاء نتيجة التأثر باختلاف درجات الحرارة عند سطح البحر وفى الأعماق. عندئذ جرى عمل اختبار فتم إنزال البيريسكوب بشكل دورى تارة فى الماء الساخن وتارة أخرى فى الماء البارد ولم يحدث أى تلف. الأمر ببساطة أن بعض الضباط المصريين لم يكونوا فى عجلة للخروج إلى البحر. باختصار فى ظروف العمل الصعبة بالمعدات كان مطلوبا أن نقوم بوضع الأمور فى نصابها.

كان مستشارونا ينفقون كثيرا من الجهد والوقت من أجل اختيار مرشح مناسب ليكون قائدا للمؤخرة، وكانت الصعوبة الكبرى تتمثل فى أن القوات المسلحة المصرية كانت تأخذ بنظام ترقية الكوادر وكانت الترقية إلى المناصب الأعلى تتم وفقا لنظام الدور فى القائمة المدرج بها اسم الضابط عند انتهائه من المعهد الدراسى العسكرى، عند الترقية يؤخذ فى الاعتبار درجة النجاح فى الدراسة والمآثر الأخرى أو المخالفات (يمكن بسبب تطبيق إحدى العقوبات تراجع الضابط فى الترتيب فى القائمة عدة مواقع - بينما لا يمكن أن يتقدم الضابط إلى أعلى فى القائمة - على حد علمى - فى الواقع). واستنادا إلى الحقائق كافة لم يكن النظام المطبق على هذا النحو سيئا إذ كانت تضع موانع محددة أمام "المحسوبية"، على أنها فى حالتنا هذه كانت تعرقل قضيتنا فقد كان هناك عدد من الأشخاص فى القائمة يسبقون الضابط المطلوب فى الترتيب ولكنهم لا يصلحون للعمل المطلوب. وهكذا خسرنا بعض الوقت إذ لم تتم الترقية إلى المنصب كما لم يتم إحالة الآخرين إلى الاستيداع. وفى النهاية تم تجاوز كل العقبات وحصل اللواء على عثمان على منصب قائد المؤخرة وهو اختيار لاقى رضا الجميع. لست متأكدا من صحة الاسم ولكنى أذكر أن دور العرض العربية فى هذا الوقت كانت تعرض فيلم "عثمان الجبار" وكان زملاؤه فى العمل من المصريين يطلقون عليه هذا الاسم بعضهم على سبيل الدعابة والبعض الآخر من

قبيل الحسد). يجب القول إن عثمان كان جبارا بالفعل ـ كان مرحا يمتلك قوة جسمانية هائلة.

فى نهاية الشتاء أو مطلع ربيع ١٩٧٠ كان من المزمع الإعداد لواحدة من المناورات السوفيتية المصرية المشتركة فى البحر المتوسط. كان من المعروف أن الاختيار سيتم على ظهر طراد روسى ألقى بمرساته على بعد بضعة أميال من الإسكندرية أى تقريبا فى عرض البحر. على أنه ولأسباب مجهولة أخبر المستشار المناوب المصريين بمكان مختلف تماما عن المكان الذى سيتم فيه العمل وكان من نتيجة ذلك أن جزءا من الوفد المصرى أبحر معنا (على قاطرة كبيرة) بينما أبحر الجزء الآخر بما فى ذلك الفريق عثمان متأخرا. فى هذا الوقت هبت عاصفة شديدة للغاية ـ بلغت قوتها حوالى من ٣ إلى ٥ درجة، على أن الطراد الثقيل ظل ثابتا فى مكانه تقريبا، بينما راحت قاطرتنا فى الوقت نفسه تتأرجح بشكل هائل لدرجة أن النزول إلى الطراد كان أمرًا صعبًا للغاية.

كان الإعداد للمناورات يجرى على قدم وساق، عندما جرى الإعلان عن أنه يتم ربط قارب الطوربيد المصرى، الذى وصل على متنه قائد المؤخرة، بالطراد، على أنه بعد بضع دقائق أخبرونا أن الإنزال على الطراد لم ينجح وأن القارب قد عاد إلى الشاطئ دون تفسير. وعلى وجه السرعة وحتى قبل أن ينتهى إعداد المناورات شاع خبر أن الفريق عثمان قد أصيب إصابة بالغة إبان عبوره من القارب إلى الطراد فقد انحشر بين جانب الطراد وماسورة ماكينة الطوربيد للقارب المتأرجح. مازلت حتى الآن أتذكر كلمات الفريق البحرى ليفاشوف الذى أصبح شاهد عيان لهذه المأساة: "كان عليه أن يقفز عبر جهاز الطوربيد، ولكنه اعتمد على قوته البدنية وقرر أن يقبض على الطراد فاستند بيديه على جانب الطراد.

ولكن هل بإمكان المرء أن يقبض على ٧٥ طنا! فما إن ضغط عليه حتى راح البحر وكأنما قد أسعده الحصول على ضحية فهدأت أمواجه. كان المصريون يأملون أن يمر كل شىء بسلام، ولكننى عندما رأيت وجه الفريق عثمان قلت لهم "إننى رأيت حوادث موت كثيرة وأن هذه هى النهاية " وفى اليوم نفسه مات الفريق عثمان.

كانت "حرب الاستنزاف" التى بدأت تتطلب مشاركة الأسطول أيضا فى العمليات العسكرية، على الرغم من دور الأسطول ـ على حد علمى ـ كان متواضعا للغاية، حيث لم يكن هناك عدو بحرى بمعنى الكلمة من جانب، ومن جانب آخر فقد تقرر مصير الحرب على البر وفى الجو، وكان العدو الرئيسى للقوات البحرية المصرية هو الطيران. وفى أثناء ذلك تكون مشهد مثير للفضول للغاية. فقد كانت القوات البحرية المصرية تقوم بعملها على نحو أكثر فعالية فى البحر المتوسط بينما كان الطيران الإسرائيلى يرد بضربات على الأسطول الصغير الموجود فى البحر الأحمر. وقد نالت معركة قوارب الصواريخ المصرية مع المدمرة الإسرائيلية "إيلات" عام ١٩٦٧ شهرة واسعة. وفى مبنى أركان الأسطول وزعت بعض الأشياء على هيئة معرض، حيث جرى عرض كل ما أمكن جمعه من المكان الذى تم القضاء فيه على هذه المدمرة (لا أعرف لماذا ما زلت أتذكر سماعة تليفون مكتوب عليها "Rapid") ومن بين الأشياء المعروضة بقايا الصواريخ التى أغرقتها. وقد تأكدت فعالية عمليات قوارب الصواريخ أكثر من مرة. وفى سياق "حرب الاستنزاف" أغرقت قوارب الصواريخ المصرية سفينة ضخمة كانت تعمل بمثابة مُخرِج جبار لعمليات التشويش، إذ بتدميرها اختفى التشويش على وسائل رادار قوات الدفاع الجوى المصرى. كان أمرا نموذجيا إذ بعد مرور بضعة أيام ظهر فى الصحافة الإسرائيلية خبر يفيد أن المصريين أغرقوا سفينة صيد.

نالت غارات المدمرات المصرية على امتداد شاطئ سيناء بهدف توجيه ضربة إلى مخازن ومواقع الإسرائيليين شهرة واسعة وهو ما سجله فى مذكراته الأدميرال ف. إ. زوب الذى كان يشغل آنذاك مستشار قائد لواء المدمرات والذى شارك بنفسه فى هذه الحملة. كان هذا العمل بكل تأكيد نجاحا هائلاً للقوات البحرية المصرية. لقد بوغت الإسرائيليون بالفعل بذلك وفى البداية قرروا أن مجموعات تخريبية تمارس عملها على أراضيهم. على أنه تم اكتشاف مصدر "القلق" الحقيقى على وجه السرعة وهنا حلق الطيران فى الجو. تم اكتشاف المدمرات ومهاجمتها. وفى مقر أركان الأسطول تقرر أن جميع السفن لم تصب بسوء (على الرغم من وجود جرحى بين الأطقم) ويرجع الفضل فى ذلك لأن الطائرات لم تكن معدة لتدمير أهداف بحرية أى أنها كان لديها خبرة "برية" فى المعارك. وعلى الجانب الآخر كان من الممكن توقع مصائب جسيمة.

لقد اقنع مستشارونا العرب ألا يغالوا فى تقدير قوة الطيران حيث تمتلك السفينة وسائل لتدمير الطائرة أكثر ما تملكه الطائرة لتدمير السفينة. وللأسف فإن ما حدث فى الواقع لم يكن دائما مبشرًا. فبعد بضعة أيام بالتحديد بعد نقاشنا الدورى فى هذا الموضوع وخلال بضع دقائق تم إغراق زورقى طوربيد فى البحر الأحمر نجح الطيران الإسرائيلى فى اقتناصهما " فى مجرى ملاحى ضيق حيث فقد الزورقان إمكانية المناورة. وبالإضافة إلى ذلك لم تستطع الأطقم القيام بالمراقبة البصرية ـ كما اتضح فيما بعد ـ حيث لم تكن لديها نظارات غامقة أو زجاج معتم، بينما كانت الطائرات تهاجم عادة وهى قادمة من ناحية الشمس.

فى ميناء بورسعيد مباشرة تم إغراق كاسحة ألغام، وعندما وصلت الأنباء عن الغارة كان:. ج. سوسنوفسكى (مستشار رئيس إدارة العمليات) وأ. إ. فيجيلتسوف (مستشار رئيس قسم الاستخبارات) ون. ب. ريبين (مستشار رئيس إدارة التدريب العسكرى) موجودين فى نقطة قيادة القوات البحرية. ولمدة طويلة لم تصل أية أنباء عن سير المعركة على الرغم أنه كان من المكن الاتصال تليفونيا بالسويس. تساءل سوسنوفسكى فى حيرة: "لماذا لم يتم أى اتصال؟" فأجاب فيجليتسوف: "هل تذكر الحرب؟. آنذاك لم تكن أية اتصالات تصل من أى شخص" وبعد عدة ساعات عاد الاتصال وعلمنا ببالغ الحزن أنه قد تم إغراق كاسحة الألغام على الرغم من المقاومة اليائسة التى أبدتها على مدى عدة ساعات. "ما الذى سنبلغه إلى موسكو؟" يقول المصريون إن الكاسحة ناورت ببراعة وأنها غيرت من سرعتها وأنها كادت أن تسقط طائرة. فى البداية قررنا إبلاغ موسكو بالتفاصيل كافة، بعدها توالت البلاغات وهنا صاح ن. ب. ريبين: "أية مناورات بحق السماء! إن سرعة الكاسحة القصوى لا تزيد على ١٤ عقدة سنقول لهم: إنهم قاموا بعمل "حركة التفاف " حولها ثم أغرقوها".

كانت الصدمة الحقيقية هى غرق عدد من السفن فى ميناء سفاجا على ما أذكر، قبيل مغادرتها هذا الميناء متوجهة إلى ميناء بورسودان، حيث كان من المفترض اخفاؤها عن غارات الطيران. وعلى خلاف القواعد المتبعة كافة كانت السفن واقفة على رصيف الميناء متلاصقة. وغير معروف لنا كيف حدث أن وصل أمر بالاسلكى بإغلاق الردارات. وبعدها بعدة دقائق بدأت الغارة...

صحيح أنه تم إحراز عدة انتصارات كبيرة فى البحر الأحمر. ولمدة طويلة استمر أركان الأسطول فى حالة توتر دائم فى انتظار عملية إنزال بحرى كبيرة، الأمر الذى أشار إليه وصول سفينة إنزال كبيرة تحمل اسم "بير شيفا" إلى قاعدة شرم الشيخ (الموجودة فى أقصى جنوب شبه جزيرة سيناء). وقد أوصى مستشارونا القيام بتنظيم عمليات عسكرية واسعة النطاق لإظهار مقدرة المصريين أمام العدو على القيام بعمليات ضخمة "وذات كفاءة عالية" لكن كان للمصريين حسابات أخرى فى هذا الأمر. وذات مرة نجحت قوات الكوماندوز البحرية المصرية (الضفادع البشرية) فى تدمير هذه السفينة (أعتقد أن ذلك حدث فى ميناء شرم الشيخ مباشرة) وبهذا العمل تم إعادة الأمور إلى نصابها فى هذا الاتجاه. وأتذكر أن قوات الكوماندوز كانت تمثل وحدة سرية للغاية تابعة للقوات البحرية المصرية كان الوصول إليها مغلقا حتى أمام مستشارينا. وأحيانا ما كانوا يظهرون فى أركان الأسطول فيقصون ما يحدث فى سيناء ولقد لفتوا الانتباه إلى أن القيام بأعمال الاستطلاع هناك أمر تكتنفه الصعوبة البالغة إذ أن بدو هذه المناطق يبلغون الإسرائيليين عن ظهور أغراب فى أراضيهم.

وقد وقعت أيضا خسائر مزعجة كان من أسبابها افتقاد الأطقم للمهارة فى العمليات. فذات مرة قام أحد زوارق الطوربيد بوضع الألغام على عمق غير كبير (حوالى ٢٠ مترا) فى أثناء هبوب عاصفة قوية وعندما وصل اللغم إلى العمق ونتيجة لانحسار المياه أقل من ٢٠ مترا وقع الانفجار الذى أطاح بمؤخرة الزورق. وعندما أبدى ى. ليفاشوف اهتماما بتحليل الأمر والغرض من وضع الألغام على هذا العمق كانت الإجابة أن الهدف هو تفجير سفينة الإنزال بالقرب من الشاطئ تقريبا حيث لا يتوقع جنود الإنزال وجودها عادة فى هذا المكان. وأكمل ليفاشوف قائلاً: فى هذه الحالة لن يكون أمام العدو مخرج آخر إلا أن ينزل ويدخل فى اشتباك. وبشكل أخرق تماما خرجت من الخدمة كاسحة ألغام جديدة بعد أسبوع واحد فقط من تسليمها للطاقم. ففى أثناء المناورات التى كان الغرض منها "الكفاح من أجل الحيوية" اشتعل أحد المواقد الكهربائية فى مطبخ السفينة وهنا اتخذ القائد قرارًا بفصل التيار الكهربائى، وكان من نتيجة ذلك أن السفينة أصبحت بدون وسائل إطفاء وبالفعل ظلت تحترق على مدى بضع ساعات. قرر الفريق ليفاشوف أن يتقصى الأمر فى مكان الحادث فتوجهنا إلى الميناء. كانت

الكاسحة المحترقة تقف على المرسى وكانت هناك عملية إفراغ للمخزون العسكرى عليها. وعندما شاهد الفريق كيف راح البحارة بجرأة يقذفون عبر جانب السفينة شرائط بدانات عيار ٣٠ مم فكر قليلاً ثم قال وكأنه يحدث نفسه: "سوف تقع هنا الآن كارثة مروعة"، ثم غادر المكان سريعا بحثا عن الفريق بوبوف، مستشار مساعد قائد الأسطول لشئون المؤخرة فى الميناء.

وقد وقعت فى الحقيقة أحداث تدخلت فيها "العناية الإلهية". أذكر كيف كان هناك كبل كهربائى ضغط عالٍ مكشوف موضوع على رصيف المرسى المبلل كان الشرر يتطاير منه بالفعل. وكان البحارة يسيرون جيئة وذهابا وكان كثير منهم يمشون حفاة الأقدام. وهنا قال أحد خبرائنا مداعبا: "انظروا ماذا يعنى أن يؤمن المرء بالله، لوكان الأمر كذلك عندنا لقتلت الكهرباء هؤلاء الناس وها هم يسيرون حفاة الأقدام وفى هذه الظروف".

لا حاجة لأن نذكر الاهتمام الذى كان يوليه الجيش السوفييتى للوضع السياسى والمعنوى لقواته، وعندما نبه مستشارونا المصريين إلى هذه القضية اتضح أنه لا توجد فى القوات المسلحة المصرية إدارة خاصة يجب أن تقوم بأعمال التربية السياسية. كان المصريون يشعرون أيضا بأهمية إنشاء هذه الإدارة وبعد فترة زمنية قصيرة ظهرت فى أركان الأسطول " إدارة التوجيه المعنوى. وكان من أول الإجراءات التى قامت بها الإدارة عمل استبيان مفتوح للضباط والبحارة فى موضوع "كراهية العدو" وقد جاءت النتيجة غير متوقعة، ومن ثم فقد أصبحت هذه النتيجة موضوعا لنقاش خاص. اعترف حوالى ٤٠ ٪ من الذين اشتركوا فى الاستبيان المفتوح لا يشعرون "بكراهية العدو". وقد سأل مستشارونا قائد الأسطول الفريق محمود فهمى كيف يفسر هذه الحقيقة فأجاب أن كثيرا من اليهود عاشوا ويعيشون فى البلاد، وقد كانت بينهم وبين المصريين علاقات طيبة.

فى بعض الأحيان كان هناك شعور بالاكتئاب والاستسلام للقضاء وعدم الثقة فى القدرة الذاتية. ذات مرة قال أحد الضباط المصريين (وهو من قسم الاستخبارات على ما أذكر) فى حديث له مع الفريق ليفاشوف: "أنا أعرف إلى أى حد اليهود خبثاء، لأن لى أقاربًا من اليهود" فأجابه ليفاشوف مشجعا أياه: "لابأس سوف نرسل لكم مستشارينا من اليهود وسوف يساعدونكم".

وفى نهاية عام ١٩٦٩ ظهر فى الصحف خبر يفيد أن عددا من زوارق الصواريخ التى تم بناؤها بطلب من إسرائيل والمحجوزة فى فرنسا لقيام الحكومة الفرنسية بمقاطعة تصدير الأسلحة للدول المشاركة فى النزاع فى الشرق الأوسط قد تمت سرقتها من ميناء شيربور الفرنسى. بالإضافة إلى ذلك لم يكن مفهوما على أى نحو استطاعت هذه الزوارق عبور جبل طارق دون أية معوقات ولماذا لم تقم القوات البحرية الفرنسية بمطاردتها فى البحر المتوسط وما إلى ذلك من تساؤلات. كانت الحسابات المبدئية تشير إلى أن المصريين لديهم الوقت الكافى للقيام بالمطاردة ولما كانت هذه الزوارق غير مسلحة فقد اقترح مستشارونا الاستيلاء عليها باعتبارها غنائم حرب. أتذكر أن أول منطقة تم تحديدها للمطاردة كان المضيق التونسى إلى حيث تم إرسال مدمرة وعدد من السفن المتخفية فى شكل سفن مدنية على أن السفن لم تنجح فى الوصول إلى المكان المزمع القيام فيه بالمطاردة إذ اتضح أن غلاية البخار فى المدمرة كان يتم ملؤها بماء البحر المالح (بدلاً من الماء العذب) وكان من الضرورى إعادتها إلى القاعدة ودخولها إلى إصلاح طويل. بقيت بعد ذلك فرصة وحيدة تمثلت فى إرسال زوارق الصواريخ المتمركزة فى بورسعيد للقيام بالمهمة. وأذكر جيدًا أن هذه المسألة تمت مناقشتها عند قائد الأسطول فى النصف الأول من اليوم فى سرية بالغة. ولكن لم يكن عبثًا أن الجنرالين الإنجليزيين ألكسندر ومونتجمرى اللذين حاربا الإيطاليين والألمان فى شمال إفريقيا وضعا فى اعتبارهما وهما يخططان للعمليات العسكرية أن الأسرار لا تزيد مدة كتمانها فى القاهرة على خمس ساعات (وقد اتضح ذلك فى الإسكندرية أيضًا) وفى مساء نفس اليوم ذهبت ورفيق لى إلى السوق. كانت هذه ليلة رأس السنة الجديدة ١٩٧٠ وسمعت بأذنى كيف أن أحد الجزارين كان يحكى لآخر أن زوارق طوربيد مصرية خرجت من بورسعيد لملاقاة زوارق الطوربيد الإسرائيلية. وفى نفس الليلة عرفنا من الأخبار أن الزوارق وصلت إلى ميناء حيفا الإسرائيلى وهكذا لم تتم عملية المطاردة. أما المفاجأة فتمثلت فى أن سبب انتقال الزوارق بسرعة يرجع إلى أن رياحا غربية شديدة دوت فى تلك الفترة وأن هذه الرياح دفعت مؤخرات الزوارق الإسرائيلية ولهذا فإن سرعتها الحقيقية بلغت تقريبا ٢٤ عقدة وليس ١٨ عقدة كما كان مفترضا.

عندما يتذكر المرء الإسكندرية فى تلك الفترة، فإنه يذكر بالخير الأسطول السوفييتى فى البحر المتوسط، حيث كان السوفييت دائما محل ترحيب. أما نحن "سكان الإسكندرية القدامى" فقد كنا سعداء أن نعرف بحارينا بهذه المدينة الرائعة، التى احتفظت بآثار مختلف العصور والحضارات. ما زلت أذكر جيداً سرورى عندما علمت بوصول المستشارين السابقين مالكين وتيونيك على متن إحدى سفن الأسطول إلى الإسكندرية وكيف أعد لهم البحارة المصريون استقبالاً بالغ الحفاوة. جدير بالذكر أنه خلافا لمواطنينا الذين كانوا يعملون فى مدن أخرى فإننا لم نشعر بالشوق إلى الخبز الأسود أو السردين الملح أوغيرها من الأطعمة التقليدية الحلوة، حيث إن هذا الخبز الشهى الذى لم يكن من الممكن العثور عليه فى أى محل للخبز فى المدينة، كان يتم خبزه على السفن. وكان الضباط المصريون يعتبرون هذا الخبز أفضل هدية. وعندما كنت أزور السفن كنت أتذكر دون إرادة منى كلمات أحد أبطال روايات جول فيرن الذى يقول "إن البحار لا تفرق وإنما تجمع القارات والشعوب". بعض المستشارين كانوا يرسلون إلى الوطن طرودا ضخمة مستغلين كون هذه السفن الحربية لا تتعرض للتفتيش فى الجمارك.

لقد اختلفت بعد ذلك مصائر المستشارين والمترجمين. فبعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر غادر الجزء الأكبر من الخبراء العسكريين السوفييت مصر وفى الوقت نفسه أصبح هناك فائض من كوادر المترجمين، فعلى سبيل المثال أصبح رفيقى ى. عزيزوف من مدينة باكو يدرس أعمال البرادة، على الرغم من أن أبناء موسكو بطبيعة الحال كانوا يجدون وظائف بسهولة أكثر. وعلى الرغم من فارق السن بين المستشارين والمترجمين فقد تكونت بينهم علاقات صداقة ومودة. ومازلت أتذكر حتى الآن بكل الامتنان بيوتر فاسيليفيتش مورافيوف هذا الخبير الرائع فى عمله والذى كان مسئولا عن إمداد أسطول البحر المتوسط بالوقود وكذلك زوجته نينا ميخايلوفنا، شارك مورافيوف فى معركة "قوس كورسكايا"(٦٣) وقد أحاطنى هو وزوجته بالاهتمام الأسرى الحقيقى. وعلى حد علمى فإن كثيراً من الضباط وخاصة الشباب منهم واصلوا الخدمة العسكرية بنجاح فى الوطن.

---

(٦٣) أكبر معركة دبابات جرت فى عام ١٩٤٣ بالقرب من مدينة كورسك.

أصبح الرياضى الرائع فالنتين إيفانوف الذى اشترك فى سبارنج مع لاعب الملاكمة الأسطورى فاليرى بوبينتسينكو قائدا لغواصة نووية. كانت هناك أيضا أمثلة أخرى. قال الفريق الشاب جولوتوالذى شغل منصب ب. ف. سوتياجين كمستشار لقائد الأسطول: إنه بعد كل المجهود العصبى الذى عاناه فى الشهور الأخيرة للخدمة فى مصر فإنه كان يحلم بالعمل فى وظيفة الممثل العسكرى بمصنع نيكويفسكى لبناء السفن. كان هناك بالطبع بعض القصور الذى شاب عمل المستشارين، وهوقصور حقيقى للغاية ولكن تبين أن ظلما وقع فى حق الكثير منهم، فقد عملوا كل ما فى وسعهم. يمكن أن توجه لهم اللوم على افتقادهم "للدبلوماسية"، وأحيانا القسوة الزائدة وحتى الغلظة ولكن لا يمكن أن يلاموا على عدم الصلاحية أو غياب الضمير.

فى تشكيل مجموعة العمل للقائد العام

س. ب. باچينسكى

بعد أن تلقيت أمر وزير الدفاع مارشال الاتحاد السوفيتى أ. جريتشكو بشأن القيام بعملية "القوقاز"، عقد قائد قوات الدفاع الجوى الجنرال بافل فيودور ڤيتش باتيتسكى اجتماعا دعا فيه نوابه الفريق أول أ. ف. شيجلوف، الفريق أول أ. إ. بوكريشكين، عضو المجلس العسكرى، رئيس الإدارة السياسية لقوات الدفاع الجوى فى البلاد العقيد. ف. خاليبوف، قائد الأركان الرئيسية الفريق أول ف. د. سوزينوف، رؤساء الأسلحة المختلفة ـ الفريق ف. بونداريـنكو (قوات المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات)، الفريق كادومتسيف (الطيران المقاتل) ورؤساء الإدارات ـ العمليات (الفريق ج. سكوريكوف)، الكوادر (الفريق طيار ل. ف. فاخورشيف)، شئون إدارة المؤخرة (الفريق طيار شيفتشوك). وبعد إعلان الأمر طرح الجنرال ب. ف. باتيتسكى مهاما محددة بشأن إعداد عملية "القوقاز" وتشكيل الفرقة ١٨ للصواريخ المضادة للطائرات لمهمة خاصة وإعدادها القتالى فى ميادين تجربة الأسلحة فى آشولوك ويانجادجا. وفى نفس اليوم تم تحديد مدد الاستعدادات للتحرك إلى مصر. وأعطيت التعليمات لقادة جيوش الدفاع الجوى بشأن تدريب الفرق والوحدات الخاصة التى كان من الضرورى أن تدخل فى تشكيل الألوية التى يجرى تشكيلها.

بحلول الموعد المحدد كانت إدارة العمليات للأركان الرئيسية لقوات الدفاع الجوى قد انتهت من إعداد خطة عمل العملية. كما كان العمل فى تشكيل الفرقة وتسليحها وتزويده بالمعدات الفنية قد انتهى. أما فى ميادين إعداد الأسلحة فقد تم إجراء التدريبات الضرورية وضرب النار على الأهداف على ارتفاعات منخفضة. وفى أثناء قراءة التقرير الذى أعده باتيتسكى على وزير الدفاع بشأن

الانتهاء من الاستعداد للقيام بعملية "القوقاز" دار بيننا الحديث التالى (كما يشهد بذلك العقيد ن. أكيموف). أوصى وزير الدفاع - بعد أن أشاد بالعمل الذى تم - بزيادة قوة اللواء من خمس إلى ست كتائب. أجاب القائد الأعلى بأنه عضو فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى بالاتحاد السوفييتى وأن المكتب السياسى هو الذى عينه لهذه الوظيفة وأنه مسئول عن الدفاع الجوى للبلاد وأنه ليس باستطاعته زيادة اللواء ولو بلواء واحد. بعد برهة من السكوت قال وزير الدفاع: "حسنا إذن سنكتفى بذلك".

قبل بداية نقل اللواء إلى منطقة العمليات العسكرية أصدر القائد الأعلى أمراً بتشكيل مجموعة عمليات برئاسة الفريق أول أ. ف. شيجلوف والتى تضم اللواء أ. بيلياكوف (مهندس التحصينات)، العقيد ف. أكيموف (نائب رئيس قسم إدارة عمليات الأركان العليا) ومنى أنا العقيد س. بانچينسكى (نائب رئيس قسم الإدارة السياسية) والعقيد ن. بوينتسينكو (من إدارة قوات الصواريخ المضادة للطائرات)، وعدد من ضباط مشاه الدفاع الجوى. كان على هذه المجموعة أن تأخذ على عاتقها التنظيم المباشر لنقل اللواء من ميناء نيكلايف حتى وصوله إلى ميناء الإسكندرية واحتلال المواقع العسكرية بهدف التغطية الدفاعية لمدينتى القاهرة والإسكندرية وسد أسوان والمواقع الأخرى، أما المهمة الأخيرة فكان من الضرورى حلها بالاشتراك مع المجموعة التى وصلت مسبقا إلى مصر قبل ذلك برئاسة اللواء أ. سميرنوف.

فى صباح باكر من أيام شهر فبراير عام ١٩٧٠ سافرت مجموعتنا إلى مصر على طائرة من مطار تشكالوفسكى[٦٤] مع توقف فى بودابست. وقد اضطررنا للبقاء فى المجر ليلتين بسبب سوء الأحوال الجوية، الأمر الذى أتاح لنا التعرف على آثار واحدة من أجمل مدن أوروبا. وبحلول جو مناسب للطيران واصلنا طيراننا فعبرنا الحدود اليوغسلافية عند منطقة ميناء دوبروفنيك. وفوق البحر المتوسط اقتربت من طائرة النقل التى نستقلها مقاتلات أمريكية تتخذ من إحدى حاملات الطائرات قاعدة لها. لم يستطيعوا من خلال النوافذ الجانبية أن يروا سوى الأمتعة. ونحن بدورنا لم نقترب من النوافذ الجانبية.

---

(٦٤) مطار حربى فى ضواحى موسكو.

هبطت طائرتنا فى مطار غرب القاهرة الحربى الذى كان قد تعرض قبل وصولنا بفترة قصيرة إلى قصف من القاذفات الإسرائيلية. وقد تعرضت كتيبتا صواريخ سام ـ ٢ عربيتان كانتا تقومان بحماية المطار لخسائر. توفى المستشار العقيد كورينيف فى أثناء الغارة على المطار. وفى تلك الفترة كان الطيران الإسرائيلى يقوم بضرب العديد من المدن دون عقاب، وقد تعرض للقصف المجمع التعدينى فى أبوزعبل، كما تعرضت مدرسة بحر البقر لغارة أيضا، مات على أثرها عدد كبير من التلاميذ، كما تم تدمير عدد من المواقع الإنتاجية. كانت نيران وسائل الدفاع الجوى المصرى غير مؤثرة بالقدر الكافى. وفى يوم وصولنا ردت هذه النيران أربع غارات من الطيران الإسرائيلى على القاهرة لكنها لم تستطع إسقاط طائرة واحدة وكانت الصواريخ تحترق ذاتيا.

بدأنا العمل اليومى فى البناء السريع لمواقع كتائب إطلاق النيران وكتائب الشئون الفنية وآليات الفرق ونقاط القيادة وما إلى ذلك من مواقع. كان البناء يجرى مع تأخير كبير، أما من ناحية الكيف فكانت أقل من أى نقد. قام الفريق أول شيجلوف بعمل عدد من اللقاءات مع القيادة العسكرية المصرية. كذلك كان الجنرال أ. بيلياكوف مع عدد آخر من ضباط المجموعة وقائد سلاح المهندسين فى الجيش المصرى اللواء كمال يقومون يوميا بتفقد مواقع البناء التى تعمل بها الشركات المصرية. وقد قامت بالعمل معهم مجموعة اللواء أ. سميرنوف التى وصلت مسبقا إلى مصر. أيام وليال لم يكن أحد فيها مشغولا بأى قضية سوى قضايا البناء. وبعد ثلاثة أسابيع سافرنا إلى الإسكندرية حيث عقدنا هناك علاقة عمل مع قيادة الميناء وتغلبنا على عدد من أوجه النقص الحادة فى عمل وسائل الرادار، كما ناقشنا بعض القضايا مع قنصلنا فى الإسكندرية سيرجى يوسيفوفيتش تروبكين (تروبنين) كما سافرنا عدة مرات إلى منطقة قناة السويس.

اقترب موعد وصول السفن. وفى الخامس من مارس ١٩٧٠ وصلت إلى الإسكندرية أول سفينة تحمل على متنها الأفراد والأسلحة وبعض المعدات الأخرى. وقد جرى استقبال كل سفينة بعقد لقاء مهيب بحضور القيادات العسكرية المصرية. وفى كل لقاء من هذه اللقاءات كان الفريق الأول أ. شيجلوف

يلقى بكلمة. وكان لخطبه أثر كبير فى إزالة الشعور بالارتباك والتقيد، كما كانت تبعث بروح الثقة فى نجاح تنفيذ المهام العسكرية. وبعد كل اجتماع كان يجرى العمل فى إفراغ السفينة وبعدها تذهب الكتائب إلى المواقع العسكرية لحماية ميناء أو إلى مناطق منفصلة لتغطية القاهرة وأسوان والمناطق المتاخمة للقناة وإلى مختلف المواقع الحكومية والإدارية.

فى أثناء التفريغ اختفت وحدات "ستريلا - ٢" لم يسفر البحث عنها على مدى عدة أيام عن شىء. وذكر العسكريون المصريون الذين حضروا عملية التفريغ أنهم لا يعرفون شيئا وليس لديهم أى تصور عن كيف وإلى أين اختفت هذه الوحدات. لقد ظهرت أمامنا حادثة جادة. وفى المساء استدعانى الفريق أول شيجلوف وأمرنى أن أترك أى عمل أقوم به وأن أتفرغ تماما للبحث عن "الكتائب" التى فقدت. وبعد أن تلقيت الأمر قررت أن أقوم بجولة تفقدية على مواقع كل الفرق فى منطقة الإسكندرية. ولحسن الحظ كنت أعرف مواقعها جيدا. وفى هذا الوقت وصلتنى تقارير من الكتائب كافة تفيد أنه تم التفتيش الدقيق فى كل مكان ولم يتم العثور على وحدات "ستريلا - ٢".

إن القيام بجولات ليلية على الطرق المصرية وبدون مترجم كان أمرًا غاية فى الصعوبة. كثيرا ما كان يتم إيقاف السيارة عند نقاط التفتيش فيصيحون عندها بشىء ما بعد أن يضعوا الرشاش مباشرة فى الوجه. كنت أدرك بالطبع ماذا يريدون، فكنت أبرز التصريح الموقع من القيادة العسكرية المصرية العليا والذى سمح لى بالعبور فى مناطق البلاد كافة وفى أى وقت من الليل أو النهار. وبعد فحص التصريح تغيرت اللهجة وأصبح الموقف طبيعيا وسُمح لى بالتحرك إلى الأمام. فى اليومين التاليين للبحث وفى أثناء قيامى بتفتيش أمتعة الوحدات التى كانت تشغل مكانها فى حديقة الملك فاروق عثرت على المفقودات. لقد ضاع جهد كبير فى البحث، لكن النتيجة كانت مُرضية. وعلى الفور غادرت المكان متوجها إلى الميناء لإبلاغ شيجلوف. وفى الطريق أصابت السائق سنة من النوم وإذا بالسيارة وبسرعة كبيرة تصطدم بالحاجز الخرسانى الذى يفصل الطريق عن البحر ودارت حول نفسها عدة مرات ثم توقفت. بعد ذلك لم يكن من الممكن على السيارة أن تتحرك. لم يصب السائق بأى أذى، أما أنا فكنت أشعر بالألم يسرى

فى جانبى الأيمن بأكمله. توقفت السيارات التى كانت تمر بجانبنا وخرج منها الناس وسألوا عما حدث. شرح لهم السائق شيئا ما وهو يبكى، ولما عرفوا أننى ضابط سوفييتى وأرتدى الزى العسكرى المصرى سارعوا بتقديم المساعدة. سرعان ما تم قطر السيارة إلى الميناء. وهناك كان الفريق أول شيجلوف سعيدا بتقريرى وأشار علىّ بضرورة الذهاب إلى النقطة الطبية للأسطول العسكرى السوفييتى، الذى كان يقع آنذاك فى الميناء ثم أذهب بعد ذلك لأستريح.

بعد استقبال السفن والأطقم والأسلحة كافة وتنظيم إقامة وحدات الإسكندرية عدة مرات أخرى إلى القاهرة. وقد تسنى لى القيام بمسيرة ليلية مع الكتيبة التى كان يرأسها المقدم م. ل. منصوروف. كانت رياح الخماسين تدوى وكان الرمل والغبار يحجبان الرؤية، وبدون استخدام نظارات خاصة كان من المستحيل تمييز نهاية الطريق. ومازلت حتى الآن مذهولاً من شجاعة وحرفية سائقينا. كان السكان المحليون فى ظروف هذه الرياح الرملية الدائرية قد ابتعدوا عن الطريق لمسافة تتراوح من ٢٠ الى ٣٠ متراً وقد دثروا أنفسهم حتى الرأس بالملابس وظلوا ينتظرون بضعة أيام حتى تهدأ الرياح ولو قليلاً. وصلنا فى الصباح إلى منطقة الجيزة حيث توجد الأهرام ذات الشهرة العالمية. توقفنا للراحة نهاراً وقمنا بصيانة المعدات التى تغطت بطبقة من الرمال والغبار. كانت وجوه الجميع سوداء والعيون تبرق وهم لا يعرفون بعضهم بعضاً، يلقون بالنكات. كان المزاج قتاليا. كانت الكتائب الموجودة هنا تتبع اللواء الذى كان يرأسه العقيد چايفرونوك وكان المقدم إ. بروبيلوف يرأس الإدارة السياسية، كان العمل على أشده بمعنى الكلمة بعد المسيرة وكان الجميع يعملون بجد وكفاءة.

وفجأة وعلى ارتفاع منخفض حلقت فوق الكتائب طائرتان من طراز فانتوم مرتا دون عقاب. لم ينجح فى إطلاق النار سوى مدفع من طراز "شيلكا". وعلى الفور استدعى الفريق أول شيجلوف كلاً من قائد الفرقة سميرنوف وميخايلوف س القسم السياسى وقام فى حضور كبير المستشارين الفريق أول كاتيشكين تبليغهم "درسا" استمر بضع ساعات. كان قادة الكتائب هم المسئولون مباشرة عن كتائبهم التى كانت تقوم بحماية منطقة التركيز التى لم ترصد محطات راداراتها الطائرات التى حلقت.

كان استياؤنا كبيرا ولا حدود له عندما ظهرت بسرعة على صفحات الصحف الأمريكية والإسرائيلية والمصرية بعد وصولنا مباشرة إلى الإسكندرية فى ظروف السرية الكاملة ووصول آخر شحنة من المعدات وآخر فوج من الأطقم معلومات عن عدد الناس والأسلحة والمعدات التى وصلت مصر. كيف وصلت هذه المعلومات فى يد الاستخبارات الأجنبية، لم يكن بمقدورنا إلا أن نخمن فقط. وقد تأكدت تخميناتنا مع بداية العمليات العسكرية. لم يكن الطيران الإسرائيلى يدخل إلى مناطق النيران ولم يقترب إطلاقا منها. وقد حدث ذلك أيضا حتى بعد أن قمنا بتغيير المواقع العسكرية وبناء الأكمنة التى كانت الأركان العامة للقوات المسلحة المصرية على علم بها. كان من الواضح أن الأركان بها عملاء. وقد تغير الأمر بشكل جذرى عندما تم التوقف عن إبلاغ الأركان العامة بإعادة التمركز.

ومع بدء العمليات العسكرية ظهرت مشكلة أخرى. فبعد أن اتخذت ألويتنا تشكيلاتها القتالية لم نستطع لفترة من الوقت إسقاط أى طائرة إسرائيلية. وقد سرت الشائعات بين العسكريين المصريين بل وبين غيرهم أن المعدات السوفيتية متخلفة عن نظيراتها الأمريكية وأن طائرات " الفانتوم" طائرات منيعة وما إلى ذلك من شائعات. وقد جاء الرد على هذه الأقاويل مباشرة من جانب ضباط مجموعة العمليات العقيد ك. بويتشينكو. وقد توصل إلى هذا الاستنتاج أيضا ضباط إدارة الفرقة. فعندما أخذوا فى استغلال التضاريس المحلية اختفت طائرات "الفانتوم" من الارتفاعات المنخفضة من شاشات الرادار وبمعرفة أسباب الفشل واستخدام تكتيكات مبتكرة، اختلف الوضع تماما، أصبح العدو يتكبد خسائر ملحوظة وتوقف الهجوم على المعدات الحربية السوفيتية.

توجهنا بعد القاهرة بالقطار إلى منطقة سد أسوان الذى كانت توفر له الحماية كتيبة مقواة يرأسها المقدم باشكوف. وقد رافقنا فى هذه الرحلة مساعد رئيس الإدارة السياسية لشئون الكومسومول الملازم أول كيريتشيك الذى يعمل الآن قائدا للكومسومول (منظمة الشباب الشيوعى)، وهو رجل يتمتع بالقدرة على اتخاذ المبادرة والطاقة مع امتلاكه لترسانة كبيرة من الأفكار المتنوعة، التى تسعى لاستيعاب الأشكال المختلفة للعمل مع الشباب فى الظروف القتالية أسرع ما يمكن. وطوال الليل ونحن مسافرون إلى أسوان كنا نناقش هذه القضية. قد تسنى

لى أن أعمل فى سنوات الحرب الوطنية العظمى سكرتيرًا للكومسومول فى كتيبة المشاة، ثم فى الفوج بعد ذلك ولهذا فقد طال الحديث. كنا قد بردنا بعض الشىء فى عربة القطار بسبب تكييف الهواء، ثم ما لبثنا أن أحسسنا بالسخونة فى أسوان، حيث بلغت درجة الحرارة ٤٠ درجة مئوية فى الظل. استقبلنا فى أسوان نائب قائد الكتيبة الذى دعانا لتناول الإفطار ولكننا رفضنا إذ أننا كنا قد أكلنا فى القطار منذ فترة قصيرة. اتجهنا من محطة القطارات إلى نقطة القيادة ثم إلى موقع ضرب النار. أخذتنا الدهشة لما رأيناه. فقد بدا الأمر لا يصدق، كيف أمكن فى خلال هذه المدة القصيرة أمكن بناء المواقع وتوفير ظروف مناسبة للحياة وللمعارك. يمكن القول دون أدنى مبالغة إن الأعمال القتالية والحياة والنظام يشهدون على تماسك الفريق والاستعداد فى أى لحظة لرد الغارات الجوية للعدو. كانت صفارات الإنذار كثيرا ما تعلن عن اقتراب الطائرات الإسرائيلية لكنها لم تكن تدخل إلى منطقة النيران.

وذهبنا بعد الظهر لفحص مواقع المراقبة بالعين المجردة وكذلك مواقع "ستريلا - ٢"، وفى الطريق شاهدنا سد أسوان العالى، وهو بناء فريد مشيد على أطول نهر فى العالم بالجهود المشتركة للمهندسين والعمال المصريين. كان هذا السد مثيرا للدهشة بضخامته، كما كان يعتبر نصبا عظيما لصداقة الشعبين المصرى والسوفييتى.

كانت مواقع المراقبة بالعين المجردة على امتداد الحدود يتم تنظيمها طبقا لتعليمات الفريق أول شيجلوف. وكانت مهمة هذه المواقع التى كان يعمل بها عسكريون مصريون وسوفييت تتلخص فى الإبلاغ الفورى لنقاط القيادة عن اختراق طيران العدو للحدود وخاصة على الارتفاعات المنخفضة. وقد شاهدنا من خلال التحليق بالمروحية فوق المواقع مدى ما يتحلى به جنودنا من فطنة وذكاء. كانت المخابئ العميقة مغطاة من أعلى بمظلات عريضة من القماش المقطرن مصنوعة يدويا، بإمكانها أن تقى الإنسان من الحرارة التى لا تحتمل. كان من المستحيل ملاحظة هذه الخنادق وسط الرمال حتى من مسافة قريبة. وكان يتم تبديل الطاقم فى هذه المواقع كل ثلاثة إلى خمسة أيام. وأحيانا ما كان يتم إحضار عسكريين مصريين موتى من المواقع البعيدة. لم تكن لدينا خسائر فى هذه المواقع. إلى هذا الحد كان الجندى الروسى قوى الاحتمال ومبدعًا!

الاستعداد لعملية "القوقاز"، نقل الأفراد والمعدات بالبحر واستقبالهم فى الإسكندرية، السير واحتلال مواقع ضرب النار، سير العمليات العسكرية، كلها جرى وصفها بدقة من قبل الذين شاركوا فى الأحداث. ومن جانبى فقد وددت لو أننى شاركت بانطباعاتى عن لقاءاتى مع عدد من الجنرالات والضباط الذين قادنى القدر لأكون قربا منهم فى هذه البقاع النائية.

ولد أفاتسى فيودرفيتش شيجلوف بطل الاتحاد السوفيتى والذى قاد مجموعتنا عام ١٩١٢ فى قرية ميخال أولينينسكى التابعة لمحافظة تفيرسكايا. فى عائلة فلاحين. خدم فى القوات المسلحة منذ عام ١٩٢٩. أنهى مدرسة الكرملين الدارسين العسكريين، شغل موقع الحراسة رقم ١[٦٥] عند ضريح ف. إ. لينين. وفى أثناء الحرب ضد الفنلنديين البيض[٦٦] قاد كتيبة الانزلاق وأغار عدة مرات على مؤخرة العدو. وفى سنوات الحرب الوطنية العظمى قاد فوج المدفعية وفرقة مشاة الحرس وفيلق الحرس الثلاثين على جبهة لينينجراد. عمل بعد سنوات الحرب فى وظائف قيادية فى قوات الدفاع الجوى. وقائدا لجيشى الدفاع الجوى فى سفيردلوفسك وكييف ومنطقة باكو العسكرية للدفاع الجوى والنائب الأول للقيادة العليا لقوات الدفاع الجوى فى البلاد. وأنهى الخدمة باعتباره ممثل قائد القوات المسلحة المتحدة للدول الأعضاء فى حلف وارسو. نال لقب بطل الاتحاد السوفيتى عام ١٩٤٤ كما نال وسام لينين أربع مرات ووسام الراية الحمراء ثلاث مرات وأوسمة سوفورف من الطبقتين الأولى والثانية وإلكسندر نيفسكى وراية[٦٧] العمل الحمراء والنجمة الحمراء نظير ما أداه من خدمات للوطن كما حصل على العديد من الأوسمة والميداليات من الدول الأجنبية. كان بسيطا فى تعامله مع مرءوسيه، غير متعجرف، لطيف، يهتم بالآخرين. أسهم إسهاما كبيرا نظريا وعمليا فى تعليم القوات. أحبه كل من أتاحت لهم الظروف العمل تحت قيادته وقدروا فيه القائد الفذ وقائد الجيش المخلص لمدرسة سوفوروف. إن ما ذكرته ليس لوما أو موعظة للقادة العاملين الآن

(٦٥) حرس الشرف عند ضريح لنين بالميدان الأحمر.

(٦٦) حرب قامت فى عام ١٩٣٩ بين الاتحاد السوفييتى وفنلندا.

(٦٧) قائد الجيش أصبح فيما بعد يعتبر قديسا بعد انتصار الروس على الجيوش الصليبية فى عام ١٢١٩.

فى الجيش فهؤلاء هم أملنا وضماننا فى القدرة العسكرية لروسيا. على أنه يجب عليهم تحقيق هذه الآمال وأن يحملوا على أكتافهم كل عبء الإصلاحات العسكرية التى بها مخاطرة وأن نجد معا الحلول الأكيدة. هذا ما ينتظره الشعب، وهل يمكن أن نخذل انتظاره؟

ولد إلكسى جريجوريفتش سميرنوف قائد فرقة ١٨ للصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات التابعة للقوات الخاصة بالدفاع الجوى ولواء المدفعية فى محافظة نيچيجورودسكى فى قرية نوفوسليچ بمنطقة ڤيتلوجسكى. بعد أن أنهى المدرسة التحق بمعهد جوركى للدفاع الجوى. مع بداية الحرب الوطنية العظمى سافر إلى جبهة لينينجراد وكان آنذاك برتبة رقيب أول وعمل هناك باعتباره قائداً لفصيلة. خاض الحرب من "معركة إلى معركة" وأنهى الحرب قائداً لبطارية مدفعية نجحت تحت قيادته خلال بضعة أيام من المعارك فى إسقاط طائرتين ألمانيتين من طراز "مسرشميت ـ ١٠٩ ".

بعد شهر واحد من اختراق حصار لينينجراد استطاع آلاى المدفعية المضادة للطائرات رقم ١٨٩ والذى كانت وحدته تعمل ضمنه أن يسقط ٤٩ طائرة ألمانية. تلقى فى أثناء الحرب عرضا بترقيته ولكنه أجاب بالرفض قائلاً "أنا مرتبط ببطارية المدفعية المضادة للطائرات". كان إلكسى جريجوريفتش يعرف مرءوسيه واحداً واحداً بالاسم، طباعه، الجوانب القوية فيه وجوانب الضعف، كان الكثير من الجنود يولونه ثقتهم ويأتمنونه على "أسرارهم". وبعد الحرب أصبح قائد كتيبة وآلاى وفرقة وجيش، أنهى الخدمة برتبة نائب القائد الأعلى لقوات الدفاع الجوى للبلاد. قائد عسكرى يتسم بالتواضع والعزيمة والاهتمام بالآخرين. أنهى بامتياز أكاديميتين. نال ثمانية أوسمة سوڤييتية وعدداً من الأوسمة الأجنبية اجتازت الفرقة الثامنة عشرة الصواريخ المضادة للطائرات تحت قيادته "الاختبار الإفريقى" بشرف. هو قائد فرقة يتميز بالثقافة، وبموهبته وقدرته على تنظيم المعركة، وتدريب العمليات، وكذلك بالخبرة التى حصل عليها فى أثناء الحرب الوطنية العظمى وأخيرا ابتكاره لأساليب مبتكرة طبقها هو ومرءوسيه فى صد غارات العدوأنقذت مئات الأرواح من الجنود والضباط وساعدت مساعدة كبيرة فى تنفيذ فكرة عملية "القوقاز".

المقدم ڤياتشيسلاف جريجوريڤيتش ميخايلوف رئيس القسم السياسى بالفرقة، أحد المحبين للعمل بشكل استثنائى، حازم نشيط، شجاع وحاسم فى اتخاذ القرار. عندما كان ما يزال مراهقا خاض المعارك فى ميادين القتال فى أثناء الحرب الوطنية العظمى، فكان يعتبر "ابن الفوج". فى سنوات السلم تلقى تعليما فى تقنيات الطيران وأنهى الأكاديمية. عملت أنا وهو فى مصر بنفس الخطة وإن كان كل منا مستقلاً عن الآخر. كان هناك اهتمام خاص بتعبئة الأطقم لرد الغارات ومسائل الإعداد القتالى المستمر وبعث مشاعر الحب والحرص فى استخدام المعدات القتالية الفريدة، والدعاية للخبرة القتالية. كثيرا ما شارك فياتشسلاف جريجوريفيتش فى خروج كتائب الصواريخ المضادة للطائرات إلى المنطقة المتاخمة للقناة وفى نصبها على هيئة أفخاخ وفى تغيير تمركزها. وكثيرا ما عمل فى الأجهزة السياسية للكتيبة التى كان يقودها الرفاق أ. كوستيف، ن. ستريليتسكى، إ. بروبيلوف. بعد عودته من مصر عمل على نحو مثمر فترأس الأجهزة السياسية لفيلق جيش لينينجراد للدفاع الجوى وعمل نائبا أول لرئيس الإدارة السياسية لقوات الدفاع الجوى فى البلاد. عمل بإصرار على نقل الخبرة الفنية لتنظيم العمل الحزبى والسياسى فى أجواء القتال. بعد تسريحه من القوات المسلحة اشترك فى العمل الفعال لتقديم المساعدة متعددة الجوانب للمحاربين القدماء للقوات المسلحة والذين شاركوا فى الحروب وترأس مجلس دار موسكو للمحاربين القدماء والقوات المسلحة والآن يشارك بخبرته بكرم كبير فى أعمال المنظمات الإقليمية للمحاربين القدماء فى عموم دول الكومنولث.

فى أحد أيام شهر مارس عام ١٩٧٠ وفى نقطة قيادة الكتيبة المتمركزة فى شمال شرق القاهرة التقيت مع قائد الكتيبة العقيد ن. رودينكوومع رئيس القسم السياسى الرائد إلكسى ياكوفليڤيتش كوستين. أحاطنا قائد الفرقة بالوضع والأحوال فى الفرق وأشاد بالقادة والمهندسين والعاملين السياسيين. لقد تعمدت الفرقة فى نيران الحرب وصدت عددا من الغارات استهدفت القاهرة وتميز عمل القسم السياسى بالواقعية ووضوح الهدف. وقد وصلت الكتائب إلى حالة الاستعداد خلال خمسين ثانية. وقد أولت الكتائب اهتماما كبيرا لاستيعاب تخصصات متقاربة. كان كوستين يعلم تفصيليا الوضع فى الكتائب التى بها شىء من القصور. فى استعدادها القتالى وفى استخدامها للمعدات وكذلك فى الشئون

اليومية. إن أول انطباع يتركه كوستين لدى الناس أنه إنسان صبور هادئ بل وخجول أيضا. على أن الواقع العملى يثبت غير ذلك ولأنه كان يمتلك معارف نظرية عميقة وخبرة عملية كان دائما فى محور الأحداث، سواء أكانت هذه الأحداث هى صد ضربات طيران العدو، تدريب وتغيير المواقع. كان دائما يقوى علاقته مع ضباط قيادة اللواء والكتائب، وكان يستطيع فى الوقت المناسب أن ينشط وأن يبعث الثقة فى قواتها. كان المشاركون فى المعارك يعرفون كيف يؤثر ذلك فى سير المعركة. وكان يعطى دائما المثل والقدوة للصلابة المعنوية والنفسية وقوة التحمل البدنية. كانت له هيبة رفيعة فى اللواء وعند قيادة الفرقة. وبعد عودته من مصر قاد الأجهزة السياسية للفرقة (فى مدينة نوريلسك بسيبيريا) وفى الفيلق والجيش للدفاع الجوى. وقد أنهى الخدمة العسكرية فى وظيفة عضوالمجلس العسكرى وقائد الإدارة السياسية لمنطقة موسكوالعسكرية للدفاع الجوى برتبة فريق. وبعد تسريحه من القوات المسلحة واصل العمل على نحو مثمر فى أعمال مسئولة. يعرف الرؤساء والمرءوسين أ. كوستين باعتباره واحدا من أكثر القادة العسكريين تواضعا وانضباطا. لقد غادرت اللواء وكلى إيمان أنه لا يوجد عدو، مهما كان ماكرا، بإمكانه أن يهزم مثل هؤلاء القادة. لقد ظل هناك رأى حسن عن عمل الأجهزة السياسية فى الألوية الأخرى التى قادها المقدمون ن. ستريليتسكى وإ. بروبيلوف وغيرهم.

لقد بعث العمل اليومى مع أطقم الفرقة والنجاح الذى تحقق فى صد ضربات طيران العدو الثقة فى تتويج العمليات بالانتصار. ينبغى أن نشير إلى أنه لم يكن أحد لديه شك فى النصر قبل ذلك. وفى هذا الصدد أود أن أذكر بضع كلمات حول قادة الكتائب. لقد تمت اللقاءات الأولى مع بعضهم فى أماكن التمركز وفى أثناء التحركات وفى المواقع القتالية. لقد كانوا جميعا خبراء حقيقيين بالمعدات الحديثة للصواريخ المضادة للطائرات والرادارات. قاموا بكل تأكيد وبمهارة فائقة بقيادة وحداتهم. ولقد أظهروا حرفيتهم وأستاذيتهم منذ اشتباكاتهم الأولى مع الطيارين الإسرائيليين فى منطقة القاهرة. ومع ذلك فلم يكن العدو يكرر هجماته، فقد كانت فكرة كل ضربة وطريقة تنفيذها لا تشبه التى سبقتها. أستطيع أن أقول بكل ثقة وأنا أقيّم أعمال قادة الكتائب فى أكثر المواقف حرجا، إنهم كانوا ضباطا على مستوى عال من الشجاعة والرجولة والتضحية. وسأذكر

هنا أسماء بعض منهم: النقيب ف. ب. ماليـاوكا، الرائد س. ك. زافيسنيتسكى بطل الاتحاد السوفييتى المقدم ك. إ. بوبوف، بطل الاتحاد السوفييتى المقدم ن. م. كوتينتسيف، المقدم ف. م. تولوكونيكوف، المقدم ف. إ. كيربيتشنكو، المقدم ج. ف. كوماچين، المقدم م. أ منصوروف وغيرهم. كان تنفيذ المهام العسكرية من جانب مستويات الأفراد كافة خاليا من العيوب، لم تكن هناك حالة واحدة شابها إحساس بالجبن أوالتخاذل أوالهروب من المعركة.

وبعد أن عدت إلى موسكوفى نهاية شهر مارس ١٩٧٠قدمت تقريرًا مفصلاً عن العمل الذى جرى إنجازه إلى القيادة السياسية لقوات الدفاع الجوى للبلاد والى القيادة السياسية العليا للجيش السوفيتى والأسطول البحرى العسكرى، وقسم االشئون الإدارية(٦٨) للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى. وقد جرى طرح العديد من الأسئلة حول مراحل إجراء العمليات وعن المعارك الأولى. وقد سأل رئيس القطاع بقسم الشئون الإدارية باللجنة المركزية الفريق طيار أ. فولكوف إذا ما كنت على ثقة من أن وسائلنا للدفاع الجوى كانت قادرة على إسقاط طائرات "الفانتوم" الأمريكية. وقد كان طرح السؤال على هذا النحو أمرًا مثيرًا للدهشة بالنسبة لى فأجبت بكل ثبات: "واثق بكل تأكيد" وسرعان ما وصلت من مصر أنباء متوالية عن الطائرات التى أُسقطت.

عندما كنت أقوم بتحليل المعارك التى دارت فى مصر، كنت أصل مرارًا إلى فكرة أن المقاتلين السوفييت أثبتوا أنهم خَلفُ جديرون بالمجد القتالى لآبائهم وأجدادهم الذين خاضوا معارك الحرب الوطنية العظمى. وقد ظهر هذا جليا فى كل كتائب الفرقة. وبالنسبة لى شخصيا فقد كنت أعرف الحرب لا كما يصفونها فى الكتب: ففى الأيام الأولى للحرب الوطنية العظمى ذهبت متطوعا من خلال الكومسومول فى قوات الإنزال الجوى، وقاتلت باعتبارى راميا للرشاش وقناصًا على جبهة ستالينجراد، وكنت المشرف السياسى للسرية ومنظم للكومسومول فى الكتيبة والفوج فى جبهات نهر الدون وفى المنطقة الجنوبية الغربية، وعلى الجبهات الأولى فى بيلاروسيا وأوكرانيا. ولم أغادر الخطوط الأمامية إلا بسبب الإصابة. وقد أفادتنى خبرة هذه السنوات فى عملى فى مصر وكنت حريصا على أن اقتسم هذه الخبرة مع الجنود والضباط الشباب.

---

(٦٨) فى الحقيقة، كان هذا القسم مسئولا عن الكوادر العليا العسكرية.

مـر مـا يـزيـد عـلى ثلاثين عـامـا عـلى هـذه الأحـداث. وفى كل عـام يـجتـمع المحاربون القـدماء فى يوم تأسيس الفرقة الثامنة عشرة الخاصة للصواريخ المضادة للطائـرات. وتكتسب هـذه اللقـاءات طابـعا احتفـاليا ومؤثـرًا. وفى هـذه اللقاءات يشارك سفير مصر فى روسيا والملحق العسكرى والضيوف من البرلمان ومحافظ وحكومة موسكو، وعدد من ممثلى المنظمات الاجتماعية. نسترجع كثيرًا من الذكريات الشيقة عن عملنا القتالى المشترك مع الجنود والضباط والجنرالات المصريين.

وبالإضـافـة إلى ذلك هـنـاك حـقـيقـيـة تـثيـر الحـزن وهـى أن عـددا من الـذين شاركوا فى المعرك تمت التوصية بمنحهم أوسمة وميداليات، لم يتسلموها حتى الآن وقد اعتادوا أن يسمعوا أن الأمر لم يطوه النسيان، وأن مأثرة واحدة لم تنس ولم تمح من الذاكرة حادثة بطولة أو شجاعة. أفترض أن من الضرورى أن يتم التوصل إلى حل لهذا الموضوع، طالما أن الذين رشحوا للأوسمة ما يزالون أحياء. هناك أيضا منظمات ينبغى أن تهتم بهذا الأمر. وإذا كان من المستحيل لأى سبب العثور على الوثائق القديمة فمن الممكن أن تعاد صياغتها من جديد. إننا اليوم نعرف حالات كثيرة تم فيها بعث الحقيقة من جديد. إن المحاربين القدماء فى مصر على ثقة أن هذه المشكلة سوف يتم حلها على نحو مرض فى نهاية الأمر.

إن التـاريخ يلقننـا دروسه بقسـوة، لكن شعور الفخر والمشاركة فى المجد العسكرى لجيشنا والإدراك العميق للمسئولية عن أمن الوطن ومصالحه الچوبوليتكية كانوا دائما من الخصائص الشخصية للجندى الروسى. وهذه حقيقة من المستحيل دحضها. إن التأكيدات التى نسمعها اليوم من بعض قادة الدول والقادة العسكريين من أن الجيش ينبغى عليه الابتعاد عن السياسة أمر مردود عليه. فكيف يمكن أن يراق الدم وأن توهب الحياة دون أن نعرف لماذا؟ إن الصعوبات الاقتصادية فى المراحل الانتقالية والانسحاب العشوائى لقواتنا من ألمانيا ودول البلطيق إلى جانب كثير من العوامل الأخرى وعلى رأسها الانهيار الخلقى، واستبدال الهرولة وراء المال، التى أصبحت الهدف الرئيسى فى الحياة بالنسبة للكثيرين، بالقيم العليا للوطنية قد تركت أثرًا بالغا على الاستعداد العسكرى للقوات وعلى الروح القتالية.

مثل هذا التحول فى الأولويات لم يكن ليحدث دون نقد ماضى شعبنا، ودون السخرية من الوطنية. لا حاجة بنا لأن نكرر لماذا حدث ذلك، ولماذا يأتى الآن من يسعى لأن يُسقط من ذاكرة التاريخ حياة شعب عظيم على مدى سبعين عاما من السلطة السوفييتية، كما لوأنها فشل ذريع ممتد فى كتاب الأقدار، مع أنها حياة وأفراح وأحزان وإنجازات عظيمة لمئات الملايين من الناس. وهؤلاء لن يتصالحوا قط مع القول بأن حياتهم ذهبت هباء. والآن فى روسيا يحتفون بالفجور وتهز الفضائح حتى أرفع أنظمة السلطة. ليس فقط المحللون وإنما أيضا ممثلو الحكومة يطلقون شارة الإنذار.

وماذا عن الجيش؟ لقد كان الجيش دائما وسوف يبقى صورة طبق الأصل من المجتمع. واليوم وصل الانهيار المعنوى وفقدان القيم الخلقية إلى الجيش وإنه لأمر شديد الصعوبة على المحاربين القدماء على وجه الخصوص. إن قلقنا له مايبرره، فالحديث لا يدور حول توحل الطرق فى الربيع ثم ظهور الشمس وجفاف كل شىء. فمن أجل إعادة القوة العسكرية لدولة عظمى يلزم كثير من الوقت والأموال. ينبغى بناء مجمع صناعى عسكرى على مستوى أعلى ورفع مستوى قيادة القوات المسلحة، وإعداد المبادئ العسكرية على نحو علمى سليم، ولماذا نخفى الحقيقة. إن رفع مستوى الفنون العسكرية هو أمر ضرورى للغاية. إن الأمر هنا يتعلق بحرية وازدهار وطننا.

ما الذى يجعلنا على أية حال نؤمن فى نهضة جيشنا وهيبته؟ إنه الأمل بالدرجة الأولى فى هؤلاء الضباط الذين ما يزالون مستمرين فى العمل فى القوات المسلحة، يدعمون قدرتها العسكرية ويستوعبون المعارف العسكرية على الرغم من كل صعوبات الحياة، وعلى الرغم من نقص الأسلحة الحديثة وضياع هيبة الخدمة العسكرية. أود أن أقول: "إنهم يخدمون بعناد". وهم يفعلون ذلك بجدارة. إن الأمل معقود أيضا على الجندى الروسى الشجاع الذى يدرك أن الأمر الرئيسى هو أنه ملتزم بالدفاع عن الوطن بغض النظر عن البرد والجوع فى بعض الأحيان وظروف الخدمة الشاقة. قد لا يعوق هذا السياسيين الدهاة أن يفكروا إلى أين ستقودنا تأكيداتهم أن لدينا الآن أصدقاء فقط فى كل أنحاء العالم... صحيح أنه فى الآونة الأخيرة ونتيجة لتوسع حلف الناتو باتجاه الشرق وتكوين

"القوس الجنوبى" وضرب يوغوسلافيا بالقنابل وسعى الولايات المتحدة الأمريكية للانسحاب من اتفاقية الحد من التسلح، فإن هذه الأحاديث قد أخذت فى التراجع.

لقد تعرضت روسيا فى سياق الإصلاحات إلى خسائر فادحة. ولكن مادامت الأرض وما فى جوفها واحتكاراتها الطبيعية تخدم الدولة والشعب كله، فإنها ستكون قادرة على مواجهة محاولات تقسيمها وبيعها وسوف تظل دولة عظمى. بالطبع سيتعين على كل منا أن يدفع ثمنا باهظا من أجل تصحيح أخطاء الأعوام الأخيرة لكن الأمر الأصعب من الدفع هوألا تظهر حكمة الحكومة بالنسبة للقوات المسلحة وأن تكون الطموحات الشخصية أعلى من مصالح الدولة.

مصر تمنح قلبها

ك. ف. بيروجوف

كان القطار يتحرك منتقلا من نقطة إلى أخرى لمدة طويلة وببطء شديد وكانت هزاته تحرم الكثيرين من أن ينالوا قسطا من النوم. وأخيرا وصلت أطقم كل المشاركين فى هذه "المهمة الخاصة" إلى مدينة نيكولايف. اتخذنا تشكيلنا عند عربات القطار وبنظام أخذنا نحن "المختصون فى الزراعة" السير بنظام ناحية الهناجر الضخمة. أخذوا فى تغيير ملابسنا طوال اليوم ثم بعد ذلك ليلا. ضبطنا بنطلوناتنا والچاكتات والبلاطى وعندما خرجنا من هذه الهناجر الخانقة إلى رصيف ممتد فى البحر. كانت الملابس منفوشة على أجساد الكثيرين وكأنها موضوعة على مانيكانات. كان الفارق الوحيد فى الملابس بين الضباط والجنود العاديين فى أن الضباط وصف الضباط كانوا يرتدون قبعات، بينما كان الجنود العاديون يرتدون بيريهات. مرت علينا ليلة قلقة بسرعة. كان الجميع يعتريهم شعور بالقلق، فقد كنا نعرف أن ما ينتظرنا ليس رحلة وإنما مسئولية مهمة قتالية يمليها الوطن علينا، مهمة من الممكن ألا يعود منها بعضنا.

بدأت خيوط الضوء. كان ضباب أزرق رمادى يغطى ميناء البحر الأسود. وفى داخل هذا الضباب كان هناك جسم هائل ثابت لا يتحرك لسفينة ضخمة تحمل اسما عظيما هو "الأدميرال ناخيموف"[٦٩]. كانت السفينة مغطاة بطلاء أبيض مثل الثلج، وكأنها متجمدة تتأهب للوداع ذاهبة لرحلة بعيدة. كان صوت طرطشة المياه المتكررة مسموعا. هدير القاطرات، وفى مكان ما قريب كانت النوارس تصيح والأمواج الرقيقة ترتطم بالرصيف الممتد فى البحر.

---

(٦٩) هو أدميرال روسى حقق العديد من الانتصارات على الأسطول التركى فى القرن الثامن عشر.

كنت أجلس على حافة الماء ورزاز خفيف يصطدم بوجهى وحذائى. "ها هى رياح مارس النزقة مرة أخرى/ وأوراق شجرة اللوز المزهرة تخشخش/ وحولى قطعة من السماء غائمة، تتحرك السحب الزرقاء الرمادية جماعات/ وفوق الزبد الأبيض تحلق طيور النورس... ".

جذبنى الموقف إلى الشعر. هل كان السبب فى ذلك هو فصل الربيع أم شىء آخر؟ لعله بعض الخوف. ترى هل سأنجح فى هذه المهمة التى اخترت لتنفيذها فى ذلك البلد البعيد مصر؟

كنت أحمل فى يدى كتاب الجغرافيا للمرحلة الثانوية. بصراحة لم أكن أحب مادة الجغرافيا وهنا كنت أقرأ بكل حماس وأتأمل الخارطة وكأننى أستعد لدخول الامتحان. هاهى مصر النائية على الخارطة، وها هى شبه جزيرة سيناء، هذه بورسعيد، وهذه الفيوم، هذه أسوان، وها هو النيل الأزرق. الآن تدور هناك المعارك. لم يعد ورود مستشارينا فى مصر سرًا، لكنَّ أحدًا لم يتحدث عن العمليات العسكرية التى خاضها رجال الصواريخ والطيارون فى أى مكان وعلى أى نحو كان. كنا نعلم أن الإسرائيليين كانوا يمتلكون تفوقا فى المعارك الجوية على الطيارين المصريين. كان الطيران المصرى منخفض المعنويات ويشعر بالإحباط ـ كان المطلوب تصحيح الوضع القائم وعلى وجه السرعة. وفى عام ١٩٦٩ طلبت الحكومة المصرية من الاتحاد السوفييتى الدعم العسكرى المباشر. عرضت مصر قلبها. ومد "الأخ الكبير" يده بالمساعدة للرفاق المصريين، وفى مطلع عام ١٩٧٠ وفى سرية بالغة تم إرسال وحدات الصواريخ المضادة للطائرات إلى مصر قام بتعبئتها ضباطنا وجنودنا.

وسافر الأفراد بحرا على متن سفن ركاب. ولحقت بها سفن الشحن تحمل المعدات العسكرية والذخائر. وعند مضيق البوسفور علا صوت الموسيقى على سطح سفننا، وكانت هذه الأسطح تتلألأ فيها الأنوار، لقد جرى إعطاء انطباع أن الروس ذاهبون فى رحلة بحرية للاستجمام. بمجرد وصولنا إلى ميناء الإسكندرية المصرى وبعد لقاء قصير طرح فيه علينا مهمة قتالية واحدة: مد يد العون للشعب المصرى الشقيق فى كفاحه ضد المعتدين الإسرائيليين، وصدر الأمر بأن نحتل مقاعدنا فى الأوتوبيسات. وها نحن الآن مسافرون على طريق واسع

نحو القاهرة كنا ننظر بنهم بالغ من خلال النوافذ محاولين أن نستوعب بنظرة واحدة صورة مصر، وأخيرا ها هو النيل الأزرق يمد مياهه الرمادية. وعلى ضفتيه تمتد أراضٍ خضراء ورمل أصفر يزحف نحوالنهر وقباب المساجد ومآذنها فوق القرى الصغيرة التى كانت تبدو بلون رمادى بنى واحد. وخلف هذا المشهد بدأت فى الظهور أشجار وشجيرات مزهرة رائعة. كانت زهور الأكاسيا مترية تنتظر مايو والحرارة الحقيقية لتكتسى حلة حمراء وصفراء بلون الجزر من الزهور الرقيقة التى تخلع على هذا النبات اسمه المؤثر.

اقتربت الشمس من المغيب، وبدلاً من رؤية المآذن والقباب رحنا نشاهد العمارات المربعة العالية التى تطمح لأن تكون ناطحات سحاب. هذه هى فنادق النجوم الخمس الحديثة "ميريديان"، "هيلتون "، "شيراتون" كانت هذه المبانى تصطف على امتداد النيل، أنيقة متناسقة بشكل موفق مع أمواج نهر النيل العظيم ومجموعات النخيل. كانت هيئة الفنادق تنسجم مع السمة الشرقية للمدينة لكن أسلوبها المعمارى كان عالميا.

مرت سيارة الأتوبيس التى نركبها بوسط المدينة. وأكثر فأكثر كانت تظهر فى شوارعها الطوابق الثانية للجسور وأحيانا ما كان بعضها له مدرجات مزدوجة. كانت الكبارى تفرغ الطرقات الرئيسية، ولكن على الرغم من ذلك صادفنا "طابورًا" طويلاً من السيارات يمتد لعدة كيلو مترات. كان من المسلى لنا بالطبع أن نشاهد كل ذلك، ولكن ها هو"مسئول" الأوتوبيس الذى كان عليه أن يوصلنا إلى المكان المحدد كان يعانى بشكل واضح: أعلنوا علينا أن لقاء احتفاليا قد تحدد لنا فى النادى، وأن هناك عشاء فاخرًا. كان الأمر يبدو غير مناسب.

لم يعد الجو شديد الحرارة إذ كان الوقت يقترب من المساء. وبدأت بطوننا تعوى، ولكن كل ما كنا نراه من نوافذ الأوتوبيس كان جذابا إلى حد أننا نسينا الإحساس بالجوع.

أخبرنا سائق الأوتوبيس العريف فلاديمير جولوفان أن على المرء أن يلتزم بعادات البلاد التى يذهب إليها وأن يحافظ على قواعد المرور بها. كان العريف قد خدم هنا ما يزيد على عام ونصف وأصبح يعرف المدينة بشكل طبيعى.

لم أقابل فى حياتى بوصفى سائقًا ذا خبرة حركة سيارات على هذا النحو من الارتباك مثلما قابلت فى مصر. إن ما يحفظ السلامة فى فوضى الحركة هو استحالة وجود سائقين سكارى، ورد الفعل السريع للسائقين. لكن الاختناقات المرورية تضاعف من عدم التزام السائقين بقواعد المرور. وهو ما أثبته لنا ڤلاديمير. فلكى يختصر بضعة كيلو مترات انحرف بنا من حارة جانبية إلى شارع ذى اتجاه واحد وواصل سيره فى الاتجاه العكسى إلى أن وصل بنا إلى وسط المدينة. وبعد أن عبر بعض الأحياء، أوقفنا رجال الشرطة بكل أدب. مد يده ببساطة فأعطاه ڤلاديمير بهدوء بعض قروش فكة. وهى زيادة قانونية على راتبه. إن مسألة المخالفة "البسيطة" يمكن حلها هنا وفى الحال. على أنه فى حالة المخالفة الكبيرة فلا تفيد فيها "القروش" وإنما تكون عاقبتها غرامة طائلة تصل إلى خمسين ومائة جنيه. بعد أن اختصرت سيارتنا بضعة كيلومترات دخلت إلى الطريق المؤدى إلى حلوان.

كنا نسير بسرعة تسمح بالعربات المزينة التى تجرها الحمير أن تتخطانا. على كل عربة كان هناك فانوس. لم تكن الدواب تتجاوب مع حركة السيارات. والحمار هو أقدم وسيلة انتقال فى الشرقين الأوسط والأدنى.

حلت بنا ليلة جنوبية شديدة الدفء. توقف الأوتوبيس بنا عند مزلقان للسكة الحديد. هنا لا يخالف أحد قواعد المرور. بالقرب منا مر قطار كهربى بسرعة كبيرة قادما من باب اللوق باتجاه حلوان. كان مظهره الخارجى يذكرنا بمشاهد من أفلام العشرينيات عندنا ـ كم كبير من الناس يركبون القطار من الخارج والداخل وعلى الأسطح.

وهنا نحن قد اقتربنا من مبنى كبير. كان زجاج النوافذ مطليًا باللون الأزرق وكثير من النوافذ مشرعة. استخدم السائق آلة التنبيه لمدة طويلة بينما غادرنا الأوتوبيس. كانت الميكروفونات تدوى بموسيقى احتفالية. كان الجميع يتحدثون بصوت مرتفع ويدفعون بعضهم بعضًا دفعا خفيفا، أما نحن الذين وصلنا لتونا فقد اندفعنا فى أحضان مواطنينا من لينينجراد. كثير من الذين عاشوا هنا فترة طويلة أطلقوا شواربهم وبدوا أكبر قليلاً فى السن منا نحن الذين جئنا إلى هنا لنحل محلهم. كنا نعرف الكثير منهم حيث خدمنا معا فى الجيش السادس لقوات

الدفاع الجوى والتقينا فى الشمال فى ميادين الرماية وعند رصد النتائج، لكن الأمر الأهم أنه كان يجمعنا جميعا كوننا أبناء بلد واحدة وأننا من ليننجراد، وقادونا وأطلعونا على مكان إقامتنا. كان من الضرورى أن نقوم بترتيب أمورنا بعد رحلة طويلة. بعد أن وضعنا أمتعتنا البسيطة، ألقينا نظرة على الغرف التى سنقيم فيها.

صدر الأمر بأن "نقيم فى الطابق الثانى" قدموا لنا قائد الوحدة إ. م. رودينكو، رئيس القسم السياسى ب. أ. كودريا فتسيفا، قادة الكتائب المقدمين أ. د. جالين، ن. ف. سيرجييف، ڤ. ف. تريتياك، أ. ب. لابنيوك، ف. ن. زخاروف. كانت المهمة المطروحة أمامنا: أن نخلد للنوم وحدنا. وسوف يتولى آخر الواجب، المعدات والأفراد وتقديم العون العسكرى للشعب المصرى الصديق فى نضاله ضد المعتدين الإسرائيليين.

انتهى اللقاء القصير. ذهب الجميع لتناول طعام العشاء، على الرغم من أن الوقت كان يقترب من منتصف الليل. ولكن هل يمكن للمرء أن يفكر فى النوم إذا كان قد رأى ما رأى وسمع ما سمع فى أول يوم يصل فيه إلى مصر، وإذا كان قد التقى برفاق السلاح وأحضر لهم الرسائل من الأقارب، فقد خدمنا مع العديد منهم فى وحدة واحدة وعشنا معا فى حامية واحدة. كانوا يسألوننا بالتفصيل عن ليننجراد ونحن بدورنا نسأل عن كيف خاضوا المعارك هنا. لم يكن سرا بالنسبة لنا وجود خبرائنا هنا فى مصر، ولكن لم يكن مسموحا الحديث بأى شكل من الأشكال عن العمليات العسكرية لأطقم الصواريخ والطيارين.

نجحنا فقط فى أن نتبسط فى الحديث وأن نجد إجابات على الأسئلة التى كانت تهمنا، دخنا سجائر من ليننجراد ولأول مرة نجرب احتساء علب البيرة وفجأة يقطع سكون الفجر ميكروفونات قوية: كان صوت المؤذن يؤذن للصلاة.

"الله أكبر" منذ أعلن النبى محمد أن الله هوالله الواحد، يردد هذه العبارة كل يوم ملايين البشر فى العالم الإسلامى. إن ذكر الله عادة متبعة تشابه عندنا " المجد لله" أو "من أجل الله". تتكرر الصلاة خمس مرات فى اليوم ولكن لأن المصريين مشغولون باهتماماتهم الدنيوية فإنهم عادة لا يصلون الصلوات خمس ولكنهم يحرصون على ألا تفوتهم صلاة الجمعة. والآن علينا أن نستمع إلى الأذان كل يوم ما دمنا موجودين على أرض مصر.

بعد إفطار حافل وشهى ذهبنا إلى المخزن حيث استقبلنا رئيس الشئون الإدارية المقدم ن. ج. كوليشوف وضابط الإمداد من الجانب المصرى الرائد بغدادى بصحبة الملازم أول نيكولاى ريچيسنكو وشرحوا لنا ماذا نأخذ وكيف نضبط الزى.

كان أمرًا غريبا بالنسبة لنا. لون الزى العسكرى، تفصيله بالعديد من الجيوب، الأحذية ذات النعال السميكة، يذكرنا هذا الزى بالزى الذى يرتديه الآن الجندى الروسى، على أن نوعية الزى المصرى كانت أفضل. انقضى يوم تغيير الملابس وضبطها بسرعة كبيرة. بعد أن ارتدينا الزى الجديد كنا نبدو فى صورة غير عادية وعلى الفور بدأ كثير منا فى التقاط الصور التذكارية. أفادنا زملاؤنا فى السلاح عن كل الأمور، ليس تلك الخاصة بالخدمة والشئون العسكرية فقط، ولكن أيضا بكيفية التعامل مع السكان المحليين، ومع العرب الذين يقومون بالخدمة العسكرية والذين يعيشون بالقرب منا. كنا نسكن على مسافة قريبة جدًا منهم ولا يفصلنا عنهم سوى سياج غير مرتفع يمكن تخطيه. كان الانضباط على الجانبين على أرفع مستوى. بالطبع كنا نتبادل السجائر وتقديم المعونة الطبية إذا لزم الأمر وأحيانا كنا نلعب أدوار شطرنج ونشترك معا فى لعبة كرة القدم والكرة الطائرة.

لحقت بنا المعدات والسيارات. وكان من الضرورى إعادة طلائها بلون الرمال ووضع أرقام عربية عليها.

بدأت أنا والجنود نيكولاى شيلك وليسنيتش شبراتسكى فى إعداد جهاز عرض الأفلام الآتى من طراز أ. ف. د - ٦٤ الذى كان مركبا على هيكل السيارة أوار ٤٥٢٠ استعدادًا "للعمليات" العسكرية. كان الجهاز مزودًا بكل احتياجاته كاملاً. لكن الذين قاموا بإرساله وهم فقط الذين كان بإمكانهم أن يعرفوا أين سنعثر على شرائط سينما من المقاس الصغير، إذ كانوا قد أرسلوا معنا حوالى خمسين فيلما روائيا ومثلهم تسجيليا. فى البداية كان هذا العدد من الأفلام كافيا بالطبع للمشاهدة، ثم ماذا بعد ذلك...؟ بدأ الفنيون السينمائيون فى عمل "كليبات" روائية موسيقية من الأفلام المتوفرة. تكون لدينا "خليط" عجيب، حيث وضعت الأغانى محل المطاردات، بالمطاردات محل الرقص والرقص محل سباقات

السيارات وهكذا. وقد شاهدنا بعض عروض الأفلام باللغة العربية. كانت معظم الوحدات تمتلك أجهزة تليفزيون من طراز "فيلبس" ولكننا فى الواقع لم نستطع مشاهدة البرامج. كانت الإعلانات تقطع البرامج دائما حتى ولو كان فيلما روائيا مشوقا أو حفلاً أو برنامجا رياضيا. والآن بعد مرور سنوات طويلة اعتدنا فى روسيا على هذه الإعلانات المملة... قشرة الشعر، الفوط الصحية النسائية، تسوس الأسنان... آنذاك لم نكن معتادين على مشاهدة شرائط الإعلان الصاخبة هذه. كانت هناك مشكلة ملحة أمام المركز الثقافى المتنقل، وهى كيف يمكننا عرض أفلام الأشرطة الكبيرة وأن يكون لدينا أجهزة بروچيكتور سينمائية فى الوحدات العسكرية. وقد تولى حل هذه القضية الملحة والصعبة المقدم ب. أ. كودريا فتسيف رئيس القسم السياسى. وشكرا جزيلاً للسفير فوق العادة والوزير المفوض للاتحاد السوفييتى فى جمهورية مصر العربية فلاديمير ميخايلوفيتش فينوجرادوف، الذى استجاب لطلبنا المساعدة فى تخصيص أجهزة عرض الأفلام السينمائية وكذلك الأجهزة اللازمة للجوقة الاستعراضية والأدوات الرياضية لصالح فرقتنا للدفاع الجوى عن طريق الإدارة السياسية العليا للقوات المسلحة للاتحاد السوفييتى. وقد تم حل هذا الأمر فى خلال بضعة أيام بمساعدة رئيس الإدارة السياسية جنرال الجيش أ. أ. يليشيف وما لبثت الطائرة أن جاءت حاملة الأجهزة والأفلام وكمية كبيرة من الأدوات الرياضية وكاميرا للتصوير السينمائى وأفلامًا خامًا والأدوات كافة لإنتاج أفلام سينمائية تصور الحياة والخدمة العسكرية للجنود فى الوحدات.

واستنادا إلى المركز الثقافى قام الجنديان. شليك وج. أرتيمنكو بفتح أجهزة عرض الأفلام وقاموا بأعمال الصيانة الفنية لها والأهم أنهم قاموا بتعليم الفنيين السينمائيين غير المحترفين كيفية استخدام الأجهزة. كما قاموا بوضع جدول تبادل الأفلام واستلام البريد وهكذا تم حل قضية وقت الفراغ فى المساء التى كانت "عويصة". كانت تصلنا أفلام كثيرة بنظام الاستئجار أسرع من تلك الأفلام التى تظهر على شاشات السينما فى الاتحاد السوفييتى.

منذ الأيام الأولى لوصولنا إلى مصر قمنا مع العسكريين المصريين بحل مهام الإعداد القتالى، وكنا نتقاسم على نحو أخوى معارفنا وخبراتنا. وفى هذا الشأن

كانت الدعاية للوطنية السوفييتية والأممية البروليتارية. وقد استخدمنا من أجل تحقيق هذه الأهداف الترسانة الغنية لكل وسائل العمل الدعائى والتنشيطى مثل المحاضرات والمناقشات والندوات التى تعقد فى موضوعات معنية فى التعاون القتالى والمؤتمرات المخصصة للقراء، واللقاءات مع الضباط والجنود الذين يشاركون فى أول معارك لهم. من المعروف أن أسس الاستعداد القتالى تتشكل مباشرة فى الوحدات والأطقم وفى المواقع العسكرية، ولهذا فقد أولينا اهتماما خاصا للصقل المستمر ورفع المقدرة القتالية للقوات والوسائل المناوبة.

عملت مؤسستنا الثقافية التنويرية بالاشتراك مع قادة الألوية بفكر عميق وعملى على نشر المعرفة العسكرية التقنية. ومن أجل هذا قمنا بتنظيم مؤتمرات وندوات ومحاضرات فى العلوم الفنية، كما تم تنظيم اجتماعات للأساتذة فى التخصصات القتالية بشكل دورى. وبكل ثقة حافظ طاقم نقطة القيادة رقم ٢ بكتيبة الصواريخ على المركز الأول فى مسابقة الرماية بالصواريخ والتى تم تنظيمها فى التشكيلات وكانت مكونة من كل من: المقدم ن. ف. سيرجييف، والنقيب ف. أ. سيرياك، والملازم ل. د. شفيتسوف والجندى ف. م. شوماكوف.

أود أن أشير هنا بشكل خاص إلى المجموعة الدعائية التى كان يرأسها قائد القسم السياسى المقدم ل. أ. كودريافتسيف. لقد عاشت هذه المجموعة حياة نشيطة مبدعة. وتم بفضلها تنظيم مناقشات نظرية ومنهجية، وأنشطة كومسومولية، وندوات. إن خبرة هذه المجموعة بالتحديد هى التى حددت أشكال ومناهج الأعمال التنشيطية التى لاقت استجابة كبيرة فى الوحدات. وقد شغلت المعلومات السياسية مكانة بارزة بين هذه الأشكال. ها هى موضوعات بعض منها: "الأعمال الاستفزازية للمحتلين الإسرائيليين"، "ڤلاديمير لينين حول الطابع الإجرامى للإمبريالية الأمريكية"، "التقدميون فى وحدتنا" وغيرها. إن الإعلام السياسى المكرس لحياة الوحدات تحول لا إلى مجرد التحليل البسيط للخدمة العملية، فقد تم التوصل إلى استنتاجات يمكن استغلالها لعمل موجه لأعمال جديدة مجيدة. وفى النهاية كان هناك دائما وقت للإجابة على أسئلة المستمعين المهتمين.

شهريا كان يتم تنظيم قراءات فى أعمال لينين مع مشاهدة أفلام سينمائية والاستماع إلى تسجيلات صوتية.

وقد تم تنظيم اجتماعات للعسكريين بهدف الدعاية للأفكار الوطنية السوفييتية والأممية البروليتارية والتقاليد العسكرية وتقديم الأمثلة على التضحية من أجل تنفيذ الواجب العسكرى. وكانت هذه الاجتماعات تتم فى قاعدة نادينا. وقد وضعت على جدول الأعمال هذه القضايا: "تقوية مشاعر الصداقة عند العسكريين"، "أن تكون مخلصا للواجب الأممى"، "ماذ يعنى اليوم أن تكون وطنيا سوفييتيًا؟".

كانت لدى المقاتلين الأمميين الموجودين خارج حدود الوطن حاجات سياسية وثقافية شديدة التنوع. وكانت تلبية هذه الحاجات لديهم واحدة من المهام الحزبية والكومسولية الأساسية. كما كانت الأمسيات المكرسة للأسئلة والأجوبة تقام بشكل منتظم. كانت الأسئلة فى الوحدات يتم جمعها سواء بشكل مكتوب أو شفاهة. كانت هناك مجموعة كاملة من الضباط النشطاء التقدميين تعمل فى النادى وكان يرأسها الدعائى المكلف بالوحدة الرائد أ. ف. شينكو، ومن بين النشطاء الذين كانوا يتبعونهم الضباط التقدميون الملازمون الأولون ف. إ. أندرييف، إ. ف. نيكولاييف أ. س. ريندين، والنقباء ن. أ. أندرييف ج. س. برچكو، والرائد أ. ن. توبوروف، ونواب قادة الكتائب كافة فى الشئون السياسية، وهل من الممكن أن نحصيهم جميعا. كان النشطاء يضعون خطط الأعمال الثقافية بناء على دراسة مطالب ورغبات الأفراد.

كانت الأمسيات المكرسة لموضوعات محددة تشغل مكانة مهمة فى العمل الدعائى التحريضى. وقد حققت الأمسية الخاصة بموضوع "على طريق الانتصارات" نجاحا خاصا. فقبل بداية الأمسية تم عرض فيلم سينمائى مدته عشر دقائق قام بتصويره وتحميضه وعمل المونتاج الخاص به نشطاء النادى. كان هذا الفيلم يصور أيام العمل فى الكتيبة. وقد افتتح هذه الأمسية المقدم ن. توتينتسيف بطل الاتحاد السوفييتى، وبعد الكلمة التى ألقاها تم تسليم الضباط أصحاب الجدارة الأوسمة الحكومية وفى نهاية الأمسية قام الفنانون الهواة المفضلون بتقديم عروضهم. فقدموا حفلاً كبيرًا تضمن برنامجه شعرا وأغنيات وفقرات فكاهية وغيرها من الأعمال. كانت كل فقرة تقدم بإحساس كبير. وقد كان النجاح الكبير من نصيب العريف ن. ن. نوفيكوف الذى قدم عددًا من

الأغنيات، ثم وكيل عريف. ف. ف. تورتشين والجندى أ. م. جومينوك وقد قدما فقرات غنائية. أود أن أتوقف هنا لأشيد بعمل الفرقة التحريضية للوحدة، والتى كانت تسافر شهريا إلى الوحدات بهدف تقديم العون للقادة والعاملين السياسيين والمنظمات الكومسومولية المحلية فى تنظيم العمل الثقافى الجماهيرى. وقد تكونت الفرقة التحريضية من: الدعائى فى الوحدة الرائد أ. ف.شينكو، النقيب طبيب ف. إ. يوركو، الفنان المصور الجندى أ. ب. شبراتمكى، الفنى السينمائى الجندى ج. أرتيمنكو والمشاركين فى أنشطة الهواة الفنية.

كانت ماكينة النادى المخصصة لهذا العمل تمتلك بروچيكتور سينمائيًا، مسجلاً، كاميرا تصوير، وجهاز عرض، فانوسًا سحريًا ومكتبة متنقلة، إلى جانب أفلام روائية وأفلام تسجيلية قصيرة.

كانت رحلة الفريق التنشيطى تمتد عادة من يومين إلى ثلاثة أيام.كان أعضاء هذا الفريق يقومون عند وصولهم إلى وحدة ما بتنظيم عملهم طبقا للوضع فيها. وكان العمل الأول هوتسليم الخطابات والصحف والمجلات والأفلام الجديدة. وقد قام الفنان والمصور بالاشتراك مع أعضاء مجلس غرفة لينين بتجديد عملية التحريض وكانوا يقومون بتصوير المتقدمين للمشاركة فى صفوف الكومسومول اللينينى ويعدون المواد من أجل الصحف المسموعة. كان الطبيب يقوم بفحص حياة الأفراد وإعداد الغذاء وحفظ المنتجات الغذائية. وفى المساء كان يتم دائما بعد العشاء تنظيم حفل فنى للهواة من أجل أفراد الوحدة وكان من الضرورى أن يجرى إعداد مفاجأة للحضور. ومن ليننجراد إلى مصر الحارة أحضروا شرائط تحمل تسجيلات تهنئة من الأهل والأقارب. وبناء على طلبات مسبقة قدمت الأغنيات المفضلة. ينبغى أن نذكر هنا أن هذا الشكل من أشكال التهنئة كان قد جرى إعداده عن قصد. آنذاك تم ترشيح العديد من الضباط والرقباء والجنود لينالوا أوسمة الوطن الرفيعة، على أن الصحافة لم تكتب عن مآثرهم أى شىء.

عشية الذكرى الثلاثين على بدء الحرب الوطنية العظمى تم تنظيم أمسية ناجحة كان موضوعها "الإمبريالية ألد أعداء الشعوب". وقد تمت دعوة الجنود من الوحدات وكذلك العسكريين المصريين إلى هذه الأمسية، وقد أبدى المصريون اهتماما كبيرا عندما شاهدوا معرض الصور الذى حمل اسم "أكره الإمبريالية".

وقد تم توزيع استمارة على الأفراد تحتوى أسئلة تتعلق بموضوع الأمسية الفائتة. وقد استجاب الجنود لهذه الاستمارة. وقد أوردوا فى الاستمارة العديد من الحقائق التى تفضح الجوهر الإجرامى للإمبريالية والسياسة المعادية للشعوب التى تنتهجها حكومة إسرائيل وشركاؤها فى الأحلاف العدوانية.

لقد لعب الفن السوفييتى دورا كبيرا فى تربية العسكريين على روح صداقة الشعوب. "الفن أحد الوسائل لتوحيد الشعوب" فى هذه الكلمات التى قالها ليف تولستوى تتلخص الحقيقة العميقة. إن أفضل نماذج الفن الغنائى والموسيقى القومى يعطى لنفسه بسرعة فائقة حق المواطنة حتى خارج حدود وطننا.

مازلت أذكر النجاح الذى حققته فى جولتها الفنية فرقة أ. ف. إلكسندروف الحاصلة مرتين على وسام الراية الحمراء وهى فرقة الغناء والرقص للجيش الأحمر. وكانت عروضها فى قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة ناجحة حتى أن جميع التذاكر قد نفذت.

من المستحيل أن يلتقى المرء بشخص لا يبالى بالأغانى الأوكرانية الحماسية والألحان المولداڤية العاطفية والرقصات القوقازية الإعصارية. أما فرقة "كالينكا" الشهيرة فقد استمع إليها الجمهور وقوفا وهو يصفق. وقد تمت دعوة أفضل جنود فرقتنا إلى هذه الحفلات، وكذلك العسكريين المصريين. لكنّ كثيرين لم يستطيعوا مشاهدة حفل هذه الفرقة المشهورة. كان الجهد المستمر للمناوبة العسكرية يوقع الأفراد كلهم فى حالة التوتر. ولم يكن هناك وقت كاف للمناسبات الثقافية الجماهيرية الواسعة على أنه وعلى الرغم من كل هذه الظروف كان قادة الوحدات والأفراد السياسيون حريصين على أن يتمكن الأفراد فى أوقات الفراغ من المناوبات أن يستريحوا، فضلاً عن ممارستهم للرياضة. تم تنظيم منافسات بين بطاريات المدفعية ووحدات إطلاق الصواريخ. بعد ستة شهور من وصولنا إلى مصر مستخدمين مترجمين من العربية، راح جنودنا يستمدون المعلومات من الصحف المصرية. كان هذا الأمر أسرع من وصولها إلينا عبر القنوات الأخرى. فعلى سبيل المثال علمنا بمصرع طاقم سفينة الفضاء "سويوز - ١١" التى كان من بين أفرادها ج. ت. دوبروفولسكى، ف. ن. ڤولكوف، ف. إ. باتسايف. وقد أعرب مترجم اللغة العربية المصرى لنا عن خالص عزائه.

كانت الطائرات الإسرائيلية تقوم يوميا بشن غارات على المواقع العسكرية والصناعية، ولكنها لم تكن تقترب من منطقة عمليات صواريخنا. كان إطلاق الصواريخ على الحدود البعيدة للمنطقة أمرا غير ناجح. كانت طائرات الفانتوم تنجح فى عمل التفاف وتفادى المخاطرة. وللمرة الأولى فى الواقع العملى للعمليات العسكرية لقوات الدفاع الجوى يتم تخصيص فصيلة تغطية لكل كتيبة صواريخ مضادة للطائرات. وكانت كل فصيلة تضم أربعة مدافع طراز زس أ ـ ٢٣ ـ ٤ شيلكا (تركيبة من أربعة مدافع مضادة للطائرات ورادار مثبتة على هيكل الدبابة) ووحدة صاروخية مضادة للطائرات متنقلة من طراز "ستريلا ـ ٢" يمكن إطلاق الصواريخ منها من على الكتف.

ساعدنا هذا التجديد على تنفيذ المهام القتالية بنجاح والحفاظ على أرواح العديد من الجنود السوفييت. وبفضل معداتنا والخبرة القتالية الممتازة للجنود الروس تمكننا فى وقت قصير من إنهاء العمليات العسكرية وإعادة الثقة فى انتصار الجنود المصريين. لقد أظهرت معداتنا فى هذه الظروف المناخية الصعبة جودتها الفائقة، الأمر الذى كان بمثابة إعلان جيد عند بيع وحدات الصواريخ إلى الدول العربية.

أما بخصوص وقف العمليات العسكرية وحضور وزير دفاع الاتحاد السوفييتى المارشال أ. أ. جريتشكو فقد علمنا بذلك من مترجمينا: فهم أول من أخبرنا بذلك.

تم اللقاء بوزير دفاع الاتحاد السوفييتى فى القاهرة، حيث قام بزيارة الكتيبة التى كان يرأسها المقدم أ. د. جالكين. وفى اللقاء الذى تم فى الوحدة تقدم مارشال الاتحاد السوفييتى بالشكر للأفراد على التدريب العسكرى الممتاز وعلى العمل الذى تم تنفيذه وأعلن امتنانه للجميع ثم أعلن أن الضباط والجنود سوف يحصلون على إجازة عند عودتهم للوطن، أما بالنسبة لجنود الخدمة العاملين، فقد تم إعداد قاعدة للاستراحة لهم فى الإسكندرية. لقد فوضت للبقاء فى الإسكندرية لتوفير أعمال الثقافة الجماهيرية عند افتتاح قاعدة الاستراحة. وهناك على شاطئ المتوسط تم افتتاح مصحة وقائية لمقاتلى الدفاع الجوى.

كان للشاطئ الرائع والغذاء الجيد والمسكن أثر إيجابى مثمر على مزاج الجنود. تم تنظيم لقاءات مع رائدة الفضاء ڤالنتينا تيرشيكوفا ون. أندريانوف ومع أطقم سفننا الذين يصلون إلى الإسكندرية. كما تم تنظيم رحلات على البواخر وإلى المتاحف، زرنا الأماكن الأثرية فى المدينة وضواحيها. أقمنا احتفالات رياضية شارك فيها المصريون، كما أقيمت مباريات رياضية بين الكتائب.

فى هذه الفترة أقيم فى القاهرة المعرض الصناعى الدولى. وقد مثلت بلادنا آنذاك جمهورية چورچيا أما البرنامج الثقافى فقد ساندته الفرقة المشهورة آنذاك "إيڤيريا". وبناء على طلب القيادة من خلال سفارة الاتحاد السوڤييتى استمر الفنانون فى فرقة "إيڤيريا" باقين فى مصر لمدة شهر. وقام الموسيقيون بجولة فى مواقعنا كافة حيث قدموا حفلات للمقاتلين. وهناك فى الصحراء الحارة استمعنا إلى أغنيات أ. نوفيكوف" الأولاد"، "من أجل هـذا الشاب" واستمعنا إلى ألحان أ. باخموتاوفا وأ. أستروفسكى وإ. كولمانوفسكى وكذلك الأغنيات العاطفية من أشعار س. يسينين.

وقد شغل التأكيد فى ذاكرة الجنود على أفكار الوطنية السوڤييتية والأممية الاشتراكية، والفخر بالوطن السوفييتى ومنهج حياتنا مكانة بارزة فى العمل التربوى مع الأفراد. لقد تم بعث العمل الفعال المؤثر لفضح الإيديولوچيا والأخلاق البورچوازية لقد تم تنظيم أمسيات سينمائية تحت اسم "عالم الرأسمالية فى عيون السوفييت". وقد جرت دعوة الخبراء السوڤييت العاملين فى مجمع الحديد والصلب بحلوان إلى هذه الأمسيات، وجرت أيضا قراءة محاضرات بعنوان "الحرب الإيديولوجية ـ الحرب الطبقية"، "عالمان ـ منهجان فى الحياة، "لتسقط الإيديولوجية البرجوازية"، "جيشان وخلقان مختلفان" "والآن فقط يمكن أن نتصور على أى نحو من العمق والتأمل كان رئيس القسم السياسى ب. كودريا فتسيف يرى الحياة، وهو الذى أشار علىّ بتنظيم محاضرات باسم "الثقافة البورچوازية فى خدمة الرجعية". آنذاك كنا نحكى لجنودنا أنه فى البلدان الرأسمالية يتم تحت اسم الفن إدخال تشويه عميق لما يسمى بالثقافة الجماهيرية بما يكرس للعنف والجنس والطمع بلا حدود. هذا المضمون يميز

الآن برامجنا التليفزيونية. إنه عرض متصل لكيفية تعذيب وضرب الناس الذين يطعنون بالسكاكين والذين يسرقون ويشوهون. وقد حدث هذا فى بلادنا بعد مرور خمسة وعشرين عاما فى يوم من أهم اللحظات فى العمل مع الشباب. الأفضل أن يتلقوا شيئا جيدا - لقد استطاع المصريون على مدى الخمسة وعشرين عاما الماضية بناء بلادهم التى قدمنا لها المساعدة بشكل أفضل والحفاظ على أصالتها وثقافتها دون استسلامهم للغرب. يمكننا أن نقتنع بذلك إذا ما نظرنا إلى "ملاحظات طائشة" التى كتبها ديمترى كريلوف. وكيف أصبحت بلادنا دولة عظمى فى الماضى؟ كما قال فنان روسيا القدير بن بنتسيانوف فى أحد خطبه.

"كثيرا ما أجلس أمام شاشة التليفزيون./ واثقا - ولعلكم توافقونى على ذلك/. أشعر أننى أرى/ بلدين مختلفين: فى إحدهما تضىء القاعات بالعروض/ وكما فى الحكايات حفلات وطعام/ حجم وتهتك الثراء/ الذى لم يعش فيه القياصرة إطلاقا / وفى الأخرى - يقف أبناء الوطن وأيديهم ممدودة/ يشاركون فى الإضرابات ويبكون الروس المشردين/ ليس السكارى وإنما المواطنين".

انظروا أى زمن حل بنا. لكن أقول بكل إخلاص، فى سنوات السبعينيات تلك التى عشناها استقبلت بلادنا العزيزة ببرود أبناءها الأمميين الذين قضوا من ٩ إلى ١٥ شهرًا تحت الشمس الإفريقية الحارقة. وكل منا كتب على نفسه تقريرا ألا يبوح بسر الحرب. البعض تم إرسالهم مباشرة إلى البيوت، والآخرون أكملوا شهور الخدمة، التى لم تكف لتسريحهم إلى الاحتياط.

وكثير منهم أيضا لم توضع فى بطاقاتهم علامات تشير إلى أنهم اشتركوا فى العمليات العسكرية، أما أوسمة الوطن، فراحوا يبحثون عنها عبر اللجان العسكرية لسنوات طويلة.

لعل القارئ لا يأسف لأننى أكتب عن نفسى، عن خدمتى وعن عملى عما رأيت وعمن قابلت. هذا بالطبع يفسره أن أفكارى ومشاعرى فريدة بشكل ما. بالعكس، إننى أراها أفكارا ومشاعر نمطية لكل هؤلاء الذين أدوا واجبهم فى مصر البعيدة. لقد تم نشر الكثير من الذكريات، التى كتب فيها كل شخص "من وجهة نظره" عما رأى، وعما فعل، وعلى أى نحو فهم وأدرك، وعلى وجه العموم تتكون

بالتدريج لوحة من الفسيفساء، ومن وجهة فهى الصورة التاريخية الحقيقية لهذا الزمن البعيد. فى مذكراتى لم أختلق مشهدا واحدا ولم اخترع اسما واحدا. لقد كتبت كل شىء بكل إخلاص وصدق.

كتائب الصواريخ والمدفعية المضادة

للطائرات تطلق النيران

ك. إ. بوبوف

لقد مضى أكثر من ثلاثين عامًا منذ تلك الأيام الساخنة بالمعنى المباشر وغير المباشر لتلك الكلمة. وفقدت الذاكرة الكثير، كما رحل كثيرون عن هذا العالم. تاهت الأسماء والتواريخ، وكذلك بعض التفاصيل. وهكذا فإن المرء حينما ينظر إلى الوراء ويتذكر ويقيم الماضى، يود أن يشاركه القراء فى بعض الأفكار بشأن ما حدث.

فى أكتوبر ١٩٦٩ جاءنى فى كتيبة الصواريخ مدير شئون العاملين بالجيش العقيد ى. ج. بولوإيكتوف والقائد ـ العقيد ب. ى. جايفورونوك وبدأ كلاهما الاستعلام عن الاستعداد القتالى والسياسى، عن النظام، وعن التعبئة إلى جانب عدد آخر من القضايا. ولم يجيبا عن أسئلتى. وتقريبًا فى المرة الثالثة لزيارة مقر الكتيبة أخبرنى العقيد جايفورونوك أنه يتم تكوين وحدة للمساعدة فى إعداد العسكريين المصريين فى الاتحاد السوفييتى. لذلك فإن هناك مهمة عمل فى ميدان الرماية فى أشولوك[٧٠]، وتلك المهمة تتطلب ضباطًا وعرفاء وجنودًا على قدر عالٍ من التعليم والانضباط وتحمل المسئولية. وفى الفترة من نوفمبر إلى ديسمبر ١٩٦٩ قام طاقم القيادة بتعبئة كتيبة الصواريخ القائمة فى فترة السلام على حساب عناصر من الوحدات والكتائب الأخرى. وفى ليلة ٢ إلى ٣ يناير ١٩٧٠ خرجت ثلاث كتائب صواريخ إلى محطة النقل فى ألابينو[٧١] وفى نهاية يوم ٣ يناير انطلق القطار العسكرى إلى أشولوك.

---

(٧٠) منطقة بأستراخان شمال بحر قزوين بها مكان للتدريب على إطلاق النار.

(٧١) موقع سكانى بالقرب من موسكو.

وصلنا إلى محطة الوصول تقريبًا أيام ٦ ـ ٧ يناير، وانتشرنا وشرعنا فى الاستعداد لتدريب العسكريين المصريين الذين بدأوا فى الوصول. تم آنذاك تكوين لواء يتكون من ست كتائب مدفعية مضادة للطائرات وكتيبة واحدة فنية، وسرية مركبات، وتم تكوين إدارة للواء ووحدة تأمين.

كان النظام قاسيًا، فكانت الدروس تتم قبل الغداء، ثم نشرع فى ضبط المعدات والتحضير لليوم التالى. وكان اليوم عادة ما ينتهى فى منتصف الليل.

كنا نولى اهتمامًا كبيرًا بالجانب النظرى للإعداد لعملية إطلاق النار. وقمنا بالتدريب على التصويب على أهداف حقيقية، وبخاصة تلك الأهداف التى تطير على ارتفاعات منخفضة ويعوق رؤيتها التشويش. ولابد من التنويه على أننى وعلى مدار خمس سنوات من قيادة كتيبة الصواريخ لم أر ولو لمرة واحدة على الشاشة تشويشًا مؤثرًا، ولم يختلف الوضع هنا أيضًا.

فى بداية فبراير استلمنا معدات جديدة وبدأنا تدريبات مكثفة لإطلاق النار. وشرعنا فى التدريبات الليلية، وأولينا اهتمامًا كبيرًا لصور أخرى من إعداد العسكريين. ولكن أحدًا لم يخبرنا بالهدف الحقيقى من تلك التدريبات التى كنا نقوم بها. وكان الجميع يعلم تمامًا أن علينا إعداد العسكريين المصريين فحسب. حتى أنا لم يكن لدى كقائد للكتيبة صورة كاملة لما يحدث. وبعد وقت قصير وصل إلى أشولوك اللواء طيار نيكولاى أليكساندروفيتش كوزلوف وأمرنى بأن أعلن لجميع أفراد القيادة أننا سوف نقوم بإعداد نفسنا للسفر قريبًا للحرب فى مصر. ولم تكن هناك أى معلومات إضافية سوى ذلك.

فى ذلك اليوم تم عقد اجتماع لأفراد القيادة لتحديد المهام. ثم كثفنا عمليات التدريب على إطلاق النار والتصويب، ودراسة ما يخص المعدات. زادت التدريبات الليلية، وتدريبات فك وتركيب مجموعات المعدات. وفى منتصف شهر فبراير قمنا بتدريبات إطلاق النار على أهداف وطائرات حقيقية دون طيار تطير بسرعات عالية على ارتفاعات منخفضة. وحصلت الكتيبة على درجات مرتفعة فى تقييم إطلاق النار. ثم وجهنا اهتمامنا لدراسة البلد التى سنحارب بها.

فى ٢٧ فبراير تلقت الكتيبة الأولى التعليمات بالتجمع فى يوم ٢٨ فبراير والخروج إلى محطة النقل وخرجنا بالقطار من أشولوك فى الأول من مارس.

وصلت الوحدة إلى نيكولاييف. وهناك حصلنا على ٣ وحدات مدافع مضادة للطائرات ذاتية الحركة (شيلكا) ومجموعات ستريلا - ٢ والعربات القاطرة. وكان أفراد فصيلة التأمين للمدافع والصواريخ والسائقين من سلاح القوات البرية، ورأيناهم آنذاك للمرة الأولى. ثم تعارفنا بعد ذلك وتبادلنا المعلومات عن بعضنا بعضًا فى أثناء الطريق البحرى. كان جميع الأفراد يرتدون ملابس مدنية. وتم إرسال الملابس العسكرية فيما بعد إلى منازلهم. وفى ٨ مارس صعدت الكتيبة إلى السفينة الناقلة "جيورجى تشيتشيرين" والتى أبحرت من الميناء فى الثانية عشرة ظهرًا. فى أسفل الحاملة كانت هناك معدات القتال والصواريخ والذخيرة والمواد التموينية ومعدات وأجهزة أخرى. بينما كانت العربات ومولدات الديزل والمحطات العامة الأرضية على سطح السفينة. حيث تم تحميل كتيبتى صواريخ على تلك السفينة الناقلة.

وشغل الرقباء والجنود عنابر المركب بينما شغل الضباط الكبائن، وتم تجهيز نظام غذائى مكون من ثلاث وجبات ساخنة للجميع.

فى الساعة التاسعة من مساء يوم ١١ مارس وصلت السفينة إلى ميناء الإسكندرية، حيث كان فى استقبالنا ممثل كبير المستشارين العسكريين، قائد الفرقة اللواء أ. ج. سميرنوف، وقائد لواء العقيد ب. ى. جايفورونوك وآخرون. وتمت عملية إنزال الحمولة وتلوين المعدات الحربية باللون الرملى، وارتدى الأفراد الزى العسكرى المصرى وتم تحميل كل المؤن على الجرارات القاطرة. ويوم ١٢ مارس فى السادسة صباحًا شغلت الكتيبة مواقع إطلاق النار المعدة خصيصًا لها. وكانت التعليمات الموجهة إلينا أن نكون على استعداد لإطلاق النيران بدءًا من الساعة التاسعة صباحًا. وقد تمكنت الكتيبة من تنفيذ تلك التعليمات.

فى أثناء شهر مارس من عام ١٩٧٠ تم فى جمهورية مصر العربية تكوين فرقة صواريخ ومدفعية مضادة للطائرات.

وكان اختيار مواقع إطلاق النار لكتائبنا للصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات والكتائب الفنية قد تم من قبل، وتم بناء غطاء من الأسمنت المسلح لكابينة القيادة، ولمولدات الديزل ومحطات الاستطلاع وتحديد الأهداف طراز ١٥- ومحطة الاتصال طراز P-٤٠٥ لطاقم الأفراد. بينما تمت تغطية معدات الإطلاق

ومواقع الإطلاق وعربات النقل والشحن بأكياس من الرمال. وكانت معدات النقل ووحدة تغذية أفراد الكتيبة على بعد كيلومتر ونصف الكيلو متر من نقطة إطلاق النار. وكانت المدافع الثلاثة المضادة للطائرات ذاتية الحركة شيلكا موجودة على بعد ٣٠٠ ـ ٥٠٠ متر من نقطة إطلاق النار. وتمركزت مجموعات ستريلا ـ ٢ على بعد ٥ ـ ٧ كيلومترات من نقطة إطلاق النار، فى الأماكن الأكثر احتمالاً لطيران طائرات العدو فيها على ارتفاعات منخفضة. كذلك فقد تم وضع نقطة للمراقبة البصرية فى نقطة إطلاق النار. وكانت وسيلة الاتصال بين جميع النقاط بشكل أساسى تتم عن طريق مكبرات الصوت المتصلة عن طريق الأسلاك. وكان تأمين نقطة إطلاق النار يتم بواسطة أفراد الكتيبة وفصيلة من الجنود المصريين. وكانت وحدات الشيلكا والسترلا ٢ تتمركز فى نقطة إطلاق النار فى أثناء الليل ثم تعود إلى أماكن تمركزها السابقة عند الشروق. وكان يتم إمداد المعدات بالطاقة الكهربائية من مولدات الديزل بالكتيبة والتى كانت تعمل طوال اليوم. ولابد من التنويه على أنه فى خلال عام من العمل المتواصل لم يكن هناك أى أعطال أو مشكلات فى محطات الاستطلاع وتحديد الأهداف أو مولدات الديزل.

وهكذا فإن الكتيبة تسلمت نوباتجية القتال فى ١٢ مارس فى التاسعة صباحًا. (تم تسليم الكتيبة للواء آخر وظل فى الإسكندرية). حيث لم يستطع أحد أن يترك أماكن وضعه القتالى. وكانت أعمال الصيانة تتم فقط فى أثناء الليل. وبغض النظر عن أن المعدات كانت تحت غطاء من الأسمنت المسلح فلقد لاحظنا فى أثناء عمليات الصيانة وجود طبقات من الأتربة فى لوحات التحكم. وقررنا آنذاك وضع طبقات من شبكات التمويه على الأرضية تحت الكابينة وترطيبها بالماء من حين لآخر. ولكن ذلك أدى فى الوقت نفسه إلى تسرب الصدأ إلى اللوحات وانخفاض معدل العزل. لذلك اضطررنا إلى العدول عن فكرة الترطيب بالماء. ولكننا أبقينا على شبكات التمويه واستعنًا أيضًا بأغطية المعدات وأصبحنا نجرى عمليات الصيانة بمعدلات أكبر. وتلك كانت الصعوبات التى واجهناها. ولكن ما زاد الأمر صعوبة هو عدم معرفتنا باللغة العربية أو الإنجليزية. كما لم يكن هناك مترجمون. وكانت ظروف الطقس قاسية، والتهديد المستمر للهجوم الجوى من قبل العدو من الأمور التى جعلت الأمر شاقًا بالنسبة لنا. كذلك فلم تكن هناك أى اتصالات متبادلة بين كتائبنا، ولم نكن نحصل سواءً من الكتائب

الروسية الأخرى أو من الجانب المصرى على أى معلومات على لوحة البيان الطوبوغرافية عن الطلعات الجوية. فكنا نعمل بشكل مستقل تمامًا. حتى أن المعلومات المتاحة التى كنا نتلقاها من نقطة القيادة حول أعمال الطيران الإسرائيلى كانت تخص فقط الأربع والعشرين ساعة السابقة. كما لم يكن نظام الطيران المصرى على ما يرام هو الآخر، فلم نكن نتلقى إشارة "واحد منا" من الطائرات المحلقة.

فى ١٧ ـ ١٨ مارس على وجه التقريب تلقينا تعليمات من نقطة قيادة اللواء: "اعتبار الطائرات المحلقة على ارتفاع أقل من ٦ كم وأقرب من مسافة ٢٥ كم طائرات معادية وتدميرها". وتم توصيل تلك التعليمات لجميع جميع الأفراد. وفى مساء أحد الأيام وعلى ارتفاع ١٠٠٠ متر من اتجاه البحر عبرت طائرة فوق موقع إطلاق النار. وكانت تحمل أنوارًا على جسمها ومن الممكن رؤيتها بالعين المجردة. وكنت فى هذه اللحظات مع نائب قائد الوحدة للشئون السياسية الرائد ى.م.فوزدفيجينسكى أمام مدخل المخبأ. فسمعنا فجأة إطلاقًا للنار ورأينا صاروخًا انطلق باتجاه الطائرة. ثم سمعنا انفجارًا وانطفأت أنوار الطائرة.

فهمنا حينئذ أن إطلاق النار جاء من أحد مواقع ستريلا ـ ٢، هرعت إلى نقطة قيادة الكتيبة وسألت باللاسلكى: "من أطلق النار؟". ومن المنصة الأولى لإطلاق استريلا ـ ٢ جاء الإبلاغ عن إطلاق صاروخ وتدمير الهدف، وعدد الصواريخ التى تم إطلاقها ـ واحد. وتم الإبلاغ عن ذلك على وجه السرعة إلى نقطة قيادة الكتيبة. ثم اتضح بعد ذلك أن الهدف كان طائرة ركاب من طراز AN- ٢٤ وعلى متنها طاقم مصرى وركاب متجهون إلى القاهرة. وعلى إثر إطلاق الصاروخ تحطم المحرك الأيمن للطائرة ولكن استطاع الطيار أن يصل بالطائرة إلى جهة الوصول ونجح فى الهبوط فى مطار القاهرة الغربى. ونشرت الصحف المصرية فى اليوم التالى أن أحد محركات الطائرة انفجر لسبب غير معلوم، ولكن طاقم الطائرة تمكّن بشجاعة ومهارة من إنقاذ الركاب والطائرة.

بعد تلك الحوادث تم إرسال حاملى لوحات بيان طوبوغرافية مصريين، وتم وضع إشارة الرد "واحد منا" على جميع الطائرات وتم تنظيم الطيران. وأصبحت رحلات الطيران تتم بعلم الفرق التى كانت تتلقى معلومات على اللوحة الطوبوغرافية من الاستخبارات الحربية المصرية.

لابد من التنويه عن أن هناك خطأ كبيرًا ارتكبناه فى أثناء الإعداد لمواقع الإطلاق، ألا وهوأننا كنا نقوم بوضع زوايا معدنية مدببة على غطاء أنابيب عوادم الغازات الناتج من محركات الديزل، وكانت تلك الزوايا المدببة تشبه فى مواصفاتها الأركان المعدنية التى كنا نستخدمها فى أثناء تدريبات إطلاق النار بالقواعد العسكرية فى الاتحاد السوفييتى. إلا أن تلك الزوايا المدببة فى ظل الطبيعة المحيطة فى مصر كانت عواكس جيدة وكان من الممكن أن تصبح أهدافًا أرضية جيدة للعدو. أى أنها كانت تظهر أماكن الإطلاق بدلاً من أن تخفيها. فاضطررنا أن نزيلها ونضعها على بعد بضعة أمتار من مواقع الإطلاق.

بعد شهر تلقت الكتيبة أوامر بإعادة الانتشار فى منطقة الفيوم، والتى توجد على بعد ٩٠ كم تقريبًا من القاهرة. أجرينا عملية إعادة توزيع الكتيبة بأنفسنا وفى أثناء الليل فقط. فكنا فى أثناء الليل نقطع ما يقرب من ١٧٠ كم، واسترحنا فى المنطقة الخضراء على أطراف القاهرة، وفى الليلة التالية قطعنا المسافة المتبقية، وأقمنا مواقع جديدة لإطلاق النيران فى محيط بحيرة قارون بمنطقة تسمى كوم أوشيم وفى السادسة صباحًا كنا فى وضع الاستعداد لإطلاق النار.

وكانت مهمة الكتيبة حماية القاعدة الجوية هناك والتى كانت تستخدم فى إطلاق أسراب طائرات ميج ـ ٢١ والتى كان يقودها طيارون سوفييت.

وتم إنشاء مواقع إطلاق النيران من الأكياس الرملية، واختبأ الأفراد فى المخابئ. كما تم وضع أكياس رملية على سطح كبائن الإطلاق. وكانت تلك وسيلة الحماية ضد صواريخ"شرايك" ذاتية التوجيه فقط والتى كان يستخدمها الطيران الإسرائيلى. وكان الاتصال بنقطة قيادة الكتيبة وبالمطار عن طريق اتصال سلكى تليفونى وبواسطة مكبرات الصوت. كما أن المعلومات التى على اللوحات الطوبوغرافية كانت تنتقل إالينا عن طريق وسائل اتصال سلكية. وكانت وسائل الاتصال بشكل عام مستقرة.

وبعد وصولنا بيوم كان سرب طائرات ميج ـ ٢١ يستعد لنوباتجية قتال ويقوم بطلعات طيران تدريبية. كما تمركز سربان آخران من طائرات ميج ـ ٢١ فى الجنوب، بمنطقة بنى سويف. كما كنا نتدرب نحن أيضًا على العمل القتالى. وبانتهاء الطيران رأينا على شاشاتنا هدفين (طائرتين تطيران جنبًا إلى جنب).

فسألت من بجانبى عما إذا كانت جميع طائراتنا فى قواعدها؟ فكانت الإجابة أن طائراتنا فى قواعدها ولكنّ سربى طائرات بنى سويف لا يزالان فى الجو. ثم أعدت السؤال، وتم تأكيد الوضع نفسه لى. فى الوقت نفسه الذى تحرك فيه هذان السربان باتجاه الكتيبة. وتابعناهما. وكانا يطيران على ارتفاع ٦ كم بسرعة ٢٥٠ مترًا/ثانية، وهى الإحداثيات والظروف المثالية المواتية لإطلاق النار. ثم سمعت فجأة إشارة من المطار بأن طائرتى "فانتوم" تتحركان باتجاه الكتيبة. ثم أخبرنى موقع ستريلا ـ ٢ أن طائرتى "فانتوم" مرتا فوق الموقع وابتعدتا باتجاه بنى سويف. وكان مثل ذلك المرور لطائرات "الفانتوم" فوق مواقعنا يحدث من قبل بمدينة القاهرة. وكانت تلك الأحداث تثبت أن العدو تم إعداده جيدا، وأنه درس مواقعنا بدقّة ويستخدم أى أخطاء نقوم بها.

وبتحليل ذلك الموقف الخاص بتحليق طائرتى "الفانتوم" قمنا بتوجيه اهتمامنا بشكل أكبر نحو الاستعداد لإطلاق النار، والنوبات القتالية وفعالية الاتصال المتبادل مع سربنا.

فى منتصف شهر يوليو جاءتنا ـ نحن الكتيبة الأولى ـ تعليمات بالتحرك نحوالقناة وإعداد كمين وإطلاق ضربة موجعة للطيران الإسرائيلى. ومن أجل هذا الهدف اخترنا موقعًا للكتيبة جنوب مدينة الإسماعيلية. وقمنا بتجهيز مواقع الإطلاق الرملية (من أكياس الرمل). وعلى بعد ١٥ ـ ٢٠ كم تقريبًا إلى الجنوب تم اختيار وتجهيز موقع إطلاق النار لكتيبة المقدم ن.م.كوتينتسيف.

تلقيت أمرًا بتاريخ ٢٩ يوليو بالتحرك لإعداد الكمين يوم ٣١ يوليو، وأثبت طاقم الأفراد جدارته فى تعبئة الكتيبة والتحرك نحوالمواقع الجديدة، وتفوق على أدائه بضعفين ونصف الضعف. وكان علينا أن نقطع مسافة ١٥٠ كم ونشغل مواقع الإطلاق فى أثناء الليل وإخفاءها والاستعداد لإطلاق النار فى السادسة من صباح يوم ١ أغسطس.

قمنا بالتحرك فى أثناء النهار على ست قوافل تتكون كل منها من ٥ ـ ٦ سيارات ويفصلها عن بعضها بعضًا ١٥ ـ ٢٠ دقيقة. وتم شغل مواقع الإطلاق على عجل وكان الاستعداد للقتال يتم فى مدة زمنية مضغوطة، وفى ظلام دامس، وكانت مصابيح الإضاءة الصغيرة (مصابيح الجيب) هى الطريقة الوحيدة للتعرف

على طبيعة الأرض الجديدة. وجنوبًا من موقعنا تمركزت كتيبة المقدم ن. م. كوتينتسيف وشمالاً من موقعنا تمركزت كتيبة مصرية.

وبعدما شغلنا مواقع إطلاق الصواريخ وأعددنا المعدات للإطلاق أولينا اهتمامًا كبيرًا لمسألة التمويه. فقد كان موقع إطلاق الصواريخ تم اختياره على حافة أحد البساتين، وبجانب البستان كانت هناك قنوات رى، ومزارع للفلاحين. واستخدمنا للتمويه شباكًا من اللونين الأصفر والأخضر، وأغصانًا من الشجر، وعيدانًا من الذرة وكل ما وقعت عليه أيدينا. وأحطنا ماسورة العادم بحلقات من المطاط وربطناها بالقرب من قنوات الرى. قمنا بتغطية مواقع الإطلاق لدرجة أنه كان من الصعب التعرف عليها من الأرض. وفى وسط الموقع نصبنا كابينة المراقبة البصرية. وربطنا جميع النقاط سلكيًا بمكبرات للصوت. كل ذلك تم عمله فى ليلة واحدة. وقد قع النصيب الأكبر من العمل على عاتق أفراد الاتصالات، فقد قاموا بتوصيل ما يربو على ٣٠ كيلومترًا من الأسلاك.

فى السادسة من صباح ١ أغسطس، كانت الكتيبة مستعدة للقتال. تم تنظيم نوباتجية قتال. كان أفراد الوردية التى لا تعمل بالنوبتجية تستريح إلى جانب مواقع القتال. وتم تنظيم عملية تقديم الطعام بواقع ثلاث وجبات ساخنة. كما تم إنشاء مواقع إطلاق صواريخ وهمية على بعد ٨٠٠ متر من مواقع الإطلاق الحقيقية وتم هناك أيضًا اتخاذ بعض إجراءات التمويه.

قام الطيران الإسرائيلى فى الأول والثانى من أغسطس بعدد من الطلعات الجوية بمحاذاة القناة ولكن بعيدا عن مدى تأثير نيران الكتائب. من الممكن التكهن بأن الإسرائيليين قد علموا شيئًا عن مواقع تمركزنا، وكانوا يحاولون من خلال طيرانهم العثور علينا. ولكننا لم نعط أى علامة تدل على وجودنا. كنا نقوم بالاتصال اللاسلكى لعدد من الثوانى. وعملت وحدات الاتصال بمحطات الاستطلاع وتحديد الهدف ١٥ ـ П باستمرار.

جاء إلينا اللواء جروموف فى يوم ٢ أغسطس. وتناقشت معه حول قضية النوباتجيات، واتفقنا على أنه إذا ما مر يوم ٣ أغسطس بنفس الهدوء، سنبدأ ليلة ٤ أغسطس فى التحرك لموقع آخر. فقام هو بدوره بشكر طاقم الأفراد على دوره الجيد فى إعداد الكتيبة للقتال.

الساعة ١٢:٠٠ يوم ٣ أغسطس حلّقت مجموعة كبيرة من الطائرات منسقة من حيث الارتفاع ومن حيث العمق. ولم تقترب الطائرات من مواقع إطلاق صواريخنا أقرب من ١٨ كيلومترًا. قامت الكتيبة المصرية بإطلاق النار، وأسقطت طائرة "ميراج". فى الساعة ١٤: ٢٧ بدأت غارة جوية جديدة، شارك فيها ١٦ طائرة منسقة هى الأخرى من حيث الارتفاع ومن حيث العمق، واستخدموا مجموعة لصرف الانتباه. توجهت الطائرات لقصف الكتيبة المصرية التى قامت بإطلاق النار. رأينا جميع الأهداف على شاشاتنا الخاصة بكابينة المراقبة وبالعين المجردة. كانت الطائرات تحلّق فى مجموعات مكونة من ٢ ـ ٤ طائرات على ارتفاع ٦ ـ ٨ كيلومترًا فى اتجاه درجة الصفر (من الجنوب نحوالشمال) وبسرعة مائتين وخمسين مترا فى الثانية مع فاصل ٢ ـ ٤ كيلو مترًا فيما بينها. تابعنا جميع الأهداف بحيث إننا كنا نقوم بتسليم مهمة مراقبتها من مجموعة لأخرى. سمعت كل التقارير حول الموقف من العقيد كوتينتسيف. ففى البداية دخلت الأهداف إلى مجال كتيبته المؤثر لضرب النار، وتلقّى تعليمات بتدمير الهدف، الأمر الذى ردّ عليه بأن كتيبته لم تتمكن من إطلاق صواريخ. ثم قمت بالإبلاغ بأننى تسلمت المجموعة القائدة المكونة من أربع طائرات وأنى على استعداد لإطلاق الصواريخ، وجاءنى الرد بالموافقة. تركنا الهدف حتى اقترب إلى مسافة ١٣ كم ثم قمنا بإطلاق صاروخين، ولكن عندما لاحظت مجموعة المقدمة بواسطة أجهزتها أنه تم إطلاق صواريخ قامت بالمراوغة والالتفاف فى اتجاه قناة السويس، وانطلقت بأقصى سرعتها، ولكننا أصبنا إحدى طائرات الفانتوم. وانطلقت بقية المجموعة بأقصى سرعتها فى اتجاه القناة. وتم إطلاق مجموعة أخرى من صاروخين للحاق بتلك الطائرات، ولكنْ الصاروخان لم يلحقا بأهدافهما. فى تلك اللحظة قامت مجموعة من أربع طائرات بالالتفاف من المؤخّرة على ارتفاع منخفض وبدأت فى إطلاق القنابل والصواريخ غير الموجهة على مواقع إطلاق الصواريخ، ولكن لحسن الحظ أصابت فقط مواقع الإطلاق الوهمية ولم تصبنا بأذى. ففى الوقت الذى كنا نطلق فيه الصواريخ، كانت تنطلق من مواقع الإطلاق الوهمية تفجيرات تمويهية، فتبدو تلك المواقع وكأنها المواقع التى تم منها إطلاق الصواريخ، وانطلت تلك الخدعة على الإسرائيليين. وبغرض

التقليل من كشف مواقع الإطلاق، كنا نقوم برش المياه حولها من القنوات المجاورة لإطفاء النيران بعد إطلاق الصواريخ مباشرة.

وبعد تقديم التقارير حول عملية الإطلاق الأولى، بدأنا فى تحليل أدائنا. بعد مرور ١٥ دقيقة ظهرت مجموعة جديدة من الطائرات، تتحرك مباشرة باتجاه الكتيبة. وبعدما تركنا المجموعة تتحرك لبعد ١٢ كم، قمنا بإطلاق صاروخين، أصاب الصاروخان طائرتى فانتوم تحطمت إحداها فى الجو، وتمكن الطيار الآخر من القفز من الطائرة وتم أسره وسلّمناه للمصريين. وقامت كتيبة العقيد كوتينتسيف بإطلاق الصواريخ على بقية المجموعة، فأسقط إحدى طائرات الفانتوم، كما أن الكتيبة المصرية هى أيضا قامت بإطلاق النيران. راوغت الطائرات للهروب من النيران وانطلقت بأقصى سرعتها إلى ما وراء قناة السويس. وهكذا كانت خسائر سلاح الطيران الإسرائيلى فى ذلك اليوم خمس طائرات. وبعد إطلاق الصواريخ ثلاث مرات لم يعد لدينا سوى صاروخين، فأبلغت عن ذلك نقطة قيادة العمليات وأعطيت أوامر لإمدادنا بصواريخ جديدة.

فى حوالى الساعة ١٧ ظهرت بعض الأهداف تتحرك ببطء فى اتجاهنا. ظننا فى البداية أنها طائرات عمودية. وبسؤالنا مواقع ستريلا-٢ وجدنا أنها لا ترى أو تسمع أى أصوات لطائرات عمودية. وقامت كتيبة العقيد كوتينتسيف بإطلاق الصواريخ ولكن الصواريخ تحطمت ذاتيًا. ثم تأكدنا بعد ذلك أن تلك كانت كرات معدنية تظهر وكأنها مروحيات كى يدفعنا الإسرائيليون لإطلاق جميع صواريخنا (فقد كانوا يعلمون قدراتنا). وبحلول الليل تمت تعبئة الكتيبة، وذهبت فى تجمعات بمحاذاة القناة. كانت عملية الخروج من موقع الإطلاق تحدث كلما كانت تصبح المعدات جاهزة للحركة نحو نقطة التجمع. من تلك النقطة تحرّكت الكتيبة نحو موقع إطلاق مؤقت جديد للصواريخ، ولكننا بعد ذلك اضطررنا للحركة مسافة ٧٠٠ - ٨٠٠ متر، ونصب موقع إطلاق جديد حوالى الساعة ٩ صباح ٤ أغسطس، وكنا على استعداد لإطلاق النار، وبعد يوم تمت تعبئة الكتيبة وعدنا لمكان الكتيبة القديم بجانب بحيرة قارون. وطوال يوم ٤ أغسطس ظلت الطائرات الإسرائيلية تقصف مواقع الإطلاق التى كنا قد أطلقنا منها صواريخنا.

بهذه الطريقة استطعنا تنفيذ المهمة، وتمكننا من صد الطيران الإسرائيلى، وحطمنا فى يوم واحد ثلاث طائرات وأصبنا طائرتين (بجهد مجموعة تتكون من ثلاث كتائب). ولم يتكبّد الطيران الإسرائيلى كل هذه الخسائر فى يوم واحد من قبل. وقد يكون ذلك هو السبب الرئيسى فى طلب الجانب الإسرائيلى لوقف مؤقت لإطلاق النار، والذى تم التوقيع عليه فى الساعة الخامسة من صباح يوم ٤ أغسطس ١٩٧٠.

وباعتبارى قائدًا أصابنى بعض القلق قبل القتال، كنت قلقًا بشأن كيفية تصرف الأفراد حينما يواجهون فى القتال عدوًا حقيقيًا وجهًا لوجه؟ خاصة بعد القتال المشئوم يوم ١٨ يوليو الذى راح ضحيته ثمانية أشخاص. لقد فاق النجاح الذى حققناه كل توقعاتى فقد كانت أطقم محطات الاستطلاع وتحديد الهدف والتتشين والمتابعة اليدوية وأطقم إطلاق الصواريخ وأطقم نقاط المراقبة البصرية قد رأت مجموعة كبيرة من الطائرات متجهة ناحية الكتيبة وسمعوا الأزيز المقترب ورأوا وقوع القنابل ولكن لم يرتعد أحد ولم يتحرك أحد من مكانه، وعمل الجميع بمهنية ودقة ليحددوا إحداثيات الهدف، وأبلغوا عن عمليات إطلاق الصواريخ وتغيير الأوضاع. اندلع حريق بعد القصف الأول احترقت فيه شباك التمويه وكل ما استخدمناه فى التمويه. فقد كان الدخان والرمل اللذان تصاعدا فى الجو حينما كانت الصواريخ تنطلق سببًا فى كشفنا. فى تلك اللحظات لم يفقد تحكمه الملازم الأول ن. ى. فورونين ولم يهتز، وأبدى شجاعة ومرونة فى تعامله مع الموقف. وبصرف النظر عن إطلاق صواريخ المنصة المجاورة وانفجار القنابل والصواريخ غير الموجهة، فقد تمكن الطاقم الذى تحت قيادتى فى دقائق معدودة من إخماد الحريق فى منصة الإطلاق وحولها. لقد عمل طاقم الأفراد بكامله بشكل ممتاز. ولكننى أود أن أنوه عن بعض الجهود المتميزة. وأعنى هنا رئيس الوحدة الرائد ا. ا. كريلوف، قائد بطارية الاتصال اللاسلكى الرائد ى. ب. ديمين، قائد بطارية إطلاق الصواريخ النقيب ف. ف. زاخاروف، وضباط التوجيه النقيب ا. س. ديادكين والملازم أول ف. ج. كوروتشكا، ورئيس وحدة الهوائى الملازم أول ف. ا. ميرونوف، وقائد الفصيل الملازم ن. ى. فورونين، وقائد فصيلة التأمين الملازم ف. ف. كريفوشيى، وقائد مجموعة السائقين رئيس العرفاء المتطوع موروزوف، ورئيس أركان الحرب بكتيبة المتطوعين بعد فترة الخدمة

العسكرية الإجبارية ا. ا. كوتشكين، والرقباء بودجاك، موفتشان، جانتشاروف، أنتونيوك، والجنود: لافروف، سولوماخا، بورينكو، ليسكين، شيفتسوف، شيبان، زازدرافنيخ، بارتشى، خودياكوف، بيسبالوف، مارتشيشين، ميريسى وآخرين.

لقد تم منحى لقب بطل الاتحاد السوفييتى لإتمام هذه المهمة، وحصل كل من رئيس الوحدة الرائد ا.ا.كريلوف، قائد مجموعة الاتصال اللاسلكى الرائد ى. ب. ديمين على وسام الراية الحمراء، بينما حصل كل من نائب القسم السياسى الرائد فوزدفيجينسكى، وضباط التوجيه على الهدف (التنشين) النقيب ا. س. ديادكين والملازم أول ف. ج. كوروتشكا ورئيس وحدة الهوائى الملازم أول ف. ا. ميرونوف ورئيس قسم المخابرات الملازم أول بيترينكو وقائد بطارية إطلاق الصواريخ النقيب ف. ف. زاخاروف، وقائد الفصيلة الملازم ن.ى.فورونين على ميدالية النجمة الحمراء لشجاعته، كما حصل قائد فصيلة التأمين الملازم ف.ف.كريفوشيى نظرا لخدماته القتالية، وحصل على وسام الإنجاز العسكرى فى مجال النظم التقنية كل من الملازم أول ف.ج.كوجاكوف والملازم أول ب.ا. كوتشوبيى وقائد الوحدة الملازم ثانى ل.ن.بودجاك، وعامل تشغيل وحدة الاستطلاع وتحديد الأهداف الجندى ف.ن. شيبان، وعامل تشغيل وحدة الاتصال اللاسلكى الجندى ا.ف.زازدرافنيخ، ومنح الجانب المصرى جميع ضباط الكتيبة وسام "الواجب العسكرى" من الطبقة الأولى، ومنح اثنى عشر رقيبًا وجنديًا وسام "الواجب العسكرى" من الطبقة الثانية.

ويجدر بنا من باب الإنصاف أن نشير هنا إلى أنه لم يحصل على التقدير جميع من استحقه، مع أن قيادة اللواء قدمت مستندات الترشيح لنيل التقدير.

حينما عادت الكتيبة فى ٥ أغسطس إلى منطقة بحيرة قارون، بدأت الكتيبة نوبات القتال، ثم بعد ذلك أصبحت النوباتجيات تتوزع على الكتائب وفقًا لجداول اللواء. وبصرف النظر عن الاتفاق الذى تم توقيعه بالوقف المؤقّت لإطلاق النار، فإن الطيران الإسرائيلى كان مستمرا فى خرق ذلك الاتفاق، وكانت الطائرات تطير بموازاة القناة.

كنا نقوم بالنوباتجيات العسكرية على مدار الأربع وعشرين ساعة، مؤمنين بأن دورنا الأساسى هو الجلوس المستمر أمام شاشات المراقبة وآلات توجيه المدفعية.

لقد أولينا ذلك كل اهتمامنا ونسينا كل ما عداه. وذلك كان خطأؤنا. فبعد مرور شهر واحد تم اختبار الاستعداد القتالى للكتيبة، وأكد الاختبار على أن الكتيبة فقدت المعارف والمهارات التى كانت قد حصلت عليها فى الاتحاد السوفييتى. فقد استغرقت تعبئة الكتيبة زهاء ٨ ساعات، وحصلت الكتيبة على درجة "غير مقبول" فى الاختبار المنعقد.

وبمناقشة الأمر مع الضباط والعرفاء توصلنا إلى استنتاج أنه لابد من تغيير أشكال ومناهج عملنا، وتوصلنا إلى خطوط عامة للمنحى الجديد لذلك العمل.

كنا نقرر جميع قضايانا الحياتية من خلال التنظيمات الحزبية والكومسومولية[٧٢] (النوباتجية القتالية، تنظيم الاستعداد السياسى والقتالى، تنظيم المسارات، الإطلاق القتالى للصواريخ، التغذية، الترفيه، التأمين، وغيرها من القضايا). إن عقد الاجتماعات الحزبية والكومسومولية كان محددًا وموجهًا لاتخاذ قرارات واضحة وكانت المنظمات الحزبية تتابع بصرامة تنفيذ تلك القرارات. وكنت بوصفى قائدًا للكتيبة دائمًا ما أتشاور مع نوابى وأمناء المنظمات الحزبية والكومسومولية.

وبالإضافة إلى يومين فى الأسبوع كانا مخصصين لدروس السياسة، كانت هناك ساعة يوميًا نناقش فيها الوضع السياسى فى بلادنا، والوضع السياسى فى البلد الذى نعمل به، فى الشرق الأوسط بصفة عامة، وما نراه حولنا. كنا نقوم بمقارنة ذلك كله، ونقوم بالتوصل لاستنتاجات ونضع لكل منا مهامًا. كانت هناك واقعة حينما تجمع عدد من المصريين أمام نقطة من نقاط التفتيش صباحًا بغرض الاختبار للعمل. وتعارك اثنان من المصريين على خلفية التقدم للعمل، وحينما رأى أحد جنودنا أنهما يتعاركان، حاول فض العراك من خلال الحوار، أو الإقناع. ولكنَّ شيئًا لم يحدث. ووقف المصريون من حول المتعاركين دون أى تدخل إيمانًا منهم بعدم جدواه، إلا أن الجندى فاجأ الجميع بإطلاقه طلقة فى الهواء. واستطاع بذلك أن يوقف العراك.

---

(٧٢) نسبة إلى منظمة الكومسومول وهى منظمة الشبيبة الشيوعين التابعة للحزب الشيوعى السوفييتى.

لقد ساعدنا القسم السياسى للواء كثيرًا، وبخاصة أذكر رئيس ذلك القسم المقدم ى. ف. بروبيلوف، لقد كانت الأدبيات والمناهج السياسية التعليمية متوفرة دائمًا إلى جانب كل احتياجاتنا بهذا الشأن. كانت الخطابات الواردة من أهالينا والصحف تصل إلينا دون تأخير. وكان القانونيون وأعضاء النيابة، والمحاكم، والعاملون فى جهاز المخابرات السوفييتية (الكى جى بى) يقدمون محاضراتهم لنا، ويناقشوننا فى المسائل القانونية، وفى الجرائم العسكرية والقانون العسكرى. وكان ذلك يتم مع مراعاة فئة العسكريين الذين يتلقون تلك المحاضرات. لقد كنا دائمًا ما نحس بالاهتمام بنا، وبالمسئولية تجاهنا والدعم المقدم إلينا من جانب القائد اللواء أليكساندر جريجورييفيتش سميرنوف، ومن رئيس القسم السياسى فيتشيسلاف جريجورييفيتش ميخايلوف.

كان اهتمامنا فى مصر ينصب على دراسة العدو، والتعرف على مواطن قوته وضعفه. ولابد هنا من الاعتراف بأن العدو كان قويًا، يتمتع باستعداد جيد (إن لم يكن ممتازًا)، ومجهزا بأحدث معدات الطيران الحديثة، كنا نتلقى يوميًا معلومات عن أماكن وأوقات وتكتيكات ونتائج الطلعات الجوية الإسرائيلية على الأهداف المصرية فى اليوم السابق. كانت تلك المعلومات تعرض على طاقم الأفراد بأكمله، وكان العاملون بمحطات الاستكشاف وتحديد الأهداف، وحاملو خرائط البيان الطوبوغرافية، والضباط العاملون فى محطة الاتصال، وضباط توجيه النشان، والمصوبون والعاملون على المتابعة اليدوية يدرسون احتمالات أساليب الطيران المستخدمة، واستنتاج السيناريو المحتمل للقتال. كان من المعتاد أن تقوم الكتيبة يوميًا بعد دراسة الطلعات الجوية الإسرائيلية بالتدريب لمدة ساعة ونصف الساعة على الأعمال القتالية فى حضور الجميع، ومرة أسبوعيًا كنا نتدرب على تجميع المعدات.

كنا نستخدم طائراتنا فى التدريب. وكنا نتفق مع طيارينا على البدائل الممكنة لتكتيك الطيران الإسرائيلى، وكثيرًا ما كنا ننطلق من طبيعة المكان وطبيعة مواقع الإطلاق، ونخلق ظرفًا أكثر صعوبة للتدريب. وكنا على يقين من أنه إذا ما تدربنا على أحد الأماكن فى أثناء الصباح، فإنه ينبغى علينا أن نترك هذا المكان مساءً، وهو ما كنا نفعله بينما كان العدو عادة ما يقصف تلك المواقع الخالية ليلاً. وحينما كنا نتحرك نحومنطقة القناة كان من الضرورى دائمًا أن ننشئ موقعًا

وهميًا لإطلاق النار بجانب الموقع الأساسى لإطلاق الصواريخ ونماذج وهمية لمنصات إطلاق الصواريخ.

كما أولينا اهتمامًا كبيرًا بالاستعداد الجسمانى، والتدريب من خلال أحمال جسمانية كبيرة. ففى أثناء المهمة فى مصر كان على الكتيبة أن تغير ثمانية مواقع لإطلاق الصواريخ، وفى ليلة الرابع من أغسطس قامت الكتيبة بتغيير موقعى إطلاق. وكان الاستعداد الجسمانى العالى هو ما ساعد فى تلك المهام. وبفضل ذلك تمكنّا من اختصار وقت الفك والتركيب لموقع الإطلاق إلى ٤٢ ـ ٤٥ دقيقة، فى حين أن الوقت الذى تستغرقه عادة تلك العملية ساعتين وأربعين دقيقة.

لقد تأكدنا بشكل عملى من الإمكانات القتالية والوظيفية العالية لمعداتنا مما أعطانا إمكانية تكثيف التدريب على الأعمال القتالية، وعلى فك وتركيب منصات إطلاق الصواريخ. لقد كانت معداتنا تعمل على مدار الساعة فى الفترة من مارس وحتى أغسطس ١٩٧٠ باستثناء الفترة التى كنا ننقل فيها المعدات أو نتدرب على فكها. وعملت مجموعات الصواريخ فى خلال سنة ٢٨٠٠ ساعة، ولم يكن هناك أى خلل فى تلك المعدات طوال تلك الفترة. لقد كانت الصواريخ الموجهة لأهداف الطيران المنخفض أحيانًا ما تلمس الأرض فى أثناء طيرانها، ومع ذلك فكانت تصيب الهدف بعد ذلك. كذلك فقد سُجلت فى مصر حالات لإطلاق النيران على أهداف أرضية متحركة بسرعة بطيئة وقد تمت إصابتها.

تعودنا فى حياتنا أن نتبادل الخبرات عما أنجزناه. وهكذا فلم نكن نعرف قواعد لاستخدام الهوائى الجديد yHKN لمحطات الاستطلاع وتحديد الأهداف. ولتدريب أفراد طاقم الأفراد ممن سيعملون على ذلك الجهاز وصل إلينا من أسوان قائد الكتيبة المقدم باشكوف، وقام بشرح عملى لاستخدام ذلك الهوائى.

كان أفراد كتيبة المقدم كامياجين هم أول من استطاع فى أثناء الليل فك منصة الصواريخ فى ظرف ٤٢ دقيقة. وصدرت أوامر من اللواء بتنظيم زيارة للمقدم كامياجين بصحبة رئيس وحدة الهوائيات ورفقاء آخرين لتبادل الخبرات.

فى ٣٠ يونيو تمكنت كتيبة النقيب ف. ب. مالياكى من إصابة أول طائرة من طراز "فانتوم". وتم حينها أيضًا تنظيم زيارة للضباط المسئولين عن عملية

التصويب والإطلاق، والعاملين على وحدات الاستطلاع وتحديد الأهداف ١٥ -П والتتبع اليدوى. كانت تلك الزيارات لتبادل الخبرات مع من كان لهم الخبرة فى التعامل مع العدو الحقيقى فى الواقع ليشرحوا ثمرات تلك التجارب.

فى ١٨ يوليو تمكن طاقم أفراد كتيبة المقدم ف.م. تولوكونيكوف من إصابة طائرتى "فانتوم"، ثم تعرض للقصف بالقنابل والصواريخ غير الموجهة، فقام المقدم ف.م. تولوكونيكوف بالمرور على معظم كتائب الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات ومعه طاقم القتال بمركز القيادة. فقام أفراد الكتائب بالإبلاغ بالتفاصيل الخاصة بأنشطة العدو، وردود أفعالهم، ثم قدموا توصياتهم المفيدة للمصوبين ولضباط التوجيه والعاملين بمحطات الاستطلاع وتحديد الأهداف، وأطقم إطلاق الصواريخ.

كذلك فقد تبادلنا الخبرات بشكل مثمر فيما يتعلق بالعمل على تنظيم التدريب القتالى، واستخدام المعدات، فيما يتعلق بالحياة والأمور الحياتية، وتأمين مواقع إطلاق الصواريخ... إلخ. كثيرًا ما زارنا ضباط من الكتائب المصرية بصحبة رقبائهم، وكنا نخبرهم عن كيفية تعاملنا مع أمور التدريب القتالى لنقطة القيادة، ومع أطقم إطلاق الصواريخ وتأمين مواقع الإطلاق... إلخ.

ولكن كل شىء لم يكن يسيرًا سلسًا. كانت هناك كبوات فى العمل، وفى التدريب والتربية. بعد أسبوعين من الوجود فى مصر قام رئيس أركان حرب الكتيبة وعريف أول الكتيبة بالخروج ليلاً فى سيارة من طراز "جاز - ٣٩" إلى ملهى ليلى فى المدينة، وشربا حتى الثمالة، كذلك خرج اثنان من الجنود السائقين بمفردهما ليلاً إلى المدينة. بعد تلك الحوادث، تم التفتيش على الاستعداد القتالى للكتيبة وحصلنا على تقدير"غير مقبول".

وتمكنت طائرتا "فانتوم" ذات مرة من الوصول إلى قاعدة الطيران وإلى مواقعنا لإطلاق الصواريخ فى منطقة بحيرة قارون، وذلك بسبب التنسيق الضعيف بيننا وبين الطيران فى أثناء تبادل نوباتجيات القتال.

فى يونية وأثناء الاستعداد لنوبة حراسة موقع إطلاق الصواريخ، قام أحد الجنود من وحدة الاتصالات بإطلاق الرصاص من بندقية على قائده.

لقد كانت أكثر الأوقات صعوبة، هى الفترة ما بين ديسمبر ١٩٧٠ وفبراير ١٩٧١ حينما كانت فترة التجنيد الإجبارى للرقباء والجنود تنتهى، كانت هناك بعض حالات العصيان فى كتيبتنا من قبل بعض الجنود وحتى الرقباء. كذلك كان الوضع شاقًا بالنسبة للضباط الذين كانوا يسكرون، وكان ذلك ينعكس على جنودهم ورقبائهم. كانت المحاورات والنصائح لا تجدى نفعًا، كانت تلك فترة عصيبة للغاية. وكان أخطر ما فى الأمر أن بعضًا من المشاركين فى تلك التصرفات السيئة كان من الشيوعيين. واضطررنا إلى الاستعانة بقيادات الكتيبة، والعاملين فى النيابة، والقضاء وجهاز المخابرات. وأخذنا نبلغ أطقم الأفراد أسبوعيًا الأوامر وأحكام المحاكم العسكرية، مما ساهم بالطبع فى حل المشكلة. ومع كل ذلك فإننى أرى أننا أتممنا المهمة التى ألقيت على عاتقنا بأمانة وشرف. ولم نفقد فى خدمتنا هذه سوى فرد واحد، وأعتقد أن ذلك أمر يستحق الفخر.

فى ٥ مارس ١٩٧١، وصلت الكتيبة التى ستحل محلنا، وخلال أيام ثلاثة قمنا بتسليمهم كل أمانات وممتلكات الكتيبة، وفى ٩ مارس أبحرت بنا السفينة "إيفان فرانكو" من الإسكندرية وفى ١٢ مارس وصلنا إلى سيفاستوبل. وبهذا انتهت مهمتنا.

لابد من الإشارة إلى أنه تم منح الضباط كافة، المنتمين لوحدات المنطقة الموسكوفية للدفاع الجوى ميزة واحدة تتمثل فى إمكانية التحاقهم بالأكاديمية. وبقى من لم يلتحق منهم فى منصبه السابق، وتمكّنوا فى ظرف ١٠ ـ ١٥ عامًا من الخدمة من التدرج العسكرى برتبة أو رتبتين، مع ملاحظة أن هؤلاء كانوا شبابًا متعلّمًا، يتمتع بخبرة قتالية كبيرة مع عدو يمتلك سلاحًا جويًا حديثًا، وكانوا ضباطًا يمكنهم أن يقدموا الكثير من الخبرة العملية فى مجال تربية الجنود والرقباء.

وإضافة أخرى، ففى الفترة الأخيرة ازداد كم المعلومات المتاحة لشعبنا. لقد أصبحنا نعلم الكثير عما كان فى الماضى "سريًا". ولكن الكثير لا يزال محاطًا بالسرية ولا يعرفه الشعب. فلمدة ١٨ عامًا ظلت معلومة وجود خبرائنا فى مصر فى الفترة بين عامى ١٩٦٧ ـ ١٩٧٢ سريةً فى طى الكتمان، بداية بالخبراء العسكريين والمتخصصين ثم ابتداءً من مارس ١٩٧٠ بوحدات دفاع مضاد

للطائرات بأكملها مكونة من مجموعات الصواريخ والمدافع المضادة للطائرات وطائرات مقاتلة، وإن كان ذلك بشكل محدود.

لقد ظهرت أول معلومات فى الصحافة المنشورة عن القوات السوفييتية المشاركة فى العمليات القتالية على الأراضى المصرية فى نوفمبر ١٩٨٨ (فى الجريدة الأسبوعية "سوبيسيدنيك"[٧٣]، العدد رقم ٤٧) بينما بدأ الأمريكيون الحديث عن ذلك بداية من يوليو ١٩٧٠ وكان العالم بأجمعه يعلم أن وحدات الدفاع المضاد للطائرات السوفييتية والطيران المقاتل موجود على الأراضى المصرية، وكان شعبنا آخر من يعلم وذلك هو الأمر المحزن.

---

(٧٣) كلمة سوبيسدنيك تعنى "المحاور".

"وانطلق الصاروخ منفجراً..."

ى. ف. بروبيلوف

إن الصراع العسكرى فى الشرق الأوسط، والذى كانت أطرافه الرئيسية مصر وإسرائيل بدأت مرحلة جديدة منذ نهاية عام ١٩٦٩ .وكانت ملامح تلك المرحلة الجديدة هو أن القيادة الإسرائيلية وبعد أن تأكدت من تكدس الآليات العسكرية على الجانب الشرقى لقناة السويس لدى المصريين، وبالذات الدبابات والقوة البشرية مما لن يسمح لها بعبور القناة، بدأت آنذاك تلك القيادة فى القصف الجوى لأهداف فى مؤخرة الجيش المصرى، مدمرةً بذلك القوة العسكرية والاقتصادية للدولة المصرية، ومحطمةً الروح المعنوية للشعب المصرى. لهذا الغرض تم عمل الخطة المسماة "خوردوس"، والتى بموجبها قام الطيران الإسرائيلى بطلعات جوية على ١٨ هدفًا من بينها أهداف صناعية، وأماكن تجمع للجيش المصرى. وبدأ ما سمى آنذاك بالطيران "فى العمق".

قامت القيادة العسكرية فى البداية بطلعات جوية تجسسية تفصيلية وصلت إلى ٢٠٠ طلعة للقوات الجوية الإسرائيلية. وإذا كانت تلك الطلعات فى البداية قد تمكنت من الطيران بعيدًا عن مناطق سلاح الدفاع الجوى المصرى، فإنها ومع زيادة كثافتها بدأت فى تدميره. ومنذ ديسمبر ١٩٦٩ بدأ سلاح الطيران الإسرائيلى فى تلك الطلعات الجوية استخدام الطائرات أمريكية الصنع من طراز "فانتوم"، التى كان يقودها طيارون على درجة عالية من الخبرة والتى تتميز بإمكانياتها وحجمها.

وكانت نتيجة تلك الطلعات أن تمكن سلاح الطيران الإسرائيلى من تأكيد تفوقه التام فى الجو على نظيره المصرى، والضغط على الجيش المصرى فعليًا

ومعنويًا، وخلق حالة من الإحباط لدى العسكريين المصريين، واستحالة تدمير طائرات الفانتوم الإسرائيلية بالإمكانيات المتاحة لدى سلاح الدفاع الجوى المصرى، وإحساس بغياب أى دفاع ضد الغارات الجوية الإسرائيلية.

لقد كان الطيران الإسرائيلى يضرب بالقنابل والصواريخ عمق الأراضى المصرية، وضواحى القاهرة. قامت الطائرات الإسرائيلية فى ١٢ فبراير بغارة جوية على مجمع مصانع حلوان للحديد والصلب، حيث وصل عدد ضحايا تلك الغارة إلى ثمانين قتيلاً من العمال وأكثر من مئة جريح. كذلك أغارت الطائرات الإسرائيلية على قرية بحر البقر ووقع ٣١ قتيلاً من التلاميذ وأصيب أكثر من أربعين بإصابات بالغة.

فى ظل تلك الظروف الصعبة، لجأت حكومة الجمهورية العربية المتحدة على نحو عاجل إلى القيادة السوفييتية لاتخاذ الخطوات اللازمة من أجل دعم الشعب العربى عسكريًا، وقد استجابت القيادة السوفييتية للمطالب المصرية، وقررت دعم الجمهورية العربية المتحدة بالمعدات العسكرية والخبراء العسكريين اللازمين وكتائب الدفاع الجوى. وقد وصلت الدفعة الأولى على متن السفينة "روزا لوكسمبورغ" فى ليلة ٥ مارس ١٩٧٠ إلى الإسكندرية. وبهذه الطريقة تم الدفع إلى أتون الحرب المندلعة فى الشرق الأوسط بقوات كتائب الدفاع الجوى على هيئة مجموعات صواريخ ومدفعية مضادة للطائرات وبالطائرات السوفييتية المقاتلة من سلاح الطيران السوفييتى وقوات العمليات الخاصة للجيش السوفييتى. وكان قائد وحدات الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات هو اللواء ا. ج. سميرنوف وقائد آلاى الطيران اللواء ج. ى. دولنيكوف.

ولتأمين السرية فى إرسال القوات العسكرية السوفييتية من مدينة نيكولاييف إلى الإسكندرية، تم توخى الحذر فى جميع الإجراءات المتعلقة بذلك. ففى ميناء نيكولاييف تم تغيير الزى العسكرى لجميع الضباط والرقباء والجنود إلى ملابس مدنية، وأخذت منهم وثائق تحقيق شخصياتهم الخاصة، وفى ميناء الإسكندرية ارتدى الجميع زى الجيش المصرى. وكانت عمليات تفريغ وتحميل المعدات الحربية والأفراد فى الميناء وجميع التحركات المتجهة لشغل مواقع الإطلاق لمجموعات الصواريخ والمدافع المضادة للطائرات تتم فقط فى أثناء الليل. أما فى

النهار فكانت كل المعدات توجد فى ما يسمى "محطات التوقف"، مع الحفاظ على أعلى قدر من التمويه.

وبصرف النظر عن جميع الإجراءات المتخذة بغرض التمويه والسرية، فإنه وبعد وصولنا بأسبوعين ظهرت فى الصحف الأمريكية معلومات عن وجودنا العسكرى فى مصر بما فى ذلك معلومات دقيقة وتفصيلية عن حجم المعدات الحربية والعسكريين ومواقع تمركز تلك المعدات المضادة للطائرات والمطارات الحربية. وبدأ الراديو الإسرائيلى فى بث برامج باللغة الروسية خاصة لجنودنا ووحداتنا الموجودين فى مصر.

لقد تم تزويد جميع الأهداف المصرية تقريبًا بوحدات دفاع جوى: القاهرة، الإسكندرية، السد العالى فى أسوان، وعدد من الأهداف العسكرية. وبهذه الطريقة كان العسكريون السوفييت بالزى العسكرى المصرى موجودين تقريبًا فى جميع أنحاء الجمهورية.

فى أثناء وصول وحداتنا فى مصر والمشاركة فى الدفاع الجوى عن البلد كثف سلاح الجو الإسرائيلى من غاراته (ففى يناير وفبراير وصل عدد الطلعات الجوية الإسرائيلية إلى ٥١، أما فى الفترة من مارس إلى يونيو فقد وصلت الطلعات إلى ١٢٤).

ارتفع عدد طلعات الطيران الموجهة ضد أهداف مواقع الدفاع الجوى: فبينما كانت نسبة الهجوم على تلك المواقع فى أول شهرين من السنة حوالى ٣٪ من الطلعات الجوية الإسرائيلية، وصلت النسبة فى الفترة من مارس إلى يونيو إلى ما يزيد على ٣٠٪ (٢ طلعة جوية فى يناير، ١٠ طلعات جوية فى فبراير، ٢ طلعة جوية فى مارس، و٢٤ طلعة جوية فى يونيو، و٤٦ طلعة جوية فى يوليو). ووصل مجمل عدد الطلعات الجوية الإسرائيلية فى الفترة من مارس وحتى ٥ أغسطس فى أثناء انتشارنا ومشاركتنا فى العمليات العسكرية إلى حوالى ٦ آلاف طلعة جوية، ٤٠٪ منها موجهة ضد وسائل الدفاع الجوى.

لقد تمكنت كتائبنا الصاروخية المضادة للطائرات بالوحدات المضادة للطائرات ذاتية الحركة"شيلكا"، ومجموعات ستريلا من القتال الناجح مع نخبة طواقم

طيارى الطائرات من طراز "فانتوم"و"ميراج" و "سكاى هوك" التابعة لسلاح الطيران الإسرائيلى. لقد كانت تلك العمليات القتالية تتم فى ظروف غير تقليدية شديدة الصعوبة، وبخاصة فيما يتعلق بالطقس الجوى: فكانت هناك الرياح الترابية "الخماسين"، وحرارة شديدة كانت تجبر الزئبق فى مقياس الحرارة على الارتطام بحدوده العليا، ورطوبة مرتفعة تصل إلى ٢٥ ـ ٢٧٪ .وكثيرًا ما كان البعض يصاب بضربة حرارية. ولم تكن دائما تساعد أكثر الاحتياطات حزما للسيطرة على نظام التغذية والشرب واتباع جميع القواعد الصحية لعمليات الطهى، مما أدى إلى عدد كبير من أمراض الجهاز الهضمى عند الجنود.

كان على أفراد القيادة الكتائب التغلب على تلك المصاعب فى ظل ظروف القتال الصعبة، حيث الانتظار اليومى المستمر للغارات الجوية الإسرائيلية أو الإسقاط المظلّى فقد كان العدو على بعد مسافة خمس دقائق من الطيران، وفى تلك الظروف كان العاملون فى محطات الاستطلاع وتحديد الأهداف، يكتشفون الأهداف الجوية ويرصدونها ويتابعونها حيث كان عدد الأهداف يصل فى بعض الأيام إلى ١٠٠ ـ ٢٠٠ هدف.

كذلك فقد كانت العمليات القتالية تجرى فى ظروف نفسية صعبة: غياب الدعم المباشر من الشعب السوفييتى لقواته المسلحة، والإحساس بالبعد عن أرض الوطن ـ الأرض التى تدافع عنها. فالبلد التى تقاتل فيها بلد غريب، وحرب غريبة، بل والزى الذى ترتديه زى غريب، بلا مستندات، بلا علامات للتمييز...

لكن جنودنا ورقباءنا وضباطنا الذين أدوا القسم العسكرى قاتلوا هذه الحرب بناءً على أوامر الحكومة السوفييتية وتعليمات قيادة الدفاع الجوى والقيادة العليا السوفييتية، وأبدوا رجولة وتحديًا، وقدرات قتالية رفيعة، وسعيًا نحو النصر.

كانت هناك العديد من الإنجازات، وكان هناك عدد من الإخفاقات، وفقدنا عددًا من الرفقاء، وكان من ضمن الأسباب بعض حالات الفشل والأخطاء الخطيرة. من الوقائع الشهيرة حينما تم إصابة طائرة مصرية عائدة من القتال بصاروخين. وبعد بضعة أيام إصابة طائرة ركاب بصاروخ ستريلا ـ ٢.

كما كانت هناك بعض المتاعب من مجموعة السائقين: فلم تكن هناك عند بعض السائقين الخبرة فى التعامل مع ظروف الصحراء والظروف الليلية.

كانت أول من تعامل قتاليًا مع العدو وتمكن من صد طلعتين جويتين إسرائيليتين، هى كتيبتا الرائد ج. ف. كومياجين والنقيب ف. ب. ماليالوكا فى ٣٠ يونيو ١٩٧٠، حيث كانت تلك هى المرة الأولى التى يتم فيها إسقاط طائرات "فانتوم" فوق الأرض العربية، وبذلك القضاء على أسطورة التفوق الإسرائيلى الجوى الخارق.

كذلك فقد قاتلت ببسالة كتائب الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات التى كان يقودها الرائد ى. ى. كوزمينكوف وس.ك.زافيسنيتسكى.

واستطاع جنود وضباط الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات تحت قيادة قادة المماثلين الرائد م.ا.منصوروف والمقدم ف.م.تولوكونيكوف الصمود أمام الغارة الجوية يوم ١٨ يوليو والتى تكونت من ٢٠ طائرة وكان من ضمن الخسائر التى تكبدها الإسرائيليون فى ذلك اليوم طائرة "فانتوم" كان يقودها الطيار الأمريكى الرائد إينى ميناحيم والذى كان يعربد فى الجو فى أثناء حرب فيتنام. كذلك فقد أظهر تفوقًا عسكريًا فى ذلك القتال الضباط: ف. ف. سوخوتين، ب. ك. موكرويه، ف. ب. بولجاكوف، ا. ا. روداكوف، ف. ا. بريوخوف، ف. ك. جوروجانين، ف. ج. ديميترييكو، ب. ا. ماجاسوموف، ك. ب. تشيرفينسكى، ى. ف. بوتيلو، ب. ب. كاربينكو، ج. ى. كوزلوف، ا. ا. تشميليفسكى، ب. ى. جورافليوف، ى. ف. باشكين، ف. ب. بونوف، والرقباء والجنود: ف. ى. يليستراتوف، س. ب. ريباك، ف. ف. فينوجرادوف، ف. م. داتوشين، ى. ا. جريشين، ا. ا. فويتينكو، ن. ى. بويارين، ف. ف. موخليسوف، ب. م. كزيندوك، ا. ف. ماتفييف، ب. ت. جيلنين، ا. ب. ماتوريكين، ا. ب. كوتس، ف. ف. ريابكوف، و. جوشينكو، ا. أوتوتشكين، وغيرهم كثيرون.

كذلك فقدنا رفقاء لنا. فقد راح ضحية الغارات الإسرائيلية من كتيبة المقدم تولوكونيكوف كل من: الملازم سيرجيى سومين، والتوأمين إيفان ونيكولاى دوفجاليوك، أليكساندر زابوجا، الرقيب ا.ماميدوف، والجنود م.فيليتشكو، ى.ناكو، ن.دابيجا. وفى ذلك اليوم أيضًا، كان من بين الضحايا بعض من طيارينا المقاتلين حينما أصابت الطائرات المقاتلة الإسرائيلية بعض طائراتنا.

في نهاية يوليو ازدادت كثافة العمليات الحربية في المنطقة المركزية لقناة السويس، بالقرب من مدينة الإسماعيلية. وفي الأول من أغسطس قامت كتيبتا المقدم ك. ي. بوبوف، والمقدم ن. ي. كوتينيتسيف للصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات بنصب كمين.

ولمدة يومين قام الإسرائيليون بعمليات استكشاف مكثفة، ثم قاموا في ٣ أغسطس بغارات جوية كثيفة على المواقع المصرية وقوات دفاعهم الجوي، وكذلك على مواقع إطلاق صواريخنا ومدفعيتنا المضادة للطائرات. استمرت الغارة التي شاركت فيها ٢٤ طائرة "فانتوم" و"ميراج" طوال اليوم. ولكن القدرات القتالية العالية وبطولة المدفعيين السوفييت، والتمويه المحكم باستخدام مواقع وهمية مكونة من نماذج خشبية لمجموعات الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات، مكنت مقاتلينا من إحراز النصر في تلك المعركة العنيفة. وفقد سلاح الطيران الإسرائيلي خمس طائرات في ذلك اليوم وحده. لقد قاتل طاقم الأفراد وجميع العاملين في الكتيبة في ذاك اليوم بتفوق وبنظام وبثقة. وتميز في أدائه آنذاك كل من الضباط: ي. ديمين، ا. كريلوف، د. ديادكين، إ. فوزدفيجينسكي، ن. فورونين، ف. زاخاروف، ف. كوروتشكا، ف. ميرونوف، م. بيترينكو، ا. دوبيتشين، ف. بيرفوشوف، ك. بوبوف، ن. لياشينكو، وكل من الرقباء الجنود: ف. بورينكو، ف. روزوف، ف سولوماخا، ك. كاراسيف، ف. فيدميتسكي، د. لوكوتكين، ج. جنيزديموف، ف. شيبان، ا. زازدرافنيخ، ف. جيتمان، ي. ستاريتسكي، ن. لوكيانوف، ا. نازاروف وغيرهم كثيرين.

لقد أسهمت تلك الخسارة للطيران الإسرائيلي في قبول إسرائيل في ٤ أغسطس ١٩٧٠ بالتفاوض مع الجمهورية العربية المتحدة حول الوقف المؤقت لإطلاق النار.

وقد بلغ عدد الطائرات التي تم إسقاطها في العمليات القتالية التي دارت في الفترة من ٣٠ يوليو وحتى ٣ أغسطس ١٩٧٠، ٢١ طائرة إسرائيلية.

كانت مجهوداتنا في هذا القتال محل تقدير من الوطن ومن الحكومة المصرية، فقد حصل العديد من الزملاء على الأوسمة والميداليات الشرفية، وحصل المقدم ك. ي. بوبوف والمقدم ن. ي. كوتينيتسيف على لقب "بطل الاتحاد السوفييتي".

ويجب الإشارة للدور المهم الذى لعبه طاقم أفراد كتيبة الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات تحت قيادة الرائد ج.ف.كامياجين والنقيب ف.ب.ماليا وكا، فقد كان إقدامه يوم ٣٠ يونيو ١٩٧٠ على اتخاذ الخطوة الأولى وصد طلعتين جويتين إسرائيليتين ذا أهمية بالغة.

فيما يلى بعض مما نشر فى الصحافة آنذاك. "القاهرة ٢٩ يونيو (وكالة أنباء تاس): اليوم حاول الطيران الإسرائيلى من جديد مهاجمة مواقع للقوات المسلحة المصرية فى مناطق مختلفة من قناة السويس، وجنوب مدينة السويس. واشترك فى تلك الهجمات الجوية التى استمرت من التاسعة والنصف صباحًا وحتى الثانية والربع بعد الظهر بالتوقيت المحلى ٢٨ طائرة إسرائيلية من طراز "فانتوم" و"سكاى هوك"..." (جريدة "كراسنيا زفيزدا" أى "النجمة الحمراء" فى ٣٠ يونيو ١٩٧٠).

"القاهرة ١ يوليو (مراسلنا الخاص عن طريق الهاتف): حاولت ثلاث مجموعات من سلاح الطيران الإسرائيلى الهجوم على مواقع فى منطقة قناة السويس. وظهرت فى منطقة فايد أربع طائرات من طراز "فانتوم" وأصيبت اثنتان منها بصواريخ قوات الدفاع الجوى المصرية" ("إزفيستيا" ٢ يوليو ١٩٧٠).

وفى المؤتمر الصحفى الذى عقد فى القاهرة أشار رئيس الحكومة المصرية أ. أنيس إلى أن: "...الدفاع الجوى المصرى قد حطم أسطورة سلاح الجو الإسرائيلى الذى لا يقهر" (جريدة "كراسنايا زفيزدا"، ١٠ يوليو ١٩٧٠). "... أفادت الصحافة الأمريكية عن إمداد إسرائيل بشكل عاجل بخمسين طائرة فانتوم" (جريدة "كراسنايا زفيزدا"، ٧ يوليو ١٩٧٠).

فيما يتعلق بالجانب الحرفى لكتيبة النقيب فاليريواناس برانوماليا وكا للصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات، فإنه قد صدرت عدد من الأنباء عنه فى الصحافة فى الفترة ١٩٧١ - ١٩٧٢، بما فى ذلك على صفحات جريدة "أخبار الدفاع الجوى". وأكدت تلك الأنباء على خصائص شخصيته، مثل السيطرة على النفس، الاستعداد المهنى الرفيع، قدرته فى التأثير على المرءوسين ودفعهم للتغلب على جميع الصعاب حتى فى ظروف التوتر والضغط. ولكن صحافتنا العسكرية للأسف لم تتمكن من نقل أخبار بطل آخر من أبطال تلك الحرب وهو الرائد

جريجورى فاسيليفيتش كومياجين، والذى قام بحماية مدينة القاهرة طوال عام بأكمله بمساعدة كتيبته للصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات، والذى شارك فى العمليات القتالية فى منطقة قناة السويس فى الفترة من ٢٨ يونيو وحتى ٢ يوليو.

لقد تم التنويه عن العمليات القتالية التى قامت بها الكتيبة الثالثة للصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات فى الوثائق العسكرية الداخلية فقط، تلك الكتيبة التى كان قائدها الرائد ج. ف. كومياجين ونائبه للشئون السياسية النقيب ا. ف. ياشين، ورئيس الأركان بها النقيب ى. ا. سليساريف، وقائد بطارية المدفع الأول الرائد ر. خ. فايزولين، وقائد بطارية المدفع الثانى النقيب ف. ا. جاشينسكى): "لقد ضربت قادة الكتيبة الصاروخية الثالثة وهم من أعضاء الحزب والكومسوموليين النشطين نموذجًا مثاليًا حيًا لفنون القتال الرفيعة، وللبسالة والرجولة، والقدرة على تقدير الأمور حق قدرها فى أحلك الظروف وأشدها حساسية، والصلابة أمام المصاعب التى تواجه المحاربين فى ظروف الحرب الحديثة." لقد استخدم أولئك القادة جميع الوسائل والمناهج المستخدمة فى العمل الحزبى-السياسى، وجعلوا من أنفسهم مثالاً حيًا فى القتال، موضحين بشكل قاطع ضرورة استخدام أساليب متعددة تجاه الأنواع المختلفة من مقاتلى الكتيبة، وبصفة خاصة من الضباط ورقباء وجنود الكتيبة الموجودين فى التخصصات الرائدة ـ ضباط التنشين، ضباط وحدات الرادار، ضباط إطلاق الصواريخ،ضباط محطات الاستكشاف وتحديد الأهداف، وضباط الاتصال، وسائقى الجرارات. لقد أدى أفراد الكتيبة دورهم القتالى بتنسيق على أعلى المستويات، بمهنية ومعرفة عالية بالمعدات القتالية، ببطولة وبسالة وسعى نحو النصر، وتنظيم وانضباط منقطع النظير."

لقد قامت الكتيبة بفك وتركيب المعدات فى أثناء عمليات المناورة فى وقت سريع للغاية، تفوق على أفضل المعدلات والتوقعات بعدة أضعاف. فى خلال التحرك فى أثناء تغيير الكتيبة لموقع إطلاق النيران، فإن إطار عجلة أحد جرارات بطاريات الصواريخ ثقب، فتمكن طاقم الرقيب ن. ا. ديخنيتش من أن يقوم بتغيير إطار المركبة، وفعل ذلك فى دقائق معدودة ولحق بالقافلة، وكان أول من بدأ عملية تركيب منصة الإطلاق، ووضع الصواريخ فى مكانها، والاستعداد لعملية

الإطلاق الجديدة. نفس ذلك الطاقم المكون من الرقيب ن.ا.ديخنيتش، الجنود ن. س. داتسكى، ا. ا. يروخين، م. ا. ستارفويتوف تمكن فى ظروف حريق (فقد احترقت شباك التمويه، وتلفت إحدى المنصات بعد إطلاق أحد الصواريخ) من إعادة المعدات لوضع الإطلاق، وإطفاء الحريق بصرف النظر عن الحروق وظروف القتال الدائر، وفعلوا ذلك بسرعة فاقت المعدلات بقيادة الملازم ف. ن. تشيستياكوف.

أثبت حرفية عالية ضابطا التنشين الملازمان ف. ا. بليزنيوك وا. ى. جوجولينكو، وقائد بطارية المدافع الرائد ر. خ. فايزولين، والعاملون على الرادار الرقيب ا. ب. ليشينكو والجنديان ن. ى. كليوكووا. ب. بوبيدينسكى، والذين استطاعوا فى أكثر اللحظات الحرجة القتال، حينما كان المدفع يطلق صاروخًا بزاوية ٧٠ درجة، ملاحظة ورصد وإصابة هدف دخل باتجاه قتالى على زاوية ٣٠٠ درجة باتجاه كتيبة صاروخية مصرية مجاورة من ضمن المجموعة. وبعد توقف القتال قامت قيادة الكتيبة المصرية بالزيارة وتقديم الشكر والعرفان على ذلك الدعم فى القتال، وإنقاذ الكتيبة من ضربة محققة من جانب الطيران المعادى.

كذلك فقد أثبتت وحدة اسكتشاف وتحديد الأهداف (الملازم ى. ى. أنيسيموف، والرقيب ف. د. أوسى، والجنود ن. ا. كاليوجنى، ى. ف. كوفشينوف، ف. ى. موسكالينكو) جدارة فى فن القتال وقدرة كبيرة على الاحتمال نفسيا وجسمانيا، حيث كانوا يجلسون يوميًا فى كابينة تصل درجة الحرارة داخلها إلى ما فوق ٥٠ درجة مئوية، ويقومون فى الوقت نفسه بتحديد ورصد أهداف تصل إلى ٨٠ ـ ١٠٠ هدف، يتحرك بإحداثيات مختلفة فى ظروف تشويش عالٍ.

وكان طاقم الأفراد بوحدة الطاقة الكهربائية (الرقيب ن. ى. إيفاشكو، والجنود ا. ب. بوبيدينسكى، ف. ف. بوجينسكاس، ا. ك. كوتيلنيكوف، ف. ج. مينشاكوف) من ضمن من عملوا فى ظروف صعبة للغاية فى أثناء القتال وتمكنوا دائمًا من توفير الطاقة الكهربائية لمجموعة الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات.

وممن تمكنوا دائمًا من توفير شبكة اتصالات يعتمد عليها الرقباء ف. ج. باكال، س. ف. بوستوفالوف، والجنود ف. ى. لوفتشا، ب. ف. جونتو وكذلك فقد لعب دورًا مهمًا فى تحقيق الأهداف المطلوبة وحدة مجموعة السائقين: الجنود

ف. ى. بارانوف، ف. ا. تيريخوف، م. ف. تشيرفياكوف، ج. ب أوسيبوف، ف. ج. مينشاكوف، ا. ا. كاريموف، ف. ن. أندرييف، ا. د. تروفيموف.

كذلك فإن نجاح الكتيبة فى جميع المهمات التى وكلت إليها يعود أيضًا إلى العمل المتفانى الذى قام به رقيب أول الكتيبة ف. ب. زوتوف، الذى دائمًا ما تمكن من توفير الغذاء والشراب لجميع الأفراد، وهو الذى كان أمرًا شديد الصعوبة.

إن أحد العناصر المهمة فى أى استعداد قتالى هو التحمل النفسى والحالة المعنوية للأفراد، والانضباط، وكان ذلك كله ضمن برنامج العمل الحزبى - السياسى، وكان من قام بهذا الدور هو مساعد قائد الكتيبة للشئون الحزبية والسياسية النقيب أناتولى فيليبوفيتش ياشنيم، وسكرتير المكتب الحزبى الرائد روستام خاميزولوفيتش روستام، وسكرتير هيئة الكومسومول الملازم أليكساندر كيريلوفيتش ليونتيف. وبالطبع كان على رأس كل هذا الجمع القتالى قائد الكتيبة عضوالحزب الشيوعى ج. ف. كومياجين ذو الخبرة الحياتية والقيادية العريضة،والاجتهاد، والصرامة العادلة فى المطالب من المرؤوسين، وكان ذلك ما ميزه عن بقية القادة. كذلك كان من صفاته البحث المستمر عن الحلول المتجددة للمهام الموكلة للكتيبة. فهو صاحب عدد كبير من المقترحات التى تقدم ما هو أفضل بشأن قضايا التنظيم والتنسيق بين المعلومات المتاحة لمجموعة الصواريخ والمدافع المضادة للطائرات ذاتية الحركة (شيلكا) ومجموعة ستريلا وبين الكتيبة المصرية للدفاع الجوى، وفى تنظيم أجهزة الرصد، وفى وسائل التغلب على التشويش. كان الرائد كومياجين هو صاحب المبادرة الخاصة بإعادة النظر فى طرق وأساليب العمل القتالى للأطقم وواجبات الأطقم القتالية فى أثناء فك وتركيب معدات الكتيبة، ومراقبة معدل الأداء الوظيفى لمجموعة الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات بغرض الوصول للحد الأدنى للوقت الذى تستغرقه تلك العملية، الأمر الذى كان شديد الأهمية فى التعامل مع عدو قوى مراوغ.

نظرا لمستوى الاستعداد القتالى والقدرة القتالية لكتيبة الصواريخ والمدافع المضادة للطائرات، وكذلك للصفات الإيجابية للقائد كومياجين، فإن قيادة الكتيبة والتشكيل قررت بلا تردد إشراك هذه الكتيبة بالذات فى مجموعة بصفتها الأحسن لتنفيذ التكليفات المهمة العسكرية.

اشترك ضباط القيادة ووحدات الخدمات (العقداء زابورين، ديمين، فيريمييف، جايفورونوك، والمقدمان تاراسوف وتشيكانسكى، والنقيب كيريانوف وآخرون) بشكل مباشر فى عملية إعداد الكتيبة للتحرك إلى منطقة قناة السويس. وكثير من العمل كان من نصيب ضباط القسم السياسى برئاسة العقيد ف. ج. ميخايلوف.

إن الخبرة القتالية لأفراد كتيبة الصواريخ والمدافع المضادة للطائرات تم تعميمها ونقلها لبقية الكتائب، التى استخدمتها فى مناوراتها وفى أعمالها القتالية فى منطقة قناة السويس. فكان للخبرة القتالية لتلك الكتيبة وكتيبة النقيب ماليا وكا أهمية كبيرة فى الأعمال القتالية التى جرت فيما بعد فى منطقة القناة، وفى النصر الذى تحقق على الطيران الإسرائيلى فى القتال أيام ٥ يوليو، و١٨ يوليو، و٣ أغسطس عام ١٩٧٠.

"لاتنسى محطة الخطاطبة!"

م. ف. ريابوف

إن الذاكرة الإنسانية ظاهرة مدهشة، فأحيانًا ما تعجز عن تذكر معنى أحد الكلمات فى أثناء الترجمة، ومع أنها كلمة تستخدمها طوال الوقت وتقرأها فى النصوص، أى أنها كلمة "فى الأذن". وعلى العكس فإنه بالنسبة لبعض الكلمات يكفى أن تسمعها أو تقرأها مرة واحدة لتتذكرها فورًا كلما قابلتها مرة أخرى.

كذلك فإن هناك بعض الكلمات التى تتذكرها من اللحظة الأولى وتبقى معك لنهاية العمر، من تلك الكلمات بالنسبة لى، الكلمة العربية "الخطاطبة"، وهى اسم محطة صغيرة للسكك الحديدية فى مصر، موجودة بجانب قرية تحمل نفس الاسم، والتى تقع ببيوتها الصغيرة وأراضيها الزراعية الخصبة فى حضن نهر النيل العظيم، ترتوى من مائه كالشفاه العطشى، التى لا تجد مفرًا من أشعة الشمس الإفريقية الحارقة سوى ذلك النهر هربًا من الجفاف والعطش. لذا كان من المنطقى أن تسود فى الشرق مقولة: "إن الماء أصل الحياة وليست الأرض".

فى أغسطس ١٩٦٩، وبعد الدراسة لمدة عامين فى المعهد العسكرى للغات الأجنبية، سافرت بصحبة مجموعة من أصدقاء الدراسة وكنت آنذاك فتى فى التاسعة عشرة من عمرى، لنطأ للمرة الأولى أرض الأهرامات، وكان ذلك من ضمن التدريب العملى كمترجم حربى للغة العربية. فى ذلك الوقت من التاريخ كانت مصر وسوريا والأردن تمر بصراع مسلح مع إسرائيل، سمى آنذاك بـ"حرب الاستنزاف". وكان الاتحاد السوفييتى فى دعمه للدول العربية يوفر لمصر مساعدات عسكرية ضخمة. فقد كان الجيش المصرى بأكمله تقريبًا مسلحًا بأسلحة سوفييتية فحسب. وفى مقدمة الجبهة وفى القسم الإدارى للجيش، كان

المستشارون العسكريون والمتخصصون والمترجمون السوفييت جنبًا إلى جنب مع العسكريين المصريين فى الخنادق. قام أحد زملائى آنذاك وهو صحفى يعمل الآن مذيعًا فى إذاعة "ماياك[٧٤]" بوصف ذلك الوضع من خلال قصيدة كتبها سميت "القنطرة"وانتشرت وقتها بسرعة البرق بين الزملاء:

إن الرصاص هنا ليس من قبيل الترهيب

ورعد الحرب يدوى

ومن تحت خوذة مصرية صفراء

تلمع عيون روسية

... فى ٩ مارس ١٩٧٠ وصلت إلى محل عملى الجديد، قاعدة "غرب القاهرة" الجوية. كانت وظيفتى هناك هى مترجم لطقم النوباتجية بنقطة القيادة التابعة لكتيبة الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات، والتابع للتشكيل السوفييتى للدفاع الجوى، والذى تم إرساله إلى مصر بأوامر من القيادة السوفييتية بناء على طلب الرئيس جمال عبد الناصر.

وبعد تقديمى لقائد الكتيبة العقيد بوريس إيفانوفيتش جايفورونوك، ونائب قائد اللواء العقيد إيفان يجوروفيتش باجيدابيف، ورئيس القسم السياسى العقيد إيفان فاسيلييفيتش بروبيلوف والنوباتجى فى ذلك اليوم فى نقطة القيادة رئيس الأركان المقدم إدوارد ميخايلوفيتش رجيووسكى، كان يقوم برعايتى ضباط الاتصال من الشباب فيكتور كريفوف، وفيتشيسلاف بابين، حيث قام الأخير بتوفير مكان للمبيت مع فصيلته فى أحد عنابر الطائرات.

ولكننى لم أنم ليلتها، فقد تم استدعائى لأقف فى الثانية عشرة إلا ربع أمام رئيس أركان الحرب فى نقطة القيادة:

ـ ميخائيل! أتعرف محطة قطار تحمل اسم "الخطاطبة"؟

ـ لا، لا أعرف.

ـ ألم تقابل ذلك الاسم من قبل؟

ـ لا، لم أقابله قط.

---

(٧٤) محطة إذاعة سوفييتية، وكلمة «ماياك» تعنى منارة.

ـ إذن فلتسمع الأوامر.

وقام إدوارد ميخايلوفيتش رجويسكى (وكان يبدو وقتها مثلما يقول الوصف "سرواله كالمظلة وعيناه كالطماطم") بشرح مختصر للمهمة التى ينبغى أن تقوم بها "مجموعة الطوارئ" والمكونة من كبير مهندسى اللواء الرائد ليونيد ديميترييفيتش تاراسوف، ونائبه النقيب فيكتور إيفانوفيتش لاتيشيف ومنى. كان علينا أن نستقل السيارة وننطلق من قاعدة "غرب القاهرة" فى اتجاه الإسكندرية، وبعد ٤٠ كيلو مترًا ننعطف باتجاه اليمين ونمشى فى ذلك الطريق حتى نهايته؛ حيث توجد محطة الخطاطبة. وفقًا للمعلومات التى وصلت فإنه فى تلك الليلة سوف تصل قافلة تحمل "بضاعتنا"، كان من الضرورى تأكيد وصول تلك المعلومات للجانب المصرى والاتفاق مع مدير المحطة على نظام التفريغ والتحميل.

وبعد الاستماع إلى جميع التعليمات لم يعد أمامنا سوى استقلال السيارة وإضاءة أنوارها لنبدد بها تلك "الظلمة المصرية"[٧٥] والتحرك فى الاتجاه المحدد لنا.

وهذا بالضبط ما فعلناه. ولكن بعدما قطعنا ٤٠ كيلو مترًا لم نلمح أى أثر لمنعطف من طريق القاهرة ـ الإسكندرية. وفى نفس الاتجاه وفى نفس الطريق مضينا خمس كيلو مترات أخرى، وفكرنا ساعتها أنه من الممكن أن نكون قد أغفلنا المنحنى فعدنا فى الاتجاه المعاكس مسافة ٢٠ كيلو مترًا، ولكن دون جدوى. فى النهاية وجدنا المنعطف الملعون، بعد ٦٠ كيلو مترا من قاعدة غرب القاهرة.

ومع مرور الوقت بدأ الموقف فى التعقيد، فبعد بضعة كيلومترات من الانعطاف، كان الطريق يتفرع، حقًا قالوا "إذا خانك الحظ، فإن الكلب سيعضك ولو كنت على ظهر جمل"، قررنا أن نسلك الفرع الأيسر للطريق. بعد ربع ساعة أحسسنا نحن الثلاثة بالحدس أنه ليس الطريق الصحيح، فعدنا إلى تفريعة الطريق وسلكنا الفرع الأيمن، وفجأة حالفنا الحظ، فوجدنا قافلة عسكرية مصرية توقفت للحظة. خرجت ساعتها مثل الطلقة نحو تلك القافلة لألحق برائد كان يمشى محاذيًا للقافلة. وتبين أنه لم يبق سوى القليل. بالفعل بعد خمس دقائق كنا نمر بقرية، وعبرنا خط السكة الحديدية وهبطنا لأسفل نحو... ضفة

(٧٥) هى عبارة وردت بالكتاب المقدس تعنى الظلام الدامس.

النيل. ولكن المحطة مع ذلك لم تظهر. ولكن كما يقولون "لاتخلو المصائب من فائدة". وجدنا فى مقدمة الطريق أمامنا خيال إحدى سيارات الاتصال. وبعد عدة محاولات وتوسلات من جانبنا قام من بالداخل بفتح الباب، لنفاجأ بأن من بالداخل هم زملاؤنا من لواء آخر وكان ذلك فى الثانية والنصف صباحًا، وكانت سعادتهم بنا كبيرة حيث تم زرعهم فى تلك البقعة لحراسة ذلك النوع البائد من عربات الاتصال. طلبوا منا والدموع تكاد تظهر فى أعينهم إبلاغ لوائنا لكى يبلغ عن وجودهم هنا لإرجاعهم. ووعدناهم أن نفعل ذلك بمجرد عودتنا لنقطة القيادة ونبلغ عن ذلك. وهوما فعلناه.

ومع ذلك فلا زالت محطة "الخطاطبة" بالنسبة لنا أرضًا مجهولة "-Terra In cognita". وحينها تم اتخاذ قرار هو أكثر القرارات حكمة فى تلك الظروف وهو العودة قليلاً إلى الوراء والسير على قضبان السكة الحديدية. وهكذا بدأت سيارتنا من طراز "جاز" فى الحركة بقفزات على قضبان السكة الحديدية مصدرة ضجيجًا عاليًا حتى وصلنا فى الثالثة بعد منتصف الليل إلى المحطة. طرقنا باب نوباتجى المحطة، وظللنا نطرق حوالى ربع الساعة فى محاولة لإيقاظ رئيس النوباتجية "الليلية"،لنخبره بمهمتنا وطلباتنا. وحينما تمكن أخيرًا من فهم طبيعة "البضاعة" التى تحدثنا عنها، استيقظ ساعتها تمامًا وأبلغنا أنه لا يملك أى معلومات عن ذلك، ولكنه أوضح أنه قد يكون زملاؤه فى محطة البضائع التى تبعد ٢ كيلو مترًا لديهم معلومات أفضل. وهنا تركناه لأحلامه السعيدة.

حينما وصلنا بعد ذلك للمحطة التالية، محطة الخطاطبة للبضائع وجدنا قفلاً كبيرًا على بوابة السور المحيط بها، وهنا فهمنا أنه لا فائدة من رحلتنا الليلية هذه، وأنه لن تكون هناك أى معلومات تهمنا على الأقل حتى الصباح، وهكذا خلدنا جميعا إلى النوم بعد إحساسنا بتنفيذ أقصى ما فى استطاعتنا بشأن مهمتنا. بعضنا نام على الأرض والبعض الآخر فى السيارة، ولكننا فى النهاية نمنا نومًا عميقًا. استيقظنا فى الصباح وتناولنا إفطارنا طعامًا جافًا، ثم انتظرنا ناظر محطة البضائع. وللأسف فلم يكن لديه هوالآخر أى معلومات. ولم يبق أمامنا سوى العودة لنقطة القيادة المركزية للدفاع الجوى فى القاهرة والإبلاغ عما حدث. ولكن هنا لعبت الأقدار لعبتها، فبعد يوم واحد تم الإبلاغ من القاهرة بأن "بضاعتنا" وصلت وموجودة بمحطة الخطاطبة للبضائع.. وهنا بدأت الأحداث...

لقد كنت ولمدة حوالى شهر المترجم الوحيد فى اللواء. لذلك كنت أعمل حتى منتصف اليوم فى نقطة القيادة أمام الخريطة الطوبوغرافية الموضحة لموقف القتال، ثم أسافر إلى المحطة التى أصبحت معروفة بالنسبة لى "الخطاطبة" أساعد فى تفريغ الصواريخ من القافلة ونقلها إلى معدات النقل طوال الليل وتوصيلها إلى القاعدة حوالى الخامسة أوالسادسة صباحًا حتى لا يتم ذلك فى النور.

بعد أسبوع من العمل بعد قيامنا بتوصيل شحنة بصحبة ل.د .تاراسوف وف. ى. لاتيشيف وإبلاغنا بتقرير الانتهاء من المهمة اليومية، توجهت إلى "غرفة الراحة" بنقطة القيادة، حيث إنها أصبحت فى ذلك الوقت مكان إقامتى الدائمة. وبمجرد أن ألقيت بجسدى المنهك على السرير، سمعت صفارة الإنذار: اخترقت الطائرات الإسرائيلية المجال الجوى المصري. وكان آخر ما سمعت هو خطوات متسارعة وصوت رئيس قسم الاستخبارات باللواء الرائد أوليج إيوسيفوفيتش شيفتشينكو: "ميخائيل! استيقظ، غارة!" وهنا سمعت صوت ب.ى.جايفورونوك الأبوى وهو يقول له:"انتظر. دعه ينام ولو خمس عشرة دقيقة" . وهنا سقطت بعد سماع تلك الكلمات.

هكذا انتهت الأيام الأولى من خدمتى فى المكان الجديد، وكان فى المستقبل العديد من المصاعب التى تنتظرنا جميعًا، الروس والمصريين على حد سواء، فى مركز القيادة هنا فى "غرب القاهرة" وفى مجموعة الطوارئ فى منطقة قناة السويس. لقد رأينا فى تلك الأيام كل شىء، كانت هناك إصابة "الفانتوم" و"السكاى هوك" و"الميراج"، وكانت هناك السعادة والفخر بأسلحتنا المتطورة، والفخر بمن صممها ومن يجيد استخدامها. كانت هناك النقاشات المستعرة حول من الذى أصاب الأهداف، وكان هناك التفاخر بكل تفصيلة صغيرة لهذا النصر. كذلك كانت هناك الأخطاء والظروف المستجدة التى أحيانًا ما كانت مأساوية.

لا أنسى كيف كنت أحاول قدر استطاعتى أن أجد على الخريطة الطوبوغرافية الطائرات المعلن عنها أو معرفة، من زملائنا المصريين الموجودين معنا فى نقطة القيادة من أفراد النوباتجية (من الطيارين وضباط الصواريخ والمدافع المضادة للطائرات والمدفعيين)، أى من تلك الطائرات التى رصدناها

تتجه نحوقاعدة "غرب القاهرة". أحيانًا كان من الصعوبة فى وضع القتال وقد أصبحت الدقائق التى تفصلنا عن الضغط على زر "الإطلاق" معدودة، أن نفكر أو ندرك أن تلك الطائرة التى نطلق عليها النيران هى طائرة مصرية تتجه نحو البحر الأبيض المتوسط، وهى ليست مجهزة بجهاز الإرسال الذى يمكن من خلاله التعرف على طائرات الصديق وطائرات العدو... كان هناك للأسف الشديد ألم بسبب رحيل رفاقنا فى القتال. إن الحرب قاسية... ولكننا حققنا الهدف الأساسى منها. وفى أغسطس ١٩٧٠ تم توقيع معاهدة وقف إطلاق النار.

بعد ذلك كان لى ولزملائى فترة لتنفس الصعداء فى الوطن. وبعد نهاية السنة الثالثة من الدراسة، حصلت على رتبة "ملازم أول" وعدت إلى مصر، عدت إلى منطقة القتال مرة أخرى، إلى منطقة قناة السويس. ولكن تلك المرة كانت فى الأعوام ١٩٧١ـ ١٩٧٢، وساهمت فى أعمال رفع كفاءة الاستعداد القتالى للجنود والتخطيط لعملية الهجوم العسكرى باستخدام الجسور المائية فى غرفة عمليات الجيش الثالث الميدانى. كان ذلك جزءا من أهم الأعمال الاستراتيجية فى عملية هجوم القوات المسلحة المصرية، وهوالجزء الذى كلله النجاح فى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، حينما تم عبور القناة واختراق خط بارليف والتمركز شرق القناة.

وفيما بعد، وفى عام ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ كان على أن أعود "لتخصصى" القديم وأن أعمل فى المؤسسة الحكومية رقم ٢٣٣، والتى تقوم بإصلاح وتعديل معدات إطلاق الصواريخ المضادة للطائرات. وفى أغسطس ١٩٧٣ عدت لمدينتى، وبعد شهرين فى أكتوبر، ومع بدء العمليات العسكرية بين الدول العربية وبين إسرائيل، كنت وزملائى قد أعددنا العدة للسفر فى رحلة العمل الثالثة لمصر فى خلال السنوات الأربع الأخيرة. ولكن فى تلك المرة فضلت القيادة الاستعانة بالشباب وتركنا نحن "الأكبر" للانتهاء من الدراسة التى طال أمدها.

لقد امتدت الدراسة فى المعهد العسكرى للغات الأجنبية زهاء سبع سنوات. ويرجع طول مدة الدراسة القياسى إلى التدخل الشخصى لوزير الدفاع بالاتحاد السوفييتى آنذاك المارشال ا. ا. جريتشكو. الذى زار المعهد فى يناير عام ١٩٧٤ وعلم باستمرار دراسة دفعة قسم اللغة العربية الملتحقين بالمعهد عام ١٩٦٧، وأعطى أوامره بأن ينهى أولئك "المخضرمون فى الدراسة" دراستهم فى خلال

فصل دراسى واحد يتم خلاله إعطاؤهم النصف الثانى من السنة الرابعة والسنة الخامسة بأكملها، وهكذا ففى صيف عام ١٩٧٤ أصبحنا مترجمين عسكريين وتخرجنا من معهدنا "الأم" لنواجه الحياة العملية.

إن "صوتى الداخلى" لا يتوقف عن سؤالى، هل هناك داع لحكاية تلك القصة التى تهم الكاتب وحده، ومعه بعض من زملائه الذين خاضوا نفس التجربة، فى محطة قطار ريفية فى مصر. ألم يكن من الأجدى الكتابة عن التعاون الوثيق الحقيقى والتنسيق والاحترام المتبادل والعلاقات الإنسانية الحميمة والأخوة العسكرية التى نشأت بين السوفييت والمصريين، والتى كنت شاهدًا عليها؟. وهنا فى الحقيقة تجىء إلى الذاكرة ذكريات عن تلك الأيام الصعبة جدا بالنسبة لعلاقاتنا. كانت الأيام الصعبة فى العلاقات هى يوليو وأغسطس ١٩٧٢، فبناءً على قرار القيادة المصرية بإنهاء المساعدات العسكرية السوفييتية، تم إجلاء جميع الخبراء السوفييت فى مصر، وكنت ضمن مجموعة صغيرة من الخبراء العسكريين بقيت فى مصر، التى حاربت من أجلها منذ عامين، وسمعت آنذاك وقرأت ما كُتب عن وطنى ولم تجرؤ يدى على ترجمته أحيانًا. ولكن ما عسانا أن نقول: إنها "سياسة عليا". إن من يغير القديم، هو من يخرقون عينه...

إننى أتذكر بكل دفء وتقدير عميق الضباط واللواءات المصريين، الذين عملت معهم طوال السنوات الثلاث فى أثناء وجودى فى مصر. فلم يكن أولئك مجرد ضباط فى الجيش أترجم عنهم ما يقولونه، لقد كانوا وسيظلون بالنسبة لى وقبل كل شىء معلمين تعلمت على أيديهم اللغة العربية الحية.

وددت الإشارة أيضًا إلى أن لكل منا "نقطة محورية" فى حياته، يتحدد طريق الحياة بعدها وقبلها كمتخصص وكإنسان. بعد الصراع العربى الإسرائيلى دفعت بى الأقدار للعمل لخمسة أشهر فى أثناء الصراع المسلح بين الصومال وأثيوبيا، وفى تلك المرة وبناءً على قرار الجانب الصومالى بإنهاء المهمة العسكرية للعسكريين السوفييت، رحلت فى نوفمبر ١٩٧٧ على متن الطائرة الأخيرة من تلك الدولة التى كانت فى يوم ما دولة صديقة. بعد ذلك كنت شاهدًا لمدة عامين على الصراع المسلح بين العراق وإيران. وفى أثناء ضرب الإيرانيين لبغداد وضواحيها كثيرًا ما كنت أتذكر مصر أيام ذلك "الصيف "الساخن" لعام ١٩٧٠".

وفى العراق فى أكتوبر ١٩٨٠، كان علينا أن نؤمن عملية الإخلاء. ولكن فى تلك المرة كان العائدون من النساء والأطفال. تم تحذير العسكريين السوفييت بشأن ضرورة الإجلاء فى حالة الإعلان عن درجة الطوارئ القصوى، والاستعداد للعودة للوطن فى أى لحظة، ولكنها مرت بسلام...

وهكذا فإنه بعد الأحداث المصرية أدركت أن "النقطة المحورية" فى حياتى كانت الخدمة فى قاعدتنا "غرب القاهرة" فى لواء الصواريخ المضادة للطائرات. إن تلك الخدمة التى عملت بها فى وسط صحراء غرب القاهرة وفى منطقة قناة السويس بجانب أولئك الأفراد الرائعين من الروس والمصريين الضباط والمتخصصين، قد صقلت الجانب المهنى والنفسى من شخصيتى وساعدتنى ولا تزال تساعدنى فى حياتى. فليعذرنى من لم أذكر أسماءهم. شكر وتقديرعميق أتقدم به لكل من هم على قيد الحياة ممن عملت معهم ورحمة تتغمد من رحل عن هذا العالم.

لذلك فإن التعبير الرمزى عن تلك "النقطة المحورية"، وعن ذلك الحب الذى لم ينتقص مع الزمن لمصر التى أصبحت بالنسبة لى وطنًا ثانيًا، ليس سوى تلك الكلمة العربية البسيطة "الخطاطبة"، وهى اسم لمحطة صغيرة للسكك الحديدية فى مصر، الموجودة بجانب قرية تحمل نفس الاسم، والتى تقع ببيوتها الصغيرة وحقولها الزراعية فى حضن نهر النيل العظيم، ترتوى من مائه كالشفاه العطشى، التى لا تجد مفرًا من أشعة الشمس الإفريقية الحارقة سوى ذلك النهر هربًا من الجفاف والعطش...لذلك تذكرت وأذكر وسأظل أذكر ليلتى الأولى فى قاعدة "غرب القاهرة" الجوية وآخر الكلمات التى سمعتها وأنا أجلس فى السيارة:"لا تنس، المحطة تدعى الخطاطبة!"

معاً.. فى خندق واحد

ي. ت.ساينكو

بعد تلقّى الأوامر بالمهمة فى الخارج، وتكوين الكتيبة الفنية ظهرت أمام قائدها ر. ر. نازاريتيان وأمامى - بوصفى نائبه للشئون السياسية - مهمة تكوين طاقم الأفراد، وصهره كى يكون وحدة واحدة، وتعزيز الالتزام العسكرى وتحسين فنون القتال والتعامل مع المعدات الحربية.

كانت الصعوبة تكمن فى أننا لم نكن نعرف الجميع، فأفراد الكتيبة جاءوا من وحدات مختلفة. كذلك فإن٨٠٪ من الأفراد و٦٠٪ من الضباط لم يكونوا متخصصين فى آلياتنا ومعداتنا ولم يعلموا شيئًا عنها. وكان الحمل الأكبر بشأن أفراد فصيلة النقل، والتى كانت هى الأخرى مجمعة من وحدات مختلفة. ولم تكن هناك روح التكاتف العسكرية، بل إن قائد تلك الفصيلة الملازم الأول ى. ن. تشيكالوف لم يكن لديه خبرة فى التعامل مع الأفراد. وكانت تلك ومشاكل أخرى هى ما دفع قيادة الكتيبة للقلق. وكان الوقت المتاح محدودًا للغاية، كذلك كان الوقت مشحونًا بإجراءات كثيرة متنوعة، بهدف دراسة الجانب المادى والتدرب على فنون القتال، وتعزيز الالتزام العسكرى، وتدبير المصادر المادية والنشاط الثقافى فى أوقات الفراغ، (سماع الراديو وقراءة الصحف والمجلات ومشاهدة الأفلام وغيرها.)، الخدمات الطبية إلخ.

ولذلك كان علينا دراسة طبيعة كل فرد من أفراد المجموعة، واختيار الأوقات المناسبة للتدريب والراحة.

وعلى مدار فترة الخدمة كلها، وفى كل المراحل وكل الأوقات كان من الضرورى التنسيق الصارم بين الأنشطة، الأمر الذى يمكن التوصل إليه فقط من خلال

العمل المهنى والتربوى. وبغرض الاستعداد وتنفيذ الأنشطة التى ذكرناها تم عقد اجتماعات للضباط والرقباء والأفراد. تم اختيار دقيق للنشطاء الحزبيين والكومسومولين، رأس كل مجموعة سكرتير عام. وتم اختيار منظمى المجموعات الكومسومول داخل الكتيبة ومحررى النشرات العسكرية.

تم انتخاب السكرتير العام للتنظيم الحزبى النقيب فاسيليى أليكساندروفيتش أفيريانوف ونائبه النقيب فلاديمير فلاديميروفيتش ميلينيس، وتم انتخاب السكرتير العام لتنظيم الكومسومول فى الكتيبة الجندى بيوتر فلاديميروفيتش البينيكوف. وتم انتخاب هيئة مكتب الكومسومول المكونة من الرقيب ا. س. كوستينكو، الرقيب ا. س. شليوشكين، ومنظمى مجموعات الكومسومول من كل من ف. ى. زينيشيف، الجندى ف. س. ميخايلوف، الجندى ف. ا. لوسيف، الجندى ب. ن. روجين، تم تعيين المروجين كل من الرقيب ف. ب. بورياكوف، الجندى ف. م. بانوف والصول ى. خ. أخميروف، والجندى ى. ا. راباى، محررى النشرات العسكرية: الجنود ف. ب. رومانوفيتش، ن. ج. زاديسينيتس، ف.ف.سوكولوف والصول ا. ا. ستويكو.

إن عمل التنظيمات الحزبية والكومسومولية كان فى إطار المهمة المحددة لنا. فقد كان النشطاء الحزبيون والكومسومليون هم القدوة والنموذج لجميع الأفراد فى أثناء الخدمة وبخاصة فى أثناء اللحظات الحرجة والمواقف المصيرية. ونظرا إلى أن القافلة كلها طوال الرحلة إلى ميناء الوصول كانت بها إذاعة، فقد قمنا بعمل جريدة إذاعية منتظمة. ومع أن كل شىء كان مخططًا من قبل، وأننا حاولنا أن نغطى كل البدائل، فإنه كثيرًا ما طرأت العديد من المشاكل والقضايا، والتى ساعدنا فيها بشكل فعال رئيس القسم السياسى ى. ف. بروبيلوف والرائد نازاروف والرائد ف. ا. زوبوف والنقيب ف. س. لوجاتشيف، وكانوا يزورون الكتيبة بشكل مستمر، وكانوا يوفرون الدعم المطلوب. كذلك فقد لعب قائد الكتيبة نازاريتيان دورًا مهمًا وتمكن من السيطرة على الموقف وعلى كل مشاكل الأفراد. لقد كانت القضية الأهم بالطبع هى الاستعداد القتالى، الالتزام، توفير الغذاء للأفراد، وجميع متطلبات الحياة، والخدمات الطبية والسلامة... إلخ.

أثر ذلك بشكل إيجابى فى عملنا فى المستقبل. لقد قمنا بإطلاق ٥٢ صاروخًا فى أثناء التدريب فى القاعدة العسكرية قبل سفرنا إلى مصر، ولم يكن هناك أى

عيوب فى المعدات، ولم تكن هناك أى تعليقات من قبل القيادة. وبعد الانتهاء من المهمة الابتدائية، سافر إلى مصر طاقم الأفراد مكونًا من ١٠ ضباط و١٤ رقيبًا وجنديًا. وفى الطريق انضم لكتيبتنا ٥١ فردًا، غالبيتهم من السائقين. ووقتها ظهرت مشكلة تجهيز الوحدات، والأطقم، وكذلك تدريبهم على العمل القتالى. فى الوقت نفسه حصلنا على معدات عسكرية و٣ مجموعات صواريخ.

لم يكن هناك وقت للتعامل مع المشاكل والتدريب على المعدات الجديدة، إذا لم نأخذ فى الاعتبار الأيام الثلاثة التى قضيناها فى الطريق. وكان أمامنا عمليات قتالية. كان جدول الأعمال مزدحمًا، وكان طاقم الضباط يعقد امتحانات تمنح عليها درجات. وكانت هناك أساليب متعددة للتعليم والتدريب، فقد كانت هناك مسابقات لمن يعرف أكثر عن المعدات، مما ساهم فى التعرف بصورة أفضل على الخصائص الإنسانية والعملية للأفراد. قام الضباط والمتخصصون بعمل جدول زمنى مختصر للتفتيش على محطات فحص وتجربة كل المعدات الفنية لتكون فى وضع استعداد للقتال. تم حصر النتائج اليومية وتحليل الأخطاء مما حسن من فاعلية التدريب.

لقد كان من نصيب الطبيب الجندى ب. ف. كراسنيتسكى القدر الأكبر من العمل، حيث إنه فى ظروف الحرارة الشديدة كانت هناك قابلية أكبر لأوبئة المعدة والأمعاء، والأمراض الجلدية الناشئة عن قرص الناموس أو الحشرات الطائرة. كان هناك عدد من الإجراءات الوقائية التى تم اتخاذها والتى خفضت من معدل تأثير تلك العوامل.

بالوصول إلى الإسكندرية كان كل أعضاء المجموعة، وكل جندى يعرف ماذا عليه أن يفعل، لذلك فلم تكن هناك أى فوضى. تم تنظيم القوافل، وتحديد مسئول عن كل قافلة، كما تم توفير التأمين لتلك القوافل فى أثناء حركتها. وتم تفريغ المعدات وكل الأدوات بسرعة، وتحركت كل قافلة إلى الوجهة المحددة لها.

لقد كان من أكثر من اجتهدوا فى عملية التفريغ، عامل الونش الجندى ف. ى. كيليين. فقد عمل عددًا من الأيام على الونش دون انقطاع وبحمية شديدة ودون راحة. وتم تفريغ كل المعدات والأدوات فى الوقت المحدد. كذلك فقد اجتهد فى العمل كل من ى. خ. أخميروف، ف.ب.ستريلنيكوف، س. ب. نوزورينكوف، ا. ن.

ليوكين، ب. ى. ألينيكوف، ج. ف. إستوشين، ا. س. كوستينكو، ف. ب. رومانوفيتش وغيرهم كثيرين. ولابد هنا من الإشارة إلى المجهود التنظيمى الكبير والمحدد الذى قام به قائد الكتيبة نازاريتيان. فقد أشرف على عملية التفريغ، ونظم القوافل، أعطى الأوامر للسائقين للتحرك فى الاتجاه المطلوب. لقد كان الأمر صعبًا بالتأكيد: فالبلد غريب، والطرق غريبة، والوقت ليلاً، ولا توجد أى إضاءة. ولكن الجميع عملوا بالتزام. ولا نغفل أيضًا رؤساء القوافل الملازمين ف. ف. مالينيس وف. ا. رابوتنوف، والسائقين ن. خ. تاميلوف، ا. ا. ستولكو، د. ك. إيفانتشيشين، ف. ى. لوبوف، ف. ا. موروزوف وغيرهم من الذين التزموا بحرفية تنفيذ الأوامر ولم يتذمر أحد من صعوبة التنفيذ.

فى اليوم الثانى بدأ نشر المعدات، وبدأت الأعمال الحربية. وفى وقت وجيز تم تشكيل إدارة للأمور الحياتية وإدارة للخدمات الطبية.

لقد تم تحضير وتسليم (تركيب وتلوين) ما يزيد على ٨٠ صاروخًا وفقًا للخطة فى الفترة ما بين ٨ و٢٠ مارس. قام أفراد فصيلة نقل الصواريخ بالتحرك لمسافات طويلة من أجل نقل حوالى ٢٠٠ صاروخ فى أغطيتها. وبالإضافة إلى ذلك تم نقل الكثير من مستلزمات القسم الإدارى. كذلك تم نقل معدات القتال للكتائب المصرية والسوفييتية المكلفة بإطلاق النيران. كان النقل يتم فى أثناء الليل دون إضاءة. كان علينا العمل لأيام متواصلة دون راحة، وأحيانًا دون تغذية سليمة. إلى جانب ذلك فقد كانت الرمال كثيرًا ما تغطّى الطرق. ومع كل هذا فقد نجح السائقون فى تنفيذ المهمة.

كما هو موضح أعلاه فإن الصواريخ تم نقلها مفككة داخل أغطيتها. بعد ذلك تم تجميعها بسرعة وتلوينها وتسليمها حيث تم ذلك بفضل كون العمود الفقرى لمجموعة الضباط المكونة من ١٠ ضباط و١٤ رقيبًا وجنديًا، سبق أن تلقوا تدريبًا خاصًا جيدًا وكانوا مجهزين بشكل حسن للعمل القتالى. لقد كان كل منهم يعرف العملية برمتها، كان بإمكانه أن يحل محل الآخرين إذا استدعى الأمر. لقد كان من الضرورى الانتهاء من تجميع الصواريخ على وجه السرعة، ذلك أن العدو كان بالمرصاد، كنا معرضين لغارات جوية فى أى لحظة. وبهذه الطريقة، وبعد أن قمنا باختيار سليم للأفراد المدربين من بين أعضاء المجموعة غير المؤهلين جيدا، فى

ظل ظروف إعادة الانتشار وضرورة تسليم عدد كبير من الصواريخ عن طريق طاقم واحد من محطة الاختبار، استطعنا الوصول إلى معدل تسليم سريع يتمثل فى صاروخ واحد فى الساعة. كانت القيادة تعمل بحمية وتضحية، الأمر الذى شجّع الجميع على العمل، وأصبح المستحيل ممكنًا.

فى ٢٢ مارس ١٩٧٠ تحركت الكتيبة من العامرية إلى غرب القاهرة، حيث زاد معدل تسليم الصواريخ إلى ١٦ صاروخًا فى الساعة. كانت الكتيبة الفنية توفر الصواريخ للكتائب القتالية فى الوقت المطلوب وكانت التجارب تتم فى مواقع إطلاق النيران. كان السائقون يقومون بنقل الصواريخ للكتائب كما كانوا ينقلون أيضًا معدات الكتائب للمواقع الجديدة. وكان التغيير المستمر لمواقع إطلاق الصواريخ هوالسبب فى نجاح العمليات الحربية.

وإلى جانب إعداد ونقل الصواريخ إلى مواقع الإطلاق، كانت الكتيبة الفنية تنقل المعدات الحربية للكتائب المصرية بشكل منتظم. وبهذه الطريقة كان أفراد الكتيبة الفنية موجودين دائمًا فى مواقع إطلاق الصواريخ وكانوا معرضين باستمرار لخطر قصفهم بالقنابل.

فى أثناء تنفيذ العمليات القتالية سافرت أطقم محطات فحص واختبار المعدات أكثر من ١٥ مرة إلى منطقة القتال على قناة السويس للتأكد من صلاحية الصواريخ فى مواقع الإطلاق مباشرة، وكان السائقون دائمًا موجودين فى الكتائب المقاتلة. وكان من ضمن من أثبت قدرته وبسالته فى تلك الظروف كل من الملازمين الأولين ميلينيس ورابوتنوف، والمسئولين عن الحسابات الفنية ف. ب. بورياكوف، ب. ف. ألينيكوف، ف. ب. رومانوفيتش، ج. ف. إيستوشين، ف. ف. بيستروف، فقد نجح هؤلاء فى تنفيذ المهام الموكلة إليهم. فقد انطلق ١٢ صاروخًا وأصابت طائرات العدو، ولم يكن ذلك سوى عمل متأنٍ متقن.

لقد قام قائد الكتيبة القتالية، بطل الاتحاد السوفييتى كونستانتين إيليتش بوبوف بتقبيل وشكر قائد الكتيبة الفنية نازاريتيان تقديرًا لمجهوداته المتميزة فى إعداد الصواريخ. وحتى يومنا هذا فإن جميع ضباط الكتائب القتالية يحيّون الكتيبة الفنية على إعداد ونقل الصواريخ إلى جانب الخدمات الأخرى. وذلك أمر منطقى: فالنجاح فى تنفيذ المهام الكبرى يعتمد على مجهود كل فرد فى المهمة أيًا

كان دوره. فكل دور هنا مهم، ولا توجد أدوار ثانوية. إننى فخور بأننى عملت فى يوم من الأيام مع كل هؤلاء الأبطال، فقد تعلمت منهم الكثير.

فى نوبة القتال ببورسعيد

ف. ف. تولكاتشيف

أتذكر صيف عام ١٩٦٧ .حينما بدأت العمليات العسكرية فى البحر الأبيض المتوسط بين مصر وإسرائيل تم إعداد وإرسال سفن من سيفاستوبل لتعزيز أسطولنا الموجود فى البحر الأبيض. وكانت تلك معلومات معروفة للجميع، وكان العديد من أفراد القوات البحرية فى أسطولنا يرغبون فى أن يجرّبوا أنفسهم فى القتال الحقيقى. كان هناك الكثير من الشباب على متن تلك السفن المتجهة خارج المياه الإقليمية، يتوقون إلى رؤية بلدان جديدة، والتعرف على انطباعات جديدة. وكانت أمجاد الفرقاطة "بالادا"(٧٦) الرومانسية والمغامرات المثيرة والسفر إلى أعالى البحار هى ما كان يلهم البحارة.

تم تنظيم اجتماعات لجميع أفراد الوحدات، على سفينتى (المدمرة "أتزيفتشيفى") الموجودة آنذاك على رصيف الإصلاح، وكان على مكتبى عدد من التقارير تشير جميعها إلى الإسراع بإصلاح المدمرة والسعى نحو إبحارها إلى البحر الأبيض المتوسط.

وقد أوضحت لقائد اللواء رغبة طاقم السفينة فى الانتهاء من عمليات الإصلاح وبدء الخدمة القتالية. فابتسم قائد اللواء من قبيل الرد، ولكنه وعد بإبلاغ تلك الرغبة للقيادات. إلا أنّ تلك الحمية الوطنية لم تلق دعمًا آنذاك من قبل القيادات.

---

(٧٦) فرقاطة تابعة للأسطول الحربى الروسى دخلت الخدمة عام ١٨٣١، واشتهرت لكتابة الأديب الروسى إيفان أليكساندروفيتش جانتشاروف (١٨١٢ - ١٨٩١) قصصًا تحمل نفس الاسم.

فى تلك الفترة، كنت نادرًا ما أكون فى منزلى، فإلى جانب العمل المزدحم على ظهر السفينة، كان هناك التحضير لامتحانات الأكاديمية العسكرية البحرية والتى كنت أدرس بها منتسبًا. وفى نهاية أكتوبر ١٩٦٧ سافرت إلى لينينجراد حيث أديت امتحانات السنة الأولى. وقد انطبعت فى ذاكرتى زيارة لينينجراد تلك المرة بسبب أنها وافقت الاحتفال بمرور خمسين عامًا على ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى. وعدت إلى سيفاستوبل بداية عام ١٩٦٨.

لقد كان هناك عدد من الأحداث فى ذلك العام. فبعد خروج المدمرة من رصيف الإصلاح تم نقلها إلى الورش الخاصة لإتمام أعمال الصيانة والتجارب. كان من المفروض أن يتكون طاقم السفينة من ٢٢٠ فردا، ولكن كان هناك على متنها ٩٠ فردًا فقط من الضباط والبحارة. لذلك كانت أصعب الأمور تشكيل طاقم الأفراد بالذات من الضباط. ولم يكن هناك متطوعون على الإطلاق بعد انتهاء خدمتهم الإجبارية. انتهت عمليات الإصلاح فى أبريل، حان وقت الخروج للبحر، فى الوقت الذى لم يتم فيه تشكيل طاقم الأفراد. كان علينا تشكيل مجموعة مؤقتة من المتخصصين، مستعينين بهم من سفن أخرى. وبمساعدتهم تمكننا من تجربة المدمرة، ثم عادت المدمرة إلى الورش. وبعد الانتهاء من تشكيل طاقم الضباط، بدأنا عمل التدريبات اللازمة بغرض الخروج إلى الخدمة القتالية.

بعد الاستعدادات المكثفة تمكنت المدمرة من الخروج فى ٢٥ أكتوبر ١٩٦٨ من سيفاستوبل إلى المهمة القتالية. كانت عملية الإبحار فى البحر الأسود ومنطقة المضائق (البوسفور والدردنيل) ثم بحر مرمرة طبيعية، إلا أنها أحيانًا ما كانت صعبة فى بعض الأماكن لازدحام حركة مرور السفن من دول مختلفة.

بدأت الخدمة القتالية للمدمرة فى النقطة رقم ٥ (جنوب اليونان) وهى النقطة التى يعرفها جميع البحارة الذين خدموا فى البحر الأبيض المتوسط. وبعد مرور يوم واحد تلقيت الأوامر بالتحرك نحوالقاعدة العسكرية البحرية المصرية فى بورسعيد. وبدأت هناك من بداية نوفمبر بتنفيذ المهمات القتالية الموكلة إلينا بغرض دعم العمليات القتالية للجانب المصرى ضد إسرائيل. وكان من ضمن تلك المهام: دعم جنود المشاة البحرين، الذين يتم إنزالهم بسفن الإنزال البحرى

بواسطة إطلاق النار، ودعم عمليات التخابر التى تتم على السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط وغيرها.

كنت قد قمت بصحبة قائد كتيبتنا القبطان من الدرجة الأولى بوكين بزيارة لقائد القاعدة العسكرية البحرية المصرية السيد/ سعيد (والذى يحمل من قبيل الصدفة نفس اسم القاعدة البحرية التى يرأسها "بورسعيد")، والذى قام بدوره بزيارة لسفينتنا فى اليوم التالى. وكانت تلك الزيارة وفقًا للبروتوكولات الدبلوماسية من جانبه، أول خبرة لى فى التعامل، ومضى كل شىء على ما يرام، وترك السيد/سعيد انطباعًا جيدًا. بعد ذلك علمت أنه قد درس فى الاتحاد السوفييتى، وكان يكن لبلادنا مشاعر دافئة، وإن لم يكن يعلن عن ذلك.

تم تعيينه قائدًا للقاعدة بعد نجاحه فى أثناء عمله قائدًا لكتيبة السفن الحاملة للصواريخ سوفييتية الصنع فى تدمير وإغراق المدمرة "إيلات" الإسرائيلية. ليصبح بعد ذلك أحد القادة الواعدين فى سلاح البحرية المصرية.

عشية احتفالات أكتوبر(٧٧) دعانى مستشار قائد القاعدة القبطان من الدرجة الأولى ستارشينوف بصحبة اثنين من الضباط إلى منزله. وفى جوودى تعرفنا على بعضنا بعضًا بشكل أقرب، وتبادلنا معلومات مهمة لكلينا. وفى السابع من نوفمبر(٧٨) دعوت المستشارين وعائلاتهم إلى السفينة واحتفلنا معًا بهذا اليوم.

وفى الطريق عند مدخل قناة السويس، وحيث كان لنا مكان دائم لسفينتنا، كنا نقوم يوميًا بالتدريب والتعليم فى مجال الاتصال، وعلى الخرائط - إعداد الإنزال ودعم إطلاق النار للمظلات، وكان التدريب أحيانًا ما يتضمن إنزالاً حيًا فى الماء لبعض المؤن لأفراد الإنزال البحريين.

كان الإسرائيليون يقصفون منطقة القناة بالقذائف المدفعية بشكل منتظم، كما كانوا يقومون بغارات جوية باستمرار، لذلك كان من الضرورى التدريب على الغارات الجوية من خلال صفارات الإنذار التعليمية.

---

(٧٧) احتفالات ثورة أكتوبر البلشفية ١٩١٧.

(٧٨) يوم ٧ نوفمبر هو يوم عيد ثورة أكتوبر، حيث إن تاريخ الثورة البلشفية هو ٢٥ أكتوبر وفقًا للتقويم القديم (التقويم اليوليانى) حيث تحولت روسيا للتقويم الجريجورى (الميلادى المعروف لدينا) عام ١٩١٨.

كان الحدث الأشهر فى أثناء وجود السفينة فى بورسعيد هو المشاركة فى مناورة "فيخر" (العاصفة) بمشاركة سفينة استخبارات على شكل سفينة للصيد. كانت سفينة الاستخبارات تبحر على مدار ساعتين فى اتجاه تستطيع من خلاله التعرف على حالة مواضع تمركز المدفعية المضادة للطائرات على الجانب الإسرائيلى فى حالتها الخامدة. ثم قمنا فى حوالى الساعة الواحدة ليلاً بالخروج من نقطة الانطلاق والتحرك بمحاذاة المياه الإقليمية الإسرائيلية. كان الليل حالك الظلمة، وكانت هناك بعض العواصف. وبدأت قيادة الأسطول تقلق بشأننا. فقد كانت سفينتنا من نفس طراز مدمرة تم تسليمه للبحرية المصرية كانت تتبع لأسطول البحر الأسود. لذلك كانت هناك خطورة أن يهاجمنا الإسرائيليون ظنًا منهم أننا سفينة مصرية، خاصة لرغبتهم فى الانتقام لما حدث للمدمرة إيلات. وخاصة أن الطائرات القاذفة للقنابل كانت تنطلق من مطار القاهرة وتقوم بالتمثيل وكأنها تقوم بالإغارة على الأراضى الإسرائيلية حتى تطلق المدفعية الإسرائيلية المضادة للطائرات نيرانها فتكشف عن مواقعها فترصدها سفينة التجسس.

فى نهاية فبراير ١٩٦٩ خرجت المدمرة من بورسعيد إلى الإسكندرية، حيث كان من المقرر عمل بعض الإصلاحات الصغيرة، والدعامات. كانت ورشة إصلاح السفن فى الإسكندرية قد تم تحديثها، أو بمعنى آخر تم بناؤها من جديد بمساعدة الاتحاد السوفيتى، وكان من المخطط أن يكون بإمكان تلك الورشة بناء سفن صغيرة وإصلاح السفن الحربية، بما فيها السفن الحربية الكبيرة. وكانت المدمرة "أتزيفشيفى"، سفينتى، هى أول السفن الحربية الكبيرة التى تم إصلاحها فى تلك الورشة بناء على طلب الأسطول الحربى العسكرى للاتحاد السوفيتى.

بعد الخروج من الورشة، وقبل يومين من خروج السفينة من الإسكندرية إلى سيفاستوبل، نظمنا عشاء وداع، حضره مدير الورشة، ومستشاره الخبير السوفيتى إيفانوف والذى كان زميلاً لى فى الدراسة فى معهد فرونزه[٧٩]، وقائد لواء الغواصات ف. شاكولا. خيّم على هذا العشاء روح الصداقة، وقامت إدارة

(٧٩) معهد عسكرى بحرى على اسم أحد قادة الجيش الحمر فى أثناء الحرب الأهلية بالاتحاد السوفيتى بعد ثورة ١٩١٧.

الورشة ممثلة فى مديرها بإهداء ساعات يد، وقمنا بتقديم هدايا تذكارية من البحرية السوفييتية [نماذج لسفن شراعية وعلم رمزى للصداقة المصرية السوفييتية] الأمر الذى كان مناسبًا من حيث الوقت والمكان، فمدير الورشة كان رئيسًا لجمعية الصداقة المصرية السوفييتية.

لقد تزامنت كل تلك الأحداث مع تاريخ بلوغى سن الأربعين. وبعد يومين كنا فى عرض البحر متجهين من الإسكندرية إلى سيفاستوبل. كان الطريق سهلاً وكانت الإصلاحات قد حسنت من منظر السفينة التى راحت تمخر عباب البحر نحو الوطن! استقبلتنا على رصيف الوصول القيادات ،وعائلاتنا وأوركسترا نحاسى. وفى اليوم التالى كنت وسط عائلتى أحتفل بعيد ميلادى.

فى ٢٠ أبريل ١٩٦٩ كنت أستعد للسفر إلى لينينجراد[٨٠] لأداء امتحانات الأكاديمية العسكرية البحرية عن السنة الثانية، ولكن جاءت الأوامر بإعداد السفينة للإبحار للبحر الأبيض المتوسط للمشاركة فى مناورات مع البحرية المصرية بما فى ذلك تدريبات على إطلاق النار على أهداف برية. كان التاريخ المحدد للخروج ١٣ مايو ١٩٦٩ والوصول للإسكندرية ١٥ مايو ١٩٦٩.

فى العاشرة من صباح ١٣ مايو ١٩٦٩، خرجت السفينة من سيفاستوبل، ووصلت فى الميعاد المحدد إلى الإسكندرية وبدأنا على الفور فى عمليات التدريب على إطلاق النار لقيادات الأسطول البحرى فى منطقة أبوقير. كانت نتائج الجولة الأولى من التدريب متواضعة للغاية، كانت بالكاد "مقبولة"، الأمر الذى أدهشنا. وبعد تحليل النتائج وجدنا أن الخرائط التى كنا نعتمد عليها كانت قديمة ولا تتوافق مع الواقع الجغرافى للمنطقة، أو مع تلك العلامات التى كنا نستخدمها كدليل. كان علينا أن نقوم بتدريب جديد ولكن دون إطلاق للنار.

فى اليوم المحدد لإطلاق النار التدريبى التالى، كان الجو جميلاً. وكان إطلاق النار بدرجة "امتياز". وكان أول من هنأنا بعد انتهاء التدريب هم الضباط المصريون.

---

(٨٠) بطرسبرغ حاليًا (تغير اسم المدينة من لينينجراد إلى بطرسبرغ عام ١٩٩١).

عدنا إلى الإسكندرية ينتابنا الإحساس بأننا قد أتممنا المهمة. وكان النجاح الذى حققناه قد سبقنا إلى هناك فى التدريب مع سفن الأسطول المصرى. وفى ١٥ يونية عدنا إلى سيفاستوبل، وبعد بضعة أيام كنت فى طريقى إلى لينينجراد لأداء امتحانات السنة الثانية وما تراكم على من مواد فى تلك الفترة فى الأكاديمية العسكرية البحرية.

عند مصادر الاتصالات العسكرية فى مصر ·

ن. ف. فيدورينكو

فى ٢٢ فبراير ١٩٧٠ استدعيت لمقابلة رئيس إدارة تنظيم اتصالات أركان حرب الجيش، اللواء ب. س. بيزروتشكووالذى قدمت له أوراق التخلى عن منصبى الحالى والاستعداد للسفر فى مهمة للخارج، حيث سأعمل نائبًا لرئيس الاتصالات اللاسلكية. وقد تلقيت التعليمات والأوامر التنفيذية من ضابط قسم الاتصالات العقيد ا. ا. إيفانوف والذى أصبح الآن فريقًا أول متقاعدًا. ومن المناقشات فهمت أنهم بصدد إرسالى إلى مصر (الجمهورية العربية المتحدة) لأكون تحت قيادة كبير المستشارين العسكريين الفريق أول كاتشكينا.

تم فى موقع نقطة الاتصالات الميدانية لأركان حرب الجيش تشكيل نقطة الاتصال التى كان عليها خدمة جهاز كبير المستشارين العسكريين من الوحدات المركزية. وكان على عاتق تلك الوحدة مهام صعبة، ذلك أن هناك مجموعة ضخمة من المستشارين تخدم خارج حدود بلادنا، وكانت قضية وجود اتصال يمكن الاعتماد عليه بشكل دائم، أمرًا فى غاية الأهمية. كان العديد من الضباط والرقباء فى الوحدة التى تم تشكيلها ممن عرفتهم فى أثناء خدمتى. كان الجميع على درجة عالية من المهنية والتخصص. وتم الانتهاء من تشكيل وحدة الاتصال بنهاية يوم ٢٤ فبراير، وتم تمويه المعدات لتبدو كأنها عربات للمعدات الزراعية وتحركت القافلة العسكرية.

فى ليلة يوم ٢٥ فبراير، وصلت المجموعة إلى محطة نقل البضائع "كراسنايا بريسنيا" بموسكو، حيث تمت تعبئة الوحدة بأكملها فى القطار وكنا فى الصباح بعيدين كل البعد عن موسكو. تمت تلك العملية فى إطار سرى للغاية. وقد كانت

وجهة الرحلة معلومة لقائد محطة السكك الحديدية فقط للمحطة التالية، ولم يكن أحد يعلم أى شىء عن تفاصيل الرحلة بأكملها. وكانت هناك محطات توقف قليلة، وتم نقلنا بسرعة. وفى ٢٧ فبراير كنا قد وصلنا إلى ميناء نيكولاييف.

تم تفريغ المعدات بمجرد الوصول، وتم تفريغها على رصيف الميناء، ثم شحنها على السفينة الضخمة "أليكساندر بوشكين"، التى استوعبت عنابرها الكثيرة جميع معداتنا وكذلك العربات والأسلحة وأطقم الأفراد، ليست تلك الخاصة بوحدتنا فقط، ولكن أيضا تلك الخاصة بوحدات أخرى لكتائب الصواريخ المضادة للطائرات وليس وحدتنا فحسب، حيث كان الجميع متجهًا إلى مصر.

حينما انتهينا من عملية الشحن المجهدة، فى ظل البرودة القارسة والرياح الشديدة، خلعنا جميعًا الملابس العسكرية وارتدينا ملابس مدنية، وسلمنا ملابسنا العسكرية ومستنداتنا وخطاباتنا ومفكراتنا وكل ما يدل على هويتنا العسكرية السوفييتية على رصيف الميناء قبل أن نبحر. وكان يجب على الأيام التى قضيناها فى عرض البحر أن تسمح لنا بالتعود على فكرة أنه سوف يكون علينا أن نعيش و نخدم بعيدًا عن الوطن.

مرت الرحلة على ما يرام، بل واستطعنا أن نستريح بعض الوقت فى أثناء الرحلة التى لم تكن طويلة جدا، ولكننا لم نستطع الظهور على سطح المركب لأسباب معلومة. مر الوقت بسرعة، وفى الأيام الأولى من شهر مارس وصلت الحاملة "أليكساندر بوشكين" إلى ميناء الإسكندرية. وبينما كانت درجة الحرارة منذ بضعة أيام فى مدينة نيكولايف ١٨ درجة تحت الصفر ولم نكن قد تأقلمنا بعد، كانت درجة الحرارة فى الإسكندرية ١٨ درجة فوق الصفر، وهو الأمر الذى أدهشنا جدا جميعا، ولكنه أسعدنا كثيرًا. كان الكثير هنا جديدا علينا، وغريبا، وبالذات على خلفية التغيير السريع للظروف المحيطة. فقد سافرنا لننجز مهمة عادية، ولكن أتعب وجدان كل منا الانتظار وتوقع المجهول الذى تعرفنا عليه بمجرد إنزالنا، على الرغم من أنه لم يكن لدينا الوقت للدخول فى تفاصيله. كان علينا فى المقام الأول تفريغ المعدات، وتمويهه وتشكيل قافلة الحركة على رصيف الميناء. فى الوقت ذاته ارتدينا الزى العسكرى المصرى، ومنذ تلك اللحظة لم يعد هناك أى علامات تميز الأفراد، ولم يكن من الممكن التعرف على أى أحد إلا من

خلال ملامح الوجه، واختلط القادة بالمرءوسين فى كتلة بشرية كبيرة لا يمكن تمييزها من بعيد عن الوحدات العسكرية المصرية. قبل تحركنا تسلمنا وجبة جافة من الجيش المصرى، كانت تتضمن مشروبات وفواكه لم نرها من قبل.

تحركنا فى أثناء الليل فى قوافل من الميناء ووصلنا صباحًا إلى واحة خضراء فى وسط الصحراء المقفرة. وبدأنا فى أثناء النهار وتحت ظلال النخيل فى تلوين المعدات باللون الأصفر، لون الصحراء. وبحلول الليل تحركنا فى مجموعات مكونة من ٢ ـ ٤ مركبات بدون أى أنوار بغرض التمويه، وبمسافة ٢٠٠ ـ ٣٠٠ متر، تفصل كل مركبة عن الأخرى متجهين إلى القاهرة على طريق الإسكندرية ـ القاهرة. كان الطريق مضاءً إضاءة خافتة للقمر، وأحيانًا ما كنا نقابل بعض الرمال التى غطت الطريق من جراء الرياح، وهى ذكرتنا آنذاك بالثلوج التى أحيانًا ما تغطى الطرق فى بلادنا. وكانت النجوم كبيرة ومنخفضة فى سماء إفريقيا المعتمة، والتى كانت من القرب بحيث يظن المرء أنه يستطيع الإمساك بها.

تحركت القافلة فى هدوء، وبسرعة معقولة، مع أن المسافات بين المركبات كانت تزداد مع الظلمة، وكانت القافلة تمتد لعدد من الكيلومترات.كان الاتصال يتم بين المركبات بالوسائل اللاسلكية، وكان يتم إبلاغ قائد القافلة الموجود فى المركبة الأمامية عن العلامات المميزة التى يمر بها آخر من كان بالقافلة. وفى القاهرة كان فى استقبالنا ضباط قسم العمليات التابع لكبير المستشارين العسكريين، والذين قادونا لموقع الانتشار القتالى.

قبل وصولنا، كانت مجموعة صغيرة من ضباط الاتصالات هى المسئولة عن الاتصال اللاسلكى لكبير المستشارين العسكريين. كان لديهم وسيلة اتصال تلغرافى أوتوماتيكى مشفر، والتى كانت تستخدم قناة مؤجّرة فى الجمهورية العربية المتحدة. وكانت المجموعة بقيادة الرائد دودكين، وكان فى تلك المجموعة م. ى. فورسين، ج. كافناتسكى، ب. ى. فولكوف، ا. ى. فيليتشكو وآخرون.

بعد وصولنا للمكان، بدأنا فى تركيب المعدات، وتجهيزالأسلاك ووسائل الاتصالات اللاسلكية فى الخنادق. وبعد خمس ساعات، بدأت وسائل الاتصالات جميعها فى العمل، وبدأ الاتصال اللاسلكى فى موعده المحدد.

فى البداية تم تركيب وسائل الاتصال الهاتفى ونظام الاتصال السرى المشفر عالى الجودة بدون الخروج إلى الأثير. وقام بضبط قناة الاتصال اللاسلكى المهندس س. بيتريك، والمتخصص فى اللاسلكى ى. ا. افرامينكو، وميكانيكى الاتصالات اللاسلكية ن. ف. أليشينكو.

ومن خلال قناة الاتصال تلك دارت أحاديث بعد ذلك بين رئيس مجلس الوزراء بالاتحاد السوفييتى سابقًا ا. ن. كوسيجين، والذى كان فى زيارة رسمية لمصر، مع ل. ا. بريجنيف الذى كان موجودًا فى تبيليسى فى تلك اللحظة. وبعد الانتهاء من تلك المكالمة اللاسلكية توجّه كوسيجين خصيصًا لوحدة الاتصالات للتعبير عن تقديره وشكره لمتخصصى الاتصالات على عملهم الممتاز. بعد ذلك استخدم تلك القناة ن. ف. بودجورنى رئيس المجلس الأعلى للسوفيات بالاتحاد السوفييتى، وسكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى ب. ن. باناماريوف، والقائد الأعلى للقوات المسلحة بالاتحاد السوفييتى م. ف. زاخاروف، ونائب وزير الدفاع س. ل. سوكولوف، والسكرتير العام للجنة المركزية لاتحاد الشباب الشيوعى ى. ن. تياجيلنيكوف، ورواد الفضاء فالينتينا تيريشكوفا وأندريان نيكولاييف.

لابد هنا من الإشارة إلى ارتفاع مستوى المسئولية والمهنية العالية لكل من عاملى الاتصالات ى. افرامينكو، ا. مارتيانوف، ب. فولكوف، ا. بيليتشكو، ج. كافناتسكى، وقدرتهم جميعًا على التنظيم والتنسيق لضبط قنوات الاتصالات. وكان للرائدين ف. ف. كورسونوف وف. ا. تيخونينكودور شديد الأهمية فى تأمين سرية الاتصالات اللاسلكية، وكان للمهندسين س. بيتريك، س. يورين، ب. لاجوتين، كوربوسينكو، ف. س. إيفانوف، وغيرهم الفضل فى تأمين سرية المكالمات التليفونية والتلغرافات. كانت حياة أولئك المتخصصين معتمدة على القائد المحبوب من جميع العاملين فى وحدة الاتصالات، والذى دائمًا ما كان سريع الإدراك، والبديهة العسكرية، قائد القسم الإدارى النقيب م. ن. كوفالينكو، والذى بفضله كان الأفراد يحصلون على المأكل والمشرب والملابس ومستلزمات القتال فى وقتها.

كان عمل نقطة الاتصالات الميدانية التابعة لكبير المستشارين العسكريين فى مصر تعتمد بشكل حيوى على جهود كل من الضباط: رئيس الاتصالات (العقيد

ف. ا. جاموف)، نائب رئيس الاتصالات اللاسلكية (المقدم ن. ف. سيدورينكو)، رئيس وحدة الاتصال (المقدم كوزلينكو)، نائب رئيس الاتصالات للشئون الفنية (الرائد ى. ا. تيخونينكو)، نائب رئيس الاتصالات للشئون السياسية (الرائد و. ب. شيجوليا).

تضمنت نقطة الاتصال: قسم التليفونات الأوتوماتيكية، والاتصال التلغرافى الأوتوماتيكى السرى (الرائد ى. ا. تيخونينكو)، قسم الاتصالات التليفونية السلكية، ومحطة التليفونات الأوتوماتيكية (الرائد ف. س. إيفانوف)، وقسم أجهزة الاستقبال اللاسلكية، وأجهزة الإرسال اللاسلكية ذات القدرة العالية، قسم أجهزة الاستقبال والإرسال ذات القدرة المتوسطة (الرائد نوفوساديوك)، وقسم البريد والبرقيات عن طريق جنود المراسلة، وقسم وحدات الكهرباء الذاتية.

وشمل تنظيم الاتصالات توفير الاتصال السلكى بين جميع وحدات القوات السوفييتية، والاتصال السلكى مع جميع المستشارين العسكريين فى المناطق العسكرية كافة وميادين الحرب فى الجمهورية العربية المتحدة، حيث كان قسم البريد مسئولاً عن توصيل الخطابات والجرائد إلخ، إلى جميع وحدات الجيش السوفييتى الموجودة على أرض الجمهورية العربية المتحدة، وكان نظام الاتصالات التليفونية الأوتوماتيكية السرية اللاسلكية القاهرة ـ موسكو، ونظام الاتصال التلغرافى اللاسلكى الأتوماتيكى السرى بين موسكو والقاهرة (قناتين)، والاتصال المشفر اللاسلكى القاهرة ـ دمشق، القاهرة ـ الإسكندرية، القاهرة ـ منطقة البحر الأحمر العسكرية، القاهرة ـ أسوان، والقنوات اللاسلكية العاملة ٦٠٠ ـ T القاهرة ـ قول السفن الخامس.

وقد تلقيت عن طريق مستشار الاتصالات اللواء فيتيسوف الأوامر بتحليل معطيات القنوات اللاسلكية على الأراضى المصرية، للتنسيق بين الوحدات. وقد ساعدنى فى ذلك مترجم اللغة العربية ج. ف. جارياتشكين، حيث كانت إدارة القوات والتنسيق بين الوحدات يتم فى سرية، وبتركيز وتحديد شديدين. وكان الاتصال اللاسلكى مع موسكو يتم من خلال استخدام الترددات الدولية المخصصة للجمهورية العربية المتحدة. كان العمل يتم جنبًا إلى جنب مع الجنود المصريين الذين تلقوا تعليمهم فى المعاهد السوفييتية. وكانت العلاقات الدافئة

معهم هى ما كان يسهل من المصاعب التى نلاقيها يوميًا، وساعدت معرفتهم باللغة الروسية من ناحية وبمعداتنا من ناحية أخرى فى تنفيذ أعقد المهام فى أسرع وقت.

ولتنظيم موضوع الاتصال بالقوات كان علينا السفر بأنفسنا إلى المناطق العسكرية فى البحر الأحمر وأسوان، وزيارة الآلاءات السوفييتية، ووحدات الطيران المقاتل السوفييتى هناك، ووحدات الدفاع الجوى وأسراب طائرات الحرب الإلكترونية اللاسلكية، وسفن القول الخامس..

وكان المستند الوحيد الذى يثبت هويتى، هو بطاقة منحها لى المقدم المصرى البرديسى، المسئول عن حركة العسكريين السوفييت فى مصر وكان هذا المستند مكتوبًا باللغة العربية بخط اليد، بطلب تقديم كل العون والمساعدة لحامل هذا المستند. ويجدر القول بأن ذلك المستند قد حقق فائدة فى اللحظات التى احتجت إليه فيها، ولو لم يكن يوحى بشىء محترم.

مضى العمل على ما يرام، وتأقلمنا بمعدل سريع. ولكن المصاعب كانت تتمثل فى شىء آخر، فقد كان الطقس الحار بالنسبة لنا غير معتاد وصعب. كان من ضمن أغانى الأفلام السوفييتية القديمة أغنية من فيلم "الذراع الماسية" وقد وضع عليها زملاؤنا كلمات كنا نغنيها مع الجيتار فى أوقات الفراغ، وكان الكوبليه يقول:

"ليست تلك مدينة الهافر أوجيليندجيك[٨١]، فكم يعانى رجالنا الروس من الحرارة فى إفريقيا".

لقد مرت على تلك الأيام ثلاثون عامًا، فنسيت الكثير، وفقدت الأحداث نبضها. فما ظننته وقتها صعبًا وقاسيًا، أتذكره الآن وكأن شيئًا لم يكن. فى ذلك الوقت ظننا أن الأيام والأسابيع والشهور تمر حثيثًا وفى بطء شديد. ولكن الزمن لم يتوقف آنذاك. وفى يونيو ١٩٧١ تلقيت الأوامر بالوجود فى أركان حرب فرقة الدفاع الجوى. وهناك أبلغونى بأن على أن استقبل بديلى، وتدريبه على الأجهزة،

---

(٨١) منتجعان بالقوقاز على ساحل البحر الأسود، يشتهران بالمصحات.

وتسليم المعدات له والاستعداد للعودة للوطن. كان تحديد المواعيد كالعادة ضيقًا جدا فى الوقت. وتم تعيينى آنذاك رئيسًا للمجموعة المغادرة. وبهذه الصفة كان مكانى فى السفينة فى العنبر الفاخر رقم ١ على السفينة "روسيا".

حضر البديل فى موعده، وتم نقل كل الأمور بطريقة طبيعية، ولم يكن هناك أى فقد للاتصالات. وقمت بجمع أشيائى البسيطة وإعداد حقائبى، وجاءت لحظة وداع مصر. تم نقلنا من أماكن تمركزنا إلى ميناء الإسكندرية؛ حيث كانت تنتظرنا السفينة "روسيا". واتصلت بالقبطان ومساعديه بمجرد صعودى إلى السفينة كما هو متعارف عليه، وشرحت له الوضع وقدمت مطالبنا وتوصياتنا لطاقم السفينة.

فى تلك المرة عدنا على ظهر السفينة فى عنابر، وكان بإمكاننا الصعود لسطح المركب ولم نكن مختبئين مثلما حدث فى طريق الذهاب، لأننا كنا مسافرين إلى هناك كسائحين. لذلك كان من حقنا الاستمتاع بالبحر والسفن المقابلة ومنظر البوسفور... ومضى الوقت دون أن نحس به، وها هنا نقف أمام ميناء أوديسا. ولكن السفينة لم ترسُ هناك، بل حولت وجهتها إلى ميناء نيكولايف حيث كن قد بدأنا رحلتنا إلى إفريقيا.

نزلنا إلى البر، وهنا انتهت رحلتنا البحرية والتى كانت أفضل بكثير من رحلتنا البحرية الأولى، وكان من المحزن أن نفارق السفينة الخلابة. وبعد إجراءات الحجر الصحى، سافرنا بالقطار إلى موسكو، إلى أركان حرب الجيش بقاعدة نقطة الاتصال، حيث تم حل المجموعة ورحل كل منا إلى وحدته التى تم انتدابه منها.

لم نعد جميعًا للمنازل، كان هناك فقدان مؤثر للبعض. فلتتغمد الرحمة أولئك الأبطال الذين لم يقدر لهم رؤية روسيا مرة أخرى!

أكمل العديد منا بعد العودة الخدمة فى القوات المسلحة. ولم أعد أعلم أى شىء عن مصيرهم. أما عن نفسى فقد خدمت أربع سنوات فى جهاز رئيس قوات الاتصالات بوزارة الدفاع بعد عودتى من مصر وتركت العمل لدواعى المرض فى ١٩٧٥.

فى الوقت الحالى أقطن فى مدينة [خيمكى] بضواحى موسكو. ولازلت على اتصال بكثير ممن خدم فى إفريقيا وفى أماكن أخرى كانت الخدمة فيها غير معتادة. أعتذر لكل من لم تسعفنى الذاكرة بتذكر أسمائهم، أتذكر جميع الوجوه ولكن الأسماء كثيراً ما تسقط من الذاكرة. إننى أتذكر بكل دفء وتقدير زملائى الذين اقتسم معهم أجزاء من ذكرياتى، وأتمنى لهم جميعاً الصحة والعافية.

بين جدران أركان الحرب العسكرية المصرية

أ. أ. فيلونيك

كانت حرب عام ١٩٧٣ هى آخر الحروب الكبيرة وانفجار دوامة الصراع العربى الإسرائيلى. ثم كانت لبنان، ومن بعدها بعض العمليات العسكرية المحدودة ضد الفلسطينيين والمتحفظين من الأحزاب الدينية والمنظمات الأخرى، والضربات الجوية والعمليات السرية، وحرب الاستنزاف والصراع المضنى من أجل التساوى. ولكن حرب ١٩٧٣ كانت هى الحرب التى وضعت نهاية للحروب العسكرية المفتوحة والتى لم يكن الصراع فيها بين العرب واليهود فحسب، والذى طالما دار نزاع على الأرض والمياه بوصفهما العاملين الأساسيين للبقاء فى تلك الظروف البيئية الصعبة، وإنما اتسع ذلك الصراع ليعبر بشكل يزداد وضوحًا عن سوء الفهم المتنامى بين العالم المتقدم صناعيًا والعالم النامى.

كذلك فقد أثرت تلك العادة السيئة للقوى العظمى فى تصفية الحسابات العالمية بين النظامين العالميين، من خلال النزاعات الإقليمية وتقسيم عواطفها بين اليهود والعرب، الأمر الذى أكسب الصراع قسوةً وعنفا وأدى إلى تسييس كل النزاعات، التى كان من الممكن أن تحل على طاولة المفاوضات. لقد ظهر أثر عدم جدوى الحروب المتتابعة (١٩٤٨ ـ ١٩٥٦ ـ ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣) فيما بعد. الآن تسود تغيرت فيه القوالب النمطية. نظريات تضع أساسًا للتفكير الواعى لعمليات التنمية، أساسًا لمفاهيم السلام والأمن القومى فى تلك البقعة الساخنة دائمًا من كوكب الأرض، الأمر الذى تؤكّده ديناميكية عملية حل مشكلة الشرق الأوسط الشاقة والتى لا تخلو من أمل فى الحل الأفضل.

قد يكون من قبيل استباق الأحداث أن نقرر أن العداوة فى الشرق الأوسط فى سبيلها إلى الانقراض، حيث كانت الأحداث المهمة فى أكتوبر ١٩٧٣ هى الخطوة

الأولى نحو ذلك. ولكن من المؤكّد أنه فى ذلك الوقت تحديدًا ظهر الوعى من كلا الطرفين بالخسائر الواضحة التى ستؤدى إليها الطرق العسكرية لحل النزاع، واتضح عدم جدوى التناقض الإقليمى العام العربى، وعدم جدوى اللجوء للخيار العسكرى من جانب الإسرائيليين، والذين لم تستطع المكاسب المعنوية من النصر أن تزيل القلق أو أن تحسن الأوضاع الأمنية الناتجة عن الخصم المحارب باستمرار.

يشهد تاريخ الصراع العربى ـ الإسرائيلى بأكمله على خطورة الانتقام. فقد كان الانتقام منتظرًا ومنطقيًا فى الستينيات والسبعينيات من القرن الماضى نظرًا للمآسى التى عانى منها الشعب العربى، المذل والمهان من قبل إسرائيل التى أتاح لها تفوقها العسكرى الوصول لتلك النتائج بسهولة. كانت حرب عام ١٩٧٣ رد الفعل المنطقى والعادل للشعوب العربية الأساسية، التى تقع على خط المواجهة مع إسرائيل ضد الذل العنصرى الذى تمارسه بعد تفوقها فى حرب عام ١٩٦٧، والذى لم تكن لدى الشعوب العربية القدرة على النهوض من توابعها دون مساعدة خارجية. لذلك كان التوجه نحوالاتحاد السوفييتى هو المخرج الوحيد المتاح من ذلك الموقف الصعب. وكانت مسألة معالجة الموقف من قبل الاتحاد السوفييتى على قائمة الأولويات الاستراتيجية للدولة، ومع أن معالجة الموقف لم تتحقق بشكل كامل نظرًا للمشهد السياسى فى أوائل السبعينيات من القرن الماضى، فإن الجهد المبذول فى تحقيق تلك الأهداف أتى ثماره فى حرب عام ١٩٧٣ .لم تذهب الدروس المستفادة من حرب عام ١٩٦٧ هباءً، يعود ذلك بشكل أساسى لأن الزمن بين يونيو١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٧٣ قد شهد حقبة جديدة ليس فقط فى العلاقات السوفييتية المصرية ولكن فى ظهور الجيش المصرى من العدم، وتبوئه مكانة رفيعة مستحقة بين أكثر الجيوش العربية تقدمًا الأمر الذى لم تضن فيه دولتنا بالمساعدة.

لقد عشت فى مصر فيما قبل حرب عام ١٩٦٧. وكان المشهد من الخارج لدولة مسالمة ذات مسئوليات جسيمة (نظرًا لزيادة عدد السكان، بالنسبة لحجم الأراضى القابلة للزراعة.) وكانت الجهة السيادية الوحيدة التى نراها فى الحياة اليومية فى أغلب الأحيان هى الشرطة، والتى انتشرت عناصرها فى كل مكان،

وكان شكل عساكر البوليس مألوفًا ومسالمًا. ومع أن الصحف فى ذلك الوقت كانت قد امتلأت بالشعارات القتالية التى تتوعد العدو بالهزيمة والتدمير، فإنه لم يكن هناك أى مظهر من مظاهر الحياة يدل على قرب اندلاع مواجهات عسكرية. ومن المشاهد الوحيدة التى أذكرها من هذه المجموعة، هى الملصقات الجدارية المملة التى تحوى شيئًا ما تحت حذاء مصرى. كان من الغريب متابعة العواطف المشتعلة على صفحات الجرائد جنبًا إلى جنب مع الهدوء التام، والذى كان على ما يبدو يسود فى العنابر والمعسكرات، والتى أظهر الجزء الموجود منها فى المدينة استرخاءً أكّد على الالتزام الاستثنائى للجنود المصريين وهم يتحركون على أنغام اللحن الشهير "كالينكا" وقد عزفته فرقة نحاسية عسكرية رديئة.

وكما كانت الطلقات الأولى فى تلك الحرب مفاجئة وغير متوقعة، كان الأثر الأدبى والسياسى لها عميقًا على العالم العربى، وبشكل خاص على الدول المتصارعة على خط النار من الجانب العربى.

كان رد الفعل فى موسكو على العدوان ضد العرب، من خلال تنظيم مظاهرة شعبية مناهضة للعدوان من قبل جهات عليا، ولكن السلطات حاولت تجنب المظاهرات الفرعية التى كانت تقوم بتنظيمها الجاليات العربية المقيمة آنذاك فى الاتحاد السوفييتى. فقد كانت الحمية والمشاعر الملتهبة من القوة، بحيث إن الشرطة لجأت إلى طلبة السنة النهائية من قسم اللغة العربية بكلية اللغات الشرقية بعد أدائهم الامتحانات الرسمية للغة العربية مباشرة لتنظيم حركة الطلبة العرب التى قد تتوجه نحو السفارة الأمريكية أو سفارات أخرى لدول أوروبا الغربية. وكنا لا نزال تحت ضغط قلق الامتحانات نجلس فى سيارات الفولجا ننتقى الكلمات العربية التى تعبّر عن صرامة السلطات السوفييتية فى الحفاظ على الأمن العام، فى الوقت نفسه كنا نحاول ألاّ نثير حفيظة العرب بتعبيرات جارحة. ولكن كل ذلك ذهب هباءً، لأن المظاهرة كانت قد ألغيت من قبل الجهات العليا ولم تحدث. هكذا كانت انطباعاتى الأولى عن الحرب فى الشرق الأوسط، ولم يدر فى مخيلتى أننى سوف أكون فى المستقبل القريب أحد المشاركين بشكل أو بآخر فى كل القضايا المتعلقة بإزالة آثار تلك الحرب من خلال الدخول إلى أروقة أركان الحرب العسكرية المصرية، وإلى إدارة التجنيد والتنظيم التى تتحكم فى كل شىء فى الجيش.

الحاجة للعون أوسع من ذلك بكثير. لذا كان من الضرورى أن تشمل المساعدة إلى جانب الشق التقنى العسكرى. لقد تجسد المفهوم الراسخ الخاص بأممية الشعب السوفييتى والرغبة الروسية الحقيقية فى مساعدة الضعيف، وتجسدت الأوامر المكررة المحفوظة عن ظهر قلب بشأن الصراع الإيديولوجى ضد الإمبريالية والصهيونية وردود الأفعال، تجسد كل ذلك فى المساعدة العسكرية لمصر والدول العربية الأخرى التى ذاقت الهزيمة على يد العدو اللعين.

فى ذلك الوقت ذهبت إلى مصر مجموعة من الخبراء العسكريين السوفييت، الذين ساعدوا العسكريين المصريين فى التعرف على المعدات العسكرية التى تم تسليمها بكميات كبيرة لمصر. ولكن مجموعة محدودة من الخبراء العسكريين الفنيين، لم تكن لتفى بالغرض فى استعادة الجيش المصرى للياقته، ولم تكن الحاجة للخبراء فى المراكز الفنية وحدها، بل كانت فى المشاركة فى تنمية الجيش المصرى على جميع مستوياته وتحديثه فى أقصر وقت ممكن، وتعليم العسكريين المصريين الاستخدام الأمثل للقدرات القتالية للقوات المسلحة، وتعليمهم حرفية العمليات القتالية المختلفة ورفع مستوى الاستعداد التكتيكى للقيادة العسكرية فى المواقع المختلفة من الجيش. بتعبير آخر كان الهدف إعادة تأسيس الملف العسكرى للدولة بداية من إعداد النظم المختلفة إلى إعادة تأهيل الكوادر العسكرية.

لقد كانت المهمة المطلوبة ضخمة للغاية وصعبة فى تنفيذها. وكان دور المترجمين العسكريين فى القيام بتلك المهمة دورًا محوريًا. فقد كان أولئك المترجمون حلقة الوصل بين الضباط السوفييت والمصريين. وبدون مبالغة نستطيع القول بأنه لولا شبابنا من خريجى معاهد اللغات فى شتى المدن والأقاليم فى الاتحاد السوفييتى، فإن كثيرًا مما حققناه آنذاك من أهداف القيادة السوفييتية وبخاصة فيما يتعلق بأسس التعاون العسكرى الفنى والإيديولوجى بين الاتحاد السوفييتى ومصر لم يكن ليتحقق.

كانت المهمة الاستراتيجية الخاصة بإعادة بناء القيم والمبادئ التنظيمية للجيش المصرى بأكمله تتطلب مدخلاً جديدًا للنظر فى قضايا الأشكال الأخرى التنظيمية والفنية للتقارب العسكرى بين الاتحاد السوفييتى وأكبر دولة فى منطقة الشرق الأوسط. وعلى ما يبدو فلم تكن هناك خطط مسبقة، ولكن كان

من الواضح أن المهمات الجديدة كانت تعنى تحويل معهد الخبراء العسكريين إلى معهد المستشارين العسكريين. ولتنفيذ ذلك وفى سبتمبر ١٩٦٧ بدأت فى الوصول مجموعات كبيرة من العسكريين السوفييت على المستويات كافة، هدفها نقل الأفكار والتصورات بشأن الوضع العسكرى المصرى للعسكريين المصريين، وتغيير فكر الخدمة العسكرية فى وعى العسكريين المصريين، وتغيير صورتهم عن العسكرية وإطلاق آفاق العلوم العسكرية للضباط المصريين ونقل المعرفة العسكرية الحية لهم.

تم الإعلان فى ذلك الحين عن طلب مترجمين، وبين أولئك أتيحت لى الفرصة كى أزور مصر مرة أخرى والتعرف على الواقع المصرى، ولكن على الواقع العسكرى لا الواقع المدنى. فى الحقيقة كنت من ضمن الفريق الذى وصل إلى مصر قبل أن تتضح صورة التوسع الكبير للوجود العسكرى السوفييتى. حتى أن الانطباع فى البداية كان أن عدد مترجمى اللغة العربية كان أكثر من اللازم. وكان تكليفى بمرافقة مجموعة الأركان الموجودة فى حى الزمالك الراقى، وكنا نسكن فى شارع المعهد السويسرى. كانت كثير من المؤسسات الروسية موجودة بذلك المربع السكنى. فبجانبنا كانت هناك اللجنة الحكومية للعلاقات الاقتصادية، وكذلك إحدى الفيلات السوفييتية وبها مطعم هادئ تحت أشجار النخيل الخضراء، وعلى الجهة المقابلة من الطريق ملعب للتنس. وقبل أن تبدأ الآلة العسكرية السوفييتية فى العمل المزدحم كانت التفاصيل الحياتية اليومية هادئة وبطيئة. على المستوى الشخصى فلم أكن مشغولاً سوى بتدريس اللغة العربية لبعض أعضاء البعثة العسكرية، والذين زاد عددهم بشكل مضطرد مما أثر على العملية التعليمية. ولكننى استطعت تقليل عدد المتحمسين من خلال شرح مختصر لماهية اللغة العربية، بينما انقطع عدد آخر عن الدراسة بعدما تأكدوا أنه من الصعب التحدث بالعربية بطلاقة فى ظرف شهرين. ولكن تعليم البقية من المثابرين انقطع بشكل فجائى حينما تم انتدابى للترجمة فى الإدارة الفنية والعلمية للقيادة العسكرية، ولم تتح لى الفرصة بعد ذلك تحقيق آمالى التربوية، ذلك فى أن عدد المترجمين الشاغرين انخفض مع الزمن.

كنت المترجم الوحيد فى الإدارة العسكرية والعلمية لهيئة أركان الحرب، لذلك كنت فى عزلة وكان ذلك من دواعى قلقى الشديد. فكان بحثى المستمر عن عمل

مملا، وأنا أتابع عشرات من زملائى مترجمى الإنجليزية، وهم يترجمون إلى الإنجليزية السلسة نشرات الاستخدام وآليات العمل للمعدات القتالية. وكان الزملاء يتضاحكون وهم يقومون بترجمة المصطلحات الروسية من الإرشادات العسكرية السوفييتية المشتقة من الطبيعة الجغرافية فى بلادنا بأسلوب آلى إلى الواقع المحلى المصرى الذى لم تكن توجد به أشجار بتولا تقف منفردة أو طواحين وما إلى ذلك من المصطلحات، التى تمثل علامات استرشاد أساسية فى أثناء عمليات القتال. وددت لو أصارح العقيد ستوكالوف أننى قد أكون مفيدا كمترجم للغة الإنجليزية أيضًا، ولكن أحد الحكماء من المترجمين نصحنى بالتخصص فى اللغة العربية لتجنب التحول الكامل والنهائى للغة الإنجليزية فى ظل الصرامة العسكرية والعقلية العسكرية المحددة التخصصية. كذلك فقد جاء موقف عارض ليؤكّد لى رغبتى فى التفرغ التام للغة العربية، وكان ذلك حينما وصلنى من الإدارة نص بسيط وقصير لترجمته إلى اللغة العربية، وقمت بترجمته فى خمس دقائق. وبعد عشر دقائق أعادوا لى النص ذاته وقد شطب عليه بقلم رصاص أحمر وألقوه على الطاولة أمامى كلغم حارق يعبر عن عجزى المهنى. وبعدما تخطيت تلك الفضيحة علمت أن الأخطاء كانت تخص المصطلحات العسكرية وحدها ولا تخص النحو أو التعبير فقد كانت المصطلحات العسكرية التى درسناها فى القسم العسكرى بمعهد اللغات الشرقية مختلفة عن تلك المستخدمة فى العسكرية المصرية، وكان المصحح السرى الذى قام بمراجعة النص الذى ترجمته هو المصرى شديد اللطف رائد الجيش/ زهدى وكان متزوجًا من روسية على ما أظن. لقد كان هذا الموقف من قبل العقيد الذى لم يكن متخصصًا فى اللغات درسًا مهمًا، وبما أن عملى لم يكن فى صميم تخصصى فقد شرعت بكل ما أملك من قوة فى التعرف على المصطلحات العسكرية، وبرعت فى ذلك لدرجة أننى تمكنت فى ظرف أقل من شهر واحد بمساعدة المصريين ودراستى للأدبيات العسكرية من عمل قاموس يضم أكثر من ألف كلمة للمصطلحات العسكرية المصرية. ولم يسهم ذلك فى زيادة ثقتى بنفسى فحسب ولكنه سهل مهمتى فى المستقبل. من سوء الحظ فقط أن ذلك القاموس كان من نسخة وحيدة موجودة فى مكتبتى لتذكرنى بالوقت الذى لم يضع هباءً.

مر شهر العسل فى التعرف على هيئة أركان الحرب العسكرية من خلال الإدارة الفنية والعلمية سريعًا. وبينما كنت أحاول فهم عمل الإدارة، كان المستشارون السوفييت يصلون تباعًا ويشغلون أماكنهم فى هياكل الجيش المصرى. ثم جاء دورى فى العمل الجاد، والذى كنت مستعدًا له. فى ذلك الوقت كان التنافس بين المستشارين يدور بحمية حول مترجمى اللغة العربية، والذين كانوا عملةً نادرة. تم العثور على وأسندت لى مهمة الترجمة لأحد المستشارين الجدد، ذلك أن مترجمى اللغة العربية كانوا نخبة المترجمين الذين يجب أن يترجموا على أعلى المستويات. قد لا يكون الوضع كذلك تمامًا، ولكن الموقف كان يبدو بهذا الشكل فى تلك الأوقات. ومع ذلك كان من الغريب أن تسود علاقة فوقية من جانب الموظفين، فكان المترجم بمثابة أحد المستلزمات الإضافية للمعدات الحربية. فالحرب شىء والترجمة شىء آخر أقل جدية كما كانوا يعتقدون، بل إنهم ذهبوا فى بعض الأحيان إلى أن يقوموا بكتابة طلبات الانتداب إلى الجبهة على النحوالتالى: "مطلوب سيارة لثلاثة أشخاص، ويعنى ذلك للواء وعقيدين، ولمترجم". بعد سنوات طويلة، وفى بداية التسعينيات من القرن الماضى، قابلت تفكيرًا مشابهًا لذلك فى صحيفتى الكومسومولسكايا برافدا والإزفيستيا، حينما كان المراسلون الصحفيون إبان حرب الخليج "عاصفة الصحراء"، يتعاملون مع المترجمين بنفس الكيفية، بوصفهم "شيئًا" ملحقًا بأحداث أكثر أهمية وجدية. وبالطبع فإن ما أقوله ليس من وحى الخيال ولكنه فى الوقت نفسه لا يعنى دونية قيمة المترجمين الذين كانوا وسيظلون دائمًا أعضاء متساويين فى الحقوق لأى وفد أو مجموعة، ويتمتعون باحترام حقيقى من قبل الطرفين. ومع صغر الرتب التى يحملونها، فإن عملهم عمل محورى ضخم. وكانت المشاكل كثيرة. كان واجبنا دائمًا العمل على إتقان اللغة، حتى نكون أهلاً للمسئولية حينما تتعلق بكلماتنا ومصطلحاتنا فى الترجمة لمستويات أعلى مسائل الحياة أو الموت بالمعنى المباشر للكلمة. كان من واجبنا التعرف على دقائق العلوم العسكرية، حتى تتميز ترجمتنا بالدقة والاختصار، حينما يتعلق الأمر بترجمة تلعب فيها الدقائق والثوانى دورًا فاصلاً فى اتخاذ القرار. كان علينا أن ننسى أنفسنا، ونترجم لعشر ساعات أو يزيد دون انقطاع فى اليوم الواحد، وفى الوقت نفسه نقل أفكار المتحدث دون فقد. إن من يترجم يعلم تمامًا عما أتحدث. كان كثيرا ما كان يتم توبيخ المترجم

ونقده، ولكن كان كافيًا أن يشعر بمن يربت على كتفه تقديرًا لكى يحس بالعائد الأدبى للعمل المضنى. وللحق أقول إن تقديرنا كان يتم أيضًا بشكل أوضح من ذلك. حينما أصابنى إعياء شديد فجأة، جاءنى بعد مرور يومين من مكوثى بالفيلا التى كنا نقيم فيها، قائد سرية حرس القيادة العسكرية وبيده باقة زهور كبيرة مهداة من مدير الإدارة، وهو أمر لم أتعوده من قبل وبخاصة أن يكون إهداء الزهور تقليدًا بين الرجال، إلا أننى فكرت آنذاك أن المهم ليست الطريقة التى كان عليها إبداء الاهتمام قدر إبداء الاهتمام فى حد ذاته وتهوين شعور الوحدة. خاصة فى الظروف التى كنا نمر بها حيث إننا بعيدون عن الأقارب والأصدقاء والوطن، والجميع منهمك فى عمله.

كنت كشخص زار مصر من قبل وبشهادة موظفى شئون العسكريين ذا خبرة فى الأمر وهو ما دفع بى للعمل على أرفع المستويات، وتحديدًا فى الإدارة التنظيمية لهيئة أركان الحرب بالجمهورية العربية المتحدة مرافقًا للواء أليكسيى إيفانوفيتش كابانوف وعقيدين هما فاسيلى فاسيليفيتش بلوخين وإيفان فوميتش كيريتشينكو، وهم رجال أكفاء أحمل لهم ذكريات دافئة إلى يومنا هذا. لقد كان أولئك الضباط متفوقين فى عملهم، حريصين عليه ومولعين به، وعملوا بكل طاقتهم لتنفيذ المهام الموكلة إليهم. وبالمناسبة فقد كانت الأغلبية العظمى من المستشارين السوفييت على نفس الشاكلة. كان كثير منهم مخضرمًا فى الحروب، ومر بعضهم بجبهات الحروب فى الحرب العالمية الثانية. كانت معرفتهم لا تقدر بمال خاصة بالنسبة للعسكريين المصريين الذين كان الجيش عندهم كما هوالحال الآن فى اعتقادى يتبع النظم والتقاليد الإقطاعية، التى لازالت سائدة فى العديد من المجالات الاقتصادية، فى الريف، وحددت كثير من التفاصيل الحياتية لذلك الزمان.

ومع أن هزيمة الجيش المصرى كانت ساحقة، فإنه من الصعب الحديث عن عدم جدوى الهيكل العسكرى من الضباط. بالطبع كان هناك عدد من العناصر العشوائية التى دخلت الجيش بطريق الصلات أو النسب وشغلت المناصب المريحة. فى الدول النامية، حيث يكون الجيش هوالقوة التنظيمية والمفضلة لدى الجميع وهى التى تمتلك آليات التأمين الاجتماعى والخدمات، فيصبح دخول

الجيش أمرًا مفيدًا إلى جانب كونه قيمة أدبية وشرفية. ولم تكن مصر بهذا الصدد استثناءً. وبما أنه لم تكن هناك تقاليد عسكرية قتالية راسخة تعززها الحروب وتصقلها المعارك، فإن تلك الظروف أثّرت بشكل مباشر على العسكرية المصرية، وتحديدًا على العلاقة الشكلية للضباط بالعسكرية، والتى حلت محل الوظائف العملية والخصائص القتالية التى تراجعت إلى الوراء على حساب المظهر، أما الاستعداد القتالى فكان سيئا. فى حين أن العكس كان هو المطلوب، ذلك أن الجنود المصريين فى ستينيات القرن الماضى كانوا من الفلاحين الأميين ذوى الثقافة المحدودة، يخافون المعدات، لايفهمون الأوامر، يميلون طوال الوقت لاتباع حكمة الماضى ومقولات الأجداد التى تؤكّد أنه "من غير الحصافة أن تنتظر الخير من الحكومة، وعليك أن تحتال عليها قدر استطاعتك". ومن أجل عمل جيش مقاتل من تلك المادة الخام، كان من الضرورى إظهار إرادة حديدية وتصميم لإزالة تلك الأفكار والتصورات عن دور العنصر البشرى فى ظروف الحروب المعاصرة وتكريس الاهتمام بطرق التدريب وأشكاله للقيادات العسكرية والتى أحيانًا ما كانت تجابه مقاومة لعدم فهم جدواها وأهدافها أو للخوف من المجهول.

ونظرًا للطبيعة الوظيفية التى جعلت من الإدارة التنظيمية للقيادة العسكرية الجهاز المنوط به وضع النظم أتيحت لى الفرصة للتعرف على عدد من الجوانب الوظيفية لهذا الجهاز الجبار، والذى كان مسئولاً عن وضع استراتيجيات العمليات العامة للآلة العسكرية المصرية. كان حجم المنشأة الضخم وشكلها يعبران عن الدور الوحيد والأكبر للقيادة العسكرية. فقد كانت تلك الهيئة العسكرية العليا للدولة تقع فى أحد الضواحى النائية للقاهرة، خارج حدود المدينة تقريبًا. ومن حافة المبنى الأسمنتى متعدد الطوابق للقيادة تبدأ الصحراء فى الامتداد. ولم تكن هناك أى ضواح سكنية بالقرب، من المبنى باستثناء برجين لمعيشة الضباط، واستاد رياضى رمادى اللون، يبدو أنه تم بناؤه للمستقبل، فلم نكن نلمح هناك أى إنسان. الآن من الصعب التعرف على ذلك المكان حيث امتدت طرق جديدة وعبدت طرق للعروض العسكرية وارتفعت المبانى السكنية والمجتمعية وظهرت المساحات الخضراء.

من الداخل بدت هيئة أركان الحرب ميتة، وأكدت هذا الانطباع الممرات الطويلة الفارغة. ولكن خلف الأبواب الزرقاء للمكاتب كانت الحياة العسكرية

تموج بالغليان. من الصعب الحكم عما كان موجودًا هنا من قبل، قبل وصول العسكريين السوفييت. وحتى إذا كان الوضع هنا هادئًا قبل وصول السوفييت فإنه بوصولهم تغير إيقاع الحياة فى هذا المبنى بشكل مكثف. كانت الإدارة التنظيمية والإعداد القتالى والتنظيمى فى مركز الأحداث، وكانت طاقة التوتر للعاملين تصل إلى ذروتها. كان الإيقاع المتسارع يؤثر بشكل خفى، على عكس المظهر الذى كان يعطى انطباعًا أن العمل هنا أكثر هدوءًا من العمل على الجبهة فى مسرح الأحداث، إلا أن التوتر والقلق كانا بنفس الدرجة. إن العقل العسكرى للدولة لابد وأن يكون يقظًا ودقيقًا ومحددًا طوال الوقت وبخاصة فى الأوقات الحرجة. فالأوامر المكتوبة على الورق من قبل القادة العسكريين تؤمن التنسيق بين بحر من البشر والمعدات العسكرية، والتى تتحرك بحرية فيما بينها، الأمر الذى قد يؤدى إلى عدم الاتصال فيما بينها وكسر الحواجز الزمنية. ولتجنب ذلك السيناريو للأحداث فإنه يجب بدء تعديل الوضع فى الجيش من رأسه، أى من هيئة أركان الحرب، التى بدأت نهضتها مباشرة بعد حربها غير الموفقة.

من حيث الهيكل فإن تلك الهيئة المركزية للإدارة القتالية للجيش المصرى كان نسخة من هيئات مشابهة فى عدد من الدول، وكان من غير الممكن تغييره. لذلك كان التركيز على تجميع الهيكل فى قبضة واحدة، وتعزيز التنسيق بين الإدارات وتحقيق المشاركة فى تحديث الجيش.

لقد أصبحنا شاهدين ومشاركين فى تنفيذ تفاصيل ذلك البرنامج على أرض الواقع. كان التسارع الذى أحاط بتلك المهمة عاملاً مؤثّرًا على جوانب كثيرة من ظروف العمل. بما فى ذلك كثرة الاجتماعات، التى ناقشت فيها القيادة قضايا التنظيم والإدارة، والاتفاق على جداول التنفيذ، وخلق بدائل أخرى لحلول المشكلات إلى ما غير ذلك. كان العمل بيروقراطيًا، ولكنها كانت خطوة ضرورية تحتمها إعادة الهيكلة لوظائف الإدارة فى ظرف بات فيه الوقت عملة نادرة. وجاءت الأحداث اللاحقة لتؤكّد أن تلك الاجتماعات لم تكن مناقشات دون جدوى، وإنما أتاحت الفرصة للوصول إلى التنسيق المطلوب والقدرة العملياتية فى حل المشاكل التى تتعلق بها أمور كثيرة. ففى ذلك الوقت كان من المتوقع أن يقوم العدو الإسرائيلى بالعدوان فى أى وقت، وكان من الضرورى الاستعداد لمقاومته

بكل القوة. كانت القدرة القتالية للقوات المسلحة فى مصر شديدة التواضع ولم تكن تتطلب إعادة للتأهيل بل إنشاءً من الصفر.

فى ظروف معقدة كهذه، كانت الأمزجة تتأثر بشكل كبير بالدعاية العسكرية التى كانت تستخدم لأغراض تربوية، وأحيانًا ما كانت الحوادث المستخدمة لتلك الأغراض مضحكة. فقد حدث ذات مرة أن دوى خلف مبنى هيئة أركان الحرب أصوات إطلاق نار غزيرة لمدافع رشاشة. وعلى الفور سرت إشاعة أن الإسرائيليين أسقطوا مظليين وبدأوا الهجوم. وقبل أن نستطيع استيعاب تلك الأخبار الخطيرة، اتضح أن إحدى الدوريات تلقت تعليمات بإبعاد الكلاب الضالة الموجودة فى محيط معسكر القيادة العسكرية والتى كانت تفسد المنظر العام للمعسكر وتفقده هيبته وصرامته. ومع أن إنجاز تلك المهمة كان يتطلب طرقًا أخرى، فإن الدورية استخدمت الطريق الجذرى والقريب فى متناول اليد، تم فتح النار بكثافة على "العدو"، الذى هرب من أرض المعركة، والذى جر وراءه على ما يبدو الجرحى والقتلى، ذلك أنه لم يتم العثور على أى آثار فى ساحة المعركة، أو لعل الدورية أطلقت رصاصًا فارغًا، أو قد تكون الكلاب قد تعلمت أصول المناورة فى مواجهة طلقات النار. لقد أصبحت تلك "العملية" مثارًا للسخرية والنكات الشرير فترة من الوقت، حتى بعد التوصل لاستنتاجات تنظيمية بصدد الحادث وظهور رئيس جديد للجنود. كان الحادث عارضًا بالتأكيد، إلا أنه يدل على إنه فى المجتمع وفى الجيش على حد سواء كانت هناك حالة من التوتر، من الممكن بسهولة أن تتحول فيها أحداث عارضة وأمور عادية إلى طوارئ وإنذار لأمور أشد خطورة.

وفى العموم فقد أظهرت المتابعة أن القيادة العسكرية تمكنت فى وقت قصير من أداء الدور المنوط بها. وكانت كل الأشياء تحدث بشكل سريع وبلا تردد، كانت الخلافات فى حدودها الدنيا وأصبح التنفيذ العملى على أعلى المستويات. وحتى الجنود أصبحوا بارعين فى الطباعة بسرعة شديدة على الآلة الكاتبة، مع صعوبة الطباعة باللغة العربية.

لم يكن الجميع يشعرون بارتياح من الإيقاع السريع الذى يتم به العمل، حيث كان العمل مضنيًا. كان هناك بعض ممن كانت أولويتهم تتمثل فى حب الظهور

والوضع الأدبى. ولكن تم التخلص بالتدريج من هؤلاء محبى الأحاديث الفارغة والمدعين بقيامهم بعمل مهم، وكان ذلك واضحًا فى القيادة العسكرية. فقد كان الوقت ضيّقًا للغاية. كانت المهمة هى إنشاء عدد من الكتائب والألوية الجديدة، منها لواءات مشاة آلية ودبابات بكل الوحدات المساعدة لهم. وتلك مهمة ضخمة، لا تكمن صعوبتها فى الجزء الإدارى وحده. لقد بدأت المصاعب حينما ظهرت ضرورة تجميع الوحدات المنشأة حديثًا وتدريبها على قواعد الحرب، والعمليات العسكرية، والهجوم وإطلاق النار والتعامل مع المعدات العسكرية المعقدة.

كانت الوحدات المنشأة تمر بتجارب تتم فى ظروف تقترب من ظروف القتال. كثيرًا ما كانت تُرسل تلك الوحدات إلى مناطق ما قبل الجبهة أو إلى الجبهة نفسها حتى تحس بروح الحرب، إلا أن المواجهات مع العدو لم تكن كثيرة. ولكن المخاطرة كانت كبيرة، حيث إن حالة الحرب كانت مستمرة، وكان اندلاع مواجهات وإطلاق نار بين الآليات والدبابات على الجبهة أمرًا وارد الحدوث فى أى لحظة بما يتبع ذلك من عواقب.

كنا كثيرًا ما نذهب فى مهمات عمل إلى الجبهة، وهو كان أمرًا مرتبطًا بمتطلبات العمل. كان ذلك فى محيط مدينة الإسماعيلية، فى منطقة قناة السويس. لابد من القول بأنه لم يكن لدينا شعور بالخطورة، مع علمنا بأن هناك إطلاق نار يتم فى تلك المناطق، والصحراء تتميز بإمكانية رؤية الأهداف البعيدة بوضوح ولا توجد أى حواجز طبيعية يمكن الاختفاء خلفها فى أثناء الحركة. لذلك فإنه كان علينا الحركة مكشوفين متذرعين بالقدرية الروسية المعروفة وشاطرنا فى تلك القدرية إخواننا المصريين بلفظة "معلش" الشهيرة، والتى لم تدع للخوف سبيلاً. وعلى الجانب الإسرائيلى لم يكن هناك تحركات ملحوظة.

تميزت الجوانب الحياتية على الجبهة بسذاجتها واعتياديتها. وكان المستشارون السوفييت يشاركون المصريين جميع المصاعب ولم تكن هناك أى أفضليات. كانت المياه شحيحة بالنسبة للجميع. وكان موضوع التغذية هو الآخر أمرًا صعبًا. وكان تأثير الحرارة على الروس أشد وطأة من تأثيره على المصريين لعدم تعود الروس على درجات الحرارة المرتفعة. من أنواع المأكولات نتذكر الطرشى أكثر من أى شىء آخر. وهوعبارة عن الخضروات المخللة فى أكياس من

البلاستيك السميك، والتى تحتوى على كميات كبيرة من البهارات يصعب احتمالها. كانت لذيذة الطعم فى جرعات صغيرة خاصة إذا ما كانت مصاحبة لزجاجة بيرة مثلجة. وكان البديل لذلك المشروب السحرى البيرة هو الماء الساخن من حرارة الشمس وحرارة الجسم والذى به طعم الزمزمية. كذلك تتبادر للذاكرة صورة الخبز البلدى ذى اللون الرمادى، وكأن هذا من أجل التمويه، والذى نصب عليه بعضًا من ماء الطرشى ونضع بعضًا من تلك الخضروات ونأكل ذلك الخليط ليس لألا نموت جوعًا ولكن لكى نستثير العطش وكأنه لم يكن ليستثار دون ذلك. وفى الواقع فقد كان الطرشى جزءًا من التغذية الجافة التى تعطى لنا إلى جانب معلبات البلوبيف،وأحيانًا مع الطماطم. وكان الغذاء الأساسى هوأنواع من البقول والشوفان وبعض الأطباق التى لا أتذكرها لرداءة منظرها. وحينما كان نصيب الفرد قليلاً من الغذاء فكان ماء الطرشى أحد الحلول لذلك الماء الذى انطبع طعمه فى الذاكرة للعمر كله.

كانت الموائد فى القاهرة بالطبع أكثر تنوعًا، حينما لم يكن هناك داعٍ للعجلة. أحيانًا ما كان البلوبيف والبطاطس المقلية من إبداع الجنود المصريين المسئولين عن المطبخ تغنى عن تناول الطعام فى المطاعم، ولكن كثيرًا ما كان الحنين يأخذنا لتناول الطعام فى الفيلا السوفييتية فى الزمالك ذات البناء القصير والمسطّح والذى كان يتضمن مطعمًا وكان يقوم بالطبخ فيه مصريون أيضًا ولكن بمهارة شديدة، حيث إنهم على ما يبدو لم يمروا بمرحلة التدريب على البلوبيف. وفى معظم الأحيان كنا نلجأ إلى الشاى حيث كنا نغلى الماء فى الكوب بواسطة غلايات كهربائية صغيرة فى غرفة الفندق. ولم يكن ذلك من باب الاقتصاد، ولكن المطاعم الصغيرة بجانبنا كانت تغلق أبوابها فى ساعة مبكرة، أو تقتصر قائمة الطعام فيها على الفلافل وهوالأمر الذى لا يخلو من مخاطر أمراض الدوسنتاريا والصفراء. وكان هناك أحيان قمنا برءوس يائسة بتجربة أقدارنا مع تلك الأنواع من الأطعمة مستعينين بعد ذلك بال"خمستاشر" لدرء أخطارها، والخمستاشر هوخليط الكحول الطبى ومشروب البيبسى كولا، وكان ثمنهما خمسة عشر قرشًا، وكنا نعرف بالعربية كلمات "خمستاشر قرش صاغ".

كان الجو المحيط الصعب (وبخاصة فى شهور الصيف)، والماء الذى يحتوى على نسب غير معتادة من الأملاح، والأكل غير المنتظم وغير المكتمل، والذى كنا

نستعيض عنه بالفواكه والخضروات المائعة المليئة بالماء (باستثناء البرتقال المصرى الرائع)، والتى كنا نشتريها من أسواق شعبية تمتلئ بروائح حريفة، كان كل هذا يتسبب فى مشاكل صحية لزملائنا ذوى المعدة الضعيفة. لم تكن هناك حالات مرضية صعبة، كان هناك إعياء ولكن علاجه لم يخرج عن إطار المستوصف. أكثر ما كان يرهقنى اختلاف درجات الحرارة بين غرف القيادة العسكرية المكيفة وخارجها، الأمر الذى أدى إلى مرض شديد فى الأوعية الدموية، وهو ما أدى لحالة من الألم. لم أكن أعلم طبيعة الخدمات الطبية فى مستشفى القوات المسلحة، حيث إننى لم أتعامل معها بشكل كبير، ولكننى أذكر أحد الأطباء العسكريين وكان يتفانى فى خدمة الرؤساء من العسكريين فى المستشفى بينما يتعامل مع البقية بشكل غير ملتزم، وحتى لا أطيل فى التفاصيل فقد كان لا يستطيع تقديم العون إما لعجزه عن ذلك أو لعدم رغبته فى القيام بمجهود إضافى. وإلى جانب ذلك الطبيب كان هناك أطباء آخرون على العكس تمامًا فى علاقتهم بمهنة الطب، وأذكر منهم الطبيب الذى أحترمه وأقدره كاميل جازاليفيتش باجاوتدينوف، الجراح الرائع والجذاب والراقى والذى تعرفت عليه عن قرب بعد ذلك فى موسكو.

كان علينا فى المدينة الحركة فى ملابس مدنية بغرض التمويه. وكذلك كانت لدينا تعليمات من قيادات عليا بأن نظهر دائمًا فى قمصان وربطات عنق. وكان ذلك الملبس غير مناسب على الإطلاق وبخاصة فى ظل درجات الحرارة المرتفعة التى يود المرء فيها أن يخلع القميص لا ربطة العنق وحدها. كان لدى شخصيًا عدد من المشاكل بهذا الصدد مع القيادة، والتى كانت تتنقل فى سيارات الفولجا الفاخرة ولم يكن لديها مشكلة فى ارتداء ربطة العنق. كانت المهمات التى نقوم بها أسهل حلاً، فقد كنا نرتدى الزى العسكرى من القطن، والذى كنا نحس أنه أخف من جميع الملابس الأخرى فى ظل الحرارة الحارقة فى وسط النهار فى الصحراء. ولم يكن الزى الخاص بالمستشارين أنيقًا، وكانت الخامة التى يصنع منها زى الجنود رديئة وكان الزى ينكمش بعد غسله، وكان تغييره صعبًا لسبب ما. بالطبع كان التأنق فى غير محله وكان الزى صالحًا للعمل فى الرمال وللنوم فى أى مكان. كان على المرء فقط أن ينفض ملابسه لتعود إلى شكلها الطبيعى.

ذات مرة بينما كنا على حدود الإسماعيلية بملابس جديدة، غلبنى النعاس وحيدًا فى المقعد الخلفى لسيارة جيب فى منتصف الليل. كان المستشارون قد رحلوا وأعربوا عن عدم حاجتهم لمترجم. وكان الجندى السائق قد ترك السيارة وذهب لقضاء بعض أموره، ولم يلاحظ أن السيارة كانت على مسار قافلة الدبابات. وكانت الصدفة وحدها هى السبب فى أن السيارة الجيب لم تدهسها الدبابات فى عتمة الليل، وكنت أنا الآخر محظوظًا لأن رأسى كانت إلى أحد جوانب السيارة لذا طار جسدى للجانب الآمن من السيارة بينما استيقظت فى ذعر من صوت اصطدام عنيف والأرض تدور من حولى.

كانت الرحلة إلى الجبهة والوجود فى الوحدات فرصة استطعنا من خلالها متابعة التنفيذ العملى لما كان يُتّخذ من قرارات فى القيادة العسكرية، وسرعة تحول تلك القرارات إلى واقع عملى. كان ذلك يثبت لنا أن الأوقات الطويلة التى نقضيها فى القيادة العسكرية باحثين عن الحلول المثلى والأكثر عملية لقضايا الدفاع والتعبئة وتدريب الجنود لا تضيع هباءً.

كان يبدأ عادة كل صباح تقريبًا فى القيادة العسكرية بحوار بين مدير الإدارة والمستشار العسكرى، فيناقشان عددًا من المشاكل ويتخذان عددًا من القرارات الخاصة بتأمين حياة الجنود، بمكان الأسلحة والذخيرة، وحاملات الصواريخ، تعبئة الوحدات، هيكلة الوحدات، التعبئة القتالية وغيرها. كثيرًا ما كانت المناقشات حامية الوطيس. على سبيل المثال كان من المميز للجانب المصرى إلحاحه على الرغبة فى تزويده بالإضافة إلى الدبابات ذات الأبراج الحاملة للرشاشات المضادة للطائرات بوحدات ЗПУ-4 لتقوم بوظيفة الغطاء الجوى، الأمر الذى اعتبره متخصصونا بأنه أمر لاحاجة له. دارت حول ذلك الموضوع مناقشات طويلة وتم حل القضية وفقًا لما يقتضيه المنطق والعقل ودون مضايقة الجانب المصرى. كانت هناك قضايا أخرى مشابهة اختلفت فيها وجهات النظر، ولكن جميع القضايا كانت تُحل برضاء الطرفين، ودون أى ضغينة من أى من الأطراف.

لابد من القول إنه بصرف النظر عن المقولة السائدة بأن أسلحة الاتحاد السوفييتى كانت تستنفذ فى الدول القريبة منه إأيديولوجيًا دون أى حساب، فإننى رأيت مشهدًا مختلفًا. كانت الأسلحة بالفعل كثيرة، ولكن توفير الأسلحة

كان خاضعًا لمعايير محددة، وصارمًا فى تخصيصه للوحدات. ومن الجدير بالذكر، لقد كان الدعم الفنى ـ العسكرى كبيرًا بالطبع وكان ذلك الدعم عبئًا واضحًا على الشعب السوفييتى حتى فى عصور ازدهار الاشتراكية كما اتضح فيما بعد، ولكن ذلك أمر آخر.

ومع التضامن الرفيع الذى أظهره المستشارون العسكريون السوفييت لم يكن جميع الضباط واللواءات المصريين على نفس القدر من الصراحة تجاههم. وإلى جانب المشاعر السياسية المناهضة للاتحاد السوفييتى من قبل بعض الضباط ذوى الأصول النخبوية فقد أسهم فى ذلك أيضًا بعض الخطوات غير المحسوبة من جانب بعض مواطنينا ممن لم تكن لديهم الخبرة فى العلاقة الدقيقة فى مصر بين القيادة العسكرية والجنود، ولم يكن لديهم علم بالهوة الساحقة بين الضابط وجندى المراسلات على سبيل المثال، الأمر الذى يمثل أحد تفاصيل المجتمع العسكرى والمجتمع المصرى بشكل عام.

فقد كان اللواء كابانوف حين توجه لغرفة استقبال هيئة الأركان، يصافح الجندى البسيط الذى يقوم بصب القهوة أولاً قبل أن يتوجه بالتحية للعقداء أو الرواد الذين كثيرًا ما كانوا يمثلون وكأنهم منهمكون فى قراءة الجرائد اليومية. لم يتغير ذلك الوضع بسرعة، فارتحل الجندى أولاً ثم اختفى بوصفه مادة للترحاب الشديد من قبل اللواء. الأمر الذى رحب به المدافعون بشدة عن تقاليد البلاط العسكرى. وظل اللواء كابانوف مدة طويلة يؤنبنى مازحًا أننى بوصفى مترجمًا، لم أحرك ساكنًا فى أن أوضّح له كرجل كبير السن التفاصيل الدقيقة للمجتمع الطبقى مسببًا له الحرج، وكان يهددنى بالطرد. وكنت أجاريه أنا الآخر قائلا بأن كل المبادرات مصيرها العقاب وخاصة المبادرات الخاصة بإعطاء المحاضرات للرؤساء من قبل المرءوسين، لذلك فلم أكن أجرؤ على المبادرة بذلك مستشهدًا بأمثلة من الحياة العسكرية ومن الأدب وكانت أكثر أمثلتى إقناعًا المثل الخاص بمغامرات جيل بلاس من سانت إيليانا بطل رواية "جيل بلاس"[82] والذى دفع وبكل ثقة بأحد الخريجين إلى طريق الصواب، ليفقد فى اللحظة نفسها مكانه، مع أنه تصرّف وفقًا لتعليمات الأخير اللحوحة. كانت العلاقة بيننا بالطبع مختلفة

---

(٨٢) الآن رينيه ليساج (١٦٦٨ ـ ١٧٤٧): روائى وكاتب مسرحى فرنسى.

للغاية، كذلك فلم يكن اللواء كابانوف سريع الغضب، كما أنه كان أبيض القلب ومنحنى من باب التقدير يوم عطلة إضافية مكافأة على اجتهادى.

بالإمكان الإشارة إلى موقف تربوى آخر، يدل على وجود نسبة من عدم التدبير فى الوسط العسكرى، ونتحدث هنا عن الجانب السوفييتى، ولكن تلك أحد الخصائص المميزة لأى جيش، ولا تقتصر على الجيش السوفييتى وحده. ذكرنا من قبل أن المترجمين كانوا مرهقين معظم الأوقات من تكدس العمل. بالطبع لم يكن إرهاقًا مثل إرهاق بطلة "حفرة" كوبرين[٨٣]، ولكن كان ذلك مشابهًا من حيث الشكل، حيث كان المترجم الواحد يعمل مع ثلاثة أوخمسة وأحيانا مع عدد أكبر من المستشارين. لقد كان المتخصصون أو المستشارون الذين لا يعرفون اللغة العربية عاجزين عن التواصل مع الجانب المصرى إذا ما كان المترجمون فى تلك اللحظة يقومون بالترجمة للمصرى الذى تقدم له ترجمة الاستشارات. فقد كان الطلب علينا كبيرًا، وكانت لحظة الراحة بالنسبة لنا فى وزن الذهب. كنت أجلس فى تلك اللحظات إلى الطاولة، حتى أستمتع بالصمت، أو أشاهد مجلات مصرية مصورة. ولكن اللواء لم يكن يطيق مشهد المجلات المصورة على الطاولة وكان يسارع بالجلوس إلى جانبى ملقيًا إلى بمستند رسمى يجب ترجمته على الفور.لقد كانت المستندات جميعها تحمل روحًا واحدة، وكان مضمون المستندات ينمحى من الذاكرة ونحن نخط الحرف الأخير. ولكن أحد المستندات علق بذاكرتى وأنا أترجمه من العربية إلى الروسية. وحينما أتوا إلى بعد مرور شهر بمستند لترجمته من الروسية إلى العربية على وجه السرعة، لاحظت أن المستند ذاته أترجمه بالعكس. توجهت للواء وتوقعت أن أسمع منه تفسيرًا لتلك الواقعة (وكانت علاقتنا تسمح بذلك) سواء بالنسيان أو عدم التركيز أو ازدياد أعباء العمل وغيرها ولكنه إجابةً لسؤالى "لماذا؟" فاجأنى بجملة فلسفية مركبة: "حتى لا يمضى عملك بسلاسة ويسر، هذا ما لدى!"

كانت هناك مواقف مشابهة، ولكنه ولله الحمد لم تكن متصلة باللواء الذى كنت أعمل معه. كان هناك رئيس للمترجمين فى مصر، اشتهر بحركته الدائبة

(٨٣) أليكساندر إيفانوفيتش كوبرين (٠٧٨١ ـ ٨٣٩١): روائى روسى يروى فى هذا العمل عن حياة من كانوا يؤيدون أعمالاً مضنية فى بداية القرن العشرين.

المتوترة، طلب ذات مرة بهيئة جادة من أربعة مترجمين أن يترجموا في ظرف بضعة أيام كتابًا كبيرًا على درجة كبيرة من الأهمية من وجهة نظره، في الوقت الذي حذرنا من تفتيت الكتاب إلى أجزاء، الأمرالذي استحال معه تنفيذ طلبه. ولم يشرح لنا كيف يتسنى لأربعة مترجمين العمل على ترجمة نفس الكتاب في الوقت نفسه دون تقسيمه. ولكن مواقف كهذه لم تكن كثيرة في حقيقة الأمر، ولكنها مواقف طريفة كانت تتيح لنا فرصة الدعابة بشأن الرؤساء وتضيف بعض البهجة والضحك إلى حياتنا. وكان الزملاء المترجمون من ذوي اللسان اللاذع، بارعين في المزاح مع الأشخاص، وكان الكثيرون يعرفون ذلك ولا يرغبون في أن يصبحوا موضوعا للسخرية، على الرغم من أن لا أحد كان يجرؤ أن يتجاوز حدود اللياقة.

كنا أكثر حرية في التعامل مع السكان المحليين، والعمال والحراس. كانت النكات والدعابة والأسئلة العائلية المتبادلة، والقصص حول بلادنا، وحول الحياة في الاتحاد السوفييتي تجمع حول المترجمين جمعًا غير قليل من المهتمين. لم تكن السلطات المصرية تقف حائلاً أمام لقاءات كهذه، ولم تر فيها أي نوع من الدعايا أو التحريض، مع أن الأجهزة الرقابية في مصر على ما أظن كانت تعمل بكفاءة وكانت التقارير حول اللقاءات الشخصية بين الروس والمصريين تكتب بكفاءة وتصل للجهات المختصة. كان في الطابق الذي نقطن فيه أحد الفرّاشين الذين يقومون بالتنظيف وكان ذا وجه غير حليق معظم الوقت، وكان يبدو عليه أنه ذو تعليم متواضع، ودائمًا ما كان يدخل في أحاديث مع المستشرقين، مستخدمًا في ذلك اللغة الدارجة التي يستخدمها العسكريون الروس (لقد تعلّم الكثير من العسكريين الروس عددًا كبيرًا من الكلمات والصفات التي كانوا يستخدمونها لتوصيل الفكرة دون اللجوء لأفعال أو تصريفات لتبسيط تعلمهم للغة). وذات مرة تسبب علي (هكذا كانوا يسمون بطل القصة) في أثناء انهماكه بالتنظيف أو لإهمال منه في كسر أحد الأدوات الثمينة، والتي كانت في ذلك الوقت من أثمن الأجهزة (مروحة قديمة ولكنها كانت تعمل بكفاءة، تعود لأيام الإنجليز وهنا تكمن أهميتها على الأرجح) فأصابه حزن وخوف شديدان. وعرضنا عليه من فرط قلقه أن يقوم بكتابة ورقة للإدارة يشرح فيها أن السبب في كسر المروحة لم يكن هو بل كانت أحد القوارض المجنونة التي كانت تعيش معنا في الغرف، وعرضنا

أن نقوم بالتوقيع على تلك الورقة تأكيدًا لذلك. ووافق عليّ على هذا الطلب بحماس، وقام المذنب الحقيقى فورا بكتابة المذكرة التوضيحية بتعبيرات منمقة ولغة أدبية، وقام كذلك بوصف دقيق للجهاز المكسور، الأمر الذى كشف حقيقة الغش المكتوب. لقد أدهشتنا معرفة ذلك العامل بقواعد اللغة العربية السليمة (الأمر الذى يقتصر على النخبة)، كذلك فقد كان رد فعله المتلعثم على اكتشافنا هذا، دليلاً على تمرسه فى كتابة التقارير، سريعًا ما نسينا تلك الواقعة، ولم يعد أحد يتذكر صديقنا الفرّاش عليّ الذى تم نقله لمكان آخر بسبب الحاجة إليه بسبب ظروف العمل.

كان من المهم بل والتربوى مراقبة كيفية تغير علاقة المصريين بالمستشارين السوفييت مع تعمق العلاقات الإنسانية بينهم، وظهور تقارب على المستوى الشخصى، وظهور الاهتمام الإنسانى الطبيعى بين شركاء من عالمين مختلفين، كل بتقاليده وعاداته ورؤيته للعالم. وظهر ذلك التقارب فى كثير من الأمور. فى الرغبة فى معرفة باختصارالسيرة الذاتية العسكرية، والنظر إلى الصور العائلية، وزيارة الأماكن المهمة بناءً على نصائح الزملاء. ولم نكن نُدعى إلى منازل الزملاء المصريين، فقد كان هناك حظر صارم على العلاقة مع الأجانب، بالذات فى الأوساط العسكرية، ولم يسمع أحد عن الدبلوماسية الشعبية إطلاقًا. ومع ذلك فإن الذاكرة تحتفظ بهيئة وصورة كثير من المصريين الذين عملنا معهم، وعشنا إلى جانبهم، ولعبنا معهم كرة القدم، وتحدثنا فى أمور الحياة، والذين دائمًا ما سعوا لكى نعرف لغتهم وشعبهم بشكل أفضل.

كان الترفيه متواضعًا، وكنا بحاجة له فى بعض الأحيان. قليلاً ما تمكنّا من قضاء أمسية بصحبة الرفقاء من جامعة موسكو، والاحتفاء بمعلبات أسماك قادمة لتوها من الوطن بصحبة البيرة المصرية ماركة "ستلا" وخبز أبيض بدأنا نزهق منه. لقد احتفظت بصديق من تلك الأوقات هو ساشا[٨٤] ماكييف، والذى ينتمى لإحدى الأسر المثقفة الموسكوفية[٨٥]، والذى كنت أشترك معه فى كثير من

---

(٨٤) ساشا: تدليل لاسم أليكساندر فى اللغة الروسية.

(٨٥) نسبة إلى مدينة موسكو.

(٨٦) يضاف مقطع "يتش" لاسم الأب فى اللغة الروسية فى حالة الحديث بصيغة.

الأشياء. لقد أصبح الآن أليكساندر فلاديميروفيتش(٨٦) ويعمل أستاذًا فى أحد معاهد موسكو العليا الشهيرة، بينما كان آنذاك فتىً حالمًا ومسرحيًا مهووسًا، ومولعًا وعارفًا بالأدب الروسى. كانت الأمسيات معه حينما كان شريكى فى الغرفة التى كنّا نقطنها فى منزل ٢ شارع سعود بجانب مستشفى هليوبوليس فى مدينة نصر، مليئة بالمناقشات حول موضوعاتنا المشتركة، وذكريات الوطن والعائلة، والتفكير فيما يحدث حولنا. وكانت تلك الأمسيات اليقظة التى قضيناها معًا حول علبة من آيس كريم الشوكولاته فى غرفتنا ذات الحوائط الملونة بألوان كئيبة، وقد زينها إعلان كبير لعرض هاملت بطولة الممثل سموكتونوفسكى فوق السرير الذى يمثل الأثاث الأساسى فى معيشتنا المتواضعة، كانت بديلاً عن أشياء كثيرة كنا بحاجة إليها. فقد كنّا مقطوعين عن أقربائنا فى الوطن، ولم نتلق الجرائد بشكل منتظم، ولم يكن هناك جهاز تلفاز، وكانت المعلومات الوحيدة المتاحة لدينا هى المعلومات التى نستطيع عصرها عصرًا من المصادر المحليّة المقطرة. قرأنا عن وفاة جاجارين فى جريدة "الأهرام"، وكثيرًا ما غابت عنا أحداث مهمة لم نتمكن من معرفتها. على خلفية تلك العزلة كانت الأحاديث مع شخص قريب إلى الوجدان بمثابة متنفس روحى، لم يدع مجالاً لليأس أوالملل، وساهم فى تقصير أوقات الفراغ.

كان الذهاب إلى دور العرض متاحًا بقدر ما، حيث كانت دور العرض آنذاك فاخرة، مصممة لخدمة النخبة، يرتدى مضيفودار العرض زيًا محددًا، وتمرّ مشروبات مثلجة فى أثناء العرض. كانت هناك كثير من الأفلام الأجنبية الجيّدة المختلفة التى أحيانًا ما تطرح جديدًا يستحق التوقّف عنده. كانت الأفلام هى الأخرى متنفّسًا جماليًا وجسديًا لنا. وكان هناك محاولة من بعض الرفقاء الضباط اليقظين من تحذيرنا من الزيارة المنتظمة لدور العرض التى تؤثّر على المترجمين بوقوعهم تحت تأثير إيديولوجيات محظورة، وتحت تأثير صنّاع السينما الغربية. كان الجانب المهنى من تلك الزيارات، والذى يؤكّد على ضرورة ذهاب المترجمين إلى دور العرض الأجنبية للتمكن من لغة العدوالمحتمل، هوالذى منحنا إمكانية متابعة تلك الزيارات التى عادت بالفائدة علينا وعلى مهنتنا.

لقد كان قسم المترجمين يتكون من الكثير ممن كانوا لتوهم طلبةً فى الجامعة، لذا كانوا مولعين باللغة، والثقافة، والتاريخ العربى. كانت الأغلبية من الشباب

الذين كان هدفهم الأساسى ألاّ يكون هناك فرق بين حديثهم بالعربية وحديث المصريين به، وكانت أسعد اللحظات حينما يعجز المصريون عن التفريق فى اللغة بينهم وبين أهل البلد. كان من أولئك الذين استطاعوا تحقيق ذلك الهدف اثنان باسم جينادى ـ بوتشكاريوف وجارياتشكين، فولوديا[٨٧] كليمينتيف، إيجور تيموفييف، إيجور كوليكوف. ومع أن الجميع تخرّجوا من معاهد مختلفة، ولكن مصر صهرت الجميع فى بوتقة واحدة: خريجى معهد اللغات الشرقية بموسكو، والكلية الشرقية بجامعة بطرسبرغ، والمعهد الحربى. كانت المعرفة التى لدى الجميع نتاج عمل مضنى، وكان يتم تحسينها بالتدريب العملى الذى كان هوالآخر مكثّفًا.

لابد من الإشارة إلى أن الترجمة الجيّدة كانت سببًا مهمًا فى رد الفعل الإيجابى من قبل أغلبية المستمعين تجاه دروس الخبراء التى لم تذهب هباءً. أتذكر حوارات طويلة بين اللواء الذى كنت أعمل معه وبين شريكه المصرى اللواء أحمد زكى حامد رئيس إدارة التجنيد والتنظيم، والذى لا يزال يشغل حتى يومنا هذا منصبًا قياديًا فى إحدى الشركات المصرية الكبيرة. كانت تلك الحوارات بين شخصين يتساويان فى المعرفة، ويختلفان فى التجربة الحياتية. لقد كان اللواء الروسى سليل عائلة من العمال، واستطاع فى أثناء الحرب أن يتدرج فى الجيش حتى المناصب القيادية، وأنهى دراسته الأكاديمية وكان عسكريًا محنّكًا ومتعلمًا. على الجانب الآخر كان اللواء أحمد سليل أسرة عسكرية، صادقًا، محترمًا، يؤمن بأن دراسة فن الحرب أمر يحدث طوال العمر. لقد اشترك مع الرجل فى وجهة نظره عدد كبير من قيادات إدارة التنظيم والتجنيد، الذين كانوا ينتمون إلى النخبة العسكرية التى كانت تتحكم فى استعداد الجيش للانتشار، والحركة والتعبئة، والذخيرة وغيرها من الأمور التى يعتمد عليها الجيش فى حركته كآلية واحدة.

ومع ذلك فلم تكن العلاقات المتبادلة بين الجانبين كاملة على جميع الأصعدة. كان هناك عدد من القيادات المصرية على أعلى المستويات ممن تربّوا على العسكرية الإنجليزية، وممن أنهوا تعليمهم فى معاهد تعليمية حربية بريطانية مرموقة مثل ساند هيرست. لم يتمكن أولئك من التصالح مع فكرة سماع وجهة نظر "الشيوعيين". ولا أتطرّق هنا لمستواهم العلمى، ولكن محور الخلاف كان

(٨٧) فولوديا: تدليل لاسم فلاديمير.

دائمًا بشأن عدم معرفة العسكريين المحليين بطبيعة الأنواع الخاصة للأسلحة السوفييتية، التى أصبحت العمود الفقرى للجيش المصرى مستبدلة الأسلحة الإنجليزية مثل المدافع الإنجليزية على اختلاف أطوالها (ذات الماسورة ٣ أقدم أو٦ أقدم)، ومدافع الهاون، ورشاشات لانكستر، وغيرها من الأسلحة الإنجليزية المعروفة لديهم. كان المصريون فى المجمل يتعاملون فيما بينهم بلغة بسيطة فيقولون: مدفع طويل، أو مدفع قصير، أو رشاش ثقيل وآخر خفيف إلى آخره بما يتناسب والخصائص الأدبية للغة العربية ولا يعطى تفصيلاً فنيًا للمعدة الحربية. بينما كان العقداء السوفييت المعتادون على الصرامة والحزم، والالتزام بحرفية التعليمات الخاصة بكل سلاح والغرض منه، يشتاطون غضبًا حينما يسمعون أوصافًا كهذه، وكانوا يطالبون المصريين بالدقة، الأمر الذى كان يتحقق بصعوبة على مدار المباحثات الطويلة مع أحد الملازمين باستخدام وسيلة اتصال سيئة بورشة الجبهة، والذى أصبح يعرف عن الأسلحة وأسمائها وتفاصيلها أكثر من قادته. وكانت هناك مناقشات حامية بشأن مميزات الأسلحة السوفييتية والأسلحة الغربية مع بعض من المولعين بالإنجليز. وكان الرد الذى نرد به على الاتهامات غير المبررة هو معلومات من المجلات الأمريكية المتخصصة عن استخدام سلاح المارينز الأمريكى لرشاشات كلاشنيكوف السوفييتية بدلاً من ال M- ١٦ وتفضيلهم لمدافع الهاون السوفييتية. كان عدد من اللواءات المصريين يتحدثون مع الروس فقط باللغة الإنجليزية من قبيل المبدأ، دون النظر إلى إمكانية عدم معرفة المترجم للإنجليزية. ولكن مستوى معرفة اللغة للمتحدث باللغة الإنجليزية كثيرًا ما، لم يكن على المستوى اللائق وكان يولد رغبة شديدة عند المترجم المتخصص فى اللغة العربية، أن يزيد من معرفته باللغة الإنجليزية ملهبًا روح التنافس الشبابية، ومؤكّدًا على القدرة على التفوق فى هذا المضمار أيضًا، وقد قمنا بذلك بالفعل. أذكر حادثة تسببت فى خلق حالة من عدم الارتياح الداخلى من جانب أحد الضباط من ألوية وحدات الذخيرة. كان من المولعين بالإنجليز حتى النخاع، وكان كثيرًا ما يحاول الحديث بالإنجليزية مع زملائه أيضًا على ما أعتقد. كان ولعه بتلك اللغة شديدًا لدرجة اقتناعه التام بأن أفكاره تنتقل بدقة من خلال هذه اللغة، وفى واقع الأمر فكل ما كان يفعله هو نقل نفس الجمل من لغة لأخرى حرفيا، فكان لا يفهم بالإنجليزية المقصود تماما وكأن المقصود

رشاش قصير. وفى النهاية اختلفنا على كيفية نطق كلمة vehicle. فكان مصرًا على نطق حرف ال "h" بينما حاولت اقناعه بأن ذلك الحرف غير منطوق فى تلك الكلمة. يبدو أنه قد سأل زوجته الإنجليزية عن كيفية نطق تلك الكلمة، ولم يعد يلتفت إلى بعدها متحدثًا فقط للمستشار وكأننى لم أكن موجودًا بجانبه. كان ذلك مدعاة للضيق ولكنها أمور بسيطة.

كانت هناك أيضًا العديد من المواقف الخاطئة فيما يتعلق باللغة العربية. لقد تعلّمنا العربية بشكل جيد فى الجامعة واللغة العربية العسكرية التى تعلمناها كانت عامة، ولكنها تختلف عن اللغة التى يتحدثها المصريون، لذلك كانت كثير من كلماتنا تبدو غريبة على سمعهم، وكان علينا أن نتعلّم من المواقف الحياتية، وليس بدون حدوث أى خسائر أدبية. كثيرًا ما كان الإجهاد يؤثّر علينا. ذات مرة قمت نتيجة لعدم التدقيق وعدم النوم بالخلط بين كلمتى "مقطورة" و"مطبخ" حيث كانت الكلمة غير واضحة ومكتوبة على ورقة رديئة وتم تصحيحها بالقلم الرصاص. الآن يبدو لى ذلك الخطأ طفيفًا، ولكن آنذاك حينما كان الشعور بالمسئولية عظيمًا، كان خطأً غير مقبول يستحق التأنيب الشديد، حيث تم فيه الخلط بين إرسال مطبخ أو مقطورة لفرقة كاملة. ولكن أمور كهذه لم تكن مدعاة لسخرية المصريين، والذين اشتهروا بتهكمهم على "الخواجة" الأجنبى. على العكس من ذلك تمامًا كان العديد من الضباط الذين ربطتنا بهم علاقات صداقة، يحاولون المساعدة مما كان يدعو للتعاطف. كان سبب ذلك أن المترجمين فى الفترة الأولى لم يكونوا كثرة، وكانت العلاقة بهم خاصة. كذلك فإن المصريين يتعاملون بإيجابية دائمًا إذا ما تحدثت معهم بلغتهم الأم. أما بالإنجليزية فقد كان العكس تمامًا هو ما يحدث. فقد كان الجنود وصف الضباط لا يفهمون شيئًا بهذه اللغة، لذلك كان اللوم يقع على زملائنا من مترجمى اللغة الإنجليزية الذين يتحدثون بها بطلاقة، بينما كانت معرفة المتدربين المصريين بها متواضعة. وكانت وجهة نظر بعض القيادات الكبيرة فى قواتنا المسلحة والذين دائمًا ما يعتبرون الأجنبى دائمًا على حق أن السبب فى الحاجز اللغوى كان مترجمينا للغة الإنجليزية. أتذكر أزمة حدثت بسبب أحد مترجمى اللغة الإنجليزية الذين يعرفون اللغة حق المعرفة، وكادت أن تبعث به عائدًا إلى الوطن، وبالكاد تمكنّا من التوسط والسماح له بأداء بعض الأعمال الكتابية.

لابد من القول بأن الضباط واللواءات المصريين كانوا يتميزون بالأناقة والشذا الطيب، وكانوا يتركون انطباعًا جيدًا بحلاقة شعرهم على الطريقة الإنجليزية، وبزيهم المرتب بعناية، كذلك فقد كان التزامهم بالآداب العسكرية محل تقدير، بصرف النظر عن كونهم آنذاك جيشًا مهزومًا لدولة فقيرة. لم يكن ضباطنا على نفس القدر من الأناقة، ولكن زملاءنا من المصريين كانوا يغفرون لنا بعض التلعثم أو خطأ التقدير فى التقاليد والعادات، وربطات العنق المنحاة جانبًا، وكان ذلك لأن معارفنا كانت غزيرة وكانت خبراتنا عريقة، وكانت مهنيتنا محل تقدير أكثر من أى من تلك الأمور الجانبية. لقد تفهم المصريون أن الروس لا يعملون من أجل المرتب، ولكنهم يعملون لأن الهم المصرى كان همًا لنا، وقد عملنا بحكم العادة بأقصى جهد لنساعد المصريين فى أن يقفوا على أقدامهم مرة أخرى بعد هزيمتهم فى الحرب، التى غلبت فيها الحناجر على التحضير الفعلى للحرب.

بإمكاننا تذكر، تحت أى ضغط، وفى الوقت ذاته بأى حماس، تم تركيب سلاحى دبابات وآليات عسكرية فى أزمنة قياسية، بمشاركة فرق وألوية من الجيش المصرى، الذى أظهر بسالة استثنائية فى حرب عام ١٩٧٣. إن المصريين لم يتعودوا العمل بنفس الإيقاع الذى كان يفرضه عليهم الروس، بصرف النظر عن حرارة الطقس، الظروف الصعبة والتهديد المستمر، وحياة الخنادق فى أثناء المأموريات المستمرة على الجبهة. فى تلك الظروف تم التدريب على آلية عمل الدبابات وطواقمها. آنذاك تفهم المصريون أن "المستشارين الروس" لا يعملون تحت ضغط الخوف، وإنما يعملون بوازع من الضمير، من أجل مصلحة مصر، لمساعدتها فى إنشاء جيش حقيقى واستعادة الكرامة الوطنية، والمكانة التى تليق بمصر فى الإقليم.

وكثير من التفاصيل التى عشناها آنذاك وبدت جوهرية أساسية، أصبحت الآن تفاصيل جانبية. فالمهم أننا بالفعل قد استطعنا آنذاك تعزيز القدرات القتالية للجيش المصرى فى فترة قصيرة، والوصول إلى حدود مقبولة تمكن من خلالها الجيش المصرى فى عام ١٩٧٣ من تحطيم خط بارليف. وإذا كان الخط السياسى قد سمح بالعمل مع المصريين وقتًا أطول كما كان مقررًا من البداية، كان من الصعب أن تصل الأمور إلى ما وصلت إليه بنتيجة حرب عام ١٩٦٧ والتى

انتهت بهزيمة الجيش المصرى. ولكن الأمر لم يكن بنفس المأساوية التى كانت عليها الأحوال منذ ستة أعوام. وهنا جاء الجهد المتواضع للمترجمين الحربيين، والذين اعتبروا أن السنوات التى قضوها فى الجيش المصرى لم تكن سنوات ضائعة من العمر، بل كانت منحة من القدر أتاحت الفرصة لهم كى يختبروا قدراتهم، ويحسوا بأهمية وحساسية مهنتهم، بالإضافة إلى التعرف على تفاصيل مهمة عن بلد مثيرة للاهتمام، وخلق معين لا ينضب من الذكريات حول تلك الفترة وذلك البلد.

•

"الجامعات المصرية" لقاذفى صواريخ قوات الدفاع الجوى

أ. ج. خاندنيان

تضمنت الطبعة الأولى من كتاب "تم رفع تأشيرة الحظر"، وصفًا لكيفية إدخال فرقة الصواريخ السوفييتية المضادة للطائرات التابعة لقوات الدفاع الجوى إلى الأراضى المصرية على نحو تفصيلى تمامًا، كما تم وصف الأهداف السياسية والعسكرية لهذا العمل على نحو مقنع. إن المضمون الأساسى لهذا المقال مكرّس لوجود الطاقم الأول لهذه الفرقة بقياة الجنرال ا. ج. سميرنوف وللعمليات العسكرية التى قام بها، وهو أمر طبيعى تمامًا، لأن هذا الطاقم قام بعمليات عسكرية وأنجز المهمة الرئيسية التى كلف بها، والتى تمثلت فى وقف الهجمات الجوية الإسرائيلية على الأراضى المصرية، والتى لم تكن تواجه قبل ذلك بالرد، وردع المعتدين.

على أن الموقف ظل على توتره المبهم. لم تكن وثيقة وقف إطلاق النار وقفًا نهائيًا قد وقّعت بعد؛ حتى يتسنى مستقبلاً السيطرة على القوات الجوية الإسرائيلية، كان من الضرورى استمرار وجود هذه الفرقة على أراضى جمهورية مصر العربية. ومن ثم تم اتخاذ قرار بتشكيل طاقم ثان جديد للفرقة، التى حلت محل الفرقة الأولى على دفعتين مع استمرار مهمتها السابقة وهى مواصلة التأهب القتالى وعدم السماح لطيران العدو بالقيام بالهجوم دون أن يواجه بالرد. وحتى يمكن تنفيذ المهمة المطروحة، كان على الطاقم الجديد بفرقة الصواريخ المضادة للطائرات أن يستوعب فى أقصر وقت ممكن مسرح العمليات العسكرية وأن يقوم بتجميع الأطقم القتالية، وأن يرتقى بمعارفهم ومهاراتهم فى إنجاز معدلات الأداء القتالية. وفى الوقت نفسه أدركنا أن العدو سوف يقوم بعملياته على نحوأكثر صعوبة، وسوف يغير من تكتيكه ونظام طلعاته الجوية، كما أنه

سيضع أمامنا العراقيل على نحو أكثر حيوية، أى أن علينا فى نهاية الأمر أن نقاتل فى ظروف أكثر تعقيداً.

كان الوضع يتطلب التصرف بحكمة وجدية من جانب قيادة فرقة الصواريخ المضادة للطائرات ومن الوحدات العسكرية، كما كان يتطلب أيضًا جهدًا تنظيميًا وعمليًا من جانب أطقم الضباط كافة فى إدارة التدريب والتعليم والمناورات مع احتلال المواقع الاحتياطية والوهمية، وقد تم إعطاء الخبراء البارزين أهمية خاصة، فتم تنظيم مباريات ومسابقات لاختيار الأفضل فيما بينهم.

كان للمؤتمر العلمى التدريبى الخاص بالمشكلات القتالية الجارية، والذى عقد بقيادة ى. م. بوشنياك قائد الفرقة، مردود إيجابى كبير. وقد انتهت عملية الإعداد بضرب نار قتالى ناجح على أهداف تدريبية من صواريخ من طرازى "شيلوك" و"بيتشورا".

لقد بذل الطاقم جهدًا بدنيًا فائقًا، وتحمّل أعباء تزيد عن المعدلات المألوفة، ولم تصدر عن أفراده أى شكوى أو استياء، كان الجميع يدركون أهمية هذا الإيقاع للتدريبات القتالية. وقد قدم الزملاء "الأسبق" من الضباط والرقباء والجنود المساعدة الضرورية فى هذا الأمر.

لقد ساهم العمل المحدد والدقيق فى إدخال الطاقم الذى وصل إلى الخدمة من جديد فى إنجاز المهمة المطروحة. وبحلول الموعد المحدد، وهوالأول من مارس عام ١٩٧١، أقرت لجنة كبير المستشارين العسكريين بالاستعداد القتالى التام، وبقدرة الفرقة فى تشكيلها الجديد على القيام بالعمليات القتالية بنجاح تام.

يشهد الجميع أن الروح المعنوية القتالية العالية كانت دائمًا مصدرًا من مصادر قوة الجيش الروسى. وهو ما يؤكده تاريخ الدولة الروسية منذ معركة كوليكوفسكايا وحتى معارك الحرب الوطنية العظمى. ولهذا كنا دائمًا ما نقوم فى سياق نشاطنا العملى، بتحليل الحالة المعنوية للطاقم وسلوكه، ونتخذ الإجراءات الضرورية المناسبة للوضع، بهدف دعم الروح القتالية العالية لديه.

وفى خلال فترة زمنية قصيرة لم يعان الأفراد من عبء بدنى هائل فقط، ولكنهم تغلبوا أيضا على أحمال نفسية صعبة بسبب التغير الحاد فى ظروف

البيئة والخدمة، التى من بينها الانتقال من ظروف العمل السلمى فى الوطن، إلى ظروف الحرب فى منطقة غريبة تبعد آلاف الكيلومترات عن الوطن، مع تغير الظروف البيئية المحيطة وما إلى ذلك. لقد جاء أفراد كتائب جيش أرخانجلسك من المكان الذى يتمركزون فيه، حيث تصل درجة البرودة إلى أربعين درجة مئوية تحت الصفر، إلى أسوان لحماية محطة توليد الطاقة الكهرومائية بها، حيث تصل درجة الحرارة إلى ثمان وأربعين درجة مئوية فوق الصفر، جاءوا من مناطق تغطيها الثلوج إلى صحراء رملية. وها هم ينجحون فى التواءم مع الظروف الجديدة.

وقد حدثت هناك تغيرات جذرية أيضًا فى ظروف الخدمة اليومية وفى النظام الغذائى وفى شكل الملابس وهلم جرا. كما كان للوضع السياسى فى المنطقة، والحالة العسكرية المتوترة، وإمكانية نشوب القتال فى أى لحظة، أثره على الحالة النفسية للأفراد. كانت خصائص المسرح الجديد للعمليات العسكرية تمثل ضغطًا نفسيًا كبيرًا: الاقتراب السريع للطيران لمدة تصل إلى خمس دقائق، وجود العديد من الوديان والمنخفضات، الأمر الذى كان يتيح للعدو استخدام الطيران المنخفض، بل والمنخفض للغاية على نطاق واسع وتسلح الطيران الإسرائيلى بتكنولوجيا متقدمة وأطقم من الطيارين المحنكين، الأمر الذى زاد من اقتناعنا بأن أمامنا عدوًا قويًا وخطيرًا.

كان علينا فى سياق العمل التربوى ألاّ نغفل حقيقة مهمة، هى أن ٨٥٪ من طاقم الفرقة كانوا من الشباب، أى من الذين كانوا بالأمس القريب تلاميذ وطلابًا فى الكليات العسكرية، الذين يبتعدون للمرة الأولى فى حياتهم ولمدة طويلة عن الوطن، وأن كل ما يعرفونه عن الحرب ليس سوى التصورات التى تكونت لديهم من خلال ما قرأوه من كتب.

كان للتحولات المبدئية، والتحولات العميقة فى ظروف الخدمة والحياة أثرها الواضح على وعى الناس، وقد انعكست هذه التحولات على مواقفهم وسلوكهم واهتماماتهم.

أولاً: ازداد الاهتمام بالوضع السياسى فى العالم ككل وبالشرق الأوسط بصفة خاصة، وتغيرت علاقة الضباط والجنود بالتعليم السياسى فأصبحت الحصص

الدراسية أكثر حيوية، وازداد النقاش وتبادل الآراء ونشب الجدل وظهرت الأسئلة. البعض لم يكن يدرك أهمية وجودنا فى المنطقة العربية وكانوا يرون أن وجودنا هو تدخل فى الصراع العربى الإسرائيلى.

ثانيًا: إلى جانب تصاعد النشاط السياسى ازداد الشعور بالمسئولية تجاه التكليفات فى مجالات العمل، وأصبح الإلمام الرفيع بالمعدات العسكرية من الصفات الحسنة، وكذلك إنجاز الأعمال العسكرية قبل موعدها، وتحقيق معدلات سريعة فيه. أصبح كل فرد يدرك أن عدم الوصول إلى الكمال فى التدريب والتقصير فيه، يمكن أن يكلف إنسانًا حياته.

ثالثًا: تغيرت العلاقة بشكل كبير بين الضباط والمجندين، وقد أدى التعاون المستمر بين الجميع على مدى اليوم والعمل العسكرى المشترك لساعات طويلة، والظروف المعيشية الواحدة، وتناول نفس الطعام وإدراك المسئولية الجماعية تجاه المعارك المنتظرة، إلى التقارب الروحى بين الجميع، الأمر الذى انعكس فى الإنجاز الناجح للمهمة المطروحة.

فى بداية الأمر كان الشباب من المستجدين مستسلمًا "للقدامى"، وكانوا يعملون بقدر من التحفظ، وعلى نحو أقل من إمكاناتهم الحقيقية. كان من الواضح أن هناك شيئًا ما من الاكتئاب وعدم الثقة فى قدراتهم الشخصية.

كان الشعور بالحنين الجارف إلى الأسرة وإلى الأهل وإلى الأصدقاء المقربين، عنصرًا مهمًا من العناصر المؤثرة على الحالة المعنوية للأفراد. لقد عانينا منذ اللحظة الأولى لوصولنا من الشعور بالحنين للأوطان العزيزة. شعرنا بالشوق إلى نمط الحياة الذى ألفناه، تعذبنا بالفراق وأحسسنا أننا مهجورون. ولكن هناك أيضًا ضباط ومتطوعون بعد انتهاء فترة خدمتهم الإجبارية، وهؤلاء تكيفوا مع الوضع الجديد وتعلقوا ببعض الأمور المادية بعد أن أحسوا بإمكانية شراء سيارة وملابس وما إلى ذلك من توافه الأمور، عمومًا ليس فى ذلك ما يعيب، ما دامت لم تظهر بيننا فى هذا السياق أى ميول للبخل أو الجشع أو ارتكاب مواقف مشينة.

قام القسم السياسى للفرقة بتلخيص هذه الخصائص الحياتية وغيرها وتحليل الصورة النفسية لمختلف فئات طاقمنا، كما راح هذا القسم فى وضع

برنامج للتربية السياسية والمعنوية والنفسية. كانت المهمة الرئيسية له أن يفسّر لكل مقاتل وأن يوصل إلى وعيه فهم الطابع السلمى لبلدنا، وعلى وجه الخصوص أن يشرح له أسباب وجودنا فى الشرق الأوسط، حتى يتمكن كل منهم من الإجابة على سؤال: "لماذا نحن هنا؟".

كان من الأمور بالغة الأهمية أن يدرك طاقمنا أهداف ومهام الجانبين المتقاتلين، وندرك بوضوح أن إسرائيل تقود حربًا عدوانية اغتصابية، بينما يدافع المصريون عن أراضيهم.

وقد كان الاتجاه الأهم فى برنامجنا هو تأمين الانتقال من زمن السلم إلى وضع الحرب. كانت هذه مشكلة جديدة، ولم تكن لدينا آنذاك أية وصفات جاهزة لحلها على نحو عملى. وقد انطلقنا من ضرورة أن يدرك كل منا لماذا هو هنا، ولماذا يخاطر بحياته.

كان للتاريخ والحقائق التى تشهد على عظمة بلادنا وشرح مكانتها فى عالمنا المعاصر، دور مهم فى التربية المعنوية والنفسية، وقد حرصنا على غرس مشاعر الحب والإخلاص للوطن والاعتزاز بنمط الحياة السوفييتى فى نفوس الأفراد.

ولقد ساعد الواقع الفعلى كثيرًا على إيجاد الحلول الناجحة للمشكلات التى واجهناها، إذ كان لحالة اللاحرب واللاسلم والانتظار المتوتر للمعركة أثر بالغ على الحالة النفسية، ودفعتنا لأن ندرك أننا جئنا إلى هنا "... لا باعتبارنا سائحين لمشاهدة أبو الهول أوالأهرام ..."، وإنما جئنا لنقاتل ومن ثم علينا أن نعيد تشكيل صفوفنا وأن نفكر ونعمل باعتبارنا نخوض حربًا.

لقد استخدمنا وعلى نطاق واسع، كل الأشكال والطرق المطبقة فى الجيش السوفييتى، قمنا بتفعيل وتحسين التعليم السياسى بصورة نوعية مع الرتب كافة فى طاقمنا، وأعددنا مواد مطبوعة وأفلامًا للإعلام السياسى، ونظمنا عملاً حزبيًا وكومسومولياً(٨٨) وسط المجمّوعات، وأولينا اهتمامًا خاصًا للعمل الفردى بين جماعات الجنود.

---

(٨٨) نسبة إلى منظمة الكومسومول وهى منظمة شباب الشيوعين التابعة للحزب الشيوعى السوفييتى.

وفى الوقت نفسه أفرزت الحياة أشكالاً جديدة ناجحة من التربية العسكرية الوطنية.

وقد تمت بمبادرة من منظمات الكومسومول إنشاء أندية شبابية وطنية فى الوحدات العسكرية تحمل اسم "الوطن"، كما أقيمت بناء على توصية من المنظمات الحزبية "دروس الشجاعة"، ونظمت أمسيات تتناول موضوعات إنجازات الجمهوريات السوفييتية ومسابقات لاختيار الأفضل معرفة بوطنهم وبتواصل الأجيال.

وبعد أن قام القسم السياسى للفرقة بدراسة هذه الخبرة، قام بإعداد اقتراح خاص بشئون أندية "الوطن"، وأوصى بإنشائها فى جميع الوحدات. تم تأسيس مجلس للنادى وقام النشطاء الحزبيون وأعضاء الكومسومول بإدارة العمل فى الوحدات تحت قيادة نائب قائد القسم السياسى.

كان مجلس النادى يضع خطة عمل ربع سنوية ثم يقوم على نحو دورى بتنظيم الاجتماعات تبعًا للموضوعات ويعقد المؤتمرات للقراءة، ويطلق إذاعة وصحيفة ضوئية. كانت جميع الأنشطة تبدأ وتنتهى بالإشارات المميزة للنادى وهى أغنية "من أين يبدأ الوطن".

مرت الأمسيات الثقافية على نحو شيق، فكانت موضوعاتها من نوع:"نحن أبناؤك أيها الوطن"، "تعلّم كيف تدافع عن الوطن الأم"، "طريق الآباء هو طريق الأبناء" وغيرها من الموضوعات.

وفى المكان المعروف باسم غرفة لينين كانت هناك دائمًا دفاتر خاصة يمكن لأى جندى أن يسجل فيها أفكاره عن الوطن وعن الخدمة العسكرية وما إلى ذلك. كانت التعليقات مختصرة أحيانًا، فى عبارة واحدة، أو مسهبة، من الشعر تارة، ومن النثر تارة أخرى، لكن الأمر الأهم، أنها جميعًا كانت صادرة من القلب. وهاكم بعضًا من هذه التعليقات:

كتب الرقيب رومانينكو: "بادئ ذى بدء فإن الوطن بالنسبة لى يبدأ بالمجموعة الرائعة التى تكونت فى وحدتنا. هنا فقط تعلّمت أن تفكيرنا المشترك فى الوطن يبدأ من ما إذا كنت مستعدًا أن تضحى بحياتك من أجله. وأنا أود هنا أن أقول يا

أصدقائى، كونوا حريصين على وطننا الغالى حرصكم على حبات عيونكم. فإذا اشتعلت نيران الحرب هنا، فسوف يمتد شرارها إلى وطننا غدًا. إن السعادة فى تلبية نداء الوطن. ويا لها من مسئولية عظيمة. شكرًا للحزب، الكومسومول لينين الذى علّمنا أن نحب الوطن. بالنسبة لى شخصيًا فلن أخذل وطنى فى أقسى الظروف."

أما الجندى ف. ا. جلازونوف فقد كتب أبياتًا من الشعر يقول فيها:

"ليس هناك على وجه الأرض ما هوأروع من بلادنا

ولا أغلى منها فى هذا العالم

إن السعادة الكبرى فى أن يعيش المرء ويكدح

فوق أرض بلاده."

دون شك فإن النشاط الذى كان يقوم به النادى كان له أثر معنوى ونفسى وعاطفى على الجنود، كما رفع من الإحساس بالمسئولية عند كل منهم عن الإنجاز الرفيع للواجب العسكرى الذى يؤدّونه.

وقد أصبح تحليل المراسلات والعمل البريدى شكلاً آخر جديدًا فى نشاطنا التربوى. كانت الخطابات فى أثناء المأموريات خارج الوطن واحدة من أهم العناصر التى تؤثّر على مزاج وسلوك الأفراد وعلى علاقتهم بالخدمة. من الجلى أن الخطابات بالنسبة للجندى بمثابة عيد كبير لا يضاهيه سوى الحصول على إجازة أو مكافأة أو التسريح من الخدمة.

كانت الخطابات تحمل أخبارًا متنوعة. حكايات سارة ومطمئنة عن حياة الأسر، وعن البلاد العزيزة والأصدقاء والرفاق. ولكن كانت هناك أيضًا أنباء حزينة وأخبار مأساوية. وحتى تأخّر الخطاب كان يؤدى إلى أفكار مزعجة ويسبب الاكتئاب والحزن والقلق.

كان من المهم أن يستغل القادة والعاملون السياسيون عنصر الخطاب فى العمل التربوى. إذ لم نكن فى الاتحاد السوفييتى نولى هذا الأمر الاهتمام اللازم، وأحيانًا لم نكن نعرف إذا ما كان مرءوسينا قد تلقّوا أنباء من الوطن أم لم يتلقوا.

لقد حرصنا على ألاّ نسقط هذا الموضوع من دائرة اهتمامنا. وقد تم تكليف الحلقة الكومسومولية الأدنى بمتابعة شئون البريد وأن يتعرف على الذين لم يتلقوا خطابات لمدة طويلة، وأن يتحدثوا معهم على انفراد وأن يعملوا على رفع معنوياتهم.

وفى بعض الوحدات جرّب القادة والعاملون السياسيون التراسل مع أهالى الجنود، الأمر الذى ساعد على معرفة الكثير عن المرءوسين والتأثير فى سلوكهم. خمّن بعض الأهالى من التلميحات الواردة فى خطابات أبنائهم، ومن البطاقات المرسلة مكان وجود أولئك الأبناء تقريبًا، فراحوا يرسلون لهم خطابات مليئة بالمشاعر الدافئة والتشجيع.على سبيل المثال كتبت والدة العريف المستجد ا.ب.يميليانوف فى خطاباتها إليه تقول: "ابنى العزيز. مضت بضع سنوات منذ أن فقدت زوجى، وفقدت أنت أبيك؟ وأنا الآن أقاسى صعوبة الوحدة. أنتظر قدومك طوال الوقت بفارغ الصبر، لا تغضب منى أرجوك، ولوأن ذلك ليس من حقك، إلا أن قلب المرء ليس بيده. قم بأداء واجبك يا بنى، أدّه بكل سكينة. لم تكن لدى هذه السكينة عندما كنت بانتظار عودة والدك من الحرب كانت الأمور آنذاك أسوأ. كن بين الأفضل فالوطن بحاجة لمن يدافع عنه".

كان استخدام الخطابات ذات المضمون المشابه فى الأغراض التربوية يتم بعد الحصول على إذن من المرسل إليهم. وقد أحسّ طاقم الضباط بأهمية الخطابات بصورة تامة فى ظروف المأموريات الطويلة، فكلنا بشر. كلنا عانى من تأخّر وصول أنباء من الأسرة، ومن تلقى أنباء سيّئة، من سماع أنباء عن عدم توفيق صادف الأبناء والأقارب فى أمور حياتهم. سوف أظهر هنا شيئًا من الجرأة مستشهدًا بمقطع قصير مما كتبته فى مذكراتى. "الخامسة صباح السادس والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٧١، فى الأيام الأخيرة انتابنى إحساس حاد بالحنين إلى الوطن يصعب وصفه. لولم يكن هناك عمل ولجان وأحداث لأصابنى على الأرجح اكتئاب عميق، فما أن يقبل الليل وأصبح وحيدًا حتى يعتصر الحنين قلبى ولم يمض على مغادرتى أرض الوطن سوى نصف عام أو أقل".

فى مثل تلك الظروف يكون من الضرورى أن يتمتع الأفراد بحالة من التفاؤل والحيوية وحب الحياة. وهى الحالة التى كان عليها دائمًا فى قيادة الفرقة الرائد

أكسندر نيكيتوفيتش بوبوف، فحيثما تجده تجد الضحك والمرح، وفى العديد من التجمعات كان هناك أمثال "فاسيلى تيوركين"(٨٩).

إننا ننحنى إجلالاً أمام زوجاتنا اللائى صبرن على عودتنا من هذه المأمورية، وكن يمسحن دموعهن خفية، ولكنهن سطرن فى خطاباتهن كلمات تفيض دفئًا وحنانًا، وقدمن لنا دعمًا معنويًا وحافظن على شرفهن وقمن برعاية أطفالنا وتربيتهم.

للأسف كانت هناك حالات شديدة الصعوبة حينما كان يتلقى أحد الضباط أنباءً عن خيانات زوجاتهم، ولكنها كانت حالات نادرة بطبيعة الحال، وقد وصل إلى علمنا من تلك الحالات خمس حالات فقط، ولكنها كانت تترك أثرًا سيئًا على الحالة المعنوية لضباط الطاقم. كنا نبذل قصارى جهدنا لدعم هؤلاء الفتيان، وكنا نكتب خطابات بعد موافقتهم إلى أقسام الدوائر السياسية، فى المناطق التى جاء منها الضابط المضار. وقد سمحنا لاثنين منهم بإجازة لكى يتمكنا من تدبير أمورهما فى الوطن. بالطبع فإن الخطابات هى مسألة شخصية للغاية، ولعلى أقول، إنها أمر بالغ الخصوصية. وليس من السهل التدخل فى شئون الآخرين، وفى بعض الحالات يكون من غير الضرورى القيام بذلك. على أنه فى ظروف الواقع الذى كنّا نعيشه، كان من الضرورى أن نعرف كيف يعيش كل منا، ما الذى يؤرّقه، كيف يمكن أن نجد طريقة مرهفة ودودة للتعامل مع إنسان وتقديم العون له فى التصرف عند وقوع هذا الأمر، وأن نعيد له ثقته فى نفسه، وأن نتّخذ موقفًا مسبّقًا قبل وقوع ما لا تحمد عقباه.

كنّا نراعى فى عملنا جوانب أخرى أيضًا. كان من الضرورى فى ظروفنا هذه الأيام أن نقوم على نحو منظم، الاهتمام بأيام الإجازات والاحتفال بالأعياد والحفاظ على تقاليد الاحتفال بأعياد الثورة السوفييتية والأعياد الشعبية.

كان الضباط يولون اهتمامًا خاصًا للمتطوعين الذين استمروا فى الخدمة بعد انتهاء فترة تجنيدهم والذين اعتادوا قضاء الأعياد بصحبة عائلاتهم وأصدقائهم، ويولون هذه المناسبات اهتمامًا خاصًا، وسوف أضرب مثالاً على ذلك.

---

(٨٩) رواية شعرية للشاعر تفوردوفسكى عن المقاتلين السوفييت فى أثناء الحرب العالمية الثانية.

اقترب العام الجديد١٩٧٢ .وكانت كل الأحاديث تدور حول كيفية الاحتفال بهذا العيد فى الوطن، ولم يكن هناك همّ سوى تذكّر كيف كان الجنود والضباط يستقبلون أعياد الميلاد فى أعوام مختلفة.

من المعروف أن شجرة عيد الميلاد من أساسيات عيد رأس السنة ، ترى أين يمكن أن نجد هذه الشجرة فى الظروف الإفريقية؟ ومن هنا قررنا أن نجهّز مفاجأة لجنودنا وأن نقيم لهم شجرة ميلاد حقيقية فى وسط الصحراء. أسرعت بكتابة خطاب إلى صديقى عضو المجلس العسكرى، رئيس القسم السياسى فى فرقة الدفاع الجوى الكييفية اللواء/ ا. د. ستوبنيكوف أطلب منه المساعدة فى حل هذه المشكلة، وهكذا وصلت إلينا قبيل رأس السنة سفينة بضائع قادمة من ميناء أوديسا تحمل على متنها شجرة عيد الميلاد، ومعها برميل ملىء بالسمك المملح، وكميات من الخبز الأسود والمجفف. إن الذين ذهبوا فى مأموريات بعيدًا عن الوطن سيفهمون تمامًا مغزى هذه الهدية بالنسبة لنا. وعندما تمت إضاءة أشجار عيد الميلاد ليلة رأس السنة فى الوحدات العسكرية قدّم بابا نويل التهانى بالعام الجديد، وتمّ تقديم عشاء إضافى مكون من قطعة الخبز الأسود والسمك المملح، وهكذا اقتربنا على نحو أو آخر من الوطن وشعرنا بأننا فى بيوتنا. استقبل الأفراد كل هذه الأحداث ببهجة حقيقية وهم يصيحون "أورا".

راح الواقع يضع فى طريقنا مشكلات طوال الوقت لم نعتد على مواجهتها فى بلادنا، ولم يقتصر الأمر على قيامنا بتعليم وتربية مرءوسينا، ولكننا كنا أيضًا نتعلم من الحياة بشكل دائم من المحيطين بنا.

للأسف فإنه لا يوجد تسجيل للأحداث التى صادفناها، ولكنى على ثقة أننا تجنبنا الكثير من المتاعب، وتجنبنا الخروج على مقتضيات النظام العسكرى بفضل العمل المحدد مع الأفراد.

استمر الوضع العسكرى والسياسى العام فى المنطقة متوترًا. وبالإضافة إلى ذلك فقد ازداد توتر العلاقات بين الدول العربية بشكل خاص صيف عام ١٩٧١: الانقلاب الفاشل الذى وقع فى المغرب، وما ترتب عليه من اضطهاد داخل البلاد، وقطع العلاقات مع ليبيا. انتصار قوى اليسار فى السودان، ثم الانقلاب المضاد الذى وقع بعد يومين فقط، والذى لم يكن لينجح دون دعم من ليبيا ومصر. قيام

القوات الملكية فى الأردن بالقضاء على فصائل المقاومة الفلسطينية، تقاعد رئيس وزراء جمهورية اليمن العربية وفشل انقلاب ٢١ يوليو١٩٧١، قطع العلاقات بين السودان والعراق...

ظهرت فى كل هذه الأحداث حملات الرجعية التى استهدفت إزاحة القوى التقدمية، وعلى رأسها الشيوعيون.

وفى مصر نفسها، وبعد أحداث مايو(عندما تم اعتقال قيادة الاتحاد الاشتراكى العربى، وجرى عزل وزراء بارزين من مناصبهم ليحل محلهم قيادات أكثر رجعية) نشطت القوى الرجعية الداخلية وساءت العلاقات معنا، وظهرت تصريحات استفزازية، بل وأعمال استفزازية.

وقد أعلن وزير الدفاع محمد صادق الذى تم تعيينه مؤخّرًا، فى خطابه الذى ألقاه على الجبهة أمام ضباطه: "إننا لا نملك التسليح والمعدات التى تتلقاها إسرائيل"، ملمّحًا إلى أن الاتحاد السوفييتى لا يقدم لمصر المعدات الحديثة.

وقد تسائل الكثير من ضباطنا آنذاك، وغيرهم:"لماذا نساعد مصر، التى تؤيد النظام الرجعى فى السودان، حيث تم إعدام قيادات الحزب الشيوعى والقيادات النقابية ومئات التقدميين فى هذا البلد وترميهم بالرصاص؟".

وقد ظهرت الرغبة آنذاك فى ضرورة مغادرة مصر، وأنه لن تكون هناك حرب، وأن البقاء فى الصحراء أصبح أمرًا لا يطاق، وقد ساعد على هذا الإحساس بالحياة الرتيبة التى لا تتغير، والإقامة الطويلة فى ظروف جغرافية ومناخية سيئة، مع شعور طاغ بالحنين إلى الوطن. لقد توصّلنا إلى استنتاج من واقع تحليلنا للوضع السياسى والمعنوى فى الوحدات العسكرية، وهو أنه من الضرورى زيادة إيقاع حياتنا وجعلها أكثر تنويعًا وتشويقًا، وتحسين العمل الجماعى وتنشيط المباريات الرياضية.

قررنا بالدرجة الأولى تنشيط عمل مجموعات الهوايات الفنية فى كل وحدة بالأمر المباشر. حددنا مواعيد العروض الفنية فى الألوية، وحددنا استعراضًا للألوية الأمر الذى أثار أداء مجموعات الهواة فى الوحدات، ثم فى الألوية. تبادل إقامة الحفلات الموسيقية، والحمية فى الحياة الثقافية فى الفرقة.

أدت الحفلات الفنية للهواة فى مختلف الوحدات ثم فى الألوية وتبادل الحفلات، إلى إحياء الحياة الثقافية بالفرقة.

فى محصلة المسابقة التى تم إجراؤها فى الفرقة تم إنشاء فرقة فنية مختارة مصغّرة، قامت وفقًا لجدول محدد بتقديم حفلات فى الوحدات كافة. بالإضافة إلى ذلك، وبناء على طلب السفارة السوفييتية تم تقديم حفلات فى التجمعات التى يعمل فيها خبراؤنا فى مجالات الغاز والنفط والطاقة وغيرها. بل إن شبابنا قدموا حفلات أيضًا أمام سفن أسطولنا بالبحر المتوسط. وأقيمت أكثر من حفلة فى مبنى جمعية الصداقة المصرية السوفييتية، وفى مكتب كبير المستشارين العسكريين، وأصبح من التقاليد المعمول بها دعوة الفرقة الفنية العسكرية للهواة لتقديم الحفلات فى المناسبات الكبرى والأنشطة الحزبية والاجتماعات واللقاءات.

كان برنامج الحفلات يتجدد دائمًا، فمن ناحية المضمون كانت تظهر موضوعات حيوية وطنية وفكرية، بما فيها من موضوعات من حياتنا اليومية. ومن ناحية الشكل كان البرنامج منوعًا للغاية فأصبح يشارك فيه كورال غنائى إلى جانب الأغنيات الخفيفة، وعروض وأغنيات وفقرات سياسية ساخرة ومنولوجات وأكروبات وعروض راقصة، حيث كانت أحدى الرقصات المميزة فى البرنامج، هى تقليد لرقصة البجع(٩٠) يؤديه الجنود وقد ارتدوا ملابس الباليه. وقد شارك شعراؤنا المحليون على نحو نشيط بقراءة أشعارهم وقدموا لنا ألوانًا من فنون المحاكاة.

شارك فى هذه الحفلات العسكريون من الفئات كافة، من الجنود إلى كبار الضباط. وفى مقدمة الجميع كان المقدم ف. ا. بيلوجورتسيف، الدعائى بالقسم السياسى للفرقة وشعلة النشاط فيها بكل تأكيد، والذى بذل جهدًا غير عادى وأظهر حضورًا فعالاً، وقوة احتمال لكى يؤسس مجموعة رائعة من المواهب المتاحة.

وقد أعجبت قيادة القوات المسلحة فى جمهورية مصر العربية أيضًا بمهارة الأداء، حتى أن بعض القادة لم يصدقوا أن الذين يقدمون هذه العروض هم من

---

(٩٠) إحدى الرقصات الشهيرة من باليه بحيرة البجع لبيوتر إيليتش تشايكوفسكى.

العسكريين. فكانوا يذهبون إلى الكواليس ويتحدثون إلى المشاركين من الهواة حتى يقتنعوا أن هؤلاء الفنانين من الشباب السوفييتى العادى.

كان النجاح بوجه عام هائلاً فوق توقعاتنا، والأمر الأهم أننا استطعنا أن نبعث بالحياة فى الوحدات، والآن هناك فرقة فنية من الهواة فى كل كتيبة عسكرية تمارس أنشطتها.

وقد قمنا أيضًا بتنظيم عمل الشعراء والكتاب الموجودين لدينا. فبدأنا بجمع أعمالهم على الآلة الكاتبة وأصدرنا الديوان الأول، الذى جمع بين دفتيه أشعار ستة وعشرين شاعرًا. ثم أصدرنا بعد ذلك الديوان الثانى بمشاركة خمسة عشر شاعرًا آخرين. وبمساعدة الصحفيين المعتمدين أقمنا ندوة شارك فيها هؤلاء الشعراء والكتاب من العسكريين وأصبح إصدار الصحيفة الأدبية وإقامة أمسيات أدبية ومسابقات لأفضل القصائد والمقالات يتم على نحو دورى. وفى الأمسيات الشعرية تم تنظيم لقاءات يلقى فيها الأدباء بكلماتهم فى الوحدات.

وقد أثرت هذه الفعاليات أيضًا الحياة الثقافية فى التجمعات العسكرية، وجعلت أوقات الفراغ فيها، أكثر متعة وساعدت على خلق جو أفضل للحياة. ويعود الفضل الأكبر فى تنظيم هذا العمل لمساعد رئيس القسم السياسى لشئون الكومسومول ج. أجماليان.

وقد عملنا على تنشيط العمل الجماعى الرياضى أيضًا، وأصبحت المسابقات الرياضية بين الألوية تقام بشكل منتظم، وفى الختام تقام مسابقة على مدى ثلاثة أيام فى أشكال النشاط الرياضى الإحدى عشرة كافة. وقد قدمت السفارة السوفييتية دعمًا كبيرًا فى تنظيم تلك الأيام الرياضية، فقد وفرت لنا الكرات والشباك والكؤوس وما إلى ذلك من أدوات. ودعمنا جهاز كبير المستشارين العسكريين.

وقد نال الفائزون أنواع التكريم كافة وفقًا للقواعد المعمول بها: تسلّموا الكؤوس والميداليات وشهادات التقدير، والتقطتْ لهم صور تذكارية سلمت لهم بعد ذلك. وقد تم إعداد لوحة خاصة تضم نتاج فعاليات الأيام الرياضية.

لقد أسهمت الأيام الرياضية، بطبيعة الحال، فى إضفاء حالة من التنوع على حياتنا اليومية، وأثارت الحمية الرياضية، وأشعلت الإحساس بالفخر والوحدة

وزادت من قوة الروابط بين أفراد الجماعة. وقد كان لبرنامج الترويح النفسى للمستوصف الوقائى الذى يتسع لستين فردًا، والذى جاء بمبادرة قائد الفرقة ى. م. بوشنياك على شاطئ البحر المتوسط مكانة خاصة. لقد كنا ندرك أن أطقم فرقتنا، الموجودة طوال اليوم تحت الشمس الحارقة فى الصحراء، يحتاج إلى فترات أطول من الاستجمام. وبعدما أصبح واضحًا أنه لن تكون هناك عمليات حربية ، قررنا أن ننظم أوقات الراحة بشكل دورى للأفراد، مع الاحتفاظ بالاستعداد القتالى الرفيع.

عثرنا على موقع مهجور للمدافع الساحلية عيار ٥٧ مم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، فلم يتوقف الأمر على سماح الجانب المصرى لنا باستخدام هذه المنطقة للعلاج الوقائى، بل إنه قدم لنا العون فى تنظيمها وتجهيزها بكل المطلوب. بالطبع كانت الظروف صعبة، لكن كان لكل من جاء للراحة مكان فى خيمة للنوم، كما كان بمقدور كل فرد أن يتناول طعامه فى المطعم، وأن يمارس الرياضة وعلى رأسها السباحة فى البحر. كنا ننظم لكل فوج رحلة إلى الإسكندرية يزور فيها الأماكن التاريخية والمتاحف ويشاهد المدينة (إذ أن الغالبية كانت تعيش فى الصحراء، ولم تشاهد المدن المصرية). كانت هذه الراحة تمتد أسبوعًا، ونجحنا من خلال العلاج الوقائى أن نستقبل الضباط والمتطوعين بعد انتهاء فترة تجنيدهم، والمتفوقين وأفضل الخبراء. أما بالنسبة للمجندين فقد كان الاستجمام فى مركز العلاج الوقائى أحد أشكال التشجيع.

إن ما ذكرناه سابقًا لم يكن يعنى أن طريقنا كان مفروشًا بالورود. للأسف كانت هناك أيضًا أشواك تمثّلت فى الأحداث المؤسفة التى وقعت وفى السلوك غير الأخلاقى والأمراض الخطيرة التى تركت جميعها أثرها على حياتنا.

فبسبب الإهمال والتقصير دفعنا ثمنًا غاليًا. هو حياة شباب فى مقتبل العمر، كان أمرًا فاجعًا ومؤسفًا أننا لم نتمكن فى حينه من تحذيرهم وإنقاذهم. وعلى الرغم من أنها كانت حالات فردية، وغالبًا ما كان المسئول عن وقوعها هوالشخص نفسه الذى لقى حتفه، ولكننا لم نكن لنبحث عن مبررات. لم أكن أود أن أختتم مقالى بهذه النبرة الحزينة، ولكن ما العمل، إنها أيضًا حقيقة الحياة التى لا مفر منها.

إجمالاً فقد انعكس العمل السياسى التربوى على نحو إيجابى فى معالجة المهام القتالية، وعلى وضع النظام والانضباط فى القوات المسلحة.

إن الفضل لا يعود لى فى التوصل إلى هذا الاستنتاج، وإنما يعود الفضل إلى الإدارة السياسية الرئيسية للجيش السوفييتى والأسطول البحرى الحربى، ومجموعة الجنرالات والضباط الذين عملوا إلى جانبنا وعلى رأسهم جنرال الجيش يبيشيف، فقد زاروا العديد من وحداتنا وفصائلنا، ودرسوا عمل التنظمات الحزبية والشبابية والهيئات السياسية للفرقة. وقد قدمت إلى الإدارة السياسية الرئيسية تقريرًا عن نتائج عملنا.

لقد حاز العمل الذى أداه القسم السياسى على تقدير إيجابى، لقد جرى تسليم المواد الخاصة بنا كافة: الخطط، المشاريع والبرامج والنتائج الإجمالية كافة وحتى دواوين الشعر، الصحف الأدبية والضوئية وريبيرتوار الأعمال التى قدمها الهواة إلى الإدارة السياسية العامة بغرض الدراسة والتعميم. وقد حاز القسم السياسى على تقدير رفيع للعمل الدؤوب الذى قام به كل عضو من أعضائه، وبخاصة نائب رئيس القسم المقدم س.ف.يكيمينوف وأمين اللجنة الحزبية المقدم ف.ن.بينسينسكى.

مرت الأعوام وتغير الوضع السياسى فى العالم وفى بلادنا، ثم رفع الحظر عن نشر عملياتنا، لنتحول من أشخاص مجهولين إلى جنود أمميين. وللأسف فقد تفرقنا فى دول مختلفة جراء سقوط الاتحاد السوفييتى، ولكننى على يقين أن الإيمان بالأممية، والإخلاص للوطن، والصداقة التى ولدت فوق رمال الصحراء، ستبقى أبد الدهر فى قلوبنا وستترك أثرًا عميقًا فى الحياة.

لم يتسن لنا إطلاق الصواريخ، أو قصف أهداف العدو الجوية، إذ لم يدخل هذا العدو إلى منطقة نيران كتائبنا، بل إنه لم يقم بأى طلعات منظمة على وجه العموم فوق الأراضى المصرية.

كانت المهمة القتالية الملقاة على عاتق فرقة الصواريخ المضادة للطائرات، هى عدم السماح للطيران الإسرائيلى بتنفيذ أى طلعات فوق أراضى جمهورية مصر العربية دون رد، وقد نجحنا فى تأمين الأهداف المهمة بشكل آمن وحيوى. كان

لوجودنا تحديداً والاستعداد القتالى الذى تحلينا به، والذى كان العدو على علم جيد به، والمساعدة العملية المستمرة للجانب المصرى فى وضع معداته على درجة رفيعة من الاستعداد، والتى كان لها أثر بالغ الأهمية فى حماية الجانب المصرى من الدخول فى عمليات قتالية.

إننا ونحن نعتد بالخدمة الناجحة اللائقة لطاقم الوردية الأولى لفرقة الصواريخ المضادة للطائرات، نفخر بأننا قد أدّينا مهمتنا الرئيسية، وهى منع الطلعات الجوية للطيران الإسرائيلى على المدن المصرية دون إطلاق النار أو إراقة الدماء.

إن التقدير الرفيع الذى منحته لنا القيادة قد أكّدته الأوسمة الحكومية لنا من جانب حكومتى الاتحاد السوفييتى وجمهورية مصر العربية. لقد تسلم مئات من الضباط والرقباء والجنود الأنواط والميداليات والشكر من قيادته ومن الجانب المصرى، وقد حصل كل مقاتل على لقب "مقاتل أممى" ومُنح "شهادة الشرف من مجلس السوفييت الأعلى بالاتحاد السوفييتى".

حدث بالفعل!

ن. ر. ياكوشيف

فى الشهر الثانى من خدمتى تمّ استدعائى إلى مقر الوحدة الخاصة، من بين أفراد وحدتى للتدريب العسكرى، كان هناك شخص وحيد لا أعرفه يرتدى الملابس المدنية. دعونى للجلوس، اطمأنوا على صحتى، ثم سألونى إذا ما كنت أتلقّى خطابات من الأهل، وهنا ساورتنى الشكوك: لابد أن أمرًا جللاً قد وقع هناك...

لكن مخاوفى بشأن الأسرة تبددت، كان سؤال الرجل بالملابس المدنية حول أخبار أسرتى مجرد أمر شكلى استعدادًا للدخول فى الحديث. على الرغم من أن أحدًا فى وحدتى للتدريب الخاصة لدفعتى لم يبادئنى آنذاك بحديث حقيقى.

قالوا لى: "نريد أن نلتقط لك صورة فوتوغرافية، لكنهم لم يفسّروا لماذا؟ على الحائط كانت هناك ملاءة بيضاء تستخدم كخلفية. حسنًا، التقطوا الصورة، أمّا أنا فرحت أضرب أخماسًا فى أسداس. إنه الشهر الثانى لى فى الخدمة فقط، لم أكن مميّزًا، كما أننى لم أرتكب إثمًا. كنت أشعر بالحرج أمام زملائى الذين راحوا يتساءلون: "لماذا استدعوك؟" بينما كنت اكتفى بالإجابة قائلاً: "لا أعرف، التقطوا لى صورة فوتوغرافية لا أكثر".

تذكرت هذه الحكاية الغريبة عن الصورة بعد مرور عدة أشهر. بعد انتهاء التدريب بالقرب من مدينة فينيتسا[٩١] وبعد أن حصلت على تخصص ميكانيكى فى السلاح الجوى، أرسلت إلى محافظة كالينينجراد ـ لم أستطع، إن صح التعبير، أن أتأقلم مع الفوج فأرسلت فى مأمورية إلى ريجا[٩٢]، كما شمل الأمر

(٩١) أوكرانيا.

(٩٢) عاصمة لاتفيا.

الصادر إلى قيادة المنطقة آنذاك خمسة عشر فردًا آخرين، التقينا جميعًا فى صالة الاستقبال. وهناك خمّنا للمرة الأولى أنهم سيرسلوننا بالأحرى إلى الحرب. لم يستمر الحديث طويلاً مع القائد الذى قال لى: "نريد أن نرسلك إلى منطقة العمليات العسكرية، لكن الأمر اختيارى، من حقك الرفض" ليس هناك أحد فى هذه اللحظة، كما عرفت فيما بعد، قد رفض الذهاب، لم يفكّر أحد فى خطورة الموقف، كان الأمر مثيرًا للاهتمام، وكان للغموض دوره: إلى منطقة العمليات العسكرية، ترى إلى أى منطقة تحديدًا، وبعد ذلك قالوا لنا "هذه مسئولية كبرى، لقد نلتم شرفًا كبيرًا أن تؤتمنوا على سر عسكرى". والآن بالأحرى لا يمكن أن يكون هناك رد فعل تجاه هذه الكلمات، إنما آنذاك...

ومرة أخرى تمّ توزيعنا على الوحدات لنكون تحت التصرّف. لم ننتظر طويلاً، فبعد شهر واحد سافرت إلى مدينة مارى التركمانية. هناك وقعت حادثة مثيرة للفضول. فبمجرد عبورى بوابة الوحدة العسكرية حتى هرع نحوى جنود من المقيمين هناك صائحين: "أعطنا هذه الشارات على سبيل الهدية، لن تكون بحاجة إليها هناك"

لم نكن بحاجة لا إلى الشارات فحسب، بل ولا إلى الزى العسكرى نفسه. وذات يوم تمت قيادتنا إلى أحد الهناجر وضعت بداخله صفوف من الملابس والأحذية من المقاسات كافة. أعطونا قائمة تحوى عدد القمصان والجوارب والأحذية... وقد سمح لكل فرد منّا الحصول على معطف خفيف، كما لو كنّا لا نعرف إلى أين سيرسلوننا. وقد تضمّنت القائمة القبعات أيضًا.

وفى اليوم التالى أجلسونا فى الطائرة المتجهة إلى منطقة العمليات العسكرية، ولم نعرف إلا والطائرة تحلق فى الفضاء أننا ذاهبون إلى القاهرة.

كنت أحد الخبراء العسكريين الذين أرسلهم الاتحاد السوفييتى بناءً على طلب من الرئيس جمال عبد الناصر، رئيس جمهورية مصر العربية، لإقامة درع واق ضد هجمات إسرائيل. كانت مهمة الروس تتلخص فى التغطية الآمنة لأهم المواقع فى الجمهورية وهى المصانع التى بنيت بمساعدة السوفييت وسد أسوان العالى وغير ذلك من المواقع العسكرية والمدنية.

وفى مطار جناكليس الحربى إلى حيث ذهبنا من القاهرة، كان بانتظارنا هناك حوالى مائة خبير سوفييتى أغلبهم من الطيارين والفنيين والميكانيكيين.

خصصت لى إحدى طائراتنا من طراز ميج - ٢١، وكانت تعد آنذاك من الطائرات التى دخلت إلى الخدمة حديثًا، وهى مزوّدة بصواريخ موجّهة ذات رءوس حرارية.

كان العمل شاقًا وخاصة عندما يقوم جناح جوى بالدوريات القتالية. على مدى اليوم كان من الضرورى أن يصل الاستعداد القتالى إلى الدرجة القصوى. كان الطيار يجلس فى كابينة الطائرة وبالقرب منه يجلس الميكانيكى والفنى متأهّبين لتأمين انطلاق الطائرات الحربية فى أى لحظة. من الناحية النفسية فقد كان البقاء لمدة أربع وعشرين ساعة فى توتر جهنمى أمرًا فائق الصعوبة، بالإضافة إلى درجة حرارة تصل إلى أربعينّ درجة مئوية، مع التهديد بلدغ الثعابين والعقارب، ناهيك عن الهوام الأخرى التى كانت تعج بها الصحراء.

كان الأمر يبدو أكثر يسرًا للجميع عندما كنا نقوم بالأعمال القتالية المنتظمة. كان الطاقم يدعّم الشكل القتالى، بينما كان الفنيون والميكانيكيون يظهرون مهارتهم الحرفية. كان كل ميكانيكى يعرف الطائرة التى يعمل على خدمتها بمجرد سماع صوت محرّكها وقبل أن يراها. وكنت أقول ها هى طائرتى تحلّق، إنها سعادة لا توصف أن تعى أن طاقم الطائرة قد أدّى واجبه وأن الطيار قد عاد سالمًا هو وطائرته. ولكن ينبغى الاّ تطيل التفكير إطلاقًا، وإنما عليك أن تسرع إلى الطائرة لتغيير الذخيرة والانتظار من جديد للانطلاق. طوال مدة خدمتى فى مصر، وعلى مدى ثلاثة عشر شهرًا حافظ طاقمنا على طائرته وعدنا جميعًا إلى الوطن سالمين.

كانت معظم خسائرنا أساسًا من الطيارين، وقد تسنّى لى المشاركة فى عمليات "التنقيب". هكذا كنا نسمى عملية البحث عن أجسام رفاقنا الذين لقوا حتفهم، على الرغم من أنه لم تكن هناك أية أجسام فى الواقع. عادة ما كانت تتكون حفرة كبيرة فى موقع سقوط الطائرة، وكان البحث ينحصر فى أن نجد

وسط الرمال أجزاء من الطائرة، وأجزاء من الجسد، بقايا من الملابس... بل إننا لم نكن نعلم إلى أى بيت روسى سوف نحمل الأخبار الحزينة.

لم يدر بخلد أى منا أى شكوك حول ضرورة دخول الجانب الروسى فى هذا الصراع، كنت أؤمن آنذاك مثلى كالآخرين، أننى أؤدى واجبى الأممى، وفى تلك الفترة بعيدًا عن الوطن، فى تلك الظروف شديدة الخطورة، كانت هناك حقيقة واحدة تجمع بيننا، واجبنا تجاه الوطن. وسواء أكان المرء يحمل رتبة رقيب أو رتبة عقيد فقد كنا جميعًا إخوة لا تميز بيننا الرتب والشارات، بل حتى لم يكن يسمح لنا بالتخاطب مع ذكر الرتب.

كان باستطاعة كل منا السفر إلى القاهرة أوالإسكندرية مرة واحدة كل شهر، كانوا يدفعون لنا بالجنيه المصرى مقابل تنفيذ واجبنا الأممى، ولكن العملة الصعبة كان يتم تحويلها أساسًا إلى شهادات بنكية وشيكات. وحتى فى جناكليس البعيدة كانت السلع المعروضة فى محلات البيريوزكا[٩٣] فى موسكو وأسعارها. فى الأيام الأخيرة من الخدمة فى مصر، وفى أثناء رحلتى إلى القاهرة بصحبة اثنين من رفاقى وقعت لنا حادثة طريفة. فقد وقعنا فى أسر المصريين الذين جئنا لندافع عنهم. كنا نسير ونحن نرتدى الملابس المدنية ولم تكن معنا وثائق تدل على شخصياتنا، ثلاثة أيام قبيل عودتنا للوطن، ومعنوياتنا مرتفعة، رحنا نتجول فى مدينة القاهرة، ونلتقط الصور التذكارية، وقررنا أن نلتقط صورة تذكارية على خلفية أحد التماثيل، وقد تبيّن لنا أن المبنى الواقع خلف التمثال، هو مبنى الأركان العامة للقوات المسلحة المصرية. كانت البلاد فى حالة حرب، وها هم يمسكون بأناس ليس لديهم وثائق شخصية، وفى الفيلم صوة لمبنى الأركان العامة للقوات المسلحة. أخذونا إلى مكان ما، وأحضروا مترجمًا، تبين أنه من زملائنا، وبعد أن عرف ما حدث، نجح فى أن يهمس لنا قائلاً: "وقعتم فى مشكلة كبيرة، حاولوا تعريض الفيلم للضوء، نجحنا بمعجزة فى تعريض الصور الأخيرة للضوء، الأمر الذى نجونا بفضله. تأخرنا على رفاقنا، وأخذونا بعد ذلك إلى السفارة السوفييتية حيث تحدث معنا السفير فلاديمير ميخايلوفيتش فينوجرادوف،

---

(٩٣) محلات البيريوزكا: المحلات التى كانت تباع فيها السلع الأجنبية والروسية بالعملة الصعبة.

وأرسلنا فى سيارته إلى مجموعتنا، التى لم تفقد الأمل فى عودتنا، لم نخبرهم عما حدث لنا قبل نهاية المهمة الخاصة. وفى يوم سفرنا رافقنا السفير فينوجرادوف حتى الطائرة، ابتسم لنا آنذاك قائلاً: "حسنًا أيها المصورون، والآن إلى الوطن".

عدنا إلى الوطن عن طريق مدينة "لفوف"، وهنا فى لفوف أعطونا زيًا عسكريًا كنا قد استبدلناه قبل سفرنا إلى القاهرة بملابس مدنية. كم من الوقت مضى منذ أن سافرنا، ولكنهم لم ينسوا أمره، حيث كانوا يعملون بدقة. هناك عرفت المعايير التى يتم بموجبها اختيار الأفراد للمهام الخاصة. كانوا يختارون بطبيعة الحال الخبراء المتميزين، الأصحاء، وألا يكون ابنًا وحيدًا لأسرته. بعد أن عدنا للوطن، لم نكن نتحدث إطلاقًا عن الحرب، قالوا لنا: "الزموا الصمت"، ـ وقد التزمنا الصمت.

بالنسبة لى فقد قررت آنذاك، أن ما قمت به كان عملى، وقد أديته بشرف. هذا كل ما فى الأمر. نحن الآن فى السبعينيات، كل شىء على ما يرام فى الاتحاد السوفييتى، أود ببساطة أن أنسى الحرب...

لكن الذاكرة والصور الفوتوغرافية دائمًا ما تذكرنا بهذه الحرب البعيدة. لقد سقط هذا العام الذى قضيته فى مصر من مايو ١٩٧١ وحتى يونيو ١٩٧٢ من بطاقتى العسكرية كأن شيئًا لم يكن، ولكن ذلك العام بالنسبة لى لم يكن ضربًا من الخيال فقد حدث ما حدث بالفعل.

المؤلفون فى سطور

مجموعة من المستشارين والخبراء العسكريين والضباط وصف الضباط والمترجمين العسكريين السوفييت من مختلف الرتب وغيرهم الذين عملوا فى مصر؛ لتجهيز القوات المسلحة المصرية وتدريبها حتى حققت انتصارها فى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣. وقد روى كل مؤلف عن نفسه فى المقال الذى حرره فى هذا الكتاب.

المترجمان فى سطور

١ . أ. د/ على فهمى عبدالسلام

ـ من مواليد الإسكندرية عام ١٩٤٧

ـ له أكثر من ٧٠ بحثا علميا منشورا بالمؤتمرات والمجلات العلمية العالمية، وأكثر من ٥٠ كتابا علميا مؤلفا ومترجما، وعددًا من القواميس العلمية متعددة اللغات، وعددًا من الكتب الأدبية والتاريخية مترجمة من الروسية ومنشورة بالمشروع القومى للترجمة، ثم المركز القومى للترجمة. وتولى الترجمة الفورية فى العديد من المؤتمرات الدولية.

ـ رئيس جمعية تنمية العلاقات الثقافية والعلمية مع روسيا وجمهوريات الاتحاد السوفييتى السابق منذ إنشائها فى عام ٢٠٠٦ وحتى الآن.

ـ رئيس الجمعية السكندرية لخريجى المؤسسات التعليمية الناطقة باللغة الروسية.

ـ عضو الأكاديمية العلمية لعلوم البيئة وحماية الإنسان والطبيعة، وجمعية التنمية الصناعية، وجمعية علوم الجوامد، وجمعية التآكل ولجنة بحوث الصناعات المعدنية بأكاديمية البحث العلمى، وعضو شرف بمجلس المستشارين بالمعهد الأمريكى البيوجرافى.

٢ ـ د. أنور محمد إبراهيم

ـ ليسانس الألسن قسم اللغة الروسية لسنة ١٩٧٠، ماجستير ثم دكتوراه

الفلسفـة فى فقـه اللغـة والأدب جامعـة موسكـو ـ كلية العلوم الإنسانية ـ قسم تاريخ الأدب الروسى سنة ١٩٨٣.

ـ تدرج فى وظائف مترجم بالعلاقات الثقافية الخارجية بوزارة الثقافة، مدير إدارة المهرجانات الدولية بقطاع العلاقات الثقافية الخارجية بوزارة الثقافة، مدير عام، وكيل وزارة رئيس الإدارة المركزية للاتفاقيات والبرامج الثقافية من ١٩ فبراير ٢٠٠٢ حتى ١١ إبريل ٢٠٠٦، وكيل أول الوزارة ورئيس قطاع العلاقات الثقافية الخارجية اعتبارًا من إبريل ٢٠٠٦، حتى أصبح الآن: مستشار العلاقات الثقافية الخارجية بوزارة الثقافة.

ـ عمل بالترجمة التتبعية والفورية فى المؤتمرات والمفاوضات التى تنظمها رئاسة الجمهورية وبوزارتى الخارجية والتعاون الدولى بين مصر ودول الاتحاد السوفييتى السابق.

ـ حصل على وسام الشرف من روسيا الاتحادية عام ٢٠٠٥ لجهوده فى دعم العلاقات الثقافية بين جمهورية مصر العربية وروسيا الاتحادية.

ـ نشر العديد من المقالات والأبحاث حول الأدب والاستشراق الروسيين.

ـ ترجم عن الروسية:

- تطور الفكر الاجتماعى العربى من سنة ١٩١٧ حتى ١٩٤٧.
- العربية السعودية والغرب.
- الإمبراطورية العثمانية وعلاقتها الدولية فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر.
- تاريخ القرصنة فى العالم.
- الاستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين.
- نماذج من النقد الروسى الحديث.
- مسرح الفنان فى روسيا وألمانيا.
- العديد من المقالات النقدية والاجتماعية والسياسية فى الدوريات المختلفة.

المراجع فى سطور

أوليج ايفانوفيتش فومين.

ـ ممثل المركز الروسى للتعاون العلمى والثقافى الدولى التابع لوزارة الخارجية الروسية، والمدير العام للمراكز الثقافية الروسية، ومستشار سفارة روسيا الاتحادية فى ج. م. ع اعتبارا من عام ٢٠٠٢ حتى يوليه ٢٠٠٦.

ـ عمل فى الوظائف التالية فى الفترة من ١٩٦٦ الى ٢٠٠٢: مشرف لجنة منظمة الشباب ـ مسئول عن العلاقات مع البلدان العربية (مدينة موسكو)، ممثل اتحاد جمعيات الصداقة السوفييتية ـ مدير المركز الثقافى السوفييتى فى الجمهورية العربية السورية ـ السكرتير الأول لسفارة الاتحاد السوفيينى فى الجمهورية العربية السورية، مستشار قسم الدعاية السياسية الخارجية للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى ـ مسئول الإعلام عن البلدان العربية، مستشار المركز الصحفى، كبير الخبراء للشركة السورية الروسية المتحدة "ليكسيكا"، ممثل المركز الروسى للتعاون العلمى والثقافى الدولى ومدير المركز الروسى للعلوم والثقافة والسكرتير الأول لسفارة روسيا الاتحادية فى جمهورية تونس.

ـ عضواتحاد الصحفيين الروسى.

ـ عضواتحاد المترجمين الروسى.

ـ نشر له ٦ كتب وكتيبات وأكثر من ٤٠٠ مقالة عن: قضايا حركة التحرر الوطنية العربية: نزاع الشرق الأوسط، نضال الشعب الفلسطينى، العلاقات الروسية العربية.

ـ ترجم رواية "تغيان" للكاتب محمد إبراهيم على (سورية) وعددًا كبيرًا من المقالات الصحفية.

التصحيح اللغوى: محمود حنفى
الإشراف الفنى: حسن كامل



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب